إصدار متميز
Special Edition

روايات
د. نجيب الكيلاني
من روائع الأدب الإسلامي



مذكرات الكيلاني

Al Kelani Diary

Dr. Naguib Al Keilany

عبد الرحمن

روايات

د. نجيب الكيلاني

من روائع الأدب الإسلامي



مذكرات الكيلاني

Al Kelani Diary



دار الصحوة للنشر والتوزيع
5 عطفة فريد من شارع مجلس الشعب
السيدة زينب - القاهرة
تليفون 0020223937718
تليفاكس 0020223937767
بريد إلكتروني

Design by Abdul Rahman Magdy

مذكرات
الدكتور نجيب الكيلاني

تأليف
د . نجيب الكيلاني



الطبعة الأولى

1437هـ - 2016م

رقم الإيداع

2015/13259

الترقيم الدولي

978-977-255 - 464 -4



القاهرة - تليفاكس: 0020242146060
موبيل: 00201114520485
daralsahoh@gmail.com

المقدمة

إن ملامح أي عصر من العصور، في أية منطقة من العالم، تتحدد من خلال معطيات الثقافية، وأوضاعه الاجتماعية والاقتصادية، وإنتاجه الفني، ووقائعه السياسية، هذا هو الأساس، لكن يظل النموذج «الفرد» بكل ما يفكر فيه وينفعل به، ويمارسه من قول وفعل، ويعتنقه من عقيدة أو فلسفة، ويمر به من تجارب وأحداث، يبقى ذلك النموذج «الفرد» تعبيرًا حيًّا عن زمنه ومكانه، وتتفاوت أهمية الأفراد تبعًا للأدوار التي يؤدونها في حياتهم، فالسياسي نموذج في جانب من جوانب تلك الحياة، وكذلك المهندس والطبيب والصحافي والفلاح والصانع والتاجر ورجل الأعمال، لكن يبقى الفنان - أديبًا أو رسامًا أو ممثلًا - صورة نابضة لواقع الفترة الزمنية التي يعيشها، والبيئة التي يتحرك فيها، إذا صدق في تعبيره، وامتلك الأداة الناجحة للترجمة عن الأفكار والمشاعر والأحداث.. من هنا جاءت أهمية السيرة الذاتية، التي تحتل حيزًا كبيرًا في أدبنا المعاصر، فكاتب السيرة المفيدة حقًّا هو بمثابة بؤرة تلتقي وتتجمع عندها سمات الحياة وأحداثها وردود أفعالها، وكلما نجح الكاتب في دقة التعبير عن نفسه وزمانه ومكانه وأحداثه، كلما اكتسبت السيرة الذاتية أهمية خاصة، ولا يقف الأمر عند حد السيرة الذاتية، بل إن القاص الذي يبدع في رسم شخصيات قصصه، ويتعمق أحلامها وهواجسها وأفكارها، ويتقن تصوير العلاقات المتشابكة التي تربط الشخصية بما يحيط بها من مؤثرات، ذلك القاص يلعب دورًا كبيرًا في إبراز ملامح العصر المميزة، ويساهم في إثراء التاريخ والرصد المتشعب الواسع لحركة الحياة.

قضية أخرى جديرة بالنظر، هل «القيمة العلمية والفكرية» للسيرة الذاتية، ترتبط بالمكانة الاجتماعية أو السياسية أو العلمية التي يعتقدها صاحبها؟ هذا أمر شائك، فما أكثر الزعماء والقادة الذين يزيفون الوقائع، ليبرئوا أنفسهم من اتهامات ألصقت بهم، أو انتقادات وجهت إليهم، أو شوائب أخلاقية علقت بهم، إنها مشكلة عامة، وعيب كبير، يضر بالقيمة الحقيقية لما تسفر عنه السيرة الذاتية، وهناك فئة أخرى من كتاب السيرة الذاتية، ليس لديهم القدرة الفنية، ولا الأداة السليمة، للتعبير الصادق الصحيح، ثم ندلف إلى الفئة الثالثة التي لا تعرف

لعملها في كتابة السيرة الذاتية هدفًا سوى اكتساب المزيد من المجد والشهرة، بل والمال أيضًا، ومن المعروف أن مؤسسات النشر الكبرى تلهث وراء الشخصيات المرموقة، وتستحثها لكتابة المذكرات، بل إن بعض هذه الشخصيات تلقي «بالمادة الخام» والوثائق والمستندات والأحداث أمام من يستطيع أن يبدع في الصياغة، أو يجيد في بلاغة التعبير، فينوب عنها في تسجيل تلك الأحداث والمشاعر والأفكار، وقد تخرج أبعد ما تكون عن واقع تلك الشخصيات وانفعالها، إنها صناعة جديدة «أو قل تجارة رابحة» في عالم المذكرات والسير الذاتية، وهي طريقة لا شك تضر بالحقيقة وتسلبها أعز ما تملك من صدق وأمانة.

أما الأمر التالي الذي لا يمكن تجاهله فهو الظروف السياسية التي يعيشها العالم، وهي ظروف أقل ما يقال فيها أنها مدعاة للخوف والقلق والترقب، فهناك قوى خفية وظاهرة، تحد من حرية الرأي، وأمانة التعبير، فالكاتب يكتب، وسيوف القهر والتهديد مسلطة فوق عنقه، ولا أراني في حاجة لحصر الكتاب الذين لاقوا حتفهم اغتيالًا، أو ألقى بهم في غياهب السجون، أو أجبروا على حياة المنافي، أو حوربوا في أرزاقهم، بل تتعداهم اللعنة إلى زوجاتهم وأبنائهم وأسرهم.. إن الحرية الحقيقية.. حبر على ورق.. حتى في أوروبا وأمريكا.. ولذلك نرى بعض كتاب السير الذاتية -إن لم يكن أغلبهم- يسقطون بعض الأحداث المهمة، أو يغضون الطرف عن وقائع أساسية، أو يقدمون الحقائق من لفائف كثيرة من المراوغة والدهاء والرمز والبتر، مما يجعلها عويصة الفهم، واهنة التأثير، وتوقع المحللين والدارسين في تيه من التخمينات والتوهمات، وربما لا تقطع بشيء محدد ذي قيمة..

إن القيود كثيرة، والعقبات عديدة..

وأنا هنا أحاول أن أقتطف لمحات من حياتي.. ربما يكون فيها شيء من الفائدة، والواقع أنني لم أفكر في كتابة سيرة ذاتية من قبل، فقد كنت أعتقد أنها من حق الأعلام البارزين وحدهم، أولئك الذين تركوا آثارًا بارزة على أحداث التاريخ، أو بصمات واضحة على حركة الحياة، لكنني أمام رغبات ملحة من بعض الأبناء الأعزاء في الدول العربية والإسلامية، تطالب بكتابة شيء عن حياتي حتى يستعينوا بها، وهم يعدون رسالات الماجستير والدكتوراة في عدد من الجامعات، بخصوص «الأدب الإسلامي» وبالذات حول الروايات الإسلامية المعاصرة التي كتبتها منذ سنوات، باعتبارها تطبيقًا عمليًا لما دعوت إليه في كتابي «الإسلامية

والمذاهب الأدبية» و«حول الدين والدولة» ومن طبيعة الأطروحات التي تقدم في الجامعات أن تشمل جانبًا عن حياة الكاتب، ويحتاج الدارس في مثل تلك الأحوال إلى نصوص مؤكدة، عن الكاتب وحياته وتجاربه ومؤلفاته ووجهة نظره، ولقد رأيت أنه من واجبي نحو هؤلاء الأبناء الأعزاء، والأصدقاء الأحباء، أن أسجل تلك اللمحات، آملًا أن يجدوا فيها شيئًا من الفائدة، وأن تساهم بقدر متواضع في مسيرة «الأدب الإسلامي» الذي ندعو إليه بإصرار ويقين.

وحينما استعرضت حياتي الماضية التي ناهزت الثانية والخمسين، وجدت فيها أحداثًا بارزة، وثيقة الصلة بكبريات الأمور في مسيرة الدعوة الإسلامية المعاصرة..

نعم.. ولدت في قرية تعاني القهر والحرمان والمرض والجهل في دلتا مصر.. وانخرطت في سلك دعوة «الإخوان المسلمين» واكتويت بنيران العذاب والاغتراب والقلق الطويل.. فكانت سنوات السجن الحارقة مؤذنة بميلاد جديد..

وقضيت في إمارات الخليج العربي -حتى الآن- ما يقرب من ستة عشر عامًا كانت حافلة بالتجارب والرؤى والممارسات.

واختلطت بالعديد من الشخصيات.. وزراء.. وكتاب.. وصحافيين.. ورجال أعمال.. من شتى الجنسيات، وزرت العديد من الدول العربية والإسلامية والأجنبية.. كما شاركت في مؤتمرات أدبية وعلمية متنوعة..

وحياتي الطبية هي الأخرى كانت ثرية بالكثير من الممارسات..

ولقد قضيت أكثر من ثلاثين عامًا في الكتابة... جمعت بين الشعر والقصة القصيرة والرواية والبحوث.. كما شاركت في الكتابة لبعض المجلات والصحف تربو على العشرين، كما ترجمت بعض كتاباتي إلى لغات أجنبية..

الواقع أن سنوات الشباب وما بعدها كانت عاصفة حافلة بالأحداث، لم أكن بعيدًا عما يجري منذ عصر «فاروق» حتى عهد «السادات»، ولم أتوقف عن العمل الأدبي إلا في السنوات الثلاث الأخيرة لظروف تتعلق بطبيعة عملي وحياتي الخاصة، وتجربتي هي تجربة عشرات.. بل مئات الألوف من أبناء جيلنا.. مع تميز كل تجربة بخصائص ذاتية لابد منها..

إن فترات الأزمات الطاغية التي عشناها لم تكن لتحتمل.. لولا الإيمان بالله.. ولولا الأمل الحي النابض في القلوب.. والذي لا يموت أبدًا في قلب المؤمن.. وهذا هو السبب الوحيد في الإفلات -مؤقتًا- ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾ [الجمعة:8].

وبعد..

تلك مقدمة لابد منها قبل أن نبدأ في اصطياد «لمحات» من حياة مسلم.. فلاح.. طالب علم.. طبيب.. سجين.. مهاجر.. صديق للقلم.. عاش في الثلثين الأخيرين من القرن العشرين الميلادي.. وليس لهذه اللمحات قيمة سوى أنها من «شاهد» على عصره ﴿وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ [البقرة:283].

دبي في 2-10-1983م

27 من المحرم 1404م

الدكتور نجيب الكيلاني

***

الجزء الأول

[1]
قرية شرشابة



تقع قرية شرشابة على بعد عشرين كيلو مترًا من مدينة طنطا المعروفة، وتعتبر طنطا أكبر مدن الوجه البحري باستثناء الإسكندرية ثغر مصر التاريخي العريق، وكانت قريتنا في الماضي في منطقة زراعية شبه منعزلة، فلا يمر بها مثلًا قطار السكة الحديد، ولا طرق الحافلات أو سيارات الأجرة، وكانت الوسيلة الوحيدة للانتقال في أوائل الثلاثينيات، من القرن العشرين هي الحمير أو عربات الكارو، أما المدن الثلاثة الشهيرة التي كان يقصدها القادرون من أبناء القرية في تلك الأيام فهي طنطا وفيها مقر محافظة الغربية، و«زفتى» وكانت المركز، والمحلة الكبرى القلعة الصناعية لمنسوجات الأقطان. وأرض شرشابة خصبة، تجود بالمحاصيل الوفيرة من قطن وقمح وذرة وفول وخضراوات متنوعة وقليل من الفواكه، كما كان يزرع الأرز في بعض مناطقها، لكن ثمن القطن هو عماد الحياة الاقتصادية آنذاك، فمنه يشتري الفلاح ملابسه وضروريات حياته، ولا تقام الأعراس والأفراح والموالد إلا في موسمه.

لم يكن في قريتنا إقطاع يذكر، لكن كان هناك بعض كبار الملاك القليلي العدد، وكانت ملكياتهم تتراوح بين 10-100 فدان، ولم يكن هؤلاء «الأغنياء» -كما كان يطلق عليهم- إقطاعيين بالمعنى الصحيح، وإن اتسمت تصرفاتهم بقدر غير قليل من التجبر والاستغلال والاستبداد، فقد وجد في تلك القرية ملكيات «الخواجات» يوناني الجنسية، ووقف السيدتين «حكمت هانم جنيد، وسعاد هانم جنيد»، بالإضافة إلى حوالي عشرة آخرين من أهالي القرية يمتلكون من 10-30 فدانًا.

وهناك نسبة كبيرة لا يمتلكون شبرًا من الأراضي الزراعية، فكانوا يشتغلون كأجراء، أو يستأجرون فدانًا أو أكثر ليتعيشوا من زراعته، ويقضون أعمارهم في ضيق وصبر دون الكفاف من الرزق، أما صغار الملاك الذين يحوزون جزءًا من الفدان أو فدانًا أو أكثر، فقد كانوا لا شك أفضل حالًا من المعدمين والمستأجرين على الرغم مما يكابدونه من فقر ومشقة.

وكنا ونحن أطفال نرى الشاحنات الكبيرة تأتي في مواسم معينة من العام، ثم يحشر فيها مئات الفلاحين، ويحملون إلى مناطق بعيدة يطلقون عليها «الوسايا» حيث الإقطاعيات الكبيرة خارج حدود المحافظة، وهناك يقضون شهرًا أو شهرين في العمل الشاق، سواء في زمهرير الشتاء، أو في قيظ الصيف، ثم يعودون بقروش قليلة، وأمراض كثيرة، هؤلاء هم عمال التراحيل التعساء، الذي يسافرون وليس على أجسادهم إلا الملابس المهترئة، وجوال به أرغفة جافة قاتمة، وكثيرًا ما كان البعض منهم يقضي نحبه، ثم يطويه النسيان إلى الأبد.

ويبعد عن قريتنا تفتيش للخاصة الملكية ولإسماعيل باشا صبري والملكة نازلي، وهو يتبع مركز «السنطة»، ويفصل قريتنا عنه «بحر شبين» العذب، وبضعة كيلو مترات لا تزيد عن الثلاثة، ولا يمكن العبور إلى شاطئ ذلك الإقطاع إلا عن طريق القوارب أو المراكب الصغيرة المثبتة لدى الضفتين بجنازير حديدية متينة.

والمؤسسات التعليمية في قريتنا آنذاك هي المدرسة الأولية (الإلزامية) التي تفتح أبوابها للبنات صباحًا، وللبنين ظهرًا، ثم مكاتب تحفيظ القرآن التي يتعلم فيها الطفل القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم على يدي فقيه القرية الذي يؤدي ذلك كله، مقابل مبلغ زهيد جدًا، وقد يكون الأجر مجرد رغيف من الخبز يحمله الطفل معه يوميًا إلى سيدنا..

من هاتين المؤسستين تخرجت أعداد كبيرة من أبناء القرية، وواصلوا مراحلهم التعليمية في الأزهر الشريف والمدارس والجامعات، وأصبح منهم العلماء والأطباء والمهندسون والمحامون وكبار ضباط الشرطة والمعلمون وأساتذة الجامعات وغيرهم.. وعلى ما أذكر فقد كان في هذه القرية الكبيرة نسبيًا (خمسة آلاف نسمة آنذاك) جهازان للراديو، يتجمع حولهما المحظوظون في ليالي السمر، وقد يسمح لأطفال «مكتب تحفيظ القرآن» في بعض المناسبات بالجلوس في خشوع قرب نافذة الحجرة التي تضم الراديو «كي يستمعوا إلى أغانٍ حلوة أذكر منها -عند تنصيب فاروق ملكًا- أغنية:

ملـــــك الملـــــوك يـــــا زيـــــن

يـــا فاروقنـــا يـــا نـــور العـــين

وأغنيات أخرى عن حياة الفلاح الجميلة، ولقمة عيشه الهنيئة، وحياته الهادئة السعيدة، وأناشيد وطنية حماسية تشعل المشاعر وأحاديث دينية وثقافية لا نكاد نفهم منها شيئًا..

ومن أهم المناسبات في القرية الحفل السنوي لشاعر الربابة، وحفلات موالد الأولياء والأعياد والمولد النبوي وليلة الإسراء وعاشوراء والهجرة النبوية، ثم مولد «السيد البدوي» في طنطا الذي يحظى بأهمية خاصة لدى عامة الفلاحين..

كان شاعر الربابة «السيد حواس» يأتي في موعد محدد، وكانت تقام له منصة في قاعة واسعة، يؤمها خلق كثير، يفترشون التراب، ويجلسون في خشوع يستمعون إلى تقاسيم الربابة الساحرة، وإلى قصص أبي زيد الهلالي ودياب بن غانم، والجازية وناعسة وعزيزة ويونس وكانت مشاعرهم تلتهب عند المواقف البطولية الحاسمة، والمواقف المشحونة بالعواطف والانفعالات، فتنشق حناجرهم عن هتافات صاخبة، ويلوحون بأيديهم في حماسة بالغة، تعبيرًا عن إعجابهم واستجابتهم، ونفس الشيء كان يحدث بالنسبة لمن اشتهروا بأصواتهم الجميلة في غناء «المواويل»، وللموال مكانة كبيرة في نفوس الفلاحين، وهو صورة شبيهة «بالملاحم»؛ إذ يروي المغني -صاحب الصوت الجميل المؤثر- قصة مثيرة، كقصة الأدهم الشرقاوي «والشاويش متولي» وغيرهم، وهي مواويل في مجملها تتغنى بالفضيلة والشجاعة والأخذ بالثأر، والقيم المتأصلة في ذلك المجتمع. وكانت القرية تحتفل بمقدم أي مقرئ شهير للقرآن في أي مأتم من المآتم الكبيرة، ويحتشدون لسماع آيات الذكر الحكيم، ويطربون أيما طرب للصوت الأخاذ المؤثر.

ولا أستطيع أن أنسى في هذا المقام طائفة «الغوازي»، وهن مجموعة من النساء المتبرجات المتزينات، يلبسن الملابس الحريرية الضيقة الصارخة الألوان، ويفرضن أنفسهن فرضًا على أفراح الريف، فيأتين -كثيرًا دون دعوة- ليرقصن ويغنين، ويضربن بالدفوف، ويتّسمن بالأغاني الخليعة، والحركات المائعة، وقد كان بعض أهالي القرية يرفضون مشاركتهن، ويتكرمون عليهن ببعض المال حتى ينصرفن فقد كانت بعض الطبقات المرفهة الثرية تحرص على استحضار بعض الراقصات في أفراحهم بأجور مرتفعة، وعلى الرغم من أنها حفلات

شبه خاصة، إلا أن الفلاحين كانوا يندسون بينهم، ويغامرون بالاندفاع لرؤية تلك المشاهد الغريبة المثيرة التي لم يألفوها. ولا يكاد يمر يوم إلا ونرى «الغوازي» وأتباعهن يجوبون شوارع القرية، ولعل السبب في ذلك أنهم كانوا يفدون من قرية قريبة وهي «كفر العرب» المتلاصقة لقرية سنباط الشهيرة، حتى إنهم كانوا ينسبون إلى «سنباط» أساسًا، وهناك فيلم سينمائي اسمه «غازية من سنباط» للمخرج سيد زيادة سجل هذه الظاهرة.

الواقع أن غالبية النساء العاملات في هذه «المهنة» من الفقيرات اللاتي لا يكدن يجدن لقمة العيش، أما الموالد فقد كانت متعة ثرية العطاء بالنسبة للفلاحين عمومًا، حيث كانت تقام حلقات الذكر؛ إذ يقفون صفوفًا مستطيلة أو مربعة أو مستديرة، ويقف المنشد ليترنم بالمدائح النبوية، ومناقب الصحابة، وكرامات الأولياء في إيقاع ينسجم مع حركة الذاكرين الذين يتطوحون يمنة ويسرة، أو أمام وخلف، ويتنامى الإيقاع ويتلاحق ويتسارع، فتشتعل حركة الذاكرين، ويصرخون عشقًا ولوعة، ويهتفون بأعلى أصواتهم «حي.. حي.. يا الله.. مدد يا رسول الله.. مدد يا حسين.. مدد يا أم هاشم..» [1].

ولا يقتصر الأمر على حلقات الذكر، وغناء المنشدين العذب، بل يتعداه إلى مواكب تطوف أنحاء القرية، حيث تنتصب البيارق والرايات الخاصة بمختلف الطرق الصوفية، وتضرب الطبول ويعلو صوت الناي والأرغول، ويدقون آلات نحاسية ذات لحن مميز، ويختلط ذلك كله بزغاريد النساء على الجانبين وفوق الأسطح، وهي مناسبات كان الناس يسعدون بها في الواقع فيمرحون، ويأكلون اللحم والثريد، ويسهرون حتى وقت متأخر من الليل، وتظل القرية منتشية بهذا اللون من الترفيه والمتعة لفترة غير قصيرة من الزمن، فترى الأطفال يعيدون ترتيل ما حفظوه من عبارات وأغان، وهم يلهون ويلعبون في نور القمر، في حارات القرية وشوارعها أو عبر الحقول، أو على شطآن الترع.

وما زلت حتى الآن أحفظ الكثير من تلك الأغاني والأهازيج الشعبية والمدائح النبوية والملاحم والأشعار، فقد كنت أذهب إلى سوق القرية وأشترى مطبوعات صغيرة فيها ملحمة الأدهم الشرقاوي والمدائح النبوية والسير الشعبية عن الهلالية وغيرهم..

ومن الأغاني التي كنت أعجب بها أيما إعجاب، مقطوعات أذكر منها:

---

(1) إن ما يرويه المؤلف، وقائع تاريخية لا دخل لها بالمعتقدات. (الناشر).

حـــب الحـــسن والحـــسين في مهجتـــي ســـاكن

وحـــب طـــه النبـــي جـــوا الحـــشا ســـاكن

يا ما نفسي أزورك يا نبي واقعد حداك ساكن

وأشـــوف حمـــام الحمـــى حـــول المقـــام ســـاكن

وأغنية أخرى تقول:

عـــلى شـــط بحـــر الحقيقـــة نـــاس صـــيادين

متعممـــين بالـــشبك، في الأصـــل صـــيادين

يـــا مـــدعي الكـــبر هـــو الكـــبر عـــلَّا مـــين

الكبر يا ما خفض ناس كانوا علما وعلامين

فرعـون لمـا طغـى وحـاز ا الكـبر عـلى العـالمين

إبلـــيس لمـــا غـــواه، كـــان لـــلى غـــره مـــين؟

وثالثة تقول:

رن القـــدح يـــا ســـليمى كلمـــي ســـيدك

إلـــلى عطـــاك رضـــاه والنـــور في إيـــدك

... إلخ. هذا ومن أشهر المنشدين في منطقتنا في تلك القرية «محمود عبد الهادي» الشهير بمحمود الدبوس، والشيخ عزب، والحاج رمضان، ومن أشهر شعراء الربابة «السيد حواس» الذي مات منذ عهد قريب، بعد أن قدم الكثير في الإذاعة، ولم يزل في قريتنا امرأة عجوز كانت في تلك الأيام البعيدة مطربة شهيرة جميلة، لا أذكر من أية قرية أتت، لكنها تعيش اليوم مصابة بالفالج، ولا تكف عن ترديد ذكريات شبابها وغزواتها..

وكما قلت فقد كانت قريتنا تستعد استعدادًا حافلًا لمولد سيدي أحمد البدوي في طنطا، وكان مولده يستمر أكثر من أسبوعين، حيث تتعطل الدراسة في المعهد الديني، ويخرج الفلاحون – بعد جمع محصول القطن وبيعه- أفواجًا أفواجًا، وهم يركبون الجمال والحمير، حاملين معهم خيامهم وزادهم ونساءهم وأطفالهم، ثم يعيشون في الخيام التي يقيمونها في

الساحة الكبيرة، أيامًا وليالي ممتعة، إلى جوار السيرك والمسارح ومختلف الألعاب السحرية والرياضية ولعب الحظ التي لا تخرج عن كونها نوعًا من المقامرة، والأسواق المختلفة، وحلقات الذكر، ومحاضرات وزارة الأوقاف، ورقص الغوازي، ومواويل المغنين، ومواكب المتصوفين، وزفة الخليفة، في خليط عجيب غريب من المشاهد والألوان.. وفي خضم ذلك الحشد الذي فاق أخيرًا أكثر من مليون ونصف نسمة، تسمع العجائب عن كرامات «السيد» وتاريخه وبطولاته.

ولم تخل قريتنا من بعض المظاهر الإيجابية الرصينة التي يتولى أمرها فئة من المثقفين المحدثين من خلال دروس السيرة والفقه والتفسير في المساجد، وبعض الاحتفالات الجادة في المناسبات الدينية والسياسية، لكن الفلاحين لم يكونوا ليقبلوا على الممارسات بنفس الحماسة والكثرة، ربما لسمو أسلوبها في التعبير، وعدم القدرة على التبسيط، ولخلوها من الترفيه والتشويق، لكنها كانت ظاهرة موجودة على أية حال، وكان المتحدثون فيها يحظون باحترام الناس وتقديرهم..

والذي أذكره في تلك الأيام أيضًا معارك الانتخابات الدامية، فقد انقسمت قريتنا منذ زمن بعيد -بسبب الخلافات السياسية- إلى قسمين، الناحية الشرقية وهي تؤيد حزب الوفد بزعامة مصطفى النحاس باشا، والناحية الغربية التي تتبع حزب «السعديين» بزعامة أحمد ماهر باشا، الذي اغتيل في أواسط الأربعينيات، من القرن العشرين، بعد أن أعلن دخول مصر الحرب العالمية الثانية إلى جانب الحلفاء. وبسبب هذه الانشقاقات السياسية شهدت قريتنا خلافات ومصادمات عنيفة، كانت تطفو على السطح بقوة إبان الانتخابات الحزبية، وعند الترشيح لمنصب «العمدة» إذ كانت الناحيتان تتبادلان المنصب وفقًا للظروف السياسية التي تلائم كلًا منهما، وما زالت آثار هذه الشقاقات والخلافات باقية – لحد ما- إلى يومنا هذا.

ولا يخفي على القارئ أن النصف الأول من ثلاثينيات ذلك القرن قد شهد حكم «صدقي باشا» المستبد، الذي ألغى الدستور، وحكم مصر بالعنف والقهر، في ظل الاحتلال البريطاني، فضلًا عن الأزمة الاقتصادية الكبرى التي هزت أركان الاقتصاد العالمي كله آنذاك، وقد انعكست آثار هذه الأزمة على مصر عامة، وعلى قريتنا بالتبعية، فكانت أيامًا

عصبية، انخفض فيها سعر القطن، وشح المال والزاد، وقاسى الناس الأمرين، ووجد «الخواجات» الذين يعيشون في القرية، الفرصة سانحة للتعامل بالربا، واستغلوا عجز الفلاحين عن السداد، فحجزوا على مواشيهم وممتلكاتهم، وانتزعوا الكثير من أراضيهم سدادًا للديون. وما زلت أذكر مدى العناء الذي قاست منه أسرتنا في تلك الفترة العصيبة، وقد تمثل ذلك في الحصول على الملبس المناسب، والغذاء الكافي، ونواحي الإنفاق الضرورية للحياة..

في هذه القرية ولدت.. كان ذلك في اليوم الأول من شهر يونيو عام 1931. وكنت أول مولود لأبي وأمي..

***

[2]
طفل في القرية

لم يكن في قريتنا كهرباء ولا ماء نقي، معظم بيوت القرية يشربون من ماء الترعة الجاري، حيث تذهب النسوة ليملأن الجرار بصفة دائمة، أما القِلة من بيوت القرية فمصدر المياة عندهم «الطلمبات»، التي تجذب الماء من جوف الأرض، وكان الناس يعرفون أن مياه الطلبمات أنقى وأنظف، ومن ثم يتزاحمون عليها، لكن المشكلة أن أصحاب هذه الطلمبات في غالبيتهم يتقاضون أجرًا موسميًا ممن يأخذون الماء، قد يكون جعلًا شهريًا أو كمية صغيرة من محصول الأرض «القمح أو الذرة» لكن جدي إبراهيم رحمه الله –جدى لأبي- قد أقام طلمبة مجانًا أمام بيتنا القديم في شرشابة، وفي مثل هذه الحالة يطلق على الطمبة «سبيل لله»، في وقت العصر تشهد حشودًا متزاحمة من النسوة اللاتي يردن الماء حيث الضجيج والصياح.

وبعد أن ولدت بعام وشهر واحد، ولد أخي «أمين»، وكانت أمي مضطرة لأن تحملنا على كتفيها معًا، وتعطي كل واحد ثديًا، فلم يكن في زمانها ألبانًا صناعية، ومن الضروري أن تتم الرضاعة لعامين حسب السُّنة، وكان جدي ينتهز فرصة الحشود حول الطلمبة، ليحل مشكلة الرضاعة، إذ إن لبن أمي لم يكن ليكفينا معًا، ولذلك كان يشير إلى نوع معين من النسوة يتميزن بجمال الخلق والخلقة، وتبدو عليهم أمارات الصحة والعافية، ويكلفهن بإرضاعنا.. هكذا كانت تحدثني أمي، بعد أن كبرت.. وعندما أصبحت «طبيب القرية» في وحدتها «المجمعة» بعد سنوات طويلة، كنت أفاجأ بإحدى المريضات تقول لي: «أنا أمك.. لقد أرضعتك من ثديي هذا»، وتكرر هذا الأمر كثيرًا، وكم كنت أسعد وأنا أستمع لهذه الكلمة الحلوة، فمعنى ذلك أن عناصر حياتي التي تجري في عروقي، قد جادت بها يومًا ما هؤلاء السيدات الطيبات، وهو شعور أخوي سام أعتز وأفخر به.

كان جدي إبراهيم شخصية مميزة لا شك في ذلك، تزوج من النساء أربع، وأنجب من الرجال أربعة وبنتين، ومن الطريف أن التي تولت أمري كلية، وأشرفت على طعامي وملبسي

وكل شئون حياتي واحدة من نسائه لم تكن هي جدتي، لكن زوجة جدي هذه «مباركة» (وهذا هو اسمها) عاشت معي ولي تمامًا، لم يرزقها الله بذرية فكنت بالنسبة لها كل شيء، وخاصة بعد وفاة جدي في عام 1936، وكنت أقول دائمًا «يا خالتي»، وهي لم تكن من قريتنا، ولكنها ابنة إحدى الأسر المعروفة في قرية «ميت ميمون» القريبة منا، والتابعة لمركز السنطة.

أقول كان جدي إبراهيم شخصية مميزة قوية، بمعايير القوة الشائعة في ذلك العصر، كان مرهوب الجانب، مطاع الكلمة، على الرغم من عدم ثرائه؛ إذ لم يكن يمتلك إلا حوالي خمسة أفدنة، وقد أخبرتني أمي أن اللصوص كانوا يسطون على مساحات شاسعة من الأراضي الزراعية دون أن يكترثوا لبعض كبار الملاك أو صغارهم، فيستولون على المحاصيل ليلًا، وكانت هذه الأراضي في حوض بعيد يطلق عليه «حوض القتيل» -لست أدري سبب هذه التسمية- واجتمع الملاك ورأوا أنه لا حل لهذه المشكلة سوى أن يتولى جدي «الشيخ إبراهيم» حراسة الأرض، وكان مجرد إعلان هذا الخبر كافيًا بأن يوقف اللصوص والخطافين عند حدهم.

وما زلت أذكر يوم أن حدثت جريمة غامضة في المنطقة، راح ضحيتها شقيق «خالتي مباركة» واسمه الجوهري، لقد اختفى هذا الشاب فجأة ولم يعثر له على أثر، وباتت قرية «ميت ميمون» المجاورة في حالة من الغليان لا مثيل لها، إن جثة الضحية يجب أن يُعثر عليها، وإلا كان العار والفضيحة.

إن الضحية صهر لجدي إبراهيم، ولا يمكن أن يمر الأمر هكذا بسهولة، وجلس جدي يفكر، وحاول البحث والتنقيب وربط الأحداث الماضية بعضها ببعض.. إن «ميت ميمون» قتلت منذ سنوات «خواجة» كان يتجر في الأقطان، واستولت على ما معه من مال، وأقيمت محاكمة كبرى آنذاك أسفرت عن أحكام بالإعدام والأشغال الشاقة المؤبدة، ومن طبيعة مثل هذه القضايا أن تكون فيها وشايات وشهود وقرائن، مما يقتضيه التحقيق.. كل ما أذكره أن ذيول هذه القضية تركت أحقادًا وحزازات بين بعض الأسر، ودفعت البعض لأعمال العنف والأخذ بالثأر.. وهكذا قضي على «الجوهري».. هذا ما فهمه جدي، وأكدته تجربته.. كان ذكيًا..

وأرسل على الفور إلى من تحوم حولهم الشكوك والشبهات قائلًا: «إذا لم تظهر جثة الجوهري خلال هذا اليوم فسوف يحدث ما لا تحمد عقباه...».

ثم تعهد بحل الموضوع سلميًا عند ظهور «الجثة» دون إراقة دماء جديد.

وكانت جثة الضحية مدفونة في حفرة عميقة، على شاطئ بحر شبين أو العباس كما يطلق عليه الفلاحون.. كان يومًا رهيبًا تقشعر له الأبدان.. رأيت بعيني رأسي -وكنت إذ ذاك في الثالثة من عمري على ما أظن، «الطبيب الشرعي» يشرح جثة الجوهري في الهواء الطلق، والنسوة يصرخن ويلطمن الخدود، ويشققن الجيوب، ويضعن الطين على وجوههن وعلى رءوسهن، وأذكر أنني كنت أبكي لبكاء «خالتي مباركة»؛ إذ كنت ممسكًا بذيلها، وهي تولول وتلف جلباب أخيها حول عنقها.

وفي يوم التهديد الذي أرسله جدي للجناة، أشيع أنهم سوف يقتلون أبي انتقامًا.. كيف تصرف جدي حيال هذا الخطر؟ إنه تصرف غريب.. لقد أصدر أوامره بأن يذهب أبي على الفور إلى حيث الأسرة الآثمة، ويمر متحديًا أمام بيوتهم ويحتك بجموعهم.. كان أبناء العائلة والأقارب والجيران في توجس شديد، ورأوا أن يتابعوا أبي عن كثب، لكن جدي صمم أن يذهب وحده.. وذهب.. ثم عاد سالمًا.. وتنفس الجميع الصعداء..

الواقع أن القرية كان لها تقاليد غريبة عجيبة في ذلك العصر.. ولا يتسع المقام لذكر الكثير منها. وكان هذا الجد مسموع الكلمة لدى عمدة القرية (محمد بك) وكثيرًا ما كان يشارك في حل بعض المعضلات التي يتعرض لها البعض، فكانوا يرحبون به حكمًا عدلًا لا يحيد ولا يميل، وأذكر أنه كان يتحدث بصوت جَديٍّ صارم، ونبرته تميل إلى السخرية في بعض الأحيان، كما كان شهمًا كريمًا، يحرص على إخراج زكاة المحصول، ويغدق -ما أمكن- على الفقراء، ويصل الرحم، لكنه لا يتورع أن يسب عند الضرورة.. إن السنوات التي عشتها إلى جواره كانت سنوات مرضه الأخير في غالبيتها، إذ كان يعالج من مرض السكر ومضاعفاته... وللأسف كان مصرًا على التدخين حتى النهاية..

وذات يوم سمعت صراخًا وعويلًا.. وذهبت إلى غرفته.. كان مسجى في فراشه في هدوء واطمئنان.. مرتديًا قميصه الأبيض.. شاحب الوجه.. ساكنًا.. قالوا: إنه مات.. بكيت معهم بضع دقائق.. ثم انصرفت إلى جدتي أطلب منها أن تشتري لي «نظارة زهر العطر» أي زرقاء..

كنا نشتريها برغيف أو كوز من الذرة.. وألححت في الطلب حتى أحضروها لي.. وكانت أمي رحمها الله تذكرني دائمًا بهذه الواقعة، وتضحك من أعماقها.. المهم أني لبست النظارة وخرجت لألعب مع إحدى فتيات الجيران.. وفجأة وجدتها تبكي وتصيح وتنظر إلى الشارع.. تابعت نظراتها.. رأيتهم يحملون نعش جدي على الأعناق.. ووجدتني أبكي معها..

كانت أكبر مني بعامين أو ثلاثة.. وكانت تندبه بعبارات حزينة باكية كتلك العبارات التي يرددها النسوة.. وكان لعباراتها تأثير مؤلم على مشاعري..

ويلاحظ أنه عند «غسل الميت» تكف النساء في قريتنا عن النديب والنحيب، ويجلسن يرددن بعض كلمات خلف امرأة متخصصة في هذا الفن الباكي:

فمثلًا تقول النادبة:

ومـــن مـــات يـــوم أربـــع

لا صـــلَّى ولا تركـــع

والله القـــبر فيـــه موضـــع

لمـــن تـــارك حـــدود الله

فترد عليها النسوة قائلات:

اللّهم صـــلى عـــلى المـــصطفى

وتعود النادبة تقول:

ومـــن مـــات يـــوم الخمـــيس

لا صـــلى ولا رجـــم إبلـــيس

والله القـــبر فيـــه خنـــيس

لمـــن تـــارك حـــدود الله

ترد النسوة:

اللّهم صـــلى عـــلى المـــصطفى

وهكذا تظل النادبة تردد الأناشيد الباكية الحزينة، في إيقاع وترتيل يسيل العبرات ويهز المشاعر، ويجعل القلوب تخفق في خوف ورعب، وخاصة قلوب الأطفال من أمثالنا.

وجدى هو الذي أخذني بنفسه إلى «مكتب القرية» وأنا في الرابعة من عمري، أذكر ذلك جيدًا، واشترى لي لوحًا ومحبرة وقلمًا من البوص.. كما اشترى لي طباشير ولوحًا من الإردواز ومصحفًا..

أمر غريب للغاية. لقد تعلمت في هذا المكتب في تلك الفترة الكثير والكثير.. فما إن بلغت السابعة من العمر حتى ألممت بقواعد القراءة والكتابة، ومبادئ الحساب، وقدرًا لا يستهان به من القرآن الكريم، وبعض الأحاديث النبوية، ومقتطفات من السيرة، وأناشيد دينية ووطنية، وأسماء الله الحسنى وأسماء الرسول ونسبه وأولاده، وبعض القصص القرآني..

وفي هذه المرحلة من العمر ذهبت إلى المدرسة الأولية الوحيدة بالقرية، وكان التعليم فيها إلزاميًا، ومن يتخلف عنها من أبناء القرية تفرض الغرامات على ولي أمره، وهكذا أصبحت مرتبطًا «بالكُتّاب». أي مكتب تحفيظ القرآن صباحًا، وبالمدرسة الأولية ظهرًا، ولا يفصل بينهما سوى وقت قصير يكفي بالكاد لتناول طعام الغداء بالمنزل.

وفي المدرسة الأولية لم أجد أي عناء، فقد كانت الدروس التي تعطى لنا بسيطة للغاية، بالنسبة لي على الأقل، لأني تعلمت معظمها في المكتب، وأحسست بتراخي المدرسين وكسلهم، مما جعل الاستفادة محدودة، ولا تخرج عن بعض مواد الجغرافيا والتاريخ والصحة والعلوم، وتنظيم مراحل دروس الحساب، ولهذا فإني مدين في تأسيس حياتي العلمية بالكثير «لكتاب الشيخ محمد درويش» رحمه الله.

الشيء الوحيد المؤلم، هو أننا كنا نقضي حاجتنا في العراء على شاطئ المجرى المائي الصغير الذي يمر بالمبنى.

بعد وفاة جدي، خرج عمي «محمد» من البيت، وكان من أم غير جدتي، واستقل بنفسه، وتزوجت عمتي الثانية، وكانت الأولى قد تزوجت منذ زمن بعيد، وتجمع باقي أفراد الأسرة حول أبي في بيتنا القديم عمي عبد الفتاح، وعمي أحمد وخالتي مباركة وجدتي لأبي، وأمي وأولادها، وكان عمي أحمد فلاحًا أصيلًا..

أما عمي عبد الفتاح فله قصة مثيرة، لعلي كتبت طرفًا منها في روايتي «الطريق الطويل»، فقد كان طالبًا أزهريًا ضعيف البصر، لكنه تراخى في إكمال دراسته بعد المرحلة الابتدائية، وأتى ليعيش في القرية دون عمل، فقد كان من الصعوبة بمكان أن يجد مثله وظيفة حكومية أو أهلية، ولم يكن يصلح بتاتًا للعمل في الحقل، وهكذا كان يقضي يومه دون إنتاج، إذ يصحو في الصباح متأخرًا، ثم يلحق ببعض الأصدقاء العاطلين، ويقضي ليله في السهر الخالي من أي مضمون إيجابي، وكان فراغه مدعاة لأن يقبل على التدخين بمختلف أنواعه، وبالطبع فإن ذلك كان مثار سخط وانتقاد شديد من أفراد الأسرة، ولم تكن الأسرة بمستطيعة أن تنفق على لهوه وعبثه القليل، فبدأ يبيع نصيبه من ميراثه في الأرض، وكان فرضًا على أبي أن يشتري منه ما يريد بيعه من قراريط، لأن بيع أرضنا للغير يُعتبر في القرية عارًا وفضيحة، ولم تستطع محاولات أبي الفاشلة في التجارة، وبيع بعض المواشي والحلي والمحاصيل أن تسد ما يطلبه عمي عبد الفتاح من أقساط ثمن أرضه، مما أوقعنا في الديون والرهن، وهما مشكلة ظللنا نعاني منها الأمرين في هذه الفترة العصيبة.

ومع توالي الأزمات التي سببها عمى إلا أنه كان رجلًا طيب القلب، حسن الثقافة، كان هو المتعلم الوحيد في الأسرة إن صح التعبير.. كان طيب القلب عطوفًا ذكيًا كريمًا، وكان منكبًا على قراءة كتب المنفلوطي (النظرات – ماجدولين.. إلخ)، وكتب الرافعي (وحي القلم – المساكين – أوراق الورد) ودواوين شوقي ومسرحياته، والقليل من مؤلفات طه حسين، وبعض كتب التراث، وكنت آخذ بعض هذه الكتب – بعد أن كبرت – وأحاول القراءة فيها، فأفهم البعض، ولا أستطيع استيعاب البعض الآخر، وكنت ألجأ إليه أحيانًا ليشرح لي ما غمض منها.. لقد كان عمي بحق هو المورد الأول لثقافتي، وهو الذي أخذ بيدي إلى التزود من الثقافة العامة، وكان لا يبخل على الكتب بمال، وأتذكر أنه كان ناقمًا على الحياة السياسية، شديد النقد للأحزاب القائمة..

إن عمي عبد الفتاح يستحق حيزًا كبيرًا من هذه الذكريات، وقد أعود إليه في صفحات أخرى، لكن المهم، أنه بعد أتى على كل ما يملك، رفض أن يعيش عالة على أحد، لقد باع آخر جزء من أرضه، ثم اعتزم الهجرة إلى القاهرة ليبحث عن مصدر رزق فيها، يومها بكى أبي، وبكت أمي، وبكيت أنا الآخر بمرارة، وقال له أبي: «لتبق معنا يا شيخ عبد الفتاح.. ورزقي ورزقك على الله..».

لكنه ابتسم في مرارة وحزن وقال: «هذا لا يصح.. أنا لست صغيرًا.. ومن العيب الشنيع أن أبقى هكذا دون عمل.. إن كرامتي لا تسمح بذلك.. سوف أمضي إلى المدينة متوكلًا على الله.. وليكن ما يكون..».. وحمل متاعه ورحل..

كانت الحرب العالمية محتدمة الأوار آنذاك، والدنيا كما تقول خالتي مباركة «على كف عفريت».

ولم ينسى عمي أني يأتي لوداعي في المدرسة الابتدائية التي كنت قد انتقلت إليها في قرية سنباط، وأن ينفحني بقدر يسير من المال.. ولما رآني أبكي.. قال وشفته ترتعش: «أنت رجل الآن..وعما قريب تنال شهادة الابتدائية وتخطو الخطوة الأولى نحو المستقبل العظيم إن شاء الله».

يمكنني القول إن عمي عانى الكثير من المتاعب في البداية، وتحمل شظف الحياة ومشاقها، (وعمل في الأعمال التي لا تليق)، لكنه في النهاية استطاع الحصول على عمل كتابي بوزارة الدفاع، واستقر به إلى آخر حياته، وأفاض الله عليه من نعمه، وتزوج واتجه إلى الذكر والعبادة وقراءة القرآن، فستره الله، ووفقه توفيقًا كبيرًا، وأحسن خاتمته، ولم ينجب، وبعد أن خرج بالتقاعد، عاد إلى القرية ليعيش معنا هو وزوجته حتى وافتهما المنية فيها.

كانت أمي من أسرة كبيرة شهيرة في القرية هي أسرة الشافعي، وكانت كثيرًا ما تبدي اعتزازها وافتخارها بأسرتها، بل وأسرة أخوالها أيضًا في كفر مجاور «كفر حسين»، ومن المعروف أن أسرة الشافعي أيسر حالًا، وأكثر أموالًا، وأشد احتفالًا بتعليم أبنائها في المدارس الحديثة والأزهر، وقد كان لهم فضل السبق في التعليم بالقرية هم وأسرة «جمال الدين» وعدد قليل من الأسر الأخرى، كما أن عمدة القرية واثنين من مشايخ البلد، وشيخ الخفراء من آل الشافعي، أما جدي لأمي (الحاج عبد القادر الشافعي) فقد كان بحق رجلاً صالحًا، حسن السمعة، ومن كبار تجار القطن، ولم يكن يبارى في فعل الخير، وحب الناس له، ونظافة سيرته، وعدالة حكمه.

يمكن القول أنه واحد من القلائل ذوي السيرة العطرة في تاريخ القرية، وكان حافظًا للقرآن، صديقًا لعلماء الدين محبًا لهم، لا يتعامل بالربا أبدًا، رغم ظروف تجارته في القطن، حيث تعرض للكثير من المحن والانتكاسات، كما حظي مرات أخرى بالتوفيق

والانتصارات، وعندما تحيق به أزمة، كان يبادر ببيع جزء من أرضه ليسدد ديونه، ويرفض الاقتراض من البنوك أو الخواجات، وسرعان ما يعوض خسارته في موسم قادم، ثم يشتري أرضًا زراعية من جديد يعوض بها ما باعه، ولقد كنت شديد التأثر بأخلاقيات وسلوك هذا الرجل العظيم في طفولتي أكثر من تأثري بأي إنسان آخر، كان يشجع والدي على تعليمي، ويقدم لي الهبات، وخاصة عندما يعقد لي امتحانًا في المساء وهو مضطجع على سريره، وكان رفيقًا بي عندما أخطئ، فلا يكاد يشعر الآخرين بخطأي، وكان يسألني في بعض المسائل الحسابية، بل وفي بعض الألغاز الرياضية الطريفة، التي تعتبر نوعًا من اختبارات الذكاء، كما كان يدربني على الخطابة -حيث كنا في عصر تقاس فيه عظمة القادة والزعماء بمقدرتهم على صياغة القول، وبراعة البيان، وقوة الحنجرة- وحتى بعد أن كبرت، واتخذت خطًّا سياسيًا مغايرًا لطريق حزب الوفد، كان يناقشني ويحاول توجيهي، ويكشف لي عن بعض الأمور الغامضة، والواقع أنني ظللت أكن له الاحترام والحب حتى اليوم، وكان هو الآخر -رحمه الله- يحبني أشد الحب، إذ كنت أول حفيد له، وكان ترتيبي الأول في دراستي، مما يجعله يعتز بي في مجالسه الخاصة، لدرجة أنني كنت دائمًا رسول أخوالي المقاربين لي في السن (مالك وإبراهيم) إليه عند إلحاح بعض المطالب. وكما فعل جدي لأبي عند الذهاب إلى مكتب القرية، فعل جدي لأمي، إذ أخذني إلى المدرسة الابتدائية بسنباط بنفسه، وسجلني فيها بعد أن أقنع والدي اللذين كانا خائفين من الأعباء المالية الكثيرة للتعليم.. وعندما اعتقلت في المرة الأولى عام 1955 كان راقدًا في فراش المرض، وبكى واستدعى ولديه مالك وإبراهيم وقال بأسى: «اذهبا وابحثا عن ابن أختكما..» ومات رحمه الله بعد شهور من اعتقالي حيث كنت سجينًا في سجن «قره ميدان» أي سجن مصر..

ومن المعروف أن نشوب الخلافات بين أفراد الأسرة الواحدة أمر لا يمكن تجنبه، وأشهد الله أن جدي الحاج عبد القادر كان دائمًا يحكم بخطأ أمي، حتى ولو لم تكن كذلك، ويفعل نفس الشيء مع أبي، و ذلك بالنسبة لأعمامي وعماتي، وكان يقول دائمًا.. «لأن تكون مظلومًا، خير ألف مرة من أن تكون ظالمًا..» تلك كانت فلسفته، ولذلك كان أفراد أسرتنا يقصدونه دون تردد عندما تنشب أية خلافات.. لقد كان سلوكه العملي مصداقًا لتدينه وإيمانه، وفي مجال الرزق لم يكن يخشى الغد أبدًا، كان واثقًا من رحمة الله، وأذكر أنه كان يتناول طعام الفطور أمام بيته، ويدعو كل من يمر لمشاركته الطعام، ونادرًا ما كان يأكل وحده، ومع

التزامه الصدق والجد والأمانة والدأب، إلا أنه كان محبًا للمرح، يبتسم للنكتة، ويحفل بالحكايات الطريفة، والمواقف المحرجة، ويضحك حتى يحمر وجهه الأشقر المليء بالنمش.. كان أولاده وأحفاده وأصهاره كثيرًا ما يجتمعون حول سريره في المساء، ويروي كل منهم الطرائف والملح التي جمعها، وبعض النوادر التي تحدث في القرية، وهو يستمع في منتهى السعادة والاستمتاع، وغالبًا ما ينام مبكرًا، حتى لا تفوته صلاة الفجر..

ومن الغريب أنه زوج بناته الثلاثة بسهولة ويسر في أسر متواضعة، وكان بإمكانه أن ينتظر الفرص المواتية لزيجات أفضل من الناحية الاجتماعية، لكنه لم يكن يعطي هذا الأمر كبير اهتمام، يكفي أن يكون الزوج مناسبًا من الناحية السلوكية والأخلاقية.. وكانت زوجته «سكينة» التي ماتت دون الخمسين، على قدر كبير من الحكمة والدقة والذكاء، فقد أدارت شئون بيتها على أحسن ما تكون الإدارة ويكون الحزم..

كان جدي لأبي «إبراهيم» يحبه الناس ويهابونه. وكان جدي لأمي «عبد القادر» يحبه الناس ويجلونه.. غير أن لكل واحد منهما أسلوبه الخاص، وفلسفته في الحياة، وتعبيره المميز عن نوعية ومنهج من مناهج الحياة التي عاصراها..

أذكر أن جدي إبراهيم كان قد أنذر زوجه الرابعة «مبروكة» بألا تهجر البيت مرة أخرى إلى بيت أهلها في «ميت بدر حلاوة»، وأفهمها أنه الإنذار الأخير، وكاد يجن عندما عاد ذات مساء ليجدها وقد سافرت غاضبة دون إذنه، وذلك بسبب خلافات بينها وبين زوجاته الأخريات، فما كان منه إلا أن رفض طعام العشاء، ثم امتطى حماره وانطلق تحت جنح الليل قاصدًا «ميت بدر حلاوة»، ولم ينزل هناك عن حماره، بل طلب زوجه، فلم يجدوا إلا التسليم، وانصرف وهي تسير كسيرة وراءه، وتحكي لي أمي أن جدي في هذه الليلة هم بإلقاء مبروكة في بئر عميق بالطريق، لولا أنها توسلت إليه بوليدها، وأوصته به خيرًا، فرق قلبه، وصفح عنها على أن تكون المخالفة الأخيرة [1].. لم ينظر جدي إلى الأمر من زاوية حجم الجرم وحجم العقاب، بقدر ما فكر في الأوضاع الاجتماعية والتقاليد السائدة، إن خروج زوجة على طاعة زوج كجدي في مثل تلك الأيام يعتبر أمرًا مشينًا للغاية..

(1) انظر قصة «أنين السواقي» في كتابنا «عند الرحيل».

واندلعت الحرب العالمية الثانية وأنا في الثامنة من عمري، وشاهدت أمورًا غريبة تحدث في القرية، رأيت مهاجرين قدموا من الإسكندرية ليسكنوا في حارتنا المتربة بالقرية، وهم بملابسهم الإفرنجية، ولهجاتهم الإسكندرانية، وحريتهم المنطلقة، حيث تمرح النسوة، ويغني الشباب، ولا يتحرجون في الكلام مع أحد، وقد أحدث ذلك في حارتنا انقلابًا كبيرًا[1].

وكان الفلاحون ملزمين بحكم القانون بتوريد محاصيل القمح أو أغلبها للحكومة لإعاشة قوات الاحتلال، وهكذا شحت الأقوات، وارتفعت الأسعار، ووقع الناس في ضوائق اقتصادية خانقة، فكان من المألوف أن ترى الغرباء يفدون إلى القرية باحثين عن الحبوب والبقول ليشتروها ويلحون، بل يتذللون عند الطلب، ولم يكن غريبًا أن نسمع عن بيت فلان بأن ليس فيه كسرة خبز منذ يومين.. وأصبح الحصول على القماش والجاز والسكر والشاي والبطاطس والعدس والفول، أمرًا بالغ الصعوبة، إني أتذكر أننا كنا نصنع الشاي أحيانًا بالعسل، وكنا نستعمل البطاطا الحلوة بدل البطاطس، وأصبح اللحم لا يشترى إلا في فترات متباعدة، وأسودّ لون الصابون والسكر والرغيف، بل وجدت أثرياء البلدة يصنعون من البطاطين الصوفية الإنجليزية المسروقة جلابيب لهم، بعد إن انعدم استيراد الصوف من بريطانيا العظمي آنذاك، وضج الناس بالشكوى، وأنشئت وزارة خاصة للتموين، كانت بداية للنهب والاستغلال والسوق السوداء.

كما كثر دخول الصحف القرية، وأخذ الناس يتحدثون عن أهوال الحرب، وعن هتلر وتشرشل وموسوليني وستالين وروزفلت وغيرهم من زعماء العالم، وعن الأسلحة الجديدة التي تبيد البشر، ومن الأمور الملفتة للنظر أن أهالي قريتنا كانوا يعجبون بهتلر أيما إعجاب، وأشيع عنه أنه رجل مؤمن يحب المسلمين والمصريين، بل كان البعض يطلق عليه «محمد هتلر» وكانوا يفرحون لأية انتصارات يحققها الألمان، ويقابلون الأنباء التي تتحدث عن انتصارات الحلفاء بالشك والريبة والضيق..

وفي خضم تلك الأحداث المرعبة المتلاحقة تقرر أن التحق بمدرسة الأمريكان الابتدائية بقرية سنباط، وهي مدرسة إرسالية تبشيرية أمريكية... كان المفروض أنني أعد نفسي

---

(1) انظر قصة «مهاجرون» في كتابنا «عند الرحيل».

للالتحاق بالأزهر الشريف في طنطا، وكنت قد أوشكت على الانتهاء من حفظ القرآن، وأكملت استعدادي لامتحان الحساب والإملاء، فضلًا عن أن المدرسة الأولية لا أمل بعدها.. ويبدو أن جدي عبد القادر رأى عدم مناسبة الدراسة الأزهرية لخالي مالك وإبراهيم، فرأى أن يذهب بنا نحن الثلاثة إلى مدرسة الأمريكان، وهي المدرسة الوحيدة بالمنطقة التي تدرس اللغة الإنجليزية، وتمنح شهادة إتمام الدراسة الابتدائية..

وفي صبيحة يوم مشرق من أيام آخر أغسطس سرنا في الطريق إلى سنباط التي تبعد عنا ما يقرب من خمسة كيلو مترات، كنا أنا وخالي نسير في المقدمة، ومن خلفنا سار جدي عبد القادر وصاحباه، واستقبلنا مدرس اللغة العربية (الشيخ أحمد الراعي) صديق جدي بالبشر والترحاب في غرفة الناظر (عطا الله أفندي نخلة) وكان قصيرًا جدًا، وأديت الامتحان على السبورة السوداء المعلقة على حائط غرفة الناظر.. حيث أملوا علي بعض مسائل الحساب، واختبارًا في الإملاء.. ونجحت بتفوق، وكان المفروض أن يتم قبولي بالسنة الثانية طبقًا لمستواي، لولا جهلي باللغة الإنجليزية التي تدرس في هذه المدرسة اعتبارًا من العام الأول..

وأصبح من المفروض أن يشتري لي أبي سروالًا قصيرًا وقميصًا من «الكاكي»، وطربوشًا أحمر، وحذاء جديدًا، وكتبًا في مختلف العلوم، وكراسات كافية وبعض الأدوات الأخرى.. والأهم من ذلك أن يدفع أبي ستة جنيهات كمصاريف دراسية على أقساط.. وهو مبلغ كبير جدًا في ذلك الوقت..

وكان على أن أذهب إلى المدرسة عند مطلع الشمس، وأعود منها وقت الأصيل (نظام اليوم الكامل».. بعد أن أكون قد قطعت على قدمي ما يقرب من عشرة كيلومترات كاملة.. يوميًا.. صيفًا وشتاء... بينما كان أبناء الأثرياء يذهبون ركوبًا على الحمير، إن استخدام الحمير بالنسبة لي أمر مستحيل، فليس لدى أسرتي سوى حمار واحد، وليس من المعقول أن آخذه معى من الصباح للعصر، وأهمل متطلبات الأراضي الزراعية والمواشي وما يتعلق بحياة الفلاح من أعمال..

لم أكن أشعر بالتعب، كنا نسير أفواجًا، نضحك ونمرح ونجري، ونحكي القصص والمُلح ونتشاجر أحيانًا، ونقلد المدرسين، وخاصة حضرة الناظر، وكان البعض منا -وأنا منهم- يخجل من لبس السروال، فكانوا يلبسون الجلباب فوق البدلة، ثم نخلعه عند وصولنا

إلى باب المدرسة، كما نخلع الطاقية أيضًا.. إن الذي يسير في شوارع قريتنا بسروال أو عاري الرأس متهم.. هكذا كان..

إن خروجي من قرية شرشابة إلى مدرسة سنباط، كان بداية الرحلة الطويلة.. الرحلة التي امتدت إلى آفاق الدنيا.. ويا لها من رحلة!!

***

[3]
طريق بلا نهاية

توقظني «خالتي» عند الفجر كل يوم، وتعد لي طعام الفطور وتسخنه، ثم تعطيني كوبًا كبيرًا من مغلي الحلبة المخلوط باللبن المسكر، وتعلق الحقيبة القماشية المليئة بالكتب والكراسات في عنقى فتتدلى إلى جانبي، وأمسك بيدي اليسرى وجبة الغداء اليومية، والتي لا تخرج عن الخبز الفلاحي وقطعة من الجبن الخالي من الدسم، ثم آخذ مليمين أو ثلاثة أو نصف قرش على الأكثر، وهو مصروفي اليومي أو كل يومين، ثم لا شيء بعد ذلك..

كان الطريق إلى مدرسة الأمريكان بسنباط خاليًا تمامًا من أية سيارات، وهو طريق مترب لكنه نظيف، والحقول الخضراء على جانبيه، وقبيل سنباط يوجد ضريح سيدي «نجم الدين»، وهو ضريح بسيط للغاية، عبارة عن مقبرة من الطوب اللبن، تظللها شجرة جميز ضخمة، وإلى جوار الشجرة زير ماء لعابري السبيل، وجوار الضريح أيضًا، يوجد بيت صغير، أقرب للكوخ منه للبيت، وكنا كأطفال نعتبر سيدي نجم الدين (أو نجيم) كما يسميه العامة، وليًا من أولياء الله الصالحين، له رعاية خاصة بالطلبة أيام الامتحانات، إذ كنا نظن أنه يعرف مدى ما نكابده من مشقة يومية في المشي وفي المذكرة، ولذلك كنا نقدم له النذور التي لا تخرج عن بضع مليمات، نعطيها لامرأة وحيدة، تقيم في البيت الصغير المجاور، وكان إذا رسب طالب من الطلبة أقسم ألا يعطي سيدي نجم الدين أي شيء، وقد يتشاجر معه مشاجرة طريفة، هي في الواقع من جانب واحد..

ومعظم أساتذة مدرسة الأمريكان آنذاك كانوا من الإخوة المسيحيين بما فيهم الناظر، وينتمون أصْلًا إلى أسر من الصعيد، وكان لهجتهم «الصعيدية» تنم عن ذلك بوضوح.

وكان أبرز هؤلاء المدرسين، وأشهرهم على الإطلاق «أنجلي أفندي حنا» إذ كان متين البنيان، يلبس نظارة طبية سميكة، ويمسك بيده دائمًا عصا خيزران ثقيلة، يقال إنها منقوعة في الزيت، كما يحكم الطربوش على رأسه بصورة دائمة لا تتغير، وهو يدرس الحساب لبعض

الفصول، وكذلك العلوم، كما يدرس الإنجليزية للصف الأول، وهو إلى جوار ذلك «ضابط المدرسة» المشرف على النظام، وكان دائمًا متوترًا عالي الصوت، لا يتفاهم إلا بالخيزرانة، مؤمن أعمق الإيمان بالعقاب الصارم كوسيلة للإصلاح والتقويم ورفع المستوى العلمي والخلقي للتلاميذ والتلميذات، وكان هو الذي يشرف على طابور البداية والنهاية والفسحة، ويلقي التعليمات اليومية دون مراجعة، وكنا نخاف منه أشد الخوف، ونحلم به أثناء الليل، كان إذا كثر عدد المخطئين في الفصل، يصر على معاقبة الجميع دون رحمة، ويحرمهم من الفسحة الكبيرة -فسحة الغداء- ويثقل عليهم في الواجبات.. أذكر مرة أنه في إحدى حصص العلوم قرر معاقبة فصلنا، وأخذ ينادينا بالأرقام، فقد كان لكل طالب رقم يحفظه جيدًا، فيقول واحد.. اثنين.. ثلاثة.. وهكذا، وكان رقمي هو الأخير (حرف النون) السادس والثلاثون.. وكان من المعروف أنني أول الفصل في الامتحان.. وآلمني أن أتلقى العقاب بتلك الخيزرانة المؤلمة مع أني أعطيت إجابات صحيحة كاملة، وثارت ثائرتي، فكبتها.. إن «أنجلي أفندي» لا يتراجع عن قرار أصدره، ولا يقبل أية مناقشة أو تفاهم.. وجاء دوري، فخرجت من مقعدي بخطى سريعة مرتجفة وقلبي يدق، ومددت يدي لكي أتلقى الضرب على راحتي في استسلام وأنا أقول: «يا أفندي أنا لم أخطئ، فما السبب في عقابي».

ابتسم في صدق، وقلما كان يحدث ذلك، ثم نحى عصاه وقال: «حسنًا.. سوف أسألك سؤالًا آخر، إن أجبت عليه فسوف أسامحك..» كان السؤال سهلًا للغاية، فأجبت عليه بسرعة، فضحك وهو يقول: «انصرف.. سماح هذه المرة».

وكان أمرًا مثيرًا للدهشة بين الطلبة، أن يتسامح أنجلي أفندي.. ومرة أخرى أعطانا مسألة حساب، فقمت بحلها تحريرًا على الفور، وكم كانت دهشتي عندما رأيته يشطب عليها ويكتب «خطأ»، وأمسك عصاه هذه المرة، وعاقبني عقابًا مريرًا على كلتا يدي، فانهمرت دموعي بغزارة، ولم يستطع أي طالب أن يقدم الإجابة الصحيحة التي يريدها، وأخيرًا عاقب الفصل كله، ثم وضع الحل النموذجي على السبورة السوداء، وطلب منا جميعًا أن ننقله في كراساتنا ونتفهمه حتى لا نخطئ مرة أخرى..

الحق أنني لم أقتنع بحله، ولم أستطع إدخاله في رأسي، وفي الفسحة الصغيرة تسللت إلى غرفة المدرسين، ولم يكن «أنجلي أفندي» موجودًا فيها لحسن الحظ، وانفردت بالأستاذ

«أديب أفندي» وهو مدرس رياضيات آخر متخصص متمكن، وشرحت له القضية، وأبديت وجهة نظري، فأطال الرجل النظر لدقائق قليلة، ثم هز رأسه، ونظر إلي في عطف وتقدير وقال: «انصرف أنت.. وجفف دموعك».

وفي الحصة الأخيرة جاء «إنجلى أفندي»، وقال بصوت صارم حاسم: «اخرجوا كراسات الحساب، واكتبوا هذا الحل السابق..».

دق قلبي من الفرح، إنه الحل الذي ارتأيته، هزني الفخر، وشعرت بالشماتة في «أنجلى أفندي»، لكني دفنت رأسي في الكراس ولم أرفع إليه عيني حتى لا يقرأ شيئًا فيها، ثم عاد إلى الدرس الجديد.. لكن والحق يقال كان الرجل مخلصًا في عمله، لا يضيع دقيقة من وقتنا، وكان يراقبنا داخل المدرسة وخارجها، فعندما قرر أن نسكن في قرية سنباط، حتى يتابع مذاكرتنا بنفسه أثناء الليل في المدرسة تحت الأضواء الغازية، كان يداهمنا في مسكننا المستأجر بقروش قليلة، ويتصنت علينا، ليرى هل نلعب أم نذاكر، ويا ويلنا إن كنا نلهو أو نعبث.. إنه على الفور يدخل علينا، ونحن جلوس على الحصير الذي نفترشه، ويأمرنا بعدم الوقوف، ثم يضربنا «علقة ساخنة» بعصاه التي لا ترحم..

كان شبح «أنجلى أفندي» يطاردنا في كل مكان، وكنا نحسب له ألف حساب، ومن لا يستطيع الصمود أمام هذه المعاملة القاسية، عليه أن يبحث له عن مكان آخر (وهذا غير متوفر)، أو يستسلم للأمر الواقع ويحاول أن يجتهد، حتى يخلص بجلده..

وكان لأنجلى أفندي أسبوع كل عام يذهب فيه إلى الصعيد، كي يستحضر زاده من السمن والجبن والعدس وباقي مواد التموين الأخرى، وكنا نتنفس الصعداء في هذا الأسبوع، وتتحول المدرسة بحق إلى حالة من الفوضى لا مثيل لها، ويزداد العبث، وترتفع صيحات الطلبة، وتكثر المشاجرات والمشاحنات، كما يكثر الإهمال والغياب والحضور في وقت متأخر من الصباح، وكأن الطلبة ينتقمون من قسوة «أنجلى أفندي» ونظامه العسكري الرهيب، فإذا ما عاد من إجازته، ساد الصمت والحزن والنظام، ويبدو أن الناظر «عطا الله أفندي نخلة» يدرك حالتنا النفسية، فيترك لنا الحبل على الغارب أثناء غياب أنجلى أفندي، كنوع من التخفيف أو الترفيه.

وذات مرة سافر «انجلى أفندي» إلى الصعيد، وعمت الفرحة أرجاء المدرسة الصغيرة، وكنا أثناء الليل نجلس في غرفتنا المستأجرة في منزل «عجايبي وزوجته كاترينا» نغني ونضحك، ونتبادل النكات، ونمتص عيدان قصب السكر، وفي ليلة من هذه الليالي الباردة الشديدة المطر، جلسنا نتسامر بعد العشاء، وكان معنا طالب كبير السن نوعًا، جلس على بسطة النافذة المطلة على الشارع، وأخذ يروي لنا عن بعض قصص العشق والغرام في قريتنا، ويحدثنا عن امرأة داعرة، ويطنب في الوصف بحماس بالغ، وجلجل في الصمت والظلام صوت «أنجلى أفندي» عند النافذة وهو يقهقه ويقول: «نم يا كلب حتى الصباح.. وسأعرف كيف أؤدبك..».

وقذف المسكين بكليته من النافذة التي تعلو أكثر من متر وربع بالغرفة وساد الصمت والرعب.. يا إلهي.. من الذي أتي بأنجلى أفندي في هذه الساعة من الليل البهيم الممطر؟ إن أسبوع الإجازة لم ينته بعد..

وكانت قصة مؤلمة سجلتها ذات يوم تحت عنوان «الغرباء» ونشرتها في مجلة القصة المصرية، ثم جمعتها مع مثيلاتها في كتاب «عند الرحيل».

أمر لا ينكر هو أن هذا الرجل القاسي كان سببًا في نسبة النجاح المرتفعة كل عام في المدرسة، ولابد أن يكون هناك واحد منا أو أكثر من العشرة الأوائل في شهادة إتمام الدراسة الابتدائية في منطقة وسط الدلتا، وهي من أكبر المناطق التعليمية، وفي أغلب الأحيان كان أنجلى أفندي يستطيع أن يتنبأ بنسبة النجاح، وبمن سيكون من الأوائل..

كانت إدارة المدرسة على علاقة طيبة بأولياء الأمور، وتتفاهم معهم حول أية مشكلة من المشاكل، وكانت الدروس الخصوصية علنية ومسموح بها، لكنها كانت قليلة. وكان بالمدرسة ما يسمونه «درس الأحد»، وهو درس ديني حسب الديانة المسيحية، وكنا نقابل الدرس بغير حماس، فأغلبنا من المسلمين، ثم شكونا إلى آبائنا، فطلبوا من المدرسة قصره على الطلبة المسيحيين، وقد تم ذلك بالفعل، لكن هذا لم يمنع بعض المناقشات التي تدور بيننا وبين المدرسين أو الطلبة المسيحيين حول فضل سيدنا عيسى، والمقارنة بين المسيحية والإسلام، لكن هذه المناقشات، لم تخرج عن إطار التسامح والآداب المرعية في الحوار والجدل، ولم تتسبب في إلحاق الأذى بأحد..

وكان أستاذ اللغة العربية شيخنا الجليل الأستاذ «أحمد الراعي سليمان» رجلًا متمكنًا من علمه، وذا خبرة واسعة، أحسن تدريس اللغة والدين الإسلامي لنا، وترك بصماته على تفكيرنا وسلوكنا وعواطفنا، وكان صديقًا لجدي «الحاج عبد القادر الشافعي»، وعلى الرغم من طيبته وابتسامته إلا أنه لم يكن يتسامح مع المهملين أو المقصرين، بل كان يقسو على خالي الأصغر «إبراهيم» رغم صداقته لوالده، ويضربه دون رحمة.

وكان الفصل مشتركًا بين البنين والبنات، وإن كان عدد البنات لا يتجاوز أصابع اليد الواحدة أو أكثر قليلًا، ومن بين الطالبات ابنة الناظر «أيرث» وابنة «أنجلى أفندى».

- «وداد» وابنة عمدة سنباط «تهاني» وابنة أستاذ اللغة العربية والدين «محاسن» وغيرهن..

عندما دخلت المدرسة الأمريكية لأول مرة، كنت خائفًا جدًا من اللغة الإنجليزية التي لا أعرف فيها سوى حرف واحد وهو «L» عرفته بالصدفة، وجاء أنجلى أفندى في أول درس، يكتب حرفًا لكل طالب ينطقه وحده، وارتجف قلبي، إنني لا أعرف شيئًا، وهتفت من أعماقي «يا رب»، إن كل من يخطئ يضرب بالعصا.. وشعرت بالظلم، يجب أن يعلمنا أولًا، ثم يجري لنا الاختبار، لكن كيف تجرؤ على قول ذلك؟ وكم كانت دهشتي -عندما جاء الدور علي- ووجدته يكتب الحرف الوحيد الذي ارتسمت صورته في مخي، فأجبت وجلست وأنا لا أكاد أصدق، إنها صدفة في منتهى الغرابة، وطوال الكيلو مترات الخمسة أثناء عودتي من المدرسة، التقطت أحد الطلبة القدماء، وطلبت منه أن يكتب لي الحروف الأبجدية الإنجليزية ثم قمت أنا بكتابة النطق فوق كل حرف، وفي المساء جلست تحت ضوء لمبة الجاز في بيتنا وسط ضجيج الأسرة، وأخذت أحفظ الحرف، ولم أنم إلا بعد أن أتقنت حفظها قراءة وكتابة.. ولم يكن في أسرتنا أو جيراننا أو شارعنا الطويل من يعرف شيئًا عن الإنجليزية، ومن ثم كان من الضروري أن أعتمد على نفسي في كل شيء، وأن أعتصم بالله.. وهكذا مرت تلك العقبة الكئود بسلام.

كانت قرية سنباط كبيرة، وملتحمة بكفر العرب، وكان فيها حي كامل للإخوة المسيحيين، يُطلق عليه «حصة سنباط»، وكان معظم الإخوة المسيحيين من ذوي اليسار والوظائف، فهم يعملون في مكتب البريد، وفي سكة حديد الدلتا وأعمال الصيرفة وتجارة المجوهرات، ويمتلكون ماكينة الطحين الوحيدة في سنباط، ولهم بعض المتاجر والحرف

المهمة كالنجارة وصناعة الأحذية وتربية النحل وغير ذلك، وكان هذا يبدو جليًا على ملابس أولادهم ومصروفاتهم اليومية، كما كان للمسيحيين كنيسة في قلب القرية، وقد ذهبنا إليها ذات يوم من باب الفضول، فكان من الملفت للنظر أن نرى الزائرين من المسيحيين يقبلون الستائر والأبواب ويتبركون بها، مثلما يفعل بعض الدهماء من المسلمين في أضرحتهم!!

وعلى مقربة من البيت الذي نستأجره في سنباط، يوجد بيت تقيم فيه «الغوازي» اللائي تحدثت عنهن في الصفحات السابقة، وفي كثير من الليالي كنا نسمع دقات الطبول والدفوف وأصوات الغناء والموسيقى، والضحكات المتكسرة حتى ساعة متأخرة من الليل، وكنا نحاول أن نتلكأ حول ذلك البيت لنشاهد ما يجري داخله من مجون وعبث، عبر الأبواب والنوافذ، وقد يحلو لبعض الطلبة أن يصفقوا ويرددوا مقاطع بعض الأغنيات التي يسمعونها بالداخل، ومن أشهرها آنذاك أغنية:

البوسطجية اشتكوا من كتر

وعيوني لما بكوا دابت مناديلي

روح يا قمر والنبي ع الحلو

ع الحلـــــو مـــــسّي لي

ولم يكن من المستغرب أن ترى في مدرستنا (وهي مدرسة أهلية خاصة) طلبة قد تخطو السابعة عشرة أو الثامنة عشرة، إذ لم يكن عمر محدد للطلبة أو الطالبات ما دام ولي الأمر يدفع المصروفات المطلوبة.

وعلى غير العادة كان «أنجلى أفندي حنا» يبدو منشرحًا باسمًا إذا خرج معنا في إحدى الرحلات، وكان أهم هذه الرحلات إلى القناطر الخيرية، حيث يدفع كل طالب قرشين أو ثلاثة، تكفي كأجرة للقطار ولبعض الأطعمة المشتركة، وكنا نأخذ معنا في هذه المناسبة بعض الفطائر الفلاحي اللذيذة الطعم، وكمية من الجبن والعسل الأسود، ويتركنا أنجلى أفندي نلهو ونمرح في الحدائق الجميلة الشاسعة، بل ويشاركنا في لعب الكرة بشيء من الوقار والتأنق، ويسمح لنا بالاختلاط مع مدارس أخرى تأتي مصادفة من القرى المجاورة، ومن مدينة زفتى، وكانت أغنيتنا المفضلة ونحن نركب «قطار الدلتا» الصغير تقول:

الفاتحـــــــــة للكمـــــــــسري

قلـــــع الطربـــــوش وعمـــــل وَلِّ

كما كان النشيد المدرسي المقرر آنذاك:

بـــــلادي بـــــلادي فـــــداكِ دمـــــي

وهبـــــت حيـــــاتي فـــــدىً فاســـــلمي

غرامـــــك أول مـــــا في الفـــــؤادِ

ونجـــــواكِ آخـــــر مـــــا في فمـــــي

ســـــأهتف باســـــمك مـــــا إن حييـــــت

تعـــــيش بـــــلادي ويحـــــي الملـــــك

وكان ملعب المدرسة صغيرًا جدًا، وفيه استعدادات للعب كرة السلة، ويشاركنا فيها بعض المدرسين الشباب، ولم نكن نغفل حصة الألعاب على الرغم من الكيلو مترات العشرة التي نقطعها ذهابًا وإيابًا، كما كانت تعقد المباريات المختلفة في هذا الفناء الصغير (الملعب)، وتوزع جوائز رمزية على المتفوقين.

وكان يجلس إلى جواري على المقعد المدرسي الأخ «عبد الأحد جمال الدين»، وهو حاليًا الأستاذ الدكتور عبد الأحد رئيس المجلس الأعلى للشباب والرياضة، ومستشارنا الثقافي السابق في فرنسا، وأستاذ سابق أيضًا بكلية الحقوق، وكان مولعًا بالسياسية منذ صغره، وتربطنا معًا صداقة وطيدة، وكان من رأيه، أن نجمع مليمات لنشتري صحيفة يومية للفصل نقرؤها معًا بصوت عالٍ، لنعرف أخبار الحرب والسياسة والإنجليز بالذات، وقد وافق «أنجلى أفندي» على ذلك، كما طلبنا في يوم من الأيام من إدارة المدرسة أن يُسمح لنا بالخروج في مظاهرة سلمية أثناء الفسحة الكبيرة فقط، نعبر فيها عن مشاعرنا ضد الإنجليز، ونطالب فيها «بالجلاء التام»، أو الموت الزؤام، وذهلنا عندما تمت الموافقة على ذلك، مع التزامنا ببعض الشروط الضرورية التي يفرضها النظام والأدب، وسرنا في شوارع سنباط –كما يفعل الكبار في المدارس الثانوية– وأخذنا نردد الجلاء بالدماء.. مصر والسودان لنا.. وانجلترا إن أمكنا.. نموت وتحيا مصر.. والله أكبر والعزة لمصر..».

كما كان لنا بعض الهتافات المضحكة، نقولها في حماس عجيب مثل:

كنت فين يا «بيغن» وأمك بتدور عليك.

كنت عند «تشرشل».. الله يحنن عليك..

وبلغنا في مظاهرتنا الصغير مكتب البريد، واعتلى «عبد الأحد» مصطبة مجاورة، وأخذ يرتجل في حماسة بعض العبارات المأثورة عن مصطفى كامل وسعد زغلول باشا، وغيرهما من الزعماء، ونحن نصفق ونهتف ونهلل، وما إن انتهى من خطبته ورواد «سوق الاثنين» بسنباط ينظرون إلينا في متعة وابتسام، حتى ظهر «أ نجلي أفندي» بخيزرانته، ونادى بأعلى صوته قائلًا: «كفى يا أولاد.. لقد عبرتم عن شعوركم.. عودوا إلى المدرسة لأن الفسحة أوشكت على الانتهاء..».

كان لطيفًا رقيقًا هذه المرة أيضًا، رغم الخيزرانة التي في يمينه، وجرينا كأننا في سباق إلى الشارع الطويل الذي يؤدي إلى المدرسة..

وعلى ذكر الفسحة الكبيرة، وهي عادة بعد الحصة الخامسة، نخرج من المدرسة، ونذهب إلى أحد المساجد القريبة، الذي يقع ملاصقًا للغيطان الخضراء ثم نجلس في تجمعات، ونفك عقدة المناديل، ونبدأ في أكل الخبز والجبن والمخللات والخس الأخضر أو البصل، وفي الغالب نخلط الطعام كله، ونأكل سويًا.. إن شعورنا بالجوع يجعلنا نلتهم الطعام التهامًا رغم تواضعه، كنا كمن يأكل لحمًا مشويًا، ثم نشرب الماء العذب من طلمبة المسجد، ونتوضأ ونصلي، ثم نعود إلى المدرسة لتكملة الحصص، وننصرف آخر اليوم الدراسي حوالي الثالثة والنصف بعد الظهر تقريبًا.

وأمام المدرسة يباع الترمس والفول السوداني والخروب والبطاطا الساخنة الشهية، ويمكننا أن نشترى بها معنا من مليات أو بما تبقى لدينا من خبز جاف، وما أكثر ما يسيل لعابنا أمام البطاطا الحلوة في الشتاء في وقت لا يكون معنا ما نشتري به، فننصرف في حسرة، دون أن نقترب من البائعة العجوز شبه العمياء الست «إخوات».

وكثيرًا ما كان يحدث احتكاك بين أبناء شرشابة وأبناء سنباط، ويصل الأمر لدرجة كبيرة من التوتر، وكان يحدث أن يتفق الطرفان على إقامة معركة رسمية في مكان محدد، وموعد محدد، فيحدث الصدام بالعصي والكرابيج والأيدي، ولا ينتهي إلا إذا سلب أحد الطرفين

سلاح الآخر، وذات مرة حضر «أنجلى أفندي» بنفسه كأنما انشقت عنه الأرض، ووجدنا منهمكين في المعركة، ودوت صفارته التي نعرفها جيدًا، والتي تشبه صفارة الخفراء في القرى، وسرعان ما توقفت المعركة، فحاولنا الهرب، لكن صيحاته أوقفتنا جامدين متلبسين.. وأوقفنا وسط الشارع طابورين متقابلين، واحد لأبناء شرشابة والآخر لأبناء سنباط، وأعطانا بخيزرانته درسًا عمليًّا لن ننساه، وأمسك بي من أذني قائلًا: «حتى أنت؟».

وكان يخلع أذني، لكنه كان رفيقًا بي لحد كبير عندما هوى بخيزرانته على كفي.. لماذا كان يحدث ذلك؟

لم يكن هذا السلوك أمرًا غريبًا آنذاك، إن الأسر في قريتنا تتصارع وتتقاتل، والدماء تراق لأوهى الأسباب، والأخذ بالثأر أمر طبيعي، والخلافات الناجمة عن الانتماءات الحزبية تزعج قريتنا، والصراع على «العمودية» و«مشيخة» البلد أمر مألوف، حتى علماء قريتنا كانوا يختلفون ويتشاجرون في المساجد بسبب حكم شرعي، يوافق عليه «الشافعية» ويرفضه «الحنفية»، أو بسبب التصوف وما يدور حوله من آراء، ورأيت بعيني رأسي عالمًا يهجم على المنبر، ويجر عالمًا آخر لينزله، بسبب الخلاف حول بعض الفرعيات المتعلقة بزكاة رمضان. والأعجب من ذلك أن لي عمًّا عالمًا مقيمًا في بلدة «حنون»، ويعتبر واحدًا من كبار رجال الجمعية الشرعية، كان يأتي لزيارتنا كل عام، ويذهب إلى المسجد الكبير لخطبة الجمعة، وذات مرة حدث خلاف بينه وبين إمام المسجد حول ركعتي السنة قبل الخطبة.. واحتدم الخلاف، وتوتر الموقف، ويومها وجدت الفلاحين من أسرتنا يذهبون، ويحضرون العصي الغليظة، استعدادًا لما قد يطرأ من معارك، كنت صغيرًا لا أعرف أبعاد هذا، لكن الله سلم، بسبب حكمة عمي العالم، وتصريحه من أراد أن يصلي الركعتين فليصلهما، ومن لم يرد فليفعل، وتحدث يومها عن التسامح بين المسلم وأخيه، وإفساح الصدر للخلافات، ومن ذاك اليوم حفظت العبارة الشهيرة التي تقول (اختلاف الأئمة، رحمة بالأمة) وبعد أن نضجت، وتربيت في مدرسة «الإخوان المسلمين»، ومررت بالعديد من التجارب المريرة، كنت أشعر تدريجيًّا بتضاؤل تلك النزعات التعصبية رويدًا رويدًا.. لقد كان زماننا القديم مليئًا بالعلل والتناقضات، وكانت حياتنا في القرية وفي المدينة خاضعة لتقاليد ومؤثرات ومواصفات يصعب الإفلات من إسارها، لكن هل عالم اليوم تخلص من الحروب والصراعات والعلل والتناقضات؟ ما أشبه الليلة بالبارحة وإن اختلفت الأسباب والمواصفات..

كانت إجازة الصيف في المرحلة الابتدائية -بل في المراحل التالية أيضًا- طويلة، وكان لابد من ملئها، لكن كيف؟ لم يكن في استطاعتي أن أذهب إلى المصايف، أو أسافر إلى المدن، ولذلك فإن الرياضة والقراءة كانا هما الملاذ الأول والأخير..

كنت أعشق لعبة كرة القدم وألعاب القوى، وكان بالقرية مساحات شاسعة تصلح للعب، كما كانت «جماعات نشر الرياضة بالقرى» والتي يترأسها الأمير عمرو إبراهيم تؤدي دورًا بارزًا للفلاحين، ولهذا استطعت أن أتقن اللعب الكثيرة مثل رمي الرمح والقرص والجلة، والوثب الطويل والوثب بالبوصة، والجري لمسافات طويلة، كما تقدمت كثيرًا في لعبة كرة القدم، وأصبحت واحدًا من الفريق الرسمي لمدرسة طنطا الثانوية الجديدة، وهو أمل يحلم به الكثيرون، وسافرت للاشتراك في مسابقات بالنادي الأهلي بالجزيرة.

لكن تبقى فترة الصباح والمساء، حاولنا إقامة نادٍ صغير، وأخذت ألتهم الكتب التهامًا، وكانت معظم قراءاتي في كتب الأدب والدين وبعض المجلات السيارة قديمها وحديثها مثل مجلة الرسالة والهلال والمقتطف والأزهر، وكنت مولعًا بكتب الشعر خاصة.

وكان شيخ الطريقة الصوفية الأحمدية في بلدنا المرحوم «الشيخ محمود المداح» وكان رجلًا وسيمًا نظيفًا رقيقًا كأنه ملاك، وكان أنيقًا في جبته الجميلة وقفطانه، مجرد مشاهدته توحي بالراحة والاطمئنان والإجلال، وكنا نقبل يده في حب يقترب من العشق، وكان -رحمه الله- يحبني ويعجب بي لتواجدي بالمسجد كثيرًا، ولتفوقي في الدراسة، لدرجة أن اختارني دون غيري، لكي يملي علي خطاباته الخاصة التي يرسلها لإخوانه وأصدقائه ودراويشه في مختلف الأنحاء، وبعد أن انتهى من كتابة الخطاب، يأخذه مني، ثم يوقع عليه «الفقير إلى الله تعالى محمود أحمد المداح»، وكان يوصيني ألا أخبر أحدًا بمضمون خطاباته، وبالطبع كانت وصيته أمرًا، ولهذا كنت أحضر مجالس الذكر والحضرات منذ الصغر، وأحفظ «المنظومة» التي تبدأ بالبيت التالي:

لأسمائك الحسنى عُبيدك قد ثنى

عنانًا له يرجو بها يدرك المنى

كما حفظت معظم «بردة البوصيري»، كان لإعجابي وارتباطي بهذا الرجل الكثير من الفوائد والسلوك الإيجابي في حياتي في تلك الفترة، على الرغم من أن نظرتي للتصوف

والمتصوفين قد تعمقت بالاطلاع والدراسة، وتطورت إلى وضع مقبول لا غبار عليه، ولا شبهة فيها، تحت شعار الآية الكريم ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾[يونس:62-63]، فسمة المؤمن الحق، الإيمان والتقوى..

إن قراءات الصيف التي ضمت الكثير من المؤلفات، حتى قصص الجيب والروايات البوليسية والترجمات العديدة، وحفظ القرآن والكثير من الأحاديث النبوية، والشعر القديم والحديث، وبعض النصوص البلاغية، وسير القدماء والمحدثين وغيرها، قد زودني بحصيلة كبيرة من المعرفة..

ومن حسن الحظ أن فئة من الجامعيين والخريجين، خاصة في الأزهر الشريف، كانوا يجمعوننا حولهم في القرية أثناء الإجازة الصيفية، وكنا نرى في أيديهم الكتب القيمة، ونسمع حوارهم الثري المفيد، ونتعلم منهم الكثير من النصوص والأحكام الشرعية، والمقارنات الأدبية، والأخبار التاريخية، أذكر منهم بالذات الأستاذ الفاضل محمد أحمد حسب الله المدرس، والمحقق أيضًا في دار المعارف فيما بعد، فقد كان أكثرهم علمًا وثقافة ودراية، وقد تخرج من كلية اللغة العربية، ثم درس عامين بمعهد التربية العالي بالإسكندرية في علم النفس والفلسفة والتربية، وكان يطلب مني أن أشاركه في قراءة بعض الكتب المهمة أثناء المرحلة الثانوية، أذكر منها كتاب «قادة الفكر» و«وحي القلم» وأجزاء من دواوين شوقي ومسرحياته وديوان المتنبي وبعض قصائد أبي العلاء المعري..

كانت متعتي الكبرى في القراءة.. ويخيل إلي أنني لم أكن لأشبع منها أبدًا، لقد أصبحت نوعًا من الإدمان إن صح التعبير، وعندما أعلم أن فلانًا لديه كتاب ذو قيمة، كنت أفعل المستحيل لاستعارة هذا الكتاب، ولم تكن الحالة المالية تسمح بشراء ما يلزمني من كتب ثقافية خارجية، لكننا كنا نتبادل الكتب كأصدقاء، أو نشترك في شراء واحد منها، أو شراء مجلة من المجلات القيمة كالهلال مثلًا، كما كنا نحرص على قراءة مجلدات الرسالة القديمة، ونشتريها من مكتبة «فك الأزمة» الشهيرة في طنطا، ولم أكن أتضايق من الكتب الصفراء مثل بعض الزملاء، بل كنت أحرص أشد الحرص على قراءة البعض منها.

كان للكلمة المطبوعة مفعول السحر في نفسي، لم تكن ملكة التمييز قد اكتملت بعد لدي، لذا كنت أقرأ أي شيء، كما كانت لدي المقدرة على حفظ الكثير من النصوص، وقد بدأت

كتابة الشعر –تقليدًا– في وقت مبكر جدًا، أي في آخر المرحلة الابتدائية.. هكذا بدأت رحلة العلم.. ورحلة الكلمة.. الرحلة الطويلة التي تبدأ.. لكنها لا تنتهي أبدًا..

****

[4] منعطفات

في المدرسة الابتدائية بسنباط، أنشئت جمعية أدبية للطلاب، وكان لهذه الجمعية رئيس ووكيل وسكرتير ومراقب، وتعقد اجتماعها الأسبوعي بعد دروس يوم السبت، إذ كانت الراحة الأسبوعية يوم الأحد، وكل اجتماع يحضره «رئيس شرف» هو في الغالب «أنجلى أفندي»، وتبدأ الجلسة بأخذ الغياب، وكلما نادى الرئيس اسم العضو، يقف ذلك العضو ويردد بيتًا من الشعر، بدلًا من أن يقول «أفندم»، ثم يتلى محضر الاجتماع السابق، ثم تبدأ أعمال الاجتماع، وهي عبارة عن «مباراة أدبية» بين اثنين من الطلبة، وغالبًا ما يكون موضوع المنافسة بين مهنتين من المهن، أو حرفتين من الحرف، فمثلًا تكون المباراة بين المحامي والطبيب، أو بين الصانع والتاجر، أو بين الفلاح والجندي، وهكذا، يقف أحد الطرفين، ويذكر محاسن مهنته، وأثرها الاجتماعي، وما تقدمه للوطن من أعمال بناءة تنهض به، وترفع من مستواه، ثم ينحى باللائمة على مثالب المهنة الأخرى، فإذا كان صاحبها تاجرًا هاجم السوق السوداء، والغش التجاري، وإخفاء السلع، والقسوة على الفقراء والمساكين، والجشع السائد، وبعد أن ينتهي الطرفان من إلقاء كلمتيهما، تؤخذ الأصوات، ومن يحصل على الأغلبية يكون هو الفائز، ومن ثم يُهنأ بعاصفة من التصفيق الحاد، ثم ينفض الاجتماع كي يعقد في الأسبوع القادم.

وكان «المراقب» يسجل أسماء الغائبين، وأسماء الذين يتكلمون أو يثرثرون أثناء عقد الاجتماع، ثم يصدر الرئيس على الفئتين حكمه في نهاية الجلسة بغرامة مليمين أو ثلاثة، والحصيلة السنوية في نهاية العام يستفاد منها في إقامة «حفلة شاي» يسعد بها الجميع -طلبة ومعلمون- قبل أداء الامتحان الأخير..

ولم يكن طالب الابتدائي بقادر على أن يدبج الخطبة المطلوبة التي تحقق له الفوز، ولذلك كنا نلجأ إلى بعض المدرسين، وأشهرهم الأستاذ «عبد العاطي زيان»، فقد كان خريجًا متفوقًا من مدرسة المعلمين، لكنه كان ضعيف البصر مما سبب له عقبة كبرى في الالتحاق بوظيفة

مدرس حكومي، لأن شروط اللياقة الطبية آنذاك كانت قاسية جدًا، ولهذا جاء ليعمل «مدرس تربية رياضية!!» بمدرستنا، رغم ضعف صحته وبصره، وبراتب شهري ضئيل «أربعة جنيهات»، كان الأستاذ عبد العاطي إنشائيًا مبرزًا، يحفظ الكثير من شواهد الشعر، وتميل موضوعاته إلى السجع، فيقول مثلًا مهاجمًا التجار:

«يوم تأتي جهنم وتقول، في صوت جهوري مهول، أين تجار الأقمشة وقد أخفوها، وفي السوق السوداء باعوها...».

ولهذا كنا نلجأ إليه ليكتب لنا موضوعات المنافسة الأدبية ولا مانع لديه من أن يكتب لكلا الطرفين المتنافسين، وبعض الطلبة كان يذهب إلى أحد أقربائه المقتدرين ليعد له خطبة عصماء، وكان كل طرف حريصًا على كسب أصوات الطلبة، وكانت طريقة الإلقاء، وقوة الصوت، والحركات المصاحبة، والانفعال الشديد، من علامات النجاح، ووصل الأمر في بعض الأحيان إلى إثارة العصبيات الإقليمية، فأبناء سنباط مثلًا يتكتلون ضد أبناء شرشابة، وقد وصل الأمر إلى التهديد والاشتباكات، بل إلى شراء الأصوات، وخاصة أصوات ذوى النفوذ والتأثير بين الطلبة، كما إن المناصب داخل الجمعية كانت تلعب دورها في إنجاح بعض الطلبة، فإذا كان المراقب، الذي يسجل أسماء الطلبة الذي تفرض عليهم الغرامات أو العقوبات، أحد طرفي المنافسة، حظي بأغلبية الأصوات، لأنه يستطيع في المستقبل أن ينتقم ممن حرموه من أصواتهم، وخاصة أن الأصوات تؤخذ برفع اليد، فيعرف المؤيدين والمعارضين، ألم تكن هذه الصورة متطابقة تمامًا مع ما يجري على الساحة الحزبية والسياسية؟

الواقع أن جمعيتنا الأدبية كانت مجالًا خصبًا للتدريب على الخطابة، وحفظ مأثور الشعر، وتربية ملكة التمييز بين المواهب، وإبداء الرأي، رغم الظروف والعقبات.

وكان مدرس «الرسم» أديب أفندي رجل ذكي، يختار اللوحات الجميلة، ويضعها في مدخل المدرسة، أو في صالة العرض، ولم يكن يعطينا موضوعات جافة للرسم، بل كان يحكي لنا قصة من القصص، أو أسطورة من الأساطير، ويطلب منا أن نرسم مشهدًا متخيلًا نابعًا مما سمعناه وانفعلنا به، وقد يدرب الطلبة على مشهد تمثيلي معين، ويختار ثلاثة أو أربعة منهم، ثم يوقفهم جامدين ويطلب منا رسم هذه الصورة الحية..

أما مدرس العلوم فقد كان يأخذنا إلى الحديقة الصغيرة في المدرسة، ويعطي لكل طالب مساحة فيها قد لا تزيد على نص المتر، ويساعدنا في زراعة شتلات الزهور والورود، ثم نتابعها يومًا بعد يوم حتى تتفتح ونسعد بألوانها الزاهية، كما كان لمدرس العلوم جهاز تقطير بدائي نجري عليه بأنفسنا -وبمساعدته- تجربة تقطير الأزهار، ويأخذ كل منا كمية صغير في قنينة من سائل الروائح الزكية.

والأمر الذي يدعو إلى الدهشة أن مدرسي هذه المدرسة لم يكن فيهم واحد حاصل على شهادة عليا، ليسانس أو بكالوريوس، كان أغلبهم يحمل البكالوريا «الثانوية العامة» أو ما هو في مستواها، بل بعضهم كان أقل من ذلك، فمدرس الصف الأول الابتدائي «زكي أفندي» لم يكن معه سوى الابتدائية الأزهرية، ومع ذلك فقد كان كفؤًا في عمله، ونال شهادة «صلاحية التدريس» لخبرته الطويلة، ونتائجه الطيبة. وعلى الرغم من ذلك، فقد كانت هناك نشاطات وتجارب تربوية تدعو إلى التقدير والإعجاب...

وقد كان لنا زميل من قرية «ميت البز» القريبة من سنباط، وغالبًا ما يأتي متأخرًا في الصباح، وكان الأستاذ يطلق عليه «نئوم الضحى»، ويأمره بأن يقف إلى السبورة، أثناء شرح الدرس، وكل خمس دقائق يطوف ويقل له «صَحَّ النومُ» ثم يلقفه بالعصا.. وهكذا حتى تنتهي الحصة.. وكان أن هرب أحمد من المدرسة واختفى تمامًا.. وذات يوم في الصباح وجدنا أباه ممسكًا به من قفاه، ودخل به إلى فناء المدرسة، ودعا جميع الطلبة بأعلى صوته ليحتشدوا من حوله، كان «أحمد» حافيًا منتفش الشعر، يلبس جلبابًا ممزقًا قذرًا، وقال الأب: «انظروا لهذا الشكل القبيح.. لقد هرب من المدرسة وطلب مني أن أجعله فلاحًا.. قولوا جميعًا بصوت واحد قوى: «إخْص عليك يا بغل».

ودوّى صوت الطلبة هادرًا «إخص عليك يا بغل.. إخص عليك يا بغل» والأب يحرك خيزرانة مع إيقاع الهتاف كما يحرك رأسه المغطي بعمامة بيضاء نظيفة، وأحمد يبكي بكاء مرًّا.. وساد الصمت بعد أن توقفت حركة صاحب العصا (المايسترو)..

ثم جذب الرجل سلة صغيرة وأخرج منها البدلة والطربوش والحذاء، وأمر ولده بأن يلبسها، وحضر الناظر وبعض المدرسين، وربت الناظر على كتفه في حنان وقال: «لماذا تفعل ذلك يا أحمد؟ أنت ولد شاطر..».

فازداد بكاء أحمد قال: «إنهم يضربونني...».

ورد الناظر: «لا.. لا.. لن يضربك أحد بعد اليوم...».

وقصد أحمد معنا صفه برأس منكسة، وعيون محتقنة، واستمر في دراسته بعد ذلك حتى نهاية المرحلة، ونال شهادة الابتدائية من الدور الأول، ولا أعرف مصيره بعد ذلك.. لكنه كان إذا تصادم مع طالب أو تشاجر معه كان يقول له: «اخص عليك يا بغل».

ويبدو أن «أنجلى أفندي» كان يعاني من بعض الضوائق المالية، إذ إن مرتبات المدرسين آنذاك لم تكن كافية، وفوجئنا به ذات يوم يستدعينا أنا وعبد الأحد وخالي مالك ونوفل صاحب القصص المثيرة.. وقال لنا: «أنتم أولاد مؤدبون مهذبون، ولهذا اخترتكم لكي تسكنوا في بيتي في غرفة خالية..».

كان لكلامه هذا واقع الصاعقة علينا، إنها كارثة كبرى، كيف نعيش في بيت واحد مع «أنجلى أفندي»؟ إننا لا نطيقه في المدرسة، ونرتعش فرقًا منه ونحن في مسكننا المستأجر البعيد عنه، ولا نفلت من مراقبته ومداهماته المباغتة، فهل بالإمكان أن يرافقنا كظلنا في البيت والمدرسة؟ إنه أمر غير محتمل.. وأدرك الأستاذ ما نحن فيه من حيرة ورعب وتردد فقال بأدب جم: «حسنًا.. فكروا في الأمر وأخطروني..».

لو أنه أمرنا بالتنفيذ لنفذنا الانتقال على الفور، لكنه كان مهذبًا أو محرجًا، وخرجنا نضرب كفًا بكف، كيف نتخلص من هذه المصيبة التي حلت بنا؟ وأقسم البعض ألا يذهبوا إلى بيته حتى ولو أدى ذلك إلى ترك المدرسة، وقال آخرون الموت ولا هذا، وقرر طرف ثالث أن نلغي السكن نهائيًا في سنباط ونروح ونجيء يوميًا بين المدرسة وشرشابة.

وجاء الفرج من الله، إذا استدعى «أنجلى أفندي» أحد زملاء السكن الكبار وقال: «خلاص.. لقد ألغيت المشروع».

وتنفسنا الصعداء، لم تكن طريقتنا في الحياة اليومية تتفق مع طبيعة «أنجلى أفندي» لقد كنا نمرح ونمزح ونغني، بل ونقيم حلقات الذكر، ونستقبل أعدادًا هائلة من أصدقائنا في سنباط، وننعم بسهرات ليلية ممتعة على الرغم من القيود الصارمة التي يفرضها علينا «أنجلى أفندى»؛ إذ كنا نختار الأوقات المناسبة التي لا يباغتنا فيها.. كانت حياتنا باختصار فوضى في فوضى، فالفراش منتشر هنا وهناك، وبقايا الطعام ملقاة بإهمال في جانب من جوانب الغرفة،

والأقلام والأوراق والكتب مبعثرة دون نظام، ونفايات أعواد قصب السكر مكومة خلف الباب، كل واحد ينتظر من يحملها للخارج.. وقد تبقى هكذا يومين أو ثلاثة، وقد زارنا أبي ذات مرة، ونظر إلى وضعنا في اشمئزاز وألم وقال: «إن حياتكم قذرة..».

وقام بنفسه رحمه الله لينظف الغرفة وينظمها، لكننا هببنا جميعًا واقفين، نتسابق إلى إصلاح الوضع، وقد تم ذلك في دقائق، وأخذ رحمه الله يحدثنا عن النظام والنظافة وأهميتها في حياتنا العامة والخاصة، ولم يفارق الألم ملامحه طوال الوقت، وقد أنف أن يشرب من الزير الذي نشرب منه، وتمتم في حسرة: «كان الله في عونكم».

وأخرج من جيبه كمية من العملة ذات الخمس مليمات (نصف قرش) ووزع على الحاضرين قطعة لكل واحد، ثم استدرك قائلًا: «كل شيء في أوله صعب ومتعب.. وعليكم بالصبر.. وفقكم الله..».

ثم ودعنا وانصرف، كان يسير دون أن يلتفت إلينا، وخيل إلي أن الدموع تترقرق في عينيه وهو يعطيني يديه لكي أقبلها عند رحيله..

كان طعامنا بسيطًا للغاية، نخرج صباح الاثنين من بيوتنا في شرشابة، وكل منا يحمل معه كمية من الأرغفة تكفي لأسبوع، مع زجاجة (نصف لتر) من العسل الأسود، وقطعتين أو ثلاثة من الجبن، ولا شيء غير ذلك، وكان المصروف الأسبوعي لي قرشين أو ثلاثة، ولم نكن نغير ملابسنا الداخلية أو الخارجية طوال الأسبوع، وفي صباح كل يوم نجلس مجتمعين ماعدا الزميل «عويس»، فقد كان له وضع خاص، ونتناول طعام الإفطار خبزًا وجبنًا، وقد يكون معنا بعض البصل الأخضر أو الفجل الذي نشتريه برغيف، ثم نذهب إلى المدرسة، وفي الظهر نفعل نفس الشيء إلا إذا اشترينا كمية مشتركة من «الطعمية» يدفع كل واحد فيها مليمين، أما العسل الأسود فنستفيد منه في العشاء كتحلية، وقد يعض أحدنا الجوع في أي وقت آخر، فيجرع جرعتين أو ثلاثة من قنينة العسل مباشرة، يتبعها بجرعة ماء، وفي منتصف الأسبوع تحضر إحدى السيدات لنا قدرًا من الأرز ونادرًا ما يكون معه كمية من البطاطس المحمرة، أما اللحم ففي المناسبات فقط، أما زميلنا «عويس» فقد كان له وضع آخر، كان ابن عمدة «عزبة عويس»، وكان ضخم الجثة، متين البنيان، متخلفًا في دراسته، أنيقًا في ملبسه، ويلبس الملابس الصوفية الثقيلة في الشتاء، بينما نرتجف نحن من البرد، كما كان له «لحاف»

سميك ثمين، وكان له صندوق خاص يضع فيه البيض والجبن والزبد والقشدة والكعك، ودائمًا يغلق هذا الصندوق المعدني بالقفل والمفتاح، وإذا ما أراد أن يأكل، وضع رأسه في صندوقه، وانكب على الطعام دون أن نرى ماذا يأكل، ومن يوم لآخر يرسل له أبوه أحد الخفراء ومعه ما لذ وطاب.. باختصار كان محظوظًا في الطعام لكنه فشل في الدراسة ولم يكمل المرحلة الأولى..

وإن أنس لا أنس ذات يوم وقد نفد الزاد كله، فلم يعد لدينا خبز ولا مال، وجلسنا في الصباح حائرين، وقررنا أن نسافر إلى قريتنا عقب انتهاء الحصة الخامسة فلا حل غير ذلك، وحان وقت الذهاب إلى المدرسة، وخرج معظمنا، وأغلق «عويس» صندوقه بعد أن أكل، وتأكد من إحكام الإغلاق بشد القفل مرتين أو ثلاثة، ثم مضى، وعندما هممت بالخروج جذبني أحد الزملاء قائلًا بصوت خفيض: «انتظر...».

وانتظرت إذ لم يزل في الوقت فسحة، ورأيت زميلي يخرج ثم يدخل مسرعًا إلى الغرفة، وينقض على صندوق «عويس»، كان معه قطعة سلك صغيرة، وأخذ يعبث في فتحة القفل حتى استجاب وانفتح، كان الصندوق عامرًا بخيرات الله، والتقط زميلي رغيفين وقطعة من الجبن وأخرى من الزبد وبيضتين.. وقال في عجلة: «هيا لنفطر..».

قلت: «هذا حرام.. هذه سرقة..»..

رماني بنظرة شذراء وقد امتلأ فمه بالطعام وقال: «الحرام أن نموت من الجوع وهذا الصندوق ملآن لعينه.. لو كان عويس عنده دم لدعانا لنأكل معه.. لكنه حيوان.. خنزير كتلك الخنازير التي تمرح في شوارع «حصة سنباط».. كل يا رجل.. لا تكن حنبليًّا..».

سال لعابي، ودق قلبي من الخوف. أحسست أني مقدم على ارتكاب جريمة، واندفعت صوب الباب، لكن زميلي أمسك بيدي باسمًا وقد أحمر وجهه وتكور جانب فمه وقال: «ورب العزة لتأكل..».

قدم لي البيضة والخبز المدهون بالجبن والزبد، ومددت يدي في ارتجاف.. وأكلت معه..

كنت أمضي في طريقي إلى المدرسة وأنا أتلفت يمنة ويسرة، ويخيل إلي أن الناس جميعًا يعرفون أني سارق، وعندما التقيت «بعويس» في الفسحة لم أستطع أن أنظر في عينه وجريت بعيدًا عنه، حتى الدروس الثلاثة الأولى لم أستطع أن أستوعبها جيدًا، وعند العودة تلكأت، لم

تكن لدى الشجاعة الكافية لكي أدخل الغرفة وأنظر إلى الصندوق الملعون، أما زميلي الآخر فلم يكن يعبأ بشيء، وبلغت المسكن متأخرًا، ولدى الباب سمعت الضجة والصياح، لقد اكتشف «عويس» سرقة الطعام، كان كالوحش الضاري، أخذ يلوح ويهدد ويتوعد، وقرر أن يرفع الأمر لأنجلى أفندي أو نقطة البوليس.. وجلست أشهد الضجة صامتًا حزينًا شاحبًا، واجف القلب أما الشريك الأساسي في «الجريمة» فقد كان يضحك في سخرية واستهتار، بل الأدهى من ذلك أنه قال: «اللصوص هنا.. وأنت أكبر لص فيهم..».

وانقض عليه زميلي في شراسة، وأخذ يكيل له اللكمات والركلات، وساد الهرج والمرج، وتدخل باقي الزملاء وفصلوا بينهما، الحق أن «عويس» رغم ضخامة جسمه، ومكانة أبيه، كان جبانًا، لذا رأيته يتراجع، ويعود إلى صندوقه ويغلقه والدموع تتساقط من عينيه.. مضيت إليه وأنا أتألم وأربت على كتفه وأقول: «حقك علي يا عويس.. أنا الذي...».

قاطعني عويس قائل: «أنت لا تفعلها.. أنت رجل طيب أمين..».

وقهقه زميلي المعتدي في سخرية وقال دون خوف: «أنا فتحت الصندوق.. فافعل ما تريد..». ثم أشار ناحيتي وهو يضحك واستطرد: «وأنت أكلت معي..».

دارت بي الأرض، شعرت بضيق ما بعده ضيق، حتى كدت أتقيأ، وجلست مكاني جامدًا، وجاءني صوت عويس مواسيًا: «أنت بالذات لك أن تأخذ من صندوقي ما تشاء.. أنا تحت أمرك..» وفي خضم الضجة والشجار، تسللت خارجًا، ومضيت في طريقي إلى شرشابة، لم يكن باستطاعتي البقاء أكثر من ذلك، كنت أشعر بلدغات الندم وتأنيب الضمير طوال الكيلو مترات الخمسة، وعندما جلست في بيتنا القديم، وقدمت لي خالتي الطعام الشهي الساخن، لم تكن لدي أدنى رغبة في الأكل...

ما أقسى وأمر الذكريات التي عايشناها في تلك الفترة، إنني أتذكر رفاق الغرفة المستأجرة في سنباط، ورفاق الغرفة المجاورة.. وأقارن بين الأمس واليوم، هؤلاء الأولاد النحاف الذابلون منهم الآن الدكتور محمد مختار أستاذ الأنف والأذن والحنجرة.. وعبد الله علي المهندس.. والدكتور عبد الأحد.. ورؤساء لمجالس الإدارات.. ولواءات في الجيش.. ومفتشون في وزارة التربية وأطباء وأدباء.. سبحان الله والحمد لله.. وعويس أصبح عمدة العزبة.. وزميلي السارق وكيل هيئة كبرى.. ومدرسة سنباط الابتدائية أحيلت إلى التقاعد، ثم

«أخنى عليها الذي أخنى على لبد»، كما يقول الشاعر القديم.. وعطا الله أفندي عمر طويلًا ثم قضى نحبه.. والشيخ أحمد الراعي مدرس اللغة والدين، وقد أشرفت على علاجه في أخريات أيامه عندما أصبحت طبيبًا لقريتنا، ولم أنس أن أُقبل يده وهو على فراش الموت كعهدنا القديم.. أما أنجلي أفندي فقد مات مبكرًا؛ إذ كان يعاني من ارتفاع قديم في ضغط الدم..

كان أهلونا يشقون الأرض القاسية بالفئوس والمحاريث، ويصبرون صبر أيوب وهم يزرعون ويحصدون ويكدحون من مشرق الشمس إلى مغربها، وكنا مثلهم نقاسي الأهوال كي نحقق الأمل، ونحصل العلم، وننال الشهادة، إنه موكب واحد متماسك يمضي في ركب الحياة، ويقتحم صعوباتها، ويذلل عقباتها في صبر وأناة دون عجل..

وفي الأعوام الأولى من التعليم الابتدائي وقبله، كنت أشارك أسرتي في أعمال الحقل المعروفة، كنقل السماد البلدي (التراب) من الحظائر إلى الحقل، وأساعد في زراعة القطن والقمح والذرة، وأدير الطنبور، وأحصد البرسيم والقمح والذرة، ونذهب إلى حقوق القطن لجمع الأوراق المصابة بالآفات طوال اليوم، ونظل منحنين الساعات الطوال باحثين عن تلك الإصابات.. وكان طبيعيًا والحال هكذا أن نصاب بالبلهارسيا والانكلستوما وفقر الدم، ثم نعالج ونصاب مرة أخرى وثالثة.. فالبلهارسيا صديق حميم للفلاح منذ أزمان بعيدة.. وقد وجدت مومياء قدماء المصريين مصابة بها.. كانت البلهارسيا.. والفقر.. والقهر.. والعمل الشاق، تجعلنا نشق طريقنا بصعوبة بالغة.

وذات يوم قال جدي عبد القادر لأبي بحسم: «الآن.. وقد قطع ابنك خطوات ناجحة في طريق التعليم، فإن عليك أن تعفيه من أعمال الزراعة.. وأظنكم لستم في حاجة إليه الآن، وقد أخذتم أخاه «أمين» إلى الحقل نهائيًا..

ولأخي أمين الذي يصغرني بعام وشهرين قصة، فقد كان ذكيًا مجتهدًا، لكن عمي «أحمد» اشتكى من ثقل عبء الزراعة، وطلب من أبي أن يساعده بتفرغ أحد ولديه للعمل في الحقل، وكان أن وقع الاختيار على أمين لأنه الأصغر، ويبدو أنه لم يمانع إذ لم يكن يدرك أبعاد هذا التحول الخطير في تلك الفترة.. وهكذا تقرر مصيري أنا وأخي في لحظة عابرة.

ونفذ أبي أوامر جدي، ومنعت من الذهاب إلى الحقل، وأصبح من المألوف أن ألبس الجلباب الأبيض النظيف، وأمسك بيدي كتابًا أو مجلة أو صحيفة يومية، أو أهرول إلى الملاعب الرياضية، وأصبح الأصدقاء غير الأصدقاء، والهموم غير الهموم، والآمال غير الآمال، لكن كيف أنسى أنني كنت ألتهم قدرًا كبيرًا من دخل الأسرة بسبب نفقات تعليمي، وخاصة عندما ذهبت إلى المرحلة الثانوية في طنطا وإلى جامعة فؤاد الأول في القاهرة؟ كنت ألبس البدل المصنوعة من الصوف الإنجليزي، بينما أفراد الأسرة غالبًا ما يلبسون الدمور والجبردين، وكنت أسكن في غرف مجهزة بالماء والكهرباء وهم.. وإني لأذكر أنه في بداية كل عام جامعي، كان أبي يعطيني نصف ثمن محصول القطن دفعة واحدة، ويطلب مني أن أنفق منه بحساب طوال العام الدراسي، ولما كنت أبدي رأيي أن أتقاضى مرتبًا شهريًا ثابتًا، كان يرفض بشدة، ويقول لي: تصرف كيف شئت، لست صغيرًا، وأنا أعرفك، لن تنفق إلا فيما يلزمك، وأعطاني الثقة كاملة، ولم يضع على تصرفاتي أي قيد، والواقع أنني شعرتُ بثقل المسئولية منذ وقت مبكر .. منذ أن أصبحت حرًا.. لذلك كنت أعيش في المدينة، وقلبي معهم هناك في القرية.. وأفر إليهم كلما حانت فرصة.. أفر إلى الصدر الدافئ الحنون.. إلى أبي وخالتي مباركة وأمي.. وجدتي.. وعمي.. وأخي أمين.. وأخواتي البنات.. وعندما أصل أشعر بالفرحة تغمرهم وكأنهم في يوم عيد.. إنني أعود إلى الأمن والأمان والدفء العاطفي.. ويشرق وجه أبي بالنور والفرح، وهو ممسك بيد إناء الشاي فوق النار المتقدة، كي يعده بيديه، وكان صمته أبلغ من مئات قصائد الترحيب، وأهازيج السرور، وأمي تنهمك تمامًا في إعداد الأكلات الدسمة الشهية التي تعرف أني أفضلها.. أما خالتي مباركة فتتحسس ظهري وكتفي وصدري، وتتهمني بأني لا أكل جيدًا، وأني ضعيف الجسم ذابل العينين.. وتنهال عليّ الولائم من الأحباب والأقرباء، وأقرأ في عيونهم الصدق والإخلاص والوفاء، وفي مسجد القرية الكبير لا يراني أحد إلا ويصافحني في حرارة.. إن الأيام التي كنت أقضيها في القرية تبدو رائعة جميلة، أهيم في صفائها وطهاراتها ونشوتها، وكأني في حلم رائع لا أتمنى أن أفيق منه، ويوم السفر ينتابني شعور الاكتئاب والأسى، حتى لكأنما أنا عضو ينفصل عن جسده، لكن لا حيلة، وأسمع «خالتي» تتمتم في مساء ليلة السفر، وهي تحكم حولي الغطاء:

صـابح مـسافر، وفايـت عنـدكم روحـي

بحـق مـن أطلعـك يـا شـمس وتروحـي

فــراق حبيبـــي دا أصــعب مـــن طلـــوع روحـــي

وإني لأعجب أشد العجب من هؤلاء المثقفين الذين ينسون مسقط رأسهم وأهليهم بعد أن يتموا مرحلة التعليم، ويستقلوا بأنفسهم، إنه سلوك آثم حسب تصوري، كيف ينقطعون عن ذويهم وعن مراتع صباهم، ومطارح لهوهم؟ أليس في ذلكم الكثير من الجحود والنكران؟ إن أبناء الفلاحين الذين أوتوا حظًا من التعليم وارتفاع المستوى عليهم واجبات مقدسة نحو قراهم وسكانها، ولو آمنوا بذلك وفعلو شيئًا، لتغيرت الصورة، وتطورت الأمور إلى الأفضل.

والواقع أن أخي أمين حمل العبء في الحقل مبكرًا، وفي غضون سنوات قليلة أصبح المسئول الأول عن الأسرة. وعن إتمام تعليمي، وخاصة أن أبي رحمه الله لم يكن يعمل في الحقل بيديه، بل كان يحمل فقط مسئولية التوجيه والإشراف، وبعد أن كبر أمين ترك له التصرف في معظم الأمور، وكان أمين كفؤًا في حمل الأمانة على الوجه الأوفى.

ولم تزل قريتنا الحبيبة حتى اليوم هي المكان المفضل حيث الاطمئنان والراحة والهدوء، ولم يزل أهلوها هم محط الحب والصدق والوفاء.. حتى أولادي الذين نشأوا في ظل تلك المشاعر الغامرة، قد ساروا على نفس الدرب، ونعموا بالمتعة التي تملأ روحي بالسعادة والرضى..

كان للوالد رحمه الله أسلوب خاص في التربية، لم يقرأه في كتب الفلسفة أو علم النفس، هذا الأسلوب يتضح في تعامله معي، وفي علاقته بأخي الأصغر أمين بعد أن نضج، وفي باقي الإخوة، كان أساس تعامله الثقة، ولم تكن ثقة عمياء، إذ إنه كان يحاسبنا برفق عندما يرى أننا قد وقعنا في خطأ، ولم يكن جبارًا أو متعنتًا عند اختلافنا في الرأي معه، كان يكتفي بشرح وجهة نظره بإيجاز، ثم تبين عدم صحة ما نراه، لا ينتظر.. بل ينصرف، ولا يعتب إذا خالفناه، وإذا خيبت النتائج ظننا لم يبد الشماتة أو الثورة، بل يعلق تعليقًا بسيطًا ساخرًا: «إن كلام الفقير لا يُسمع».. ونضحك وينتهي الأمر، ومن العجيب أنني كنت أقع في بعض المشاكل المحيرة المقلقة، وأظل الليالي الطوال أفكر وأبحث عن حل، ولكن دون جدوى، وسرعان ما كان يلاحظ ذلك من خلال تصرفاتي وشرودي وتعبيرات وجهي، فيسألني، وآخذ في شرح

الأمر له، وكان لا يطيل التفكير، بل يبتسم ويقول وهو مشغول بعمل شيء آخر.. «يا سلام!! هل هذه مشكلة.. تستطيع أن تفعل كذا وكذا»، ثم ينصرف إلى شأنه..

وأجلس لأفكر فيما قاله، يا سبحان الله، ليس هناك حل سوى ما قال أبي، كيف غاب عني ذلك؟ لم تتح لأبي فرصة التعليم، لكنه كان ذا فطرة صادقة، وخبرة عميقة بالحياة، وكان صبورًا لدرجة مذهلة حتى على آلام المرض، وعلى السير على الأقدام ساعات، ولم يكن يتناول في اليوم سوى وجبتين إحداهما في الصباح عبارة عن كوب الشاي المركز وكعكة صغير خالية من الدسم، وبعد صلاة العصر يتناول الوجبة الرئيسية الكاملة، ويحمد الله، على ذلك..

وكان أيضًا يتوضأ في اليوم مرتين يصلي بهما الأوقات الخمسة، فهو على وضوء طوال النهار، ينام مبكرًا ويستيقظ مبكرًا، ولا يستمع في الراديو إلا للبرامج الدينية وتلاوة القرآن والشعر الشعبي، كما كان يحفظ الكثير من الأشعار التي ذكرت في السيرة الشعبية كسيرة «أبو زيد الهلالي» و«عزيزة ويونس» وغيرهما، كما كانت لديه هواية ترديد المواويل المختارة، وما زلت أحفظ له موالين لقّنني إياهما منذ صغري الأول:

السيـــسبان اختـــشى والـــورد قـــال دا مـــين

«أم العنيبة» [1] قالت افتحي يا أمه دا الغريب مسكين

مـــسكين.. ومـــسكين.. ومـــا في عيـــشته راحـــه

قلبـــي وقلـــب الجميـــل مـــشتبوك في تفاحـــه

تفاحتـــك يـــا الحبيـــب مـــشبوك فيهـــا جلجـــل [2]

يفـــوت عليهـــا الطـــير والحـــمام والبلبـــل

إلـــلى انـــشبك بالمحبـــة ربنـــا غاتـــه

والـــلي انـــشبك بـــالفراق اشـــحططت ولاياتـــه

الثاني يقول فيه:

---

(1) شجرة العنب.

(2) جرس

يـا عينـي روحـي لحـمّال الهمـوم وشـوفيه

شـوفيه يـا عـين مـات ولا الـروح لـسه فيـه

يـا مـا قالـت العـين حبيبـي ربنـا يـشفيه

ويطلـــع الـــسوق ويخطـــر مثـــل عاداتـــه

جمـل المحامـل بـرك، شـمتت الأعـادي فيـه

كان يدندن بمثل هذه المواويل وغيرها، وكنت أستمع إليه في شغف عندما نكون وحدنا في حقلنا القريب وقت الأصيل، وكانت تأخذه النشوة أكثر وأكثر وهو يرفع صوته ويردد أغنية شهيرة لا أتذكرها كاملة:

أمانـــة عليـــك وز العـــراق بـــاللي طـــاير

يـــا لـــلي عـــلى الغربـــة تكـــون صـــبور

ترعـــى مراعـــي النيـــل ســـبعين ليلـــه

روح بـــلادك في هنـــا وسرور.. الـــخ

وكان إذا اضطجع استعدادًا للنوم، يطلب مني أن أقرأ سورة «يس» أو «الكهف»، وعندما أتلكأ في آية من الآيات لا يحرجني بكلمة، بل ينتظر حتى أتم قراءتي، كما كان حريصًا على أن يصحبني دائمًا في أسفاره وخاصة إلى القاهرة وطنطا، ويأخذني إلى فروع أسرتنا في قرية «حنون» وقرية «شنراق» وإلى أقرباء لنا في قرى أخرى، بل كان يكلفني منذ السابعة من عمري بحمل رسائل شفوية إلى بعضهم، فكنت أذهب وأركب القطار، وأسافر مسافات بعيدة وحدي، إنها الثقة التي كان يشعرني بها دائمًا منذ صغري وأحيانًا يرسل معي مبالغ كبيرة نوعًا من المال كي أوصلها لمن يريد.

مرتين رأيته يبكي بحرارة..

المرة الأولى: يوم أن رآني فوق منضدة العمليات لإجراء جراحة عاجلة مفاجئة.. والمرة الثانية: يوم رأى في يدي الأغلال الحديدية في سجن «قره ميدان»..

ويوم أن وافته المنية، أثر مرض بالقلب، وقد تجاوز السبعين، بكيت الحب والصفاء والتضحية الإيثار.. بكيت عمرًا رائعًا، وحلمًا نادرًا.. مضى.. وكتبت مقالة في إحدى الصحف اليومية.. وكلما قرأتها حتى اليوم.. أبكي.. لكن لا شفاعة في الموت.. رحمه الله..

****

[5] ثورة الفلاحين الأولى

ذكرت أن قريتنا تضم عددًا كبيرًا من المعدمين، والزراعة هي مصدر الرزق، وكان هؤلاء المعدمون يعملون كأجراء في القرية، أو كعمال تراحيل في الوسايا والإقطاعيات القريبة أو البعيدة، أو يستأجرون مساحات صغيرة من الأغنياء يقومون على فلاحتها، وفي نهاية العام يستولي المالك على محصول القطن كله، ويحفظه لديه حتى يبيعه، ثم يأخذ إيجار أرضه، وإن تبقى شيء للزارع المعدم، سلمه له، أو أخذه مقدمًا للعام القادم، وغالبًا ما يعود الفلاح صفر اليدين، وينتظر المحاصيل الأخرى كالذرة أو القمح أو الشعير، أو يبيع واحدة من العجول الوليدة، كي يدبر بها شأنه. وكانت هناك طريقة مجحفة حقًّا يتبعها الملاك أو وكلاؤهم، وهي أن يكتبوا عقد الإيجار بينهم وبين المستأجر، ويتركون خانة القيمة الإيجارية خالية، ثم يأخذون توقيع الفلاحين أو اختامهم «على بياض»، كما يحتفظ الملاك بصورتي العقد عندهم، كي يسجلوا عليها القيمة الإيجارية حسبما يريدون، وفي الوقت الذي يشاءون، وهم دائمًا يبالغون بصورة كبيرة في تقدير الإيجار السنوي للأرض.

وقد عانى الفلاحون الكثير من العناء والتعاسة من هذا الأسلوب الخبيث الجائر، وكانت الأراضي المستاجرة في غالبيتها تخص أثرياء من خارج القرية، مثل وقف «السيدتين سعاد وحكمت هانم جنيد» وأراضي «الخواجات» وغيرهم، بالإضافة إلى أراضي أثرياء البلدة أنفسهم، وكان الملاك من خارج القرية يعتمدون في تنفيذ مخططهم على عملائهم ووكلائهم من أهل القرية نفسها، وغالبًا ما يكون الوكيل شخصية مرموقة قوية، ويكون المحاسبون والحراس من ذوي القسوة والجشع. ولم يكن الفلاح المسكين بقادر أن يواجه التيار الجارف، والتكتل الطامع، وهو لا يملك من أمر دنياه شيئًا.. وأصبح هذا الظلم مثار الضيق والجدل لسنوات طويلة، لم يكن الفلاح ليرد على هذه التصرفات اللاإنسانية بغير الدموع والضراعة إلى الله سبحانه وتعالى، وبالصبر الذي يبدو وكأن لا نهاية له.. إن السلطة الإدارية بالقرية، وكذلك أصدقاءها وحلفاءها، لا يمكن قهرهم أو الاعتراض -مجرد الاعتراض- على

مشيئتهم، وفشلت كل المساعي الحميدة التي يقوم بها الرجال الطيبون لوضع حد لهذه المشكلة..

وكان رد الملاك بسيطًا: «من لا يعجبه هذا الأسلوب في التعامل فليترك الأرض»..

لكن كيف يترك الفلاح الأرض؟ وماذا يفعل طوال العام؟ ومن أين يجد العلف والأكل لمواشيه ولأولاده؟ إنه على الأقل سوف يجد التبن والبرسيم والأوراق الخضراء لبهائمه التي تدر له اللبن، وسوف يجد الحبوب التي يطحنها ليصنع منها رغيف الخبز، فيملأ المعدات الخاوية، وهي الحد الأدنى الضروري لحياته وحياة مواشيه، أما أن يكون جيبه خاويًا من المال، فتلك قضية أخرى يمكن احتمالها في أغلب الأوقات.

وتمادى الملاك في استبدادهم، وأصبح الحد الأدنى للإنسان وبهائمه أيضًا مهددًا، إن الوضع يسير من سيئ إلى أسوأ، والحياة نفسها أصبحت في خطر، ألا يكفي أنه لا يستطيع الإنفاق على عياله، ولا يمكنه أن يدبر أمر العلاج، أو ينفق على أحد أولاده إذا فكر في تعليمه، وأصبح الأمر بالغ الصعوبة..

كنت طفلًا صغيرًا، أجلس صامتًا وسط الفلاحين عند «البوابة» في الناحية الشرقية من القرية، ورأيت الفلاحين يتحدثون في هذا الأمر بألم وحيرة، حتى أولئك الذي لا يستأجرون أرضًا من الأثرياء شعروا بمأساة إخوانهم، ووجد الجميع أنه أمر لا يمكن السكوت عليه، بعد أن حفيت أقدامهم من الذهاب إلى السلطات ورفع الشكاوى العديدة إليهم.. وأصبحت تتردد بينهم كلمات يائسة: «الموت أحسن.. ليس هناك شيء لنبكي عليه.. ليكن ما يكون.. لو كنا يدًا واحدة لما ركبوا علينا هكذا.. نحن نستحق ما يحدث لنا...» كلمات كثيرة، وعبارات غاضبة كانت تتناثر هنا وهناك..

لكن هل كان أصحاب المصلحة والنفوذ نائمين؟ إن لهم عيونًا في كل مكان، ونجم عن هذا التمرد السلبي طرد عدد كبير من المستأجرين من الأراضي التي يزرعونها، وسيق بعضهم إلى «الدوار» ومراكز «الشرطة» الأخرى، وعوملوا معاملة سيئة، وأعطوا درسًا لن ينسوه.. لكن الأمور سارت على غير هوى الملاك، فقد ازداد الحنق والسخط، ووصلت الأمور إلى نقطة حرجة، وبات جليًا أن انفجارًا ما لابد أن يحدث.

في الصباح الباكر من أحد أيام الصيف، أثناء الإجازة، حدث هرج ومرج، إن أمرًا خطيرًا قد وقع، لقد اكتشف الخفراء أن مساحة كبيرة من الأرض قد دمرت الزراعة فيها تمامًا، لقد تم تقطيع أعواد الذرة، وهي لم تخرج ثمرتها من الكيزان بعد، معنى ذلك ضياع المحصول، وعدم الاستفادة من الأرض خلال ذلك الموسم، وكانت البداية في الأراضي التي أخذت من المستأجرين، وقامت الدنيا وقعدت، وقبض على عدد كبير من الفلاحين، لم تكن لدى الشرطة أغلال حديدية كافية، ولهذا ربطوهم بالحبال، وساقوهم إلى المركز، وحاولوا انتزاع الاعترافات منهم ففشلوا، وفي نفس الليلة، أتى الرجال المجهولون على مساحات أخرى مزروعة بالذرة تخص الملاك، وهجم العسكر على القرية يضربون الناس، ويعتقلون المزيد من الفلاحين دون تفرقة. وفي الليلة الثالثة تكرر نفس العمل، لكن الأمر الخطير أنهم عاقبوا في هذه المرة الوكلاء والعملاء فقضوا تمامًا على زراعتهم، وواصلت السلطة عملية القبض والتنكيل، وأرسلوا «الهجانة» أو راكبي الجمال من سلاح الحدود، وحاصروا القرية، ووضعوا الدوريات في كل مكان وطريق، كي يحرسوا باقي الأرض الزراعية التي تخص الكبار.. ومن الغريب والمحير أن عملية الانتقام لم تتوقف رغم هذه الاحتياطات الشديدة.

وجن جنون السادة، وأخذوا يعقدون الاجتماعات، ويتبادلون الرأي، وسافر بعضهم إلى طنطا لمقابلة مدير المديرية «سعادة الباشا»، وقصد البعض الآخر القاهرة ليتصل بمن يعرف من الشخصيات الوزارية والحزبية أو وزارة الداخلية، لكن الأمور ظلت تسوء طوال الأسبوع، وأصبح من المشاهد المألوفة أن يذهب الناس أثناء النهار بحميرهم ليحملوا الذرة المقطوع قبل أن يذبل، ولكي يطعموه طازجًا لبهائمهم، وكانت النسوة يرمقن هذا المشهد في الشوارع والحارات بابتسامة شامتة، بل إن إحداهن زغردت عدة مرات ولم تستطع أن تخفي شعورها، ولم يعد لقريتنا حديث سوى هذه الثورة التي اقتلعت كبرياء الأثرياء مع اقتلاع مزروعاتهم، كانت الشماتة تسود الجميع، وترى الحفاة الممزقي الثياب يرفعون رءوسهم في تشف وارتياح، ولست أدري بالضبط كيف هدأت الأمور بعد، كل ما أتذكره أن الحكومة أفرجت عن جميع المقبوض عليهم، إذ لم يعترفوا بشيء، فضلًا عن أن «العمليات» استمرت وهم مقبوض عليهم، ويوم أن أفرج عن هؤلاء الفلاحين، خرجت أفواج هائلة من النساء والرجال والشباب في تظاهرات متلاحقة بعد المغرب، وهم يهتفون الهتاف التقليدي الذي يرددونه عادة عندما يخرج أحد المسجونين وهو:

ســـــالمة يــــا ســــــلامه

رحنـــــا.. وجينـــــا.. بالـــــسلامة

يـــا «جنيـــد» يـــا بـــوز النملـــة

مـــين قـــال لـــك تعمـــل دى العملـــة

يـــا «خواجـــا» يـــا بـــوز النملـــة

مـــن قـــال لـــك تعمـــل دى العملـــة

كانت الهتافات تهز البلدة، وخاصة هتاف «يحيا العدل».. «الله أكبر على الظالم».

كانت الدموع تترقرق في العيون، وكانت الزغاريد تنطلق في آفاق القرية، كما كانت شعلات الجاز الصغير تتناثر وسط الظلمات بالمئات، وكنا نحن الأطفال نجري ونمرح في سعادة، وطوال تلك الأيام التي لا تنساها القرية، رويت حكايات عديدة متنوعة، فمن قائل أن فلانًا كان يحمل فوق رأسه مقطفًا مليئًا بالذخيرة الحية، وأن فلانًا وفلانًا كان يحملان بندقيتين، كل واحدة «بروحين» أي ماسورتين، وأن رجالًا بعينهم كانوا يضربون بالسيوف يمنة ويسرة فيقطعون أعواد الذرة في دقائق قليلة، وقيل أيضًا أن العسكر كثيرًا ما كانوا يرون الفلاحين وهم يزحفون نحو الحقول تحت جنح الليل، وخافوا أن يصطدموا بهم أو يقعوا معهم في معركة غير ذات جدوى، بل أشيع عن أحد الضباط أنه قال: «وماذا يفعل الفلاحون.. لم يعد في قلوب الأغنياء رحمة...».

وامتلأت القرية بحكايات تروى عن إطلاق الرصاص على بعض كبار الملاك، وإفلاتهم من الموت بأعجوبة، ولأول مرة ينكمش الكبار في بيوتهم، ولا يغادرونها، انتظارًا لهدوء العاصفة، وانجلاء الغمة، ولقد فهمت من أبي أن الأرض قد أعيدت لمستأجريها، وأن بعض المتمردين قد عينوا خفراء لدى العمدة، ففرحوا بالمنصب والمرتب.

وكان من المعروف أن عقد الإيجار سنوي، ومن حق المالك أن يسترد أرض في نهاية العقد واستطاع الملاك خلال أعوام قليلة، وبهدوء تام، أن يتخلصوا تدريجيًا من عدد من المناوئين، وأن يستميلوا آخرين، ويغدقوا عليهم بالمنح أو الخدمات المختلفة، ومن ثم عادت الأمور إلى سيرتها الأولى.

لعل هذه الثورة الصغيرة في قرية شرشابة هي التمرد الأول من المعدمين المستأجرين ضد كبار الملاك في تاريخ مصر، ولم ترق في هذه الثورة قطرة دم واحدة، وقد حدثت في بعض الإقطاعيات تمردات مشابهة في «عزب» البدراوي باشا وغيره، وسقط فيها بعض القتلى، وقمعت بشدة وعنف، لكنها حدثت في أواخر الأربعينيات، من القرن العشرين؛ أي بعد قريتنا بما يقرب من ثماني أو عشر سنوات.

كان جدي إبراهيم قد مات منذ زمن، أما جدى «عبد القادر» فقد كان حيًا يرزق، وكنت أفهم من أحاديثه حول هذا الموضوع مع أبي، أنه يعرف القائمين على أمر هذا التمرد، ويذكر أسماء بعينها، لكنه لم يتعاون مع العمدة أو الإدارة أو أقاربه الذي تعرضوا لخسائر كبيرة، كان موقفه حياديًا من الناحية العملية، لكنه كان متعاطفًا شعوريًا مع المظلومين، فأحد الثوار هو ابن لبنت عمه، والعمدة وأحد كبار الملاك المحليين وشقيقه لأولاد عمه، لهذا آثر الصمت والاعتكاف، وكان يعتقد رحمه الله أن التصدي للحكومة وأعوانها أمر بالغ الصعوبة، وأن دهاء الملاك وألاعيبهم سوف تضع حدًا لهذا الأمر في النهاية، وقد حدث.. حدث ذلك فعلًا.. لكنه خلف في القرية آثارًا لا تمحى، لقد ظل هذا التمرد عالقًا بأذهاننا نحن الصغار، ونتذكره من آن لآخر بغير قليل من الاعتزاز والفخر، كانت تستهوينا البطولة والتصدي لعلية القوم، وظلت هذه النزعة ترافقنا في صبانا وشبابنا طوال مراحل التعليم المختلفة، بل وكان لها تأثير كبير في اختيار مسيرتنا السياسية، وكثيرًا ما كنا نخطب على المنابر بالمساجد وفي الاحتفالات العامة، إبان العهد الملكي، ونهاجم الإقطاع والرأسمالية والاستبداد، وكنا نسبب العديد من المشاكل والحرج لأنفسنا ولأهلينا، لكننا لم نتوقف، كما كان هذا التمرد نواة لتكتل معين من الفلاحين، ظل متميزًا بسلوكيات وردود أفعال خاصة، حيال ما يجري في القرية من أحداث وصراعات وانتخابات، ولم يستطع بعد ذلك أصحاب السلطة والنفوذ أن يعاملوهم معاملة السادة للعبيد، بل إن بعض أفراد هذا التكتل أو التجمع، سببوا قلقًا دائمًا، وصداعًا مزمنًا، للمستغلين والمستبدين، فكانوا يحرصون على مراضاتهم ومجاملتهم والتودد إليهم، بل ويرضخون لمطالبهم في كثير من الأحيان..

ما أكثر الأحداث التي تجري في قريتنا، والتي لها دلالات عميقة!!! وكانت القرية قادرة على تسجيل الكثير من هذه الأحداث في أغان شعبية ترددها الصبايا في الأفراح، وأثناء العمل في الحقول والبيوت، وفي ليالي الشتاء الطويل وقت السمر، فعندما تفشت إصابة

القطن بالآفات، وأتت على المحصول أو كادت، كنت تسمع الكثير من الأغنيات التي تذكر المأساة، وتذكر أسماء بعض المشرفين على حملات «المقاومة» لهذه الدودة اللعينة التي ملأت الطرقات والحقول آنذاك، وجردت شجيرات القطن من أوراقها وأزهارها، وإذا حدثت معركة بين أسرتين، أو سقط «قتيل» متميز، خرجت الأغاني الملحمية تسرد بالتفصيل ما جرى وتزيد عليه، ثم الصراع الدائم والعنيف على منصب «عمدة القرية» كانت تقال فيه القصائد الطوال، والأغنيات المؤثرة، كانت الأغنية بحق هي «الإعلام» الشعبي في تلك البقعة الصغيرة، بل إن بعض الحوادث الشهيرة في المديرية أو القرى المجاورة هي الأخرى كانت تحظى بنصيبها من تلك الفنون.. ولعله من الأمور المؤلمة المثيرة في تلك الفترة (المرحلة الابتدائية) ذلك الحدث الذي ظننته بسيطًا وعاديًا في البداية..

كان في حينا امرأة على أبواب الشيخوخة تعيش في بيتها وحيدة لا أنيس لها، بعد أن توفي زوجها منذ زمن بعيد، وفوجئت القرية ذات صباح بأنها قد تزوجت من صاحب دكان بقالة في «كفر» صغير مجاور لقريتنا، ولم يلفت الموضوع نظري في البداية، لكني وجدت الدهشة تعقد ألسنة الناس، وأخذوا يتهامسون عن هذه «الفضيحة»، ثم أخذ الهمس يعلو حتى أصبح احتجاجًا وضيقًا وغضبًا.. سألت أمي: «أية فضيحة.. الناس يتزوجون في أي وقت..».

قالت أمي هامسة: «طبعًا يا ولدي فضيحة.. إنها امرأة كبيرة في السن.. وهذا عيب».

ابتسم أبي وقال في سخرية: «ماذا تقولين له؟ أليس هذا حقها الشرعي.. يا ناس حرام عليكم..».

قالت أمي مستنكرة: «شرعي؟ فيه أصول واحترام.. ماذا تريد الحاجة فاطمة من الزواج؟ والشيخ سيد هو الأخر رجل مسن..».

كان أبي يدافع عن المرأة لأنها وحيدة، ومن حقها الشرعي أن تتزوج وتعيش مع رجل يحميها ويؤنس وحشتها، وهو أمر لا غبار عليه، وخاصة أنها لم تتزوج شابًا يصغرها في السن، أما أمي فكانت ترى ضرورة احترام التقاليد المرعية، والآداب العامة، إذ لم يجر العرف على زواج امرأة في سنها قد تخطت سن اليأس، وكانت أمي ترى أيضًا أن الشيخ سيد قد تزوجها بدافع المصلحة لأنها تدخر مبلغًا لا بأس به من المال، وهو يهدف أساسًا إلى تنمية تجارته، وزيادة رأس ماله وأرباحه، وليس هناك أي إغراء آخر لعقد مثل هذا الزواج، ويبدو أن

غالبية أهل القرية كانت على رأي أمي رحمها الله.. وما هي إلا أيام قليلة حتى انطلقت الأغنيات الشعبية:

الطرطوريـــــة بتقـــــول لكـــــم

آه يــــا عُـــزَّاب كلـــوا بعــــضكم

أدينــــــي اجـــــوزت قــــبلكم

وادلــــع يــــا شـــيخ ســـيد

يــــا حاجـــة يــــا أم حلـــق فـــضة

هــــاتي لعريـــــسك يتوضـــــا

(..................................)

وادلــــع يــــا شـــيخ ســـيد

وكانت هذه الأغاني تزيد الإثارة والافتراءات والأكاذيب، حتى الأطفال أخذوا يرددونها، ويتعمدون رفع أصواتهم بها أمام بيت المسكينة، التي لم تعد يراها أحد خارج بيتها، وكان الزوج لا يأتي إلى بيتها إلا في وقت متأخر نوعًا بعد صلاة العشاء، ويغادر عند الفجر، كانا -رحمها الله- محاصرين بالأغاني والانتقادات اللاذعة، والنظرات المسمومة، والاستنكار الشديد، ولو أمكنني جمع الأغاني التي قيلت آنذاك لملأت مجلدًا ضخمًا.

ولم يستمر هذا الزواج فترة طويلة، فقد تم الطلاق فجأة كما حدث الزواج فجأة، ولم ينس الناس القصة إلا بعد فترة ليست بالقصيرة، وعادت المسكينة إلى وحدتها وألمها مرة أخرى، لكني سمعت من أحد جيرانها أنها قالت والدموع على خديها: «يا بلد ظالمة.. منكم لله».

في المدينة تحدث أمور كثيرة لا تلفت النظر، ولا يهتم بها أحد، وتعتبر في حكم التصرفات العادية، أما القرية فإن الأمر يختلف، إذ ليس هناك سر يخفى، ولا حادثة تهمل، كل ما يجري مجال للتعليق والنقد والمؤاخذة، ويا ويل من يأتي عملًا يجافي العرف أو يخرج على التقاليد، حتى ولو كان في نطاق الحلال أو الشرعية..

وعندما ماتت المسكينة كان المشيعون يرددون: «سامحها الله وغفر لها».

ولم يعلقوا بشيء على أنها لفظت أنفاسها وحيدة دون أن يتشهد عليها أحد، أو يلثمها كما جرى العرف، ولم يكتشف موتها إلا في الصباح حينما دقت عليها الباب إحدى قريباتها..

***

[6] الحب في قريتنا

قريتنا تخاف الله، ويحرص أبناؤها على أداء الصلاة والصوم والزكاة، والقادرون منهم يتسابقون إلى أداء فريضة الحج، لكنها لا تخلو من المنحرفين وهم قلة إذا ما قورنوا بالعدد الكلي للسكان، والانحراف القليل فيها له مظاهر عدة، منها تعاطي المخدرات، والسرقة، وهناك اثنان أو ثلاثة يحترفون شهادة الزور، أي أن أي واحد يستطيع أن يستأجرهم في أية قضية من القضايا، حتى أصبحوا معروفين في المحكمة الأهلية والشرعية، ونادرًا ما ترتكب جرائم القتل والنصب والتحايل، والذين يرتكبون هذا الإثم أو ذاك يتصفون بقدر غير قليل من الوقاحة وقلة الحياء، وأهل القرية ينظرون إليهم نظرة اشمئزاز وكراهية، فلا يتعاملون معهم إلا عند الضرورة، ويتحاشونهم حتى ينجوا من أذاهم.

والحب في قريتنا متهم.. لأن مدلوله فيها النزوات والجنس والخطيئة.. والإنسان الذي يريد أن ينأى بنفسه عن موطن الشبهات والتهم، يجب أن يسقط كلمة الحب من قاموسه، ويضع مكانها كلمة «الزواج»... حتى الزواج في بعض الظروف والملابسات قد يكون مدعاة للنقد واللوم وكأنه جريمة.

«محمد ط.ب» شاب مستور، حباه الله بزوجة جميلة، أنجب منها البنين والبنات، فضلًا عن أن أباها رجل محترم واسع الرزق، يمتلك بضعة أفدنة، وذات يوم وقع محمد في شراك الحب.. ذاب عشقًا في أرملة سمراء فاتنة، كان كالمسلوب الإرادة، أهمل أم عياله وانصرف كلية إلى «هنداوية».. وأخذ الهمس يدور، واعترى القلق أم محمد، كانت امرأة قوية الشخصية، صارمة، حذرت ابنها مرارًا وتكرارًا دون جدوى، لم أكن أصدق وأنا طفل أن يبكي رجل، ويمشي في طريقه إلى الحقل ذاهلًا، ويجلس تحت الشجرة مكتئبًا حزينًا، هل يمكن أن يحدث ذلك من أجل امرأة؟ ولم يكن هناك من تفسير لحالة «محمد» سوى أنه واقع تحت تأثير السحر الذي دبرته له هنداوية، كانت زوجة عمي رحمها الله من أسرة محمد، وتجلس كل يوم لتروي العديد من التفاصيل عن هيامه وانسياقه لسلطان الحبيبة.. ورأيتهم

يأخذون محمد لرجل مشهود له بالكفاءة في التعاويذ والرقى وتحضير الجان.. اسمه «الحزوبي».. كان الحزوبي واسع العينين، أبيض الوجه، قليل الكلام، متزن الحركات.. إذا جلست على مقربة منه كان يتلبسني خوف شديد حتى بعد أن بلغت الخامسة عشرة.. ويجلس الحزوبي عادة في غرفة مظلمة، ويطلق البخور.. ويتمتم بكلمات مبهمة متلاحقة، أو يكتب على الورق بحبر غريب دموي الشكل كلمات خالية من الهمزات والنقط تصعب قراءتها، ويسقى محمد محاليل لا أعرف كنهها، ويعلق في عنقه أو تحت ملابسه «حجابًا» من جلد سميك.. ومحمد يجلس قلق النظرات، يتلفت يمنة ويسرة، وما إن يعود إلى بيته حتى يتعشى وينام.. وفي وقت متأخر من الليل يتسلل إلى بيت هنداوية..

واختفى محمد فجأة ليوم كامل، ظنوا أنه هجر البلد بعد أن بحثوا عنه لدى أصدقائه وفي الحقول، وتجسسوا عليه لدى هنداوية، وكادت أمه تجن.. إن المعشوقة ليست من مركزه أو في مستواه، وصهر محمد رجل مرموق وقصة الحب أساءت لكلتا الأسرتين، لدرجة أن الصهر أتى ذات يوم مصرًا على اصطحاب ابنته وأولادها احتجاجًا واستنكارًا لما يجري، لولا أن تدخل الوسطاء الطيبون..

لم يكن لقريتنا حديث غير محمد وهنداوية.. اعتبروا ما يحدث انحرافًا وخطأً جسيمًا وتصرفًا يغضب الله، وعند عودتي ذات يوم من مكتب تحفيظ القرآن، رأيت حشدًا كبيرًا من الخلق، نساءً ورجالًا وأطفالًا، وكان الضجيج الممتزج بالصياح، والثرثرات العالية تصم الآذان، تخيلت أن جريمة قتل قد ارتكبت، وتسللت عبر الزحام، متتبعًا خط التجمع.. ووجدتني في بيت هنداوية الذي لا يوجد فيه موضع لقدم.. كان محمد يقف فارعًا، وقد لفت أمه شالًا أسود حول عنقه، وهي تهز وتجره في عنف وحسرة، وتصب عليه اللعنات والشتائم المقزعة.. ورأس محمد يهتز مع جذب الشال الذي يطوقه، ونظراته الزائغة الحائرة المبللة تثير الأسى.. وإلى جواره هنداوية ممسكة يمينه، متشبثة به.. وهي تصرخ قائلة: «محمد زوجي على سنة الله ورسوله.. زوجي يا ناس يا شر...».

كان المشهد مسيئًا محزنًا، ولم يكن بإمكاني أن أتعمق مشاعر الحاضرين آنذاك، لكن غالبية النسوة الموجودات كن يكلن السخط واللعنات على هنداوية الفاجرة.. قليلة الحياء.. قليلة الدم، والتي تريد أن تخطف الرجل من امرأته وعياله. وتعليقات كثيرة يقذف بها هنا وهناك،

تتحدث عن بنت الأصول التي أهملها زوجها، وذهب إلى امرأة تافهة حقيرة.. وبرغم جمال هنداوية الذي أتملاه بنفسي كنت أسمع إحدى النسوة تقول: شكلها مثل القرد والعياذ بالله.. لكن قلبي كان مع هنداوية.. أحسست بالشفقة عليها.. لم يكن لدى طفل مثلي أسباب جوهرية مفهومة لهذا التعاطف، وكدت أبكي من أجلها، وكان لها طفلة صغيرة في مثل سني تقريبًا من زوجها الراحل، كانت صورة طبق الأصل من أمها.. كانت تصرخ وتتأوه في خضم الزحام دون أن يلتفت إليها أحد..

وعلمت فيما بعد أنهم أجبروا محمد على طلاق هنداوية [1].

وعاشت المسكينة سنوات طويلة بلا زواج.. حتى وافاها الأجل المحتوم.. هذا بعض ما كان يحيق بالرجال إذا فكر أحدهم في الزواج من امرأة ثانية، لكنني على النقيض من ذلك عندما حدثت قصة أخرى رأيت للناس مواقف سلبية غريبة، مع أنه كان الأولى بهم أن يكونوا أكثر حنقًا وثورة..

كان (ح) رجلًا من أعيان القرية موفور الصحة والقوة، تزوج من امرأة على جانب كبير من الروعة والجمال، وكانت من المدينة، ولا يعرف أحد أن قدميه ساقتاه إلى شارع «المومسات» في طنطا، وغرق حتى قمة رأسه في حب داعرة يطلق عليها «روكة».. وتدهور وضعه الاجتماعي والاقتصادي من جراء هذا «الحب الحرام» إذ انحرف إلى المخدرات والمسكرات، واتخذ من المدينة مقرًا شبه دائم، وأهمل زوجة وابنه ومصالحه، بل الأدهي من ذلك، أنه باع أكثر من ثلاثة أرباع أملاكه الزراعية، وصمدت زوجته للمحنة في بطولة نادرة، لم تتمرد أو تهجر بيتها، بل ظلت وفية لزوجها وولدها الذي تشرف على تعليمه وتدبير شئونه.. لم تكن تتكلم في الموضوع معه أو مع غيره، ولم يستطع أحد من أهل القرية أن يوجه إليه في يوم من الأيام نقدًا مباشرًا، أو حتى نصيحة أخوية، كان ذا بطش وعنجهية ولا يقبل مجرد الملاحظة العابرة، وألجم الجبن والخوف الأفواه.. وبقي (ح) على هذا الوضع لسنوات.. حتى أوشك على الإفلاس، لكنه لم يكن ليرتدع لو لا أن حدث أمر..

لقد ذهب إلى «روكة» ذات يوم، فأغلقوا الباب في وجهه، وأنكروا وجودها، فدفع الباب بقوة ودخل، كانت تجلس مع ضحية أخرى أكثر مالًا وشبابًا.. وسدد إليها نظرات اللوم

(1) انظر قصة «الأرملة الساحرة» مجلة الكواكب، وضمن مجموعات القصص القصيرة.

والعتاب.. فقالت ببساطة أذهلته: «لم أعد أريدك.. لا أطيقك.. يا أخي أرحني من وجهك.. ما هذا؟ أليس عندك كرامة.. أعوذ بالله...».

وخرج يجر ساقيه جرًّا، ذهب إلى زوجه، أمرها بأن تتزين وتلبس أفضل ما عندها، ففعلت، ثم أخذها وسافرا إلى طنطا، كانت تمضي خلفه لا تدري أين يذهب بها، ودق أحد الأبواب، وخرجت امرأة وما إن رأته حتى قالت في ضيق: «أوه.. هل عدت ثانية؟ قلت ألف مرة لا أريد أن أرى وجهك..».

قال في توتر: «هذه آخر مرة.. فقط أتيت لترى هذه المرأة..».

قالت وهي تضحك في ميوعة: «عاشقة جديدة؟ لقد أحسنت الاختيار يا ملعون..».

وتدخلت زوجته قائلة: «كيف تسمح لها بأن..».

قاطعها قائلًا: «هذه زوجتي.. أردت فقط أن أثبت لك أنها أحلى وأشرف منك ألف مرة.. أنت لا شيء بالنسبة لها»، ثم بصق عليها.. وانصرف..

قالت زوجته: «ماذا يجري..».

هز رأسه وجبينه يتصبب عرقًا: «هذه روكة..».

وتاب (ح) بعدها، وذهب إلى بيت الله الحرام ليؤدي فريضة الحج، واستقامت حياته، وأصبحت بين البيت والمسجد والتجارة، وقراءة القرآن، وعاش لزوجته وولده كالأب الحنون، بل كالخادم، وقد ربطتني به صداقة وطيدة في أخريات أيامه، وأشرفت على علاجه عندما أصيب بداء عضال من الأمراض الخبيثة.. رحمه الله..

وما أطرف قصص الحب في قريتنا، قصة ذلك الدرويش الذي قد أخذ العهد على شيخنا المداح، ومصدر الطرافة أنه أحد المتصوفين، وكان هو الآخر متزوجًا، وشاع أمر تعلقه بالحبيبة بين الناس، وذات مساء، وكنا نجلس لنشاهد حلقة الذكر ونستمع إلى المدائح النبوية، وجدنا الشيخ المداح يتخذ له طريقًا بين الجالسين، ثم يقصد ناحية بعينها في حلقة الذاكرين، ويمسك بطوق درويشه «المتهم» ثم يطلب منه أن يغادر الصف.. لكن الدرويش هزّ رأسه في خضوع وهو يتمتم «حاضر.. حاضر»، وأخذ الشيخ يرغي ويزبد بعبارات لم أفهم منها معنى واحدًا، وعيون الناس كلها مصوبة نحو بؤرة الاهتمام، وساد الصمت.. لكن الدرويش لم يغادر مكانه في الصف، وظل يذكر ويتطوح مع الذاكرين، حتى أخذته «الجلالة»

كما يقولون، وانفعل أيما انفعال، واستمر يردد اسم الجلالة بصوت عالٍ هستيري يخالطه البكاء «يا الله.. يا الله.. يا الله»، واقترب منه الشيخ «البقاش» وهو الذي ينوب عادة عن الشيخ المداح في قيادة حركة الذاكرين، والابتداء والانتهاء عند كل اسم من الأسماء الإلهية، وهتف به: «وحد.. وحد ربك.. واستغفر الله».

وعاد العاشق إلى الركب بعدها، وكنا نسمعه قبل أذان الفجر كل ليلة يطوف شوارع القرية تحت جنح الظلام، ويقول بصوت ندى:

يـــا نـــائمًا كيـــف المنـــام يطيـــبُ

المـــوت حـــق والفـــراق صـــعيبُ

ثم يستطرد: «الصلاة يا مؤمنون الصلاة.. الصلاة خير من ا لنوم.. يا نايم.. قم وحد الدايم» وسرعان ما انطمرت القصة في طي النسيان..

لكي تبقى القرية متمسكة بالحشمة والخشية من الله في كل ما يتعلق بالعاطفة التي تشب بين الرجل والمراة، كانت موجودة لكن كان لها آدابها وتقاليدها التي لا تخرج عنها، وكان الحبيب يهادي حبيبته خفية، كأن يرسل إليها زجاجة من العطر، أو غطاء جميلًا للرأس، وكانت هي الأخرى تبادله نفس المشاعر فترسل إليه كمية من الفواكه الشهية، أو منديلًا رجاليًا، أو وجبة دسمة، تبعث بها دون أن يشعر أهلوها وذووها، وكان انفراد الحبيب بحبيبته أمرًا بالغ الصعوبة بل متعذرًا، وغالبًا ما تكون مثل هذه التصرفات بدايات أو مقدمات للزواج، وليست للعبث أو للاستغلال، ويا ويل الفتاة التي يكتشف أمرها عندما تهادي من اختاره قلبها، كانت تحبس في البيت، وقد تعاقب بالعصي أو الكرباج، وقد يصل الأمر للقتل، وخاصة إذا لحقت الشبهة بعذراء من أسرة كريمة ذات وضع اجتماعي متميز، ولهذا فإن التشدد في مثل هذه الأمور أمر يقبله المجتمع القروي ويدعو إليه بإيمان وقوة، ولا تجد المخطئة أو المخطئ تعاطفًا معهما من أية ناحية من النواحي، فلا يمكن أن تتدخل الأم أو الأخت لحماية من تقع في هذه المحظورات.. إنه «العيب» الذي لا عيب بعده.. لقد مر على هذه الصورة الآن ما يقرب من خمسة وأربعين عامًا.. فهل بقيت قريتنا كالعهد بها؟

البنات اليوم في قريتنا يسرن سافرات مبرزات مفاتنهن، وعدد كبير منهن يعملن كمدرسات في مدارس القرية الكثيرة، وفي الوحدة المجمعة، وفي القرى والمدن المجاورة،

والسيارات تزحم الشوارع، والشبان والشابات يتقابلون ويتناقشون ويسيرون جنبًا إلى جنب، ويتراسلون، وينظمون شئون الحب والزواج، ولهن حرية الاختيار، فلا يكاد يفرض على أي طرف الزواج من شخصية بعينها إلا في القليل النادر، لكن لم يزل هناك عدد كبير من النسوة يرتدين الزي الشرعي، ويتسمن بالحشمة والوقار، لا عن خوف، بل عن عقيدة وإيمان..

لقد حدث انقلاب كبير في قريتنا بعد شيوع الراديو والتليفزيون وانتشار التعليم على أوسع نطاق.. واقتضت ظروف الحياة أن يتفرق أفراد الأسرة إلى أماكن شتى في طلب العلم والرزق وبسبب الزواج، ومن ثم ولد مجتمع جديد له قيمه ومواصفاته الخاصة، التي نتجت عن التحولات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية..

كما تغير نظام الطبقات.. فصعد أقوام كانوا في الحضيض، وهبطت أسر طالما تعالت وأمسكت بزمام الأمور، وفرضت مشيئتها على المستضعفين والفقراء..

ومات كبار الملاك، وتوزع الميراث على الأبناء والأحفاد، وتحولت الملكيات الكبيرة إلى مساحات صغيرة، بل إن بعض الورثة قد باعوا أملاكهم للفلاحين بنصف الثمن، ورحلوا إلى المدينة.. ومات الشيخ المداح حيث شيع جثمانه في موكب مهيب لا مثيل له.. وتولى أحد أبنائه الطيبين «الشيخ عبد الحكم» الخلافة من بعده، إلى جوار عمله كموظف حكومي، ولم يزل محافظًا على أن يأتي إلى القرية مساء كل جمعة، ليلتقي بالبقية الباقية من دراويش أبيه وبالأعضاء المنتسبين الجدد في حلقات الذكر، حيث يفوح أريج الإيمان والطاعة والحب والصفاء..

ومات حضرة العمدة صاحب الحول والطول والبأس!! مات وخيم السكون على «الدوار» بعد أن أقيم في القرية «نقطة للشرطة» بها ضابط وعدد من رجال الشرطة، ولم يعد هناك تنافس رهيب على منصب «العمودية» وهرب الأجراء من شظف العيش وقسوة العمل في الحقل، إلى آفاق الدنيا البعيدة، حيث ركبوا الطائرات بحثًا عن موارد أفضل وأيسر للرزق، وكثرت الحرف المتعلقة بالعمران والسيارات وغيرها، واختفى «النورج» الذي كان يستخدم في تخليص حبوب القمح من سنابلها، وكذلك «الطنبور»، وحلت الآلات الزراعية الحديثة محل الوسائل العتيقة، وقل -إلى حد كبير- عدد العاملين في الحقول، حتى اضمحلت

المحاصيل، وارتفع أجر العامل الزراعي بصورة جنونية، فبعد أن كان أجر العامل ثلاثة قروش في اليوم أصبح أربعة جنيهات مضافًا إليها الطعام والشراب أثناء العمل.. ولم يعد لتلاميذ المدارس من عمل أثناء الصيف سوى المناقشات السياسية، والسمر في الليالي الطوال، وقصص الحب والغرام، والانتماء لنادٍ من الأندية الرياضية، والاستماع للمطربين الجدد – وبعضهم أجانب – والبحث عن أصباغ جديدة للشعر والملابس.

ليست هذه قريتنا التي عرفناها.. لكن هناك بقية من الجيل القديم تقرأ على وجوههم ذكريات الأيام الخوالي وما كان فيها من صفاء وبساطة وقناعة.. وليس فيهم من يعاني من أمراض الضغط والسكر أو الانهيار العصبي..

وسبحان مقلب القلوب والأبصار.

***

[7] إلى المدينة

انتهت المرحلة الابتدائية بهمومها ومشاقها، وكان ترتيبي الخامس على جميع طلبة منطقة وسط الدلتا، وقد أدينا الامتحان في مدينة طنطا، كانت شهادة الابتدائية لها قيمة كبيرة في ذلك الوقت، فالإنسان الذي يحمل الابتدائية يستطيع التحدث بالإنجليزية لحد ما، ويتقن العمليات الحسابية، وكذلك القراءة والكتابة، وبمساعدة أحد كبار الشخصيات يستطيع أن يحصل على وظيفة قد تدر عليه أربعة أو خمسة جنيهات شهريًا.

لكن الآمال أصبحت أكبر من ذلك، مع النمو في الفكر والجسم والوعي، وانطلقت الزغاريد في بيتنا الريفي الصغير، وأعدت أكواب «الشربات» للمهنئين، وتجلت السعادة في وجهي أبي وأمي وخالتي مباركة وجميع من بالبيت، وبدأ التفكير في الالتحاق بالمرحلة الثانوية، حيث لم يكن للمرحلة الإعدادية وجود آنذاك، وكانت دراسة المرحلة الثانوية خمسة سنوات وهي فترة ليست بالقصيرة، وتحتاج لمصروفات الملابس والسكن وبعض الكتب والمواصلات الدورية، وكان واضحًا أنها مشكلة، لكن أبي قال في ثقة وإيمان: «لا تحمل همًّا.. الله معنا.. وسوف أتولى شأنك كله.. حتى ولو بعت كل ما أملك..».

وكان أقرب مدرسة لبلدتنا هي مدرسة «كشك الثانوية» بمدينة «زفتى» وكم كان غريبًا أن ترفض المدرسة منحي المجانية مع أني متفوق ومستوفٍ لكل الشروط، غير أنهم اكتشفوا أن أبي يمتلك عددًا قليلًا جدًا من الأفدنة، ولم يكن هناك مفر من دفع الرسوم والقسط الأول، واستأجرت مع بعض الأصدقاء غرفة صغيرة في شارع «أبو طاقية»، كنت أدفع نصيبي في الإيجار بضعة قروش، وكنت أنام على «كنبة» أو أريكة خشبية عليها حصير صغير، وفي داخل «الكنبة» خزانة لوضع الخبز والجبن، رصيدنا الأبدي من الطعام، لكننا كنا في نهاية الأسبوع نركب قطار «الدلتا» حتى قرية سنباط، ثم نكمل الرحلة إلى قريتنا مشيًا على الأقدام، وكأن مشوار سنباط – شرشابة أصبح من قدرنا..

وفي الإجازة الأسبوعية نأكل ما لذ وطاب من الطعام الدسم حتى نعوض أيام القحط في معظم الأسبوع، وكان أمام المدرسة، وخاصة في أوقات البرد القارس، رجل يصنع «سندوتشات» الفول والطعمية الساخنة اللذيذة، وكلما وقع بصري على القدر النحاسي تحت موقد الجاز، يتحلب ريقي.. لكن المصروفات لا تكفي، وكنت آخذ نصف سندوتش بنصف قرش مرتين أسبوعيًا، ثم أتجنب النظر إلى القدر النحاسي في باقي الأيام، لكني كنت أشاهد المقتدرين يأكلون حتى يتخموا، فأتمنى أن أكون مثلهم، وسبحان مقسم الأرزاق والحظوظ!

كانت مدينة زفتى في منتصف الأربعينيات من القرن العشرين، مدينة صغيرة أقرب إلى القرية منها إلى المدينة، وكان الفلاحون من القرى المجاورة التابعة لمركز زفتى يزحمونها كل يوم بحميرهم الكثيرة التي تزحم الشوارع المتربة، وكثيرًا ما كان الفلاح يترك حماره في مبنى خاص بالحمير، يطلق عليه «الوكالة» مقابل أجر زهيد، وأخوف ما يخافه الفلاح في المدينة، أن تأخذ السلطة منه حماره إذا كان يبدو عليه العرج أو الضعف أو به بعض القروح، طبقًا لأوامر «جمعية الرفق بالحيوان» لأن الحمار إذا أخذ، فسيقضي أيامًا تحت الرعاية الصحية، ثم يرغم الفلاح على دفع مبلغ من المال نظير ذلك، ولذلك كان الفلاحون يرتجفون خوفًا من أخذ الحمار إلى «الشفاخانة» كما يسمونها، وأظن أن معنى الكلمة «مستشفى» باللغة التركية، وكان أبي يعلق على ذلك ساخرًا: «ولماذا لا يأخذون الفلاح نفسه إلى «الشفاخانة»؟ إن حالته الصحية أسوأ من حالة حماره...».

وتقع مدينة «زفتى» على شاطئ فرع النيل، في مقابل مدينة «ميت غمر» التي تقع على الشاطئ الآخر، ويصلهما كوبري (جسر) ضخم متين، تمر عليه السيارات والقطارات والمشاه والحيوانات، ولكل طريقه الخاص به، والجلوس على شاطئ فرع النيل متعة كبيرة في هذا المكان، حيث توجد بعض البيوت القليلة الجميلة، وناد لكبار الموظفين، وبعض السفن والقوارب، وقد كنت ارتاح لمجرد الجلوس وإطالة النظر إلى الماء الجاري، وهو يتدفق في وقار وهدوء وقوة، وقد حدث بعد ذلك أن أحد زملاء أخي رسب في إحدى السنوات الدراسية، فجاء أبوه وأشبعه سبًا وتأنيبًا وضربًا، ولم يستطع الولد أن يتحمل أكثر من ذلك، فجرى صوب الكوبري، وأبوه يجري وراءه، وفي منتصف الكوبري ألقى الولد بنفسه في الماء.. كانت مأساة.. لم يسرع أحد لإنقاذه في الوقت المناسب.. لقد غاص إلى الأعماق البعيدة.. وأبوه يبكي ويمزق ملابسه..

ولقد كان لزفتى كما قلت تاريخ معروف في مصر، فقد اشتعلت فيها الثورة في عام 1919 عندما اصطدم الشعب وسعد زغلول باشا بالإنجليز، وحدثت معركة صغيرة حول هذه المدينة الصغيرة الثائرة، وأعلنت زفتى استقلالها، كما أعلنت عن إقامة جمهورية فيها أطلق عليها «جمهورية زفتى»، وكان يرأسها المرحوم «يوسف الجندي»، واستطاع الإنجليز أن يقضوا على الثورة، وأن يخضعوا أهل المدينة، وظل يوسف الجندي وأسرته من بعده مكروهين من الملك وحاشيته ومن الإنجليز حتى وقت طويل.. وقد وصف المؤرخ الأستاذ الكبير عبد الرحمن الرافعي هذه الواقعة في كتابه «تاريخ الحركة الوطنية في مصر».

أما مدينة «ميت غمر» فقد شاع ذكرها بسبب الحريق المشهور الذي التهمها عن آخرها، والذي كتب فيه شاعر النيل حافظ إبراهيم قصيدة رائعة يقول في مطلعها:

سائل الليل عنهمو والنهارا
كيف باتت نساؤهم والعذارى
كيف أمسى رضيعهم فقد الأم
وكيف اصطلى مع القوم نارا
كيف طاح العجوز تحت جدار
يتداعى، وأسقف تتجارى
رب إن القضاء أخنى عليهم
فاكشف الكرب واحجب الأقدارا
ومر النار أن تكف أذاها
ومر الغيث أن يسيل انهمارًا

...... إلخ.

وعلى أثر هذا الحريق المدمر، قامت جهود شعبية وحكومية كبيرة، لإعادة بناء المدينة (عام 1904)، وقد أقيمت على طراز أحدث، مما جعلها تفوق زفتى جمالًا وعمرانًا وحركة.

وفي هذه الأيام الأولى لي في زفتى، حدث أمر مهم لم أكن أعلم أنه سوف يكون بعيد الأثر في حياتي كلها.. فقد جاء يوم الهجرة النبوية، وأشار علي أحد الزملاء الذين يكبرونني سنًا وعلمًا وقال: «هناك احتفال سيقام الليلة بمناسبة الهجرة النبوية في ميت غمر.. وسيقيم هذا الحفل الإخوان المسلمون.. ويستحسن أن تحضروا معنا..».

لم أكن أعرف طبيعة مثل هذه الاحتفالات، وكنت في شوق لأن أرى أي شيء جديد لا أراه في القرية، وذهبت.. كنت أستمع إلى شاعرهم الذي سيطر على لبي وهو يحكي في شعره قصة الهجرة، وعظمة الرسول، ووفاء أبي بكر الصديق، واستمعت إلى الخطباء، لقد تحدثوا عن الإسلام وصموده وتضحياته، ثم انتقلوا إلى واقع الحياة التي نعيشها، وربطوا بين مجد الإسلام وانتصاراته وتضحيات رجاله، ثم قارنوا بين وضع المسلمين الحالي وما هم فيه من ضعف وهوان واستعمار..

إنه أسلوب جديد في الخطابة والاحتفال بالنسبة لي.. وتفتح قلبي وعقلي لما أسمع.. ومما لفت نظري أيضًا الهتافات التي يرددونها.. كان المألوف في ذلك الوقت أن نهتف بحياة الزعماء والأشخاص البارزين والحزب ورجاله.. لكني أسمع الليلة هتافًا من نوع آخر.. الله أكبر ولله الحمد...

الله غايتنا.. والرسول زعيمنا.. والقرآن دستورنا.. والجهاد سبيلنا.. والموت في سبيل الله أسمى أمانينا.. لا إله إلا الله.. عليها نحيا...، عليها نموت...، عليها نلقى الله.. هكذا كانت الهتافات..

وسمعت نقدًا لاذعًا لرئيس الوزراء والوزراء والساسة بصفة عامة.. كان الأمر جديدًا بالنسبة لي تمامًا في شكله ومضمونه.. وكنت مندهشًا وأنا أرى أعضاء شعبة الإخوان المسلمين يتلاقون في شوق ومحبة وسعادة، وأرى على وجوههم النظيفة الإشراق والإيمان والثقة، بل صوت مؤذنهم وهو يؤذن لصلاة العشاء كان ذا وقع أخاذ ساحر.. يهز القلوب، ويسمو بالأرواح..

قال لنا صديقنا الأكبر «الحسيني موسى»: «هل سعدتم بهذا الحفل..».

قلت في حماسة: «جدًا.. جدًا.. أريد أن أذهب معك كل مرة».

لم أقض في زفتى ومدرسة «كشك الثانوية» سوى فترة لا تتجاوز الشهرين، وشعرت بضيق ما بعده ضيق، لقد انسلخت عن رفاقي وأقاربي القدامى الذين ذهبوا إلى طنطا، وشعرت بالغربة أيضًا.. غربة نفسية، وخيل إليّ أن زفتى ضيقة ومملة.. وكم رقص قلبي من الفرح حينما عرض عليّ خالي وزميلي «إبراهيم» التحويل إلى طنطا.. ووافق أبي على ذلك.. لكن المشكلة أن الصف الأول الثانوي ليس فيه مكان شاغر في أية مدرسة بطنطا.. وتفتق ذهن خالي إبراهيم عن حيلة، وقد كان طالبًا في مدرسة الزراعة الثانوية بطنطا، إذ عرض على أن أتحول إلى مدرسته، سوف يمنحونني المجانية، فضلًا عن أن الصف الأول والثاني في الزراعة دراستهما ثانوية، ويمكن التحويل في العام التالي إلى أي مدرسة ثانوية صرفة..

وتم الأمر بسرعة وسهولة، وودعت زفتى..

وابتسم أبي في سعادة وقال: «كنت أعلم أنك تحب طنطا..».

ثم أحاطني بيمناه القوية، وشدني إليه في حب وقال: «طنطا عظيمة.. وفيها شيخ العرب السيد البدوي.. لكن تجنب الأخطاء التي وقع فيها عمك «عبد الفتاح».. ويكفي ما حدث..».

شعرت بالألفة والارتياح في مدرسة الزراعة، كان معظم الطلبة كبارًا في السن، كما كانت قدراتهم العلمية والأدبية ضعيفة، مما جعلني أتألق وأتفوق وأصبح معروفًا جدًّا لدى الطلبة والمدرسين والناظر، حتى العلوم الزراعية الإضافية تفوقت فيها، وما زلت أذكر صوت مذياع المدرسة في الصباح، وهو يصدح بالموسيقا والقرآن الكريم والأغاني والأناشيد العذبة، وأذكر زميلنا القصير السمين والطربوش فوق رأسه، وهو يقف عند سارية العلم، ويهتف بصوت أجش:

«عاش فاروق الأول ملك مصر والسودان وملحقاتها..».

«مصر والسودان لنا، وانجلترا إن أمكنا».

«النيل لا يتجزأ.. شعب واحد.. وطن واحد».

ودخلت معامل العلوم لأول مرة، وأخذت أتعلم كيف أجري التجارب، واستعمل الميزان الحساس، وأتفحص الخواص الكيميائية والطبيعية لبعض المواد.. كما كنا نذهب إلى بعض المزارع الحكومية لندرس المزروعات وبعض المحاصيل في الهواء الطلق، وكنا نغني ونمرح في السيارة التي تسرع بنا صوب الحقول..

وذهبنا ذات يوم لحضور مباراة لكرة القدم بين مدرستنا الزراعية والمعهد الديني بطنطا.. وكانت مباراة حامية الوطيس جرت على أرض نادي فؤاد الأول الرياضي (نادي طنطا حاليًا)، وكانت المباريات التي تقام بين المدارس والأزهر دائمًا مباريات حساسة حرجة، تتسم بالكثير من التعصب والتوتر، وأثناء اللعب تبودلت بعض العبارات التي لا تليق، والتي بدأها طلبة الزراعة، كأن يقولون:

أفقعهـــــا «هـــدًّا» يــــا أســـــتاذ

لعلهـــــا تـــــأتي «بجَـــوْن»

قبقابًــــا يغنـــي عـــن الجزمــــة

مَنْــــتُفْلي يُغنـــي عـــن الجزمــــة

يـــا «مجـــاور» عمتـــك دابـــت

م الـــــسلطة والفـــول النابـــت

واحتدم الخلاف، وتبودلت الشتائم، وجاء أحد أصدقائي الأزهريين الأخ «مصطفى عبد الحافظ»، وهمس في أذني محذرًا، ونصحني بأن أخرج من النادي قبل انتهاء المباراة بعشر دقائق، فقد تحدث مجزرة.. وفعلًا عملت بنصيحته، وقبيل انتهاء المباراة، أسرعنا بالانصراف أنا وبعض الأصدقاء، ووقفنا لدى باب النادي بعيدًا نترقب ما سوف يحدث، وما إن انتهت المباراة حتى اشتعلت المعركة بين جمهور المتفرجين، وشملت اللاعبين أيضًا، وأسفرت عن عدد كبير من الإصابات، حيث سالت الدماء، وتمزقت الملابس وكان أمرًا مؤسفًا.

في مدينة طنطا، سكنت مع خالي إبراهيم ومالك، في غرفة مشتركة، لم يكن من الصعب في تلك الفترة أن نجد مسكنًا، وأذكر ونحن نبحث عن السكن أن هناك عشرات الأماكن الخالية، وبالطبع كان مقرُّنا في أحياء طنطا القديمة، مثل «كفرة على أغا» وكفرة «الحمرة»

وغيرهما ونذهب صباح كل جمعة للحمام العمومي وندفع نصف قرش لنستمتع بالماء الساخن، وننظف أجسادنا تمامًا، بحيث تكفي لمدة أسبوع في الشتاء وكانت المدرسة تصرف لنا وجبة غذائية يوميًا من الأرز واللحم والخضار تعتبر الأساس الغذائي لحياتنا اليومية، كما كنا نذهب مرتين أسبوعيًا للسينما، وأصبحت السينما إدمانًا بالنسبة لنا، أما المسرح فلم يكن له وجود في طنطا.. حتى يومنا هذا..

أما المكتبة العامة فقد كانت مكانًا مفضلًا لي عصر كل يوم، كنت آخذ كتب كبار الأدباء وأقرؤها بشغف زائد، وأسجل في كراستي الصغيرة بعض المقتطفات المهمة، وهناك مجموعة «أصدقاء المكتبة» حيث نلتقي هناك معظم الأيام، ونتبادل الآراء حول بعض الكتب المهمة، لكن رواد المكتبة بصفة عامة لم يكونوا كثيرين، مع أن المكان نظيف، والجو هادئ، وعلى عربات الكارو التي تتمركز أساسًا حول ضريح «السيد البدوي» تستطيع أن تشتري الكتب القديمة أو المستعملة بقرش أو قرشين.

وذات أصيل خرجت إلى شاطئ ترعة القاصد لأذاكر في الهواء الطلق، شعرت بآلام شديدة في بطني من الجهة اليمنى، فاقتعدت كومة عالية من التراب، وبقيت مكاني أذاكر دروسي، ومر بي رجل من أهل قريتنا، فقمت لأصافحه، وأدرك الرجل بفراسته ما أعانيه من آلام، ونصحني بالعودة إلى البيت وشرب «كمون مغلي».. وفي المساء كانت الآلام فوق الطاقة، فأخذني خالي إبراهيم إلى طبيب قريب له في بيته، وقام بفحصي ثم سقاني جرعة دواء، بعد أن شربت قلت له: «ما بي؟».

- «شيء بسيط.. لا تخف...».

قلت: أخاف أن يكون عندي التهاب الزائدة الدودية.

التفت إلي وقال في دهشة: «من أخبرك بذلك؟».

- «لا أحد..».

قال في شيء من التردد: «إذا زاد التعب، فلتحضر إلي مرة ثانية..».

وانصرف، وركبنا «الحنطور»، وأخذ الحصان الذي يجر العربة، يدق الأرض بحوافره الصلبة، وأنا أتأوه.. وعند الفجر وضعت يدي مكان الألم فوجدته يكاد يكون متورمًا ومؤلمًا جدًا، ثم تقيأت.. وأرسلنا أحد الزملاء إلى الطبيب في الصباح الباكر ليخبره بتطورات الحالة،

فأمر بنقلي على الفور إلى المستشفى، لم يكن معنا أحد يرعانا، فلجأنا إلى «ابن العمدة»، وكانت له تجربة سابقة في عملية الزائدة الدودية، فأخذني إلى مستشفى الأمريكان، لم يكن معنا مال يكفي لدفع عربون مستشفى خاص، وقام أحد الزملاء بالاتصال بالقرية عن طريق الهاتف كي يحضروا أبي.. وعرف رجل من أقربائنا الوضع الذي نحن فيه، فحضر معنا إلى المستشفى، ودفع عشرة جنيهات تحت الحساب.

وأجريت الجراحة بعد وصول أبي مباشرة، كانت هذه أول مرة في حياتي أتعرض لمبضع الجراح، تحت تأثير التخدير النصفي، وكانت هذه العملية تعتبر خطيرة في تلك الفترة، إذ لم تكن المضادات الحيوية قد استعملت بعد، وحضرت أسرتنا بعد ذلك عن بكرة أبيها.. النساء والأطفال والرجال، كما حضر رهط من الجيران والأقارب. وشفيت بحمد الله...

في أمسيات المستشفى الساكنة، كان يأتي أحد المبشرين، ويعرض لنا صورًا ملونة عن سيدنا عيسى عليه السلام، ويشرح لنا، لماذا أرسل الله ابنه إلى الناس رسولًا نبيًا، وأذكر أنه من ضمن ما قال: كان هناك صاحب مزرعة، يعيش بعيدًا عنها، ولما تمرد عليه الفلاحون وعصوا أمره، أرسل إليهم الرسل، كي يلتزموا بالأصول، وينفذوا الاتفاقات المبرمة، ويسيروا السيرة الحسنة، ويدفعوا ما عليهم من مال، ويقوموا بالواجبات، وبعد أن يئس من هدايتهم، أرسل إليهم ابنه، فقتلوه.. ثم ندموا بعد ذلك ندمًا شديدًا، وتعاهدوا على الاستقامة والطاعة... إلخ.

ثم أخذ يشبه لنا صاحب المزرعة، بالرب الخالق، والفلاحين بعباد الله، وابن صاحب المزرعة بالسيد المسيح، أما الرسل السابقون فهو أنبياء الله.. وكنا كمسلمين نعترض هذه المقولات ونرد عليها بما نعرف من عقيدتنا..

وعقب شفائي مباشرة، تم تحويلي من مدرسة الزراعة إلى مدرسة طنطا الثانوية الجديدة في الصف الثاني.

وذات يوم كنت أقف في فناء المدرسة لأشهد مباريات كرة القدم التي أقيمت خصيصًا لاختيار الطلبة أصحاب المواهب الظاهرة، لينضموا لفريق المدرسة الرسمي، كنت مجرد متفرج، وكانت الفوضى تضرب أطنابها في الملعب، بحيث لم يستطع أحد أن يسجل هدفًا، وفجأة رأيت الكرة تقترب مني، وبحركة سريعة تلقفتها، ثم قلبتها للخلف في ركلة قوية،

لتسجل أول هدف في الشبكة.. وصفر المدرب بصفارته في انبهار.. ثم اقترب مني قائلًا: «لماذا لا تلعب معنا..».

قلت - «لأني مريض و...».

قال - «أنت خامة طيبة.. فهمت ذلك من طريقة استقبالك للكرة وتسديدك لها في المرمى.. لا شك أنك تلعب منذ زمن طويل...».

وبعد تجربتين، ثم اختياري عضوًا في الفريق الرسمي، ذلك الفريق الذي ظل يوالي انتصاراته في بطولة القطر حتى وصل للدور النهائي، وفازت مدرسة الإبراهيمية الثانوية بالكأس، وكان ترتيب مدرستنا الثاني، وكان يلعب ضمن فريق الإبراهيمية عدد من نجوم مصر في كرة القدم أذكر منهم طارق سليم..

تعتبر مدينة طنطا من أهم عواصم الأقاليم في مصر، فإذا كانت القاهرة الأولى والإسكندرية الثانية، فإن طنطا تأتي في المرتبة الثالثة، وهي عاصمة محافظة الغربية، وتقع وسط إقليم زراعي خصب، كما أنها ملتقى شبكات المواصلات في الوجه البحري، ولها شهرة في السياحة الدينية، وذلك لوجود ضريح السيد البدوي فيها، بالإضافة إلى عدد من الأضرحة الأخرى المهمة، كضريح سيدي «عز الرجال»، وضريح «الشيخة صباح» وغيرهما، وفي مولد السيد البدوي وعادة يكون في شهر أكتوبر من كل عام، يحتشد مئات الألوف في هذه المدينة، ويربو عدد المحتفلين، دائمًا، على المليون أو المليون والنصف في ربع القرن الماضي، ومن ثم تجد الشوارع مزدحمة، وكذلك المساجد والمحلات التجارية، والبيوت المخصصة للإيجار، بالإضافة إلى الساحات الواسعة التي تنصب فيها الخيام الكبيرة التي يخصص فيها جزء للرجال وآخر للحريم، كما يشترك في هذه الاحتفالات جميع فرق الطرق الصوفية كالشاذلية والأحمدية والنقشبندية والرفاعية وغيرهم، وفي الساحة الكبيرة -كما في مسجد الضريح- تتخذ كل طائفة مكانًا لها، ويمارسون طقوسهم الخاصة في الذكر والإنشاد والقراءة، فلا تكاد تجد موضعًا لقدم، والضجيج يعلو حتى يصم الآذان، وترى المجاذيب ومختلف الدراويش، يصيحون ويصرخون من وَلَهٍ وعشق، ويتطوحون يمنة ويسرة وأمامًا وخلفًا، وبعضهم يرتدي الملابس المرقعة بألوان زاهية مختلفة، وكذلك ترى ألوانًا متعددة للعمائم، والمسابح الطويلة تتدلى من أعناقهم، وقد تقف بعض النسوة خلف الرجال

ويتطوحن هن الأخريات، وكان الأزهر الشريف في طنطا يغلق أبوابه إبان المولد، أما طلبة المدارس فكانوا يذهبون كل مساء للتفرج أحيانًا، وللمشاركة في طقوس المولد أحيانًا أخرى، ولقد كتبت -وأنا سجين في أسيوط- قصيدة طويلة حول هذا المولد، نشرتها في مجلة «الأدب» التي كان يرأس تحريرها المرحوم الأستاذ «أمين الخولي»، ثم نشرتها بعد ذلك في ديواني «أغاني الغرباء»، وقد جاء في مطلع هذه القصيدة:

بالبـــــاب اصـــــطف مجاذيـــــبُ

وجـــــوار القـــــبر محاســـــيبُ

ألـــــوان الطيـــــف جلابيـــــبُ

وجمـــــوع تهتـــــف مـــــن حُـــــرَقِ

الله الله يـــــا بـــــدوي

وقد راعيت أن تكون موسيقا القصيدة ووزنها مرتبطة، باللحن الشائع الذي يردده الناس عن السيد البدوي والذي يقول «الله الله يا بدوي جا باليسرى» ولعل «اليسرى» يُقصد بها الأسرى، إذ المعروف أن «البدوي» اشترك في الحروب الصليبية مع عدد من المتصوفين، وخاضوا معارك ضارية ضد العدو، وأطلقوا سراح بعض الأسرى المسلمين.

وفي ساحات مولد البدوي تجد أنشطة شعبية متباينة، تجد اللعب السحرية والسيرك والمسارح الخاصة بالرقص والغناء والكوميديا القصيرة، كما تجد ألعاب الفتوة والمهارة، وألعاب الحظ والقمار، وغُرزًا للتدخين، وملاهي عابثة، ولذا يختلط الحابل بالنابل، والصالح والطالح، والنساء والرجال، والفلاحون وأصحاب الحرف، والتجار والصناع.

ويأتي يوم «زفة الخليفة» وهو موكب مشهود يستغرق الساعات الطوال، ويبدأ بعد صلاة الجمعة آخر الموسم، ويسير الموكب في الشوارع الرئيسية، وينتظم فيه طوائف الصوفية، واحدة بعد أخرى، ثم أصحاب الحرف كالسروجية والحدادين والنجارين والنحاسين وغيرهم، وترفع الأعلام والبيارق والشعارات الخاصة بكل طائفة، وتدق الطبول والمزامير وبعض الآلات الموسيقية، وتردد الأناشيد في هذا الموكب الطويل، ثم يظهر «الخليفة» خليفة السيد البدوي -راكبًا حصانه، لابسًا تاج الخلافة، مغمضًا عينيه، تحوطه التجلة والوقار، وما إن يهل بطلعته على المشاهدين والمشاهدات حتى تنطلق الزغاريد، وتعلو صيحات الفرح

والاستبشار، وتتماوج التكبيرات والتهليلات، في مشهد مثير رائع، يفوق في روعته مواكب القادة والزعماء وهم يحضرون المناسبات المهمة، وفي الليل تطلق الصواريخ الملونة في أنحاء طنطا وسط فرحة الأطفال والشباب وصياحهم، وبعد أن ينتهي «المولد»، تحمل الجمال الأمتعة والخيام ومختلف الأدوات، وتولى وجهها شطر البلدان التي وفدت منها على أمل العودة في العام القادم، بعد أن يكون الزائرون قد طافوا حول الضريح طواف الوداع!! وتسترخى طنطا بضعة أيام تحاول فيها تعويض ليالي السهر والزحام، وتنظف الشوارع، ويجهز التجار ميزانياتهم، ولا تنسى إدارة المسجد أن تحصى المبالغ الكبيرة من «النذور» التي وضعت في صندوق السيد البدوي، والتي يتم توزيعها وفق لائحة محددة أقرتها وزارة الأوقاف..

والمعاهد الأزهرية أو الدينية في طنطا، يطلق عليها «المعهد الأحمدي»، وقد لعب هذا المعهد دورًا بارزًا مهمًا في حياة الإقليم الثقافية والاجتماعية، وتخرج منه العديد من العلماء والشعراء ورجال الفكر والسياسة، كما كان له تأثير كبير في الحياة السياسية بالمدينة..

وفي طنطا العديد من المصانع والمحالج والنشاطات الصناعية الأخرى، كما تعتبر المدينة سوقًا رائجة للتجارة.

لقد أغرمت بهذه المدينة غرامًا ملك عليّ حواسي، فقد وجدت فيها العلم والثقافة والمتعة والذكريات الحلوة، ووجدت فيها القديم والجديد، والماضي والحاضر، وعلى الرغم من رفضي للكثير من الطقوس التي يؤديها الجهلة والعوام في ضريح السيد البدوي، من طواف وتقبيل للأعتاب والأبواب والنوافذ، ومن دعوات واستغاثات عجيبة، لا يصح أن توجه إلا لبارئ السماوات والأرض، على الرغم من كل هذا فقد كنت آنس بالذهاب إلى المسجد الكبير، وقراءة القرآن فيه، والصلاة في أوقاتها، وأحيانًا أنتحي جانبًا لأذاكر دروسي في جوه الهادئ، وأضوائه الكافية، وأنا جالس على البسط الثمينة الفاخرة، بل ما زلت حتى يومنا هذا أقضي الفترة ما بين الظهر والعصر إبان شهر رمضان بجوار المنبر، أتلو القرآن، وأستمع للدروس الدينية، وهو مكان يعرفه الإخوة والأصدقاء، نلتقي عنده كل عام، بعد أن نعود من الخارج..

كانت المحاضرات الثقافية في المرحلة الثانوية قليلة جدًا في أندية طنطا، ولم يكن هناك مجال للنشاطات الثقافية سوى مقار الأحزاب السياسية، وكان من الواضح أن مقار الإخوان المسلمين في طنطا، سواء شعبة قسم أول أو شعبة قسم ثان أو المكتب الإداري العام، هي أثرى وأقوى هذه المراكز في العطاء الفكري والثقافي الموجه، كان الإخوان يضعون برنامجًا حافلًا للمحاضرات المختلفة، التي تضم الفكر والأدب والتاريخ والسياسية والاقتصاد والتوعية الصحية، وكانوا يربطون بين هذه الموضوعات كلها برباط الإسلام، إذ إنه الأساس في كل شيء، كما كانوا يقيمون مهرجانات للشعر والمسرح الإسلامي والألعاب الرياضية، كما كانوا يضعون بعض الكتب والمجلات والنشرات تحت تصرف الرواد، وأغلبهم أعضاء في الجماعة، ولم يكن برنامج المحاضرات خاصًا بطنطا وحدها، فقد كان الدعاة يخرجون أفواجًا إلى الشعب الإخوانية والمساجد، في القرى القريبة والنائية، التي تتبع محافظة الغربية، وكان المرشد العام الإمام الشهيد حسن البنا يأتي بنفسه في زيارات متتابعة، وكذلك الوكيل والسكرتير العام وأعضاء مكتب الإرشاد وعدد من الدعاة البارزين، بل إننا في نادي الإخوان بطنطا استمعنا ذات مرة إلى من يخطب باللغة الإنجليزية وإلى جواره مترجم باللغة العربية، والواقع أنني في هذه اللقاءات والاحتفالات سمعت ألوانًا من الشعر السياسي والديني لها نكهة خاصة، وكانت تتميز بالقوة والجزالة والحماسة، ويغلب عليها الطابع الخطابي الذي يؤثر فينا نحن الشباب تأثيرًا عميقًا، كما كانت المسرحيات التاريخية أو السياسية التي تقدم في مناسبات قليلة، على نفس النحو من الإثارة والنغمة الخطابية والحماسية، ولعل هذا كان مناسبًا للفترة التاريخية، وللموضوعات المطروحة على الساحة، ولجمهور المتلقين آنذاك.

كنت أغشى مجتمعات الإخوان، وأنهل من ثقافتهم وعلمهم، وأتعلم الكثير منهم على الرغم من عدم انضمامي رسميًا لهم. فكيف كان ذلك؟ كنت من أسرة تعتنق مبادئ الوفد في تعصب شديد، وتعتبر الانشقاق عليه أمرًا خطيرًا بل فسادًا ومروقًا، ولم يكن يُتصور أن يفعل أحد ذلك، وعندما بدأ اتصالي بالإخوان، كنت أجد ميلًا جارفًا لمبادئهم وأفكارهم وسلوكهم، لكن المشكلة كانت في الكبرياء والتعصب.. كانوا وهم يدعون لمنهجهم يهاجمون الوفد وتاريخه، وكنت أرى أن ذلك يجرح كبريائي فأتضايق، وأنفر منهم، لكنني أعود على دورهم وصحفهم وكتبهم لأرتشف منها، لكن هذا الحاجز النفسي الصلب تحطم فجأة بإرادة

الله، عندما رأيت أفواج المتطوعين من الإخوان المسلمين، تجوب شوارع طنطا وهم يرددون هتافاتهم قبل سفرهم للجهاد في أرض فلسطين، وعندما رأيت الصدام المروع بينهم وبين حكام تلك الفترة، وكانت أول قصيدة نشرتها في مجلة «الإخوان المسلمين» في عام 1948 بعنوان «النور بين أيادينا».. وكانت عن فلسطين..

وذات يوم كنا نجلس في الصف في مدرسة طنطا الثانوية.. ودخل علينا أستاذ اللغة العربية «عبد الستار عجور»، وكان رجلًا قويًا في مادته وفي خلقه، نبيلًا في تعامله وحدبه علينا، ووجدت الأسى والألم يكسوان وجهه، وحيانا بتحية الصباح، ثم رمى بأوراقه فوق المنضدة، ووقف صامتًا بضع لحظات، ثم أخذ يتحدث بصوت متهدج، وعيناه مبللتان بالدموع، ومن جملة ما قال في هذا اليوم الذي لا أنساه:

«يا أبنائي.. لقد مات اليوم رجل عظيم.. لقد خسر العالم الإسلامي والعربي.. وخسرت مصر بموته خسارة فادحة.. رجل وهب حياته وكل ما يملك لله. وضحى بنفسه في سبيل عقيدته.. عرفته طالبًا في كلية دار العلوم.. كان مثال الطهارة والإخلاص والصدق والوفاء.. وكان متميزًا بأخلاقه وسلوكه بين أقرانه.. لم أره على معصية قط.. أحبه الأساتذة وزملاء الدراسة وكل من عرفه.. ولو قيس الرجال بالمقياس الصحيح لكان «حسن البنا.. أعظم من يعيش على رقعة العالم الإسلامي كله..».

واستطرد أستاذنا يتحدث عن الفساد الذي حل، والظلم الذي طم، وعن الذين يعبثون بالسلاح، ويردون القيم النبيلة، ويتصدون للشرفاء والمصلحين، ويمكنون للاستعمار والطغيان، وعن ضيعة الحق والعدل، وفساد الحاكم والمحكوم، وعن.. وعن.. حتى دق الجرس..

فتمتم في حسرة وقال: «إن اغتيال حسن البنا وصمة في جبين الأمة، وفي جبين العصر السيئ الذي نعيش فيه.. ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ﴿٢٧﴾ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ﴿٢٨﴾ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ﴿٢٩﴾﴾ [الفجر: 27-28]. صدق الله العظيم..

وجفف الأستاذ دموعه، وحمل أوراقه ومضى..

كنا نجلس نستمع إليه طول الحصة، وكأن على رءوسنا الطير.. وتكلم في أمور شتى لا أتذكرها الآن.. وخرجت لأبحث عن الصحف، رأيت في «المصري» الصحيفة الواسعة الانتشار آنذاك بالخط الأسود العريض:

«مصرع الشيخ حسن البنا»..

وأخذت أقرأ التفاصيل.. وفي الشارع كان الناس يتحدثون عن أمور أخرى كثيرة لم تتناولها الصحف.. تحدثوا عن آلاف الإخوان خلف الأسوار، وعن المجاهدين الذين سحبوهم في السلاسل والحبال من ميدان المعركة في فلسطين، وزجوا بهم في المعتقلات، وعن تصرفات مريبة للملك وحاشيته، وعن الحزب الحاكم، وعن الأوامر التي صدرت بإطفاء الأنوار في شارع الملك، وعن منع الأطباء من إسعاف «الجريح» الأعزل، وعن الظلم الذي استشرى، والفساد الذي ساد، وفي هذا اليوم الأسود الحزين تصرفت كعضو في جماعة الإخوان المسلمين.. وبكيت يومها بحرارة.. تحطم الحاجز النفسي تمامًا..

وأذكر أنني في هذه الأيام قلت في نفسي:

«ليتني جلست مع حسن البنا أو صافحته!! إنني لم أره إلا وهو يخطب، وأنا محصور بين الجموع الحاشدة.. وظننت آنذاك أنني قد فاتني أمر مهم لا يعوض.. لكن ما الحيلة وقد لقى ربه شهيدًا وانتهى الأمر..».

وصحوت من نومي ذات ليلة وأنا في دهشة أمري.. لقد رأيته في المنام.. كنا ثلاثة.. ووجدته يصافحني ويبتسم لي.. لقد غمرتني السعادة بعد أن أفقت من نومي.. ولم أتشتت أو أجد صعوبة في تفسير الحلم الذي رأيته.. لقد قلت بين وبين نفسي «إنها البيعة..».

وتذكرت حديث رسول «الأرواح جنود مجندة، ما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف»، وحمدت الله..

وانخرطت في سلك الإخوان المسلمين، في أقسى الأيام وأشدها حلوكة وخطرًا، ولم أعبأ بشيء، وصرحت بما آمنت به، وخلعت رداء الحزبية القديمة إلى الأبد..

وحينما علم أبي بما حدث، لم يتضايق أو يعتب علي، لكنه سألني مجرد سؤال عما سمعه، فشرحت له وجهة نظري، والأسباب القوية التي جعلتني أتخذ قراري، والهدف من ورائه، كان يستمع بإمعان، وقال في النهاية:

- «افعل ما تراه صالحًا.. لكن لا تورط نفسك في مشاكل نحن في غنى عنها.. ولتهتم بمستقبلك».

وكان في قريتنا ثلاثة من الزملاء ينتمون إلى الجماعة، كما كان أحد أخوالي (ابن عم والدتي) الحاج محمد محمد الشافعي، هو أول من اعتنق المبدأ في قريتنا، وكان رحمه الله رجلًا شجاع الرأي، صريحًا في كلامه، لا يداري ولا يحابي، ولا يتهيب أن ينتقد أقرب المقربين إليه عندما يراه ينحرف، وكان مؤمنًا أعمق الإيمان بمبدئه، وعلى علاقة وثيقة بالإمام الشهيد رحمه الله، فكان يذهب لزيارته في القاهرة، أو يلتقي به في زياراته للمركز والشعب القريبة، بل إنه باع بعض مواشيه ليساهم في شركة المعاملات الإسلامية التي أقامها الإخوان كتجربة في المجال الاقتصادي، كما كان حريصًا على اقتناء مطبوعات الإخوان ومجلتهم الأسبوعية التي ترسل إليه تباعًا عن طريق البريد، وكنت أنا الذي يتسلمها من «البوسطجي» أو رجل البريد، ثم آخذها إليه، فيقول لي أقرأها أولًا ثم أحضرها إليّ، وكان رحمه الله شديد النقد للتصرفات التي تصدر عن بعض الصوفية، ويهاجمهم بعنف، ويدعو إلى تدمير الأضرحة، مما أكسبه عداوات وخصومات عديدة، كادت تودى به لولا نفوذ عائلته الكبير، وتولى إخوته أعلى المناصب في الحكومة، وفي حزب الوفد بالذات.

والغريب -رغم صغر سني- كنت آنس إليه، وأقضي معظم وقتي معه على الرغم من فارق السن الكبير بيني وبينه، فقد كان في عمر أبي تقريبًا، ولم أكن أشعر معه إلا بشعور الزميل نحو زميله، أو الصديق نحو صديقه، وذلك بسبب بساطته ورقته في التعامل معي ومع باقي الصحبة، كما كانت له صولات وجولات مع المفسدين والمستغلين من أهل القرية، فكان يكتب الشكاوي ضد تجار الأفيون والحشيش، ويرفع الدعاوي القضائية ضد من يتجرون في السوق السوداء ويستولون على مواد التموين، ويهاجم المتعاملين بالربا مهما قوي نفوذهم..

ولقد ذهب رحمه الله إلى الحج في أوائل الأربعينيات من القرن العشرين، ثم خطر في نفسه خاطر، لماذا لا يبقى في السعودية ليدرس الفقه والتاريخ الإسلامي والحديث واللغة؟ إنه يحفظ القرآن، ويلم بالقليل من هذه العلوم، ولديه من الأملاك والمال ما يكفيه ويكفي زوجه وأولاده الستة، ومن ثم فلا عذر بعد ذلك، وبعد انتهاء موسم الحج فوجئ إخوته من أهل

القرية باختفائه، وهكذا بقي هناك يدرس على أساس المذهب الوهابي (السلفي)، وبالطبع فإن هذا الموضع أثار ضجة كبرى في أوساط القرية عامة وأسرته خاصة، ولوحظ أن زوجته كانت غاضبة أشد الغضب، وبعد فترة اتخذت بعض الإجراءات من جانب أشقائه أصحاب النفوذ لإعادته، وفعلًا تم ذلك بعد فترة أعتقد أنها تقرب من عام أو أكثر..

ولقد عاش رحمه الله -رغم نشاطه- في منأى عن الاضطهاد السياسي، ولم يقع في قبضة الشرطة إلا في عام 1965، حيث قضى في المعتقل ما يقرب من شهرين، ولعل اعتقاله كان السبب في إعفاء شقيقه اللواء محمود الشافعي من منصبه كمدير لمصلحة الأمن العام بالقاهرة، على الرغم من صلته الوثيقة بأشقاء جمال عبد الناصر..

وعندما تم اعتقالي في عام 1955 كان أبي يقابله ويقول له: «أهكذا تفعلها يا حاج محمد؟ تبقى أنت وأولادك، ويذهب نجيب إلى السجن.. يا راجل حرام عليك..».

فكان يضحك ويقول لأبي:

- «ليتهم أخذوني معه.. هذا شرف له..».

وعندما اعتقلنا معًا في عام 1965 أفرج عنه بعد شهرين، وبقيت أنا فترة طويلة، فكان أبي يقبله ويقول له: «لقد فعلتها يا حاج محمد.. أوصلته إلى هناك.. ثم عدت أنت..» فيضحك ولا يعلق بشيء..

كان أبي -كمعظم الآباء- حساسًا جدًا لكل ما يصيبني من أذى، ويقضي الليالي الطوال ساهرًا حزينًا، فإذا ما أصبح الصباح، شد الرحال إلى هذه البلد أو تلك باحثًا عن صاحب سلطة أو نفوذ كي يوسطه في الإفراج عني، ويذهب إلى كبار الضباط، وإلى رؤساء تحرير الصحف، أو أقارب الحكام، وذهب ذات يوم إلى صديقي د. محمد البغدادي شقيق عبد اللطيف البغدادي عضو مجلس قيادة الثورة، وأخذ يشرح له كيف أنه لا يتصور مطلقًا أن يكون هناك سبب وجيه لاعتقالي، فرد عليه قائلًا:

- «لا أستطيع أن أفعل شيئًا.. ابنك مدان..».

المهم أن خالي الحاج محمد كان رجلًا صالحًا بكل معنى الكلمة، على الرغم من أن أهالي القرية كانوا يتهمونه بالاندفاع وعدم التبصر بسبب شجاعته وصراحته، كان هو يرى في تصرفاته مقتضى الصدق والأمانة والإخلاص، وكانوا يرون أنه يفتقد الحكمة والمجاملة،

ويعتقدون أنه يجر على نفسه المشاكل والمتاعب والعداوات، بينما لا يشك هو لحظة في أن ما يفعله أمر يوجبه الدين، ويقتضيه الشرف، فكيف يسكت عن تجارة السموم وعن الغش والاستغلال والتعامل بالربا؟

والشيء الغريب هو أنه لم يستطع أن يجند واحدًا من أبنائه في صفوف دعوة الإخوان، وإن ظلوا على إخلاصهم لأبيهم وتعاطفهم معه حتى آخر أيام حياته التي ختمت في عام 1982.

***

[8] شعبنا المريض

جاء عقد الخمسينيات من القرن العشرين، وحتى تلك الفترة لم يكن في قريتنا عيادة أو طبيب خاص ليعالج المرضى، ولهذا فإن المرضى -وما أكثرهما- كانوا يعانون الأمرين، وكانت تغلب على العلاج وسائل الخرافات والشعوذة والوصفات الشعبية، كان أحد أقربائي الشباب يعاني من روماتيزم في القلب وتورم بالجسم، فأخذوه إلى «الزار» في قرية قريبة منا، وكما ذهب على حماره شاحبًا ناحلًا هزيلًا عاد على نفس الصورة، بل ازداد إرهاقًا ولهاثًا، ثم أخذوه مرة أخرى إلى محضر الجان والأرواح «الششتاوي شابوت»، وكان رجلًا طويلًا، أصفر الوجه، متقرح الجفنين، يرتدي عمامة بيضاء متسخة، ويسكن في بيت كالقبو المظلم، يوحي بالخوف والغرابة، فأطلق البخور، وتمتم بكلمات غير مفهومة، وكتب وريقات صغيرة، وأوصى بدهان قدمي المريض بدم بعض الحيوانات، ولم يشعر مريضنا بالشفاء، وحاول الأهل بعد ذلك أن يسقوه خلاصة بعض الأعشاب دون جدوى..

ثم كان لابد مما ليس منه بد، حملوه في رحلة شاقة على حمارة إلى مدينة زفتى حيث فحصه الطبيب، ووصف له بعض الأدوية الخاصة بعلاج هبوط القلب، وأمر بأن يبقى المريض إلى جواره ليأخذ إبرًا يومية، فاستأجروا غرفة صغيرة، وظلوا بها حتى النهاية.. نعم فقد فوجئنا ذات يوم قبل طلوع الشمس بصراخ وعويل، وكان صوت أم المريض مميزًا وهي تصرخ بصوت يمزق نياط القلوب: «ولدي.. ولدي.. ولدي»، وهكذا عرفنا أن «سليمان» قد مات.. مات بعد أن ترك عروسه الشابة الجميلة دون أن تزف إليه.. وحدث في هذا اليوم، أن أصرت النسوة على أن يحضرن العروس لكي تدخل غرفة الميت، وتنام إلى جواره بعض الوقت.. وحدث خلاف شديد حول هذا الأمر، فقد أفتى بعض رجال العلم أن هذا التصرف حرام ولا يجوز، وأصرت العجائز أن تفعل العروس ما أمرن به.. ورأيتها تدخل دامعة العينين.. لم أستطع متابعتها.. فقد اقشعر بدني، وأخذتني نوبة شديدة من البكاء.. كنت آنذاك في التاسعة من عمري، وكان للموت في نفسي رهبة لا مثيل لها، وكنت أرى أغلب

الذين يمرضون يموتون، ولم نكن نرى الطبيب إلا لمامًا، وفي حالات نادرة جدًا... ومرة أخرى أخذنا عمي «أحمد» إلى عيادة طبيب في طنطا، كان يعاني من البواسير، وفي العيادة الخاصة أجريت له العملية، وخرج منها دون أن يفيق، وبعد وقت قصير أخذ يهذي ويزبد ويبكي دون وعي، وبعد ساعة جاء الطبيب، ثم أخبرنا أن العملية تمت بنجاح، وأنه يمكننا أن نأخذه إلى القرية.. وجاءت سيارة، ومضينا به إلى حيث شاطئ النهر، آخر مسار السيارة، ثم ركبنا القارب الصغير إلى الشاطئ الآخر، ثم جئ بحمارنا فوضعناه عليه بطريقة خاصة حتى لا تؤلمه العملية.. وبقي في البيت أسبوعين شفي بعدهما تمامًا.

وأذكر أن جدتي أخذت تصرخ ذات ليلة من آلام الضرس الحادة، وفي الصباح جاء حلاق القرية، وبدون تخدير أو رحمة انتزع الضرس التالف، وهي تتلوى وتصرخ من الألم، وتنزف بشدة، وسارت الأمور بعد ذلك سيرها الطبيعي، فقد كان حلاق القرية يجري الجراحات الصغيرة، وعمليات الختان، بل ويشخص بعض الأمراض ويصف لها العلاج الذي يروق له، وما أكثر الذين قضوا نحبهم بعد أخذهم حقنة من الحقن، وكنا نقول دائمًا «الأعمار بيد الله، هذا قضاء الله وقدره».

وذات يوم حدثت مشاجرة عنيفة في قريتنا، وأصيب أحد أقربائنا بفأس في رأسه، فارتمى ينزف وهو مغمى عليه، ونشط حضرة العمدة في طلب الإسعاف والنيابة، وبقينا ننتظر فترة طويلة، كانت النسوة قد أجلسن المصاب على الأرض في الهواء الطلق، ووضعن رجليه في طشت ماء، أما حلاق القرية فقد وقف خلفه، يضع أكداسًا من القطن الطبي على رأسه النازف، ومن آن لآخر يفتح المصاب عينيه للحظات ثم يغيب عن الوعي وظل هكذا إلى أن أن فاضت روحه إلى بارئها.. والغريب في الأمر أن المتهم قد برئت ساحته بعد ذلك، وكان الفضل يرجع في ذلك إلى «المحامي الشاطر» الذي تقاضى مبلغًا كبيرًا من المال، فاستطاع أن يستغل الشهود، وأن يوقعهم في بعض التناقضات الدقيقة التي لا يدركون مداها..

وأذكر أيضًا أن أبي أصيب ذات مرة بالملاريا، وكانت الحمى تهز جسده هزًا عنيفًا، ويظل هكذا حتى تنتهي النوبة، كنا في شهر رمضان، ومع ذلك رفض أن يفطر، وأثناء النوبة، وأبي راقد مغمض العينين، تتكوم فوقه الألحفة والبطاطين، وجسده يرتعش بعنف، جاءت «خالتي مباركة» أثناء ذلك، وفي يدها سطل من الماء البارد، ثم قذفت بالماء على وجه أبي،

فانتفض انتفاضة غريبة، وفتح عينيه في دهشة، وصدره يعلو ويهبط، وعندما تساءل في استنكار عن هذا التصرف، قالت له: إن هذا هو العلاج، وأنه سوف يشفى بإذن الله.

وجاء وقت كان لابد أن أعالج فيه من البلهارسيا والانكلستوما، فالمدرسة الثانوية لا تقبل الطلبة الجدد إلا بعد الفحص الطبي، والتأكد من خلوه من الطفيليات، كان علينا أن نذهب إلى مدينة «ميت غمر»، وهناك تُجرى لنا الفحوص الضرورية للتأكد من التشخيص، وبقينا طوال شهر كامل نروح ونجيء يومًا بعد يوم، لأخذ حقن «الطرطير المقيئ»، وقبلها «شربة الزيت» المضادة للإسكارس والأنكلستوما، وهي جرعة شديدة المرارة، سيئة المذاق لا يطيقها الإنسان، ومع ذلك فلا مناص من أخذها، وإلا فالعصا والكرباج والباشتومرجي الواقف إلى جوار الطبيب مهددًا متوعدًا، وما أكثر الذين كانوا يسقطون منا إعياءً وضعفًا بعد أخذ حقنة «الطرطير»، وكان الطبيب الأنيق الحسن المظهر ينصحنا دائمًا في دروسه اليومية، بالاهتمام بالغذاء الجيد المليء بالبروتينات والفيتامينات، وكنا نحن ننظر إليه في بلاهة، ولا نفهم كلمة مما يقول، وفي أيدينا «صرة» صغيرة من القماش بها طعامنا المفضل من الخبز والجبن.

وذات يوم نادى «المنادي» في قريتنا، بأن الحكومة عازمة على إنشاء وحدة مجمعة بها عيادة وطبيب بالقرية، وأن على الفلاحين أن يتبرعوا لهذا المشروع الكبير، وهدد الذين لا يتبرعون بالويل والثبور، وعظائم الأمور، وتسابق أهل الخير للتبرع بقروشهم القليلة، واستعمل العمدة سلطاته في إرغام الكثيرين على دفع ما يجب عليهم، ولقد رأيت الخفير ذات يوم يسوق أحد المرضى إلى الدوار لأنه رفض دفع التبرع، وكان يردد وهم يجرونه: «لن أعيش حتى أرى المستشفى.. يوم الحكومة بسنة.. يا ناس حرام عليكم».

وبقينا سنوات طويلة نحلم بالمستشفى، والعمدة لا يكف عن استقطاع التبرعات قسرًا، ولا تقضى حوائج الفلاحين ومصالحهم إلا إذا دفعوا للمستشفى، وبعد سنوات وفد إلى قريتنا «ناظر مدرسة» من مدينة قريبة، وتبنى موضوع المستشفى، وأخذ يرسل الشكاوى تباعًا، ويجمع توقيعات الفلاحين وبصماتهم، ويسافر إلى ذوي الشأن حاثًا لهم ليساهموا بجهودهم، وكان كل مرشح لحزب من الأحزاب يعد بإنهاء هذا الموضوع بعد نجاحه في الانتخابات، فإذا ما نجح نسي وعوده، وهكذا ظلت المستشفى حلمًا حتى تحقق في عقد

الخمسينيات من القرن العشرين، أي ما يقرب من خمس عشرة سنة، كان يوم الافتتاح يومًا مشهودًا لا تنساه القرية [1]..

ويمرر الوقت تضاءل دور المشعوذين والدجالين، وانكمش دور حلاق القرية، وقلت الوصفات الشعبية، وكثر عدد العيادات الخاصة بالتدريج، وأصبح غالبية أهالي القرية يذهبون إلى الأطباء، ويسافرون إلى المدن القريبة، بعد أن تيسرت وسائل المواصلات، وأصبح في القرية سيارات أجرة كثيرة، كما أصبحت الحافلات الكبيرة تمر بقريتنا وتربطها في مواعيد ثابتة بأغلب القرى والمدن المجاورة، وسبحان مغير الأحوال!

كانت «خالتي مباركة» تعتقد أن السبب الرئيسي لأي مرض من الأمرض هو «الحسد».. فإذا أصاب أحدنا رمد في عينه، أو مغص في بطنه، أو حمى مباغته، فإن البحث على الفور يدور حول الأشخاص المشهورين بالحسد في القرية، إنهم أساس البلاء كله، وهناك أشخاص نعرفهم بأسمائهم –رجالًا ونساء- يتوقع الشر منهم إذا تواجدوا في المنزل، ويقولون عنه «عينه صفراء»، ولذلك فإن أول إجراء كانت تتخذه خالتي هو «التعاويذ والرقى»، ووضع بعض البذور أو المساحيق –مع الملح- على النار المشتعلة، وما إن يطقطق الملح في النار، وينطلق الدخان، حتى نؤمر بالخطو ذهابًا وإيابًا على النار، وبعد هذه الإجراءات تلجأ الجدة أو الأم إلى بعض العلاجات الشائعة، ففي حالة التهاب العيون، يأخذون كمية من لبن المرضع ويضعونها في محارة خاصة، ثم يحكون المحارة بحجر معين لا أذكر اسمه، وبعدها يقطرون من هذا اللبن في العيون المريضة، وكان علاج التهاب اللوزتين عن طريق ابتلاع بيضة ساخنة بعد تقشيرها، أما الالتهاب الحنجري مع بحة الصوت، فلا وسيلة سوى الذهاب إلى «جزار ابن جزار»، ليمرر السكين ظاهريًا ويرفق على عنق الطفل وهو يقول: «جزار ابن جزار أذبحك يا ذئبة»، ظنًا منهم أن هذه البحة سببها وجود ذئبة تسكن الزور، وكان علاج المغص وآلام البطن والإمساك هو «شربة ملح إنجليزي»، أو خلاصة بعض البذور التي تغلى في الماء كبذور «الخلة» وغيرها، وكانت هناك مساحيق بيضاء تعجن بلبن المرضع، وتكحل بها العين المريضة، ويطلق عليها «ششم الديك» وتشترى من

---

(1) يمكن الإلمام بأوضاع الوحدات الصحية في القرية من خلال قصة «الذين يحترقون» وقصة «الربيع العاصف» للمؤلف.

محلات البقالة، وكان مسحوق البن هو الإسعاف الفوري للجروح حتى يتجلط الدم، ويتوقف النزيف، أما علاج القراع فيتم عن طريق وضع طاقية من القار (الزفت) الساخن على رأس الضحية، ويا له من عذاب!! وكان لهذه الأساليب من العلاج آثار وخيمة مدمرة في كثير من الأحيان، كما كان «الأفيون» يستعمل في علاج الصداع المزمن الشديد، وبعض الآلام الأخرى، وكثيرًا ما يتعود عليه المريض حتى يصبح مدمنًا، وتحل به كارثة إدمان المخدرات التي يصعب الإقلاع عنها، والتي تدمر حياته الاقتصادية والاجتماعية، وإني لأذكر مريضًا، كان يشكو من المغص الكلوي بصفة متقطعة، فأعطاه «حلاق القرية» حقنة من سائل الأفيون، وظل يكرر ذلك حتى أصبح المسكين ضحية الإدمان، فباع أرضه ومواشيه، وظل يتسول حتى ساءت صحته، وانتهت حياته على أسوأ صورة.

وكان للعقم وسائل غريبة تستخدم لعلاجه، فالمرأة العقيم تذهب لمحترفي الرقى والتعاويذ، أو تخطو فوق جمجمة ميت، أو تكتب لها كتابات معينة، ثم تذاب الورقة في الماء وتشربها، أو تتعرض لأمر مخيف مرعب، يبعث القشعريرة والهلع في جسدها، أو تتناول أنواعًا معينة من الأعشاب والأطعمة، وأحيانًا توصف لها بعض التحاليل الشاذة.

أما الذين يصابون بلوثة عقلية، أو مرض نفسي شديد، فتوضع القيود في أرجلهم، والأغلال في أيديهم، ويوضعون في غرف مغلقة حتى لا يراهم أحد، لأن مثل تلك الأمراض في القرية تعتبر عارًا كبيرًا، وعورة يجب أن تستر، والبعض كانوا يؤخذون إلى مستشفى الأمراض العقلية في «الخانكة» وقلّما يعودون منها، ولا يعرف أحد مصيرهم بعد ذلك.

وكانت حفلات «الزار» ملتقى للعديد من المرضى والمريضات، بعد أن ييأس أهل المريض من الشفاء، وفي الزار تدق الطبول، ويُترنم بالأغنيات الجميلة المثيرة التي تحرك المشاعر والأعضاء، ويُعزف بالناى، وترى حلبة الرقص يسودها الهرج والمرج، تختلط الأصوات والشهقات والصرخات، وقد يستبد الهياج بإحدى الحاضرات فتجد من يمسك بها ويسندها، حتى لا تصاب بأذى، وبعض رواد الزار كانوا يجدون قدرًا لا بأس به من الراحة النفسية والتسلية والمتعة، فيتخففون من كآبتهم ووساوسهم، ويشعرون بشيء من الأمل والنشاط، ولم تستطع خطب الوعاظ في المساجد، ونصائح العقلاء من أهل القرية، أن تضع حدًّا للزار، وكان لنا زميل في المدرسة الابتدائية، يعتبر والده أشهر صاحب زار في

المنطقة، وكثيرًا ما كنا نمزح معه، ونطلب منه أن يسمعنا بعض أغاني الزار الجذابة، فكان يفعل، وكنا نطرب لعذوبة صوته، وغرابة كلماته، وكنا نرد من خلفه عابثين:

شـــيخ محـــضر يـــا شـــيخ محـــضر

الـــلي عليـــه عفريـــت يحـــضر

ولم يكن يدور بخلدنا أن زميلنا هذا، سوف يترك الدراسة، ويتفرغ للزار بعد وفاة أبيه.. إن نظرية أصحاب الزار في تفسير الأمراض، هي تلبس جسم المريض بروح شريرة، وهي التي تسبب الأعراض والخلل البدني والنفسي، ولا يمكن لهذه الروح أن تغادر الجسد إلا بهذه الطقوس المثيرة من رقص وغناء وموسيقا، والواقع أن الزار نوع غريب من الفنون والطرب، يهز النفوس، ويخفف عنها بعض ما يلم بها من ضيق وقتامة وقلق، ومن الملاحظ أن بعض النسوة ذوات الأخلاق الجانحة يلجأن إلى الزار كوسيلة للمتعة والعبث وارتكاب ألوان الحماقات، ولا يمكن أن يتم هذا الاختلاط بين الجنسين دون أن يحدث خروج على الآداب والحياء، وخاصة أن نسبة كثيرة من رواد هذا الفن لا تشكو من أية أمراض أو أعراض.

لكن هل بقيت تلك الصورة على ما هي عليه؟

لقد حل اليوم الراديو والتليفزيون مكان الزار، وانتشرت المعرفة والوعي، وتوارت الكثير من السوءات الاجتماعية، وإن حل محلها سوءات أخرى، وانتشرت المستشفيات، مع انتشار التعليم والوعي، لقد تغيرت صورة المجتمع تمامًا..

لم أزل أذكر وأنا في طفولتي الباكرة أن أمرًا غريبًا حدث في القرية، والدليل على ذلك أن قومًا غرباء أتوا، ونصبوا خيامهم في المنطقة الشرقية على الأطراف، أي بين المباني والحقول، وكان الناس يطلقون على هذه الخيام «الكردون»، وكان خفراء القرية يحيطون بالكردون من كل جانب، ومن آن لآخر أراهم يحملون فلاحًا مسجى في فراشه، ثم يدخلونه، وأرى عددًا من التومرجية، يجري هنا وهناك، كما أرى الطبيب يهرول هو الآخر نحو الخيمة التي يدخلون فيها المريض، وقد لاحظت أن عددًا من أهالي القرية قد ارتدوا ملابس التمرجية وانضموا لسكان «الكردون»، وكان الأهالي يتوجسون خيفة، ويبدون تشاؤمًا بالغًا إزاء الخيام ومن فيها، فكنت تسمع من يقول: «لا حول ولا قوة إلا بالله.. لقد أدخلوا فلانًا الكردون.. ربنا ينجي ويسلم..»، أما نحن الأطفال فقد كنا نطوف حول الكردون، ونبعث بنظراتنا

الفضوليبة داخله كي نراهم وهم يروحون ويجيئون، ويأكلون وينظفون المكان، وكان الدكتور المسئول يبدو كإمبراطور بينهم، فحينما يظهر، نراهم يجرون هنا وهناك، وتنطلق الأوامر، ويصاب الجميع بالتوتر، وكنا نضحك ونحن نرى رجل قريتنا «عبد الشكور» الذي انضم إلى جماعة المخيم، وقد خلع جلبابه الشعبي، ولبس قميصًا وسروالًا من الدمور الأبيض الكالح، كان منظره في أعيننا شاذًا وغريبًا، وكان الحديث عن «عبد الشكور» في كل بيت من بيوت القرية، فقد أصبح ذا سلطة وبأس، وأصبح في مقدوره أن يتجسس على البيوت، ويستطلع الأخبار، ويكشف سر المرضى المختفين في بيوتهم، فيبادر الطبيب بإرسال من يدهمون البيت فجأة، ويخرجون المريض عنوة وقهرًا، وسط صياح النسوة وبكائهن وندبهن، فقد كان يظن أن كل من يدخل هذا الكردون لا يخرج منه إلا جثة هامدة، وكان يقال عنه ما يقال عن السجن «داخله مفقود، والخارج منه مولود».

ومن الواضح أن هذه الإجراءات كلها تتعلق بوباء خطير انتشر في تلك الآونة، وكان الضحايا بالعشرات، ومن ثم لجأت السلطات الصحية لاتخاذ الإجراءات المناسبة، من رقابة وعزل للمرضى وما إلى ذلك، ولم يكن الأهالي على وعى كامل بتلك الإجراءات، ولم يحاول أحد أن يشرح لهم مدى خطورة الوباء، وأهمية الإجراءات التي تتخذ بصدده، كان الناس يظنون أن ذلك الوباء عقاب من الله، بسبب ما استشرى من فساد وظلم، وأن أية قوة في الأرض، لن تستطيع أن تحد من الوباء أو تقضي عليه، وإذا أنزل الله بلاء فلا كاشف له إلا هو، ورأى الناس أن العزل لم يحم المرضى من الموت، لم يكونوا يفهمون أن العزل أساسًا لحماية الأصحاء من العدوى، ولهذا كرهوا «الكردون»، وكرهوا مستشفى الحميات، بل وكرهوا رجال الصحة، واعتبروا أن وجودهم في القرية شر مستطير وأخذوا يدعون الله أن يخلصهم منهم، ونشط رجال الحلقات الصوفية في إقامة الأذكار، وقراءة الأدعية والأوراد، آملين من الله أن يكشف الغمة، ويزيل الكرب، وظل «عبد الشكور» مكروهًا من أهالي القرية فترة طويلة، واعتبروه خائنًا لبلده، فهو الذي يبلغ عن المرض، ويأخذهم إلى حيث النهاية المحتومة، فيودعون الحياة وليس إلى جوارهم حبيب أو قريب، أليست هذه -من وجهة نظرهم- وحشية وظلمًا وخيانة، ولذلك كنت ترى الأطفال وهم يسيرون في الشوارع ويرددون في نغم رتيب:

لحمـــة ضـــاني كـــل يـــا دكتـــور

لم العـــضم يـــا عبـــد الـــشكور

وهم يقصدون من وراء ذلك رمي عبد الشكور بالحطة والدناءة، والرضى بفتات الموائد، وبقروش قليلة، نظير خضوعه للغرباء، ومدهم بالمعلومات والأسرار المشينة!!

ويقال إن أحد الجزارين بالقرية رفض أن يبيع اللحم لعبد الشكور قائلًا: «أنا لا أتعامل مع أهل الكردون».

فرد عليه عبد الشكور في حنق: «لقد أتوا لخدمتكم يا بهائم..».

- «إنهم مجرد حانوتية..».

ولم يوافق الجزار على بيع اللحم إلا عندما هدده العمدة..

وأذكر أيضًا أنهم دقوا بيتنا القديم ذات يوم، وأخذوني أنا وأخي الأصغر أمين إلى مكان قريب من الكردون في أحد البيوت، وخلعوا ملابسنا تمامًا بعد أن حلقوا لنا رءوسنا.. ثم صبوا علينا ماء باردًا -في عز الشتاء- مضافًا إليه بعض الأدوية ذات الرائحة المميزة، ولم يعيدوا إلينا ملابسنا إلا بعد أن وضعوها في المبخرة، وهي جهاز تعقيم حسبما أظن، وسرعان ما لبسناها وانصرفنا عائدين إلى منازلنا، ونحن نرتجف من البرد والرعب..

ربما كان هذا الوباء هو التيفوس.. لقد كنت في سن الرابعة أو الخامسة على ما أعتقد وكان أخي أمين يصغرني بعام واحد.. ولذا لا أستطيع تحديد ماهية ذلك الوباء بالضبط..

لكن في عام 1947 كنا على دراية تامة بما حدث آنذاك، كنا في المرحلة الثانية، وكان الوباء الذي انتشر هو «الكوليرا»، والتي يقال إنها جاءت من المنطقة المجاورة لمعسكر القوات البريطانية في «القرين» تفشى وباء الكوليرا بصورة رهيبة، وكانت قريتنا مسرحًا لضحايا كثر، كانوا يأخذون المرضى إلى البندر، وأغلبهم لا يرجع إلا ميتًا، ويندلع الصراخ من هذا البيت أو ذاك، وفرق التطعيم ضد المرض تجوب الشوارع، والوحدات المتنقلة ترش المبيدات وتنظف الأماكن، لتقضي على الذباب والقاذورات، وارتفع سعر الليمون آنذاك، نظرًا لأن عصير الليمون له القدرة على قتل الميكروب، ومن ثم ترى الناس يعصرونه على المأكولات والمشروبات، ويمسحون به أيديهم بعد المصافحة، أو الخروج من دورة المياه، كما كانوا

يتزاحمون على مراكز التطعيم التي اشترك فيها عدد غير قليل من المتطوعين من أهالى القرية، أولئك الذين تدربوا على إعطاء الحقن، كما كان أئمة المساجد والوعاظ يوصون الناس بالنظافة، وعدم مغادرة القرية إلى أماكن أخرى، ويرددون حديث رسول الله: «إذا كان الطاعون (الوباء) بأرض فلا تدخلوها، وإن كنتم بها فلا تخرجوا منها» أو كما قال.

الواقع أن صورة القرية في هذه المرة، تختلف تمام الاختلاف عن صورتها أيام الوباء السابق، لقد أصبحوا أكثر وعيًا وفهمًا ونضجًا، وشاركوا بأنفسهم في مكافحة الوباء، وكثيرون منهم كانوا يتخذون الإجراءات الوقائية، ويشترون محلول السليماني الذي يستخدمونه في تطهير أيديهم وبعض الأطعمة والمواد الأخرى، وامتنعوا تمامًا عن شراء البلح الذي كان يظن أنه وسيلة نقل المرض من القرية الشهيرة بزراعة البلح، بل إن بعض الناس كانوا يرفضون أن يصافحوا أحدًا حتى لا تنتقل إليهم العدوى.

وأذكر أننا كنا في مدينة طنطا حينما صدر الأمر بمنع السفر من بلد لآخر، فأردنا العودة إلى القرية، فلم نجد وسيلة من وسائل المواصلات، فكان أن اضطررنا إلى العودة مشيًا على الأقدام ما يقرب من عشرين كيلو مترًا، وأثناء الطريق كنا نفاجأ ببعض فرق المكافحة، وهي تسألنا هل أخذنا الطعم الواقي أم لا، وكان كل فرد معه بطاقة عليها صورته، مُثبت فيه جرعات التطعيم وتاريخها، ومن لا يحمل مثل هذه البطاقة لا يمكن أن يفلت من أخذ الحقنة.

ولقد أخذ مني الهلع كل مأخذ حينما دخلت دورة المياة ذات مرة، ووجدتني أعاني من إسهال بسيط، وخرجت مذعورًا لأروي لهم ما حدث، وعلى الرغم من الارتباك الذي ساد البيت إلا أن أبي قال متماسكًا: «لقد أخذت الحقنتين.. فلا يعقل أن تصاب بالمرض بعد التطعيم.. هذه واحدة والثانية أن الكوليرا تأتي بقيء شديد، وإسهال أشد.. وأنت لم تسهل غير مرة واحدة.. اعتمد على الله يا رجل.. اذهب واشرب كوبًا من عصير الليمون..» ومر الأمر بسلام.

كانت الصحف اليومية آنذاك تتخذ من الكوليرا موضوع الساعة، وتذكر أرقام الإصابات في كل محافظة من المحافظات، وتسجل أيضًا عدد الوفيات، وتكتب تحقيقات صحفية عن واقع الوباء، وآراء الأطباء، وتبرز الإرشادات الواجب اتخاذها، كما كانت الإذاعة تفعل نفس الشيء، وبعد أن تناقصت الإصابات، وخفت حدة الوباء، خففت الحكومة إجراءات

الانتقال، وغيرها من الإجراءات المتعلقة بالغذاء والماء والمطاعم، لكنها حذرت من حدوث موجة جديدة من الوباء بعد أشهر قليلة، وأخذت تعد الإجراءات الواجبة عند حدوثه.

لقد تذكرت ما جرى في عام 1947، ثم تذكرت ما حدث في عام 1983، لقد حاولت السلطات الصحية إخفاء الأمر، ووضعت عليه تعتيمًا إعلاميًا، وأطلقت على الكوليرا اسم «أمراض الصيف»، ووقع الناس في حيص بيص، وعلى الرغم من أن الصحافة ألمحت إلى الموضوع، وعتبت على وزارة الصحة، إلا أن الوزير -سامحه الله- رد بشجاعة، مؤكدًا تصريحات المسئولين السابقة بأنها أمراض الصيف، ولم يذكر كلمة واحدة عن الكوليرا، على الرغم من معرفة الجميع الحقيقة التي لامراء فيها.. أيمكن أن يكون الناس في الأربعينيات من القرن العشرين، أنضج فكرًا، وأصدق قولًا، وأكثر صراحة من جيل الثمانينيات؟ إنها كارثة، حتى لو كان السبب الحرص على السياحة ودخلنا الكبير منها، إن قانون منظمة الصحة العالمية، يلزم أية دولة بالإبلاغ عن أية أمراض معدية تظهر فيها، حماية لصحة المجتمع العالمي، ولاتخاذ الإجراءات المحلية والدولية المناسبة، ولكي تساهم المنظمة بخبراتها وقدراتها في التخلص من ذلك الوباء، وخاصة أن نسبة نجاح التطعيمات اليوم بالنسبة للكوليرا أصبحت محدودة، بل لا يعول عليها كثيرًا، والإجراء الأساسي الوقائي هو ما يقوم به الجمهور من خطوات وقائية في المنزل والمؤسسة والسوق والشارع، فهل يستطيع الشعب أن يؤدي دوره بكفاءة واقتدار، وهو لا يعلم حقيقة الوباء الذي يتعرض له؟ إنها لمصيبة.. لو كنت مكان هذا الوزير الطبيب لأعلنت الحقيقة صراحة، وإلا فالاستقالة أشرف.. ورحم الله «أيام زمان».

ولقد حفل الشعراء والكتاب بموضوع الكوليرا، وقرأت عنها بعض الأشعار، فالشعراء هم أسرع الناس استجابة لما يجد من أحداث، وكان للكوليرا أسماء شعبية، وأسماء في اللغة الفصحى، وأذكر أن المرحوم الجارم قال فيها قديمًا:

سمعت بأن في مصر
وباء اسمه «الهيضا»
ومن يك عنده مغص
فقد أضحى من المرضى

ومع أن شاعرنا أبرز أعراض «المغص» -وهو نادر- إلا أن الأعراض الطبية البارزة هي الإسهال المميز والقيء، والجفاف الشديد الذي يصيب المريض، نتيجة لفقدان السوائل ومعها الأملاح المهمة بالجسم، بسبب الإسهال والقيء..

وعقب هذا الوباء بعام اندلعت حرب فلسطين في عام 1948.

****

[9] ذكريات شباب

كان مسكننا في «كفرة علي أغا» بطنطا، وهو حي شعبي عتيق، به بعض البنايات الحديثة، وكان الشاب «غازي» هو فتوة الحي دون منازع، كان قوي البنية، مفتول العضلات، ذا نظرات حادة، سريع رد الفعل، ويده تسبق لسانه، على الرغم من أنه شاب متعلم؛ إذ كان في نهاية المرحلة الثانوية، ويقال إنه يفرض بعض الاتاوات على صغار الحرفيين وأصحاب الحوانيت الصغيرة، والمهم أنه يصادق الفتيات الجميلات بالمنطقة ولا يستطيع أحد أن يقترب منهن بدون إذنه، ومن ثم فإن هواة قصص الحب والغرام، عليهم أن يبحثوا لهم عن «حبيبة القلب» خارج دائرة غازي، والحقيقة أنه «فتوة» من نوع ملفت للنظر، فأبوه مستور الحال، وموظف ذو دخل لا بأس به، والأسرة بصفة عامة طيبة، وأخته بارعة الجمال، وتذهب إلى مدرستها الثانوية كل يوم، مرفوعة الرأس كملكة، وكان أبناء شرشابة يشكلون عددًا كبيرًا، لكننا لم نكن نصطدم بأحد، وكان علينا أن نرضى بالأمر بالواقع، ولا ننازع غازي عرشه.

لكن حدث ما لم يكن في الحسبان، كان زميلنا أحمد مشاغبًا لحد كبير، وهو الآخر يتمتع بقوة جسد فائقة، ويشغل حيزًا كبيرًا من تفكيره بالنساء أو الفتيات الجميلات بمعنى أصح، ولم يكن يكترث بواجباته الدراسية على الرغم من كبر سنه، فضلًا عن أنه من أبناء الأثرياء في القرية، ولديه ما يكفيه وزيادة من المأكل والملبس والمال، كان أحمد يغازل إحدى فتيات الحي فرآه «غازى»، ولم يفكر طويلاً إذ انقض على «أحمد» كالوحوش المفترس، ووقفنا في البداية مشدوهين، لكن أحمد تلقفه بين ذراعيه القويتين، ثم رفعه إلى أعلى وقذف به وسط الأوحال، وعاد لينحني فوقه، ويجره من طوقه، ثم يوقفه، ويهوى على وجهه بالصفعات، ويتناوله بالركلات، واحتشد الناس من كل صوب ليشهدوا المعركة التي بدت وكأنها من طرف واحد، وذهلنا إذ رأينا غازي يبتسم في مرارة، ثم يمد يده مصافحًا لأحمد ويقول له: «مبروك.. أنا تحت أمرك».

وهكذا أصبح أحمد «فتوة الكفرة»، وأتى الحاضرون يصافحونه، وكأنهم يبايعونه، وجلس أحمد من يومها على عرشه، واستمر هكذا لبضع سنوات، حتى تزوج إحدى قريباته واستقام أمره، وطوال تلك الفترة كان صاحبنا أحمد يمشي في الحي في عنجهية وكبرياء، وكانت له غزوات نسائية مشينة لم نسمع بها من قبل، وأصبح ذكره على كل لسان، ورغم ذلك يلقى الاحترام أينما رحل، وحيثما حل، لكنه لم يستغل مكانته في شيء آخر، فلم يفرض الإتاوات، أو يعتدي على الأبرياء، أو يسمع للوشايات، كانت نظراته المخيفة المتوعدة تكفي لإسكات أي صوت للمعارضة أو النقد، ولقد كانت هذه «الفتونة» كارثة حاقت به، إذ توقف تمامًا عن النجاح في مراحله الدراسية، وترك المدرسة بعد أن كبر دون أن ينال شهادة الثقافة العامة (الرابعة الثانوية)، واستطاع أن يحصل على وظيفة متواضعة في إحدى الشركات التابعة للقطاع العام، وظل يتدرج فيها حتى أصبح ذا مرتب كبير، لكن الأبناء كثروا وكبروا، وانشغل تمامًا بشئون الحياة، ومال إلى المهادنة والهدوء والدأب حتى يستطيع أن يتحمل عبء أسرته الكبيرة، ولكني أراه لمامًا.. فأرى الشيب قد خط رأسه وشاربه.. والتجاعيد تكسو وجهه، والابتسامة الطيبة ترتسم على فمه، لقد ذهب العبث والغرور والغطرسة، ولا ظل لنظرات التهديد والوعيد، ودائمًا يبدي الندم على السنوات التي ضاعت هباءً، وفرصة التعليم التي فرت منه أيام الغفلة، لكنه يحرص أشد الحرص على أن يدفع أولاده دفعًا للنجاح في دراستهم، كي يعوضوا ما فقده هو في شبابه العابث..

لاشك أن مرحلة الثانوى كانت مرحلة حرجة بالنسبة للشباب القادمين من القرية، لم تكن هناك رقابة منزلية أو توجيه، فهم غرباء، ولذلك نسمع كل يوم عن قصة من قصص الانحراف، أو حادثة من حوادث المروق والفساد، فيقال إن زميلنا فلانًا قد تسلل إلى بيت مشبوه، وأنفق مصروفه الشهري لدى مومس، وعاد ليقترض من هنا وهناك كي يأكل، أو أن زميلًا آخر قد أحب إحدى بنات الحي، ويذهب معها إلى السينما، ويستعير ملابس مناسبة لكي يتنزه معها، ويبذل المستحيل ليحصل على مال ينفقه عليها، وزميل ثالث يلعب القمار، ورابع يرتاد غرز الحشيش والمخدرات، وبعضهم انضم لفريق اللصوص كي يجد ثمن السجائر التي يدخنها، وكنا نكاد نستلقي على ظهورنا من الضحك، عندما يجيء ذكر واحد يحب شرب القهوة بجنون، ويمشي في شوارع طنطا باحثًا عن مأتم، كي يدخل ليقدم واجب العزاء، ويشرب القهوة مجانًا، وقد يذهب البعض إلى مقام السيد البدوي حيث الطعام الذي

يقدمه أهل الخير من لحم وثريد، فيأكلون ويشبعون، ولم تكن هذه الأمور أو غيرها تثير لدينا ألمًا عميقًا، فقد كانت شائعة نراها أو نسمع عنها كل يوم، والواقع أن حياة الطلبة القرويين في المدينة، حياة صعبة، فيها الكثير من المتاعب، لكنها كانت تمضي هينة، لكثرة ما تعودنا عليها أو ألفناها، فأصبحت تلك الأمور ملازمة لنا كظلنا..

وإن أنس لا أنس تلك الفتاة الجميلة التي كانت تسكن على مقربة منا عندما انتقلنا إلى السكن في شارع «سلامة حجازي»، كانت صغيرة كالوردة الندية، لا يتجاوز عمرها السادسة عشرة، لم أسمع صوتها مرة واحدة، كنت أراها فقط، وأشعر بحب عميق نحوها، وأحرص أشد الحرص على رؤيتها دون كلام، كانت ترمقنى بنظرة عابرة، واختلس أنا إليها النظرات المحرومة، وبقيت العلاقة هكذا.. أنا أحلم.. وأتخيل وأتخيل.. ويدور بيني وبينها حوار وأنا نائم على سريري، أو سابح في أحلام اليقظة، وأضع الخطط، وأتخذ القرارات، وأقول لنفسى لابد أن أفاتحها الأمر، وأحكي لها عن مشاعري نحوها، ونذهب معًا لكي نتمشى على شاطئ الترعة، أو نتسكع في شوارع طنطا، أو ندخل السينما.. وأظل هكذا أفكر، فإذا ما أصبح، وقصدت مدرستي، وشاهدتها في الطريق دق قلبى، وذابت شجاعتى وتبخر كل شيء.. وكأني لم أسهر وأتعذب.. كان يكفي أن ترميني بنظرتها، فيضيع كل شيء، كان في عينيها صفاء غريب، وعلى وجهها نضرة وحيوية تشي بالفتنة الآسرة، واستطاعت أن تملأ خيالي.. جلست لأكتب فيها شعرًا..

قلـــت والـــريم تجـــاهي قـــد رنـــا
أي معنـــى ذلـــك الـــريم عنَـــى
أعتابًـــا أم هيامًـــا أم ضـــنى
ذا سر لم تُـــــرد أن يعلنـــــا
فكفـــاني أن أرى وجـــه المنـــى
وكفـــى القلـــب لقاهـــا.. والـــسنا

****

أي غـــاز قـــد غـــزاني يـــا شـــبابي

أي رامٍ قـــد رمـــى خلـــف النقـــاب

خفـــى الرامـــي بطيـــات الحجـــاب

فتهاويـــت.. وقـــد طـــال عـــذابي

بجراحـــي ودمـــوعي وخـــضابي

....الخ

كان زملائي يسمعون هذا الشعر ويعلق أحدهما قائلًا: «من هذه يا نمس؟».

ويعلق آخر قائلًا في سخرية: «هذا شارع فقر: ليس فيه واحدة تملأ العين».

وثالث يعلق: «الشعراء يقولون أي كلام.. أوهام وأحلام وتخريف..».

ولم أكن أعلق بشيء.. كنت أكتم ما بقلبي، وأتجول في عالمي الخاص الذي لا نهاية له، عالم الأحلام والورود.. والسماء الزرقاء الصافية.. والفجر الفضي.. ونجوى الشعروالعواطف الجياشة.. وأظل أحلم حتى أفيق على صوت الواقع والدروس والمدرسة وكرة القدم وأخبار السياسة، والطعام والشراب.

وجاء يوم لا يمكن أن أنساه.. كنا نتحدث عن الحب والبنات، ويحكي كل تجربته، وعندما جاء ذكر فتاتي، قهقهوا حتى كادوا يستلقوا على أقفيتهم وخاصة عندما قلت: «أخلاقها ممتازة»، وعلمت ويا لهول ما علمت، لقد فهمت أنها على علاقة آثمة بزميل لنا لا يسكن معنا اسمه (م.)، لم أصدق في بداية الأمر، ورميتهم بالنذالة والكذب والافتراء والبذاءة إلى آخر ذلك القاموس من الصفات الحادة، لكنهم أخذوني إلى «المتهم» الذي حاول أن ينكر في البداية، وسرعان ما انفجر ضاحكًا وأخذ يروي تفاصيل علاقاته معها، وأنا أستمع إليه في ذهول، وعندما رأيتها في اليوم التالي وجدت فتاة أخرى تمامًا.. سددت إليها نظرات صارمة عاتبة دون أن أنطق، ورأيتها تنظر، ثم تهرب نظراتها.. لم أعد أرى الصفاء والنضارة، وبدتا لي ملامحها منفرة تثير الحنق، وخيل إليّ أن أحمر الشفاه مقزز سمج.. كل شيء تغير فيها، دون أن يحدث بيننا نقاش أو مواجهة.. شعرت بأشد الندم إزاء الساعات والليالي الطوال التي

قضيتها مفكرًا فيها، وأسفت على الشعر الذي كنت أسطره بروحي في حماس بالغ، ونشوة عارمة..

وذات مساء قلت لهم: «يجب أن نرحل عن هذا المكان».

- «لماذا؟».

- «إنه مكان ردئ.. ضيق.. وجيرانه سيئون..».

ولما رفضوا الانتقال، حملت سريري وحاجاتي، وانفصلت عنهم، دون أن يعلم أحد بالسبب الرئيسي لنفوري من المسكن والشارع بأسره.

كانت تجربة مرة عانيت منها كثيرًا، ولم تتكشف لي أبعادها إلا بعد أن رحلت بشهور، أدركت أنها تجربة طائشة لا معنى لها ولا هدف، كانت فتاة غير متعلمة، ولم أفكر في هدف عاطفتي نحوها، فلم يكن خاطر الزواج على بال، إذن ما معنى هذا العبث؟ أكان مجرد إشباع عاطفتي في هذه الظروف التي تتسم بالقحط والوحدة والقلق النفسي والانفعالات؟ هل كان ذلك بتأثير ما نشاهده من أفلام وما نقرؤه من روايات عاطفية، وما نسمعه من قصص الزملاء والأصدقاء، لا أدري.. المهم أنني كرهت الموضوع برمته، بل كنت أتحاشى مجرد المرور في هذا الشارع، ودفنت أساي في الدروس والقراءات الخاصة والشعر، وكم كان يؤلمني أن يأتي أحد الأصدقاء ويقول لي: «أعلم أنك تجيد الشعر والإنشاء، ألا تتكرم بإعطائي رسالة جميلة «شعرًا أو نثرًا» كي أبعث بها لحبيبة القلب؟ إنها خدمة لأخيك المسكين».

كان قصيرًا أنيقًا، منسق الشعر، ويلبس حذاءً ذا كعب عال كي يبدو طويل القامة بعض الشيء، وكان يحرص على تنميق شاربه، ويروي الكثير عن مغامراته، ويقدم لنا كدليل بعض الصور الفوتوغرافية لحبيبته، وأحيانًا يقدم لنا خطابًا منها، مكتوبًا على ورقة منزوعة من كراسة المدرسة، وكنت أعجز عن فهم هؤلاء الزملاء كيف يستطيعون الوصول لهذه الدرجة من العلاقة؟ بل كيف يستطيع بعضهم أن يتمادى حتى يرتكب ما لا يصح.. وأقارن بيني وبينهم فتدور رأسي، وأعجز عن التفسير الصحيح.

وفكرت في تلك الفترة أن أزيد من اهتماماتي الأدبية، وأن أحاول جمع ما كتبته من أشعار في المناسبات الوطنية والدينية والعاطفية كي أصدر ديوانًا صغيرًا، والواقع أن هذا الموضوع قد ملك علي تفكيري تمامًا، على الرغم من أنني لم أكن أمتلك أي مبلغ فائض من المال كي أطبع ذلك الديوان على نفقتي الخاصة، لكني كنت أردد دائمًا «مع العزيمة تهون الصعاب».. وقد تم ما حلمت به.

***

[10] بعض من عرفت



الذي لا شك فيه أن الوازع الديني كان يحكم تصرفاتنا في هذه السن الباكرة، ونبدو كما لو أن هناك قيودًا خفية تحد من حركتنا الجانحة، وتمنعنا من الزيغ والانحراف، وكنا منذ الصغر نشعر بغم واكتئاب إذا تكاسلنا عن الصلاة، أو ارتكبنا مخالفة تتنافى مع الآداب الدينية، إن ضميرنا الديني يلهبنا بسياطه دون رحمه، ولعل الدروس الدينية التي كنا نتلقاها في المدرسة كانت أقل تأثيرًا في سلوكنا مما نحصله من آداب ومعلومات دينية خارج المدرسة للأسف الشديد، ومناهج التربية الإسلامية في المدارس قاصرة في عمومها، وتؤدى بطريقة جافة لا إثارة فيها، اللّهم إلا عظماء المسلمين التي كانت تهز مشاعرنا، وتجعلنا نمتلئ فخرًا، ونتمنى أن نكون على شاكلة أجدادنا العظماء.

وكان أكثر ما يؤثر فينا فئة من الخطباء الأفذاذ في بعض المساجد والمحافل السياسية والدينية، نقصدهم عن طواعية، فنسمع منهم موضوعات شائقة تربط الدين بالدنيا، وتمضي بنا في ركب الحياة ومشاكلها وهمومها، وتعالج القضايا الحساسة في المجتمع على ضوء التعاليم الأساسية والدينية، وترسم منهجًا للسلوك العام، يشبع الروح والعقل، كما كان في مدرستنا الثانوية «الأستاذ تحفة» وهو رجل طلق اللسان، حلو الأسلوب، دفاق العاطفة، يهيم بنا في آفاق عليا من الأمجاد الإسلامية، وأحداث التاريخ الباهرة، وخاصة في مناسبات الهجرة والمولد النبوي وغيرهما، وكنا ننتظر كلمته على أحر من الجمر، فإذا ما تكلم، أصاخت الأسماع، وحملقت العيون، ثم تلتهب الأكف بالتصفيق، وتنشق الحناجر بالهتاف والتكبير والتهليل، وكانت الصحف والمجلات التي تحفل بالموضوعات ذات المنحى الديني تجذبني إليها جذبًا، وكذلك المؤلفات الجيدة، والبحوث المعاصرة التي تتناول قضايا السياسة والمجتمع والاقتصاد والعلم في ضوء القيم الدينية، والواقع أن الناظر في صحافة تلك الفترة يجد أنماطًا ثلاثة من الأداء الفكري.

فهناك الصحافة الدينية ذات الطابع المميز، والتي تمزج بين الأصالة والمعاصرة، وفيها زاد لا ينفد من الآراء والأحكام والأحاديث النبوية والبحوث الفقهية..

وهناك الصحافة العصرية، بصورها الخليعة، وآرائها الجريئة، والتطرق إلى موضوعات حساسة تبعث على الخجل وقلة الحياء، وفيها أيضًا تصوير لحياة غربية صرفة، ودعوة للأخذ بأساليب الانطلاق والتحلل دون وازع من ضمير أو دين، ومثل تلك المطبوعات لا تتورع عن مهاجمة المتدينين، ورميهم بالتحجر والجمود والرجعية والتعصب، لا في المقالات والأخبار فحسب، بل في القصص والشعر والكاريكاتير، وكان لها جمهورها العريض المخدوع، كما كان لها دعم داخلي وخارجي لا يعلم إلا الله مدى خطورته.

وهناك الصحافة المنافقة، التي تحاول إرضاء أذواق هؤلاء وأولئك، فهي تحتفي بالحفلات الفنية والسياسية والسلوك العصري، وفي نفس الوقت تفرد بعض مساحاتها للفكر الديني..

وكان لنجوم الفن في هذه الأيام مكانة لا تعلو عليها مكانة، كانت أخبارهم وتصريحاتهم ومذكراتهم وصورهم، تشغل حيزًا أكبر من الساسة والأمراء والفلاسفة وكبار الكتاب، وأصبح رجل الشارع يعرف عن كوكب الشرق وعبد الوهاب وفريد الأطرش ويوسف وهبى وليلى مراد وأنور وجدى، أكثر بكثير مما يعرف عن العقاد وشوقي وطه حسين والمازني والرافعى ومحمد فريد وجدى والمراغي وغيرهم.

وقد يتصادف أن يموت مفكر كبير، فلا تجد في جنازته إلا القليلين، بينما تسد الطرقات وتزدحم الشرفات إذا شيعت جنازة فنان من الفنانين، فلم يكن غريبًا أن نلجأ إلى شراء بعض المجلات القديمة التي صدرت في الثلاثينيات من القرن العشرين، لنستمتع بما فيها من أدب وفكر، حتى الآداب المترجمة كانت تحرص على تحقيق الربح والتسلية، ومن ثم كان أغلب المترجم يدور حول الموضوعات العاطفية والجرائم الشهيرة، والقصص الرومانتيكي المثير، وقليل من أدب الشوامخ، وهذا ما حدا بوزارة المعارف إلى إنشاء مشروع «الألف كتاب» كي تترجم من خلاله، ما يسد الفراغ من أدب ناضج، وفلسفة مفيدة، وفنون مستحدثة، وعلم جديد، كي تثري حياتنا الفكرية والأدبية، حتى السينما هي الأخرى كانت تغص بالأفلام الأجنبية المستوردة التي تحفل بالجنس والإثارة في غالبيتها، ويظل عرضها مستمرًا لأيام طويلة، والناس يتزاحمون عليها من كل فج.

وامتلأت الساحة الفكرية بتيارات متصارعة شرقية وغربية، وشيوعية ورأسمالية، ودينية وإلحادية، وعاش شباب جيلنا في هذا الطوفان الهادر من التناقض والقلق، حتى عميت السبل واختلطت الأمور، وأصبح من العسير أن يعرف الخطأ من الصواب، والصالح من الطالح، والمفيد من الضار، وغرق في هذا الخضم من غرق، ولم ينج إلا من عصم ربك.

ومن المؤسف أن عددًا من كبار الكتاب قد أوقع في هوة الخلافات الحزبية والمذهبية، وكذلك الحزازات الشخصية، فأضاعوا الكثير من هيبتهم وثمرة جهودهم، وفقدوا الكثير من التأثير والتوجيه لأبناء مجتمعهم، فأصبح منهم من يناصر «القصر الملكي»، ويترنم شعرًا ونثرًا بأمجاده وعظمته، متجاهلًا ما ينخر فيه من فساد ومظالم وموبقات، وفي نفس الوقت يتصدى بالهجوم والنيل من خصوم القصر مهما كانت سلامة نواياهم، وشرف مقصدهم، وعدالة قضيتهم، وهناك من ناصر حزبًا على آخر، وأغلق عينيه عن انحرافات حزبه أو خيانته، وانصرف بكل همه يهدم أمجاد الحزب الآخر إن صح التعبير، حتى علماء الأزهر لم يسلموا هم الآخرون من الانضواء تحت لواء حزب من الأحزاب، بل إن بعضهم للأسف سار في ركاب القصر، وبعضهم الآخر عادى القصر، وأدانه علانية في شجاعة تبهر العقول.

ومن البديهي أن يختلف الناس في زوايا الرؤية والتحليل والأحكام ووجهة النظر الفكرية أو السياسية، لكن لابد أن يكون هناك قدر من الاتفاق حول القضايا الجوهرية المصيرية مهما كان الأمر، فلا يصح أن يقال مثلًا: «إن الاحتلال على يد الوفد خير من الاستقلال على يد عدلي باشا»، أو أن يعلن أن: «الملك الصالح فاروق من نسل بيت النبوة..»، أو «لقد تزوجت بريطانيا من مصر زواجًا كاثوليكيا»، أو أن «العقاد عميل لبريطانيا..، طه حسين كافر.. السعديون برادع الإنجليز.. والإخوان المسلمون رجعيون..» إلخ تلك العبارات والشعارات التي تفيض بها الصحف والمطبوعات في تلك الفترة..

لقد غلب الهوى على الموضوعية، والمطامع الشخصية على المصلحة العامة، والحقد الشخصي على سلامة الأحكام عند تقييم الرجال الأفاضل، وأصبحت الحزبية للأسف دينًا جديدًا تراق في سبيله الدماء، ويرفع السلاح، وتجند الأقلام، ويُضحى بالغالي والنفيس، وكاد الجميع أن ينسوا العدو الرابض على أرضهم، والعدو الذي يزحف شرقًا على فلسطين، لولا

فئة من المخلصين الواعين لم يقعوا في ذلك الشرك اللعين، واعتصموا بالأمانة والصدق، وسعوا بإلحاح إلى تحرير الإنسان والأرض، والعودة إلى قيم الحياة الفاضلة..

وأذكر أنني في هذه الفترة كنت أحب مجلة «الرسالة» سواء ما كان يصدر منها آنذاك أو مجلداتها القديمة، وكنت أحرص على قراءة باب الشعر فيها بالذات لأنه كان يضم نخبة من شعراء العالم العربي، ممن عرفوا بعمق الفكر وجمال الأداء، وعلى صفحات الرسالة عرفت الزيات والرافعي وزكي مبارك ودريني خشبة والزهاوي وأنور المعداوي، وعدد كبير من الكتاب عرفوا بالصدق والأصالة والموضوعية في معظم أعمالهم.

كما حرصت على اقتناء مجلة «الهلال»، وفيها عرفت أحمد أمين والعقاد والمازني وطه حسين وتوفيق دياب وفكري أباظة والشاعر محمود عماد وعلى الجارم في قصصه التاريخي والعريان ومهدي علام وغيرهم.

كانت كتابات توفيق الحكيم تستهويني بشدة، فهو دائمًا صاحب فكرة ما، ويحرص على تبسيطها وبلورتها بأسلوبه السهل الممتنع كما يقولون، وكان ذكيًا في حواره، يستطيع أن يفتح آفاقًا عديدة أمام القارئ، وكانت قصصه القصيرة مبتكرة في موضوعاتها، غنية بصورها الملفتة للنظر، لكنه في رواياته كان يستطرد كثيرًا في السرد، ويتدخل مباشرة في عدد كبير من الأحداث، وكان أيضًا يمعن في تصوير بعض الأحداث والتفاصيل التي تخدش الحياء، ومع ذلك فقد استفدت منه كثيرًا، حتى أن آراءه الفلسفية أو النقدية في كتابه «التعادلية» وفي كتابه «فن الأدب» تناول قضايا حيوية من وجهة نظره تبدو شيقة وجادة ومثيرة للجدل.

وشغفت بعمق العقاد ودراساته التحليلية، ومعلوماته الوافية، واطلاعه الواسع، وقدرته الفذة على إبداء الرأي، حول ما يتعرض له من قضايا، كان ينتقد فلاسفة الغرب ومفكريه انطلاقًا من فهم عميق، وقدرة فائقة، وكان جديد الفكرة، جديد الرأي، يأنف من أن يتبنى رأي أحد، كان بحق عملاقًا في فنه، واثقًا بنفسه لأبعد حدود الثقة، ولا يستطيع أحد أن ينكر مواقفه المشهودة ضد قوى «الزحف الأحمر» في مصر وغيرها، في وقت استطاعت فيه الماركسية والماركسيون أن يتخذوا لهم مواقع حصينة في ساحة الفن والصحافة والسياسة والتنظيمات الحزبية الحكومية، فلم يكل العقاد أو يمل، بل ظل مثابرًا في مهاجمتهم، وتعرية

مقاصدهم، ولم يتوقف عن دراساته الإسلامية التي ظلت تصدر تباعًا حتى في أحرج الأوقات، وأشدها حساسية.

وكانت نقطة الضعف فيه -وجل من لا يخطئ- هي انتماؤه الحزبي السابق، وعندما حدث الصدام بين حزبه وبين الوفد، لم يتوان عن إشهار سيفه في وجه خصوم حزبه، ولما تدهورت الأوضاع بين القصر الملكي وحزب السعديين والدستوريين من جانب، وبين الإخوان المسلمين من جانب آخر، ورأيناه يعلن حربه دون هوادة، ويتصيد أمورًا غريبة لا تمت إلى الحقيقة والواقع والصدق التاريخي بصلة، كتلك المقالة التي كتبها عن الإمام الشهيد حسن البنا يجرحه فيها، ويفترض في نسبه افتراضات مستحيلة لا أساس لها من الصحة إطلاقًا، وهذا ليس رأيي وحدي، بل رأي كاتبين كبيرين من كتاب اليسار هما محمود أمين العالم والدكتور عبد العظيم أنيس، إذ إنهما -رغم عدائهما للإخوان- قد فضحا أفكار العقاد المخترعة من الوهم حول الإمام الشهيد، واتخذوا هذا الإسفاف والزعم الباطل حجة عليه، وهناك آخرون غيرهما ردوا أباطيل العقاد حول نسب الإمام الشهيد -رحمه الله، ولم يكن يحدث هذا من مفكر كبير مثل العقاد لولا تعصبه الحزبي، وولائه غير المشروط لزعماء الحزب، كانت هذه هي نقطة الضعف الأساسية في العقاد.

وهناك أمر آخر لا يمكن إغفاله وهو غضبه الشديد على كل من يوجه إليه نقدًا، والمتصفح لكتاباته النقدية، يجد نماذج محزنة تؤكد ما نرمي إليه، ولقد أتيحت لي فرصة الذهاب إلى ندوة العقاد الأسبوعية في بيته -أيام الجمع- ورأيت بنفسي طبيعة الرجل ورد فعله بالنسبة للأحداث، وسمعته يتحدث عن الرافعي رحمه الله بأسلوب سيئ، وينعته بصفات لا يصح أن تصدر عنه، كما سمعته يتحدث عن الدكتور زكي نجيب محمود ومعتقده الفلسفي وأفكاره، وقال كلامًا شديد اللهجة، من الواجب ألا يقال، ثم تكلم عن صحافيين وأدباء بنفس الطريقة، ولم يكن أحد من تلامذته الجالسين يرد له قولًا.

وكان من أشد المعجبين به من تلامذته المرحوم الدكتور عبد الحي دياب، وعبد الحي صديق قديم، وكان أيامها طالبًا بدار العلوم، ولا حديث له غير العقاد وآراء العقاد، وحياة العقاد، وجاء مجموعة من الأدباء الشبان يشكون عبد الحي للعقاد، لأنه يتطاول عليهم،

وينسب الكثير من الآراء والأفكار لأستاذه العقاد، إنه يضرب بسيفه، ويهاجم بآرائه، ولا يرحم أحدًا، فابتسم العقاد وسأل عبد الحي:

«هل قلت هذا يا عبد الحي؟».

ولما تلعثم عبد الحي، قهقه العقاد وقال مرددًا بيتًا من الشعر القديم:

وكُــــلٌ يــــدّعي وصـــــلا بلــــيلى

ولـــــيلى لا تقـــــر لهـــــم بـــــذاكا

ويبقى –رغم كل ذلك– جهد العقاد الكبير في مجال الدراسات الإسلامية وشخصيات التاريخ الإسلامي الفذة، لقد ترك موسوعة لا يباريه فيها أحد، وكان له طريقته وأسلوبه الخاص في الدراسة، وعلى الرغم من انتقاد البعض لمنهجه في الكتابة الإسلامية، إلا أنه يظل علمًا بارزًا على مدار التاريخ في هذا الجانب، الذي أشرق بنور الإسلام، وترجم عن مبادئه وأيامه، وأبانَ عن سر عظمته وانتصاراته..

باختصار.. لقد تركت كتابات العقاد فينا أثرًا لا يمحى، وتعلمنا منها الكثير، وتحفظنا إزاء بعض الآراء التي لم ترتكن إلى دليل قوي، وبرهان أكيد، وهذا الأثر الذي تركه فينا العقاد، قد استطاع أن يغزو آفاقًا أخرى غيرنا، من رجال الفكر والتاريخ في أوربا عندما قرءوا ترجمة بعض أعماله، كما أنه –رحمه الله– سدد سهامًا قاتلة للأدعياء من رجال التبشير والاستشراق، أولئك الذين عاشوا يحاربون الإسلام ويناوئونه.

وأحببت كتابات محمود تيمور، كان رحمه الله، يكتب الرواية والقصة القصيرة، والمسرحية وأدب الرحلات، كما كانت له كتابات نقدية قليلة، ولقد أتيح لي أن أجالسه وأحاوره في السنوات الأخيرة من عمره، فرأيت فيه رجلًا مهذبًا نبيلًا متواضعًا، متفرغًا تمامًا للأدب، وكان يحرص أشد الحرص على نقاء العبارة، وجمال الأسلوب، ويستفيد من التراث بذكاء واقتدار، ومن يقرأ مسرحيته «اليوم خمر» عن امرئ القيس، يجد فيها الحوار القوي، والأسلوب العربي الأصيل الجزل الذي يشع الجو التاريخي لزمن المسرحية، وكان رحمه الله يعيش الأحداث بقلب متفتح، وفكر ثاقب، وأذكر أنه بعد حريق القاهرة الشهير في 26 من يناير 1952كتب قصة قصيرة في مجلة الهلال الشهرية بعنوان «الديك» يسجل فيها هذا

الحدث البارز تسجيل فنان حصيف.. فماذا فعل معاصرو تيمور الكتاب المشهورون، وماذا فعل هو؟ المعاصرون كتبوا شعرًا وقصصًا قصيرة وروايات تصور الحدث المباشر.

أما تيمور في قصته القصيرة «الديك» فقد لجأ إلى طريقة أخرى.. لقد صور شابًا كسيحًا مريضًا، يجلس على إحدى نواصي شارع فؤاد بالقاهرة يتلقى الصدقات التي يجود بها المارة، لكن عين ذلك التعس كانت دائمًا تنظر إلى الديك المشوي الموضوع في فاترينة زجاجية في مدخل أحد المطاعم الشهيرة.. وريقه يتحلب منذ زمن طويل.. وما إن اندلعت المظاهرات، وشبت الحرائق في شارع فؤاد، وأخذ الدهماء يستولون على البضائع الثمينة وخزائن الأموال، حتى زحف الكسيح المسكين صوب المطعم، وتناول الديك المشوي وارتمى فوقه.. كانت المظاهرات تزحف كالطوفان، وكانت الأقدام تدوسه وتركله.. وما إن هدأت العاصفة العاتية، حتى جاءوا وحاولوا تحري شأن ذلك الكسيح، وجدوا روحه وقد فارقت جسده.. ووجدوا الديك من تحته هيكلًا عظميًا.. هكذا كان تيمور الفنان الرقيق الإحساس..

وفي مجالات السياسة كنا نقرأ لكتاب عرفوا بالحماسة والعاطفة الوطنية المشتعلة، أذكر منهم أحمد أبو الفتح وأحمد حسين وسيد قطب وفؤاد سراج الدين وصالح عشماي ومحمد الغزالي وغيرهم.

ومن الدوريات الشهيرة التي كنا نتابعها بانتظام تقريبًا، سلسلة «اقرأ» لدار المعارف، و«كتب للجميع» و«قصص للجميع» و«كتابي» و«كتاب الهلال» و«روايات الهلال» ومجلة «المختار» الأمريكية المترجمة، والكتاب الفضي والكتاب الذهبي وغيرهما.

كما كنت حريصًا على اقتناء مجلة «لواء الإسلام» و«الإخوان المسلمون» و«الرسالة» و«نور الإسلام» و«الهلال» وغيرهما، كما كنا نتسابق في حفظ الأشعار القديمة والحديثة على السواء.

وكان للروائي الكبير محمد عبد الحليم عبد الله نكهة خاصة في قصصه الرومانسي المؤثر، وتصويره للعواطف الإنسانية، والمآسي المؤلمة، كما كان صديقه المرحوم علي أحمد باكثير يتميز بخطه الإسلامي، وفكره السياسي المبلور، وتعبيرة الواعي -من خلال مسرحياته وقصصه- عن قضايا إسلامية معاصرة، ومشاكل اجتماعية شائعة، ويستلهم التاريخ في الكثير من قصصه ومسرحه..

وأحببت في عبد القادر المازني خفة روحه، ورشاقة أسلوبه، وصوره الساخرة الناقدة، وكشفه عن خبايا النفس وأسرارها، كما كان صادقًا شجاعًا في أدبه الذاتي، وسيرته الشخصية، لولا هنات تؤخذ عليه في أدبه السياسى..

وكرهت أدب سلامة موسى، فهو رغم علمه، ودعوته للأخذ بالأساليب الحديثة والمنهج العلمي، لم يكن موفقًا، وخاصة عندما دعا للعامية، ونفر من الدين، وتجاهل قيم الحضارة الإسلامية، بل شكك فيها، ولقد قرأت له الكثير، وفهمت أنه يدعو إلى الانسلاخ من قيمنا وتقاليدنا العريقة، واتباع الأسلوب الغربي في السلوك والأداء والعلاقات الاجتماعية والفردية، وكان خصامي الأبدي معه بعد واقعة شهيرة في كلية العلوم جامعة القاهرة، إذ أجريت مسابقة للخطابة بين طلبة هذه الكلية، وكان هو رئيس لجنة التحكيم، ورأينا وجهه يكفهر ويشحب كلما وقف خطيب متسابق، وبدأ خطبته باسم الله الرحمن الرحيم، واستشهد ببعض الآيات القرآنية، أو الأحاديث النبوية، ثم يضع قلمه على الورقة ويضع «صفرًا»، فإذا جاء الخطيب ودخل في الموضوع مباشرة دون أن يسمي وضع 10 درجات.. وهاج الطلبة وماجو بعد إعلان النتيجة، أما هو فلم يسكن، بل وقف يعلق على المسابقة ويقول:

«حسبتني وأنا أحضر لكلية العلوم أنني سوف أسمع خطبًا تنهج النهج العلمي، وتبعد عن الميتافيزيقا والغيبيات.. فإذا بي للأسف أجد نفسي في كلية لاهوت..».

واحتدت المناقشة، وكاد يحدث تشابك بالأيدي، لولا أن الطلبة أصحاب الحق المهضوم أنفسهم تحلقوا حوله، وحموه من غضبة الجمهور، فانصرف سالمًا وهو يسب ويسخط ويلعن.

ومن الأمور المثيرة للدهشة، أن سلامة موسى في أخريات أيامه –عام 1956 على ما أذكر –أدلى بتصريح مضمونه، أنه يتخلى عن الدعوة إلى استخدام اللغة العامية في الكتابة وذلك في سبيل القومية العربية.. هكذا قال..

وعلى الرغم من الكثير الذي كتب عن هذا الرجل في حياته وبعد مماته، وخاصة بالنسبة للمجلات التي ساهم فيها، ودعوته إلى المنهج العلمي، وترويجه لنظرية النشوء والارتقاء، وإلحاحه على اتخاذ العصرية أسلوبًا في الحياة الحديثه، على النمط الأوربي، واستمساكه بالفرعونية ودعوته الدائبة لها، وقيام بعض الكتاب والأدباء بالسير على نسقه، حتى أن نجيب محفوظ في بداية حياته الأدبية، كتب رواياته الأولى عن العصور الفرعونية، أقول على الرغم

من كل هذا فماذا بقي لسلامة موسى؟ لقد قامت محاولات لإعادة نشر تراثه، لكنه لم يلق القبول، وأنشئت مكتبة باسمة تخليدًا لذكراه، من صنع أسرته ولكن دون جدوى.. لقد كان فقاعة كبيرة روج لها المغرضون وأعداء الإسلام، وسرعان ما انفجرت وذابت دون دوي.

أما خالد محمد خالد فقد خالفته وأحببته، فعندما أصدر كتابه «من هنا نبدأ» ورد عليه الشيخ محمد الغزالي بكتابه «من هنا نعلم»، كنت حريصًا على تحري الحقيقة، كان خالد يستمتع بقدرة فائقة في اختيار الكلمات الوثابة الموحية المشعة، والأسلوب الحماسي المجلجل، والشعارات والاقتباسات الرنانة، ترى ذلك في اختيار عنوان الكتاب، وفي عنوان كل فصل، وفي المقتطفات التي توضع في بداية كل فصل، حتى النقط وعلامات الاستفهام والتعجب، كان يتأكد منها عند الطبع، واستطاعت كتبه التالية «هذا.. أو الطوفان» و«لكيلا تحرثوا في البحر» أن تجذب الاهتمام، وتجعله من الكتاب المرموقين، وكانت تربطني به صلة صداقة لم يستطع خلاف الرأي الشديد أي يقضي عليها، كان رجلًا صريحًا، لكنه كان قلقًا متوترًا. رغم ثقافته الدينية، وكانت له مواقف مشهودة حينما قال لعبد الناصر في اجتماع المؤتمر القومي، على شاشة التليفزيون والإذاعة وأمام الحشد الكبير، دون خوف:

«يا سيادة الرئيس.. لا علاج لمشكلة الحرية إلا بالمزيد من الحرية» ويومها قال له عبد الناصر: إن الحكومة قد أفرجت عن كتبه المصادرة، وأنها تركت له الحبل على الغارب.. وخاصة عندما قيل إنه إسلامي الاتجاه.. ثم شيوعي.. ثم.. ثم.. وظل خالد يتحول تدريجيًا.. وجدناه يكتب بين «يدي عمر» ويكتب عن أبي بكر الصديق، وعن عمر بن عبد العزيز.. ثم يفاجئ قراءه بمقالة شهيرة نشرت في جريدة الأخبار، يعترف فيها بعد ربع قرن من الزمان بخطئه حينما كتب «من هنا تبدأ» وما تبعه من مؤلفات تهاجم الدين ومنهج الحكم فيه وخلطه بالسياسة وما إلى ذلك، كما اعترف بما ذكره محمد الغزالي من قبل من أنه كان متأثرًا بآراء المستشرقين والمبشرين وأعداء الإسلام.. اعترف بشجاعة، بل إنه بكى في أحد مواقف الاعتذار والاعتراف في التليفزيون.. وكان شجاعًا في اعترافه بالحق، كما كان شجاعًا بالأمس في تمرده.. وأنا لم أكف عن القراءة له سواء في ثورته الجانحة أو عودته إلى الحق، لم يمنعني خلاف الرأي أن أتابع ما يكتب وأجالسه وأناقشه، والواقع أنني كنت أتوقع من شخصية كشخصية خالد أن تنزل يومًا إلى الصواب، وكنت أتساءل بيني وبين نفسي طوال ربع قرن

لماذا تأخر عن العودة؟ حتى فوجئت بمقالته وأنا في دولة الإمارات تنشر في الأخبار القاهرية، فحمدت الله، ودعوت له بالتوفيق وطول البقاء.

وقرأت الكثير والكثير لطه حسين، إنه أولًا وقبل كل شيء أديب وفنان أكثر من أي شيء آخر، أديب حتى في تأريخه وفي بحوثه وفي نقده، وله أسلوب أديب متميز بين كتاب العربية لا يشاركه فيه أحد..

وقبل أن نخوض في الحكم عليه، يجب أن تعرف أنه تراجع عن الكثير من آرائه التي أغضبت العلماء والغيورين على الإسلام، تراجع في خطاب رسمي لمدير الجامعة آنذاك أحمد لطفي السيد باشا، وحج بيت الله الحرام، وكتب مؤلفات جديدة تجب ما قبلها مثلما رأينا في «مرآة الإسلام» و«على هامش السيرة» و«الوعد الحق» وغيرها.. لكن الذي لا مراء فيه هو أنه أساء إلى الأزهر وإلى الفكر الإسلامي بالآراء المنحرفة التي تبناها ردحًا من الزمن، وكذلك بترديده لأفكار بعض المستشرقين المغرضين، وخاصة أن الأوساط الغربية قد روجت لمثل تلك الأفكار، بل إنها تركت بصمات واضحة في الفكر العربي المعاصر نفسه.

ولعل الكثيرين ممن تلقفتهم الحضارة الغربية ببريقها، أو ممن ساء رأيهم في الدين، فانحازوا إلى الشيوعية أو الوجودية، لعل الكثيرين من هؤلاء قد تربوا على فكر طه حسين القديم، وتحليله لأحداث التاريخ الإسلامي، وإبرازه لجوانب مثيرة ومحزنة في علاقات الأشخاص الأوائل في فجر الدعوة الإسلامية.

لكن يبقى طه حسين المتحرر، المدافع عن المعذبين في الأرض، والمتغني بتضحيات عمار وياسر وسمية، والحامل لمرآة الإسلام وعظمته، والمترنم بذكريات البيت العتيق، ومسيرة المد الإسلامي في صباحه وظهره وحتى اليوم..

بل إن طه حسين نفسه أنكر ألوانًا من نقده لمعاصريه، وزعم أنه كانت أيام الشباب واندفاعه، وكان حديثه الصحفي يتناول واقعة نقده المرير لشوقي وحافظ، وأسفه العميق على ما بدر منه.

لقد أدى طه حسين دورًا لا شك فيه، وخلف مدرسة أدبية متميزة، وكان همزة وصل بين ثقافات أجنبية وثقافتنا العربية، وكانت نقطة الضعف فيه هي عداؤه القديم للأزهر ورجاله، ولفقيه المكتب الذي كان يحفظه القرآن الكريم، فتمادى في سوء الظن، وحاول أن يثأر لنفسه،

ويثبت أن ذلك الأعمى الضعيف، الذي رسب في الامتحان، أقوى من الأزهر ومن شيوخه، بل أقوى مما يتصورون.. وكانت تجربة..

ولا يشك أحد أن طه حسين في بدايات عمره، ليس هو طه حسين في سني حياته الأخيرة، أي بعد أن تولى وزارة المعارف وأعلن كلمته الشهيرة «التعليم حق للجميع كالماء والهواء».

وللأستاذ أحمد أمين جهد كبير في الكتابة عن الإسلام وتاريخه الاجتماعي والسياسي والثقافي، وعلى الرغم من استفادته من الترجمات والدراسات الاستشراقية والمؤلفات المتنوعة في عصره وقبل عصره، إلا أنه قدم سجلًا حافلًا، غير أن نظرته لفلسفة الحكم في الإسلام لم تكن سليمة، وخلط السيئ بالحسن، ولم يتحر الدقة في أحكامه على العصور المختلفة، وما جد فيها من عوامل خارجية وداخلية، كان ناقلًا أكثر منه محللًا، ولهذا فإن من يقرأ له يجب أن يكون على حذر بالغ، ولا تهوله ضخامة جهده المبذول، وموضوعاته الكثيرة التي تبدو مترابطة، والمؤرخ كما نعلم إما أن يكون متذوقًا ومستوعبًا ومحللًا لأحداث التاريخ، وإما إن يكون مجرد ناقل أو جامع للآراء، وهذا النوع الأخير قد يستسهل أمر إصدار الأحكام السريعة.. وهو أمر في غاية الخطورة، وأرجو ألا أكون مخطئًا إذا قلت إن الأستاذ الكبير أحمد أمين من ذلك الطراز الثاني.

****

[11] ذكريات سياسية

كان الطالب (ب.ب.غ) هو سكرتير اللجنة الوفدية للطلبة بمحافظة الغربية، وكان يمشي في مدرستنا الثانوية منتفخ الأوداج، يتكلم من أطراف أنفه، ويتعالى على خلق الله، رغم وضعه العلمي العادي، وملابسه المنفرة، وطربوشه العتيق، وذات يوم أمره أحد مدرسي اللغة الإنجليزية بالعودة إلى فصله، فلم يمتثل للأمر، وحدثت مشادة كانت نتيجتها للأسف الشديد أن ضرب الطالب أستاذه بالكتب التي كانت معه، وهنا ثارت ثائرة الأستاذ، وذهب على الفور، وهدد بالاستقالة إذا لم يفصل ذلك الطالب، وفوجئنا؛ إذ رأينا المدرسين عن بكرة أبيهم يمتنعون عن إلقاء الدروس، ليس هذا فحسب، بل قدموا استقالاتهم تضامنًا مع زميلهم، كانوا يعرفون مكانة الطالب في التنظيم الحزبي، والحزب لا يمكن أن يضحي بواحد من أتباعه المخلصين، وكان الطالب هو الآخر واثقًا من ذلك حتى إنه قال: «ولا الملك فاروق نفسه يستطيع أن يصدر قرارًا بفصلي»، وظلت المدرسة بلا عمل طوال ذلك اليوم واليوم التالي، وأبدى الناظر نجيب بك دميان استياءه لما حدث، وأبلغ المنطقة تضامنه مع المدرسين.

وكان وزير المعارف في ذلك الوقت هو الدكتور طه حسين باشا (1951)، وكان فؤاد سراج الدين باشا وزير الداخلية، وحاول الطالب أن يكتل طلبة المدرسة حوله، كي يقوموا بمظاهرة احتجاج ضد المدرس والمدرسة، ولكن لم يستجب له أحد، وعلمنا فيما بعد أن وزير المعارف، غضب أشد الغضب من تصرفات الطالب، وخاطب سكرتير حزب الوفد فؤاد باشا بشأن ذلك التصرف الذي ينبو عن الذوق والأخلاق وصمم على فصل الطالب، واقتنع فؤاد باشا، وصدر قرار بفصل الطالب (ب.ب.غ) لمدة عامين، وعاد كسيرًا حزينًا إلى قريته، ليتلقى أقسى درس في حياته.

وكم كان عظيمًا حينما رحب الطلبة -وفديين وغير وفديين- بهذا الإجراء، فالطالب كان أسوأ ممثل لحزبه، في كثير من التصرفات، وكانت عنجهيته مثارًا لكراهيتنا له، والواقع أن

زعامات الطلبة في المدرسة، لم تكن على نسق واحد، فزعماء أحزاب الأقلية، مثلًا لم يكن لهم شعبية كافية لحمايتهم، ولهذا كانوا يتحاشون الصدام، ويلجأون إلى وسائل أخرى للنيل من خصومهم، فإذا كانت الوزارة الحاكمة هي وزارتهم، وشوا بالمعارضين لدى البوليس المخصوص أو القلم السياسي (المباحث)، وأوعزوا إليهم بمطاردتهم، أو حجزهم لأيام في أقسام الشرطة، أو تأديبهم بوسائل الحكومة المختلفة، وكان زعماء الطلبة من الإخوان المسلمين أفضل القيادات في عموم الأمر، إذ كان هؤلاء الأفراد المسئولين حريصين أشد الحرص على اكتساب النفوس إلى دعوتهم، وإقناعهم بالانضمام أو الانتساب لجماعتهم، كما إن أغلب هؤلاء الشباب يحرصون على أداء الصلوات في مسجد المدرسة، ويلقون الدروس الدينية، ويتحاشون ارتكاب ما ينفر من سلوك وأقوال وأفعال، وفي أغلب الأحيان، كان يشرف عليهم ويوجههم بعض المدرسين المنتمين إلى الجماعة، ولذلك كانوا يحظون بالاحترام والثقة، لكن الأمر لم يكن يسلم من بعض المشاغبات والصدامات التي تحيط بها ظروف معينة، كأن يُجروا إلى معركة، أو يُدفعوا دفعًا للشجار مع من يحاول الاعتداء عليهم، أو أن بعض أفراد الجماعة غير المسئولين يتصرفون تصرفات شخصية تؤدي إلى العراك، وجمهور الطلبة قد لا يعرف المسئول وغير المسئول، وكثيرًا ما يحدث خلاف حول أهمية حدث من الأحداث الجارية بالنسبة للطلبة، فيرى البعض أن هذه مناسبة للتظاهرات والاحتجاج، بينما يرى البعض الآخر عكس ذلك، ومن المعروف أن طلبة الإخوان المسلمين لا يتحركون إلا وفق خطة وأوامر، وهكذا يصبح خلاف الرأي حول مناسبة من المناسبات مدعاة للجدل الذي قد يتطور إلى معركة، ومع ذلك فلم يحدث في مدرستنا طوال سني دراستي فيها صدامٌ عنيف، أو إراقة للدماء والحمد لله، ويوم أن اغتيل محمود فهمي النقراشي باشا، ثم تبعه مقتل الإمام الشهيد حسن البنا، اهتزت أوساط الطلبة اهتزازًا عنيفًا، كانت الشماتة تبدو في أعين الوفديين عندما اغتيل خصمهم النقراشي باشا، وكانوا مرتاحين بعد الانتقام من حسن البنا، واعتقال الإخوان المسلمين بالجملة، وتقديمهم للمحاكمة، لماذا؟ لأن الطرفين خصومهم، وسوف يؤدي ذلك -حسبما يعتقدون- إلى إضعاف هذا وذاك، وسيتأزم الموقف أكثر، وتضطرب الأمور، وخاصة أن الغليان الشعبي قد بلغ مداه، وبالطبع سوف يفكر القصر الملكي في وسيلة، لتهدئة الموقف، ونزع فتيل الخطر حتى لا يزداد السخط على الملك وحاشيته، ولا يمكن أن يتحقق ذلك إلا بإسقاط وزارة السعديين التي تولاها إبراهيم عبد

الهادي باشا، ومن ثم يصبح الجو مهيئًا لمجئ حكومة الوفد التي حرمت من الحكم فترات طويلة، ولهذا أخذت المعارضة لحكومة السعديين وللملك تنتعش وتقوى يومًا بعد يوم، وأخذوا يتحدثون عن الإمام الشهيد، وعن هؤلاء المعتقلين المظلومين، وعن القهر والاستبداد، وبعد فترة ليست بالطويلة، جاءت وزارة حيادية لإجراء انتخابات حرة، ونال الوفد الأغلبية الساحقة، بمساعدة المعارضين، وخاصة الإخوان المسلمين.

وفي هذه الفترة رويت عشرات القصص عن تعذيب المسجونين السياسيين والمعتقلين، وأصبح الرعب مرادفًا لكلمة «البوليس السياسي» وذكرت حكايات عن «العسكري الأسود» الذي لعب دورًا بارزًا في محاولة انتهاك الأعراض، واستخدام وسائل القهر والتعذيب الرهيبة، وأشارت أصابع الاتهام إلى شخصيات كبيرة في خدمة القصر والحكومة، وكان الناس يتحدثون عن ذلك في مجالسهم الخاصة، ثم تجرأت الصحف أخيرًا، وأخذت تنثر الأوقايل هنا وهناك، بل حاولت إحدى الصحف البحث عن العسكري الأسود وكشف سره، وذهبت إلى قريته، وعلمت الكثير عن شخصيته الشاذة، وسمعته السيئة، وألمحت إلى أن هناك قوى خفية تحاول حمايته، ومنع يد العدالة من أن تطوله.

كنت سعيدًا بنجاح الوفد في الانتخابات، فقد كانت الانتخابات حرة بالفعل، وكانت أحلام الحرية تداعب خيالنا، لسوف يفرجون عن المعتقلين، ويحاكمون الأشرار، ويظهر الحق، وسينجاب ظلام الكبت والقهر، وسيذهب حكم الأقلية المستبدة إلى الأبد، هكذا ظننا، وفي ظل الحرية المرتقبة لن يكون هناك تكميم للأفواه، سنتكلم ونكتب كما يحلو لنا، وستفتح الأبواب من جديد للدعاة كي يصولوا ويجولوا، وستنتعش الآمال من جديد بالنسبة لقضية فلسطين التي كانت- هي وقضية الجلاء عن مصر- قضية الشباب الأولى في تلك الفترة، لقد خيبت الهدنة آمالهم، وكان قاسيًا على النفس أن يُساق المجاهدون الأبطال من ميدان القتال إلى معتقل «الهايكستب»، على الرغم من قصص البطولة التي كانت تروى عنهم، وعلى الرغم من شهادة قيادات الجيش لهم، وشهادة مفتى فلسطين وقادتها، وقد أشيع في ذلك الوقت أن الملك فاروق عندما ذهب لزيارة جيشنا المجاهد في فلسطين، فوجئ بأعداد كبيرة من متطوعي الإخوان المسلمين، كما وجدهم على كفاءة عالية من القدرة القتالية والتضحية، فداخله خوف كبير، وأوعز إليه مستشاروه وكذلك السفير البريطاني، بأن هؤلاء المجاهدين من الإخوان سوف يشكلون خطرًا كبيرًا إذا ما عادوا إلى بلادهم بعد انتهاء حرب

فلسطين، واستتباب أمر إسرائيل، لأن هؤلاء الإخوان المدربين المسلحين، يستطيعون أن يغيروا نظام الحكم في البلد، وقد حدث اجتماع في قاعدة «فاير» البريطانية حضره السفراء الثلاثة لبريطانيا وفرنسا وأمريكا، وكان نتيجة هذا الاجتماع هو تقديم النصيحة للحكومة المصرية وللملك فاروق بالذات بحل جماعة الإخوان المسلمين تحسبًا لمخاطر أكيدة، وقد أزيح الستار فيما بعد، أي بعد ربع قرن عن وثيقة بريطانية تحمل هذا المعنى.

واضطربت سياسة الملك إزاء هذه الجماعة، فقد أوعز بالتصدى لهم والقضاء عليهم ومحاربتهم في أرزاقهم وأعمالهم ونشاطهم، ولما لم يفلح هذا السلاح لجأ إلى محاولة مهادنتهم، ثم عاد لمحاربتهم وهكذا، وللأسف فإن الملك كان يستثمر الخلافات السياسية الطاحنة، وضيق الأحزاب بالإخوان الذين يزداد أتباعهم يومًا بعد يوم، وحاول أن يصب البترول على نار الخلافات، حتى يضعف هذه الجهة وتلك، وبذلك يظل مسيطرًا على الموقف.

كانت أيامًا مليئة بالأحداث والاضطرابات والفتن، وكانت الأمور تتطور بصورة سريعة ومعقدة.. وكانت جريدة الاشتراكية (مصر الفتاة سابقًا) تنشر مقالات ملتهبة لأحمد حسين مثل مقالته الشهيرة «رعاياك يا مولاي»، ومقالات سيد قطب وغيره، كما نشط الشيوعيون في إصدار منشوراتهم السرية التي يطبعونها على ماكينات الرونيو، والمخطوطات المختلفة والأخبار العديدة، وتجرأت الصحف ونشرت الكثير صراحة أو رمزًا عن فساد البيت الملكي وقصص المغامرات والمقامرات والمؤامرات والأسلحة الفاسدة وغيرها، حتى أصبح الجو معبئًا بالحنق والتمرد، وكان فشل الجيش المصري في أداء مهمته في فلسطين نقطة سوداء في جبين ذلك العهد الفاسد، كما كان له أعمق الآثار في مجريات الأحداث بعد ذلك.

حينما جاءت وزارة الوفد، كان من المتوقع أن يعود الإخوان المسلمون إلى نشاطهم العلني والقانوني مباشرة، لكن فوجئت الجماعة بما يسمى «بقانون الجمعيات»، وكان المقصود به، وضع القيود والعقبات في طريق عودة الإخوان المسلمين، فما كان من الجماعة إلا أن قامت بمظاهرة سلمية ضخمة، فاجأت مجلس النواب (البرلمان) وهو يستعد لمناقشة مشروع القانون، وأعلنوا رفضهم لهذه الإجراءات التي تحد من حرية الشعب وحركته، في وقت يحتل فيه الاستعمار الأرض، وتنمو الصهيونية المنتصرة على الحدود، ويداوي الشعب جراحة من

وطأة حكم السعديين الجائر، ولم تستطع وزارة الوفد في بداية عهدها أن تصمد لهذا التيار الجارف والعادل من المعارضة الشعبية، ومن ثم أغمضت العين عن ذلك القانون.

وجاء المستشار حسن الهضيبي مرشدًا عامًا للإخوان المسلمين في المكان الذي شغر بوفاة مؤسسها الأول الإمام الشهيد حسن البنا، ولم يكن الهضيبي معروفًا لدى جماهير الإخوان، فكان الأمر بمثابة مفاجأة كبرى للجميع، سواء الأخوان أو غير الإخوان، إذ ليس من المألوف أن يتولى التنظيم الديني أو السياسي رجل ليس للجماهير سابق معرفة به، وهذا الأمر أثار تساؤلات عدة داخل مصر وخارجها، إذ كان للإخوان تنظيمات في بعض البلدان العربية والإسلامية.

ومما خفف من وقع التساؤل والحيرة أن مكتب الإرشاد أعلى سلطة في الإخوان المسلمين —وكذلك الهيئة التأسيسية، وهي بمثابة اللجنة المركزية، قد صوتتا إلى جانب اختيار الهضيبي مرشدًا عامًا للإخوان، وهما أقرب لإدراك الأمور، وفهم مجريات الأحداث، وهكذا استتب الأمر للهضيبي، على الرغم من أصوات معارضة قليلة العدد في مكتب الإرشاد، وفي الهيئة التأسيسية، وفي النظام الخاص الذي أطلق عليه الجهاز السري.

لقد مضى عهد بالنسبة للإخوان.

وأتى عهد جديد...

مضى عهد الإمام الداعية المنشئ المنظم العبقري الملهم، ذلك الذي كان يستحوذ على عقول المستمعين ووجدانهم، وينفذ إلى نفوسهم بعاطفته الجياشة، وصدق يقينه، وروعة أسلوبه، وسرعة حركته، ووضوح رؤيته.

وأتى عهد الرجل القانوني الذي يؤثر الصمت على الكلام، ويقابل الثورة الملتهبة بالهدوء والرزانة، ويجابه أعتى المواقف وأخطرها بإيمانه الفذ، وكلماته القليلة، وموقفه الصلب الذي لا يتزحزح عنه، وفي أول خطبة له بدار الوثبة المباركة في شارع «الظاهر» بالعباسية، جلسنا وكأن على رءوسنا الطير، كان هادئًا بطيئًا وهو يوصينا بقراءة القرآن وفهمه، وبالصبر والصلاة، وبأن نكون قدوة حسنة لإخوتنا ولغيرنا.. وأكد في كلمته القصيرة أهمية العمل.. فالدعوات لا تقوم إلا بالعمل الجاد.

كنا شبابًا، وكنا نريد أن نستمع إلى خطبة عاصفة تشعل القلوب، وتحرك المشاعر، وتدفعنا إلى خوض المخاطر، وتشحننا بمعاني التضحية والفداء حتى نتسابق إلى الموت دون خوف، كنا نريد أن نكتسح الطغاة، وندمر الجبابرة الظالمين.. لكأنما أراد الرجل أن يشير إلى مرحلة جديدة تختلف طبيعتها عن المرحلة الأولى، وأن هذه الحقبة تحتاج إلى التخطيط الحكيم، والهدف الواضح، والعمل الدائب وتجنب الأخطاء التي قد تجر إلى مشاكل عويصة، وإلى عقبات كأداء تعترض مسيرة الدعوة.. وبمرور الأيام أحببناه ووثقنا به..

ولم نكن نعلم أنه جاء ليحمل أعتى الأعباء وأثقلها.. وليصارع أقوى الأحداث وأشرسها.. وليصمد لما هو أقسى وأبشع من الموت نفسه.. لقد كانت الجماعة تضم عددًا كبيرًا من ألمع الخطباء والشعراء والكتاب والصحفيين الذين تربوا على يدي الإمام الشهيد، ولم تكن في حاجة إلى المزيد من هؤلاء، كانت في حاجة إلى العلماء المتخصصين، وإلى الباحثين المتعمقين، وإلى ممارسات عملية دقيقة، بعد أن اتسعت الدائرة، وتعمقت التجربة، وصبغ تاريخ المسيرة بالدم الأحمر، والتفتت إليها قوى الاستعمار والشيوعية والصهيونية الشرسة، وقعدت لها قوى الغدر الداخلي بالمرصاد.. وكان حسن الهضيبي صاحب التاريخ الناصع، والطهارة الملائكية، والإيمان العميق، والرؤية الصادقة، كان هو رجل الأقدار، ولقد كان صموده فيما بعد قصة مثيرة لا مثيل لها في تاريخ الدعوة الحديث، فالأحداث الجسام التي تعرض لها سنوات طويلة سواء في ساحات السجون، أو في بيته قد أكدت أصالة معدنه، وصدق نظرته، وقوة إرادته، هذا إذا أردنا أن ننفي عن العمل السياسي، والدعوة إلى الله، خبث الميكافيلية، وعبث الغدر والمداراة، وألاعيب الحكم والسيطرة وأقذارهما، كان ملاكًا يواجه جوقة من الشياطين، وكان إنسانًا يصارع حفنة من الذئاب والوحوش المفترسة، كان الأمانة في مجابهة الخيانة، والصدق في تصديه للكذب والتجرد في صراعه مع الأنانية، والصفاء في تحديه للبذاءة والقذارة، والحب في منازلته للكراهية، والتضحية في عراكه مع النفعية، والتسامي في نضاله مع السفالة والسقوط.. حتى حينما دب الخلاف الفقهي بين أتباعه خلف الأسوار، وانشق عنه جماعة التكفير والهجرة، أعلن صيحته العلمية الصادقة المدعمة بالأدلة والبراهين، وقال في كتابه الشهير نحن «دعاة لا قضاة»، ورفض التطرف، ورفض فكرة تكفير المجتمع وهجرته.. رفضها ممن؟ من بعض أبنائه في الدعوة، لم يدخر وسعًا في تبصيرهم وتوجيههم، رغم ظلام السجن وآلامه ومآسيه.. ذلكم هو حسن الهضيبي الذي لم يأت بعد

من يكتب تاريخه الصحيح الكتابة الأمينة، بعيدًا عن مهاترات الصحف وأخبارها المبتورة ونصوصها المفتعلة، وادعاءاتها الكاذبة، وبعيدًا عن الإعلام المتحيز الموجه، الذي لفق الأدلة، وزعم الأباطيل، وملأ الدنيا بالتحليل المبتذل، والروايات الملفقة.

لقد قطعنا استطرادنا المتأني، وقفزنا بالأحداث إلى بعيد، لكن ذكرى الرجل جرتنا إلى أمور كانت مثار جدل كبير، ومن ثم لم يكن هناك مفر من الولوج فيها بقدر قليل..

وهل التاريخ إلا تجارب؟

لكن لا يستطيع إنسان أن يكتب السطر الأخير في أحداث معاصرة، والليالي كما يقولون حبالى، ويلدن كل عجيب..

****



الجزء الثاني

المقدمة

إن الأحكام التي يطلقها الدارسون على الأفراد والجماعات وأنظمة الحكم المختلفة، ليست بالسهولة التي يتصورها البعض، والناس فيها يعشقون مذاهب، ومن الصعب أن نخلص المؤرخين من عقائدهم وأهوائهم وأمزجتهم الشخصية مهما حاولوا الالتزام بالموضوعية والحياد، أو ادعوا ذلك، والمشكلة الرئيسية أن طبيعة الإنسان لا يمكن أن تتسم بالخير المحض أو الشر المحض، بل تحتوى على نسب متباينة من هذا وذاك، ومن هنا تأتي الخلافات في الرأي والتحليل والتقييم.

والذين عاصروا ثورة يوليو 1952، انقسموا إلى مؤيد ومعارض، بالإضافة إلى فئة ثالثة آمنت أنه لا جدوى من اتخاذ موقف محدد، فبعدوا عن الساحة، والتزموا الصمت، إما بعدًا عن المشاكل، أو يأسًا من الإصلاح، أو رضوخًا لبطش القوة والسلطان.

ويخطئ من يظن أن خفايا الأمور في مصر كانت متضحة بصورة كافية بين عامة الناس، لأن المعروف أن «النظم الشمولية» أو الدكتاتورية لها قناعاتها الخاصة بقضية الحرية والرأى والمعارضة، ولا يصح أن يعرف الناس إلا ما يريده الحاكم، ولا يتحدثون إلا في إطار ما يراه الحاكم صوابًا، ولابد لهم أن يعادوا ما يعاديه، ويصادقوا من يصادقه، والويل كل الويل لمن تراوده نفسه إبداء رأي مخالف، أو اتخاذ موقف خاص، وحجة النظم الدكتاتورية في ذلك أنها تريد النهوض بمستوى الشعب، وتحقيق الرخاء والعدالة الاجتماعية، والقضاء على الطبقات الطفيلية والمستغلة، والتخلص من الاستعمار والرجعية، وتقوية الجيش، وتحقيق الخطة المناسبة للتنمية والازدهار، ولا بأس بعد ذلك من أن تكمم الأفواه، وتُملأ السجون، وتصادر الأموال، وتقنن السلطات والقوانين الاستثنائية باسم الشعب.. وباسم المصلحة العامة..

وغرور الدكتاتورية يدفعها دائمًا للقول بأنها هي الأصلح والأمثل والأدرى بمصلحة الجماهير، وأن أسلوبها هو الأسلوب الوحيد القادر على التغيير والتحرير والتقدم.

وعلى الرغم من مرور ثلاثة وثلاثين عامًا على قيام الانقلاب العسكري المصري، إلا أن الحوار لم يزل يدور حول تقييم الدور الحقيقي لتلك الحركة التاريخية التي تركت بصماتها على الحياة والناس، ليس في مصر وحدها، ولكن في معظم أنحاء العالم العربي، وفي مناطق أخرى من العالم الإسلامي والعالم الثالث..

لكن تبقى التجربة الشخصية.. بكل صدقها وانفعالاتها وتفاعلاتها.. يبقى الفرد الذي يحاول أن يكون له وجهة نظر.. أو بمعنى آخر المثقف العادي الذي لا يحتل مكان زعامة، ولا يحمل راية قيادة، وإنما ينشد أن يستمتع بحياة حرة كريمة، يمارس فيها وجوده قولًا وعملًا، إنه يريد لتجربته أن تنمو، ولفكره أن يناقش، ويحلم بأن يعيش في إطار قيم تشريعية محترمة، وممارسات سياسية حرة، في ظل المبادئ والتجارب التاريخية الشريفة.. ويبحث له عن انتماء أصيل يحقق ذاته، ويُعلي من قيمته كإنسان..

القضية إذن بكل تفاصيلها قضية «إنسان ما» عانى وقاسى.. قضية صاحب «وجهة نظر».. أين مكانه؟ وما مصيره؟ وكيف يكون الحكم عليه؟ وفي ظل أي قوانين يحاسب؟ وما مدى التناسب بين حجم الخطأ «إن كان خطأ» وحجم العقوبة؟

المأساة هي فرض «وجهة النظر الواحدة» فرضًا على كل الناس، فكيف يكون مال أمة من الأمم، أو شعب من الشعوب إزاء هذا الوضع؟ إن الذين كرهوا الإسلام خافوا من عدله لما ارتكبوه من مظالم، وهلعوا من مساواته لما نالوه من تمايز، وارتعبوا من حريته بسبب ما مارسوه من إذلال وعبودية لخلق الله، وارتعبوا من دستوره الإلهي الخالد لكثرة ما صنعوا من قوانين استثنائية وإجراءات طوارئ وقمع وتشفٍ، ويستوي في هذه المشاعر الخبيثة طواغيت الأمس واليوم.. لكننا دائمًا -كشعوب- ندفع الثمن غاليًا، جزاء استسلامنا وخنوعنا أمام منطق البطش والإرهاب..

ولقد حاولت في هذا القسم من الكتاب أن أتعرض لقضية الإخوان المسلمين والثورة المصرية، من خلال ما عايشته بنفسي، دون أن أتحرج في ذكر مآخذ أو مثالب هنا وهناك، وليس من رأى كمن سمع، لكن هذا الجزء لا يشتمل على كل شيء فالرواية لم تتم فصولًا،

فلقد انتهيت في هذه الصفحات إلى أواخر أكتوبر عام 1955، ولم يزل أمامي الكثير مما يجب التعرض له من ذلك التاريخ حتى عام 1965 حيث بدأت أحداث الصدام الثاني المروع بين الإخوان والثورة.. وما تلا ذلك من أحداث جسام، أرجو أن أتعرض لأهم ملامحه في القسم الثالث إن شاء الله..

إن تجربة العمل الإسلامي يجب أن توضع أمام الأجيال بأساليب شتى، ومن مواقع مختلفة، فليؤرخ القادة، وليكتب أفراد الجماهير في القاعدة، وليسجل العدو والصديق، فإن تلك المصادر سوف تثري البحث الجاد، وتصل بنا إلى الحقيقة «لكن حذار!»، من ثم؛ لأننا أدرى بما تفعله الصحف والإذاعات والتلفاز والمنشورات التي تسيطر عليها قوى السلطات الدكتاتورية في أية بقعة من بقاع العالم..

والله أسأل أن يهدينا إلى الصواب، وأن يجنبنا الزلل، وأن يعفو عما بدر منا من هفوات، وأن يأخذ بأيدينا إلى طريق الخير والسعادة والنور؛ طريق الإسلام الصحيح.. وبالله التوفيق.. والسلام.

الدكتور نجيب الكيلاني

دبي في 1984/11/10م

الموافق 1405/2/16م

****

[1] المدينة الجامعية

كان اسمها عندما دخلتها لأول مرة عام 1951 «مدينة فاروق الأول الجامعية بالأورمان» ولقد لعب هذه المبنى الصغير دورًا بارزًا في الحياة السياسية، كما أثر إلى حد كبير في حياتي الخاصة، فقد كانت هذه «المدينة» مأوى لعدد لا بأس به من زعماء الأحزاب -الطلبة-، كما اختلط فيها أبناء وجه بحري والصعيد، في مختلف الكليات بجامعة «فؤاد الأول»- جامعة القاهرة الآن- وقد حرصت الأحزاب المختلفة في مصر على أن يكون لها ممثلون في هذه المدينة، ولذلك فإن الصراع الفكري والسياسي كان على أشده، وكانت الاجتماعات السرية وشبه السرية تُعقد في مكان ما بالمدينة، وتتخذ فيها القرارات التنفيذية للمظاهرات والإضرابات، إبان تلك الفترة الحاسمة من تاريخ مصر والعرب عمومًا، كما كان فيها في وقت من الأوقات معسكر لتدريب الفدائيين الذين يتصدون تباعًا للإنجليز في منطقة القنال.

كانت المدينة الجامعية مكونة من عمارتين «جديدة وقديمة»، وكل مبنى من خمسة طوابق، والحجرة يسكن فيها طالب أول طالبان حسب المرحلة الدراسية، وفي الغرفة سرير ومكتب وأباجورة ودولاب للملابس، وحمام به الماء البارد والساخن، وملحق بالمبنيين مطعم كبير على أحدث طراز، ومغسلة، وملاعب للجامعة، ومكاتب للإدارة، وحرس جامعي على مستوى طيب، وعمال معظمهم من أهل النوبة يجيدون الخدمة، ويحسنون التعامل بأدب.

وكان مدير هذه المدينة رجل مهذب من رجال السلك الدبلوماسي القدماء، ومن المحبوبين في القصر الملكي هو «رمسيس بك شافعي»، ويبدو من ملامحه أنه تركي الأصل تقريبًا، وخلفه بعد فترة رجل طيب القلب طيب الأخلاق هو الأستاذ «عاكف»، ومن المشرفين أيضًا على هذه المدينة الممثل المشهور الآن الأستاذ فؤاد المهندس، الذي عرف آنذاك بالمرح، وصداقته الوطيدة للكثيرين من طلبة المدينة.

وكان كل طالب يدفع اشتراكًا شهريًا قدره «خمسة جنيهات مصرية» مقابل الإقامة والطعام والشراب، وما لا شك فيه أن الحياة في المدينة الجامعية كانت حياة مريحة مرفهة،

تختلف تمامًا عما كنت أعانيه في المرحلة الابتدائية والثانوية، فوجبة الإفطار تتكون من البيض المقلي والفول المدمس ونوع من الجبن والزيتون والشاي واللبن الزبادي، ووجبة الغداء تتكون من اللحوم والخضراوات المطبوخة والأرز والسلاطة والفواكه، وأشياء أخرى، وكذلك وجبة العشاء.

ولقد كتبت إحدى الصحف آنذاك مقالًا نقديًا نددت فيه بالبذخ والترف الذي يوجد في المدينة الجامعية، ثم قارنت بين ذلك وما يحدث بالنسبة للطلبة الغرباء الآخرين الذين يسكنون حي «بين السرايات» المجاور للمدينة، وما يعانونه من فقر وجدب وازدحام في المساكن الضيقة القذرة، وكان عنوان التحقيق الصحفي المكتوب «قصر الرخام.. وموائد الدجاج والحمام» وضمنت التحقيق صورًا متناقضة لما يحدث في المدينة، وفي حي بين السرايات، ويومها تظاهر طلبة المدينة الجامعية، واحتجوا على الصحيفة، وذهبوا -وكنت معهم- إلى جريدة «المصري» حيث استقبلنا يومها المرحوم الأستاذ زكريا الحجاوى -الأديب المعروف وأحد محرريها- وقال له زميلنا «محمد الفوال»: «إن ما ينفق علينا في المدينة الجامعية ليس من أموالكم، ولكنه من أموال الشعب الكادح الذي يشقى ويعرق من أجل المحظوظين من رجال الحكم والإقطاع والسراى.. وكان الأحرى بكم أن تطلبوا لإخواننا الغرباء في «بين السرايات» مزيدًا من المباني والخدمات، بدلًا من أن توحوا إلى المسئولين بإحالتنا إلى طائفة أخرى من المتسولين..».

وقد اعتذرت الجريدة في اليوم التالي، ومرت الأزمة بسلام.. لكن إلى حين.. والواقع أن الإغداق على المدينة الجامعية كان فعلًا أمرًا ملفتًا للنظر، لدرجة أن البعض فسر ذلك «الكرم» الزائد بأنه رشوة من الملك لطلبة الجامعة.

ومن الطلبة المشهورين في المدينة الجامعية آنذاك الأستاذ/ حسن دوح زعيم الإخوان المسلمين وأحمد الخطيب زعيم الوفديين وزميله الشربيني «لا أذكر بقية اسمه»، والدكتور إبراهيم الصياد أستاذ بكلية الطب جامعة الأزهر حاليًا، ود. سعيد الرازقي أستاذ بالقصر العيني، والدكتور إبراهيم الأحمدي -بطل كمال الأجسام- وأستاذ بطب الأزهر حاليًا، والسيد الشوربجي من رجال القانون وكاتب تمثيليات ومسرحيات، وكان يصدر وهو بالمدينة صحيفة أو مجلة دورية اسمها «السويس» لأنه كان من السويس، وكانت حافلة

بالموضوعات السياسية والنقد اللاذع، وكان منهم أيضًا الدكتور محمد البغدادي -شقيق عضو مجلس قيادة الثورة فيما بعد عبد اللطيف البغدادي، ومحمد أبو شلوع طالب الحقوق، وفتحي البوذ، وهو من تنظيمات الإخوان الرئيسية، ومحمد نصار طالب الحقوق الذي اتهم فيما بعد بأنه كان ينوي اغتيال عبد الناصر بالحزام الناسف، وحكم عليه بالإعدام في محكمة الشعب، ثم خفف الحكم إلى الأشغال الشاقة المؤبدة، حيث قضى بضع سنوات في الواحات سجينًا، وأفرج عنه بعدها، وهو يعمل حاليًا بمدينة الزقازيق، وغير هؤلاء كثيرون ممن لعبوا أدوارًا بارزة في مجال الطب والقانون والسياسة والعلوم والفنون.

ولا يمكننا أن نمر دون أن نذكر بكل تقدير وإعجاب البطل «حسن دوح» طالب الحقوق الذي يعد بحق من نجوم الخطابة السياسية في أيامنا، وكانت كلماته القوية المعبرة تصل إلى قلوب الجميع، وكان يرتدي دائمًا زيا شبه عسكري، فقد كان منهمكًا في معسكرات تدريب الفدائيين، ويقضي أيامه متنقلًا بين القاهرة وقناة السويس، حيث يقود كتيبة الجامعة التي تقوم بعمليات مؤثرة ضد الإنجليز في قاعدة قناة السويس، كان رجل قول وعمل، ويكاد يكون متفرغًا تمامًا للعمل الفدائي، وهذا ما جعله يحظى باحترام الجميع، ويستقبله مدير الجامعة وعمداؤها وأساتذتها بكل تقدير واحترام، ويوم أن ذهب إلى مجلس قيادة الثورة استقبله عبد الناصر بترحاب شديد وقبل وجهه بحرارة، وعندما تراجع حسن دوح للخلف قال له جمال عبد الناصر: «لا.. لابد أن أقبلك من الناحية الأخرى»، لكن الأمور لم تمض على ذلك النحو من المودة، فقد ألقى حسن دوح خطبة الجمعة في مسجد «شريف» بالروضة في عام 1954 بعد ذلك، وتناول بالنقد الصريح بعض الإجراءات غير الدستورية للحكومة، فقبض عليه قبل حادث المنشية، ثم حوكم بعد الحادث أمام محكمة الشعب، وصدر ضده حكم بالأشغال الشاقة، وقضى في السجن سنوات طويلة، وعندما خرج بعفو من عبد الناصر، عمل بالصحافة في دار أخبار اليوم، وفي الاجتماع الدوري للصحيفة استقبله مصطفى أمين بترحاب وقال: «أيها الصحفيون إن بينكم اليوم رجلًا، كانت الصحف في يوم من الأيام تكتب عنه، وتضع صورته في صفحاتها الأولى.. وقد انضم إليكم ليبدأ رحلة الصحافة من أول درجات السلم.. إنه رجل يستحق التقدير والاحترام.. ذلك هو حسن دوح..».

لقد كان لحسن دوح تاريخ عطر في حركة الجهاد، ومناوأة الاستعمار، والتصدي للقصر الملكي وهو في عنفوانه، جاهد بالكلمة وبالسلاح، وكانت فيه كل مؤهلات القيادة الناجحة،

رأيته عندما تعرض عليه مشكلة، سرعان ما يستوعبها، ثم يصدر الرأي الحاسم فيها ببساطة غريبة، وترى فيه الرأىَ الصادق الذي لا رأي بعده.. إنه السهل الممتنع كما يقولون..

أذكر خطابه الشهير في ميدان الأوبرا وعند مسجد «الكخيا» بالقاهرة، يوم تشييع جنازة الشهيد «عمر شاهين» الطالب بكلية الآداب الذي استشهد في معركة «التل الكبير» مع رفيقه الشهيد «أحمد المنسى» الطالب بكلية الطب، وهم مشتبكون في معركة ضارية مع قوات الاحتلال، كما أسر سبعة آخرون من الطلبة.. أقول أذكر خطاب حسن دوح في يوم الجنازة التي شاركت فيها جميع أحزاب مصر آنذاك يوم 1952/1/12 أي قبل الثورة المصرية بشهور قليلة، لقد قال:

«لقد تقاعست قوات الحكومة عن حماية ظهر الفدائيين، عند انسحابهم، بعد ان أتموا عمليتهم بنجاح، وهكذا صمد الأخوان الشهيدان حتى يحموا انسحاب إخوانهم، إن القصر المتواطئ مع الحكومة، قد جامل الاحتلال، وأنا أقول في هذه اللحظات الحاسمة من تاريخنا إنه سوف يأتي يوم ينهار هذا القصر على من فيه، وعلى من يحميه..».

وهنا ضج عشرات الألوف المحتشدون بالهتافات الصاخبه الحانقة..

وأذكر أيضًا حسن دوح في إبان تلك الفترة العصيبة، عندما حاول البعض إثارة الفتنة الطائفية في الجامعة، لقد وقف يومها وأعلن في حماس: «إنني كاليهود أؤمن بموسى.. وكالنصارى أؤمن بعيسى.. وأنا مسلم لأني أؤمن بمحمد».

وكانت هذه الكلمات بردًا وسلامًا على قلوب الجميع، حتى إن بعض الإخوة المسيحيين انضموا إلى كتائب الفدائيين في حماس منقطع النظير.

وعندما سقطت حكومة الوفد -حكومة الأغلبية- بعد حريق القاهرة الشهير، جاء «علي ماهر باشا» إلى المدينة الجامعية، ووقف يتناقش مع حسن دوح حول ضرورة إلغاء معسكر تدريب الفدائيين بالمدينة الجامعية، قال له حسن دوح: «لماذا يا باشا؟».

- «لأن في خطتنا أن نقيم معسكرات للفدائيين في كل أنحاء مصر..».

قال حسن ببساطة مذهلة: «إذن فليكن هذا المعسكر واحدًا منها..».

فسكت الباشا ولم ينطق بكلمة واحدة.. كان ذلك أمام الطلبة الذي احتشدوا من حوله.

واعتزل حسن دوح السياسة أو كاد، بعد خروجه من السجن وعمله بالصحافة، ثم سافر للعمل بالكويت، وهناك نازعته نفسه العودة إلى الكتابة، فتولى مسئولية رئيسية في مجلة «الإصلاح» التي تصدرها جمعية الإصلاح الاجتماعي في الكويت، وهي جمعية إسلامية، تعتنق المفهوم الشامل للإسلام، ثم ترك الكويت، وترأس مجلس إدارة إحدى شركات الاستثمار الأجنبي في مصر، وعاد لممارسة نشاطه الصحفي بقدر قليل في الأخبار القاهرية، كما افتتح مكتبًا للمحاماة، وصدرت له في تلك الحقبة كتب عن معركة القنال وغيرها، لكن حسن دوح الكاتب، لم يصل إلى هامة حسن دوح الخطيب المفوه، والمجاهد الكبير، ومازلت أقول بأن حسن دوح صفحة ناصعة من تاريخ مصر المكافحة.. مصر الطاهرة.. مصر التضحية والفداء.. مصر الإسلام فمتى يأخذ هذا الرجل حقه من التكريم والتقدير؟

وحسن دوح لديه الكثير من الأحداث والأسرار المثيرة، فلماذا لا يمسك بالقلم ويسجل تجربته الفذّة كشهادة لمعاصر شريف، قدم أقصى ما يستطيع لدينه ووطنه.. وليس حسن دوح القادم من قرية «تفنيس المطاعنة» بالصعيد هو الوحيد الذي تجاهله قومه.. فهناك الآلاف من الرجال الأبطال الذين طوى ذكرهم النسيان.. أذكر أنني كنت في معتقل «أبو زعبل» الجديد، وكان معي رجل صعيدي اسمه «عويس»، أراه هادئًا صامتًا يرطب لسانه بقراءة القرآن وذكر الله، وكنت أظنه فلاحًا قحًا من أقاصي الصعيد، وعندما تعرفت عليه فهمت أنه مدرس ابتدائي.. وذات يوم من أيام المعتقل الطويلة القاسية كنت أجلس معه خلف باب «الغرفة»، وهو باب من قضبان حديدية صلبة، ونستطيع من خلال تلك القضبان مشاهدة المارين أمام الغرفة، بل ونصافحهم ونحادثهم.. وذات يوم مر بالباب من الخارج المعتقل حسن دوح «عام 1965»، وفجأة وثب عويس من جواري وهب واقفًا وصاح: «حسن» أخي حسن....».

والتفت حسن نحو مصدر النداء، وسرعان ما اندفع نحونا والفرحة تغمر وجهه، ثم يمد يديه من خلال القضبان، وهو يهتف: «عويس.. أخي عويس.. كيف حالك؟».

ودهشت لحرارة العاطفة الجياشة بينهما، وأخذت أرقب المشهد بانبهار شديد.. ما الذي ربط بين «عويس» مدرس الابتدائي، الذي عاش في قرية «الخيام» النائية، بحسن دوح زعيم الطلبة في جامعة القاهرة، والمجاهد في فلسطين والقنال..

ولم يكد يمر يوم أو يومان حتى التقيت بحسن، وعلى التو أخذت أسأله عن علاقته بالمدرس الصعيدى «عويس»، فابتسم حسن، وأخذ يروي لي كيف أن عويس كان من المتطوعين في فلسطين، وأنه أظهر بطولات فذة هناك، وتولى القيادة للمتطوعين في بعض المواقع، ثم قال حسن: «إذا استطعت أن ترى بطن «عويس» فسترى عليها سطورًا خالدة.. » نعم..

لقد قاد عويس معركة صعبة في حربة مع اليهود في فلسطين عام 1948، كان معه بضعة أنفار، وأصابت بطنه رصاصات عديدة.. حتى بدت بقع الجروح القديمة متناثرة متقاربة.. كيف عاش عويس بعدها؟

وروى لي أصدقاء عويس حكايات عديدة عنه في أقاصي الصعيد، كيف كان يقاوم جرائم الثأر، ويفصل بين المتشابكين، ويعرض نفسه للأخطار، وكيف ساهم في محو الأمية، وإرشاد الفلاحين، وكيف درَّب مجموعة من الفلاحين أيام العدوان الثلاثي 1956.. وكيف! وكيف! ويبدو أن هذه المؤهلات كلها، كانت السبب في اعتقاله مرات عديدة بعد ذلك، بل، وقبل ذلك..

لقد خرجت بنا الذكريات عن المدينة الجامعية.

أقول كانت المدينة الجامعية مأوى للعديد من التيارات السياسية والفكرية.. كان فيها الإخوان المسلمون، والوفديون، والشيوعيون، وكان فيها تنظيمات مسيحية وفيها طلبة لا ينتمون لأية فئة، وفيها العاشقون للفن والتمثيل والشعر، وكان من المناظر المألوفة أن ترى «قسيسًا» يدخل بزيه الرسمي على المدينة، ويقصد بعض الغرف، ويعقد الاجتماعات، ويلقي الدروس، كما تستطيع أن ترى شخصية بارزة من المركز العام للإخوان المسلمين، أو أحد رجالات حزب الوفد المرموقين، أما أحزاب الأقلية الأخرى كالسعيديين والدستوريين والكتلة الوفدية والحزب الوطني وحزب مصر الفتاة «الحزب الاشتراكي» الذي يرأسه أحمد حسين، فلم يكن لهم صوت مسموع، وإن كان لبعضهم صحافة، تُقرأ على نطاق ضيق، باستثناء صحيفة الاشتراكية الثورية التي يصدرها أحمد حسين رحمه الله.

وكان بالمدينة الجامعية ساحة تؤدى فيها شعائر صلاة الجمعة، وهي ساحة بالمبنى القديم، وعادة يكون الخطيب طالبًا أو عضوًا من أعضاء جماعة الإخوان المسلمين، ويكون مضمون

الخطبة سياسيًا، سواء إبان حكم الملك فاروق أو بعد قيام الثورة، وكان لمثل هذه الخطب دلالات مهمة، تترك آثارها على أفكار الطلبة وتحركاتهم السياسية بالجامعة.

وأذكر أنني كلفت ذات يوم بإلقاء خطبة الجمعة، وفكرت طويلاً في الموضوع الذي سوف أتناوله في خطبتي، وكان جمال عبد الناصر قد قال في إحدى خطبه «إن عجلة الثورة ستسير، وستحطم في طريقها كل من يعترضها..».

وقال أيضًا مهددًا المعارضة السياسية:

- «إننا على استعداد لأن نضحى بربع الشعب حتى يستطيع ثلاثة أرباعهُ أن يعيشوا في سلام...».

وكانت هذه العبارات هي موضوع الخطبة حيث تناولت «شرعية المعارضة» وحرية التعبير، وأهمية تبادل الآراء حول مصير الأمة ومستقبلها والسياسات التي تطبق فيها، وأن هذا أمر يكفله شرع الله، ونصوص الدستور والقوانين الوضعية، وأن إلغاء دستور 1923 لا يعني إلغاء هذه الحقوق المقدسة، التي لا يمكن أن نكون بدونها دولة مسلمة.. أو دولة متحضرة، وأن إهدار هذه القيم يلحق بالشعب وبالثورة أفدح الكوارث، ويفتح الباب أمام صراعات عنيفة قد تراق فيها الدماء، وأخذت أتمثل ببعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والمواقف التاريخية عن الشورى وحرية الرأى، كما استشهدت بأبيات من الشعر لأمير الشعراء أحمد شوقي«... والأمر شورى والحقوق قضاء...».

وفي نهاية الخطبة قلت ما معناه:

«نحن لا نعترض مسيرة النهضة والبناء والإصلاح وسنفتح عيوننا جيدًا على كل ما تقدمه الثورة من أقوال وقرارات، أو تقوم به من ممارسات، وسوف نعترضها حتمًا عندما تحيد عن الحق، أو تغتال الحقوق المقدسة للإنسان في حرية التعبير والشورى، فكيف يُستعبد الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟!».

وقلت أيضًا: «إن مقولة التضحية بربع الشعب مقولة مردودة على صاحبها، ونحن لا نقبلها، لأن دماء الناس وأموالهم وأعراضهم حرام.. والزعم بأن القضاء على بعض وإراقة دمائهم من أجل الحفاظ على بقية الشعب مقولة فاسدة أيضًا، لا تصدر إلا عن تطلعات دكتاتورية جائرة، ولا تستند إلى قانون أو منطق سليم، وهي إفراز النفوس المستعلية. التي

تضيق بالنقد البناء، وتتوهم أنها وحدها القادرة على اتخاذ القرار السليم، وهي نتيجة للسلطة المطلقة التي تغري بالقسوة والتصرفات الهوجاء..».

وأذكر أنه بعد أيام قليلة عقد في قاعة الاجتماعات بالجامعة مؤتمر كبير حضره جمال عبد الناصر «ولم يكن بعد قد أصبح رئيسًا للجمهورية» ومعه عدد من ضباط الثورة، ولم يحضر الرئيس محمد نجيب هذا المؤتمر، ووقف جمال عبد الناصر ليلقي كلمته وسط هتافات عارمة تطالب بالحرية، والعودة إلى الحياة النيابية..

وبان الضيق على وجه جمال عبد الناصر وهو يخطب، عندما قاطعة الطلبة هاتفين: «استفتوا الشعب.. استفتوا الشعب».

كانت الهتافات كالرعد القاصف، وكان يرددها جميع الطلبة من كل الأحزاب دون استثناء، ورأيت جمال عبد الناصر –وكان يرتدي الزي العسكري- يخلع «الكاب» من فوق رأسه، ثم ينظر إلى الشرفات العالية في القاعة، تلك التي كانت تكتظ بآلاف الطلبة ويصرخ بأعلى صوته في تحد:

«لستم أنتم الشعب.. الشعب هو آباؤكم وإخوانكم الذين يحملون الفئوس الآن، وينحنون تحت حرارة الشمس يزرعون الأرض.. الشعب هو عمال المصانع الذين يكدحون ويعرقون.. الشعب هم إخوتكم في القوات المسلحة الذين يضحون بأنفسهم عند الحدود...».

وساد الصمت.. وتوقفت الهتافات الداوية، وأخذ جمال عبد الناصر يتحدث عن المبادئ الستة الشهيرة التي كانت الثورة قد أعلنتها وعلى رأسها قانون الإصلاح الزراعي وتحديد الملكية..

وكان المفروض في هذا اليوم أن يلقي الأستاذ مصطفي البساطي كلمة الجامعة، لكن الأوامر صدرت بمنعه من الكلام، وما إن انصرف جمال عبد الناصر ومن معه، حتى عقد مؤتمر آخر أمام قاعة الاحتفالات بجامعة القاهرة، حيث ألقى مصطفى البساطي الطالب بالجامعة كلمته، وقد تناول فيها بعض النقاط المهمة التي يراها الطلبة واتخاذهم أساسية في حياتنا السياسية، وهي في مجملها تتحدث عن الضوابط الدستورية والقانونية لمسيرة الأمة، والعودة إلى المؤسسات الشرعية كضمان لحرية الشعب، وكبح جماح الإرهاب البوليسي الذي

أخذ يهدد حياة الناس وأرزاقهم، ويكمم أفواههم، ويلجأ إلى أساليب العنف والقهر.. كما أشار المتكلم إلى الخطأ الفادح الذي وقع فيه منظمو الحفل وهو منع مندوب اتحاد الطلبة من إلقاء كلمته. وكان هذا المؤتمر في الواقع بداية سيئة للعلاقة بين طلبة الجامعة والثورة، وأخذت جميع الأحزاب تتشكك في نوايا الثوار وخاصة ما يتعلق منها بالحريات العامة..

وأستطيع أن أعود قليلًا إلى الوراء، وأروي بإيجاز أحداث مؤتمر آخر عُقد في الجامعة نفسها في بدايات الثورة.. كان الأمر مختلفًا تمامًا الاختلاف.. كيف؟

لقد جاء موعد الاحتفال بذكرى شهداء الجامعة، وكان كما قلت قبل هذا المؤتمر بشهور.. وأرسل جمال عبد الناصر إلى مدير الجامعة يخبره بأنه سوف يحضر المؤتمر ويحتفل مع الطلبة بذكرى شهدائهم، ويلقي كلمة فيه..

كيف سارت أحداث ذلك المؤتمر.. أو ذلك الحفل؟

لم يكن للثورة حتى ذلك الوقت تنظيم أو منظمة في الجامعة، وكانت جميع التنظيمات السياسية بالجامعة (باستثناء الإخوان المسلمين)، تقف من الثورة موقفًا مضادًا، فالوفديون لم ينالوا بغيتهم في إعادة البرلمان المنحل، أو إجراء انتخابات جديدة، والسعديون والدستوريون كانوا محط الهجوم والازدراء من الثورة، وخاصة بعد أن حوكم قتلة الإمام حسن البنا، وقدم إبراهيم عبد الهادي باشا زعيم السعديين ورئيس الحكومة التي اغتيل فيها مرشد الإخوان، قُدِّم للمحاكمة، والشيوعيون لم يجدوا من الثورة سوى المطاردة والاعتقال في البداية، والحزب الوطني ليس له ثقل يذكر في الجامعة وكذلك حزب مصر الاشتراكي، ومن ثم كان من البديهي أن يعتمد رجال الثورة على القاعدة الإخوانية في الجامعة، إذ إن العلاقة بين الإخوان والثورة كانت طيبة في ذلك الوقت، على الرغم من امتناع الإخوان عن الاشتراك في الوزارة، ولهذا فإن الاحتفال بيوم الشهداء كان ذا صبغة إخوانية تقريبًا، وقد أقيم الاحتفال أمام باب صالة الاحتفالات في الساحة الواسعة بالجامعة، وأحاطت جموع الشباب من الإخوان المسلمين بالمنصة التي يشغلها جمال عبد الناصر ورفاقه، ومعهم مندوبو الإخوان في الحفل، وكان الشباب يتحلقون حول المنصة وقد تشابكت أيديهم، في صفوف دائرية لا يمكن اختراقها، إذ كان من المتوقع أن تحاول الأحزاب أن تندس وتشوه جمال اليوم،

وقد يلجأون إلى السخرية أو التعدي على رجال الثورة.. وبُدئ الحفل بآيات الذكر الحكيم، ثم رددت مجموعة الأناشيد الإخوانية الحماسية منها نشيد

في ســـــبيل الله قمنـــــــا

نبتغـــــــي رفـــــع اللـــــواء

ونشيد السجون أيضًا الذي يقول:

في ســـــبيل الله أدخلنـــا الـــــسجون

والمخرجون من الديار بلا ذنوب يُسجنون

ثم تحدث مندوب الإخوان المسلمين عن ذكر الشهداء، ومكانة الشهيد عند الله، ودعا ضباط الثورة إلى الإسراع في اتخاذ الإسلام منهجًا للحياة والحكم، والعمل على «أسلمة» المؤسسات والأجهزة المختلفة، والعمل الفوري على إجلاء القوات البريطانية عن قاعدة قناة السويس، بالأسلوب الذي ثبتت فعاليته والذي نفذه شباب الجامعة المؤمنون، والتصدي للصهيونية المعادية على أرض فلسطين، وتحقيق العدالة الاجتماعية، وإقرار قيم الحرية دون إبطاء، وذلك وفاء لهؤلاء الشهداء الذين بذلوا دماءهم في سبيل الله.

وعندما بدأ «جمال عبد الناصر» في إلقاء كلمته، فوجئ الجميع بضوضاء وضجة عالية تصدر من جهة كلية الحقوق التي تبعد عن منصة الحفل بما يقرب من مائة متر أو أقل، فماذا حدث؟ لقد احتشد المعارضون أمام كلية الحقوق، ووضعوا مكبرًا للصوت، وأخذوا يهتفون هتافات صاخبة، تعني في مضمونها الاعتراض على أسلوب الثوار في الحكم، وتطالب بالانتخابات الحرة، وهكذا تعذر على جمال عبد الناصر أن يواصل كلمته، وكان لابد من التصرف بطريقة تحفظ للحفل استمراريته ووقاره، فتقدمت مجموعة من الطلبة صوب المنصة المقامة أمام كلية الحقوق، لإسكات الميكروفون وكان من البديهي ألا يمر الأمر ببساطة، فقد حدث الصدام، واستعملت الأيدي في معركة قصيرة، تم فيها السيطرة على الموقف، والاستيلاء على الميكروفون، وساد الهدوء مرة أخرى، عندئذ وقف «جمال عبد الناصر» مرة أخرى ليواصل خطابه وهو في غاية من التوتر والغضب بسبب المقاطعة السابقة له من قبل المعارضين من الوفديين وغيرهم، وصاح قائلًا وموجهًا حديثه نحو هؤلاء المعارضين:

«.. أين كنتم أيام كان إخوانكم هؤلاء «يقصد الإخوان المسلمين» يحاربون ويستشهدون في القنال؟ أين كنتم أيام كان إخوانكم هؤلاء يجاهدون ويتصدون للصهيونية في فلسطين؟ وأية انتخابات تريدون؟ لقد أجلسكم الشعب فعلًا على كرسي الوزارة مرات عديدة، فماذا فعلتم؟ لقد كنتم أداة طيعة في يد الملك والاستعمار...».

ألا شتان بين هذا المؤتمر وذاك!! شتان بين اليوم والبارحة!! إن هؤلاء الذين وقفوا محيطين بعبد الناصر ورفاقه إحاطة السوار بالمعصم ليحموه من بطش المعارضة، سيقوا بعد ذلك إلى المحاكمات الرهيبة كما يعلم الجميع..

وتعرض الإخوان المسلمون لنقد لاذع بسبب موقفهم يوم الاحتفال بذكرى الشهداء، واعتبرهم المعارضون مخطئين في مساندتهم لرجال الثورة، وفي اشتباكهم بالأيدي مع أصحاب الرأي الآخر، ولم يُوجه هذا النقد من المعارضين وحدهم. فقد قال لنا الأستاذ الدكتور محمد سليمان أستاذ الطب الشرعي بكلية طب القصر العيني، حينما اجتمع بنا في مدرج «على باشا إبراهيم»:

«إنه لأمر مؤسف أن تشتبكوا بالأيدي مع أصحاب الرأي الآخر.. خير لكم أن تكتسبوا قلوب الناس بالمحبة والتفاهم لا بالضرب والقسوة...» وكان الدكتور محمد سليمان عضوًا بارزًا قديمًا من الإخوان المسلمين.. كما علمت أيضًا من أحد الإخوان الثقاة الذين التقوا بالأستاذ حسن الهضيبي مرشد عام الإخوان المسلمين رحمه الله أنه اعترض على ذلك التصرف، وأوصى بالبحث عمن تسببوا فيه حتى يحاسبوا، وعندما حوكم رجال العهد السابق، وصدر حكم بالإعدام على «إبراهيم عبد الهادي باشا» -ولم ينفذ الحكم- كان المرشد العام متضايقًا، وقال: إن مثل هذه المحاكمات الاستثنائية خطر بالنسبة للأمة ومستقبلها، وقد يأتي يوم تتصرف معنا الثورة مثلما تتصرف الآن مع أعدائها من رجال العهد البائد، ولا تعجبوا عندما تروا مرشدكم العام يقدم للمحاكمة بنفس الأسلوب وبنفس الطريقة.. ولم يكن هذا غريبًا من الهضيبي رجل القانون المسلم والمستشار القديم الذي يعرف قيمة القانون واحترامه، ولهذا رفض الرجل منذ البداية كما سبق وشرحت في الجزء الأول من هذا الكتاب فكرة السلطات الاستثنائية وإلغاء الدستور، وعاب على الشيخ محمد الغزالي مقالته الشهيرة

التي كان يستعدي فيها الثورة على الفاسدين من رجال العهد البائد، وكانت تلك المقالة بعنوان «اضرب والحديد ساخن».

والواقع أن عددًا من شباب الإخوان المتحمسين، كانوا يذكرون للأحزاب القديمة سياستهم الجائرة، وزجهم بالناس في السجون، وقتلهم الأبرياء، واضطهادهم لأصحاب الرأي والمعارضين، ولم يكن أمامهم دليل أكثر من سوق المجاهدين في فلسطين وفي القنال إلى المعتقلات في عهد النقراشي باشا وإبراهيم عبد الهادي باشا، وكان هؤلاء الشباب المتحمسون يرون أن رجال العهد البائد لابد أن يحاسبوا حسابًا عسيرًا، وإلا استوى الظالم والمظلوم، والمحسن والمسيء، وكانت الفكرة في حد ذاتها تبدو منطقية، لكن العقلاء كانوا مؤمنين بأن العقاب لابد وأن يتم بالطريقة القانونية الصحيحة، وأن يعطى المتهمون الفرصة للدفاع عن أنفسهم، في ظل ضمانات عادلة كافية، وكان على رأس القائلين بذلك المرحوم الأستاذ حسن الهضيبي المرشد العام الثاني للإخوان المسلمين، وظل هذا رأيه حتى وافاه الأجل المحتوم، وأذكر أنه في المعتقل بعد أحداث عام 1965، وقضية الشهيد سيد قطب الشهيرة، رأى بعض الإخوان يشتطون في عدائهم لجمال عبد الناصر، ويتهمونه بالكفر، ويعلنون أن العنف والقوة وحدهما هما السبيل لردعه، فما كان من الهضيبي رحمه الله إلا أن أخرج كتابه الشهير بعنوان «دعاة لا قضاة» أوضح فيه رأيه مدعمًا بالدليل من الكتاب والسنة، وانشق عدد من هؤلاء الإخوان عنه، وكونوا فيما بعد ما يسمى بقضية «التكفير والهجرة» وإن لم يكن اسم تنظيمهم كذلك، أطلقوا على أنفسهم «جماعة المسلمين»، لكن الصحافة فيما بعد أعطتهم اسم التكفير والهجرة استنادًا إلى بعض التعاليم التي يؤمنون بها..

كانت المدينة الجامعية كما قلت مركزًا لصراعات الرأي والفكر، بما يحتدم فيها من تيارات سياسية وفلسفية متناقضة، على الرغم من أن لائحة المدينة الخاصة تشترط على من يقيم فيها عدم الاشتغال بالسياسة، وكان الصراع السياسي فيها معروفًا لدى الجميع، وقد أدركت جهات الأمن والمخابرات ذلك، فدست فيها عيونها، وحاولتا تباعًا أن تفسح المجال لشباب جدد موالين لها.

وعلى الرغم من اندماجي الشديد في العمل السياسي إلا إنني كنت شديد الحرص على متابعة دراستي بانتظام، فلابد من الحضور يوميًا بالكلية سواء بالنسبة للدروس العملية أو

النظرية، وقد ينتهي المؤتمر السياسي في الثانية عشرة، مثلًا، ظهرًا، ثم تراني جالسًا على مكتبي بعد نصف ساعة لأستذكر دروسي وأراجعها، كنت أدرك عظم المسئولية الملقاة على عاتقي بالنسبة لي ولأسرتي ولديني، وأي تقصير ولو بسيط كان يورثني الندم والألم وتأنيب الضمير، فلم يكن غريبًا أن أنجح كل عام بتفوق والحمد لله، وبقي شأني هكذا حتى وقعت ذات يوم في قبضة البوليس السياسي «المباحث العامة»، وهذا ما سوف أتناوله بالتفصيل إن شاء الله في مكان آخر.

ولاحظت في المدينة الجامعية ملاحظة غريبة: إن بعض شباب الإخوان المسلمين المرموقين قد ابتعدوا عن الساحة، واعتكفوا بعيدًا عنا، ولم يعودوا يواظبون على حضور الاجتماعات أو المشاركة في الرأي، وعندما استفسرت عن الموضوع أدركت أنهم «موقوفون» عن العمل في صفوفنا لأجل غير مسمى، وفهمت أيضًا أن هناك اختلافًا وقع بينهم وبين المرشد العام ومكتب الإرشاد، وكان أغلب هؤلاء الأعضاء منتظمين فيما يسمى «بالنظام الخاص» وهو ما أطلقت عليه أجهزة الإعلام «الجهاز السرى» وقد حدثت بعض الأمور الملفتة للنظر بالنسبة لهذا الجهاز فمثلًا:

1- إعفاء رئيسة «عبد الرحمن السندى» من منصبه.

2- تعيين المهندس «سيد فايز» مكانه.

3- اغتيال المهندس «سيد فايز» بإرسال طرد حلوى إلى منزله، ووفاته وبعض أفراد أسرته في ظروف غامضة.

4- تعيين «يوسف طلعت» رئيسًا له..

5- اعتراض المرحوم الهضيبي مرشد الإخوان على وجود هذا الجهاز أصلًا.

6- حدث أن اعتصم أعضاء الجهاز القديم «وكان رئيسه السندي» في المركز العام، وكانت لهم مطالب معينة، وقد كان من رأي الأستاذ الهضيبي ألا ينشر شيء عن هذا الموضوع حفاظًا على كيان الجماعة، وحتى تتبين الأسباب الرئيسية وراء ما حدث، ولكن الحكومة وجدتها فرصة ذهبية، فأمرت الصحف بنشر أنباء ذلك الاعتصام في الصفحات الأولى للجرائد اليومية.

7- كانت هناك صلة قديمة وثيقة بين بعض رئاسات وأعضاء هذا الجهاز وجمال عبد الناصر، قبل وبعد الثورة.

8- عند اعتقال أعضاء الإخوان فيما بعد، ولم يشمل الاعتقال عددًا من الأعضاء البارزين في التنظيم مثل عبد الرحمن السندي وغيره.

وقد كثر الحديث حول هذا التنظيم الخاص، وتناولت الصحف نواياه الإرهابية، والواقع أن أفراد هذا الجهاز كانوا طليعة الجهاد في فلسطين والقناة، وتصدوا للإنجليز واليهود، وكان تدريبهم على حمل السلاح بادئ ذي بدء لهذه الغاية: مقاومة الإنجليز واليهود، وكان بعض ضباط الثورة ومجلسه ممن يدربونهم ويعطونهم السلاح، ويشتركون معهم في المعارك التي دارت في منطقة القنال وفلسطين، ومن هؤلاء الضباط كمال الدين حسين وكمال رفعت، بل وجمال عبد الناصر نفسه، ويتضح ذلك بأدلة لا تقبل الشك، عند الاطلاع على تحقيقات قضايا السلاح أمام محكمة الشعب، كما يمكن النظر في مذكرات المرحوم حسن العشماوي «الإخوان والثورة» وكانت كميات من هذه الأسلحة يحتفظ بها في عزبة «حسن العشماوي» بمعرفة جمال عبد الناصر.

المهم أن رسالة التنظيم أساسًا هي مقاومة الاستعمار والصهيونية، ولكن الأحداث قد أوجدت لهذا التنظيم مهمة ثانوية أخرى هي الحفاظ على أمن الجماعة والتصدي لمن يناوئونها، وقد ثبت أن هذه الممارسات حدثت دون علم المرشد العام وأعضاء مكتب الإرشاد، وخاصة في الأوقات العصيبة التي كان تنقطع فيها الصلات بين القيادة وجماهير الجماعة، ولنضرب لذلك مثلًا:

1- معاقبة النقراشي بالقتل حدثت أثناء اعتقال الإخوان وقيادتهم في جبل الطور والهايكستب.

2- قضية الاعتداء على حامد جودة والأوكار حدثت في نفس الظروف.

3- حادثة مصرع الخازندار لم يثبت أن القيادة لها أدنى علم بها.

4- حادثة المنشية أو محاولة الاعتداء على جمال عبد الناصر، ثبت بالدليل القاطع أمام محكمة الشعب أن الهضيبي وأعضاء مكتب الإرشاد لم يكونوا على علم بذلك.

إن الأيام العصيبة، والإجراءات الظالمة الجائرة، بالنسبة للشعوب تفرز تصرفات وأحداثًا هي من صنع اللحظة، ومع ذلك فإنها قد تجعل مسار التاريخ يتحول إلى جهة لم يكن يتصورها أحد ومما لا شك فيه أن هذه القضية –أعنى قضية «النظام الخاص»- تحتاج إلى مجال آخر، وإلى دراسة وتحليل مستفيضين، لكني حاولت في هذه العجالة أن أبرز أهم النقاط الجديرة بالبحث والدراسة.

تغيرت الأوضاع لحد ما في المدينة الجامعة، وصارت نوعية الطعام أقل جودة مما كانت عليه، وافتتحت أبواب المطعم لطلبة الجامعة في وجبة الغداء بمبلغ زهيد، وكان لهذا الازدحام وقت الظهر أثره في تدني الخدمات، وحدث ذات يوم أن ثار طلبة المدينة الأصليون، ووضعوا كمية من الأطعمة المختلفة فوق «عربة يد» وساروا في مظاهرة من المدينة إلى إدارة الجامعة كي يرفعوا شكواهم لمديرها.. وعلى الرغم من ذلك فإن الأمور لم تتحسن..

ولا يستطيع أحد أن ينكر أن المدينة الجامعية بنظامها وإمكاناتها قد أتاحت لنا فرصة ذهبية للتحصيل والتفوق أيضًا، فقد كان بها نسبة كبيرة من أوائل الدفعات في مختلف الكليات والمراحل.

وفي يوم الخميس من كل أسبوع يخرج عدد كبير من الطلبة للفسحة أو زيارة أقاربهم وأصدقائهم في القاهرة، أو يقضون السهرة في سينما أو مسرح، وبعضهم قد يسافر إلى مدينته أو قريته لقضاء ليلة أو ليلتين بين أفراد أسرته، وكان الوضع الأخلاقي في المدينة الجامعية بشكل عام لا بأس به، ونادرًا ما تحدث سرقة أو مشاجرة، أو خلاف بين زميلين في غرفة واحدة، ويبدو أن السبب الرئيسي في ارتفاع المستوى الأخلاقي هو غلبة أصحاب المبادئ على غيرهم من الطلبة، فالهوية العقائدية –مسلمين ومسيحيين –والالتزام السياسي. والحفاظ على الشعائر الدينية، وكون الجميع غرباء عن القاهرة، جاءوا بهدف العلم، فضلًا عن أن الرسوب المتكرر قد يتسبب في فصل الطالب من المدينة، كل هذه الاعتبارات كانت سببًا في سيادة جو الهدوء والنظام والالتزام في هذه المدينة الصغيرة..

لقد كان «الدكتور مورو باشا» مديرًا للجامعة قبل الثورة وبعدها، وكان رجلًا وطنيًا مخلصًا، حفظ للجامعة حريتها واحترامها، وخاصة في الأيام العاصفة التي سبقت قيام

الثورة، وشجع حركة المقاومة ضد الإنجليز ولم يحفل بتهديدات الملك، وتبرع بالكثير من الجهد والمال في هذا المجال..

وبعد الثورة بفترة شغل منصب مدير الجامعة العالم الفذ، والأديب البارز الدكتور أحمد زكي، الذي ارتبط اسمه فيما بعد باسم «مجلة العربي» الشهيرة، وكان الدكتور أحمد زكي مستقلًا، ولا أعرف أنه انتمى لحزب من الأحزاب، كما كان عضوًا في المجمع اللغوي، ومن جملة ما قاله عنه المرحوم عباس العقاد: «إنني أتصور الدكتور أحمد زكي وهو يكتب ممسكًا بقلم ومسطرة»، إيماءً إلى دقته في التعبير وتحديده لأفكاره، وترجمته لما يفرزه من علم ومعرفة على نسق فريق واضح..

وكانت الفترة التي تولى فيها إدارة الجامعة فترة من نوع خاص، فالرجل يريد للجامعة أن تظل حصنا للحرية والرأي الصادق، والثورة تريدها أن تكون مؤسسة ثورية ملتزمة بمبادئ الجيش وأهدافه، ولا يصح أن يكون بالجامعة مكان لأستاذ معارض، وعاش الرجل هذه الفترة الحرجة، وهو تحت معاناة نفسية لا يعلمها إلا الله، لكنه ظل وفيًا لمبادئه وأفكاره، متجنبًا الصدام مع كبار مسئولي الدولة، حتى تحقق له الارتياح التام بترك العواصف والأنواء التي ليس أهلًا أو ندًا لها، فلم يكن من طبيعته أن يخوض المعارك العنيفة الدامية، أو يقتحم ساحات النار والأشواك، إنه يعرف العلم والدراسة المتأنية، ويؤمن بالتدرج والتوعية دونما عنف أو ضجيج.. لم يكن المكان مكانه، ولا الزمان زمانه، ولم يجد ضالته بعد ذلك إلا في تلك المجلة الثقافية الرائدة في الكويت، مجلة العربي، حيث استطاع أن يسير بسفينتها ببراعة منقطعة النظير، على شواطئ البلدان العربية، دون أن تعوقها رياح اليسار أو اليمين، بل ظل أمينًا على قيم الحرية والثقافة الأصيلة، والإبداع الرائع، يؤدي ذلك كله في براعة واقتدار وحكمة، وهكذا حظي باحترام الجميع، وحب الجميع، مما جعل «العربي» تصبح أول مجلة عربية في أمتنا الشاسعة وفي غيرها..

لقد قضيت في المدينة أربع سنوات كانت كالحلم الجميل.. شعرت أنها قلب الأم الحنون التي تضم فتاها الريفي القادم من القرية النائية. يكاد يبهره البريق، ويذهله زحام المدينة الصاخبة..

وفي المدينة العزيزة لقيت أعز الأصدقاء وأحبهم إلى قلبي.. وقرأت في السياسة والأدب والطب... وفيها عاصرت أعتى الأحداث وأخطرها..

كانت حياتي فيها حياة مثيرة جديدة بكل ما تحمله هذه الكلمات من معنى..

وخلال تلك السنوات الأربع الخصبة التقيت خارجها بوجه حبيب.. وجه ظل يضيء لي طوال رحلة حياتي الشاقة.. التقيت بأم أولادي..

ترى، أيمكن في صفحات معدودة أن أسجل تلك الذكريات الحلوة، في هذه المدينة الجميلة؟ لا أعتقد..

لكن ماذا أفعل، والأحداث كثيرة، والوقت قصير، والعمر يمضي والتجربة لابد وأن تُسجل أهم سطورها؟

سلام على تلك الأيام.. وسلام على تلك البقعة الحبيبة..

وسلام على أيام الشباب النابضة بالقوة والإيمان والثقة والحب.. العامرة بالذكريات والآمال والآلام والمفاجآت..

*****

[2] مأساة الأقلام

سبحان مغير الأحوال! بعد قيام الثورة بفترة وجيزة، واعتقال قادة العهد السابق، وطرد الملك فاروق والاستجابة المبدئية من الشعب بالتأكيد الكبير للحكام الجدد، بعد ذلك تغيرت الصورة بسرعة عجيبة، «الأخبار» و«أخبار اليوم» أخذت تنشر القصص والصور والتحقيقات والأسرار المسيئة للملك والقصر والأسرة الحاكمة، ونحت نحوها بعض الصحف الأخرى مثل صحافة روز اليوسف ودار الهلال وغيرها، وتحفظت قليلًا جريدة الأهرام والمصري، كما صدر طوفان من الكتب للصحفيين والأدباء القدامى تندد بما مضى، وساهمت الإذاعة والسينما بنصيب موفور في هذا المجال. لكن طه حسين والعقاد والحكيم وغيرهم من كبار الكتاب لم يشاركوا في هذا الاندفاع الجارف، بل تناولوا بعض القضايا الإنسانية العامة، وكانت كتاباتهم تتسم في البداية بالحذر، وبالتلميح دون التصريح..

أنا لا أقول إن الصحافة في العهد الملكي كانت كلها تسبح باسم الملك، أبدًا.. فقد كان هناك عدد لا بأس به من الكتاب المتحررين والملتزمين، هاجموا القصر بأسلوب أو بآخر، وكانت النتيجة أن اعتقلوا وحوكموا وسجنوا، وتعرضت بعض الصحف والكتب للمصادرة والعقاب، وما أكثر الشعراء والمحللين السياسيين الذين انتقدوا السراى بعنف، وتعرضوا لشتى ألوان الاضطهاد، وفي المنتديات والمجتمعات الخاصة المحدودة! كانت تصرفات الملك والأحزاب، تتعرض لنقد لاذع دون مواربة، بل إن طلبة الجامعة «جامعة فؤاد – أو القاهرة حاليًا» هتفوا بسقوط الملك، وهو في عنفوانه، وطالبوا بتطهير الجيش من الفساد، وتخليص الحكم من الاستغلال والرشوة والظلم، ولم تغفل السراي عن هؤلاء جميعًا، بل وضعتهم تحت طائلة العقاب بصور شتى، بل إنها دبرت اغتيال البعض منهم أمثال حسن البنا والضابط «طه»، كان ذلك إبان الحكم الملكي، ومعظم الصحفيين آنذاك لم يتكاسلوا عن تقديم فروض الطاعة والولاء في شتى المناسبات، وهذه الفئة الأخيرة تحاول اليوم أن تتصدر كوكبة المنددين بالحكم الملكي.

ومما لا شك فيه أن مقالات أحمد حسين وسيد قطب وإحسان عبد القدوس وأبو الفتح وعدد من كتاب الوفد المخلصين، وخاصة في فترات اضطهاد الوفد واستبعاده عن ساحة الحكم، وطه حسين وخاصة في كتابه «المعذبون في الأرض»» بطريق رمزي أو غير مباشر، بل إن أحد شيوخ الأزهر، وأظنه الشيخ عبد المجيد سليم قد طرد من منصبه الحساس بسبب تصريح صحفي عرّض فيه بالملك نفسه وهو في «كابرى»، وكانت معاداة الإخوان والشيوعيين للملك لا يختلف عليها اثنان، ولا عبرة بما يقال حول استدعاء الأستاذ الهضيبي مرشد عام الإخوان المسلمين لمقابلة الملك قبل الثورة، وتصريحه الذي جاء فيه «زيارة كريمة لملك كريم»، فقد كانت هذه الكلمات الرسمية لمندوب الصحافة لا تعني شيئًا بالمرة، فهي أقل ما يقال علنًا، وعلى المستوى الرسمي في تلك الفترة، بعد العداء والدماء التي صبغت العلاقة بين الملك والإخوان، أي بعد سجنهم وإرهابهم واضطهادهم وقتل مرشدهم العام، فالهضيبي لم يفعل مثلما فعل غيره، من أولئك الذين قبلوا يد الملك، أو نعتوه بالملك الصالح، والعادل، وأنه من أهل البيت.. وأنه وأنه..

وعلى الرغم من التأييد الشعبي الكاسح في البداية، إلا أن الأمر أخذ يتناقص تدريجيًا، حينما اكتشفت الأحزاب أن الضربة قد وجهت إليهم، وللأحزاب في القرى والمدن أتباع ومصالح وبدأت بعض الصحف في انتقاد الثورة، ومهاجمة بعض سياساتها وتصرفاتها، عندئذ جاء دور الرقابة على الصحف، وإصدار صحف تخص الثورة مثل مجلة التحرير وجريدة «الجمهورية»، وقد تجرأت «روز اليوسف» على الثورة بالنقد، فقبض على إحسان عبد القدوس، كما فعلت «المصري» نفس الشيء، فحوكم أصحابها ثم توقفت عن الصدور.. وأخفقت الصحف الحزبية الأخرى الصغيرة، مثل جريدة «الأساس» وجريدة «صوت الأمة» وغيرهما..

وكانت الصحف وكتابات الإخوان المسلمين ترتكز في سياستها على نقطتين:

الأولى: الإلحاح في دعوة مجلس قيادة الثورة للأخذ بالمنهج الإسلامى.

الثانية: تأييد الثورة ومؤازرتها في شتى المجالات، لكن بقدر غير قليل من التحفظ في بعض الأمور المختلفة عليها..

لكن ذلك التأييد لم يستمر طويلًا، فبعد أن كبحت الثورة جماح الأحزاب، وقلمت أظافرهم، وفرقت بالتهديد والوعيد أتباعهم، لم يبق أمامها إلا جماعة الإخوان، عندئذ بدأت الأقلام الحكومية والمعادية تشن الهجمات على الإخوان، وتحاول الوقيعة بين أعضاء الجماعة، وتلفق التهم والأخبار ضدهم، وعندما يتساءل القادة الإخوانيون عن سر ذلك، يتبرأ منه جمال عبد الناصر، ويزعم أن الصحافة حرة، وأن كل فرد له الحق في أن يعبر عن رأيه تحت مسئوليته الخاصة، وهكذا ظلت العلاقة بينهما تسوء حتى صدر قرار الحل الأول للإخوان المسلمين في بداية عام 1954.. وهكذا تأكد الجميع أنه لم يعد هناك لقاء في المستقبل بين الإخوان والثورة.. وبدأت سطور مأساة دامية لم يعرف لها التاريخ المصري مثيلًا في أشد مراحله قتامة وظلمًا..

نعود ونقول إن هناك أقلامًا اختفت.. وأقلامًا جديدة ظهرت.. وأقلامًا تأقلمت بسرعة وظلت لها شهرتها القديمة، بعد أن خلعت عن جسدها وفكرها الرداء القديم ولبست رداء الثورية..

وأصبح الذين كانوا يترنمون بأمجاد العهد الملكي ومنجزاته السياسية والاقتصادية، من ألد أعدائه وكارهيه، أما الأقلام الأصيلة التي عانت وتعرضت لكثير من الاضطهاد فإن غالبيتها قد تنوسيت، إما لخلاف في الرأي مع القيادات الجديدة، أو لأن طوفان النفاق قد غمر الأسواق والساحات، أو لأن الثوار قد أتوا بأصدقاء وأقرباء أطلق عليهم أهل الثقة..

وجاءت حركات التطهير لتخفض وترفع، وقد يكتسح طوفانها أبرياء لا ذنب لهم ولا وزر، سوى الحزازات الشخصية، أو الانتماءات الفكرية المخالفة، أو الشائعات التي لا ترحم، وأخذ معظم كبار رجال الصناعة والتجارة والزراعة باتهامات كثيرة لا تفرق بين الجاني والبرئ وأصبحت اليد العليا للسلطة البوليسية والمخابرات، ولم يعد للقانون مكان أصيل في خضم السلطات الاستثنائية الواسعة، وتبدل الأمن إلى خوف، والحرية إلى إلزام، وأصبح الولاء الأعمى هو العصمة لمن يريد أن يعيش ويربي أبناءه، وسيطر الشك، ولوثت الحقائق لمجرد أنها قديمة، وزيف التاريخ لمجرد أنه زمن ما قبل الثورة، فثورة 1919 لم يكن لها مضمون اجتماعي كما يزعمون، فسعد زغلول ومصطفى النحاس وحسن البنا أعداء للعدالة والحرية والتقدمية، والفكر الديني الصحيح رجعية وتأخر، والليبرالية استعمار

وحماقة وإمبريالية، والنقد جريمة بل خيانة، وحقوق الأمن والأمان الفردى خرافة، وفسر هذا كله بأنه من أجل الشعب، وصالح الديمقراطية، وحماية للقاعدة العريضة من أبناء الأمة.

وتحول الفنانون إلى زمارين وطبالين يترنمون بالثورية وبطولة القائد وعظمته ووفائه وعدالته، وأصبحت الأقلام المسبحة بمجد الثورة وزعيمها هي الجديرة بالتقدير والاحترام، مما جعل الكثيرين يبحثون عن الإذاعات الأجنبية ليستمعوا فيها إلى حقيقة الأخبار، وتحولت المسرحيات والقصص والأشعار والأخبار إلى مظاهرات تأييد صاخبة، حتى أطلق عليها البعض من باب السخرية «الأدب الهاتف» إشارة إلى ضياع «الأدب الهادف».

وكان من نتيجة السياسات الخارجية الخرقاء، إن تمزقت علاقاتنا الدولية والعربية والإسلامية، ووجدنا أنفسنا بين عشية وضحاها لا ملجأ لنا إلا الارتماء في أحضان الروس ومن يلوذ بهم، وفتحت الأبواب على مصارعها للثقافة الماركسية بكل ألوانها، واعتلى الشيوعيون قمم الفكر والصحافة والفن والتنظيمات، ثم ظهر «الميثاق» بعباراته البراقة إنجيلًا جديدًا لأجيال سممت أفكارها وسيق الذين آمنوا أو أخلصوا إلى أعواد المشانق، أو زنازين السجون والمعتقلات، وضربت إسرائيل ضربتها القاسية في عامي 1956 و1967، وانهار الكثير من قيمنا الروحية العريقة، ووقعنا في قبضة الحيرة والديون، والإفلاس وغرقنا في مستنقع «اليمن»، و«الكونغو» و«الانقلابات العسكرية» للدول الصديقة والشقيقة، وفقدنا جزءًا كبيرًا من أرض الوطن «سيناء»، وتراجعت القضية الفلسطينية إلى الوراء، واحتل اليهود الضفة الغربية وغزة، وتفشت الأحقاد والعداوات والرشوة والفساد، وكان لزامًا على كل مخلص أن يهتف من أعماقه «تحيا الثورة».

- «يحيا الزعيم» و«الموت للخونة»، و«لا حرية لأعداء الشعب».. «اقتل.. اقتل يا جمال.. لا محاكمة ولا اعتقال».. وتسيطر الأوهام.. ويتحدثون عن الانتصارات والأمجاد.. والأجيال الجديدة تترنم بالأناشيد، وحب الزعيم، في أكبر عملية «لغسل المخ» في تاريخ شعبنا المسلم..

لا يستطيع منصف اليوم -حتى أقلام الثورة نفسها- أن يزعم بأنها كانت فترة حرية وديمقراطية، وأستطيع أن أحيل القارئ إلى مذكرات قائد الثورة الأول محمد نجيب، ومذكرات كمال الدين حسين وعبد اللطيف البغدادي وحسن التهامي وغيرهم من رجالات الثورة أنفسهم، بل مذكرات أنور السادات نفسه، وهو خليفة عبد الناصر، وكذلك كتابات

الصحفيين الذين تألقوا إبان عهد عبد الناصر «باستثناء محمد حسنين هيكل»، قد كتبوا بعد وفاته ما يؤكد وجهة نظرنا، بل إن المحاكم في عهد السادات قد قدمت حيثيات مثيرة، وأحكامًا قاطعة، بالجناية الكبرى التي جنتها الثورة على حرية الرأي، وتطور الفكر، وازدهار الفنون والآداب..

لقد عاشت الأقلام الحرة في مأساة مؤلمة، حتى الذين نافقوا وكتبوا ما لا يؤمنون به، كانوا وجهًا آخر للمأساة، ولا شك أن قوانين الصحافة الجائرة وما تعرض له القضاء ونقابة الصحفيين والمحامون والمعلمون وغيرهم من عقاب وإرهاب و«تطهير»، كان دلالة واضحة على الجور والفساد، وضرب الدكتور السنهوري في «مجلس الدولة» - حصن العدالة، أصبحت مثلًا يروي، ولم يعد للشعب سلاح بتَّار يشهره في وجه ذلك الفساد الضاري سوى «النكتة».

واعتقد أن «النكتة» المصرية هي السجل الحقيقي لرأي الشعب في تلك الفترة الخطيرة، ولو قدر لمؤرخ أن يجمع هذه النكات ويحللها لوجد أنها هي التعبير الصادق، والمترجم الأمين، والمعيار الصحيح لرأي الغالبية العظمى من الناس، هذا إذا قارناها بالاستفتاءات الزائفة التي كانت تبلغ 99.9999٪، أو بالأغاني «الرائعة» التي يترنم بها كبار المغنين، أو بالكتب الأنيقة التي برع بعض الكتاب في تأليفها وزخرفتها بالصور والألوان، أو بالتسجيلات التليفزيونية والإذاعية والسينمائية التي تبرز تأييد الجماهير وهديرها الصاخب إبان الاحتفالات الدورية والمؤتمرات الصاخبة.

لقد ضاع الكثير من الحقائق العظيمة في خضم هذا الطوفان الهائل من الزيف، تلك كانت صورة «العهد الزاهر» الذي خلصنا من طغيان فاروق ومظالمه!!

دعـــوت عـــلى عمـــرو فـــمات فـــسرني

بليـــت بـــأقوام، بكيـــت عـــلى عمـــرو

لكن ما الذي أذكره وأنا في طفولتي، وفي ريعان الشباب قبل أن تقوم الثورة؟ في القرية كنا نوقر الملك، ونعتبره رمز السلطة والعظمة والقوة، ولا ننظر إليه من خلال الأحزاب وصراعاتها، وكنا نسمع عنه حكايات كثيرة كالأساطير، تظهر ذكاءه وعدله وحبه لشعبه، كما كنا نردد الأناشيد التي يلقنونها في الكتاتيب والمدرسة الابتدائية، وبعد أن كبرنا وقرأنا

وسمعنا، أخذت عقولنا تستوعب حقائق جديدة عن فساد القصر ومظالمه وألاعيبه، كما أخذنا نعرف لأول مرة شيئًا عن «الملوك الصغار» أعني الإقطاعيين والباشاوات وأصحاب النفوذ، والعائلات ذات البطش والسلطان. وعن قيام الحكومة بحماية كثير من الظلمة والمجرمين، وبعد انضمامي لجماعة الإخوان المسلمين، لم يكن من الصعب أن أدرك أن الجماعة تتناول بالنقد اللاذع تصرفات الملك والأحزاب، وعرفت الكثير من مباذله ومفاسده، وأصبح من الأمور المسلم بها بين صفوفنا أن الملك والأحزاب والإقطاع والإنجليز رباعية مقيتة لا يصح السكوت عنها..

وأذكر أننا كنا نذهب إلى مساجد القرية، ونخطب في الناس مبرزين تلك المظالم والمفاسد، وندعوهم إلى الخلاص من ذلك الظلم، ونؤكد أنه لا وسيلة لنا إلا بالعودة إلى كتاب الله وسنة رسوله، وكنا نحمل حملات شعواء على أصحاب الإقطاعيات الزراعية ومغالاتهم في إيجارات الأراضي، واستغلالهم للفلاحين، وقد وصل الأمر بأحد الإقطاعيين إلى قتل أحد الإخوان في شعبة من الشعب الإخوانية الكثيرة المنتشرة في أنحاء البلاد، بسبب تصدي ذلك الضحية لمظالم وتعديات صاحب الأرض، وهي قضية معروفة عرضت آنذاك أمام القضاء.. ولا شك أن مقالات أحمد حسين وسيد قطب في عصر ما قبل الثورة كانت من أبرز ما كتب في هذا المجال، وهناك عدد آخر من الكتاب قد أدوا واجبهم في مجابهة الاستعمار والإقطاع والفساد، وقد أصدر الأستاذ عبد الرحمن الشرقاوي مجلة يسارية اسمها «الغد» صدر منها أعداد قليلة قامت هي الأخرى بنفس المهمة، كما استطاع بعض كتاب الرواية والقصة القصيرة أن يضمنوا كتاباتهم الكثير من هذه الأمور، ولعل كتاب طه حسين «المعذبون في الأرض»، ورواية «الأرض» للشرقاوي، وبعض كتابات نجيب محفوظ ويوسف السباعي والخميسي والورداني وغيرهم حملت قدرًا متنوعًا من هذه القضايا.

وكان الأمر أكثر وضوحًا في السينما، حيث استطاعت الشاشة أن تعرض الكثير من مباذل الطبقة «الراقية»، وأحزان الطبقات المطحونة، والفلاحين خاصة، لكنها كعمل تجاري تملكه نخبة قادرة ذات مصالح، لم تتمكن من الأداء المكتمل لإبراز جوانب الفساد المتراكم المنتشر هنا وهناك.

لكن الأمر الذي لابد من تسجيله بكل احترام وتقدير وهو أن نخبة من أعلام الفكر الديني منذ جمال الدين الأفغاني وحتى قيام الثورة، قد أدركت عظم المسئولية الإسلامية الملقاة على عاتقها، فكانت أصواتًا حرة أمينة سواء في ثورة عرابي أو ثورة 1919 أو إلغاء الدستور في عهد صدقي، وإبان حرب فلسطين وفي فترات الكبت والإرهاب، استطاع هؤلاء العلماء الأفاضل أن يعلوا صوت الحق، من فوق المنابر، وفي قاعات الدرس، وفي الأندية والمحافل المختلفة، وصاروا قادة في مجال حرية الرأي والدعوة إلى الإصلاح الشامل، ولم يتقاعس عن ركبهم إلا فئة قليلة، كان لها طبيعتها الرسمية أو النفسية، فانخرطت في مخططات السراى والأحزاب، ضمانًا للسلامة وأملًا في الكسب، وتطلعًا إلى المناصب الكبيرة، ومع ذلك فإن الأزهر الشريف قد لعب دورًا بارزًا وحاسمًا في عهد ما قبل الثورة، وهو دور تاريخي إيجابي لا يمكن أن يغفله أي مؤرخ حصيف، وهل ينكر أحد أن القيم الدينية التي رسخها علماء الدين، والمفكرون الإسلاميون، هي التي حمت بلادنا من الغرق في محيط الشيوعية الواسع، والضياع في متاهات الفكر الغربي الملحد، والسقوط في براثن العلمانية مثل تركيا؟

إن مصر اليوم والأمس هي مركز الإشعاع الإسلامي في العالم دون ريب، وإن مصنفات علمائها ومفكريها الإسلاميين هي الزاد الذي يتغذى عليه أبناء الأمة الإسلامية في كل أنحاء الأرض، وإن حركتها الإسلامية الكبرى في الثلث الأوسط من القرن العشرين، والتي أشعل شرارتها الإمام الشهيد حسن البنا، لم تزل نبراسًا لكل العاملين في حقل الدعوة الإسلامية، تلك الحركة بأحداثها وتراثها ورجالاتها ومعاركها الدائمة تجربة تاريخية مهمة، مازالت تشد الانتباه، وتغري بالمتابعة، وقد حظيت باهتمام المؤرخين والدارسين في كل مكان، حتى في روسيا وأمريكا وأوروبا الغربية والشرقية، لكن هل تعي مصر مسئوليتها العظيمة تلك؟

أقول مرة أخرى إن قبضة الثورة الحديدية، قد غلّت الفكر، وأورثته الكثير من العلل والأرزاء، وأفرزت الكثير أيضًا من الأقلام الهزيلة الهازلة المريضة، وعوقت الانطلاقة الفكرية الرائدة التي ساهم فيها رفاعة الطهطاوي وجمال الدين الأفغاني ومحمد عبده وحسن البنا وغيرهم، وفتحت الباب أمام تيارات فكرية شيوعية وغربية، كان هدفها الأول والأخير، زلزلة عقيدة الأمة، والنيل من تراثها وأصالتها، فقد كان من الواضح أن القوى المضادة أو المعادية للإسلام لا تستطيع أن تبلغ مآربها إلا عن ذلك الطريق، ولهذا صنعت

نجومًا جديدة في الفن والفكر، وأبرزت شخصيات في عالم السياسة والاقتصاد والتعليم والتخطيط، تنفر بشدة من كل ما هو إسلامي، وأوجدوا تناقضًا مفتعلًا بين العروبة والإسلام، وأشعلوا -باسم القومية- معركة وهمية، لكي يجدوا الفرصة لضرب الرباط الوثيق الذي يربط شعوبنا العربية والإسلامية، ثم تأخذنا الدهشة بعد ذلك حينما نرى شاه إيران يعترف بإسرائيل، وتقيم تركيا المسلمة علاقات معها، وتنشب المعارك بين العربي والعربي، والمسلم والمسلم، وينقسم أبناء الأمة إلى رجعيين وتقدميين، وأعداء وأصدقاء، ويصبح من أهم عناصر خطب «الرئيس» سب إخوانه من الرؤساء المسلمين والعرب.. ثم تتبارى الصحف في متابعة السباب والشتائم والافتراءات، وتتفنن المخابرات في صنع المؤامرات، وتبرع الأجهزة الخفية الأخرى في ترتيب الانقلابات، ويغرق عالمنا الإسلامي التعس في أحزان وخلافات ومخاوف لا حصر لها، بدلًا من أن ننصرف إلى البناء والتصنيع والتعمير، نحاول أن نبحث عن وسائل لتحمينا من غدر الصديق، ومكائد القريب..

إن صورة الواقع الإسلامي العربي المحزن تعبر بصدق عن تلك الجريمة البشعة التي جعلت من العروبة والإسلام ندين متناقضين، والتي جعلت من القومية أوعية تصب فيها الشعارات المذهبية المستوردة من الشرق أو الغرب، بحجة أن القومية والعروبة ذات مضمون، وأن هذا المضمون هو الحرية والوحدة، والاشتراكية.. من قال أن عروبتنا كانت خاوية البناء، فارغة الوعاء؟ الضالون المضلون هم الذين سكبوا في الوعاء من ماء الحياة، حينما حاربوا الإسلام وحاربوا الله ورسوله.. وشوهوا تاريخ أمجادهم.. هم الذين نسوا انتماءهم فأخذوا يجدون في البحث عن انتماءات ومضامين من خارج تراثهم وعقيدتهم وأرضهم وتاريخهم وأنفسهم..

أي ضلال وأي عمى؟

إن التقدمية والتنمية والتصنيع والتخطيط الناجح ليس من شروطها أن تتخلى عن انتمائك الإسلامي.. فالعالم كله انتماءات متباينة.. فالصين غير روسيا غير أمريكا غير اليابان غير ألمانيا الغربية أو الشرقية[1] في مجال الانتماء.. والأخذ بالعلم الحديث والتكنولوجيا أمر

(1) توحدت ألمانيا الشرقية والغربية في 3 أكتوبر 1990.

مفروض ولا خيار لنا فيه.. ومفهومنا للدين لا يقف عقبة في طريق نهضتنا، بل إنه يساعد على بناء النفوس الطاهرة القادرة على صنع التقدم والحضارة..

لكن القضية الأساسية كانت.. وما زالت.. هي الاحتفاظ بالسلطة والنفوذ وذلك في نظر المتسلطين لا يتم إلا بالقضاء على كل صوت حر ينادي بالعدالة والحرية والصدق والأمانة..

تلك هي القضية..

القضية التي صنعت «مأساة الأقلام».

القضية التي أعادت «عصر العبيد».

أليست مأساة حقيقية؟

***

[3] أشواق قلب

حينما جئت للقاهرة بعد الحصول على الثانوية العامة، لم يكن يشغل ذهني سوى أمرين هامين أولهما: المرحلة الدراسية الشاقة القادمة في كلية الطب، وثانيهما: البحث عن المحافل والأندية الأدبية للتزود منها، إذ كنت شغوفًا بذلك أيما شغف، وفي اليوم الأول من وصولي «قلعة الكبش» -حيث نزلت مع عمي عبد الفتاح وزوجه- تساءلت عن مكان كلية طب القصر العيني، كانت الفرحة تشرق في عيني عمي وزوجه، وقالت «أم عبده» وهي في غاية السعادة: «سوف تكون طبيبًا.. يا لفرحتي.. إذا خرجت من هنا فأنزل من شارع «الدحديرة» وبعده تمشى في شارع قدري باشا قاصدًا ميدان «السيدة زينب»، وإلى جوار «المقام» تجد شارعًا آخر ينتهي بك إلى ضريح «سيدي أبو الريش»، وبعدها تتجه يمينًا وتظل في مشيك لا يمين ولا يسار حتى تجد القصر العيني أمامك..».

كان البناء أصفر عتيقًا، أحسست بالرهبة وأنا أقف أمامه، وانتابني قدر لا بأس به من الخوف والقلق، وأخذت أعتب على نفسي لماذا أتيت بنفسي لكلية الطب؟ أما كان الأحرى بي أن أتجه إلى الدراسات الأدبية التي أتعشقها في كلية الآداب؟ لكن فات الأوان، وأصبح التراجع عن كلية الطب أمرًا صعبًا، بل ومحرجًا في نفس الوقت، إذ ماذا يقول أبي؟ وماذا سيكون رد الفعل لدى الأقرباء والمعارف في القرية؟ وأدركت في تلك اللحظات أنني مسير تمامًا لا مخير، وأن الملابسات والظروف تدفعني دفعًا لأن أمضي قدمًا.

كنا في شهر سبتمبر 1951، والتقيت بعدد من الزملاء الجدد، وكان يشغلني موضوع السكن، وأخذت أبحث عن سكن مشترك، لكن أحدهم أشار علي بتقديم طلب التحاق بالمدينة الجامعية، لم أكن أعرف عنها شيئًا، وأخذت أبحث عمن يزودني بتوصية، لأنها لا تقبل إلا عددًا قليلًا من الطلبة كل عام، وبشروط خاصة، كما إن المدينة لم يسبق لها أن قبلت أحدًا من طلبة «الطب» لبعد الكلية عن مقر الجامعة، لكنهم فكروا في هذا العام أن يفتحوا الباب أمام قبول طلبة الطب، بحكم دراستهم العلمية التي تحتاج إلى مزيد من التفرغ والجد،

وكم كانت دهشتي عندما وجدت نفسي بعد أيام من المقبولين، وكان أغلبنا من الطلبة الفقراء الذين يتلهفون على الدراسة والانتهاء منها في أقصر مدة ممكنة، لكن دراسة الطب تستغرق ستة أعوام ونصف، يتبعها التدريب أو «سنة الامتياز» كما يسمونها، ومعنى ذلك أن أمامي سبعة أعوام ونصف حتى أقف على بداية الطريق..

وفي الأيام الأولى كنت كالتائه.. فقاعة المحاضرات بكلية العلوم تكتظ بالمئات من الطلبة، لأن السنة الإعدادية تأخذها في مقر الجامعة بكلية العلوم، وبعدها ننتقل إلى كلية طب القصر العيني نفسها، وكنا نأتي إلى المحاضرات في الصباح الباكر، وبعدها نذهب إلى «المعامل» أو المختبرات للدروس العملية، وكانت المحاضرات باللغة بالإنجليزية، وفي البداية وجدت بعض الصعوبة في متابعة الأساتذة، كانت اللغة الإنجليزية مليئة بالمصطلحات والتعبيرات والرموز العلمية المربكة سواء في الكيمياء أو الفيزياء أو الحيوان أو النبات، وكان كتاب الحيوان ضخمًا يبعث على الشك في استيعابه، وكانت كتب الفيزياء والكيمياء متعددة، وتحتاج إلى شرح.. إن الانتقال فجأة من الدراسة باللغة العربية إلى الإنجليزية يورث الطالب الكثير من الارتباك وصعوبة الفهم، وكان علينا أن نتعلم تشريح «الضفدعة» و«الأرنب» والصرصور.. وهي كلها تبعث على التقز والضيق، لكن لا مفر، ولابد أن مسك الضفدعة بعد تخديرها، وأثبتها بالدبابيس، وهي ملقاة على ظهرها في حوض شمعى خاص، ثم أحضر أدوات التشريح وأبدأ في تشريحها بدقة لمعرفة أجهزة جسمها، ولحفظ أسماء العضلات والعظام والأعصاب والأوردة الدموية وغيرها، وكان تشريح الصرصور أشدها قذارة وتقززًا.. لكن ليس لنا في الأمر حيلة..

كنا نعود في المساء ونجلس معًا لنستذكر ما تلقيناه في الصباح، يساعد بعضنا بعضًا، وفي هذا الخضم من الانشغال والمذاكرة، والمواظبة يوميًا على الحضور، نسيت الكثير من الأحلام والأوهام، لقد وجدت أن الضيق والتبرم ليسا هما الحل، وليس أمامي من وسيلة سوى التكيف مع الوضع الجديد والبحث الدائب عن طريقة عملية للتغلب على المشاكل والعقبات، إن الصمود هو الحل، وهو الذي يقود إلى إنجاز الواجبات، والوفاء بالمسئوليات، عندئذ ينزاح كابوس الضيق والتبرم..

وفي هذه الأثناء اندلعت المظاهرات في الجامعة تطالب بإلغاء اتفاقية عام 1936 بيننا وبين الإنجليز، وجلائهم عن وادي النيل، كانت المظاهرات عنيفة صاخبة، وقد اتفقت جميع الأحزاب على المطالبة بإلغاء الاتفاقية، وأمام هذا الضغط الشعبي الهائل الذي اشتركت فيه الجامعات والمدارس والهيئات، خرجت مظاهرة حاشدة كبرى من ميدان «الإسماعيلية» - التحرير حاليًا- اشترك فيها زعماء الأحزاب وقادة الفكر والرأي، بل وبعض الأمراء، رأيت فيها النحاس باشا وزعيم الحزب الوطني وحسن الهضيبي مرشد الإخوان المسلمين، والفنانة أم كلثوم.. وكثيرون آخرون، كما شاركت الصحف على اختلاف مشاربها في الدعوة إلى إلغاء تلك الاتفاقية، وأخيرًا استجابت حكومة الوفد وأعلن النحاس باشا في «البرلمان» قولته المشهورة: «من أجل مصر وقعت معاهدة 1936، ومن أجل مصر أطالبكم اليوم بإلغاء معاهدة 1936» وكان يوجه حديثه المذاع على الهواء إلى نواب الشعب في البرلمان وسرد النحاس باشا في خطابه الشهير المبررات والحيثيات القانونية ونصوصًا من القانون الدولي، وضرب أمثلة مشابهة في السياسة الدولية، حتى يدلل على صحة الخطوة التي أقدم عليها بإلغاء الاتفاقية..

والواقع أن هذه الفترة من تاريخ مصر، حظيت باتحاد شعبي كامل، لا مثيل له إلا في ثورة 1919، ولو استمرت الأمور على هذا النحو، لتغير تاريخ مصر إلى الأحسن، وبأسلوب ديموقراطي هادئ، لا عنف فيه ولا دماء، لكن إرادة الله فوق كل إرادة، لقد تلكأ الإنجليز في موضوع الجلاء عن قاعدة قناة السويس، وأثاروا الإحن والخلافات، ودسوا بين الأحزاب، وأوغروا صدر الملك، وكان أن هبت وحدات الفدائيين من الإخوان المسلمين، تحمل السلاح، وتتصدى للإنجليز في قاعدتهم، مما أشعل الموقف، وألهب الشعور، ودفع بعض ضباط الجيش للاشتراك في المقاومة، وتهريب السلاح للفدائيين، والقيام ببعض العمليات الخاصة.

في أواخر 1951وبدايات 1952، احتدمت المظاهرات والاحتجاجات، مما دعا المسئولين لإغلاق جامعة فؤاد الأول «القاهرة» لأجل غير مسمى، ووجدت أن فترة الإغلاق قد تطول، فحملت كتبي، وغادرت المدينة قاصدًا قريتي شرشابة، تحت إلحاح من أبي، ووجدت في القرية فرصة كي أركز في مذاكرتي، وأحاول استيعاب الدروس بصورة كاملة، وأحسست بغير قليل من الرضا، حينما وجدت نفسي في وضع مطمئن بعض الشيء..

في هذا الأثناء وُلد لفاروق ولي العهد الأمير أحمد فؤاد، وبعد أربعين يومًا من ولادته، حدث حريق القاهرة الشهير يوم 26 من يناير سنة 1952، وقبل الحريق بيومين حدثت معركة التل الكبير بين فدائيي الجامعة والإنجليز، تلك المعركة التي استشهد فيها الراحلان عمر شاهين -طالب الآداب- وأحمد المنسي -طالب الطب.. كما أسر عدد من طلبة الجامعة والمجاهدين، ثم جاءت وزارة الهلالي باشا حيث تم الإفراج عن الأسرى واستقبلوا بحفاوة بالغة في قاعة الاحتفالات بالجامعة، ويومها قال زعيم الطلبة الأستاذ حسن دوح في خطابه الملتهب: «..... نحن نقول للحكومة، لقد أفرج الإنجليز عن الأسرى.. فلتستحي ولتفرجي عن المسجونين السياسيين...».

وكان هناك عدد من هؤلاء المسجونين السياسيين في قضايا تتعلق بالإنجليز واغتيال النقراشي باشا وعثمان أمين باشا والخازندار وقضية سيارة الجيب والأوكار والاعتداء على حامد جودة رئيس مجلس النواب السابق، وكان أغلب هؤلاء المسجونين من الإخوان المسلمين، لكن الحكومات -رغم الإلحاح الشديد- لم تستجب لذلك، ولم يفرج عن هؤلاء إلا بعد قيام الثورة بشهور..

فتحت الجامعة أبوابها، وعدنا إلى الدراسة من جديد، وكانت نهاية العام الدراسي قد اقتربت، إذ كنا في أواخر شهر فبراير، والأحداث سريعة متلاحقة، وكان الأساتذة يحاولون الانتهاء من المقررات بأسرع ما يمكن، وكنا نلهث وراءهم حتى يمكننا هضم ما يلقونه من دروس، وبدأ الأمر بالنسبة لامتحانات آخر العام غامضًا وسط هذه الظروف، لكن الله أدركنا بحل لم يكن يخطر لنا على بال، لقد عرض بعض الأساتذة الجامعيين في كلية العلوم بأن يقوموا بإعطائنا دروسًا بالمجان لمجموعة الإخوان في المدينة الجامعية والذين يدرسون علوم السنة الإعدادية بكلية الطب، وكان ذلك الحل هو الذي أنقذنا فعلًا... كنا مجموعة من 18 طالبًا، وفينا اثنان أو ثلاثة من الإخوة المسيحيين، وهكذا أمكننا دراسة المنهج في جلسات متكررة مطولة، وكتبنا ملخصات له، وبهذا نجحنا آخر العام.. وكان هذا أمرًا مبهجًا لي جدًا.

في هذه الأيام التي استحوذ فيها العلم والسياسة على ألبابنا، هل كان في مقدوري أن أفكر في شيء آخر.

أليس من الطبيعي أن يفكر شاب في العشرين من عمره في عواطفه نحو الجنس الآخر؟ الجامعة مختلطة.. والزميلات بين صفوفنا.. وقصص الحب تروى عن هذه وذاك.. والشارع يكتظ بالغاديات الرائحات، ووسائل النقل والمواصلات يتزاحم فيها النساء والرجال، والسينما أساسًا تعتمد على قصص الحب والغرام، وأفلام الجنس والإثارة الوافدة من الغرب تحظى بالإقبال الشديد، والأدباء الجدد يكتبون الروايات الغرامية سواء أكانت رومانسية أو واقعية أو وجودية، والدعوات الملحدة من شيوعية وغيرها، تفلسف التحلل، وتشحن الغرائز، والصور شبه العارية تتصدر المجلات والصحف وإعلانات السينما، والفضائح الاجتماعية في مختلف الأوساط تزكم الأنوف، وقصة أخت الملك التي تزوجت شابًا على غير الإسلام، يتناقلها الناس في كل مكان.. كان هذا هو المجتمع..

أكان في الإمكان ألا يفكر شاب في المرأة؟

لكنه الحب كان مرتبطًا في ذهني بأشياء كثيرة تتنافى مع ما أؤمن به من قيم دينية.. كنت أتهيب ألف مرة قبل أن أخاطب فتاة، وأشعر أني مقدم على عمل شاق مخيف، إن جسدي يرتجف، ولساني يتلعثم، وإذا بدرت مني كلمة، أو صدرت عني حركة، أعود فألوم نفسي، وأشتد في الملام، ويخالجني إحساس بالإثم، قلت ذات يوم لأحد الإخوة: «هل الحب حرام؟».

ابتسم في ذكاء وقال: «لقد سأل أحدهم أستاذنا الإمام الشهيد رحمه الله نفس السؤال..».

قلت في لهفة: «وماذا كانت الإجابة..».

هز كتفيه، ثم طوقني بذراعه وجذبني إليه قائلًا: «قال: الحب الحلال حلال.. والحب الحرام حرام..».

لم يكن من الصعب أن أدرك معنى الكلام، فالحب الحلال كما أعلم لا يمكن أن يجتمع فيه رجل وامرأة وحدهما؛ لأن الشيطان سيكون ثالثهما، والحب لا يعني الخطيئة واختلاس اللذة، والحب الحلال طريقة ونتيجته الزواج لكن أين نحن من الزواج الآن؟ إننا نجد بالكاد ما ننفقه على تعليمنا وطعامنا وكسائنا..

ولم يكن لنا خيار.. وهكذا عشنا نحلم بالمرأة..

ذات يوم رأيتها..

كانت لم تزل صغيرة بريئة.. لكنها ذات ذكاء حاد أراه في بريق عينيها.. وشعلة من الحركة والنشاط.. أدركت أنها تبش لمجيئي، وتبالغ في إكرامها لي، وتستمع إلي بشغف وأنا أتحدث مع أبيها العالم الجليل عن السياسة والجامعة والفكر، وكان رحمه الله حجة في فقه الإمام الشافعي، وكثيرًا ما وضح لي الكثير من الأحكام والقضايا، لقد عاش طول حياته بعيدًا عن السياسة، كان سيئ الرأي في تصرفات الثوار، كما كان ينتقد بعض تصرفات العهد الملكي، لكنه كان دائمًا ينذرنا بأن الأمور لا تسير في مسارها الصحيح، وأننا –حتما- مقبلون على كارثة إن لم تكن كوارث، وكانت كلمته الشهيرة «بكرة يخربها، ويقعد على تلها..»، ويوم حدثت الهزيمة النكراء عام 1967.. تذكرت كلماته، كثيرًا ما كنت أعارض، وأحكي له عن بعض المنجزات التي تمت، وأؤكد له أن الأمور تتحسن، فكان يبتسم في مرارة ويقول: «غدًا تقولون الله يرحمك يا محمود.. كان كلامك صحيحًا».

الواقع أنني كنت أرتاح لمجلسه، وأسعد بحديثه، وكنت أعرض عليه بعض كتاباتي الإسلامية، وأسمع توجيهاته ورأيه فيها باهتمام، وكان يزودني ببعض النصوص أو الكتب التي تتعرض لذات الموضوع، وكان لثقته بي يجعلني أنوب عنه في إلقاء خطب الجمعة في المسجد الذي يخطب فيه إذا ما سافر في إجازة، وأصبحت جلساتي معه من أحب الأوقات إلى نفسي، وكان يعاملني كواحد من أبنائه، ويسر إليّ ببعض خصوصياته دون حرج، وكنت أعرض عليه بعض ما يصادفني من مشاكل، الواقع أنني كنت أنظر إليه كوالد في المدينة الكبيرة الصاخبة، أجد لديه الأمن والاطمئنان والصدر الحنون، وقد عهدته طيب القلب، متحرر الفكر، واثق الفكرة، وكثيرًا ما أثبتت الأيام صحة رؤيته.

ويوم أن قررت الاختفاء من مطاردة الشرطة في عام 1954 بعد أن ألقيت كلمة الطلبة في المؤتمر الكبير الذي عقد في كلية الطب. إبان أزمة محمد نجيب وجمال عبد الناصر، والحل الأول للإخوان المسلمين في أوائل ذلك العام، أقول عندما قررت الاختفاء لم أجد مكانًا إلا في بيته، وعلى الرغم من أنه ينأى بنفسه دائمًا عن المشاكل السياسية وصراعاتها –كإمام وخطيب في تلك الظروف الحرجة- إلا أنه أفسح لي مكانًا إلى جواره، وخصص لي غرفة، وشدد في التنبيه على أفراد أسرته ألا يذيعوا سر وجودي بينهم حتى تمر الأزمة..

وبقيت معه، حتى عاد محمد نجيب إلى رئاسته للدولة، وتم الإفراج عن الإخوان المسلمين، وهدأت الأمور مؤقتًا ثم عدت إلى ممارسة دراساتي بالجامعة وأنا في غاية التقدير والامتنان له.

ومن حسن الحظ أنه كان صديقًا حميمًا لعمي عبد الفتاح، وكان يقضيان أوقاتًا كثيرة معا، ومسكنهما متقاربان.. وكانت أوقات فراغي أقضيها هنا وهناك.. وكثيرًا ما كنت أجرهما للحديث في السياسة، وخاصة أن عمي من موظفي وزارة الحربية والبحرية، وكانت آراؤهما بعامل السن تتسم بالهدوء والروية والحكمة، ولم يكونا ميالين للحماسة والشطط أو الاندفاع..

وكنت أراها دائمًا..

إن كل شيء فيها يوحي بالثقة والمحبة والبراءة..

كانت تكبر جسديًا وعقليًا.. وتنتقل من مرحلة دراسية إلى أخرى.. وعندما نالت الإعدادية قال أبوها الشيخ: «أريدها أن تكون ربة بيت فاضلة.. لا أريدها مهندسة أو طبيبة.. ولهذا أعتقد أنه من المناسب أن تلتحق بالثانوية الفنية.. هناك ستتعلم الاقتصاد المنزلي والطهي والتطريز والحياكة والديكور.. أليس هذا أفضل؟».

وجاءت اللحظات الحاسمة..

لقد طرق الخطاب الباب..

قال الشيخ رحمه الله: «إنها ما زالت صغيرة..».

وقالت هي: «لن أتزوج قبل أن أتم تعليمي».

وابتسم أبوها قائلًا: «يقولون البنت سر أمها.. وأنا أقول إنكِ سر أبيك.. بارك الله فيك يا ابنتي.. يجب أن تنالي الشهادة أولًا.. من يدري؟ قد تحتاجين إليها في يوم من الأيام..».

وقاومت الفتاة الكثير من الإغراءات المادية والمعنوية، لم تكترث لما يقدمه الخاطب من صداق أو مؤهلات عالية، قلتُ لها ذات يوم وأنا أرتجف وأتلعثم: «أريدك لي...».

وخفق قلبي، ولكنها قالت: «وأبي؟ هل يعرف؟».

- «لم نتكلم في ذلك.. لكن قلبي يحدثني بأنه...».

ثم صمت.. وانشغلت بالنظر إلى قرطها الجديد في سعادة..

كنا نسير في الطريق العام في يوم عيد ميلادها في الحادي والعشرين من شهر سبتمبر، وكنت على موعد لأشتري لها هدية.. وقدمت لها القرط الذهبي الصغير.. وكانت دموع الفرح في عينها ونحن نقف في ميدان سيدي «زين العابدين».

لم يكن الأمر على هذه الصورة من السهولة واليسر، لقد كان للأسرة رأي قديم في أن أتزوج إحدى قريباتي، والتخلي عن ذلك أمر محفوف بمخاطر شديدة، فالأمور في القرية وبين الأقرباء تمضي على نحو خاص، وعدم إتمام زيجة متفق عليها حتى ولو كان هذا الاتفاق في سن الطفولة- قد تدمر العلاقات الأسرية، وتورث الأحقاد والضغائن، وهو أمر لم يغب عن ذهني قط، لقد ظل يشغلني سنوات طويلة، وخاصة أنه كان شائعًا بين المعارف والأقارب..

أين المخرج من هذا كله.. قيود سياسية.. مسئوليات علمية.. أوضاع اجتماعية.. ضوابط أخلاقية ودينية.. آمال عراض.. إمكانات متواضعة..

عندما عدت إلى المدينة الجامعية في المساء قلت لزميلي وأخي سمير خلاف: «ألم تفكر في الزواج؟».

قهقه بصوت عال، ونحن وحدنا في الغرفة، وقال: «هل السنارة غمزت؟».

- «أنا لا أمزح..».

- «وأين نحن من الزواج؟ هل تترك لنا كلية الطب فرصة للتفكير في ذلك؟» اقتربت منه وقلت له: «انظر إليّ.. ودع الشاي الذي تعده..».

رفع إليّ عينين مستغربتين وقال: «ماذا بك؟».

- «تكلم بصراحة.. أليست لك قريبة تنوى الزواج منها في قريتكم «حنون»؟ احمر وجهه خجلًا وقال: «كيف عرفت؟ أنت تعرف تصورات الأهل وتصرفاتهم في مثل هذه الأمور المحرجة.. أمي تريد أن تزوجني من ابنة أخيها.. تصور..».

وبعد فترة صمت قال سمير: «أمي تقول من الأفضل أن تربيها على يديك..».

ودخل علينا زميل آخر هو «عبد الرحمن حسن»، وكان عبد الرحمن مرحًا ساخرًا، لا يفكر عادة إلا فيما يزيد دخله، كان أشد فقرًا منا، وكثيرًا ما كان يعوزه المال، فيذهب إلى قريته في

محافظة الشرقية، ويفتح عيادة مؤقتة -على الرغم من أنه لم يتخرج بعد- ثم يظل يعمل لمدة أسبوعين، ويعود ومعه ثلاثون جنيهًا، تكفيه لبضعة شهور.

سألنا عما نتحدث فيه، وعندما أخبرناه قال: «أنتم مجانين.. فكروا في لقمة العيش أولًا.. وعندما يحين وقت الزواج بعد التخرج إن شاء الله، فلتبحثوا لكم عن صيد ثمين، وإلا أدمنتم الفقر حتى تموتوا. الفقر من أخطر الأمراض «المزمنة».. قالها باللغة الإنجليزية..».

قلت لعبد الرحمن: «هل هذه هي أفكار «الوطنى الصغير»؟».

وللوطن الصغير هذه قصة، فقد كان لعبد الرحمن رغبة جامحة في العمل بالصحافة، وكان وهو بالمرحلة الثانوية يكتب مجلة بيديه، ويتلوها أو يمررها على أصدقائه، وكان مكتوبًا عليها «يحررها الوطني الصغير عبد الرحمن حسن»، وظل عبد الرحمن على حبه للصحافة، فكان يكتب بعض التعليقات والمقالات القصيرة في روز اليوسف، وألف كتابًا عن «تحديد النسل» وهو طالب.. قال عبد الرحمن في جد: «نحن في عصر لا يعترف بالمواهب والكفاءات وحدها.. لابد أن يكون هناك من يمهد لك الطريق، ويأخذ بيدك.. من له ظهر لا يُضرب على بطنه.. فكروا أولًا في البحث عن مكان لائق في زحام هذه الحياة المقرفة.. جنازة ولا جوازة..».

وعاد يقول: «حتى الزواج بالأمر.. لتسقط التقاليد الزائفة.. الثورة قامت في الجيش، وفي داواوين الحكومة.. لكنها لم تستطيع أن تصل إلى الأسرة.. اتركوا هذا الكلام الفارغ، وتعالوا نذاكر «الفارما كولوجيا»»..

وسادت فترة صمت قال عبد الرحمن بعدها: «هل سمعتم بالخبر؟» رد سمير: «أي خبر؟».

- «تعرفون قصة زميلنا منير وزميلتنا زينب».

قلت نعم: «لقد تزوجا منذ عام...»

قال عبد الرحمن: «وأنجبت طفلًا.. واشترت لمنير سيارة.. إنها ثرية جدًا.. إنها ليست جميلة.. ومنير يبدو كنجم سينمائي.. وعاشا في بحبوحة من العيش.. المهم أن زينب ماتت اليوم في حادث سيارة.. وورثها منير وولده..».

قلنا: لا حول ولا قوة إلا بالله..

وعدنا من حيث بدأنا، ورأينا أنه من الأفضل ألا نشغل تفكيرنا حاليًا بمسائل الزواج.. وخاصة الزواج بالقائمة، ذلك الذي تفرضه عجائز البيوت، وزعماء العشائر في قرانا النائية، وبعض الأمور إذا تعذر حلها فليس هناك مناص من «تجميدها» بعض الوقت، لكن عبد الرحمن يرفض نظرية التجميد تلك، ويعتبرها هروبًا ومزيدًا من التعقيد، ولا حل في رأيه سوى الحسم، إما إن تقول لا أو تقول نعم:

قال سمير بمرارة: «من الصعب أن يقول الإنسان لأمه «لا».

علق عبد الرحمن: «ستقولها يومًا ما.. إن لم يكن اليوم، فسيكون غدًا.. أنا شخصيًّا قلتها.. لم أجد صعوبة تذكر، كنت مؤمنًا وواثقًا بها أقول.. ولدى الأسباب القوية.. سوف أبحث عن زميلة لي وأتزوجها.. طبيب وطبيبة.. أمر طبيعي جدًا..».

قبل الفجر بساعات ثلاث، اقترحت أن نطوي الكتب وننام، لأن زميلنا إبراهيم سوف يأتي قبيل الفجر ليوقظنا للصلاة، ولن يفلح التناوم في صرفه وإلحاحه علينا..

وقد كان..

إن العواطف نحو الجنس الآخر قضية شائكة.. وتحتاج لوقفة قصيرة لابد منها.. ومن المفيد للدعاة أن يتمعنوا في هذه الأمور العاطفية، ويحددوا موقفهم منها بطريقة واضحة حاسمة، لأن التجارب العاطفية –حسبما رأيت– تترك ظلالًا على سمعتهم، وتؤثر إلى حد كبير في مدى استجابة الناس لدعوتهم وأفكارهم، وخاصة في مجتمع كمجتمعنا، حيث إن الناس ينظرون بشك وريب إلى ما هو عاطفي، أعنى تلك العلاقة بين الرجل والمرأة، فهي دائمًا في ظل الناس علاقة مشبوهة، وتسيئ إلى سمعة الطرفين مهما كانت طبيعتها، ومهما كان الحرص والتحفظ، عندئذ يتحول الداعية في نظر الناس –إن ظلمًا أو حقًّا– إلى رجل غير موثوق في كلامه، ولايصح أن يكون قدوة، وبالطبع فإن ذلك يؤثر على وضعه كشخص متميز كما يؤثر على مستقبل دعوته في الوسط الذي يعيش فيه، فضلًا عن أن العلاقات النسائية البريئة، قد تتضاءل طهارتها يومًا بعد يوم، وقد يخالطها شيء من الخطأ أو الممارسات التي يأباها الدين الحنيف، وقد رأيت بنفسي كيف أن الخصوم السياسيين من الأحزاب الأخرى يلجئون إلى نشر الإشاعات والتشنيع، بابتكار القصص الغرامية، أو اختراع العلاقات الآثمة، ثم يلصقونها زورًا وبهتانًا ببعض الدعاة الكبار أو المؤثرين، وربما يستغلون

حادثًا عارضًا جرى فعلًا، ثم يضيفون إليه الكثير من الحواشي والتفاصيل الزائفة، كي يهدموا شخصية من الشخصيات الفعالة.

ما أريد أن أقوله هو أن الداعية -في مجال العقيدة الدينية بالذات يجب أن يكون على حذر تام من هذه الناحية، ولي في ذلك تجربة قديمة لا أنساها، قد يكون من الخير أن أذكرها، حتى يعي شبابنا الدرس جيدًا، وتكون خطاهم بين مجتمعهم محسوبة وبحذر، حتى لا تتعثر أقدامهم، ويعانوا من النقد الجارح، والمؤاخذات اللاذعة.

كان ذلك قبل قيام الثورة بعام، وعلى وجه التحديد في العطلة الصيفية التي تفصل بين السنة الإعدادية والسنة الأولى بكلية الطب، وعادة ما كنت أقضي إجازتي الصيفية في القراءة وممارسة الألعاب الرياضية، وإعطاء بعض الدروس الخصوصية للطلبة الذين لم يحالفهم الحظ في امتحان الدور الأول بالمرحلة الابتدائية، أو الثانوية على حد سواء، كما كنت أشارك في إلقاء بعض الدروس التي تمزج بين الدين والسياسة كتوعية للمواطنين والزملاء، وجذبًا لهم إلى صفوف جماعة الإخوان المسلمين.. وجاء أبي ذات مساء وانتحى بي جانبًا وقال: «تعرف أن «الحاج عبد المجيد» صديقي».

- «أعرف.. لكنه رجل مخيف، ويسخر ماله ورجاله في تأديب كل من لا يروق له.. ونفوذه في كل مكان..».

ابتسم أبي قائلًا: «تصرفاته له أو عليه.. والمحاسب هو الله.. وعلاقتي به قديمة، وفي حدود ما أمر الله. أما مظالمه فالله وحده يعلم بها، ولا دخل لي في شيء منها..».

- «ما علينا»..

قال أبي وهو ينظر إليّ في أمل: «لقد طلب مني خدمة..».

- «هل لي صلة بها؟».

- «أنت الذي تستطيع القيام بها..».

الحقيقة أن كلمات أبي شدت انتباهي، ما الذي يربطني بالحاج عبد المجيد حتى يفكر في طلب شيء مني، وهو الذي يستطيع أن يشترى كل شيء بماله.. يشترى الرجال والشرطة والبهائم والسلاح والحشيش والأراضي الزراعية والنساء؟ لم تستمر حيرتي طويلًا فقد بادر أبي قائلًا: «يريدك أن تعطي درسًا خصوصيًا لابنته «أنصاف»».

كان الخبر مفاجأة تامة بالنسبة لي، لأنه لم يخطر لي على بال من قبل، وكانت أنصاف تصغرني بعام أو عامين، أي أنها مكتملة الأنوثة، وعلى جانب من الجمال، وكانت في السنة التي قبل الثانوية العامة، وهي تتلقى علومها في مدرسة تدرس بالإنجليزية.. مدرسة أجنبية خاصة –أي بالمصروفات– وتقع هذه المدرسة في عاصمة الإقليم، ومنذ أن دخلت أنصاف القسم الداخلي بالمرحلة الثانوية بهذه المدرسة ولم تعد تسير في الشارع سافرة، أو تختلط بالناس، اللّهم إلا عند سفرها من القرية إلى المدرسة، وعند عودتها في عطلة نهاية الأسبوع أو غيرها من العطلات.. وهذا على النقيض مما كان يحدث وهي في المرحلة الابتدائية، إذ كانت تختلط بالصبية وكأنها ولد مثلهم، وتتعارك وتحمل العصا، وتشترك في المعارك الصبيانية التي تجري عادة بين التلامذة في مثل هذه السن، وفكرت فيما عرضه أبي مليا، كنت ميالًا لتنفيذ المهمة بعاطفتي، ربما اشباعًا لغروري، وإظهارًا لتميزي على زملائي، إذ كنت الوحيد الذي وقع عليه الاختيار، وربما إثباتًا لوجودي وأهميتي، وربما رغبة في اقتحام المجهول، والخوض في تجربة جديدة مثيرة، لكني في نفس الوقت كنت أتهيب الإقدام على ذلك، إذ ماذا سيكون «رد الفعل» عند إخواني وعند أولئك الذين يستمعون إلى توجيهاتي ودروسي في الدين والأخلاق، من وقت لآخر؟.

الحق أنني وقعت في حيرة شديدة.. ثم لماذا يفعل الحاج عبد المجيد ذلك وهو الرجل المتصلب، المحافظ جدًا، والذي لا يتهاون قيد شعرة في أمر يتعلق بالنساء؟ لقد كانت أنصاف كبرى أولاده، ولكم تمني أن تكون ولدًا، لكن هذا لم يكن بيده، فلم يرزق بالذكور إلا بعد ثمانية عشر عامًا.. لكنه رغم أميته، آثر أن يرسل ابنته الكبرى لتلقي التعليم في أحسن مدرسة داخلية بالإقليم آنذاك..

قلت لأبي: «أنت تعلم أن كلام الناس كثير..».

قال لي: «مالنا وللناس؟ المهم أنت.. ما أخلاقك؟ وكيف ستتصرف؟ هذه مهمة لمدة شهر ونصف أو شهرين.. ثم يذهب كل لحال سبيله..».

ووجدتني أقول بحماسة: «بشرط ألا أتقاضى منهم أجرًا..».

قال بهدوء: «لسنا في حاجة إلى أموالهم.. إنها مجرد خدمة لرجل يتعشم فينا خيرًا، ولا يصح أن نرفض رجاءه...».

وفي الليلة الموعودة، ذهبت إلى البيت العتيق، المبني بالطوب الأحمر، تحت جنح الظلام، كان الوقت صيفًا -كما قلت- والنخلات العالية، تقف عملاقة في فناء المنزل، واستقبلني الحاج بعوده القصير الممتلئ، وابتسامته الواثقة، وقادني إلى الداخل، لنشرب الشاي، وبعد تقديم واجبات الضيافة اصطحبني إلى غرفة واسعة النوافذ تطل على الفناء المسور، كانت أنصاف تقف خافضة الرأس، مرسلة الشعر، تلبس رداءً وردي اللون، ولم يزد الرجل على أن قال: «صافحي أخاك يا بنت..».

كانت أعصابي متوترة، وكانت هي تبدو هادئة وادعة خجول لا تكاد ترفع إليّ طرفًا، أين أنصاف الطفلة المشاكسة المتعاركة؟ وسرعان ما انصرف الرجل، وجلس في الصالة أمام باب الغرفة المفتوح، كانت الكتب مرصوصة على الطاولة الرخامية إلى جوار لمبة جاز كبيرة، وفي محاولة لتبديد الحرج والتوتر قلت وأنا أتصنع الهدوء: «بماذا نبدأ؟».

قالت وهي تبتسم وصوتها خفيض لا يكاد يسمع: «كما تشاء...».

- «لابد أن تختاري..».

قالت وهي تسحب كتابًا: «الفرنساوي..».

عندما خرجت من بيتهم حوالي العاشرة مساءً، كان النسيم عليلًا، وقليل من العرق يندي وجهي «يا إلهي» يا لها من تجربة؟ ولم أستطع أن أصرف خيالها عن بالي إلا بعد أن أغمضت عيني، وكنت في حيرة من أمري، ما هذا الذي يحدث؟ ولماذا يشتط بي التفكير؟ أخذت أبدو كغريق تتقاذفه الأمواج دون إرادة، وخف الحرج والتوتر ليلة بعد ليلة، وأخذنا نتحدث بطلاقة، ونضحك أحيانًا، وقطعنا شوطًا لا بأس به في مختلف المواد.. وما هي إلا أيام قلائل حتى انتشر الخبر في القرية، إن زملائي يتغامزون، ويلقون التعليقات الساخرة، وأخذ بعض الإخوة يوجه النقد بصراحة وحدة، كما أشيع أن خطبتي لإنصاف على وشك الإعلان، مما أغضب أمي إغضابًا شديدًا، إذ خافت على مصير قريبتنا التي ينوون تزويجي منها، وساد الهرج والمرج..

تصدت لي زوجة جدي «مباركة» التي تفرغت من قديم لتربيتي وخدمتي وقالت صائحة في غضب: «أتترك قريبتك.. بنت الأصول.. وتذهب إلى..».

قلت في ضيق: «كفى يا جدتي.. كله كلام فارغ أنت تعرفين أن بيني وبين الزواج مسافة طويلة».

- «لكن الناس يا ولدي يقولون..»..

- «وما ذنبي».

وتدخلت أمي قائلة في غيظ: «إنها مؤامرة للإيقاع بك، ومن تدبير نسوة أعرفهن..».

- «يا أمي لم يخطر لي شيء من هذا على بال..».

- «وهل ننتظر حتى تحل الكارثة؟ لقد أرسلت أمها بعض الهدايا إلينا فرفضتها وأرجعتها إليهم.. إني أعرف هذا الأسلوب..».

ووجدتني أقول وقد شعرت بالجرح: «ولم هذا يا أمي؟».

- «ماذا كنت تظن؟».

- «أعني.. المجاملة.. و..».

قاطعتني قائلة: «لا مجاملة بيننا وبينهم.. منذ متى ونحن نتبادل الهدايا؟».

لم أعد أستطيع أن أخرج كعادتي إلى الصحاب، وتوقفت تمامًا عن برنامج الدروس التي كنت ألقيها على الزملاء والفلاحين، وشعرت أنني آتى تصرفًا لا يليق، كان قلبي يحدثني أنني أذنب، على الرغم من عدم وجود أسباب ملموسة أو مادية لذلك، لكن اللوم الداخلي الذي أعاني منه أشعرني بالإثم، وبينما أنا على هذا الوضع من القلق والعذاب، جاءني أحد الإخوة وقال: «عليك أن تذهب غدًا لمدينة «زفتى»».

- «لماذا؟».

- «لمقابلة المسئول هناك...».

كانت كلمة المسئول مفهومة لدينا جيدًا، وهي تعني أنه أحد المكلفين بالمركز في مكتب الإخوان المسلمين الرئيسي، وعندما ذهبت كان في انتظاري الأخ محمد الوكيل «وهو الدكتور محمد الوكيل الأستاذ بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة حاليًا». وكان محمد إنسانًا طيبًا، يريحك النظر إلى وجهه الذي تعلوه زبيبة الصلاة، ثم أخذ يحدثنا -كمجموعة- كيف أن الدعاة يجب أن يخلصوا وجههم لله، دون النظر إلى أي مغنم دنيوي، وأن الدعاة الحقيقيين

قوم متميزون بعلمهم وأخلاقهم وسلوكهم ومبادرتهم بالخير، والتزامهم بأوامر الله ونواهيه، وأفاض في هذه المعاني حتى جاء وقت الظهر، ثم صلينا جماعة في مقر الشعبة، وبعدها دعاني لتناول الغداء، وما إن انتهينا من الطعام حتى انفرد بي جانبًا وأخذ يحدثني: «أنا أعرفك» لقد تقدم إلي بشكوي أحد إخوانكم بالشعبة في قريتكم بأنك تعطي دروسًا خصوصية لفتاة.. وأن هذا التصرف قد أثار القيل والقال، وأثر على مسيرة الأمور عندكم.. قلت أنا أعرفك من قديم، ولا يراودني أدنى شك في إيمانك.. ولهذا دافعت عنك.. وكلنا قد يقع في مواقف محرجة تمليها ظروف معينة، ولا ينجينا إلا ثقتنا بالله وبأنفسنا.. ورسولنا يقول ﷺ: «من حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه».. ومجال الخدمات الإنسانية واسع ومتعدد الجوانب. وليس قاصرًا على درس خصوصي لفتاة.. والحمد لله.. انتهت العطلة الصيفية أو كادت.. ويمكنك منذ اليوم وقف هذه الدروس.. لمصلحتك ومصلحة دعوتك..

حاولت أن أدافع عن نفسي، وأشرح له الموقف، لكنه كان يقابلني بابتسامته المعهودة، وكلماته الحانية، مؤكدًا لي تقديره التام للموقف، وتفهمه الكامل لظروفي، وأشار إلي أن هناك كثيرين غيري نساءً ورجالًا يستطيعون القيام بهذه المهمة عني، ولأنصرف أنا إلى البرنامج الموضوع للدعاة فهذا أهم من وجهة نظره..

وافقت عن طيب خاطر..

ثم أخذ محمد يسألني عن الأوضاع في القرية، وموقف العمدة والأحزاب منا، ومدى استجابة الفلاحين لنا، وهل تصلنا المجلة والمطبوعات بانتظام؟ وما الأنشطة الاجتماعية التي نخدم بها القرية؟ وهل تصادفنا مشاكل أم لا؟ ثم وعدني بزيارة قريبة في مقر شعبتنا..

وقبل أن أغادر مكاني دخل أحد الإخوة من قريتنا، وكان منفعلًا وقال: «أنا الذي تقدمت بالشكوى.. فعلتها لا لشيء إلا غيرة على دعوتنا والحفاظ على هيبتها وكرامتها، بعد أن تحدثتنا ألسنة السوء..» وأعفاني «محمد» من الرد أو التعليق حينما أردف قائلًا: «لا تهول في الأمر.. ليست شكوى.. المؤمن للمؤمن كاليدين تغسل إحداهما الأخرى.. إنها مجرد نصيحة أخوية جاءت على مستوى أخ أكبر لكم.. هذا كل ما في الأمر.. وقد حلت المشكلة تمامًا.. ولتستأنفوا برنامجكم كالمعتاد، وكأن شيئًا لم يحدث.. مفهوم؟» وذهب كل منا لحال سبيله.

وكانت تجربة.. وما أكثر ما يعتري سني الشباب من تجارب.. لكني من حين لآخر كنت أحاسب نفسي.. لقد كتبت آنذاك أبياتًا من الشعر العاطفي.. فيها رومانسية الجيل.. وأحلامه اليائسة، وذكرياته الباكية.. وآماله المحلقة في السماء.. وأتذكر الآن كيف أن «النظرة الأولى» كانت تطول.. وتطول.. وتتبعها نظرة ثانية وثالثة.. وعاشرة.. وأتذكر كيف أن أيام الانقطاع الأولى عن الدروس قد أورثتني الأرق والكآبة.. كان مثلي كمثل الذي أدمن على فعل شيء ثم منع عنه فجأة.. ألا نعرف أعراض وقف الإدمان؟ لقد كانت ليالينا بريئة خالية من العبث تمامًا.. لم تخرج عن النظرات والكلمات النظيفة.. لكن يكذب من يدعي أن نفسه لا تحدثه بشيء وهو يجلس منفردًا مع امرأة، حتى ولو كان بينهما منضدة رخامية سميكة ضخمة.. والعفة صراع شديد، والحرمان نار تتلظى، ومقاومة الأمواج والتيارات الكاسحة معاناة ومشقة.. تلك هي الحقيقة.. ومن يقل غير ذلك فهو مدع ولم يذق مرارة التجربة، ولذلك فقد رسخت في ذهني عقيدة لا تتزعزع، ألا وهي الزواج المبكر متى توفرت أبسط الإمكانات لذلك..

وسافرت «أنصاف» بعد انتهاء دراستها الثانوية إلى الخارج، وعاشت سنوات طويلة في أوروبا تدرس الصيدلة، وانقطعت أخبارها عن أهلها أو كادت، وفي هذه الأثناء وقع أبوها في صراع مع إحدى أسر القرية، حيث أريقت الدماء وأزعج الرصاص الغادر سكون الليل، وأخيرًا عادت متزوجة، معها الزوج والأطفال، وتذهب كل يوم للعمل في صيدليتهم الخاصة مع زوجها.. لكني لم أرها منذ ذلك التاريخ..

أجل، لم يكن لدي وقت للتفكير فيها بعد أن ساقتني الأقدار إلى أم أولادي، فملأت حياتي بالحب، وأثرت دنياي بالبهجة، ووجدت لدى الزواج منها الاستقرار بعد القلق، والوحدة بعد الشتات، والأنس بعد الوحشة، ووجدت فيها سندًا أتكئ عليه في المحنة. وقلبًا يخفق إلى جواري في الشدة والرخاء ويدًا تدفعني إلى الأمام، وتسمو بي إلى أعلى، ووجدتها تبكي لألمي، وتسعد لسعادتي، بل وتقذف بنفسها في مواطن الخطر يوم أن غيبتني السجون في ظلامها الدامس، وذهبت إلى رئيس الجمهورية نفسه تسائله عن السبب في هذا العناء كله..

ولهذا قصة طويلة سوف يرد ذكرها فيما بعد..

أقول إن ذلك هو الحب الحقيقي.. ألم يجعل الله لنا من أنفسنا أزواجًا لنسكن إليها؟

الحب الحقيقي هو عودة جزء من النفس إلى النفس حتى تتكامل وتؤدي وظيفتها المقدسة.. والحب الحقيقي هو المودة والرحمة بين الزوجين كما جاء في القرآن الكريم.. لكن هل نحن جميعًا ندرك تلك الحقيقة إبان اشتعال الشباب وعنفوانه؟

وليس أمام دعاة الشباب في مثل هذه المآزق إلا واحد من اثنين لا ثالث لهما: أولهما: اتخاذ الأساليب والطرق الوقائية للبعد عن المزالق. وثانيهما: الزواج إذا توفر الحد الأدنى من متطلباته..

وغير هذين السبيلين يكون الخطر والخطأ، قلا أو كثرا.. والله خير حافظًا وهو أرحم الراحمين..

***

[4] اللواء محمد نجيب يتصدر الحركة

قبل أن نتناول مأساة اللواء محمد نجيب الذي قبل أن يتصدر حركة الجيش في يومها الأول «23 يوليو 1952»، أريد أن أشير إلى قضية مهمة، ألا وهي قضية «التغيير» المنشود قبل حركة الجيش. كان في مصر إجماع كبير على ضرورة التغيير، وحينما أقول «إجماع كبير» أقصد أن غالبية الشعب وتنظيماته السياسية لم تكن على رضى أو وفاق مع الملك، فالوفديون ساخطون خارج الحكم، وشبه راضين داخل الحكم، لكنهم كانوا يرغبون في التغيير نظرًا لأن الملك لا يترك لهم الفرصة كي يستمروا في الحكم بعد أن يكتسحوا الانتخابات الحرة، ولهذا فهم لم يحكموا منذ صدور الدستور في عام 1923 وحتى قيام الثورة إلا أقل من سبع سنوات، مع أنهم حزب الأغلبية التي لا يستطيع منصف أن يشكك فيها، وحتى عندما كان يحكم الوفديون كان الملك يسبب لهم الكثير من المنغصات والمضايقات، ويفرض عليهم بعض الأمور والسياسات التي تخرج عن برامجهم، ويوقعهم في إحراج شديد.

وكان الوفديون يتحايلون على البقاء في الحكم بأساليب شتى، كانت تعرضهم للنقد الشعبي، وتهجم الأحزاب الأخرى عليهم، ورميهم بالخيانة، والتنكر للمبادئ والوعود التي بذلوها، بل واتهموا النحاس بأنه ذنب للسراى وخاصة بعد حادث 4 فبراير الشهير، الذي تولى بعده النحاس الحكم، وقالت المعارضة يومها: «لا، لقد جاءت حكومة الوفد على أسنة الرماح البريطانية» إذ إن الإنجليز يومها وجهوا إلى الملك إنذارًا وطلبوا منه أن يكلف النحاس باشا بتشكيل الوزارة، ومع ذلك فإن الوفد في قرارة نفسه كان ينقم على الملك، ويلعبان معًا لعبة «القط والفأر» ويتبادلان الابتسامات رغم ما في القلوب من كراهة متبادلة، وشك مقيم، وكثيرًا ما استعمل الملك حقه الدستوري في حل البرلمان ذي الأغلبية الوفدية، وأسقط حكوماته، وكان بعض الكتاب الوفديين يجاهرون بالسخط على أسلوب الملك، ويلمحون إلى أنه وراء محنة الحرية والدستورية، وكثيرًا ما كانوا يقدمون للمحاكمة.

وكانت هناك فئة لها مصالحها المضمونة في ظل الحكم الملكي، وبينهم عدد كبير من رجالات أحزاب الأقلية ورجال المال والأعمال، وأصدقاء الاستعمار، وأصحاب المصالح والمغانم والسلطات المستقرة.

أما الإخوان المسلمون -كما سبق وأشرنا- فقد كانوا يصرون على التغيير، تشير إلى ذلك خطبهم وبرامجهم ومطالبهم الدستورية، والإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية التي ينادون بها، وإعلان الحكم الإسلامي، وجعل الشورى والحرية حقيقة واقعة، كما كانوا ينقمون على الملك وأسرته وأعوانه أسلوبهم في الحياة الخاصة والعامة، وكان شائعًا في أوساطهم أنه لابد أن يعزل، هذا على الرغم من اتباع الصمت والمهادنة في بعض الأوقات الحرجة، وإيهامه بأنهم لا يشكلون خطرًا عليه أو على نظام الحكم، حتى يتجنبوا بذلك الصدام الرهيب الذي يمكن أن يحدث، والذي حدث فعلًا بعد ذلك..

ومما لا شك فيه، أن الملك كان يعتمد اعتمادًا رئيسيًا على تأييد الجيش له، وإخلاص قيادته لسياسته وأفكاره. كما كان يعتمد في الوقت نفسه على حماية التقليديين -الإنجليز-، وكذلك على أنصاره في السراى وخارج السراى، وأجهزة الأمن والمخابرات، تلك التي ظلت على ولائها له حتى النهاية..

لكن الجيش الذي أفرز عرابي وأمثاله من قبل، استطاع أن يوجد فئة واعية من الرجال تدرك أبعاد الحكم الملكي وأخطاره، وتدرك أيضًا أن قيادتها في الجيش على ولاء تام لولى نعمتها وحلفائه، ولم يكن عزيز المصري باشا وتلامذته إلا مثلًا لهذا التحرك المضاد للسراي وأعوانها، وهذا هو بداية تكوين الخلايا السرية في الجيش قبل حرب فلسطين، فقد جاء في مذكرات بعض ضباط مجلس قيادة الثورة أن أول من أسس تشكيلًا سريًا للضباط في الجيش كان هو الصاغ «محمود لبيب» وكيل جماعة الإخوان المسلمين في فترة من الفترات في الأربعينيات من القرن العشرين، وهذا خبر متواتر ومعروف لدى الجماعة من قديم، ثم جاءت حرب فلسطين وفترة التصدى للقوات البريطانية في القناة، وحمل الإخوان عبء هذه الأعمال الفدائية التطوعية في غالبيتها، ومن ثم تكونت كوادر قادرة على مستوى الجماعة ومستوى الجيش، لعبت دورها بعد ذلك عند قيام الثورة..

نستطيع على ضوء تلك المقدمة أن نبلور صور التغيير المنتظر في ثلاثة خطوط رئيسية:

الخط الأول: ويمثله بعض رجال الجيش المنظمين، ويرغب في التغيير عن طريق استعمال القوة أو الثورة أو الانقلاب.

الخط الثاني: ويمثله الوفد ومن على شاكلته، وهؤلاء يميلون إلى تغيير سلمي ديموقراطي، يتمثل في احترام الدستور، وتقليص سلطات الملك، وإعطاء الصلاحيات لرئيس الوزراء المنتخب والذي مثل الأغلبية.

الخط الثالث: وهو خط متميز يريد التغيير بالأسلوب الهادئ الديموقراطي، لكن تحت حماية القوة التي يمكن استعمالها عند اللزوم، أو عندما يحاول الملك أو الإنجليز أو غيرهم أن يجهضوا حركة التغيير السلمي، أو ينحرفوا بالمسار الإصلاحي المنشود، هذه الفئة يمثلها الإخوان المسلمون، ولعل هذا هو السر فيما كان يحدث عندهم من تطورات لا تخفى على أعين الفاحصين المنصفين الواعين نذكر منها:

1- تغلغلهم في الأوساط الشعبية، وإنشاء «الشُّعب» في المدن والقرى والكفور، داعين إلى عدم الفصل بين الدين والدولة، وإلى تحقيق العدالة السياسية والاقتصادية والاجتماعية، وتحقيق الحريات.

2- تغلغلهم في أوساط العمال والموظفين، وتأكيد نفوذهم في النقابات المهنية وغير المهنية، وتحقيقهم للأغلبية في بعضها عن طريق الانتخابات، أو الحصول على مقاعد بنسبة كبيرة في نقابات المعلمين والأطباء والعمال وغيرهم، مما جعل إحدى صحف الحكومة بعد الصدام مع الثورة تقول: «الإخوان يشكلون أجهزة أخطر من الجهاز السري» قاصدة بذلك تغلغلهم في النقابات.

3- تغلغلهم في المؤسسات التعليمية وخاصة الجامعات، حيث كانت الانتخابات تجرى كل عام، بواقع مندوبين اثنين منتخبين عن كل سنة أو صف من صفوف الكليات، وقد استطاع الإخوان أن يحققوا أغلبية مطلقة في جميع الجامعات ما بين 80-90٪، ولم تستطع تحالفات الأحزاب في الجامعة، وبعض القوى الدينية المضادة، فيما سمي «بالجبهة الوطنية» أن تهزم الإخوان في الانتخابات التي كانت تجرى قبيل الثورة أو بعدها.

4- التفكير في دخول الانتخابات النيابية، واعتراض الإنجليز على ذلك، وتقديم النحاس باشا النصيحة للإمام الشهيد حسن البنا كي لا يتقدم للترشيح، وتأجيل ذلك لما بعد؛ أي عندما تأتي الظروف المناسبة.

إنشاء فرق الكشافة والجوالة الإخوانية الكبيرة العدد، ووضع نظام خاص لها يختلف في تدريباته ونظمه ولوائحه عن النظام العالمي، والتأكيد فيه على التربية الروحية والبدنية والعقلية، والاهتمام بالتعارف والارتباط خارج المخيمات بين الأفراد، وبعض التدريبات العسكرية.

6- إنشاء «النظام الخاص»، وهو ما أطلق عليه بعد ذلك «الجهاز السرى» للاشتراك في معركة فلسطين وقناة السويس، وحماية الجماعة ومؤسساتها وأفرادها القياديين عند الضرورة.

7- إصدار الصحف والمجلات العلنية، وذلك بقصد نشر الدعوة، وتقديم البحوث الدينية والسياسية والاقتصادية والعلمية، وفتح المجال أمام ما يمكن أن يسمى «بالأدب الإسلامي»، وتأليف المسرحيات والأناشيد، ووضع برامج للدراسة والقراءة الحرة، والتوصية بالاطلاع على كتب وأفكار أدباء ومفكرين بعينهم، دون التقيد بكتاب الجماعة، فكثيرًا ما كانت تقرأ كتب العقاد والرافعي ومحب الدين الخطيب وغيرهم.

8- تشجيع المنافسات الرياضية والانضباط، وتأدية الشعائر والعبادات والرحلات والزيارات والبعثات الدراسية في أوربا وأمريكا وغيرها، وعقد الصلات مع المنظمات الإسلامية في العالم العربي والإسلامي، وما زالت آثار ذلك باقية حتى كتابة هذه السطور، وبصورة أوسع وأكبر.

9- إنشاء مؤسسات اقتصادية مساهمة، على أسس إسلامية.

10- إنشاء مدارس ومساجد على النمط الإسلامي الصحيح، وتشجيع إنشاء المستوصفات ودور النشر والإعلام والإعلان.

11- تشجيع أفراد الجماعة على الالتحاق بالشرطة والقوات المسلحة والكليات العلمية كالطب والهندسة والعلوم والصيدلة والزراعة وغيرها.

12- إعداد برامج خاصة لتربية الأطفال، وتوعية النساء، وكانت مدرسة «الجمعة» للأطفال من المدارس الشهيرة.

13- دراسة النظم الإدارية، والمواقع الجغرافية في القاهرة خاصة، وفي مصر عامة، وتقسيم البلاد إلى مناطق ومكاتب وشعب، وفق هيكل تنظيمي فريد، وطرق اتصال سهلة وسريعة وناجحة.

14- تجنب الصدام مع الجمعيات الإسلامية الأخرى، بل وتقوية صلة المودة والمحبة معها.

15- عدم القيام بالتصرفات الفردية التي قد تسبب للجماعة في عمومها مشاكل لا حصر لها، والالتزام برأي الجماعة وقيادتها في الأمور الأساسية والسياسية العليا، والتصرف بحكمة وروية في الأمور المحلية الثانوية.

16- عدم الهتاف بأسماء الأشخاص أو الزعامات مهما كانت.

17- التفقه في الدين بكل فروعه ما أمكن، ليستوي في ذلك الجميع، وحفظ القرآن الكريم أو قدر منه، والأحاديث النبوية الصحيحة، والتفسير، وترك الخلافات المذهبية جانبًا، والتخلق بأخلاق النبوة حتى يصبح الفرد الداعية قدوة حسنة.... إلخ.

وقد أفاضت بعض المؤلفات في هذه الجوانب، وإنما قصدت بإيجاز معظمها الوصول إلى النتيجة المهمة ألا وهي:

«إن الإخوان المسلمين كانوا يريدون التغيير، ويعدون له، بل وبدءوا فيه، وأنجزوا الكثير، وكان هذا التغيير، كما هو واضح من منهجهم وتصرفاتهم -تتخذ الأسلوب الديموقراطي السليم، ويتخذ من القوة رصيدًا لحماية ذلك التحرك السلمي كما قلنا».

ولعل هذا هو السبب في اختيار رجل القانون الضليع الأستاذ حسن الهضيبي -رحمه الله- مرشدًا للإخوان، بل يمكن القول بأن تردد الهضيبي في الموافقة على قيام الضباط بحركتهم المسلحة كان نابعًا من تلك الخطة الإخوانية، ونستطيع أن نضيف إلى ذلك أيضًا محاولة الهضيبي لتصفية «النظام الخاص» وعزل رؤسائه، واختيار قيادة جديدة لتذويب ذلك التنظيم، مما أثار ثائرة أعضائه القدامى، فحاولوا عزل المرشد والقيام بانقلاب ضده.. انقلاب داخلي في مقر المركز العام للإخوان المسلمين بحي الحلمية بالقاهرة، وفشلهم في تنفيذ ما أرادوه، وفصلهم فصلًا تامًا من الجماعة، والغريب أن الثورة وصحافتها استغلت الحادث أسوأ استغلال، كما قامت الثورة بتقريب المنشقين إليها، والإغداق عليهم، وعدم اعتقالهم

فيما بعد، وقال الهضيبي قولته المشهورة «لا أريد جهازًا سريًا.. لا أريد عصابة.. أريد الإخوان المسلمين أن يكونوا تنظيمًا واحدًا.. وفي النور..».

إن تلك العلانية، وهذه البرامج التي استمرت لسنوات، والخطوات الديموقراطية في مختلف المجالات، وتصفية الجيوب المتميزة أو المسلحة، بعد أن أدت دورها المرحلي في فلسطين والقنال، والمؤسسات الديموقراطية المختلفة، ثم إصرار الهضيبي على عودة الديمقراطية بعد قيام الثورة، واختلافه الشديد مع جمال عبد الناصر لهذا السبب الرئيسي، مضافًا إلى ذلك مطالبة حكومة الثورة باتباع النهج الإسلامي.. كل هذه الأمور تؤكد ما أشرنا إليه من برنامج الإخوان في ديموقراطية التغيير، وهذا ما تؤكده نصوص الخطب التي أوردها حسن البنا، وخطاباته للناس ولرؤساء الدول، وما تشهد به أيضًا صحف العصر وما فيها من تصريحات للهضيبي والقيادات الإخوانية وصحفهم وكتبهم.

نعود -بعد هذه المقدمة الطويلة- إلى اللواء «محمد نجيب»:

ولد محمد نجيب من أبوين مصريين في السودان عام 1901، ونال البكالوريا من مدرسة الخرطوم، ثم دخل الكلية الحربية، وتخرج منها ثم التحق بالجيش، واشترك في الحرب العالمية الثانية، وفي حرب فلسطين لعب دورًا بارزًا -على المستوى الفردى والمستوى القيادى- وأصيب فيها إصابات بليغة، ومن أشهر معاركه فيها معركة التبة 86، وعرف بحسن الخلق، والصبر والدأب، وتعلم عددًا من اللغات الأجنبية «خمس لغات»، وأخذ دبلومات عليا في القانون والاقتصاد، وكان كثير الاطلاع، كما كان خطيبًا مفوهًا، ومعلمًا فذًا، نظيف السمعة والتاريخ، اختاره الضباط رئيسًا لناديهم، وأسقطوا مرشح الملك، واعترض الملك على تعيينه وزيرًا للحربية، وكان على وشك فصله من القوات المسلحة لولا أن قامت الثورة.

لم تغره السلطة حينما جاءت إليه، ولم يوجه انتقامًا شخصيًا لأحد ممن ناوءوه أو حاربوه. وكان طيب القلب سرعان ما يعفو ويصفح مهما وُجهت إليه من إساءات، ووقف كالطود الشامخ في مواجهة الأحداث ليلة قيام الضباط بالثورة.. لم يكن أحد يعرف هؤلاء الضباط، لكن محمد نجيب كان ملء السمع والبصر، على الأقل بالنسبة للمثقفين والمهتمين بمستقبل الأمة ومصيرها..

إن شجاعة محمد نجيب ونزاهته كانت مضرب الأمثال قبل وبعد الثورة، لقد دُعي إلى مجلس القيادة ليلة الثورة لتولي مسئوليته التاريخية، ولم يتردد في الحضور رغم المخاطر الكبيرة التي يواجهها، لم تكن حركة الجيش قد تمت لها السيطرة بعدُ على الأغلبية العظمى من وحدات الجيش، لقد كانت هناك وحدات كثيرة في قلب القاهرة لم تعلن عن انضمامها بعد، وكانت قوات الفرقة الأولى مشاة في سيناء، وهي أكبر تشكيل في الجيش وقتئذ، لا تدري شيئًا عن الحركة، أما قوات الإسكندرية فلم تكن قد سمعت بعد أية أنباء عن هذه الحركة، وكانت الخطورة كامنة في الإسكندرية، حيث مقر الملك في «قصر المنتزه»، والحكومة في «بولكلي»، والفريق محمد حيدر باشا القائد العام للقوات المسلحة في معسكر مصطفى كامل، وحيث توجد أكثر القوات ولاءً للملك كما كان مفترضًا، وهي قوات الحرس الملكي، والسلاح البحري، وخفر السواحل، وقد ثبت أن البيان الأول للثورة الذي صدر باسم اللواء محمد نجيب من دار الإذاعة كان هو العامل الحاسم في انضمام جميع قوات الجيش غير المشتركة في الحركة إلى القوات الثائرة، وخاصة أن نجيب كان هو الشخص المعروف بنزاهته وشجاعته وتصديه للملك قبل الثورة، وعلى المستوى الجماهيري والعسكري بوجه خاص، ولم تكن الأوساط الشعبية أو المثقفون يعرفون مجرد اسم جمال عبد الناصر.

إن مجرد إذاعة البيان الأول باسم اللواء محمد نجيب في الساعة السابعة والنصف صباحًا من دار الإذاعة، معناه أن الرجل حمل على عاتقه مسئولية الحركة بأكملها تاريخيًا أمام حكم التاريخ، وجنائيًّا أمام الملك وحكومته، وأصبح هو الرمز المجسد لها، ينتصر إذا دان لها النصر، وإذا فشلت فسيكون عليه تحمل وزرها وعواقبها.

ولقد نال محمد نجيب شعبية ساحقة لم ينلها أحد قبله في تاريخ مصر الحديث إلا سعد زغلول، وكان مجرد ظهوره في المؤتمرات العامة كفيلًا بأن ينتزع الهتافات الحارة، والتصفيق الحاد، كما كان محل ثقة رجال الفكر والسياسة والأحزاب القديمة، وكانت مكانته بين أبناء القوات المسلحة قمة عالية لا يدانيها أحد..

وبين مواكب النصر والتأييد التي غمرت محمد نجيب وكلماته وشعاراته، لم يلحظ الرجل الطيب الأيدي التي تعبث في الخفاء، ولم يتعرف في البداية على النفوس الدنيئة التي حقدت

عليه لشعبيته، وانتصاره على الأطماع الشخصية، والطموحات الساقطة، ورويدًا رويدًا أخذ الرجل يكتشف مهازل لا حصر لها:

1- تكوين مراكز القوى والشِّلل منذ البداية.

2- إنشاء خلايا سرية جديدة في الجيش تدين بالولاء لجمال عبد الناصر.

3- تلفيق التُّهم، واستئجار الشهود لإلصاق مؤامرات وهمية ببعض الضباط الأحرار المخلصين.

4- الاستيلاء على بعض القصور والشقق الفاخرة، وبعض محتويات القصور الملكية.

5- أحد القادة يذهب مخمورًا في المساء ليطارد أميرة من أميرات البيت المالك، والأميرة تستنجد بمحمد نجيب قائلة: «إنه يتصور نفسه ملكًا جديدًا».

6- زوجة أحد ضباط القيادة تتصرف وكأنها «الكل في الكل» وتقول: «الجيش في يميني والبوليس في يساري»، وتستغل وضع زوجها أبشع استغلال.

7- ضابط آخر يطارد «ناهد رشاد» زوجة طبيب الملك السابق الخاص.

8- عبد الناصر يوعز إلى أعوانه المخلصين، حتى ينفرد بالسلطة، ويوعز أيضًا إلى مصطفى أمين كي ينشر صور ضباط مجلس قيادة الثورة، وإلى جوارهم صورة كبيرة له، توحي بأنه «كل شيء»، وغضب عدد كبير من الضباط الزملاء من ذلك.

9- محمد نجيب يكتشف أن جمال عبد الناصر، على حد تعبير نجيب نفسه: «.. قوة عبد الناصر في شخصيته، وشخصيته من النوع الذي يتكيف ويتغير حسب الظروف، فهو مرة مع الشيوعيين ومرة مع الإخوان المسلمين، وعشرات المرات ضد الجميع ومع نفسه..».

10- ازدواجية الحكم بين الوزراء وبين ضباط القيادة وتضارب الآراء.

11- تعطيل صلاحيات محمد نجيب عن طريق قرارات الأغلبية التي يتخذها مجلس قيادة الثورة بتدبير من جمال عبد الناصر.

12- نجيب يقول إن السيطرة الآن أصبحت «لأصحاب الجلالة الضباط ومواكب المنافقين..» ويقول أيضًا: «وبدأت أشعر أنني لا أمارس سلطاتي كما يجب..».

13- في البداية، وعند الحاجة الماسة إلى وجود محمد نجيب كقائد للمسيرة الشعبية، وقف جمال عبد الناصر في بني مر يقول: «باسم أبناء هذا الإقليم أرحب بك من كل قلبي، وأعلن باسم الفلاحين، أننا آمنا بك، فقد حررتنا من الفزع والخوف، وآمنا بك مصلحًا لمصر، ونذيرًا لأعدائها.. سيدي القائد.. باسم الفلاحين أقول سر، ونحن معك جنودك..».

وفي النهاية يرمي نجيب بأبشع التهم ومعاملته للأحزاب والرجعية، وباستلابه لمغانم الثورة وانتصاراتها ثم عزله.

14- رفض جمال وصحبه الأسلوب الديموقراطي، وأصروا على أن يحكموا هم بأنفسهم وتصدى بعض الضباط لجمال أمثال خالد محيي الدين وثروت عكاشة وعبد المنعم أمين وأبو المكارم عبد الحي وغيرهم..

15- نجيب يقول: «في البداية عاملتهم على أنهم أولادي، ثم أصبحوا أفظع من زبانية جهنم»، وقلت لهم: أفضل أن يلتف حبل المشنقة حول عنقي ولا أصدق على إعدام إبراهيم عبد الهادي.

16- عبد الناصر يعقد اجتماعات مجلس قيادة الثورة برئاسته، بعيدًا وفي خفية عن الرئيس محمد نجيب... إلخ.

الواقع أن اللواء محمد نجيب، الرجل الطيب القلب، الحسن النية، ذا الخبرة والأمانة والأصالة والروية، وجد نفسه وسط عصابة لا ترعوي ولا ترحم، ولهذا فكر في الاستقالة التي رفضت بشدة في البداية، لم يكن نجيب يحب تكوين الخلايا وتجنيد المخابرات، لأنه كان يؤمن أن ذلك الأسلوب سلاح ذو حدين، وقد يؤدي إلى قلاقل ومصادمات في الجيش، والظروف لا تسمح بذلك وخاصة أن قوات الاحتلال تجثم على أرض مصر، واليهود يتربصون، والدولة تعاني من مشاكل لا حصر لها عقب الانقلاب، ومراكز القوى المتصارعة تشغل الساحة، فلم يكن نجيب ليفكر في إضافة عنصر جديد من عناصر الارتباك والقلق والصراع.

وبدأ جمال عبد الناصر يقاوم شعبية «محمد نجيب» بشتى السبل والوسائل، ولم يكن هناك مفر من احتدام الخلاف، واشتداد الصراع حتى أصبح التعاون بين الرجلين ضربًا من المحال.

وفي يوم 23 من فبراير 1954 قدم محمد نجيب استقالته إلى مجلس قيادة الثورة، وكان من رأي الجميع قبولها، بينما عارض في ذلك خالد محيى الدين، وطلب قبول استقالته هو الآخر، ولكن المجلس طلب إليه إرجاء ذلك إلى أن تمر الأزمة.

وفي صباح يوم 25 فبراير صدرت صحف القاهرة، وفي صدر صفحاتها بيان مجلس قيادة الثورة الذي يعلن قبول استقالة محمد نجيب، ويعين جمال عبد الناصر رئيسًا للوزراء، وتضمن البيان هجومًا شديدًا، وافتراءات سافرة كاذبة ضد محمد نجيب، وأذكر أن إحدى الصحف وضعت صورة كبيرة لجمال عبد الناصر، وكتبت عنوانًا بارزًا بخط كبير في الصفحة الأولى يقول: «قائد الثورة يتولى رئاسة الوزراء...».

لقد أعد جمال العدة لهذه الضربة المبكرة، لكن الله يخلف الظنون، نعم لقد رتب كل شيء بمهارة وذكاء، فقد أصدر قرارًا -لم يوافق عليه محمد نجيب- بحل جماعة الإخوان المسلمين، القوة الشعبية الوحيدة القادرة على حماية ظهر محمد نجيب لتأييدها السابق له، وارتياحها لأفكاره، وحرصه على الديمقراطية، كما تخلص من الكثيرين الذين يؤمنون بقيادة نجيب وحكمته، وبعث رسله هنا وهناك ليشوهوا سمعة اللواء نجيب النظيفة، ووقف صلاح سالم يكيل التهم والسباب له، وقائد البوليس الحربي قدم إلى الجامعة، وإلى المدينة الجامعية بالذات، وأخذ يذم ويقدح في عرض محمد نجيب، ونحن الطلبة نتجمهر حوله، ونكذبه ونجرحه، ونرد عليه افتراءاته، فما كان منه إلا أن غضب، وهاج وماج، وهددنا بالضرب والاعتقال، ومعه قوات كثيرة، فانصرفنا عنه إلى غرفاتنا، ونحن أشد ما نكون احتقارًا وازدراءً له..

المهم كان تأثير البيان على عكس ما أراد مجلس الثورة، فقد تفجر الموقف في سلاح الفرسان، وفي وحدات أخرى كثيرة، وفي وحدات الإسكندرية، وفي صفوف الشعب الذي خرجت جموعه الحاشدة يوم 28 من فبراير.

إنني أذكر هذا اليوم جيدًا، فقد صدرت أوامر سرية من قادة الإخوان الذين لم يعتقلوا – وبالذات من المرحوم الشهيد عبد القادر عودة وكيل الإخوان المسلمين- بأن نخرج في مظاهرة سلمية ضخمة من جامعة القاهرة، ثم نمضي في الطريق حتى قصر عابدين نطالب فيها بإعادة قائد الثورة محمد نجيب إلى مكانه، والإفراج عن المعتقلين من الإخوان المسلمين وغيرهم، وتحكيم القرآن، وإعادة الديمقراطية الصحيحة، وعودة الجيش إلى ثكناته..

وكانت الهتافات التي نرددها في هذا اليوم -وكنت واحدًا ممن يرددونها- كالآتي:

الحرية.. الحرية، يا أعداء الإنسانية.

يا أعداء الإسلامية.

يا أعداء الروحانية.

إسلامية.. إسلامية.. لا شرقية ولا غربية.

يسقط حكم البكباشية..

نحن معك يا نجيب..

يسقط جمال عبد الناصر.

يسقط صلاح سالم الكذاب.

وشملت المظاهرة جميع الأحزاب والطوائف، كما كان لإخواننا السودانيين قطاع خاص في المظاهرة، وكان عددهم كبيرًا، وكانوا يرددون نفس هتافاتنا إلا أنهم كانوا يضيفون هتافات أخرى:

السودان يكره المنافقين يا صلاح.

السودان يكره المنافقين يا باقوري «هكذا..».

وانضمت إلى المظاهرة بعض المدارس الثانوية مثل مدرسة السعيدية وغيرها، وكنا ونحن نتجه إلى كوبرى قصل النيل، نرى الناس في الشرفات، وفي المؤسسات الحكومية والبيوت يلوحون لنا سعداء، على وجوههم وفي هتافاتهم التأييد المطلق، بل إن أحدهم في شرفة عالية، كاد يقذف بنفسه فوقنا تحمسًا وتأييدًا.

وما إن وصلنا إلى كوبرى قصر النيل، حتى انهمر علينا الرصاص كالمطر، ورأينا الجنود يخرجون من أسفل الكوبري على الشاطئين، ويسارعون بعمل ما يشبه الكماشة عند مخرج الكوبري ناحية ميدان الإسماعيلية «التحرير حاليًا»، وكنت محمولًا فوق الأكتاف أردد الهتافات، وما إن رأيت وسمعت الرصاص حتى تململت وقلت لإخواني: «أنزلوني بسرعة..»..

وساد الهرج والمرج، واندفعت الجموع هنا وهناك دون نظام، لم نكن نظن أن الأمر سوف يصل لهذا الحد من الصدام الدموي، لم يكن معنا أي شيء ندافع به عن أنفسنا حتى ولا الطوب.. وسقط بعض الشهداء أذكر منهم اسمين هما الطالب «السحرتي» والطالب «عجينة».. وهذه ألقابهم.. كما سقط العديد من الجرحى، وقبض على أعداد أخرى لا أعرف عددهم..

كان الاتفاق أن تمضي المسيرة -كما قلت- إلى ميدان عابدين، وبرغم ما حدث فقد استطاع أغلبنا الوصول إلى هناك، كانت هناك حشود قادمة من كليات الأزهر وعين شمس والمدارس المختلفة والعمال والموظفين.. وكم كانت دهشتنا عندما وجدنا محمد نجيب يقف في شرفة عابدين ومعه آخرون.. كان بعضنا يلوح بالمناديل البيضاء الملطخة بالدماء ويقولون: «الدماء يا نجيب.. الإرهاب يا نجيب.. الحرية يا نجيب» وحدثت في الصفوف ثورة وصخبًا بسبب إطلاق الرصاص على طلبة جامعة القاهرة والمدارس الثانوية.. وكان من الصعب السيطرة على هذا الضجيج الهائل.. ولم يجد محمد نجيب مناصًا من أن يستدعي مُدبر هذه المسيرة التاريخية ألا وهو الأستاذ عبد القادر عودة وكيل الإخوان المسلمين الذي استثني كما قلت من الاعتقال لسبب أو لآخر، وصعد عبد القادر عودة إلى الشرفة، وما إن أشار إلى الجموع الهادرة حتى ساد الصمت التام..

إن جمال عبد الناصر لم ينس هذه الواقعة لعبد القادر عودة، فبعد هذه الواقعة بشهور سيق «عودة» إلى المحاكمات أمام محكمة الشعب برئاسة جمال سالم، ولفقت له التهم الكثيرة، ثم تم إعدامه وهو يردد:

ولست أبالي حين أقتل مسلمًا
على أي جنب كان في الله مصرعي

ثم تمتم بالدعاء قائلًا: «اللّهم اجعل دمي لعنة عليهم...».

أقول هذا الكلام لمن زعموا أن الإخوان وقفوا على الحياد في أزمة محمد نجيب والثورة لأول مرة، فكيف يقف الإخوان على الحياد وهم الذين قادوا التحرك الشعبي الكبير ونفذوه بإصرار ودفعوا الثمن غاليًا؟ ثم هل نسى هؤلاء أن قيادات الإخوان في تلك الفترة كانوا

معتقلين بأمر عبد الناصر، وأن السجون والمعتقلات كانت مكتظة بهم، ولم يفرج عنهم إلا بعد أن عاد محمد نجيب بفترة؟

يقول أحد ضباط الثورة جمال حماد: «وكاد حادث قبول استقالة محمد نجيب يؤدي إلى حرب أهلية في البلاد، فقد صدرت الأوامر من بعض ضباط الصف الثاني بمحاصرة سلاح الفرسان بكوبري «القبة» بوحدات من المدفعية المضادة للدبابات، وحلقت بعض الطائرات من فوقه لإرهاب ضباطه».

واضطر مجلس قيادة الثورة، إلى إصدار بيان قصير قال فيه بالحرف:

«حفاظًا على وحدة الأمة، يعلن مجلس قيادة الثورة عودة الرئيس اللواء محمد نجيب رئيسًا للجمهورية، وقد وافق سيادته على ذلك..».

وفي اجتماع مجلس قيادة الثورة يوم 25 من مارس، الذي استمر خمس ساعات متصلة، أعلن صلاح سالم على الشعب القرارات الشهيرة التي كانت تنص على ما يلي:

1- يُسمح بقيام الأحزاب.

2- مجلس الثورة لا يؤلف حزبًا.

3- لا حرمان من الحقوق السياسية لأي مواطن.

4- تُنتخب الجمعية التأسيسية انتخابًا حرًا مباشرًا بدون تعيين، ويكون لها السيادة والسلطة الكاملة.

5- حل مجلس الثورة في 24 من يوليو المقبل، باعتبار الثورة قد انتهت، وتسلم البلاد لممثلي الأمة.

6- تنتخب الجمعية التأسيسية رئيس الجمهورية بمجرد انعقادها.

وأحدثت هذه القرارات دويًا هائلًا في الحياة السياسية لمصر، وتوقع البعض بزوغ فجر الديموقراطية، وخاصة بعد أن تم الإفراج عن الإخوان المسلمين، وإلغاء قرار حل الجماعة، وذهب جمال عبد الناصر ورفاقه، ومعهم محمد نجيب إلى منزل المرشد العام للإخوان المسلمين بحي الروضة للتصالح، والاعتذار عما بدر منهم من أكاذيب وافتراءات في حق المرشد والجماعة، كما قام الهضيبي بتهدئة الخواطر بين جمال عبد الناصر ورئيس الجمهورية

محمد نجيب، وكنا يومها نحتشد حول منزل الهضيبي بأعداد غفيرة نشهد تلك اللحظات التاريخية.

لكن العالمين ببواطن الأمور كانوا يتحسبون وقوع أحداث خطيرة؛ إذ كان بالإمكان في هذا الوقت الإطاحة بالنزعة الدكتاتورية ورجالها، ولم يكن مرشحًا للقيام بهذه المهمة إلا الجيش والإخوان المسلمون كقوة شعبية غالبة منظمة، لكن الفرصة أفلتت بسبب: طيبة قلب نجيب وسماحته وصدق نواياه.

لانشغال الإخوان بتضميد جراحهم بعد الخروج من المعتقلات، ولم شملهم، ورغبتهم الأكيدة في اتخاذ الأسلوب الديمقراطي السلمي. للوعود البراقة، والقرارات التي أصدرها مجلس الثورة. لتجنيب البلاد الفتن والدماء، للتصالح الذي تم بين الجهات المتصارعة في الجيش. ولتشتت الأحزاب الأخرى وضعفها وتمزقها وخوفها.

نقول كانت المؤامرة تدبر في الخفاء لوأد الديموقراطية، ولكي يتراجع مجلس قيادة الثورة، عن قراراته الخطيرة، وفي يوم 28 من مارس 1954 أضرب عمال اتحاد النقل المشترك الذي يسيطر على مواصلات القاهرة، واعتصم العمال، وتم استدعاء إدارات النقابات الأخرى، لتتخذ قراراتها بالإضراب والاعتصام، وفقا للتنسيق مع هيئة التحرير التي يتزعمها طعيمة والطحاوي، وأخذت دار الإذاعة المصرية، في إذاعة قرارات النقابات حتى من قبل اتخاذها فعلًا، وانتقل الاضطراب من القاهرة إلى خارجها طوعًا أو كرهًا، حتى شلت حركة المواصلات في البلاد تمامًا، وذهب المضربون إلى مجلس الدولة واقتحموه وضربوا الأستاذ الدكتور عبد الرزاق السنهوري، فكانت وصمة عار في جبين الثورة، لاعتدائها على سدنة القانون، وحماة الدستور.

وانتشر رجال الأمن والمخابرات يحطمون كل معارضة، ويقمعون أي فكر بناء، وقبض على عدد من رجال الصحافة والسياسة وساد الرعب والإرهاب وحددت إقامة عدد من الضباط المؤثرين، وإزاء هذا الموقف قرر محمد نجيب أن الأمور بينه وبين أعضاء مجلس الثورة، قد وصلت إلى نقطة اللاعودة، لكن عبد الناصر وزملاءه أصروا على بقائه رئيسًا للجمهورية، ورئيسًا لمجلس الثورة، حتى لا تحدث انتكاسة كانتكاسة أواخر فبراير سنة 1954، وخلت الساحة لمجلس قيادة الثورة بعد هذا الإضراب، فأخذت في الانتقام من كل

القوى السياسية المعارضة كما قلنا، كما أخذت تعد السجون والمعتقلات مرة أخرى استعدادًا للزج بالإخوان المسلمين فيها باعتبارهم القوة الوحيدة المناوئة، التي تهدد سلطانهم، وتقف لتجبرهم وسطوتهم، كما أجريت تنظيمات وتعديلات كثيرة، في صفوف رجال الأمن والجيش، والإعلام استعدادًا لليوم المرتقب.

كنا في الإخوان المسلمين نعرف ذلك، وندرك أننا مقدمون على كارثة، وكانت الأحداث تمضي بسرعة رهيبة، ولعب الطامعون في الداخل، والحاقدون في الخارج أدوارهم الرخيصة في التحريض والاستعداد، ولم يكن أمامنا حل سوى التنبيه إلى ما قد يحدث في اجتماعاتنا وصحفنا ولقاءاتنا مع بعض المنتمين لمجلس الثورة، وكان واضحًا أن عبد الناصر يريد أن ينفرد بالحكم، وأن يتخذ أي وسيلة للوصول إلى هدفه، وأحاط نفسه بنخبة من الخبراء في الدعاية والإعلام، وفي التصدي للمناوئين والمعارضين، حتى قيل إنه استقدم بعض المتخصصين من أوربا وأمريكا وروسيا في هذه المجالات كلها، كي يدربوا كوادره لليوم الموعود.

كان نجيب يميل إلى المهادنة والتفاهم والصبر، وهذا ما أفقده الكثير من قوته كرجل ذي شعبية كبيرة، وكان الهضيبي ملتزمًا بالأسلوب الديموقراطي في حركته، وكانت تحركات الإخوان أبطأ مما يجب، ربما للأسباب التي ذكرناها بعد خروجهم من المعتقلات، وربما استنادًا إلى شعبيتهم الكبيرة، واتفاقهم في الرأي والتحليل مع محمد نجيب. وربما لتأفف جميع الأحزاب من حركات التطهير والتمزيق التي قادها عبد الناصر ضدهم.

كانت الأحداث تجري بسرعة كما قلنا، وحدثت مقدمات لا تخفى على العين الراصدة، لقد بدأت الحكومة في اعتقال بعض العناصر الإخوانية الفعالة، وافتعلت حادث «مسجد شريف» بالروضة، وتم اعتقال خطيب الجمعة في ذلك اليوم زعيم الطلبة الأستاذ حسن دوح وبضعة أنفار معه، كما افتعلت الحكومة أيضًا حادثًا مشابهًا في «مسجد عزيز فهمي» بطنطا، واعتقل فيه أيضًا خطيب الجمعة الأستاذ فتحي عرس، واعتقل عدد من أعضاء الجهاز الخاص الذين لم يستجيبوا لإغراءات أو تهديد الحكومة، مثل سيد الريس، وحدث نفس الشيء في كثير من الشعب والمساجد بأنحاء البلاد، كل ذلك قبل حادث المنشية الشهير بالإسكندرية، وعلم الهضيبي بعد عودته من رحلته إلى سوريا ولبنان أن النية متجهة

لاعتقاله، فاختفى عن الأنظار في مكان غير معروف، واتضح فيما بعد أنه في الإسكندرية، وقد حاول بعض أفراد الجماعة، وخاصة ممن هم على صلة قديمة وطيبة بعبد الناصر، وقف الصدام المرتقب دون جدوى..

ثم كان ذلك الحادث الغامض المشبوه، حادث المنشية، الذي أطلق فيه الرصاص على جمال عبد الناصر ونجا من الإصابة، عندئذ اندلعت أبشع حرب عرفها الناس حتى ذلك التاريخ ضد جماعة الإخوان المسلمين، مما لم يكن له مثيل في بشاعته وفظاعته في تاريخ الأمة الإسلامية والعربية الحديث..

لقد اغتنم جمال عبد الناصر هذا الحادث الذي جرى يوم 26 أكتوبر سنة 1954 لتصفية حركة الإخوان على يد زبانية السجن الحربي، وعلى يد محكمة الشعب التي تشكلت برئاسة جمال سالم، وكانت خاتمة المأساة بالنسبة لمحمد نجيب يوم الأحد 14 من نوفمبر 1954 حين دخل عليه عبد الحكيم عامر، ومعه قائد الجناح حسن إبراهيم، وذلك في مكتب نجيب بقصر عابدين، وطلبا إليه الخروج معهما ليصحباه إلى منزله للاعتكاف فيه أسبوعًا أو أسبوعين، إلى أن ينتهي التحقيق الذي ظهر فيه اسم الرئيس نجيب متورطًا –كما يزعمون– مع الإخوان المسلمين في محاولة اغتيال جمال عبد الناصر، وقال محمد نجيب: «إن ما تقولانه يشير إلى أن لي علاقة بمحاولة اغتيال عبد الناصر، وأنتما تعرفان أنه ليس من طبعي الاغتيال..».

رد عليه عبد الحكيم عامر قائلًا: «ولهذا جئنا نرجوك أن تعتكف في منزلك حتى لا يستغل أولاد الحرام الموقف، ويثيروا فتنة، نحن أعرف الناس ببراءتك منها، ودلالة على مدى احترامنا لك، فقد جئت خصيصًا لتوصيلك إلى منزلك محاطًا بالإجلال والاحترام». وأمام إلحاح عبد الحكيم، وبعد أن أقسم له بشرفه العسكري، خرج الرئيس محمد نجيب من مكتبه، ودخل إلى السيارة المنتظرة، التي سارت به وبمرافقيه، لا إلى منزله بالزيتون ولكن إلى قصر السيدة زينب الوكيل «حرم النحاس باشا» بالمرج، الذي ظل به تحت الإقامة الجبرية، حتى صرحوا له بالخروج تحت الحراسة عام 1960، وبعد أن تولى أنور السادات الحكم، رفعت عنه الحراسة، وعاد ليزاول حياته الخاصة.

وحدث رد فعل عنيف في مصر والسودان على وجه الخصوص.. وحضر وفد من السودان على مستوى عالٍ ليتوسط في موضوع نجيب، فما كان من جمال عبد الناصر إلا أن

قال سنكتفي بعزله وعدم محاكمته، وهو يعلم علم اليقين أن الرجل بريء تمامًا من أية تهمة، وعندئذ تراجعت قضية «وحدة وادي النيل» أي الوحدة بين مصر والسودان، تراجعت إلى الوراء كثيرًا، بل إن حزب الأغلبية الذي ظل سنوات طويلة يدعو إلى اتحاد مصر والسودان، والذي يتزعمه الأزهري رحمه الله، تحول إلى الدعوة إلى استقلال السودان عن مصر، وإنشاء جمهورية منفصلة، وقال الكثيرون من السودانيين: لا يمكن أن نسلم رقابنا لضباط الثورة في مصر كي يذيقونا الأمرين، ومن ثم لا يمكن لأي مؤرخ منصف أن ينكر أن الضربة التي وجهت إلى محمد نجيب الذي يحبه السودانيون حبًا شديدًا، كانت سببًا مباشرًا وأساسيًا في انفصال السودان عن مصر، لقد ظلت مصر طوال العهد الملكي محافظة على تلك الرابطة السودانية المصرية، وكان النحاس يردد «تقطع يدي، ولا يقطع السودان عن مصر»، ولم يكن هناك فرق بين سوداني ومصري في ممارسة الحياة التجارية والتعليمية والثقافية في القاهرة، لكن ذلك ذهب أدراج الرياح.. من أجل أن ينفرد جمال عبد الناصر بالسلطة.. وبعد سنوات ذهب ليبحث عن الوحدة بعيدًا عن السودان..

وفي خضم أيام الرعب والإرهاب وأكاذيب الصحافة والإعلام، انكمش الناس في مصر، وحاول كل فرد أن ينجو بجلده، وأصبحت الحرية حلمًا من الأحلام، وأصبح الأمل ألا يتعرض المواطن لشك أو مؤاخذة تودي به إلى غياهب السجون.. وربما الموت..

وأصبح الشعار السائد «وأنا مالي».. «لنربي أولادنا».. «ولا يهمنا إلا لقمة العيش».. ويستطيع الناظر في صحافة تلك الفترة أن يرى الأعاجيب والأكاذيب التي لا حصر لها، ويقرأ لكتاب كبار.. وصغار.. مقالات لا تصدر إلا عن عبيد.. أو حاقدين.. أو عملاء.. وتشوه كل شيء.. حتى الصفحات النيرة المشرقة في تاريخ مصر تلوثت.. تلوثت سمعة علماء الدين.. قاضي محكمة الشعب يطلب من أحد المتهمين أن يقرأ فاتحة الكتاب «بالمقلوب».. كلمات قذرة بذيئة توجه للمتهمين.. الإخوان عملاء لإسرائيل التي كانوا يحاربونها بالأمس.. الإخوان عملاء للإنجليز الذين كانوا يقاتلونهم في القنال ومعهم بعض الضباط الأحرار.. قيادات الجماعة منغمسة في الإثم والفجور.. وأخذ محمد حسنين هيكل «قلم النكبة والنكسة والديكتاتورية» يدبج المقالات المقنعة الكاذبة.. ويؤلف الأدلة، ويزيف البراهين.. وأخذ يسمي حياة الدكتاتورية والعبودية «بالحكم الشمولي».. ويضع شعارات «الرجعية» و«الثورة المضادة».. و«لا حرية لأعداء الشعب».. حتى نجوم «ساعة لقلبك» بالإذاعة أخذوا يؤلفون

البرامج والنكت المضحكة حتى يضحكوا الشعب على حساب المجاهدين المؤمنين.. وشاعر العامية بيرم التونسي هو الآخر يكتب في مجلة التحرير قصيدة يقول فيها:

كفايــة يــا مــصر لــو يبقــى الهــضيبي

وأعوانـــه عـــلى عـــرش الإمـــارة

وتــسلم مــصر مــن عيلــة الــدخاخني

إلى عيلـــــــة الخـــــــواتكي أو شراره

ويظل ينظم شعرًا يقول فيه عن حال مصر لو حكمت بالشريعة، إذ إن الحدود لن تقام، وسوف يكون «الحشيش ملو السيجارة» -على حد تعبيره، ولن تقطع يد اللص، ولا الزاني يرموه بالحجارة..

بالإضافة إلى آلاف الرسوم الكاريكاتيرية، والمقالات الآثمة التي تتناول أعراض الناس، دون أن يسمح لأحد بالرد.

أقول.. ذهب نجيب إلى منفاه.. وأخذ الهضيبي وإخوانه إلى السجن.. وانكمشت الأحزاب القديمة، فلم يعد أحد يسمع لها صوتًا، وتوارى المخلصون من الضباط، وبعض الضباط الأحرار الذين شاركوا في الثورة، وكانوا ينتمون إلى الإخوان المسلمين، إما سجنوا وإما هجروا مصر، ومن الذين سجنوا. حسين حموده. فؤاد جاسر. جمال ربيع سعيد بلبع نجيب عطية. عز الدين صادق. أحمد رمزي. معروف الحضري «بطل فلسطين» عمر أمين.. إلخ.

ومن ضباط الشرطة، ذوي التاريخ الحافل سجن أيضًا: صلاح شادي. كمال عبد الرازق. جمال إسماعيل. عباس أبو كرم.. إلخ. وممن غادروا مصر: عبد المنعم أمين «المشهور بعبد المنعم عبد الرؤوف» أبو المكارم عبد الحي. وعبد المنعم أمين من الشخصيات ذات التاريخ الحافل، فقد شارك مع أنور السادات في قضية تهريب عزيز المصري باشا، وكان من أوائل الضباط الذين سبقوا عبد الناصر في إقامة تشكيلات بالجيش على أسس عقائدية سليمة، وشارك بجهد كبير في أحداث الثورة بصورة رئيسية، ثم حاول عبد الناصر التخلص منه، فهرب من سجنه، وسافر إلى الأردن حيث عمل نائبًا لرئيس الحرس الوطني هناك، وطارده عبد الناصر، فذهب إلى بيروت، ولم يكف عبد الناصر عن مطاردته، فأخرجوه من بيروت

حيث قصد تركيا، وعاش هناك ثلاثة أعوام يشتغل بائعًا جوالًا، وأبى أن يتحالف مع أية جهة غير مصرية لمحاربة عبد الناصر، ورضي بحياة الفقر والنكد، حتى عاد إلى بيروت مرة أخرى بعد أن سمحوا له بتوسط أهل الخير، وظل بها حتى مات عبد الناصر، وجاء السادات، وعفا عنه، إذ كان قد صدر ضده حكم بالإعدام غيابيًا أيام عبد الناصر، وعاد إلى مصر في أخريات حياته، حتى توفاه الله بعد سنوات قليلة.. والغريب في الأمر أن عبد الناصر وعبد الحكيم عامر قد ظلا على ولائهما لزوجه التي مُنعت من السفر إلى خارج مصر هي وابنتاها.. وكان يصرف لهما معاش شهري، وتم تزويج البنتين بضابطين من القوات المسلحة بإشراف عبد الحكيم عامر وحضوره الزفاف، وذلك تقديرًا للدور الريادي والرئيسي الذي لعبه عبد المنعم أمين في إنجاح الثورة.. وماتت زوجة عبد المنعم قبل العفو عنه، ماتت إثر نوبة من مرض السكر الذي كانت تعاني منه. في بيتها الكائن على ناصية شارع قدري باشا بالسيدة زينب.. ولقد كانت زوجتي زميلة للبنتين في المدرسة، وكانت على اتصال دائم بهما وبأمهما..

وذات يوم أذكره جيدًا.. جاءت زوجتي محتقنة العينين باكية.. وعلمت منها أنها ذهبت لزيارتهن، فوجدت الباب مغلقًا بالقفل.. وسألت الجيران عن السيدة «أم عزة» زوجة عبد المنعم، وعلمت بوفاتها.. فلم تتمالك دموعها.. وكان عبد المنعم رحمه الله قد تزوج في بيروت، وأنجب عددًا آخر من البنات..

بالحديد والنار، خلا الجو لعبد الناصر.. وأصبح حاكم مصر بلا منازع.. وامتلأت ساحات الحكم بالمنافقين والمادحين، وفلاسفة التبرير والتأييد والتأليه.. وفسد الفكر.. وفسد الفن.. وضاعت الحرية.. وكأني به يقول: «أليس لي ملك مصر، وهذه الأنهار تجري من تحتي؟».

إنها العبارة التي وردت على لسان فرعون في القرآن الكريم.. وسرعان ما اختفى اسم محمد نجيب من الصحف والمجلات، وعدلت كتب التاريخ في مدارس الدولة، وتحول المؤرخون إلى الحديث عن «القائد الحقيقي» للثورة جمال عبد الناصر!!، وحذف اسم محمد نجيب من الكتب، بل أكثر من ذلك حذفت أسماء بعض الضباط البارزين الذين شغلوا الصحف والإذاعة لفترة طويلة، يروي الأستاذ حلمي سلام رئيس تحرير جريدة الجمهورية

سابقًا، أن صلاح سالم اتصل به في عام 1958 وقال: «تصور يا حلمي.. لقد حذفوا اسمي من معاهدة الجلاء التي وقعت عليها في عام 1954.. حذفوه وأنا حي.. ولم يمض على توقيعها إلا أربع سنوات، فماذا سيفعلون بي بعد أن أموت؟ لقد جاءت ابنتي من المدرسة وقالت لي: لقد قلت لي يا أبي إنك ممن وقعوا على اتفاقية الجلاء، وها هو كتاب المدرسة وليس فيه اسمك..».

يقول حلمي سلام: «وكان صلاح منفعلًا وثائرًا.. لكني طمأنته، وقلت له إن التاريخ سوف يعيد لك حقك.. وفعلًا بعد شهور صدر كتاب «في أعقاب الثورة المصرية» لمؤلفه المؤرخ عبد الرحمن الرافعي، وكان في تسجيل لمعاهدة الجلاء ومثبت به توقيع صلاح سالم، فبادرت بالاتصال به تليفونيًا، وأخبرته بالأمر، وكانت سعادته عند سماعه النبأ فوق التصور..».

وتناول العبث ثورة 1919 العظيمة، وتاريخ أبطال الثورة وقادتها الأفذاذ، بحجة خلوها من المضمون الاجتماعي، وتجاهلها لحقوق الفلاحين.

وفسدت الحياة الاجتماعية والأسرية بصورة غريبة، وإني لأذكر هذه الواقعة بكل أسف، فقد كان لي صديق من القيادات العمالية في نقابة السكك الحديدية، هو الأخ «على الشربيني»، وكان له ابن متزوج اسمه مصطفى تربطني به هو الآخر علاقة حميمة، وذات يوم اكتشفت أن هناك قطيعة تامة بين الأب «علي» وابنه «مصطفى»، وبطبيعة الحال حاولت القيام بمساعي الصلح بينهما، لكني فشلت مرارًا وتكرارًا، وذلك لأني لم أستطع معرفة سبب القطيعة، وذات يوم ألححت على الأب إلحاحًا شديدًا، كي يشرح لي سبب ما حدث، وبعد محاولات وضغوط قال الأب في غضب وعيناه تدمعان: «هذا الكلب كاد يسلم عنقي لحبل المشنقة...».

صحت في دهشة: «كيف؟».

- «كتب فيّ تقريرًا سريًا للمخابرات يتهمني فيه بعداء النظام، وباستغلال نفوذى، وأنت تعلم أني نقابي، ومكلف بمسئوليات سياسية مهمة.. ولولا أنهم في التحقيق أعطوني الفرصة للدفاع، وللتدليل على كذب الاتهام، واستدعاء الشهود لكنت قد انتهيت.. وكانت حجتي أن ابني فعل ذلك لأنني تزوجت غير أمه.. أنا أعرف أن الحكومة قد أفسدت الشباب

بتكليفهم بكتابة التقارير السرية، وإعطائهم أهمية تفوق الحقيقة.. واستطاعوا أن يسخروهم أبشع تسخير.. حتى ضد آبائهم وأسرهم.. تصور..».

لم أكن أتصور أن الأمر يصل إلى هذا الحد من الانحراف، وكانت الحكمة تقتضي أن أنصرف عن هذا الموضوع كلية، لكنني استطعت بلباقة أن أتناقش مع الابن مصطفى، وأشرح له أصول العلاقة المقدسة بين الآباء والأبناء، وحقوق الأب نحو ابنه، وكيف أن خلافات الرأى السياسية لا يصح أن تدفع الابن لكي يلقي بأبيه في محاكمة أو سجن..

وعلى نفس الصورة فسدت العلاقات في دواوين الحكومة، وبين الأصدقاء والجيران، وتدخلت الأهواء الشخصية في الأمر، وانتشرت الشكاوى الكيدية، فصاحب البيت إذا تضايق من ساكن اتهمه بأنه من الإخوان المسلمين، وأنه يعقد اجتماعات في بيته، والزيجة الفاشلة، تدفع الخطيبة إلى أن تتهم خطيبها بأنه من الجماعة المنحلة، والنكتة السياسية تلقي بقائلها وراء الشمس، وإظهار الغضب أو السخط، على غلاء الأسعار، أو اختفاء سلعة من السلع، أو إبداء الحنق لزحمة المواصلات، أو تأخير المعاملات في المصالح الحكومية، كان ذلك كله كفيلًا بأن يلصق التهم بالناس، مما جعلهم يتدربون على الصمت والكتمان، وإظهار خلاف ما يبطنون: وأذكر أنني كتبت العديد من القصائد حتى الآن وهي أغاني الغرباء، وعصر الشهداء، وكيف ألقاك؟ ومن القصائد التي وردت في هذا المجال قصيدة بديوان أغاني الغرباء جاء فيها:

أبي مـــــا بالنـــــا نمـــــضي
وروح الحـــــق مقهـــــورة
يُقـــــال النـــــاس أحـــــرار
ودنيـــــا النـــــاس مهـــــدورة
وأحلامـــــي وآمـــــالي
بـــــسجن الليـــــل مأســـــورة
أريـــــد الفجـــــر بـــــسامًا
وأعـــــشق يـــــا أبي نـــــوره

قطيـــــع نحـــــن يـــــا أبتـــــي
ولا فـــــرقٌ ســـــوى الـــــصورة
ســـــياط القهـــــر تـــــدفعنا
لـــــوادى العـــــسف والـــــنقم

وفي نفس القصيدة يجيب الأب ابنته حينما تساءلت عن أخيها المسجون فيقول الأب:

أخـــــوك الحـــــر يـــــا لـــــيلى
أراد النـــــاس أحـــــرارًا
ويمقـــــت شـــــيمة العبـــــدان
والإذعـــــان إن ســـــارا
ويكـــــره شـــــيعة الطغيـــــان
أن تبقـــــى لنـــــا جـــــارًا
أقـــــاموا في طرائقنـــــا
وحـــــول الفكـــــر أســـــوارًا
هـــــم الـــــذؤبان يـــــا لـــــيلى
أثـــــاروا البغـــــي والعـــــارا
فأقـــــسم أن ســـــيقهرهم
وكـــــان الـــــبر بالقـــــسم

ولكي أتحايل على نشر تلك القصيدة الطويلة، أعطيتها اسم «سجين الجزائر» حتى لا تعترض الرقابة على أرض الجزائر إبان ثورة البطولة التي انتزعت الاستقلال فيها بعد.

كما استطعت أن أكتب عددًا من القصص والروايات مختبئًا وراء التاريخ، أو في فترات زمنية لا تومئ بالشك نحوى، سواء في الفترة التي كنت فيها داخل السجن أو خارجه، كنت أريد أن أعبر عما يختلج في نفسي، وأعكس رؤى الأحداث الرهيبة التي تسود البلاد، ولم أجد وسيلة سوى ذلك، وكان يكفيني أنَّ الدلالات العامة للعمل الأدبي يمكن أن تنسحب على

أي عصر من العصور إذا توافرت جوانب معينة لا تخفى على القارئ، أما الكتابات الصريحة، فكنت لا أستطيع نشرها، بل أتداولها مع الأصدقاء الموثوق فيهم سرًّا، ومع ذلك فإنه لا يغني حذر عن قدر، فقد وقع ديوان شعرى المخطوط ذات يوم في يد ضابط السجن أثناء التفتيش المفاجئ، وكانت مشكلة، إذ أصر الضابط على استدعاء المباحث العامة، وتقديمي لمحاكمة جديدة من داخل السجن في الوقت الذي كنت أمضي فيه عقوبة عشر سنوات، لكن الله سلم، فقد كان المدير في سجن أسيوط رجلًا طيبًا ألوفًا مهذبًا آنذاك هو صدقي محمود على ما أذكر، فقد أقنع الضابط-«زكى» الذي أمسك بالمخطوط بأن يتسامح وقال له: «يكفي ما هو فيه من نكد وضياع مستقبل.. ألا ترى أن عقوبة السنوات العشر أكثر من اللازم؟».

أحكم عبد الناصر قبضته، وشعرت آنذاك أن السواد يعم كل شيء، وكاد اليأس يتحكم في النفوس تمامًا، ولم نعد نرى أملًا في الخلاص أو التغيير، وما قرأت في تاريخ مصر عن فترات حالكة مثل تلك الفترة، حتى أيام الحملة الفرنسية والاستعمار الإنجليزي وإبراهيم عبد الهادي.. لكني قرأت ذات يوم رسالة من الأستاذ أمين الخولي «شيخ الأمناء» وزوج الدكتورة بنت الشاطئ جاء فيها: «... الفلك دوار، ولم يدق فيه مسمار...».

في مصر يعجب رواد السينما بما نسميه «الشجيع»، وهو بطل المسلسلات السينمائية قبل عصر التليفزيون، وكان بطل المسلسل أو «الشجيع» كما يسميه العامة، يأتي بأعمال تكاد تكون خارقة، ويهزم المهاجمين، وينجو من المآزق الخطيرة، ويوجه اللكمات القاتلة، ويتسلق البنايات، ويثب فوق الأسطح، ويفوز في النهاية بحبيبته، وكان رواد «الترسو» أقل درجات السينما، يحرصون على متابعة تلك المسلسلات السينمائية، وأغلبهم من المتسولين وجامعي أعقاب السجائر واللصوص والعاطلين والتلاميذ الصغار.

كانوا يرون «الشجيع» على الشاشة، ويرون «الفتوات» في الأحياء الشعبية، لكنهم لأول مرة يرون «الشجيع» على مسرح السياسة.. ذلك «الشجيع» الذي يسب رؤساء الدول، ويطرد الوزراء، ويقبض على الكبار ويحاكمهم ويضعهم في السجن، ويسخر من من الملوك والباشاوات والأغنياء، ويطرد السفراء خلال أربع وعشرين ساعة، ويدبر الانقلابات، ويمد أصدقاءه بالسلاح، ويسحق معارضيه دون رحمة.

وكانت جماهير «الشجيع» لا تتعمق قضية، ولا تعرف أبعاد حدث من الأحداث، وهكذا بدأت شعبية عبد الناصر في الشارع، بعد أن أحاط نفسه بقوة غنيفة من رجال الأمن والمخابرات، وكان عبد الناصر شكلًا فارع الطول، قوي الصوت، يجيد الخطابة العامية والفصحى، دائم التوتر، دائم الصخب، قلما يضحك في الاجتماعات العامة.

أصبحت القوة التي يمثلها، والرعب الذي يبثه أعوانه، والإعلام الواسع الذي يتغنى باسمه، أصبحت هذه كلها -ولو إلى حين- قادرة على أن تصنع له مجدًا ومكانة، لا يمكن أن يتحققا إلا في دول العالم النامي.. لقد كان خديعة كبرى رغم كل شيء.. ترى ماذا كان يحدث لو بقي نجيب، وسادت الديموقراطية كما حدث في اليابان والهند وإسرائيل.. أكان يمكن أن يتحول المسار؟ الله أعلم..

****

[5]
الحل الأول أوائل عام 1954

حينما قامت الثورة أشيع أن الإخوان هم الشريك الأول فيها، حتى إن الملك فاروق عندما ذهب إلى منفاه في إيطاليا بعد أن طرد يوم 26 يوليو سنة 1952، وتنازل لولي عهده الأمير أحمد فؤاد عن الملك، كتب مذكراته بعد شهور، وذكر فيها أن الثورة قام بها الإخوان المسلمون، وبتمويل من الشيوعيين «هكذا!!!»، وكان استنتاج فاروق الساذج مدعاة للسخرية، وعلقت عليه الصحف آنذاك، ورد سكرتير عام الإخوان المسلمين عبد الحكيم عابدين رحمه الله على مزاعمه، وكذلك بعض المنتمين إلى مجلس الثورة، ومما لاشك فيه أن الإخوان أيدوا الثورة منذ انطلاقها، وكان فيها عدد من الضباط الإخوان كما ذكرنا، منضمين إلى تنظيم الضباط الأحرار، صحيح أن الثورة لاقت تأييدًا شعبيًا كبيرًا منذ قيامها، لكن تنظيم الإخوان وكوادرهم المنتشرة في كل مكان من أنحاء البلاد، وفي المؤسسات المختلفة بما فيها الشرطة والجيش، قد جعل لتأييدهم ثقلًا من نوع معين، ثقلًا فعالًا، يختلف تمام الاختلاف عن التأييد الشعبي غير المنظم، والذي لا يملك قوة تأثير منظمة، تستطيع أن تتدخل في الوقت المناسب، كما كان اللواء محمد نجيب الرجل المحبوب المتزن على رأس الثورة في ذلك الوقت، وهو ذو تاريخ ناصع.

وكانت الثورة في بدايتها في حاجة ماسة إلى هذا الدعم الإخواني المنظم، وهذا ما جعلهم يطلبون من المرشد العام ترشيح ثلاثة وزراء في وزارة الثورة ممثلين للإخوان المسلمين، ولم يتم هذا المشروع، لأن الإخوان رفضوا أن يشاركوا ويتحملوا العبء والمسئولية الرسمية دون شروط مسبقة واضحة محددة، وهذا ما جعل جمال عبد الناصر يصرح فيما بعد، بعد أن اتخذ العدة، ونوى الغدر «إن الثورة لا تقبل وصاية عليها من أحد» وكان يقصد بذلك «الأحد» الإخوان المسلمين، وكان يقصد بكلمة «وصاية» الشروط التي قدمها الإخوان فيما يتعلق بالحريات العامة والدستور، وتحمل العسكر لمسئولية الحكم..

وبإيجاز شديد، فإن العلاقة بدأت تسوء بين الطرفين، وبدأ العد التنازلي كما يقولون، وجدت أمور، وجرت أحداث لا يتسع المجال للإفاضة فيها، وفي يوم من الأيام في أوائل عام 1954 عقد مؤتمر بجامعة القاهرة، ومن الطريف أننا وجدنا في هذا الاجتماع شابًا ملتحيًا يلبس شالًا أخضر وعمامة، وينطق العربية بصعوبة.. كان ذلك الشاب هو «نواب صفوي» الإيراني الجنسية، وزعيم منظمة «فدائيان إسلام» الإيرانية الشهيرة، وكان هذا الرجل على عداء سافر ومعروف بشاه إيراه محمد رضا بهلوي آخر أباطرة تلك الأسرة، التي قضت عليها الثورة الإيرانية بقيادة الخوميني.. كان «نواب صفوى» متوسط الطول، متوقد الحماس، وأخذ يهتف معنا بقوة وحرارة «الله أكبر ولله الحمد»، وقد لعب نواب صفوى دورًا بارزًا في ثورة «آية الله الكاشاني»، وفي الحركة التي قادها «مصدق» رئيس وزراء إيران لتأميم البترول، والخروج على إرادة الغرب، وقد اتهم «نواب صفوى» في محاولة اغتيال الشاه التي جرح فيها، وفي الترتيب لقتل «رازمارا» وفي عدد آخر من القضايا السياسية التي شغلت إيران والعالم آنذاك. وكان «نواب» قد استقبل في مصر استقبالًا حافلًا، وحضر بعض الاحتفالات الشعبية الكبيرة التي خطب فيها عبد الناصر.. لكن الأمر تغير بعد هذا اليوم.. يوم المؤتمر.. فبينما كان المؤتمر منعقدًا، إذ بسيارة «جيب» تقتحم الجموع في ساحة جامعة القاهرة، وفيها عدد من الشباب الذين جمعتهم الثورة في منظمة الشباب، ومن شباب «المؤتمر الإسلامي» الذي أنشأه عبد الناصر حديثًا برئاسة أنور السادات، وكان يتزعم هذه المجموعة من الشباب شاب أذكر أن اسمه «يعقوب»، ومن الغريب أن هذه المجموعة كانت مسلحة بالمسدسات والعصي والكرابيج، وانهالوا على الموجودين ضربًا.. كنت أقف على مقربة من المنصة، نحرسها في دائرة ونحن متشابكو الأيدي.. وقفنا مذهولين بعض الوقت، لكن سرعان ما اندثر أثر المفاجأة، وهجمنا عليهم وجردناهم من السلاح والعصي والكرابيج وأمسكنا بهم، ولم يكن الأمر سهلًا، فقد أصيب البعض منا بجروح، وكان أحد الإخوان يقف وأثر السوط على وجهه الدامي، ولست أدرى ماذا حدث؟ فقد انقلبت سيارة الجيب، واشتعلت فيها النيران، وتم تسليم المعتدين للشرطة.. كنا حتى ذلك الوقت حسني النية، لكننا وجدنا الشرطة تتدخل لصالح المعتدين، ووجدنا عددًا كبيرًا من رجال الأمن والمخابرات، واختلط الحابل بالنابل، وسمعت أحد الإخوان يهتف «يسقط الطحاوي المجرم» وكان الطحاوي هو ضابط من الضباط الأحرار، ويتزعم هذه المنظمة «منظمة الشباب» الجديدة.. ورأيت «نواب

صفوى» هو الآخر يهتف بلهجته العربية المميزة «يسقط الطحاوي المجرم» وكانت «الحاء» مقلوبة إلى «هاء» في هتافاته..

وانفض المؤتمر في جو عاصف، وبدأت حملة اعتقالات سريعة في نفس اليوم لأعداد هائلة من قيادات الإخوان في المركز العام ومن الشباب الجامعي أيضًا، وكم كانت دهشتنا عندما خرجت الصحف في اليوم التالي تندد بالإخوان المسلمين، وبأنهم لم يطيقوا أن يسمعوا صوتًا آخر للثورة في الجامعة «يقصد منظمة الشباب». وبأن الإخوان اعتدوا بالضرب على شباب الثورة، وأشارت الصحف إلى أن الهضيبي اتصل بالإنجليز من خلف ظهر الثورة، ودللوا على ذلك بمحادثات «الهضيبي - إيفانز» التي سبق وتحدثنا عنها، وقلنا أنها كانت بالاتفاق مع مجلس الثورة، وأن محضر الجلسات قدم إليه، وأثنوا يومها على الهضيبي، وكانت الصحف تنشر أخبار تلك المحادثات أولًا بأول، ولم يكن الهضيبي يطيل في أحاديثه للصحف آنذاك، كان يعلق بجملة صغيرة، المهم أن حكومة الثورة استغلت ذلك كله، واتهمت الإخوان في وطنيتهم وشرفهم؛ ولفقت لهم التهم جزافًا وهكذا صدرت صحف ذلك اليوم تحمل قرار حل الإخوان المسلمين الأول في عهد الثورة.. وامتلأت الصفحات الأولى بصورة قيادات الإخوان المقبوض عليهم، وامتلأت المعتقلات بالآلاف، وهرب من هرب، وتوتر الموقف، واندلعت المظاهرات، مما أدى إلى مزيد من الاعتقالات، وأفرج عن قتلة حسن البنا، وعن الذين عذبوا وقتلوا الإخوان قبل ذلك، نكاية فيهم، ووقفت الأحزاب الأخرى تتفرج شامتة، وكانت غالبية الشعب تتوقع الهزيمة للحكومة، والإفراج عن الإخوان، وكان نفس الاعتقاد يساورني، وخاصة بعد أن عزل نجيب في المرة الأولى في بدايات سنة 1954، ثم تحرك الجيش، وخرجت الجماهير في مظاهرات صاخبة، تندد بجمال عبد الناصر والمجلس، وفاضت أنهار الصحف بالاتهامات البذيئة ضد الإخوان، وزعموا أن الحكومة ضبطت كميات كبيرة من السلاح، لكن الهضيبي كتب رسالة تاريخية أرجو الرجوع إليها، في جريدة «المصري» آنذاك، لأن الرسالة هربت من المعتقل إلى جريدة المصري وحدها، ونشرتها كاملة، وهي من الهضيبي إلى جمال عبد الناصر، وفيها رد حاسم مفحم على ادعاء جمال عبد الناصر واتهاماته، ثم ختم الهضيبي رسالته بأية قرآنية جاء فيها ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ

وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴿٦١﴾ [آل عمران:61]، وكان لهذه الرسالة عند نشرها وقع المفاجأة الصاعقة على المفترين، إذ تناقلها الناس، واستبد بها الحنق والضيق، ورأوا أن الثورة قد اختطت طريق الغدر والكذب والتلفيق..

وكاد تطور الأحداث المتلاحقة يسبب انهيارًا كاملًا، لولا براعة جمال عبد الناصر في المناورة إذ أعاد نجيب إلى منصبه، وألغى قرار حل الإخوان، وأفرج عن الغالبية العظمى منهم، وعلى رأسهم المرشد العام الأستاذ حسن الهضيبي، ومجلس الإرشاد ومعظم أعضاء الجمعية التأسيسية، وأبقى في المعتقل على عدد من أفراد النظام الخاص، ولم يكتف عبد الناصر بذلك، وإنما ذهب بنفسه إلى الهضيبي في بيته بالروضة -كما سبق وقلت- للمصالحة..

وكانت هناك قضية تسمى قضية «الجبهة الوطنية» قبل ذلك بقليل أو أثناء ذلك، وقد اتهم إحسان عبد القدوس، وجعلوه المتهم الأول، ووضع في السجن الحربي لأكثر من شهرين، بسبب نقده اللاذع في مجلته الشهرية «روز اليوسف» لسلوكيات بعض أعضاء مجلس الثورة، وتصرفاتهم اللاديموقراطية، وقال عن المجلس تحت عنوان كبير «الجمعية السرية التي تحكم مصر»، وكان ذلك بعد يومين من إعلان الثورة حرية الصحافة التي لم تستمر إلا ثماني وأربعين ساعة، فاستغل إحسان الفرصة، وأصدر عددًا من مجلته تكلم فيه بحدة وصراحة.

وفي نفس الوقت قبض على عدد من الطلبة اشتركوا في مظاهرة كبيرة في جامعة «عين شمس» تندد بإهدار الحريات، وعندما قبض عليهم، ومن قلب المظاهرة وجدوا أنهم ينتمون إلى أحزاب مختلفة، فمنهم الإخواني ومنهم الوفدى ومنهم المستقل.. لأن الاعتقال كان عشوائيًا، والمظاهرة شاملة لكافة التيارات، وتقارير «عيونهم» لم تكن دقيقة.. المهم أنهم في «المباحث العامة» أطلقوا عليهم اسم «الجبهة» وحاولوا بشتى الطرق أن يجدوا صلة بين ما كتبه إحسان عبد القدوس وبين هذه المظاهرة، ففشلوا.. فكانت النتيجة أن أفرجوا عن إحسان.. وأمسكوا بهؤلاء الطلبة، وقدموهم لمحكمة عسكرية برئاسة الدجوي كما أتذكر.. وكان من هؤلاء الطلبة المرحوم محمود عجوة الطالب بكلية الهندسة، وهو أصلًا من الإخوان، والطالب «... برهام» والطالب «... القاضي» وغيرهم، وكنت قد التقيت بهم بعد ذلك في السجن.

وكان السبب في ضم المرحوم المهندس محمود عجوة إلى هذه المجموعة، أنه كان ممنوعًا من دخول كلية الهندسة أثناء الدراسة، وكان محمود جسورًا لا يعبأ بشيء، فأصر على الدخول، وعندما منعه الضابط، حمل الضابط على كتفه وجرى به داخل الكلية، وجاء شرطي لينقذ الضابط، فأمسك محمود بإبهام ذلك الشرطي وضغط عليه فسبب له خلعًا بسيطًا.. ولم يصب الضابط بسوء، وما إن عاد محمود إلى بيته حتى قبض عليه، ووجدوها فرصة لضمه إلى قضية الجبهة، بل وجعلوه المتهم الأول بدلًا من إحسان عبد القدوس، وسارت القضية في مسارها المعروف، ولكنهم لم يجدوا أدلة على تكوين جبهة ولا مؤامرة ولا شيء.. فماذا يفعلون؟ اختاروا شخصية ضعيفة من المتهمين، ووعدوه بالإفراج عنه وجعله «شاهد ملك»، إذا نفذ ما يطلب منه فوافق، وكانت النتيجة أن ذلك المتهم أدلى باعترافات لا أساس لها، وقرر أن هناك جبهة، وأنهم كانوا ينوون كذا.. وكذا.. وبعد أن خرج ذلك المتهم أفشى السر، فاستغل أقارب المتهمين ذلك، ورتبوا تسجيل اعترافاته.. ثم سُلِّم الاعتراف للمحامي، فعرضه على رئيس المحكمة.. فأمر برفع الجلسة.. وفي الجلسة التالية قال رئيس المحكمة: «شريط التسجيل فقد..».

فقال المحامي: «عندي نسخة أخرى.. وأريد أن نسمعها الآن في جلسة سرية حتى لا تضيع هي الأخرى.. وأرجو إثبات ذلك في محضر الجلسة...».

قال القاضي المحترم: «ليس لدينا جهاز لتشغيل التسجيل...».

- «رد المحامي معي جهاز التسجيل..».

وهكذا ظلت المناورة حتى أعلن القاضي رفضه لذلك، وحكم على المتهم محمود عجوة بالسجن خمس سنوات قضاها كاملة، وهناك من حكم عليه ثلاث سنوات أو سنة واحدة، قضوها في سجن مصر «قرة ميدان».

أردت أن أروى تلك القصة البسيطة لكي أوضح كيف كانت تعد الاتهامات، وتلفق القضايا، ويزج بأصحاب الرأي المعارض في السجون، وذلك سوف يتضح بصورة أكبر وأبشع في «الحل الثاني» للإخوان في عهد الثورة..

إذن تم «الصلح» الظاهري بين الإخوان والثورة، وعادت صحف الإخوان للصدور من جديد، وانعقدت مؤتمراتهم الدورية، واجتماعاتهم وأنشطتهم المعروفة، لكن الصورة كانت

متغيرة تمامًا، كان الإخوان يتوقعون ضربة ثانية، وتأكد ذلك من أخبار المتصلين بهم ممن هم على دراية بمجريات الأمور في الحكومة، وتحير الإخوان كثيرًا في الطريقة التي يواجهون بها الكارثة، هل يقابلون العنف بالعنف، والإرهاب بالإرهاب، أم يخلدون إلى الأسلوب الديموقراطي مهما كانت التضحيات؟ كان الهضيبي يميل للرأي الثاني ومعه أعضاء مكتب الإرشاد ومعظم أعضاء الهيئة التأسيسية، لكن جماهير الشباب كانوا يرون المواجهة الفورية مخافة فوات الفرصة، وكانوا لا يرون أن الثورة ستسير في طريق الديموقراطية. وأن رجالها يأبون إلا الانفراد بالحكم، وأن التراخي يعني مزيدًا من التمكن لهم، وقهر المعارضين، وخاصة بعد أن انتهت الأحزاب الأخرى بصورة فعلية.. لكن حسني النية كانوا يستبعدون أن تشتط الحكومة في غلوائها وعدائها، وتوقع البلاد في مستنقع الانتقام والتنكيل والإرهاب.. فلا يمكن أن يفعل ذلك إنسان عاقل محب لوطنه..

ويبدو أن الحكومة قد تضايقت من تصرف الضيف «نواب صفوى»، فتركت العنان للصحف كي تهاجمه، ثم اختفت أخباره فجأة، وسمعنا أنه طرد من مصر، وسمعنا أيضًا أن الحكومة قد سلمته لشاه إيران.. ولم تكد تمر بضعة شهور حتى سمعنا نبأ محاكمته في إيران وإصدار حكم بالإعدام ضده.. ويومها كتب الصحفي المعروف «ناصر النشاشيبي» في جريدة مصرية أظنها «الأخبار» مقالة في إحدى يومياته يقول فيها: «عاش رخيصًا، ومات رخيصًا..».

تألمت لهذه الكلمات.. لو كان «نواب صفوى» رخيصًا، لما وضع روحه على كفه، ولما واجه الاستعمار وأذنابه في أوج قوتها، ولما قضى زهرة شبابه يواجه الموت هنا وهناك، كان في إمكانه أن يعيش معززًا مكرمًا، ويتسنم أعلى المناصب لو سار في ركب النفاق الرخيص.. لقد شعرت أن ناصر النشاشيبي يمسك بقلم رخيص، يكيل فيه السباب للأبطال والمجاهدين الذين لعبوا أعظم الأدوار على تراب وطنه، ووطننا فلسطين.

في هذه الأيام أدركت أن السياسة بمفهومها المعاصر لا دين لها ولا ضمير.. أدركت أن كتاب «الأمير» للمجحوم «ميكافيلي» قد قنن الغدر والكذب والخداع وأطلق عليها مصطلح «سياسة»..

كانت السياسة بمفهومها ذاك، تختلف تمام الاختلاف عن السياسة التي جعلها الرسول ﷺ نسيجًا في بنية الإسلام الشامل لكل نواحي الحياة..

وهذه هي القضية الرئيسية..

القضية بين قوم يؤمنون بأن الغاية تبرر الوسيلة كما يقول ميكافيلي وبين قوم نظفاء يؤمنون أن نبل الوسيلة من نبل الغاية.. وأنهما معًا يشكلان كائنًا عضويًا لا انفصام فيه ولا تناقض.

ويمكن أن نترجم ذلك إلى واقع فنقول إن عبد الناصر كان سياسيًا بالمفهوم العصري الميكافيلي.. وكان الهضيبي رحمه الله لا يمكن إلا أن يكون سياسيًا بالمفهوم الإسلامي الصريح الواضح..

من هنا عاب بعض المفكرين المعاصرين على الإخوان «سذاجتهم» وتباطؤهم حتى انقضت عليهم جحافل الغدر والخيانة دون رحمة..

وقال آخرون.. لماذا ندخل الدين في السياسة؟ وما السياسة؟ أليست حكم الناس بالعدل، وتحديد حقوقهم وواجباتهم، وتوصيف العلاقات الاجتماعية والاقتصادية، ومعرفة وضع الفرد بالنسبة للمجتمع، وتحقيق التنمية والرخاء والحرية للجميع دون تفرقة من لون أو طبقة أو عقيدة؟ أليست السياسة إذن دساتير وقوانين؟ وماذا يكون الإسلام إذا فُرغ من هذا المحتوى؟

وفئة ثالثة قالت إن الهضيبي دون مستوى حسن البنا بكثير.. ونسوا أن حسن البنا مرحلة والهضيبي مرحلة.. وإن لكل مرحلة ظروفها وملابساتها ورجالها..

إنني هنا لست في موقف الدفاع عن هذا أو ذاك، أو في موقف البحث عن مبررات لما حدث من انتكاسات وكوارث، ولكني في موقف العرض والتحليل من وجهة نظر الذي عايش الأحداث واكتوى بنارها، إن الحدث التاريخي أمر مضى ولا يمكن تغييره أو علاجه، لكن يمكن تقييمه، كي يستفاد منه مستقبلًا، لكن يا ويل المؤرخين الذين ينظرون إلى الحدث التاريخي مستعينين بوعيهم المعاصر، وما توفر لهم اليوم من إمكانات وأدوات.. إن مثلهم كمثل الذي يعقب على جيوش الخلافة العثمانية ويقول: لماذا لم يستعمل الخليفة السلاح النووي أو طائرات الأواكس ضد أوروبا الحاقدة، التي احتشدت لترث تركة «الرجل المريض»..

إن الذين شاركوا في صنع الأحداث التاريخية كثيرًا ما كانوا يقفون على أعتاب المجهول، ومن الصعب عليهم أن يلموا بكل العوامل التي تحرك الأحداث، أو يعرفوا كنه المستقبل، هم بشر يخطئون ويصيبون، تحكمهم مسئوليات وتقديرات ومبادئ، لا نستطيع إزاءها الحكم عليهم بالخطأ أو الضلال، والمنتصرون دائمًا يجدون ألف مادح، والمنهزمون يجدون ألف قادح، ولدى المنتصرين إمكانات هائلة، تجعلهم قادرين على تغطية أخطائهم، واختلاق أسرار عبقريتهم وعظمتهم.. ومن ثم يصنعون أصنام التاريخ حسب أمزجتهم وأهوائهم.. لكن إلى حين..

لقد ذهبت عروش.. وعهود.. وفلسفات.. وحكام.. وإلا فأين «فلسفة الثورة»؟ وأين «الميثاق»؟ وأين «بيان 30 مارس» من برنامج الحكم في مصر الآن؟ «الكتاب الأحمر» لماو تسي تونج في الصين، الذي كان يقرأه الطلبة في المدارس، والعمال في المصانع.. وسائقوا الحافلات العامة.. وفرق كرة القدم والسلة والطاولة؟ وأين مقتطفات ستالين وخروشوف وأتاتورك وهتلر وموسوليني؟ أشياء كثيرة تأتي في موجات مجنونة وتمضي.. وفلسفات تسيطر وتهيمن وتريق الدماء.. وتذهب.. لكن الشيء الذي يبقى ولا يزول هو «كتاب الله».. نعم.. ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ [الحجر:٩].

من يصدق أن المؤسسات الشرعية في مصر الآن اعترضت على تكوين «حزب الناصريين»؟ من يصدق أن قضاتها قد أصدروا أحكامًا بإدانة «عبد الناصر وحكمه»؟

وهل هذه الأحكام القضائية النزيهة الحرة أقل قيمة من كتب التاريخ التي ألفتها لجان رسمية بتكليف من الحكومة، في وقت من الأوقات؟

لقد مرت بي أوقات ظننت فيها أن كل شيء قد انتهى.. لقد سيطر الظلم، واندثر العدل، وتغيرت القيم والأخلاق، واستبد بالناس اليأس، ثم استسلموا.. استسلموا للمصير التعس.. وأصبح همهم الأكبر، أن يعيشوا.. وأن يجدوا لقمة العيش..

لكني كنت أعود لنفسي وأقول: «مستحيل.. مستحيل أن يستمر الوضع هكذا».

والعمر مهما طال قصير.. واللهفة في قلوب الشباب عارمة..

ونحن نريد للآمال أن تتحقق الآن.. وليس غدًا..

هكـــــذا خلقنـــــا الله ﴿ خُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ مِنْ عَجَلٍ سَأُوْرِيكُمْ ءَايَٰتِى فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٣٧﴾ ﴾ [الأنبياء:37].

نعم.. إن الإنسان كان -وما زال- عجولًا..

بعد أن تم الإفراج عن معظم الإخوان المسلمين، عقب إلغاء قرار الحل الأول، رأى البعض أن يهاجروا خارج مصر، وفعلوا، ورأى آخرون أن يتركوا العمل السياسي أو الديني كلية، يعتزلوا.. وفعلوا.. وانشقت قلة قليلة احتجاجًا على سياسة الجماعة التي تركت الحكومة تعبث بمصيرها.. وفعلوا.. وظلت الغالبية العظمى مصرة على السير في طريق الإسلام رغم المخاطر التي تعترض الطريق، وبرغم النذر السوداء التي تتبدى في الأفق..

****

[6] زيارة وداع إلى القدس

في بدايات صيف 1954 أعلنت كلية الطب عن رحلة لفريق الجوالة إلى عدد من الدول العربية هي لبنان وسوريا والأردن وفلسطين «الضفة الغربية التي لم تكن قد احتلت بعد». وكانت لهفتي على الاشتراك في هذه الرحلة عارمة، حيث لم يسبق لي عبور الحدود المصرية إلى أي بلد آخر، فكيف لا أخرج وأنا سأجد نفسي فجأة في بيروت ودمشق وعمان والقدس وغيرهما من المدن العربية العريقة؟ كانت وسائل المعرفة والاتصال بالدول العربية في تلك الفترة صعبة ومحدودة، ولا تتاح فرصة السفر إلا لبعض الأثرياء ورجال الأعمال والدبلوماسيين وغيرهم، ممن تمكنهم ظروف أعمالهم واستعداداتهم المادية، للقيام بمثل تلك الرحلات، وكانت معلوماتي عن الدول العربية لا تخرج عن كتب الجغرافيا الموجزة في المرحلة الثانوية، وأخبار الصحف والمجلات، وبعض البرامج الإذاعية، ومؤلفات بعض الأدباء من شعراء وقصاصين وكتاب في مختلف الفنون.

وكنا نعرف الكثير عن قصائد شوقي في المناسبات التاريخية والقومية التي تخص البلدان العربية، ونعرف عددًا من زعماء التحرر الوطني، والمعارك الشهيرة بين العرب والاستعمار، ومع ذلك فقد كانت روح الإخاء العربي –على الصعيد الشعبي– قوية للغاية، لم تكن ألاعيب السياسة وصراع التكتلات والمذاهب والتيارات قد أفسدت الإخاء العربي، وكان الوئام سائدًا بين مختلف الطوائف الدينية، والعقائد المختلفة، لم يكن الإخاء العربي مجال مناورات ومساومات وصراعات فردية للحكام.

عرضت الأمر على أبي، وكنت في نهاية السنة الثانية لكلية الطب، وكنت أشك في موافقته بسبب الصعوبات المالية التي يعاني بها، وكم كانت سعادتي عندما قال: «سأدبر لك المبلغ الذي يكفي.. وآمل أن تنجح في هذه السنة الصعبة...».

كان الامتحان يشمل مقررات عامين «الأولى والثانية»، ومعروف أن علوم التشريح والفسيولوجيا وهي ضمن المقررات تحتاج إلى جهد جهيد، يضاف إلى ذلك المعاناة السياسية

التي حفل بها ذلك العام المتميز بتحولاته وأحداثه، ووفقني الله ونجحت في الامتحان، فلم يبخل الوالد عليّ بالاشتراك المطلوب للرحلة، ولا بالمصروفات الإضافية الأخرى.

كنا في النصف الثاني من شهر يوليو سنة 1954، ولبسنا الملابس الخاصة بالجوالة، وهي بسيطة للغاية، وحملنا بعض الملابس الداخلية والغيارات، ورحلنا بالحافلة إلى الإسكندرية، ثم صعدنا إلى إحدى البواخر اليونانية المتجهة إلى ميناء «ليماسول» في قبرص، وكانت أماكننا على ظهر الباخرة، والبحر من حولنا، والسماء من فوقنا وكنت سعيدًا بهذا الجو الخلاب، ويبدو كل شيء أمامي وكأنه حلم جميل، كنت مبهورًا بما أرى وأسمع.. فالمسافرون من شتى الجنسيات.. والفتيان والفتيات يغنون ويرقصون ويمرحون، والموسيقى تعزف، وأنا أرقب ذلك متحفظًا في دهشة ودقة، فإذا جاء وقت الصلاة اعتلى أحد أفراد الفريق مكانًا عاليًا بارزًا وأذن للصلاة، ثم نتراص في صفوف لنصلي، والمسافرون ينظرون إلينا في استغراب، ويبدو أن هذا المشهد لم يتيسر لهم من قبل.. وكان واضحًا أننا نحاول قدر الإمكان التقليل من النفقات، ولهذا كانت إقامتنا على ظهر السفينة، وكان طعامنا معنا، حتى لا نتورط في شراء غذاء بأثمان غالية.. ومع ذلك فكل شيء كان يمضي رائعًا جذابًا مثيرًا.. وأخذنا نختلط بالمسافرين ونتحدث معهم بالإنجليزية أحيانًا، وبقليل من الفرنسية أحيانًا أخرى، ونحفظ بعض الكلمات اليونانية، وفي المساء أقيم حفل راقص على ظهر السفينة، وجاء زعيم الجوالة ونبه علينا بعدم الاشتراك فيه، لأن فيه خروجًا على القيم الدينية التي نؤمن بها، واستجبنا بنفس راضية ماعدا ثلاثة معنا. لم يكونوا من نوعيتنا، هؤلاء رقصوا وغنوا حتى الفجر..

وبدت لنا من بعيد شواطئ قبرص، كانت تتجلى في غبش الفجر غامضة جميلة منعشة، ورقصت قلوبنا من البحر.. هذه أول بقعة غير مصرية تقع عليها أعيننا، ونزلنا إلى شاطئ مدينة «ليماسول» في التاسعة صباحًا.. وسمح لنا بجولة في أنحائها، وللاسف فقد كان اليوم يوم أحد، والمحلات التجارية مغلقة، ومع ذلك سرنا في شوارع المدينة التي لا يسير في شوارعها إلا أعداد قليلة جدًا من الناس، وبينما كنا نسير معًا ونتحدث بالعربية، فوجئنا بصوت ينبعث من باب مفتوح ويتكلم بلهجة عربية صحيحة:

«تفضلوا يا أهلًا بضيوفنا من مصر..».

كنا خمسة من الزملاء، ووقفنا مسمرين ننظر إلى داخل البيت، وسرعان ما خرجت امرأة قبرصية «يونانية» ومعها رجل هو زوجها كما علمنا فيها بعد، وتبعهم بعض الأولاد، وصافحونا بحرارة.. وتحدثوا معنا في مودة بالغة، وعلمنا من المرأة أنها عاشت وزوجها في الإسكندرية حوالي عشرين عامًا، وأنه كان لديهم مطعم في أحد الأحياء، وأنهم سعدوا أيما سعادة أثناء تلك الفترة، ولم يشعروا قط أنهم غرباء في يوم من الأيام، وجلسنا في الصالة نحتسي الشاى ونتحدث، لفترة ليست بطويلة، وأرشدونا إلى بعض الأماكن السياحية والحدائق، وأماكن تغيير العملة، حيث إن الجنيه المصري حتى ذلك الوقت كان لا يزال قويًا، ويعامل معاملة العملة الصعبة، وودعناهم شاكرين، ثم اشترينا بعض البطاقات المصورة وأسقطناها في صندوق البريد في الطريق إلى الأهل والأصدقاء في مصر، ثم زرنا قلعة رومانية قديمة، وهي -كما قال مرشدنا السياحي- كانت سجنًا يدفع فيه بالمجرمين والمعارضين السياسيين من فتحة في مكان عالٍ، حيث يهوى السجين في مكان سحيق، فتدق عنقه، أو تتحطم عظامه، وإذا كتب الله له النجاة، فيظل في هذا الجب يأكل أقل الطعام والشراب، حتى تنتهي حياته، أو يسوق الله إليه من يخرجه من هذا العذاب.. كان الإنجليز يعسكرون في مناطق مختلفة من قبرص، قلت لشاب قبرصي: «ولماذا لا تثورون عليهم وتطردونهم من بلادكم»!!

قال في يأس: «إنهم يمتلكون الدبابات والطائرات.. ونحن كما ترى....».

لم تكن لدينا فكرة -أية فكرة عن وضع قبرص في تلك الفترة، اللهم إلا ما يسمى «بمنظمة أيوكا» التي يقودها ضابط يوناني متعصب ليونانيته ودينه ولعل اسمه «جريفاس» وكان يمارس العمل السري وهو وجماعته ضد المسلمين الأتراك الذي يمتلكون حيزًا كبيرًا من الجزيرة، ويريدون الانفصال في جمهورية مستقلة أو ينضمون إلى تركيا، إذن القسم اليوناني يريد حكم الجزيرة كلها أو الانتساب لليونان، والقسم التركي يريد أن يستقل أو يلحق بتركيا، وكل جزء يتلقى المساعدات من الجانب الذي يؤيده، وعلى الرغم من خروج الإنجليز فيما بعد، واستقلال الجزيرة تحت قيادة رجل الدين «الأسقف مكاريوس»، ثم قيام انقلاب عسكري ضده، ثم عودته مرة أخرى، ووفاته.. وانتخاب «كبريانو» رئيسًا للجمهورية، والصدام المسلح بين اليونان وتركيا، وتهدئته، على الرغم من ذلك كله فما زالت مشكلة قبرص قائمة..

في الساعة الأخيرة من نهار ذلك اليوم، عدنا إلى الباخرة من جديد لنواصل رحلتنا إلى بيروت، كان رفاق لنا ينتظرون في الميناء، وكانت مهمتنا ميسرة، وما هي إلا ساعات قلائل حتى كنا في الحافلات تنقلنا إلى معسكر للشباب المسلم على قمم أحد الجبال في لبنان في منطقة «عالية»، وهناك التقينا ببعض الإخوة اللبنانيين الذين يلتزمون بنفس النهج الفكري أو العقائدي الذي نؤمن به، وكان على رأسهم المهندس الشيخ محمد عمر الداعوق رئيس جماعة عباد الرحمن، وكان رجلًا مرحًا ذا لحية قصيرة تبدو عليه سيما الشباب والحماسة، ولم يزل هذا الرجل يعيش في دولة الإمارات العربية المتحدة حتى كتابة هذه السطور، بعد أن غادر لبنان من زمن بعيد، وهو وجه مألوف على شاشة التليفزيون، وصوت مشهور في إذاعات الإمارات، حيث يؤدي رسالته في الوعظ والإرشاد ونشر الدعوة، وهو الآن في حوالي السبعين من عمره، وما زالت ابتسامته تضيء وجهه الباش، ولم تغادره روح الشباب والحماسة..

كانت «المعسكرات الكشفية» التي نقيم بها في لبنان زهيدة التكاليف، مما وفر علينا الكثير، فاستطعنا أن نزور معظم الأماكن السياحية هناك كالمغارات والمتاحف وجبل الأرز والأحياء التجارية، ونشتري بعض الهدايا التذكارية البسيطة وكان الجنية المصري في ذلك الوقت يوازي 11.5 ليرة لبنانية، كما يساوى 12.5 ليرة سورية وكان مسموحًا بتداوله علانية بعكس ما نحن فيه الآن.

كانت لبنان مفتوحة تمامًا على مصراعيها لكل وافد، وحركة التجارة والسياحة على أشدها، والتقيت ببعض الأسر المصرية التي تقضي الصيف في مدن الجبل هناك مثل بحمدون وسوق الغرب وغيرها، إنهم بقايا الأثرياء المصريين بعد قيام الثورة، كما التقينا ببعض اللاجئين السياسيين الذين هربوا بجلدهم من عنف الممارسات الثورية في القاهرة..

ولقد قمت بتأليف نشيد شعبي يردد الإخوة مقطعًا منه، كلما غنيت مقطعًا جديدًا، وكانت معاني هذا النشيد أو الأغنية متأثرة بما حدث لنا في مصر مع رجال الثورة، إذا شرحت في هذا النشيد مواقفنا الجهادية في فلسطين والقنال، وأنحيت باللائحة على خداع الثورة وتلفيقها الأكاذيب ضدنا، وإني لأذكر أن آخر مقطع في تلك الأغنية الشعبية كان:

يـــــا نــــــاقتي ســـــــيري

وان أمكنـــــــــك طـــــــــيري

عـــــلى حــــــد تعبــــــيزي

إحنـــــــا جنـــــــــــود الله

وكان زملاء الرحلة يستعيدونها مرات ومرات كل يوم، وتردد في كل حفل ترفيهي نقيمه في كل مكان..

وفي معسكراتنا بالجبل، كنا نعد طعامنا بأنفسنا، ونتناوب الحراسة أثناء الليل حول الخيام، وأذكر أنني كنت متعبًا ذات يوم، وأيقظوني في الساعة الثانية بعد منتصف الليل لأقوم بنوبة الحراسة الخاصة بي، وكان النوم يغالبني بشدة، ومع ذلك فقد حملت عصاي الكشفية، وطفت حول المعسكر مرتين أو ثلاث، ثم جلست على صخرة وسط الليل الدامس لأستريح قليلًا، ونظرت على مقربة مني فوجدت ما يشبه البحر.. وعجبت ما الذي أتى بالبحر هنا قرب قمة الجبل؟ لقد أتينا المعسكر ليلًا ولم أتبين موقعه جيدًا.. وقلت في نفسي ربما نكون فعلًا في مكان منخفض قريب من البحر.. وأخذت أدقق البصر في امتداد البحر الشاسع حتى غلبني النوم وأنا في مكاني، وعند صلاة الفجر وجدوني نائمًا.. حملوني برفق ووضعوني في بطانية كبيرة، ورموا بي وسط المخيم، وجمعوا الفريق كله، ليتفرجوا على إهمالي «وخيبتي»، وقرروا بعض العقوبات ضدي، ومنها أن أواصل المناوبة فترة أخرى، وألا أجلس مطلقًا، بل أظل دائرًا حول المعسكر، وألا أتناول طعام الإفطار.. وقد كان.. وظللت أطوف حول المعسكر حتى بعد أن أشرقت الشمس.. وذهبت لأرى البحر.. لم أجد سوى كتلة من الضباب تغمر الوادي..

وبعد أيام ذهبنا لزيارة الجامعة الأمريكية، وكان من الضروري أن نقصد كلية الطب بالذات باعتبار أن ذلك يهمنا بالدرجة الأولى، حتى نعرف الفرق بين كليتنا في القاهرة والكلية الأمريكية للطب في لبنان.. ولاحظت الآتي:

* عدد الطلبة قليل إذا ما قورن بعدد الطلبة في القاهرة.

* الأجهزة العلمية التي تجرى بها تجارب علم وظائف الأعضاء وغيره متوفرة، بحيث يخص كل خمسة طلبة تقريبًا جهاز خاص بهم، بينما نحن في القصر العيني لدينا جهاز واحد يحتشد حوله الطلبة على دفعات، ويقوم الأستاذ بإجراء التجارب بنفسه، هذا بالنسبة للأجهزة الكبيرة الباهظة الثمن.

* العلاقات بين الطلبة والأساتذة أفضل.

* سيادة الجو العلمي أكثر من غيره، فلم نلحظ آنذاك صراعات سياسية عنيفة، وإن كانت توجد تيارات فكرية ومذهبية تتماوج في غير قليل من الهدوء.

والحقيقة أننا كنا ننتهز أية فرصة لنعرب فيها عن هويتنا الدينية والسياسية، حتى يعرف عنا الآخرون الصورة الصحيحة بعد أن تسابقت أجهزة الإعلام المصرية والعربية تبعًا لها في إلصاق التهم والنقائص بنا، وكم كانت دهشتي عندما قال لي أحد الطلبة المسلمين الفلسطينيين بكلية الطب: «إننا هنا لا نهتم بالدين.. بل لدينا فكرة أن نقوم «بصلاة قومية»».

- «هي صلاة مشتركة يؤديها المسلم والمسيحي واليهودي معًا...».

- «لا أفهمك...».

- «القصد منها إسقاط الفوارق الدينية، وأن نعيش كإخوة في الإنسانية...».

- «وهل المعتقد الديني يمنع الإخاء الإنساني؟ أرأيت شيئًا لهذا في تاريخك كمسلم؟ وهل رأيت اليهود في بلدك يدينون بذلك الإخاء مع إخواننا الفلسطينيين؟ ثم ماذا تقولون في هذه الصلاة القومية...».

هز كتفيه في حيرة وقال: «دعوات الله.. ليس فيها صفة دينية معينة.. وشكر.. ومحبة..».

قلت له وأنا أرمقه في غيظ: «إنني أرى في ثنايا حديثك سموم الماسونية..».

- «وما عيب الماسونية..».

- «يكفي أنها بضاعة يهودية..».

دارت رأسي لما أسمع، إن عوامل الهدم تلعب دورها في عقول أجيالنا الجديدة، يريد الأعداء بفلسفاتهم وأفكارهم أن يقطعوا الصلة بين القلوب التي جمعها الله في ظل دينه، وأن يجتثوا جذورنا من تراثنا، وأن يلهونا بالشعارات البراقة، بعد أن قهرونا -جيوشًا وشعوبًا-

بالسلاح الحديث.. إن ما يحدث اليوم في مصر والدول العربية الأخرى ينذر بحقبة زمنية فاسدة، قد تقضي علينا قضاء مبرمًا إذا لم يتداركنا الله برحمته، لم أكن أعرف في تلك الأيام شيئًا ذا قيمة عن البعث وعن فيلسوفه «ميشيل عفلق»، الذي ساهم بعد ذلك في تدبير انقلابات، وإقامة حكومات، وإشعال حروب وفتن، ولم أكن أعلم أن فلسفة هذا الرجل الخطير، إن صح أن تسمى فلسفة -سوف تجري الدماء أنهارًا، وتعيث في الأرض العربية فسادًا، وما تصورت قط أن يتمكن هذا الرجل من أن يحرك عقولًا وجيوشًا وأحزابًا وأقلامًا وصحفًا.. ولم أكن أتصور أن مخططه السياسي وحزبه، سوف يتفجران إلى أجنحة ويمين ويسار ووسط، بل الذي لم أتخيله أن يظل حيًّا حتى الآن، ينتقل من بلد إلى بلد، ويعيش عيشة الملوك، ويحظى بتكريم عظام المفكرين والفلاسفة، وإذا لم يكن وجوده وليد مؤامرة عالمية كبرى لما أصبح سوى زعيم عصابة، أو مهرب مخدرات، أو نصابًا عالميًا في سوق المال والتجارة، لكن لله في خلقه شئون...

وخرجت في ذلك اليوم من الجامعة الأمريكية ضيق النفس، حزين الفؤاد، تراودني هواجس مؤلمة لا تبشر بخير..

عندما جلسنا في المساء في مخيمنا بالجبل، وبعد حفلة السمر، شرحت للإخوان قصة طالب الطب والصلاة القومية، كانوا في دهشة مما أقول، قال أحدهم: «في لبنان تروج أية سلعة..».

وقال آخر: «اليهود في كل مكان...».

ورد ثالث: «بيروت لا تعرف الله.. إنهم لا يؤمنون بغير الليرة..».

أما الأخ الرابع فقد علق: «ومع ذلك فإن لبنان هي الملجأ الوحيد في الدول العربية للهاربين واللاجئين السياسيين.. هي البلد الحر الوحيد.. الذي لا يسألك من أنت؟ ولا ما عقيدتك..».

وقف أحد الإخوة اللبنانيين وأشار بيده كي نصمت: «لم تعرفوا لبنان كما يجب.. إنها كيان هش.. التعصب على أشده.. الكتائبيون والحكومة تهتم بالشمال المسيحى، وتهمل الجنوب الإسلامي.. أما رأيتم بأنفسكم الفرق بين الاثنين.. المناصب في الحكومة والجيش موزعة

توزيعًا طائفيًا معقدًا.. ولابد أن نرضي وإلا اشتعلت النيران.. إن الأمر أخطر مما تتصورون.. نحن نعيش الخطر كل لحظة.. ورجال السياسة في بلادنا كالحواة..».

وأخذ يشرح لنا طبيعة الوضع في لبنان، وعجز الجميع عن إيجاد حل حاسم، ومن ثم كان الاتفاق أن تبقى الأمور على ما هي عليه، ومن يحاول الإصلاح أو التغيير فسوف يعاني الأمرين، وقد يقتل، أو تقع البلاد في أتون من الفتن الدامية.. والدول العربية مرتاحة لذلك تمامًا، إن الأموال تصب هنا، والصفقات تعقد هنا، وسماسرة السياسة أكثر من سماسرة التجارة، وكل شيء هنا يباع ويشترى، ولبنان الآن ترث الكثير من تركات الثورات والفساد في العالم العربي، إن وجودها هكذا أمر مطلوب ومرغوب فيه.. قل ما شئت وادفع.. لكن لا تفكر في تغيير النظام.. تستطيع أن تشتري الضياع والقصور والنساء، لا قيود على شيء، إلا العمل على تغيير النظام.. استمعوا إلى الإذاعة.. واقرءوا الصحف.. وجوسوا خلال أندية الليل.. وأسواق التجارة.. والمحافل السياسية.. والشرطة.. و.. و.. إلخ، هذه هي لبنان..

كان من الملاحظات الطريفة أننا لم ندع إلى أية مأدبة في لبنان، كنا نشتري كل شيء، لكنَّ الضيافة الحقيقية الصادقة في الضفة الغربية بالدرجة الأولى، ثم في الأردن، ثم في سوريا.. كان لهذا الموضوع الشكلي انعكاسًا للصورة الاجتماعية والسلوكية في كل بلد من هذه البلدان الصديقة.. ولا أريد أن أزيد في التعليق على هذه الظاهرة وأبعادها المختلفة.. فهي لقطة صغيرة لكنها معبرة.. في أحد الأيام ركبنا الحافلة متجهين إلى دمشق..

ودمشق لها في النفوس مكانة تاريخية عميقة، ورحم الله شاعرنا الذي قال:

لــولا دمــشق لمــا كانــت طليطلــة
ولا زهــت ببنــي العبــاس بغــدادُ

ولقد كان لهذه المدينة العريقة صفة عجيبة، فعلى الرغم من وجود الطوائف المختلفة مسلمين ومسيحيين، إلا أن حركة التحرير والاستقلال فيها، قد وحدت الجميع تحت لواء واحد، فكانت دمشق مضرب الأمثال في الوحدة الوطنية، وبعد أن ظهرت الأحزاب في العصر الحديث بادئ ذي بدء لم تستطع أن توجد الشحناء والبغض بين مختلف الطوائف، وما إن ظهرت التيارات اليسارية، وزرعت إسرائيل في قلب الأمة العربية، حتى دبت الخلافات الطائفية، وتوالت الانقلابات العسكرية، واشتدت الصراعات الحزبية.

ذهبنا إلى دمشق واستقبلنا عدد كبير من شباب الإخوان المسلمين السوريين، حتى أن عددًا من المرشحين نجح في المجلس النيابي لأول مرة، ولم تكن الأغلبية لهم، لأن أغلب المنضمين إلى الجماعة في تلك الفترة كانوا من شباب العلماء والجامعات والمدارس ومن المثقفين، وكانت العشائرية والطائفية تتحكم حتى تلك الفترة في اختيار النواب، مثلما كان يحدث في مصر وغيرها..

واستطاع شباب الإخوان في سوريا أن يساعدونا كثيرًا في زيارة المدن والأقاليم المختلفة، وكذلك المناطق الأثرية، والمؤسسات العلمية والاجتماعية، وأوجه النهضة في مختلف الجوانب، وكانوا يمدوننا بما نحتاج إليه من صحف وكتب ومعلومات وبيانات، فما قيمة الرحلات إذا لم يستفد منها الإنسان علمًا وثقافة وتعارفًا؟ الحق أننا شعرنا بأننا بين أهلينا وذوينا، فكانت فترة مفيدة وممتعة معًا ..

لقد تخطت دعوة الإخوان الحدود المصرية، وأصبح لها تجمعات في سوريا ولبنان والعراق والأردن وفي الجزء الباقي من فلسطين «الضفة الغربية وقطاع غزة». وكنا نرى نفس الشعارات، وأساليب الدعوة، واتجاهات الرأي، وتحليل المواقف، كانت المقاييس الإسلامية التي آمن بها الجميع تؤدي بالضرورة إلى رأي عام شبه موحد، بالنسبة للقضايا الرئيسية والكبيرة، وكان يرأس الإخوان المسلمين في تلك الفترة المرحوم الأستاذ الدكتور مصطفى السباعي، وهو أستاذ جامعي وعميد كلية الشريعة والقانون، وكان رجلًا سمح الوجه، عميق الوفاق، واسع الصدر، بادي الأناة والصبر، وقد عقد في بيته -ونحن في سوريا- مؤتمر لرؤساء الإخوان في الدول العربية برئاسة المرشد العام للإخوان الأستاذ حسن الهضيبي، حضره الأستاذ الصواف رئيس جماعة الأخوة الإسلامية في العراق، والأستاذ محمد عمر الداعوق عن عباد الرحمن بلبنان، والأستاذ الدكتور مصطفى السباعي عن سوريا، ورئيس الإخوان في الأردن الأستاذ محمد خليفة، ورئيس الإخوان في فلسطين، ولا أذكر هل حضره الأستاذ الدكتور حسن الترابي من السودان أم لا، بالإضافة إلى عدد من الإخوة الآخرين في هذه البلدان، ومنهم بعض أعضاء مكتب الإرشاد في القاهرة، والأستاذ سعيد رمضان وغيره، وبعد هذا المؤتمر، عقد مؤتمر مفتوح في بيت السباعي وكنت ممن شهدوا هذا المؤتمر، قدم المرشد العام تقريرًا شاملًا عن الأوضاع العامة، وتحرك الجماعة المقبل، والتيارات

العاصفة التي تواجهها، وأكد على الالتزام بالسلوك الإسلامي الصحيح في مواجهة التحديات الصعبة.

وأثناء وجودنا في سوريا، قرأنا في الصحف عن توقيع اتفاقية الجلاء بين مصر وبريطانيا، وكان لها رد فعل كبير في الأوساط السياسية العربية، ولقد كتبت في تلك الفترة مقالة حول الاتفاقية الجديدة التي وقعت بالأحرف الأولى، وكانت أهم نقاط الاعتراض التي وردت في مقالي هي:

1- عدم عرض الاتفاقية على استفتاء شعبي.

2- عودة القَوات البريطانية إلى قاعدة قناة السويس عند أي تهديد خارجي تتعرض له المنطقة.

3- بقاء الخبراء والفنيين وفق نظام وعدد معين في القاعدة.

4- دفع تعويض للمنشآت الإنجليزية، وهو مبلغ كبير بالمقارنة إلى تفاهة المنشآت الموجودة في القاعدة.

5- تضمين الاتفاقية -بطريق غير مباشر ومباشر- الارتباط أو التحالف مع بريطانيا من الناحية السياسية والعسكرية والاقتصادية.

ونشرت هذه المقالة بتوقيع «نجيب المصري» في إحدى الصحف الصباحية السورية، وكانت هذه المقالة مجرد رأي شخصي لا يلزم أحدًا، لكن من الصدف الطيبة أن الأستاذ المرشد أصدر بيانات حول الاتفاقية، واعتراض الإخوان على بعض بنودها، ونشر البيان في الصفحة الأولى لإحدى الصحف، وأرسل إلى القاهرة، حيث منعت الحكومة نشرهُ، فتم طبعه في منشورات، ثم وزع سرًا بين جماهير الشعب المصري، وصدر بعد ذلك منشور مفصل يتناول بنود الاتفاقية بالتفصيل من ناحية المضمون والشكل.. كانت زيارة الأستاذ الهضيبي لسوريا في تلك الأيام من صيف 1954 زيارة تاريخية بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى، لقد استقبل استقبالًا رسميًا حافلًا يليق بمكانته، كما استقبله كبار الساسة وقادة الجيش ورجال الفكر والصحافة، ورتبوا له زيارة رسمية للقوات المسلحة السورية، وفي خط المواجهة بالذات، لم يكن من نصيبي أن أحضر هذه اللقاءات والاحتفالات والزيارات، لكن

الأستاذ الداعوق رئيس جماعة عباد الرحمن بلبنان كان قد صور لقطات معبرة سينمائيًا من هذه الزيارة، وعرضها علينا في دمشق..

وكانت هناك بعض الآراء ترى أن عودة المرشد العام لمصر محفوفة بالمخاطر، وأنه من الأفضل البقاء بالخارج حتى تتجلى الأمور، لكن المرشد رفض ذلك بشدة، وأصر على السفر ومواجهة المصير المحتوم، آملًا أن وجوده في مصر، قد يقود إلى نوع من التفاهم مع الحكومة، والتهدئة للمتحفزين المتوجسين من الإخوان، لكن بعض الإخوة قرر البقاء في سوريا تحسبًا للأخطار التي بدت نذرها في الأفق، وكان منهم الأخ الدكتور عصام الشربيني وسعيد رمضان وكامل الشريف وغيرهم.. ولم يسافر المرشد إلا بعد أن سافرنا نحن في شهر أغسطس من هذا العام..

كان شعورنا ونحن في دمشق أننا لم نخرج من القاهرة، وتجولنا في أنحاء سوريا، وفي مختلف مدنها ومحافظاتها اللاذقية.. حلب.. حماة.. حمص.. دير الزور.. ومشينا على شواطئ بردى ونهر العاصي، وفي كثير من القرى الصغيرة، وركبنا القطار والحافلات، وقلت لهم ونحن في جولاتنا: «أين تقع «معرة النعمان»؟».

قال أحد الإخوة السوريين المرافقين لنا: «ليس أكثر من ثمانين كيلو مترًا».

قلت: «أريد أن أزورها».

رد زعيم الرهط وهو الأخ الدكتور محمود الشاوي: «ليس لدينا وقت كاف لذلك.. وماذا تريد منها؟».

- «أريد أن أرى قبر أبي العلاء المعري».

رد في غضب: «دعك من هذه الأوهام الشعرية.. إنه قبر ككل القبور..».

- «لكن من فيه ليس ككل الناس..».

- «كفى فلسفة.. لن نذهب..».

في مثل هذه الرحلات لابد من الضبط والربط كما يقولون، ونظام الجوالة يقوم على النظام والطاعة، وزعيم الرهط يعرف الوقت المتاح، والإمكانات المتوفرة، ولهذا السبب لم ألح في الطلب رغم رغبتي الشديدة في زيارة «معرة النعمان».

عندما ذهبنا إلى الحافلة كي نعود إلى مقرنا، وجدت الزميل الأخ محمود الشاوي يضحك في مرح ويقول للسائق: «اتجه بنا إلى معرة النعمان.. الأمر لله..».

كنا نشق طريقنا صوب الشمال، والقرى والمراعي والمزروعات من حولنا، لم نكن نشعر بالتعب أو الضيق، كانت الرغبة في المعرفة، وحماسة الشباب، وزيارة أكبر ما يمكن من الأماكن والمعالم، تملؤنا بالعزم والشوق.

وقفت أمام قبر أبي العلاء العتيق، وأخذت ألف وأدور باحثًا عن البيت الشعري المشهور الذي طلب فيلسوف المعرة أن ينقش على قبره وهو:

«هـــــذا جنـــــاه أبي عـــــليّ
ومـــا جنيـــت عـــلى أحـــد»

لم أجد لهذا الشعر أثرًا، ولما تساءلت قال لي أحد الإخوة: «إنه موجود في أحد متاحف أوربا..»، هكذا قال..

ولم أجد بالضريح سوى مكتبة صغيرة، بها عدد من المجلدات، ولما تفحصتها، وجدتها مطبوعات مصرية لبعض كتب التراث..

لم يكن أبو العلاء المعري شخصية عادية، أو مجرد شاعر مجيد، كان الأول من شعراء العربية الذين مزجوا الشعر بالفلسفة، دون أن يجني على جمال الشعر وروعته، وكان سيئ الظن بالناس والحياة، ينظر إلى الوجود نظر تشاؤمية حادة، كما كانت تؤرقه مأساة الموت، واضطراب الفلسفات، وانحراف العلماء، وشطط الحكام، ومع ذلك فقد كان يسخر من ماديات الحياة ومغرياتها، لذا نراه يقول لحبيبته التي يحلم بها:

لغـــيري زكـــاة مـــن جمـــالٍ فـــإن تكـــن
زكـــاة جمـــالٍ فـــاذكرى ابـــن ســـبيل

فإذا كان غيره يطمع في الإبل «الجمال»، فإنه يطلب جائزة الحسن والجمال، وشتان بين من يرغب في ذاك ويتعشق هذا..

وكثيرًا ما كان أبو العلاء يحمل على العلماء المنافقين، الذين يقولون ما لا يفعلون، فهم يحرمون الخمر في الصباح، ويذمونها، ويدللون على تحريمها، فإذا جاء المساء، أووا إلى أوكارهم يعبون الخمر عبًّا، ويدفعون فيها كل ما يملكون..

يُحرم فيكم الصهباء صبحًا
ويشربها على عمدٍ مساءَ
يقول لكم غدوت بلا كساء
وفي لذاتها رهن الكساءَ
إذا فعل الفتى ما عنه ينهى
فمن جهتين لا جهة أساءَ

وعلى الرغم من كل ما قيل عن أبي العلاء المعري في يأسه وتشاؤمه وآرائه الفلسفية الجانحة، فإنه ابن حقيقى للثقافة الإسلامية التي انتقت وتلاقت مع الثقافات العالمية المتزامنة معها، فهو حين يتحدث عن الحب يذكر كلمة «الزكاة»، وحين ينتقد العلماء المنحرفين، لا يخرج عن إطار الآية الكريمة ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٣ ﴾ [الصف:2-3]، حتى حديثه عن الموت لا يخرج عن دائرة ﴿ قُلۡ إِنَّ ٱلۡمَوۡتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ مِنۡهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمۡ ﴾ [الجمعة:٨].

صاح، هذي قبورنا تملأ الرحب
فأين القبور من عهد عادِ؟!
خفف الوطأ ما أظن أديم الأرض
إلا من هذه الأجسادِ
وقبيح بنا وإن قدم العهد
هوان الآباء والأجدادِ
سر إن استطعت في الهواء رويدًا
لا اختيالًا على رفات العبادِ

رب لحـــدٍ قـــد صـــار لحـــدًا مـــرارًا

ضـــاحك مـــن تـــزاحم الأضـــدادِ

ودفــــينٍ عــــلى بقايـــا دفــــين

في طويـــــل الأزمـــــان والآبــــادِ

هل تخرج معاني تلك الأبيات عن التصور الإسلامي لنهاية الوجود؟

إن تراث أبي العلاء المعري في عمومه لا يخرج عن دائرة الفهم الإسلامي وتراثه العظيم، حتى رحلته الخيالية في رسالة الغفران، متأثرة إلى أبعد مدى بحصيلته الثقافية الإسلامية، أما ما جاء في شعره من هفوات فهي أمر يرتبط ببعض التوترات والاضطرابات النفسية التي تعصف به في لحظة من لحظات الضعف أو التمرد أو التشكك، ولا يستطيع ناقد أو مؤرخ أن يتجاهل «الحالة النفسية» التي يعاني منها هذا الشاعر العملاق..

قال زعيم الرهط: «ألهذا قطعنا تلك المسافة الطويلة؟ سامحك الله..».

قلت له: «لكنك لا تعلم مدى الإشباع الوجداني الذي يبهجني..».

قال وهو يضحك في صفاء: «كلام فارغ.. يبدو لي أن الصورة الخيالية الضخمة التي كانت تملأ رأسك قد أصيبت بخيبة أمل.. وتبخرت تمامًا..».

وعدنا ثانية إلى الحافلة..

لكني لم أنس أبا العلاء، لقد عزمت أن أقرأ ما أستطيع من تراثه، وما كتبه المؤرخون والنقاد عنه، وبالذات ما كتبه طه حسين، وأمكنني بالطبع أن أنجز الكثير -فيما بعد- مما عقدت العزم عليه، وسجلت نبذة عن رأيي فيه في كتابي «إقبال الشاعر الثائر»، وقمت بالمقارنة بين العملاقين الكبيرين، في مجال المضمون الفلسفي لشعر كل منهما، والأثر الذي تركاه، وكنت بالطبع معجبًا أيما إعجاب بإيمان الفيلسوف الشاعر محمد إقبال، وصفائه وإيجابيته وروعة أفكاره...

كانت الصحافة في سوريا دون مستوى الصحافة في مصر بكثير، فهي قليلة الصفحات، فقيرة المادة، ضعيفة الإمكانات، وكذلك كانت الحركة الأدبية اللهم إلا ميدان الشعر حيث كانت سوريا -وما زالت- تزخر بعدد من الشعراء الكبار، وكانت شهرتهم قد تخطت الحدود

إلى آفاق العالم العربي الواسع، أما القصة القصيرة والرواية والمسرحية والفنون التشكيلية فلم تكن على مستوى الشعر هناك، وكانت الأبحاث الفكرية تحتل مكانة طيبة، وفي مقدمتها المؤلفات الإسلامية، لكن الشعارات السياسية بدأت تعلو وتحتل منصة عالية، وخاصة بعد انقلاب حسني الزعيم -أول انقلاب عسكري في الخمسينيات من القرن العشرين، في الدول العربية -ثم انقلاب الحناوي والشيشكلي..

وقد كان للجامعة السورية قصب السبق في تدريس الطب والعلوم باللغة العربية، وهو أمر يتفق مع طبيعة الحماسة السورية لكل ما هو عربي آنذاك.

وبدا واضحًا أن سوريا تعاني من صعوبات اقتصادية، وقد انعكس ذلك على خطط الإنشاءات والتنمية، وبطء مسيرتها، وبدأ الوعي يتنامى بهذه المشكلة التي يتعلق بها مستقبل البلاد، كما إن وقوفها في خط مواجهة مع العدو الإسرائيلي جعلها في وضع المترقب المتوتر دائمًا، ولاشك أن ذلك كله لا يمكن أن يمر بسهولة، فمن البديهي أن يكون له صداه على التحركات السياسية، والعلاقات الاجتماعية، والأوضاع الاقتصادية، إذن فقد كان الشعب السوري يتطلع إلى تحسين أوضاعه الاقتصادية، ويأمل في حرية حقيقية بعيدة عن الانقلابات والإرهاب والتوترات الدائمة، كما يعتقد أن ارتباطه بأشقائه العرب، قد يخفف مما يعانيه من قلق وتوتر، وسوف يساعد كثيرًا في مداواة جراحه الاقتصادية والعسكرية والسياسية، ولهذا جاءت شعارات البعث (حرية - وحدة - اشتراكية) كحل مطروح لمشاكل سوريا.. ووجد بعض الاستجابة لدى عدد من المثقفين، ومع ذلك فقد ظل عدد البعثيين قليلًا، حتى أن عبد الناصر أعلن في أحد خطبه وهو يهاجم «أمين الحافظ» الرئيس السوري فيما بعد، أن البعثيين لا يمثلون سوريا، وأن عددهم قليل، فرد عليه أمين الحافظ ببيت من الشعر العربي القديم يقول:

تعيرنا أنا قليل عديدنا
فقلت لها إن الكرام قليلُ

لكن الانقلابات العسكرية، تغير الموازين، فهي لا تعتمد على النسبة العددية للمؤيدين أو المعارضين، ولكنها ترتبط أولًا وأخيرًا «بالضربة الناجحة» التي تحقق النصر السريع، ومن ينجح في الانقلاب يصبح بين عشية وضحاها مالكًا لكل الإمكانات التي توجد في وطنه..

كانت الفترة التي قضيناها في سوريا فترة جميلة بحق، ونعمنا فيها بالكرم السوري، وبالإخوة الأعزاء والمشاهد المؤثرة، وكان ثقتنا كبيرة جدًا آنذاك في مستقبل الحركة الإسلامية في سوريا، لم نكن وحدنا نؤمن بذلك، فقد كان كثيرون من المراقبين السياسيين يرون نفس الرأي.

ومن الشخصيات التي التقينا بها في سوريا الدكتور مصطفى السباعي والشيخ علي طنطاوي والشاعر الداعية عمر بهاء الأميري، والشيخ محمد المجذوب، والشيخ محمد المبارك، والدكتور الزرقا، وعصام العطار، ومعروف الدواليبي.. وغيرهم من المفكرين ومن الشباب الواعد الناهض.

وأحسست أن في سوريا والعراق والأردن رصيدًا طيبًا للحركة الإسلامية، ومن ثم فإن محاولة ضربها في مصر، أو محاولة القضاء عليها، لن يكتب السطور الأخيرة في قصة هذه الجماعة، وقد صدق ظني لحد ما، فما إن وقع الصدام الكبير بين عبد الناصر والإخوان في أواخر أكتوبر من نفس العام، وكيلت التهم جزافًا للأبرياء، وسيقوا إلى سجون العذاب والدماء والموت، حتى اندلعت المظاهرات خارج مصر، وتوالت الاحتجاجات، مما أثار حفيظة الحاكمين في مصر، فأرسلوا خطابات الاحتجاج هنا وهناك، وبعثوا الرسل كي تشرح للحكومات العربية، مدى خطورة هذه الجماعة على النظم الحاكمة، وأمن بلدانهم، ونصحوهم بإتخاذ إجراءات مشابهة لما حدث في مصر، تجنبًا لمخاطر وفتن لا يعلم إلا الله مداها، وقدموا لهم بعض الاعترافات الملفقة، والأدلة المبتدعة، حتى يبذروا بذور الشك في نفوسهم، وساعد على ذلك ما كان ينشره الإعلام العالمي المنحاز ضد الإسلام من أخبار وقصص ومؤامرات وهمية، وما تبثه إسرائيل في كل مكان عن خطورة المد الإسلامي ومضاعفاته القاتلة، وما تروجه روسيا من سموم الدعاية الآثمة، وكذلك أقلام الشيوعيين المحليين في العالم العربي، هؤلاء الذين استطاعوا بأساليبهم الملتوية أن يحتلوا أماكن في الصحافة والنشر والحركة الفنية بصفة عامة، بل وفي التنظيمات السياسية الجديدة، التي كانت تولد بين يوم وليلة..

كان أعداء الإخوان ينشرون المقالات والكتب ومختلف الأدبيات علانية وفي كل مكان، حتى على منابر المساجد، والاحتفالات العامة، وخطب الرئيس عبد الناصر التي تستمر لساعات، وفي نفس الوقت لم يكن لدى المتهمين أدنى فرصة للرد أو الدفاع، كانت معركة

شرسة من جانب واحد قوي.. يملك كل الإمكانات، ويستخدم كل الأساليب التي لديه، دون وازع من ضمير.

ومع ذلك فإن الحلفاء الإسلاميين خارج مصر، أو المهاجرين المصريين، استطاعوا أن يعلنوا حقيقة الموقف، ويعقدوا مؤتمرات وندوات، داخل العالم الإسلامي، وفي أوروبا وأمريكا، وكان هذا هو جهد المقل، والأمر لله..

نعود مرة أخرى إلى رحلتنا في سوريا.. كان علينا أن نأخذ طريقنا إلى «عمان».. ثم الضفة الغربية وبخاصة القدس.. أو كما يطلقون عليها «القدس العربية».. فقد كانت هناك «قدس أخرى» تحت الحكم الإسرائيلي يسمونها «أورشليم».

كانت عمان في تلك الفترة عاصمة صغيرة هادئة، ذات طابع خاص، يختلط فيها لابسو الزي الإفرنجي بالذين يرتدون الزي العربي المميز. ويحيط بها بعض الجبال الشهيرة، وفيها عدد من المعالم الرئيسية، كما كان بها عدد كبير من الإخوة الفلسطينيين.. وأول ما يلفت النظر في الأردن ذلك الكرم العربي الأصيل الذي لم نر له مثيلًا -كما قلت- في جولاتنا السابقة، كنا نستقبل بحفاوة بالغة، بل وفي إطار احتفالات رسمية يخطب فيها الخطباء، ويترنم الشعراء، كانت روح الأخوة العربية الإسلامية تتجلى في قوة ووضوح كبيرين، وكنا حريصين أشد الحرص على أن نلتزم بالجدية والوقار، نعم فنحن كشباب كثيرًا ما نمرح، أو نتبادل بعض التعليقات الضاحكة والملح والطرائف، لكننا وجدنا أن الأمر يختلف في عمان والضفة الغربية، كانت النظرة إلينا -كشباب مسلم ملتزم- نظرة تقدير واحترام، وكان واجبًا علينا أن نراعي العرف والتقاليد المرعية، وخاصة أن مخيمات بعض اللاجئين كانت على مقربة منا، وهي صورة محزنة للضعف العربي، وعتاب مر لمن يقولون إننا مسلمون..

وقضينا ليلتنا الأولى في «مدرسة الرشيد» كما أذكر، وكانت خالية من الطلبة أثناء عطلة الصيف، فاتخذناها مكانًا للنوم والراحة، إذ كنا نفترش الأرض، وننعم بالسعادة والاطمئنان، وكان إخوتنا في الأردن يفدون إلينا مرحبين ومعتذرين عن تواضع المكان الذي نزلنا فيه، لكننا كنا نؤكد لهم أن هذه طبيعة حياة «الجوالة» التي تخرج في رحلة، وأن العيش المرفه، والسرر الوثيرة، والحياة الناعمة، لا تناسب «الجوال» ولا المسلم الحق الذي يضع نصب عينيه العمل من أجل خلاص المظلومين والمقهورين والمستضعفين من بني عقيدته، فالأمر بالنسبة

لنا يعتبر أمرًا عاديًا لا حرج فيه، وقمنا بزيارة العديد من المدن والقرى الأردنية شمالًا وجنوبًا وشرقًا، وكذلك بعض المناطق الأثرية الشهيرة، والجبال والأودية، وخاصة وادي الأردن المعروف، وبعض مخيمات اللاجئين.

وبعد أيام قليلة سارعنا بالذهاب إلى «القدس» الشريف..

المدينة المقدسة تبدو هادئة حزينة، والبيوت تعروها سمة العراقة والقدم، تمامًا كالفقير المعتز بنفسه، والسور الضخم الذي يفصل بين القدس القديمة «العربية» والقدس الجديدة «اليهودية»، يعتليه عدد قليل من الجنود العرب، يروحون ويجيئون في تكاسل وملل، وقد اغبرت ملابسهم، وندى العرق جباههم، وحركة المارة بطيئة، وهم قليلو العدد، والسوق المركزي القديم المغطى، يتسم بشيء من الحركة والضوضاء القليلة حيث تباع المفارش والمنسوجات المطرزة والمصنوعات الصدفية والمعدنية وغيرها، وتصادف أن وجدنا اشتباكًا محدودًا بين عدد من الشباب، لم تتبادل فيه سوى التهديدات الكلامية، وكنا كعادتنا، رغم ذلك نضحك أو نتبادل طرفة من الطرائف، وكان مرافقنا الفلسطيني طالبًا في كلية هندسة القاهرة، قدم لقضاء أجازة الصيف في مدينته، كان يسير، وقال في اقتضاب: «من المنتقد جدًا أن تضحكوا على هذه الصورة في الشارع، إن مدينتنا لم تتعود على ذلك، وتراه عيبًا.. ألا ترون؟ الناس كأنهم في مأتم طويل..».

أدركت على التو ما يعنيه، إن المأساة التي يعيشها الشعب هنا، قلما تدفع الابتسامة لتظهر على الشفاه، ونحن لسنا أقل ألمًا ممن يعانون تحت سماء المدينة، لكن عاداتنا في التعبير قد تختلف بعض الشيء، لكننا على الفور التزمنا بنصيحته، ورأينا أنه على حق، فإن المدينة تقع تحت نيران العدو مباشرة، واليهود لا يخفون أنهم سوف يجتاحونها في يوم من الأيام، بل ويعتبرونها عاصمة إسرائيل المقدسة رغم أنف العالم كله..

وذهبنا لزيارة المسجد الأقصى وقبة الصخرة، أية مشاعر تجتاح الإنسان المؤمن وهو يخطو داخل فناء المسجد العريق، حيث يفوح عطر التاريخ، وأيام المجد العظيمة، إنه القبلة الأولى للرسول الأعظم محمد بن عبد الله «ﷺ» وللمسلمين، وإليه كان مسراه، وما أكثر ما شهد هذا المسجد من أحداث تاريخية كبرى، إبان الحروب الصليبية وحروب الاستعمار الحديث! الضجة التاريخية الكبرى تخفت الآن، لكن شيخ المسجد العجوز ذا اللحية البيضاء، مازال

يبتسم ويأمل، ويحدثنا عن الذكريات وأيام الجهاد المرير، والدم المراق، والزمان الذي يتغير، والموازين التي تميل، والمستقبل الغامض، وانفراط عقد العرب، وضعفهم وهوانهم.. وأرانا آثار الطلقات النارية في قبة الصخرة.. ولم تفارقه الابتسامة الوقورة..

ثم ذهبنا إلى «كنيسة القيامة» ذات الكنوز الأثرية الضخمة، وأخذ القساوسة يحدثونا عن الماضي الزاهر، والحاضر المؤلم، والمستقبل المجهول، وأشاروا إلى الثقوب التي أحدثتها طلقات الرصاص في النوافذ المغلقة دائمًا، والتي لا يسمح اليهود لهم بفتحها أبدًا، ونظرنا من خلال الثقوب.. ورأينا جزءً من شوارع القدس الجديدة «اليهودية»، كانت شوارع نظيفة مرصوفة والفتيان والفتيات يسيرون متشابكي الأذرع والأيدي يمرحون، ويعبثون، والجنود متربصون هناك بأحداث الأسلحة، وعيونهم على القدس العربية..

وفي «بيت لحم» كانت زيارتنا لكنيسة «المهد» حيث ولد عيسى عليه السلام، الراهبة تجلس في صمت وخشوع، ولا تكلم أحدًا، وهذا باب خشبي قديم يقولون إنه الباب الخاص ببيت يوسف النجار، وتماثيل عدة لمن كتبوا الإنجيل، ولعيسى وحوارييه وللعذراء، وقبل أن نأخذ الصور التذكارية أخذ أحد القساوسة يحدثنا عن الخطر اليهودي المحدق، وعن الذكريات الكئيبة التي تبعث الألم في النفوس. وكيف أن اليهود لا يؤمن جانبهم، وأنهم لا يحترمون الأديان، ولا مقدسات الشعوب الأخرى، وتيسرت لنا زيارة مدينة «الخليل»، وصلينا في مسجدها الشهير، وشاهدنا المقابر التاريخيه، كما استقبلنا رئيس بلديتها «الشيخ محمد الجعبري» آنذاك، وتناولنا على مائدته العامرة طعام الغذاء، ووقف بيننا خطيبًا، وإلى جواره عدد من رجال الحرس يطلقون الرصاص، كأنما يؤكدون وجودهم واستعدادهم لليوم المرتقب، وأذكر أن الشيخ قال في خطبته: «لن نغادر هذه المدينة إلا جثثًا هامدة إذا ما تعرضت لغزو إسرائيلي آخر»، لكن الحظ لم يحقق أمله، فقد غادروها في عام 1967 فيما بعد بسلام إلى المملكة الأردنية، وتسلم إحدى الحقائب الوزارية فيها.. لكن الرجل –والحق يقال– كان كريمًا في حفاوته بنا، بليغًا في خطابه الوطني، جهوري الصوت، واثق النبرات، لدرجة أنه أسال منا الدموع.. وكنت لأول مرة أتناول الطعام على الطريقة العربية التقليدية، ولم أدر كيف أبدًا، لكن أحد الضباط كان معنا، ثم رأيناه يشمر عن ساعده، ويدس يده في الأرز واللحم، ويقول: «هكذا تفعلون....».

وانطلقنا إلى منطقة «باتير» و«سور باهر»، ووقفنا خلف الأسلاك الشائكة، التي تفصل بين العرب واليهود، وأخذنا نرقب جموع العساكر اليهود على الجانب الآخر في كامل العدة والسلاح، وفي الجانب العربي لم نر إلا بضعة أنفار يرتدون الملابس العسكرية المتواضعة ويحملون السلاح القديم، وكان واضحًا أن أي هجوم صهيوني غادر مفاجئ لن تواجهه مقاومة تذكر، قلت هامسًا لأحد الإخوة في مداعبة: «أستطيع أن أسبب مشكلة بين اليهود والعالم العربي..».

قال وهو يرمقني في دهشة: «كيف؟».

- «أطلق رصاصة واحدة صوب اليهود.. فتقوم المعركة..».

نظر إلي ساخرًا وقال: «يعملوها الصغار.. ويقع فيها الكبار..» وأخذ يضحك في مرارة..

وقيل لنا إن مؤتمر الشعوب الإسلامية -ومقره القدس- سيقيم لنا حفلة عشاء، فذهبنا إلى هناك في المساء، كان المقر بيتًا عتيقًا يبدو أنه بنى منذ مئات السنين، وكان ضيق الحجرات والأبواب والنوافذ، وأرضه مكونة من قطع حجرية ملساء تشبه الرخام، وليست برخام، كانت المائدة متواضعة، بها كثير من الفواكه، وقليل من الطعام، ويجلس في الصدارة الأستاذ سعيد رمضان عضو الإخوان المسلمين البارز، وكذلك الأستاذ كامل الشريف المجاهد المعروف في فلسطين والقنال، ووزير الأوقاف الأردني بعد سنوات، و«نجيب جويفل» وهو من شباب الإخوان المعروفين، وقد دار حوله كثير من الجدل، وكان هؤلاء وغيرهم قد غادروا مصر بعد أن أيقنوا من سوء نوايا الحكام، وتوقعوا أن الضربة سوف توجه إلى الجماعة إن عاجلًا أو آجلًا، فتركوا مصر لكي تكون لديهم حرية الحركة، ولعلهم يستطيعون أن يؤدوا واجبًا ولو إعلاميًّا إذا ما حاقت المحنة بالإخوان.

وقد رافقونا في كثير من الجولات في أنحاء الضفة الغربية بالذات، وشرحوا لنا الكثير عن الأوضاع الفلسطينية والعربية بوجه عام، وكانوا مجمعين على أن مطامع اليهود لن تقف عند حد، وأنهم لابد وأن يستأنفوا سياستهم العدوانية في التوسع والتهام الأرض العربية قطعة قطعة، ولم تكن منظمة التحرير الفلسطينية بقيادة عرفات قد ظهرت بعد، كما كانت الأوضاع شديدة التوتر في مصر، وهي القاعدة العربية الكبرى، ودولة المواجهة الأولى.

وعلى شاطئ «البحر الميت» انتحى بي نجيب جويفل جانبًا، ولم يكن بيننا صلة مباشرة سابقة، كنت أسمع عنه، وأراه أحيانًا في المركز العام، لكنه لم يكن يعرفني، لكن الأيام التي قضيناها في الضفة الغربية والأردن، أتاحت فرصة للتعارف السريع.

وعندما أصبحنا وحيدين، أخذ يسألني عن الأوضاع في مصر، وأخذت أفيض في الشرح، وهو يناقش ويستفسر، ولعله ظن -وبعض الظن إثم- أنني قد أكون واحدًا من أعضاء النظام الخاص، والدليل على ذلك، أنه أخذ يلمح بأنه لا أمل في التفاهم مع عبد الناصر، وأنه أصبح عقبة في طريقة الدعوة، وأنه يتخذ أبشع الأساليب وأظلمها في التصدي للجماعة، دون وازع من ضمير، أو قانون، ويريد أن ينفرد بحكم استبدادي مطلق، ويرى في الإخوان القوة الوحيدة التي تحاول تحجيمه، أو تعديل مسار طموحاته الخطرة، وقال نجيب جويفل بصوت خفيض هادئ: «يجب التخلص منه بأي شكل..».

وصمت.. لم أعلق بكلمة واحدة.. كنت أظنه ممن يملكون صنع القرار في الجماعة، وإن ثبت العكس بعد ذلك وخاصة بعد أن أشيع عنه أنه يتعاون مع السلطة في مصر، ويلعب على الحبلين.. والله وحده يعلم الحقيقة.

استطعنا خلال تلك الأيام القليلة، أن نلم بالكثير عن الأوضاع العربية الفلسطينية، وأن نجمع الكثير من المعلومات، وكثير من تلك المعلومات قد زرع في قلوبنا الألم ولا أقول اليأس، إن الصراعات الدامية تنتشر هنا وهناك، والانقلابات ومحاولات الانقلابات نسمع أو نقرأ عنها، والصراعات الفكرية أيضًا بين الأحزاب والجماعات تشتعل في كل مكان، وقوات الاحتلال مازالت رابضة في كثير من البلدان العربية، وإسرائيل تنمو وتقوى، ونحن ننكمش، ويكاد الغموض يلف كل شيء...

الصدام في الداخل.. والصدام في الخارج وعلامات السياسية تختلف من كاتب لآخر، ومن مكان لمكان، وعلاقات النهضة الحديثة تهتم بالقشور دون اللباب، والشعارات تزحم الآفاق، كلام كثير وفعل قليل.

وعدنا مرة أخرى إلى بيروت، كي نتخذ طريقنا بحرًا إلى مصر، واستغرقت رحلة العودة من ميناء بيروت إلى القناة أقل من يوم.. ولم أحمل معي سوى الذكريات وهدايا قليلة للأهل والأصدقاء.

كنت مضطربًا بعض الشيء، فإن ما تكتبه الصحف خارج مصر، غير ما تنشره الصحف المصرية، إن أمورًا مهمة لابد وأن تحدث على الساحة السياسية في مصر، وخاصة بعد أن وقع الثوار والإنجليز على اتفاقية الجلاء.. نعم الجلاء «الناقص» حسب نصوص الاتفاقية، والتي كانت نتيجة غير كاملة لدماء الشهداء والأبرار في منطقة القنال، والذين كانت غالبيتهم العظمى من الإخوان.. وبات واضحًا أن جمال سوف يتفرغ للقضاء على مناوئيه -في السلطة- حسب تصوره.. وهم الإخوان، وكانت كل الأحداث والشواهد تؤكد ذلك.

****

[7] الحادث

حينما تضطرب الأمور، وتحدث التجاوزات من قبل السلطة التنفيذية، ويسود الخوف والانتقام، تنبثق تصرفات وممارسات خطيرة، تعصف بأمن الشعب واستقراره، ويسود الارتباك كل شيء.. السياسة.. الاقتصاد.. الأخلاق، وإذا داس الحاكم على كرامة الدستور، وبالتالي كرامة الشعب، فقد يدفع ذلك المحكومين أن ينفثوا عن اعتراضهم ورفضهم في سلوكيات عنيفة.

أذكر أنني كنت في قريتنا في أواخر شهر أكتوبر عام 1954، كان الوقت مساءً، وكنت مضطجعًا على سريري ذى العمدان العالية، وأستمع إلى صوت الراديو، حيث كان جمال عبد الناصر يلقي خطابًا في ميدان المنشية بالإسكندرية، وبينما كان يتحدث سمعت طلقات رصاص خافتة لكنها كانت واضحة، وتوقف جمال عن الخطابة.. وساد هرج ومرج، وسمعت أصواتًا متداخلة، فأيقنت أن شيئًا مفاجئًا خطيرًا قد حدث، وبعد فترة وجيزة سمعت جمال عبد الناصر يصرخ منفعلًا: مكانكم أيها الرجال.. إن يقتلوا جمال عبد الناصر، فكلكم جمال عبد الناصر.. لقد خلقت فيكم الحرية.. وخلقت فيكم الكرامة» إلى آخر تلك العبارات العاصفة الملتهبة المليئة بالانفعال والغضب، وانتهى الخطاب بأسرع ما يمكن، وعادت الإذاعة لتعلن على الملأ أخبارًا مؤداها أن الإخوان المسلمين قد دبروا مؤامرة لاغتيال جمال عبد الناصر، وأنه قد تم القبض على المعتدي واسمه محمود عبد اللطيف، وأنه عامل من إمبابه، وأن الحكومة اتخذت التدابير العاجلة والحاسمة لدرء الفتنة، وأخذ المعتدين بالشدة والعقاب. لقد صدمني ما سمعت.. وشعرت بالقلق البالغ والحيرة.. هذه بداية صعبة لمرحلة تاريخية عصيبة.. كل الأحداث والأخبار تدل على ذلك..

وصدق ما توقعته، فقد جاءت صحف اليوم التالي حافلة بالهجوم الشديد على جماعة الإخوان المسلمين ومرشدها العام وكوادرها، وأسلوبها الإرهابي، وتسابق الكتاب والشعراء والصحفيون في الذم والطعن وتلفيق الأخبار، ونسخت الحسنات، بل تحولت إلى سيئات،

وأخذ المحللون يفسرون تلك الحسنات تفسيرًا جديدًا، يتفق وموجة الحقد والغضب التي تكتسح الجماعة وتاريخها، فهم عملاء لإسرائيل وأمريكا والاستعمار، وحربهم في القناة -كما يزعم الزاعمون- إما ستار لإخفاء مطامعهم، أو قام به شباب شرفاء وادعت الجماعة أنهم من أبنائها، ونفس الشيء قيل عن معاركهم الشريفة في حرب فلسطين، وعن الأنشطة الاجتماعية والثقافية والنقابية التي ساهموا فيها، وتناولوا شرف القيادات الإخوانية باتهامات بذيئة لا يتصورها عقل، بل اندفعوا في افتراءاتهم واتهاماتهم حتى نالوا من الشيخ حسن البنا نفسه، ورموه بكل رذيلة ونقيصة، ونسوا أو تناسوا ما قاله عبد الناصر على قبره، من تمجيد وتشريف ونسوا محاكمة قاتلي البنا، وحكم القضاء العادل، واستطاعوا أن يجندوا عددًا من المنشقين كي يكتبوا في الصحف استقالاتهم من الجماعة، ويتهموها بالانحراف والإرهاب..

وسادت موجة من الرعب لا مثيل لها في تاريخ مصر، حيث سيق الألوف إلى المعتقلات، وبدأت ممارسات القتل والتعذيب في السجن الحربي وغيره، وأخذت الصحف تنشر صور المتهمين حليقي الرءوس، وبطريقة يحاول فيها صانعوا «الرتوش» إبرازهم في أشكال مخيفة قبيحة، وتشكلت على الفور «محكمة الشعب» برئاسة جمال سالم قائد الجناح. وأعلن عن مكافآت كبيرة لمن يرشد عن الهاربين، وفيهم الأستاذ الهضيبي المرشد العام، ورئيس الجهاز الخاص يوسف طلعت، وكان الهضيبي مختفيًا منذ فترة، أي بعد عودته من رحلته في سوريا والدول العربية، وتحدثت الصحف بأسلوب مثير عن مؤامرات مزعومة مثل نسف دور السينما والمسرح والكباري والإذاعة ومحطات الكهرباء والماء، وعقدت الأحاديث والندوات في وسائل الإعلام، وكلها تنال من رجالات الدعوة الإسلامية في مصر، كما ساد الخوف الناس، وأصبحوا يترددون في الذهاب للصلاة في المساجد، ويخافون من إطلاق اللحى، وينكرون قرابتهم لمن يتهمون بالانتماء للإخوان، واستعدوا عليهم الدول العربية والإسلامية، وأصبحت الدولة وأجهزتها الإعلامية والأمنية والسياسية والعسكرية مسخرة تمامًا لهذه المهمة، وهي القضاء التام على الإخوان المسلمين وتاريخهم وفكرهم بأي أسلوب أو طريقة، وكان لابد من انتزاع الاعترافات العاجلة، إن صدقًا وإن كذبًا، بالعنف والتعذيب دون سواهما، وصاحب ذلك حركات تطهير وعزل في مختلف مؤسسات الدولة ودواوينها دون رحمة، وأصبح البيت الذي يعتقل فيه أحد الإخوان كالمكان الموبوء، يخاف الناس أن يقتربوا منه، ولا يفكر أحد في القيام بواجب المواساة والعزاء، وأحرق الناس ما لديهم من

كتب تمت من قريب أو بعيد بالفكر الإسلامي قديمه وحديثه، كما قامت أجهزة الأمن بتمشيط المكتبات ودور النشر والصحف، للتخلص من كل المطبوعات التي لها أدنى صلة بالفكر الإخواني الإسلامي، وقام «علوي حافظ» الضابط المدلل آنذاك، بإحراق المركز العام للإخوان المسلمين بالحلمية، وانطلقت الأقلام الحاقدة والداعرة والمأجورة لتبث السموم والإشاعات الكاذبة بين الناس.. كنت محنة.. ليس مثلها محنة.. واستطاع رجال الأمن مداهمة الهضيبي في مسكن له بالإسكندرية، وسبق ذلك اعتقال وكيل الجماعة الأستاذ عبد القادر عودة صاحب المسيرة السلمية الشهيرة يوم 28 من فبراير سنة 1954، ويوسف طلعت، وعدد من المتهمين الأوائل هنداوي دوير وإبراهيم الطيب ومحمد فرغلي وغيرهم.. وكان الأمر الواضح المثير، هو عدم معرفة قيادات الإخوان المسئولة بهذا الحادث وظروفه.. وشاع بين الناس، أن الحادث مجرد تمثيلية رخيصة، بل قبضت سلطات الأمن فيما بعد على مجموعة من الناس كانوا يتحدثون عن الحادث كتمثيلية محبوكة وقد تم تقديمهم للمحاكمة، وهذا القول لا يخرج عما ذكره الأستاذ حسن التهامي –صديق عبد الناصر– فيما بعد، حينما قرر أن الحادث كان مدبرًا من عبد الناصر، بالتعاون مع بعض الأجانب، ويرى حسن التهامي أن الهدف من تدبير ذلك الحادث: كان مقصودًا به عدة أشياء أهمها:

1- إيجاد شعبية لعبد الناصر بعد أن تدنت شعبيته لحد خطير بين الشعب والجيش بعد أحداث محمد نجيب.

2- إجهاض أية تحركات معارضة يقوم بها الإخوان فيما بعد، والقضاء عليهم قضاءً تامًا.

3- الانفراد بالسلطة بعد التخلص من الخصم الوحيد القادر على المنافسة.

4- بث الرعب بين الشعب، والقضاء على جيوب المعارضة الأخرى داخل الجيش وخارجه.

5- إسكات أصوات الداعين إلى الحرية والديموقراطية والإسلامية.

6- إخلاء الساحة من كل معارضي النظام الشمولي «الحكم المطلق» وإتاحة الفرصة لقيام الحزب الواحد، ومنظمات شبابية تابعة وخاضعة للنظام الشمولي الموجه.

7- إطفاء المصابيح المنيرة في تاريخنا المعاصر، ورميهم بالسلبيات والقصور، حتى ينفرد عبد الناصر بالزعامة وقيادة حركة التنمية والاستقلال والتحديث.

8- وقف النمو الاجتماعي والاقتصادي والسياسي الرصين، واللجوء إلى أسلوب القفزات والقرارات الارتجالية، والمظاهر البطولية، وأحلام المجد، والسيطرة.

وكان لابد -لكي يتم ذلك- أن يبدأ النظام في مغازلة الطبقات الكادحة من عمال وفلاحين، والتشنيع على العهود السابقة والملاك ورجال الصناعة والمال السابقين، إن عدلًا أو ظلمًا.

كان حادث المنشية مختلفًا تمام الاختلاف عما سبقه من حوادث..

اغتيال النقراشي، كان قضية واضحة لا غموض فيها.. واستشهاد حسن البنا كل الناس عرفوا أن السلطة هي المسئولة عنه.

أما حادث «المنشية» فقد كان على النقيض من ذلك، ولا يمكن أن يحدث أمر خطير كهذا دون معرفة المرشد العام، ونستطيع أن نقرأ ملفات التحقيق مع المرشد العام، فسوف نجد أنه لا يدري عن هذه الموضوع شيئًا، وقد أكدت أقوال الشهود تلك الحقيقة الناصعة. ترى هل كان الموضوع، كما يقول حسن التهامي أحد ضباط الثورة- من تدبير الحكومة ومن أشاروا عليها؟

هل هو تمثيلية كما أشيع بين الناس، أم كان تصرفًا فرديًا بحتًا؟!

وعدنا إلى الجامعة بعد هذه الاحداث العاصفة.. لقد قبض على معظم القيادات الشبابية الإخوانية.. وانفرط العقد.. وأخذنا نتابع ما يكتب في الصحف.. كان كثيرون من الناس يصدقون ما يقال، وكان أعداء الجماعة في سعادة غامرة، وكان الوفديون يقولون لنا: «لقد حذرناكم من التعاون مع الثورة، وها أنتم تجنون ثمار الخطأ الأكبر الذي وقعتم فيه»، وكان الشيوعيون -رغم اعتقال بعضهم ومطاردتهم- يعتقدون أن ما جرى سيكون في صالحهم، وسيعطيهم فرصة أكبر للانطلاق والنشاط.. وقيل في الأوساط الشعبية «إن العاقل في هذا الزمان، من يلزم بيته، ويهتم بأكل عيشه، وتربية أولاده، ويبعد عن السياسة..».. وحاصرنا أهلونا بالرقابة والنصائح، وألحوا علينا في أن نناى بأنفسنا عن هذه الفتن الدامية التي لا يعلم مداها إلا الله.

لكننا فوجئنا بمشكلة إنسانية محيرة.. إن الذين اعتقلوا وسجنوا قد قطعت موارد رزقهم، وأصبحت عائلاتهم عرضة للتشرد وأخذنا في الجامعة نفكر في الأمر، وكان الرأى أن نجمع

بعض التبرعات لهذه الأسر، ونرسلها إليهم سرًا، وبدأنا فعلًا بذلك العمل الإنساني، واستمر الأمر لعدة شهور.. حدثني الأستاذ المحقق الكبير «محمود شاكر»- الحائز على جائزة الملك فيصل، ومحقق تفسير الطبري- حدثني قائلًا: «لقد جاءني ذو الفقار صبري ذات يوم، وأنت تعلم أن بيني وبينه صلة نسب، فوجدني ثائرًا حانقًا، وسألني: ماذا جرى؟».

قلت له: «إن أخاك علي صبرى يمسك «بالكرباج» ويضرب المتهمين.. قد يكون هذا أمر محتملًا بعض الشيء.. لكن ما ذنب آلاف الأسر التي حرم أربابها المعتقلون من مرتباتهم الشهرية؟ هل أجرم الأطفال والنساء؟».

وأخذت أشرح له وجهة نظري في هذه القضية الإنسانية.. وانصرف ذو الفقار صبري صامتًا، لكنه عاد إليّ في صبيحة اليوم التالي وقال لي: «أبشر.. لقد وافق جمال عبد الناصر على صرف مرتبات المعتقلين».

وتم ذلك فعلًا، لكن الذين حكم عليهم بالسجن أو فصلوا، قطعت مرتباتهم، كذلك كان هناك عدد كبير من المعتقلين والمسجونين لم يكونوا موظفين أصلًا، بل كانوا يكتسبون أرزاقهم من التجارة أو الزراعة أو الحرف الصغيرة وهؤلاء أصبحت أسرهم بدون مورد رزق..

وهكذا تم إنشاء ما يسمى «بالتنظيم المالي» لمساعدة أسر الإخوان واستمر الأمر بضعة شهور، وفي الثلث الثاني من عام 1955 تم اكتشاف هذا التنظيم، وتم اعتقال أفراده، وسيقوا إلى المحاكمة أمام دائرة محكمة الشعب التي يترأسها اللواء صلاح حتاتة، وكانت المحاكمات سرية، ومعظم المتهمين في هذه القضية كانوا يدفعون اشتراكًا قدره خمسة قروش أو عشرة أو خمسة وعشرون، وصدرت أحكام ضد الغالبية منهم فيما عرف بقضية «الجهاز السري التمويلي» وخاصة دفعة شهر مارس ودفعة شهر يوليو في عام 1955، ومن الطريف أن ضمن من اعتقلوا في هذا الجهاز المتهم «عبد الغفار النقراشي»، وهو قريب النقراشي باشا حيث كان يوصل بعض المبالغ من حلوان إلى أسرة في السويس على ما أذكر.. وقد حاول المحققون مناقشة هذه القضية مع المتهمين في السجن الحربي، فقد قال أحمد صالح أحد كبار رجال الأمن المهمين في تلك الفترة: «إن تصرفاتكم هذه خاطئة.. من يدري؟ قد تستغلون الأموال التي تجمعونها في شراء السلاح..».

فرد عليه أحد قيادات الجهاز التمويلي وهو سليمان حجر «الدكتور سليمان حجر الأستاذ بكلية التربية الرياضية حاليًا» وقال: «أنا لم أفعل سوى ما يمليه عليّ ضميري.. وهذه -كما قلت- مسألة إنسانية.. وقد ثبت في التحقيق الذي أجري معي.. أنا وإخواني.. أن المصرف الوحيد لهذه الأموال كان بيوت المحتاجين من أسر المعتقلين والمسجونين.. ونحن إذا لم نفعل ذلك نكون آثمين.. فهل يدخل الجنة من بات شبعان وجاره جائع؟ ثم إنه سيأتي يوم يقوم عامة الشعب من غير الإخوان بهذا العمل الإنساني.. وقد ثبت لكم أن هناك مسيحيين قد شاركوا فيه.. وفعل نفس الشيء أفراد لا تربطهم بالإخوان المسلمين كتنظيم أية صلة.. فإما إن تسد الحكومة هذه الثغرة.. وإما إن نسدها نحن..».

ومع ذلك فقد حكم على سليمان حجر بالأشغال الشاقة.. والواقع أن قضية مساعدة الأسر المحتاجة لم تتوقف في أي يوم من الأيام، وأذكر أننا ونحن في سجن أسيوط عام 1957، أننا علمنا من أحد الزوار أن هناك أسرة، قد سجن عائلها وتعاني من شظف العيش والمشقة، فما كان منا -نحن المسجونين- إلا أن فتحنا باب التبرع، رغم ضعف إمكاناتنا الشديد- وجمعنا لهذه الأسرة ما تيسر من أموال، وأرسلنا المبلغ بطريق سري إلى تلك الأسرة..

ولقد حاولت جهات الأمن «المباحث العامة بالذات» فرض رقابة شديدة على الأسر المحتاجة، لعلهم يمسكون بمن يأتي إليهم بالمعونة، ونجحوا في رقابتهم إلى حد بعيد، إذ أمسكوا بالعديد من القضايا التي تتعلق بهذا الموضوع، وأصبح شائعًا بين الناس أن من يقدم المعونة لأسرة من الإخوان، سوف يقذف به وراء الشمس كما يقولون.. ولهذا السبب حدثت مآسي تقشعر لهولها الأبدان من جراء ذلك الحصار الرهيب.. لقد كانت الجهات الأمنية تعتقد أن ذلك الحصار كفيل بأن يلقن الأسر الإخوانية درسًا لن ينسوه أبدًا.. وستواجه هذه الأسرة في المستقبل عائليها بالرفض التام لأي نشاط ديني أو سياسي..

لكن هل نجح المخطط الجهنمي الذي أشرف عبد الناصر عليه بنفسه.. والذي وضعته نخبة من الخبراء العالميين والمصريين؟

****

[8]
القضية

مضى عام دراسي، ونقلت في آخر العام إلى السنة الرابعة بكلية الطب، وسافرت إلى قريتنا. بعيدًا عن عواصف الأحداث في القاهرة، لم يكن أمامي شيء أفعله سوى القراءة الحرة، والسهر مع الأصدقاء، والحديث عن مأساة الإخوان، ونجاح الحكومة في ضربتها القوية الغاشمة ضددهم، ومطاردتها لفلولهم هنا وهناك، ولم تكن الأصوات المحتجة في العالم الخارجي بقادرة على أن تغير من مسار الأحداث، أو تخفف من غلواء الحكومة وبطشها.

ولم تنته مهمة دوائر «محكمة الشعب»، فقد ظلت تؤدي مهمتها سرًّا، وخاصة فيما سمي «بجهاز مارس 1955»، وفي أواخر يوليو 1955 جاءني صديق من أهل القرية، يعمل في التجارة، وشكا لي من مرض «الصدفية»، وهو مرض جلدي، مجهول السبب، ولا يستجيب للعلاج، وبعد دراسة الأمر رأيت أن آخذه إلى قسم الأمراض الجلدية والتناسلية بالقصر العيني بالقاهرة، وسافرت معه، وبعد أيام قليلة استطعت أن أحصل له على موافقة بتلقي علاجه داخل هذا المستشفى الجامعي العريق، وانتهزت الفرصة –بعد إدخاله– وتوجهت إلى المدينة الجامعية، لأتقدم بالطلب السنوي للالتحاق بها العام الدراسي القادم، كما هي العادة في كل سنة.. ووجدت السكرتير ينظر إلى بنظرات قلقلة مريبة.. ثم سألني عن أخي وزميلي في الدراسة إبراهيم الصياد، فأخبرته أنني لم أره منذ نهاية العام، لكنه تلفت يمنة ويسرة، وقال بصوت هامس: «لقد اعتقلوه..».

صحت في دهشة: «لماذا؟».

هز كتفيه، وصمت..

كان يبدو على السكرتير الخوف، بل الذعر، وعجبت! هل ما زالت الاعتقالات مستمرة حتى الآن؟ ومتى تهدأ الأحوال، وتنكشف الغمة؟ إنه لأمر يدعو إلى القلق فعلًا، وانصرفت خارجًا من المدينة الجامعية، انتابني إحساس عميق بعدم الاطمئنان، وذهبت لزيارة بعض

الأصدقاء، وفي كل مكان ذهبت إليه، كنت أسمع أخبار الاعتقالات المستمرة، وأخبار تعذيب المعتقلين، ووفاة بعضهم، والتعليق على أحكام الإعدام التي صدرت وتم تنفيذها على ستة أفراد، ولم ينج من الإعدام سوى المرشد العام الأستاذ حسن الهضيبي، وهو الوحيد الذي خفف عنه الحكم في البداية إلى الأشغال الشاقة المؤبدة، ثم خفف الحكم أيضًا على المتهم سيد الريس، وبعض ضباط البحرية، وعدد آخر من قيادات الإخوان..

ورأيت أن أعود إلى القرية كي أخلد إلى الراحة، وأحاول التخفيف عن نفسي مما ألم بي من توجس وقلق، كنت أحمل معي بعض المطبوعات التي صدرت عن الثورة وفيها كلمات للمشير عامر، وخطب للرئيس، واتهامات للإخوان، كما كان معي بعض الرسائل التي كتبها حسن البنا قديمًا، واتجهت صوب طنطا في القطار، ثم ركبت سيارة أجرة إلى زفتى، وهناك وجدت بعض الأصدقاء والجيران، وركبنا معًا سيارة «أبو الدهب» أحد أبناء قريتنا.. ووصلنا إلى القرية بسلامة الله.. وسارت السيارة في أحد شوارعها الرئيسية، وما كدنا نتوغل ما يقرب من مائة متر، حتى وجدت في مواجهتنا سيارة شرطة.. ونزل منها ضابط الشرطة، الذي كنا نطلق عليه «قنديل بك»، وهو ضابط نعرفه من قديم أيام أن كان ملازمًا بنقطة شرطة سنباط، وكان له ابن اسمه «علي» آنذاك، ووجدت قنديل بك يشير بيده إلى «أبو الدهب» فأوقف سيارته انصياعًا للأمر، ودق قلبي.. شعرت أن الأمر يخصني.. ورميت بما معي من كتب داخل السيارة، وقلت لهم: «اخفوا هذه الكتب...».

وأطل قنديل بك برأسه من نافذه السيارة وقال:

- «أين نجيب الكيلاني؟».

صحت دون وعي: «أنا..».

قال: «تعالى معنا..».

ونزلت مهرولًا، وأخذني إلى سيارة الشرطة، وجلست إلى جواره، بينه وبين السائق، كان إحساسي المبدئي، أنني في مصيدة.. حاولت أن أتكلم، فلم تطاوعني الكلمات، لم أجد شيئًا أقوله.. وأمسك الرجل كشكولًا لي، يبدو أنه قد أخذه من بيتنا وهو يقوم بالتفتيش.. كان بالكشكول بضعة فصول من قصة كنت أحاول كتابتها عن القرية والفلاحين والعمدة الظالم وما إلى ذلك، ووجدت قنديل بك يتصفح الكشكول، ويتنهد قائلًا: «هؤلاء الفلاحون

أهلونا.. نحن منهم يا ابني.. لكنهم يعانون الكثير..» أدركت أنه يواسيني، وذلك بالتعرض للموضوع الذي كتبت فيه ولم يتم، ثم قال فجأة:

- «هل تعرف عبد المنعم سليم؟».

ودق قلبي مرة أخرى، قلت: «نعم أعرفه.. كان زميلي في المدينة الجامعية، وهو طالب بكلية الآداب.. وأظنه تخرج هذا العام..».

ثم أخذ يسألني مرة أخرى: «هل تعرف إبراهيم الصياد؟؟».

- «نعم.. زميلي في الكلية والمدينة..».

- «وهل تعرف....؟؟».

وأخذ يذكر لي بعض الأسماء التي لا أعرفها، ولما أجبت هذه المرة بالنفي، نظر إليّ في شك، توهمًا منه أنني أهرب من المواجهة، فأقسمت إنني لا أقول سوى الحقيقة، لم أكن أعرف أين سيأخذونني، بل إن قنديل بك أوهمني -وله العذر- أننا ذاهبون إلى مركز زفتى، لكني وجدت السيارة تتجة صوب مدينة طنطا، وفعلًا وجدت نفسي في مقر المباحث العامة بطنطا، وأجرى قنديل بك معي تحقيقًا سريعًا، وكان حوله مجموعة من المخبرين الذين وقفوا على أهبة الاستعداد للعدوان، ولكنه والحق يقال لم يعطهم الفرصة لذلك، وقال في مرارة: «في القاهرة سوف تقول كل شيء يا بني...».

ولم يغب عني معنى كلماته، كنت أعلم أن وسائل العنف والإرهاب التي يتفننون في استخدامها لإرغام المعتلقين على الاعتراف بأي شيء يريدونه، كفيلة بإفقاد الإنسان صبره وطاقة تحمله، إذن سوف يرحلونني إلى القاهرة.. الوداع يا شرشابه.. ويا طنطا.. بل وداعًا أيتها الحرية!! وحاولت أن أعزى نفسي قائلًا: «وأين هي الحرية؟! إننا نعيش في سجن كبير.. والأعمار بيد الله.. وليس من المكتوب هروب..» كلمات حفظتها عن جدتي التي لا شك أنها تبكى الآن مع أمي.. واستسلمت..

ونقلوني إلى قسم أول طنطا.. ووضعوني في «التخشيبة» كما يسمونها، مع المحجوزين من اللصوص ومعتادى الإجرام وغيرهم، والتخشيبة عبارة عن حجرة رديئة قذرة، وفي ركن من أركانها «بالوعة» للتبول، والمحتجزين متكومون هنا وهناك، بعضهم نائم وبعضهم جالس..

ونظرت حولي لأول مرة بإمعان، رأيت اثنين من المحتجزين ينظرون إلي في تعاطف ومحبة، كأن أعينهما تقول كلامًا كثيرًا، وأشار أحدهما إليّ بأن آتي وأجلس إلى جواره، وفرش لي على الأسفلت جلبابه الإضافي وقال بعد هنيهة: «لماذا قبضوا عليك؟؟».

- «بتهمة الإخوان المسلمين..».

ابتسم وقال: «ونحن كذلك .. أنا أحمد سلام.. وهذا أخي محمود جبريل..».

- «انتما أيضًا من الإخوان؟!».

- «نعم..».

يجب أن أكون حريصًا، ولا أتكلم بشيء يؤخذ عليّ، فمن أدراني أنهما من الإخوان المسلمين؟ قد يكون في الأمر خديعة، فرجال الأمن يفعلون ذلك عادة، ووجدت رجلًا قريبًا منا يحاول استراق السمع باهتمام بالغ، وهمس أحمد سلام في أذني قائلًا؟ «إنه شرطي.. ويزعم أنه معاقب بالحبس لمدة ليلة.. لكنني أعتقد أنه عين علينا.. خد حذرك منه..».

وقطع حديثنا أحد المحتجزين وهو يصرخ محتجًا ويقول: «يا ظلمة.. يا كفرة.. افرجوا عنا..» وربت أحمد بيده على كتفي وقال: «لا تهتم.. دعه وشأنه..».

كان المكان يبدو مقبضًا كئيبًا، وكنت أرزح تحت ألم نفسي خانق، على الرغم من إحساسي بقدر من الراحة بعد أن اكتشفت أن معي اثنين من الإخوان، وعلى الرغم من أنني لم أكن أعرفهما من قبل، إلا أنني شعرت كأننا أصدقاء مخلصين منذ سنوات طويلة..

قلت في قلق بالغ: «هل سنبقى هنا طويلًا؟».

قال أحمد: «نحن هنا منذ يومين..».

- «يا إلهي.. إن هذا لا يطاق».

وعاد أحمد يقول: «هنا أفضل من السجن الحربي بكثير».

التفت إليه وقلت: «هل سننقل إلى السجن الحربي؟ لماذا؟».

لم يجب أحمد، حتى هذه اللحظة كنت آمل في الخلاص، لكن التفكير الرصين، والتحقيق الذي أجري معي، وما فيه من أسئلة وأسماء ووقائع، كلها تؤكد أن الأمر معقد وأن التفكير

في الإفراج العاجل سذاجة، لأن ذلك لا يتفق مع سابق التجارب مع الآخرين، ولا مع المنطق السائد..

ودق باب الحجز، وسمعت صوتًا ينادي باسمي، فهرولت مندفعًا صوب الباب المغلق، كان الصوت صوت خالي «مالك»، الطالب بكلية تجارة الإسكندرية وهو يكبرني بأربع سنوات، وفهمت أنهم علموا بنبأ اعتقالي، وأن جدي أرسله للاطمئنان عليّ، وليؤكد لي أنهم لن يتركوني، وفهمت أيضًا أنني سوف أنقل غدًا إلى القاهرة للتحقيق.. وانصرف دون أن أراه.. لم أسمع سوى صوته.. إنها تجربة مؤلمة، أتعرض لها لأول مرة، وكادت الدموع تطفر من عيني، لكني تماسكت.. ثم عدت إلى موضعي الأول جوار أحمد..

قال أحمد: «يجب أن تنام قليلًا، حتى تقوى على السفر وعلى التحقيق».

قلت في قرف: «وكيف أنام؟ الفكر مشغول، ولا يوجد مكان مناسب..».

قال وهو يميل بجسده النحيل جوار محمود جبريل: «نم يا رجل، واترك الأمر لله..».

واضطجعت على الجلباب الذي قدمه لي من قبل، ووضعت حذائي تحت رأسي، وحاولت النوم.. وسمعت أحد اللصوص يقول لزميله بصوت مرتفع: «يعني لو حكموا بالشريعة.. يكون فيه عدل.. ولا أحد يسرق.. ولا يسجن..».

لم يكن لدي أدنى رغبة في التعليق.. كان إحساسي هو أنني سقطت من سماء الأحلام الجميلة إلى الأرض القاسية الملطخة بالأوحال والأقذار.. ما أقسى الفرق بين الحلم والواقع، إن عالم الأحلام الواسع المليء بالآمال والحرية والجمال والحب، قد تحول إلى حجرة متسخة ضيقة مظلمة، تفوح منها الروائح الكريهة.. أنحن بشر أم حيوانات؟

هل أمامنا شيء سوى الصبر؟

وانبعث غطيط أحمد سلام رتيبًا.. ومثله محمود جبريل.. وعلمت أن محمود جبريل يعيش برئة واحدة، فقد أجريت له منذ فترة جراحة لاستئصال إحدى رئتيه لأنها كانت مصابة إصابة بليغة بالتدرن.. فكيف يقوى المسكين على تحمل متاعب الاعتقال؟ ومن رأى بلوى الناس هانت عليه بلواه..

رحت في إغفاءة قصيرة، رغم كل شيء، وفتح الباب في الفجر، وأخذوني وحدي، بعد أن وضعوا الأغلال الحديدية «الكلبشات» في يدي، وسمعت أحمد ومحمود يهتفان في صوت واحد معًا: «ربنا معاك.. شد حيلك»..

وما إن غادرت القسم، حتى وضعوا حلقة في يدي، وأخرى في يد شرطي كبير السن، وأصبحنا مقيدين معًا، ومشى إلى جوارنا شرطي آخر يحمل السلاح، وضابط شاب.. وقصدنا إلى محطة طنطا، حيث حجزوا لنا صالونًا خاصًا درجة أولى في القطار.. لأول مرة أركب درجة أولى في القطار..

رأيت وجهي في المرآة المثبتة في الصالون.. كنت أبدو شاحب الوجه غائر العينين، وأنا أرتدي قميصي الرخيص النصف كم، وكان معي سبعة وعشرون قرشًا..

جلست صامتًا.. وبعد أن تحرك القطار صوب القاهرة، أخذ الضابط يتصفح «جريدة الصباح».. كانت صورة الرئيس وهو يبتسم تغطي حيزًا كبيرًا من الصفحة الأولى.. لم يكن لدى رغبة في قراءة شيء.. ولا في أكل شيء.. وما جدوى القراءة والطعام.. إن الحياة –كما تبدو لي الآن– لا تساوي قلامة ظفر.. أمس يوم 7 أغسطس.. واليوم 8 أغسطس 1955.. ولا يمكن أن أنسى هذا اليوم أبدًا..

ترك الضابط الصالون، ومال عليّ الشرطي العجوز الطيب المقيد معي في حديد واحد وقال: «ما هي تهمتك؟».

– «ألا تعرف؟».

– «أنا لا أسأل عن شيء.. أؤدى «مأموريتي» دون سؤال..».

قلت: «إخوان مسلمون».

قال: «لا إله إلا الله.. محمد رسول الله. ألم ينتهوا بعد من هذا الموضوع؟».

حينما نزلنا من القطار، وجدنا في مواجهتنا رجل متين البنيان يقول: «معكم نجيب الكيلاني» قال الضابط: «نعم..».

– هيا.. السيارة بالخارج.

كانت محطة السكة الحديدية بالقاهرة تموج بأفواج من البشر، ونحن نجد السير خارجين، ووجدتني وجهًا لوجه مع زميل الدراسة الدكتور «حمدي العيشى» أستاذ التشريح حاليًا بجامعة المنصورة، ولما حاول مصافحتي، مددت له يمناي ومعها يد الشرطي والحديد ظاهر، قال حمدي في دهشة: «ماذا جري؟».

قلت: «الإخوان..».

- «كان الله في عونك..».

ودفعني الضابط برفق دون أن يلحظ أحد، فودعت حمدي مسرعًا، ولدى الباب كان باب السيارة الخلفي مفتوحًا، فصعدت مع الشرطيين، وركب الضابط إلى جوار السائق وزميله، كانت السيارة مغطاة، وأخيرًا وصلنا إلى وزارة الداخلية، فوقفت في إحدى الطرقات في انتظار الأوامر.. ووجدت إلى جواري فتى صعيديًا اسمه محمود.. أخذ يتجاذب معي أطراف الأحاديث، ويحدثني عن قصة اعتقاله، وخروج أهل القرية جميعًا لوداعه، وعن الكلية التي يتعلم فيها، وعن أشياء كثيرة لا أذكر منها شيئًا، وبرز إلينا أحد رجال المباحث العامة، واقترب مني وقال: «أأنت نجيب؟».

قلت في هدوء: «نعم».

فمد يده مصافحًا وهو يقول: «أهلًا بوزير صحة الإخوان..».

وضغط على يدي بشدة، نظرت إلى وجهه، كان الغضب والتوعد يتطايران من عينيه، قلت: «وزير ولا حاجة.. أنا مجرد طالب..».

وقال مهددًا: «سوف نرى، عندما تصل إلى السجن الحربي..».

وبعد إجراءات لا ندري عنها شيئًا أخذوني إلى السيارة من جديد، كانت مؤخرة السيارة مفتوحة هذه المرة، والشوارع مكتظة بالبشر والسيارات والباعة الجائلين، وأنا ألقى على الجميع نظرة وداع.. أحسست بحرمان من كل شيء.. حتى المباني والأشجار.. والحيوانات.. وبدا لي أن الدنيا كانت جميلة، وأنني لم أفكر بعمق من قبل في جمالها وسر ما فيها من كائنات.

ثم بلغنا منطقة العباسية.. والمعسكرات.. والبوابة رقم 6 الشهيرة، كان الشرطي المقيد معي ينظر حوله في انبهار، وسمعته يقول: «الظاهر أن مصيبتك ثقيلة.. كان الله في عونك.. سوف أقرأ لك الفاتحة وأدعو الله أن ينجيك من هذا الكرب..».

ووجدتني أقول وقد أغرورقت عيناي: «لا تنسني أبدًا بدعواتك..».

قال وهو يجفف عينيه: «بأمر الله..».

لم أعرف حتى الآن اسم ذلك الشرطي، لكن وجهه الأسمر، وشاربه الأبيض، وملامحه الريفية الدقيقة، ونظراته الطيبة الرطبة القلقة، ونبراته المرتعشة لم تزل كلها منطبعة في ذهني حتى اليوم..

وأخيرًا، وقفت السيارة أمام «البوابة السوداء»، وكان مكتوبًا أعلى البوابة كلمات واضحة: «المنطقة المركزية.. السجون الحربية..».

وما إن فتح الباب، حتى جاء صوت جندي قريب، في يده كرباج: «أدخل يا روح أمك..».

لكأني في حلم.. هل ما أراه الآن حقيقة أم خيال؟ إنني أحاول أن أهرب من الواقع المحزن، لكني أرى بعيني وأسمع بأذني، والسياط تهوى علينا وتؤلمنا، فكيف يكون هذا حلمًا؟

لا مناص من الاستسلام والصبر.

ورأيت ضابطًا شابًا، يقف عاري الرأس، واضعًا يديه في جيبي سرواله، وقال في عنجهية ظاهرة، وكأنه قد أفاق من النوم لتوه: «خذوهم إلى سجن 4».

وصاح الجندي على الفور: «انتباه.. قفوا في الطابور..».

لم نكن سوى اثنين.. أنا وأخي الصعيدي محمود.. وقف محمود أمامي، ووقفت خلفه، ثم نادي الجندي.. «للأمام.. معتادًا.. مارش..».

ومشينا.. لليمين مل.. لليسار مل.. سريعًا مارش.. لليمين در.. كان رأسي يدور.. والأشياء التي أراها كأني رأيتها من قبل.. هذا المبني.. هذه الساحة الرملية.. أقسم كأني رأيتها من قبل.. متى؟ متى؟ لا أدري.. لكن.. آه.. تذكرت إنها تلك الرؤيا الغريبة.. ذات ليلة.. رأيت نفسي في مكان شبيه بهذا المكان، وكان هناك من يطاردني في عنف وقسوة.. وأنا أجري وألهث.. وأصعد الدرج.. وأهبط الدرج.. ثم أعود للجرى، ومن خلفي قوم لا يرحمون.. وأفقت من نومي ليلتها وأنا في غاية الإرهاق والضيق.. وتلفت حولى في غرفتي،

وكم كنت سعيدًا عندما تبين لي أنني كنت أحلم.. وحمدت الله.. لكني اليوم أرى السجن الحربي شبيهًا إلى حد كبير بالمكان الذي عانيت فيه من المطاردة في تلك الرؤيا المزعجة.. أيمكن أن يتطابق الأمر لهذا الحد بين الحلم والواقع.. إنه لأمر محير، لكنه حدث.. ووصلنا إلى باب سجن 4، وبكلمة السر انفتح الباب.. وأطل علينا وجه الجاويش عبد المقصود الذي عرفنا اسمه فيما بعد..

كانت الزنازين متراصة على هيئة أضلاع مربع.. وفي أحد الأضلاع الباب الرئيسي، وإلى جواره مكتب الجاويش، ثم مكتب الكاتب، وفي وسط الساحة بعض صنابير المياه، وحوض وعدد من «الكابينيهات» لقضاء الحاجة.. وكان السجن من دورين، وهناك درج لصعود الدور الثاني، حيث توجد بقية الزنازين بطبيعة الحال.

وأخذونا إلى حجرة الكاتب، وجاء الجاويش عبد المقصود ومعه العسكرى شعبان.

قال عبد المقصود: «الأمانات...».

لم نفهم شيئًا، لكن الله أنجدنا برجل طيب، يلبس جلبابًا أبيض، وعلى وجهه ابتسامة حلوة، ونظراته توحي بالثقة والإيمان وقال: «إذا كان معكم أموال.. أو مجوهرات.. أو ساعات فقدموها لحضرة الجاويش عبد المقصود..».

قلت في نفسي ترى من يكون هذا الملاك الطاهر الذي هبط علينا؟ لكن الشكوك تراودني. إن ابتسامة هذا «الملاك» قد تخفي وراءها سما زعافا، نحن الآن في سجن، ولا يصح التسرع في إعطاء الثقة لأحد..

لم يكن معي سوى الساعة، وسبعة وعشرون قرشًا، قذف بها عبد المقصود في صندوق الأمانات وهو يقول في تأفف «مفلس.. فقير..»، ثم التفت إلى زميلي الصعيد وسأله عما معه فقال: «خمسة وعشرون جنيهًا..».

ودهشت إذ رأيت عبد المقصود يعد النقود بسرعة، ثم يسحب الكرباج، ويهوى على جسد محمود قائلًا: «عشر فقط يا ثور..».

- «لكنها خمسة وعشرون».

وعاد عبد المقصود إلى ضربه بعنف، وأنا أقف ذاهلًا مأخوذًا.. وتدخل الرجل الطيب، ونظر إلى زميلي نظرة ذات معنى، وقال: «الجاويش عبد المقصود لا يكذب.. اسكت..».

لقد كان واضحًا أن محمود هو الصادق فيما يقول، لكن الأمر لا يحتاج إلى توضيح. إنهم يسرقون المعتقلين، وهذا «الملاك» الطيب، لا مانع لديه من ذلك، أهو شريكهم، أم أنه يهدف إلى شيء آخر؟ وعاد الجاويش يشوي جسد محمود بالسوط.. ومحمود يتأوه، وسمعت الجاويش يقول: «أنت من الإخوان أم بتاع نسوان؟».

لم ينطق محمود في البداية، إنه صعيدي، ومن الصعب أن يقبل على نفسه أن يقول إنه زير نساء، أليس مسلمًا؟ ثم، أيعترف بأنه من الإخوان، حتى يكون ذلك بداية لعذاب لا يعرف إلا الله مداه؟ وتشبث محمود بالصمت، واستمر الجاويش في ضربه بعنف حتى رشحت الدماء من ملابسه، ولما اشتد به الألم صرخ: «ما تراه..».

- «لن أكف عن ضربك إلا إذا اعترفت بأنك...».

هتف محمود في ارتجاف: «بتاع نسوان..».

ثم طلب منا أن نخلع ملابسنا للتفتيش.. أنقف عرايا؟ لقد جمدنا في أماكننا لا ندري ماذا نفعل، فلم يمهلنا عبد المقصود، لقد أخذ يضرب بالسوط على رءوسنا ووجوهنا، ونحن كالمخدرين.. وقال الرجل الطيب: «سوف يخلعون.. هذه هي الأوامر يا إخوان».

كان مشهدنا بشعًا يا للعار!! أنقف هكذا كما ولدتنا أمهاتنا؟ ولماذا؟ أدركنا أن المعتقل هنا في السجن الحربي ليس له الحق أن يسأل، بل عليه أن يطيع إذا صدر له أمر، ويجيب إذا سئل، بل ولا يصح أن يجيب بالصدق، بل أن يكون جوابه طبقًا لما يريدون.. وإلا فالضرب حتى الموت، وليس هناك احتمال آخر.

لقد ذابت الأحلام، وأشرقت شمس الواقع المر الأليم، كنا نظن أن السجن بطولة وشرف ورجولة، وأن صاحب الرأي له مكانة يجلها الناس، حتى الأعداء، لكننا الآن نرى الاحتقار والإساءة، دون وازع من خلق أو ضمير، وكأن اختلاف الرأي جريمة بشعة، بل خيانة أو جنون أو شذوذ، إن كل ما قرأته من مذكرات ومؤلفات عن الحرية والأحرار والبطولة يبدو أنها كانت هراء، إن ما يمارسونه معنا يدفع الإنسان دفعًا للتفكير في كل شيء من جديد، هل الحرية هراء؟ هل المبادئ مجرد شعارات وحبر على ورق وخطب طنانة؟ وهل يستطيع الإنسان في هذا الجو البشع أن يحب وطنًا، أو يقدس مبدأ، أو يضحي من أجل قيمة، أو يتغنى بالحرية؟ كانت لحظات رهيبة، تهز النفس هزًا عنيفًا، وتربك الفكر أيما إرباك..

وأشار الجاويش عبد المقصود، بيده، وقد جلس فوق كرسي خشبي خلف مكتب رث، وقال: «خذهم يا دكتور لغرفة الحلاقة..».

وسار الرجل الطيب «الدكتور» أمامنا، ونحن خلفه، وصاح الجاويش مرة أخرى: «خطوة تنظيم.. معتادًا مارش..».

وقال الدكتور بصوت هامس: «افعلوا ما يأمركم به..».

كانت الأوامر أن تحلق الرءوس تمامًا، بماكينة «زيرو».. تمامًا مثلما كنا نشاهد المتهمين في التليفزيون وعلى صفحات الجرائد..

قال الدكتور وهو يحلق لنا: «أنا أخوكم الدكتور مصطفى أبو العينين».

هتفت في دهشة: «معتقل؟».

- «نعم.. معتقل مثلكم.. أنا هنا منذ عشرة شهور.. وعلاقتي بالجاويش طيبة.. وأنا حريص على ذلك، لعلي أستطيع أن أروّضه.. إنهم هنا كالوحوش.. ولا مفر من أن نعايشهم ونحاول مصادقتهم، لعلنا نجعلهم يخففون بعض الشيء من قسوتهم.. ثم ترنم ببيت من الشعر يقول:

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى

عدوًّا له، ما من صداقته بُد

ثم استطرد الدكتور مصطفى أبو العينين قائلًا: «إني أعرف جميع القضايا التي يحققون فيها الآن.. ويسعدني أن أساعدكم، وأوضح لكم الأمور. وبصفة عامة الإنكار هنا لا يجدي.. فإذا كان هناك من اعترف بشيء عن واحد منكم فلابد من الاعتراف به.. الإنكار معناه الضرب حتى الموت.. أنصحكم أن تختصروا الطريق، وتوفروا على أنفسكم المتاعب.. السجن الحربي لا يعرف الرحمة، والعساكر هنا ليست إلا آلات تنفذ ما يطلب منها».

عادت تراودني الشكوك مرة أخرى حول شخصية الدكتور، إنني لم أعرفه من قبل، وازدادت شكوكي حينما قال: «هنا قضية التبرعات، وفيها سليمان حجر، ومحيي الدين عطية، وغيرهما وهنا قضية الهاربين وفيها الأستاذ أحمد البس، ومحمد يوسف هواش، وعبد الكريم عطية وغيرهم، وهنا قضية جهاز «عبد المنعم سليم....» .. و...».

ودق قلبي، لم أعد أسمع شيئًا، تذكرت علاقتي ولقائي مع عبد المنعم.. وبدأ الارتباك على وجهي وفي حركاتي، وقال الدكتور في ذكاء: «هل تعرف عبد المنعم سليم؟».

قلت بانفعال: «لا.. لا.. كيف أعرفه..».

- «إذا كان هو يعرفك، فلا مفر..».

- «ماذا تعني..».

- «الإنكار لن يجدي..».

- «لكني لم أفعل شيئًا أحاسب عليه..».

- «هذا من وجهة نظرك أنت..».

قلت في نفسي ما دام الدكتور ملمًا بهذه المعلومات كلها، فيجب الحذر، وأخيرًا أخذوني إلى غرفة خالية، جلست وحدي أفكر في هذه المصيبة التي بدت نذرها، وبعد نصف ساعة تقريبًا، سمعت من يهتف باسمي بصوت خفيض، وينقر نقرات خفيفة على باب الزنزانة، ونهضت من مكاني مسرعًا، ونظرت من خلال العين الزجاجية المثبتة في الباب الخشبي السميك، وكم كانت دهشتي عندما رأيت أخي وصديقي «محمود بسيوني عميرة» الذي يسكن معنا في المدينة الجامعية.. لم أكن أعرف أنه قد قبض عليه هو الآخر، وهتفت مستنجدًا: «ما الحكاية يا محمود؟».

كان يتكلم معي دون أن يلتفت إلى الباب المغلق، وكان يمسح الأرض بقطعة خيش قديمة مبللة بالماء، وسمعته يقول: «لماذا لم تخبر الدكتور مصطفى بموضوعك؟ كان في إمكانه أن يساعدك..».

- «إنه يدعونا لكي نعترف..».

- «هل لك علاقة بعبد المنعم سليم..».

ووجدتني أقول فجأة دون تفكير: «نعم..».

بدأ الألم على وجهه وقال: «إذن لا مفر من الموافقة على ما قاله في حقك..».

- «ماذا قال؟».

ازدادت همومي وشجوني، وشعرت كأن رأسي يوشك على الانفجار، وتلفت حولي باحثًا عن مخرج، الغرفة ضيقة والنافذة ذات القضبان الحديدية المتقاطعة تقترب من السقف، والباب مغلق، والمستقبل يبدو كئيبًا غامضًا، هأنذا في مصيدة جديدة أكاد أختنق فيها.. آه.. متى يعود محمود بسيوني عميرة بالخبر اليقين، من عبد المنعم سليم؟ وجاءني صوت أم كلثوم من الإذاعة الداخلية للسجن يقول:

أنـــا وحبيبـــي باليـــل

غـــايبين عـــن الوجـــدان

يطلـــع علينـــا القمـــر

ويغيـــب.. كأنـــه مـــا كـــان

وأنا غارق في هواجس وأحزاني وجزعى، قلت لنفسي:

«أين الإيمان؟ أين الصبر» أكنت تظن أن الأمر مجرد رحلة ممتعة سلسلة؟ ألا تؤمن بأنه لابد من التضحيات، وأن الخير والشر في صراع دائمًا؟ ألم تقرأ: ﴿ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ ﴾ [العنكبوت:٢]، إن الأزمة لا شك عنيفة ومباغتة، لكن لابد من الصمود والتحمل مهما كان الأمر، والموت لابد أن يأتي اليوم أو غدًا، ففيم الخوف والأسى والحسرة؟ وتذكرت أن الظهر قد وجب.. وفكرت كيف أصلي؟ ولأول مرة أتذكر التيمم.. ولم أضيع وقتًا.. تيممت ثم رجحت مكان القبلة.. وأخذت أصلي والدموع تنسكب من عيني.. وجلست أسبح الله بعد الصلاة.. لكن حركة مباغتة عنيفة، وعبث بالباب أيقظاني من شرودي، وفتح الباب..

وقذف العسكري باثنين من الرجال إلى الداخل، ثم أغلق الباب مرة أخرى على الفور.. نظرت إليهما وكأني عثرت على كنز.. وقمت أحتضنهما وأبكي.. أحدهما كان الأخ «أحمد حامد» من الشرقية.. والثاني أكبر سنًا.. يبدو عليه الهزال والكبر، ولا أتذكر اسمه الآن.. شعرت بالأنس بعد الوحشة.. كان أحمد حامد متين البنيان، قصير القامة، تبدو عليه سمات الشجاعة والثقة وعدم الاكتراث بشيء، رأى الدموع في عيني فقال: «المؤمن الحق قوي بربه».

قلت - «أجل..».

قال -«وقضاء الله نافذ، ولن تغيره الدموع..».

قلت - «صدقت..».

- «والله أقوى منهم...».

- «إنهم لا يعرفون الله».

- «لكننا نعرفه، ونستعين به..».

واقترح علينا أحمد أن نقرأ ما نحفظه من القرآن، وأن نقرأ المأثورات -وهو يحفظها جيدًا- وأن نقضي وقت الفراغ في الذكر والتسبيح، لأن هذا أجدى من التحسر والبكاء والاستماع لوسوسة الشيطان.

عندما دخلت سجن 4 لأول مرة، كان السجن موحش الصمت كالقبر، حتى حسبت أنه لا يوجد به أحد سوى العسكر والدكتور مصطفى، لكنني منذ لحظات سمعت صفارة عالية، وصوتًا يقول: «افتحوا الزنازين..».

كان صوت الجاويش عبد المقصود بالطبع..

وفي دقيقة كانت الأبواب مفتوحة، والسجن مكتظ بمئات المعتقلين، وأخذت أجول بنظراتي هنا وهناك، لقد وقعت عيني على عدد غير قليل من الإخوان الذين أعرفهم، ورأيت رجلًا يقف عاريًا وسط الساحة، وجسده كله كدمات.. حتى لا يستطيع أن يميز أي إنسان ملامحه.. وقال عبد المقصود في عنجهية: «انظروا إلى «الصباغ».. حضرة الناظر المحترم.. لقد رفض أن يتكلم.. والنتيجة كما ترون.. والمصيبة أنه اعترف بكل شيء في النهاية.. وبماذا اعترف؟ كان يجمع تبرعات.. شيء مضحك.. هل هذا يستحق الإنكار؟ لو كان يدبر مؤامرة لاغتيال الرئيس.. لكان الإنكار معقولًا..».

اسمعوني جيدًا.. «ثم لوح بسوطه».. ليس فيكم من يستعصي عليّ.. أنا عبد المقصود.. الكل يعرفني..

والآن قفوا طابورًا لتتسلموا «التعيين».

وفهمت فيما بعد أن التعيين يعني «وجبة الغداء»، وحمل كل واحد طبقًا، وذهبنا لأخذ «العدس» والخبز.. لم يكن لدي أدنى شهية للطعام، أما الأخ أحمد حامد فقد سمى باسم الله، وأخذ يلتهم الخبز والعدس في شهية ويقول: «كل يا رجل.. إن لم تأكل اليوم فستأكل غدًا...».

وأردف زميلنا الثالث قائلًا وهو يبتسم ابتسامة خفيفة: «اللى ياكل على ضرسه.. ينفع نفسه..».

وأكلت بضع لقيمات، وكأني أمضغ قشًّا لا طعم له، لقد بقيت مكتئبًا أشد الاكتئاب، ويبدو أن انتظارى لأخبار عبد المنعم جعلتني أبدو قلقًا حائرًا، وقبيل العصر سمعت صوت أخى محمود بسيوني عميرة.. ونقراته الخفيفة على الباب.. هرولت إلى خلف الباب المغلق، وهتفت في تلهف وعجلة: «ماذا قال عبد المنعم؟».

- «قال إنك قد بايعته..».

- «ماذا؟».

- «قلت البيعة.. هل حدثت؟».

لم أجب..

وعاد محمود يقول: «وسوف يسألونك عن السلاح.. مجرد سؤال تقليدى.. فهم متأكدون أنه ليس لديك أي سلاح..».

وانزلق محمود فوق بلاط السجن مسرعًا قبل أن يره أحد.. ووقفت صامتًا شاحبًا، ويبدو أن الأخوين قد سمعا كل شيء.. فقد قال أحمد حامد: «أنت لست إذن من الجهاز التمويلي؟».

- «نعم...».

تنهد ولم يعلق، ولم يكن خافيًا أن مشكلتي عويصة، لأن هذا النوع من القضايا تلصق به عادة شكوك واتهامات خطيرة. ولا يمكن مقارنته بالجهاز التمويلي أو جمع التبرعات، وشعرت بثقل المسئولية الملقاة على عاتقي، انتهى الامر ولا يمكن استدراك ما فات، إنني أبدو كالمحاصر من كل جانب، لكن هل الأمر على هذا النحو من السوء واليأس؟ لم يزل

أمامي ثغرة صغيرة جدًا.. إنني لم أرتكب فعلًا يمكن أن أحاسب عليه، ووجدتني أشد ضيقًا من ذي قبل، وأنا أقلب الأمور بيني وبين نفسي، فعزمت على أن استنير برأى الأخوين معي، فأوضحت لهما موقفي وطريقة دفاعي عن نفسي، قال أحمد حامد بهدوء: «في مثل هذه المحاكم ينظر إلى الشروع في العمل، أو حتى مجرد التفكير فيه جريمة كاملة، والأدهى من ذلك أن المسألة عندهم ليست مسألة قانون ولوائح، بل يقال إن الأحكام تكون عادة موضوعة وجاهزة حتى قبل المحاكمة.. وأرى أن تترك الأمر كلية لله.. فليس لنا في الأمر حيلة..».

قلت لأحمد: «ألا تعتقد أن وجود محامٍ للدفاع عني قد يفيد؟».

رد بحسم: «إنهم لا يسمحون بذلك..».

- «هذا حقي..».

- «ليس لك أية حقوق هنا.. وهل من حقهم تلك السياط التي بأيديهم.. نحن في قبضة قوة غاشمة قاهرة لا ترحم.. تعرفون أن للمجرمين في أية دولة حقوق في الدفاع عن أنفسهم.. أين هذه الحقوق هنا بالنسبة للمتهمين.. بل ما جريمة المعتقلين الذين لم توجه إليهم أية اتهامات منذ ما يقرب من عام؟ يجب أن تفيقوا وتفهموا من هم ومن نحن ومن شعبنا المقهور...».

لم يعد أمامي سوى الاستسلام لقضاء الله وقدره، إنه ابتلاء ولا أمل سوى أن أصبر حتى يتغمدني الله برحمته..

أم كلثوم تغني بصوت عالٍ مسموع، والشمس تميل نحو المغيب. وأنا أنتظر الاستدعاء للتحقيق، كم من الوقت سأنتظر الاستدعاء للتحقيق، كم من الوقت سأنتظر؟ الله أعلم، وكلما سمعت العسكر ينادون الأسماء، أرهف السمع جيدًا، حتى لا يفوتني سماع اسمى إذا ما رددوه، لأن من لا يرد على الفور يلق العذاب ألوانًا..

عند المغرب فتحوا الأبواب للذهاب إلى دورة المياه، كان علينا أن نندفع مسرعين إلى المراحيض، فالسياط تلهب ظهورنا ورءوسنا ووجوهنا، والمدة المسموح بها في المرحاض لا تزيد عن دقيقتين، كيف يتم الغوط في هذه الفترة الوحيزة؟ إن من يتخلف عن الخروج بعد الدقيقتين عليه أن يتلقى عددًا لا بأس به من الكرابيج حتى يجري، ولا يهم إن كان قد أدى

مهمته أم لا، ومن الضروري أن تتعود على ذلك كما يقول المعتقلون القدماء، وجاء وقت العشاء، فذهبنا وكل واحد معه طبقه، والعسكر يوزعون ضربات السياط هنا وهناك، كان العشاء فاصوليا مطبوخة.. يجب أن يمسك المعتقل الطبق جيدًا، لأنه لو سقط منه فستكون كارثة.. حدث أن الأخ محمد خليل الطويل –طالب بكلية طب عين شمس– كان يجري ذات مرة وبيده طبق العدس، فسقط الطبق وانقلب ما فيه على الأرض، فوقف حائرًا لا يدري ماذا يفعل، وأتى العسكري مسرعًا، وهوى بالسوط على رأسه قائلًا: «اجلس.. والحس العدس بلسانك.. كالكلب..».

تباطأ محمد قليلًا، لكن توالي السياط جعله يقعي على ركبتيه ورجليه، ثم ينكس رأسه ويلعق العدس ممزوجًا بالتراب.. حتى أصبحت الأرض نظيفة تمامًا.. ثم وقف، وقال العسكري وهو يضحك: «شبعت؟».

قال محمد وهو يؤدي التحية العسكرية –حسب الأوامر– ويضرب قدميه الحافيتين أحداهما بالأخرى: «الحمد لله يا افندم..».

كان مشهدًا مؤلمًا، إنهم يتفننون في الإيذاء والإيلام، أيمكن أن يحدث هذا في القرن العشرين.. وفي بلد مسلم؟! ومحمد الطويل نال للعلم حكمًا بالبراءة مع الإفراج فورًا.. لكن «فورًا» هذه لم تتحقق إلا بعد زمن طويل حينما أفرج عنه مع باقي المعتقلين في عام 1956، بعد إغلاق محكمة الشعب.

وبقيت أنتظر سماع اسمي ثلاثة أيام أخرى..

وقبل أن أخرج للتحقيق، فتح الباب ذات مساء، ودفع باثنين آخرين من المعتقلين الجدد، ونظرت إلى وجهيهما.. وكم كانت دهشتي إنهما أحمد سلام ومحمود جبريل، اللذان كانا معي في التخشيبة «الحجز» الليلة الأولى بمدينة طنطا.. والغريب أنني هتفت في فرح: «أحمد.. محمود؟».

فهتفا معًا: «نجيب؟».

– «شرفتم الديار..».

وابتسمنا لأول مرة.. أصبحنا خمسة.. إن أفواج المعتقلين الجدد لا تنقطع، وعلمت من الإخوة أن هناك معتقلين في سجن القاهرة، وفي القلعة، بالإضافة إلى المساجين في سجون طرة وأبو زعبل والقاهرة وبني سويف والمنيا وأسيوط وقنا والواحات الخارجة..

لم أكن أستطيع النوم مخافة أن ينادوا اسمي فلا أسمع، لكن النوم غلاب، فأحيانًا كنت أغفو وأنا جالس، على الرغم مني وحاولنا أن نقسم النوم بيننا، بحيث ينام الجميع، ويبقى أحدنا مستيقظًا، لكن الخطة لم تنجح النجاح المرتقب، فكان المعتقل المستيقظ يغلبه النوم في بعض الأحيان، وأذكر أن الباب فتح علينا ذات ليلة والعسكري يصيح في غضب سائلا عن بعض المعتقلين.. لقد سألني عن اسمي.. أقسم أنني لم أستطع النطق به.. لكأنما نسيت من أنا.. كنت كاتائه، بين اليقظة والمنام، لكني واقف أؤدي التحية العسكرية.. وأفقنا تمامًا على لذع السياط.. واستطعت أخيرًا أن أنطق باسمى.. وخرج العسكري غاضبًا ثم أغلق باب الزنزانة مرة أخرى..

كانت فترة انتظار التحقيق قاسية على نفسي، بل علينا جميعًا.. لقد أصبحت أتمنى أن ينتهي الأمر مهما كانت النتيجة.. لم أعد أبالي بأي شيء.. حتى الموت أصبح في نظري أمرًا لا يخيف.. كانت فترة الانتظار أيامًا قليلة..

لكن عذابها بدا طويلًا مرهقًا فوق الطاقة والاحتمال.. وهل أمامنا من وسيلة سوى أن نضرع إلى الله؟

نحن نذهب إلى دورة المياة مرتين يوميًا.. مرة في الثالثة صباحًا، حيث نتلقى الوجبة الأولى من السياط، والشتائم المقذعة التي تتناول المعتقل وأباه وأمه ودينه، ونذهب خمسة خمسة إلى المراحيض.. ولا يستغرق الأمر دقيقتين، ثم نعود إلى الغرف لكي نتيمم ونصلي.. وقبيل السابعة نخرج لنأخذ طعام الفطور.. ونعود بسرعة البرق.. وفوق رءوسنا السياط.. ويا ويل من يُضبط وهو يتكلم مع أخ له في الطابور.. أذكر أنني رأيت بالقرب مني صديقًا قديمًا فابتسمت له، وحييته بهزة من رأسى من بعيد.. ومن سوء الحظ أن رآني العسكري «محمد عبد الحليم».. لا أريد أن أشرح ما جرى.. يكفي أن أقول إن الصفعات المتلاحقة قد أفقدتني السمع في أذني اليسرى لمدة عشرة أيام تقريبًا.. بسبب انثقاب في طبلة الأذن..

ومر علينا في هذه الأثناء «طبيب السجن الحربي».. لقد فتحوا علينا الزنزانة.. فانتصبنا واقفين انتباه.. وأدينا التحية العسكرية، ونحن نهتف بأعلى صوت «تمام يا افندم» كان الطبيب أنيقًا.. بض الوجه.. متناسق السمات، واضعًا يده في جيب سرواله العسكري، وألقى علينا نظرة عابرة وهو يقول «اجلس يا بني أنت وهو..».. كان محرمًا علينا أن نطلب من الطبيب شيئًا.. أو نشكو من أى مرض.. العسكر وحدهم في بعض الظروف، ولضرورات لا تعرفها قد يبلغون عن معتقل يوشك على الموت.. ومن ثم ينقلونه إلى «الشفاخانة».. وهي كلمة تعني المستشفى جوازًا.. ونحن في الفلاحين نطلقها على المستشفى البيطري الذي يعالج الحمير..

والواقع أنني كثيرًا ما فكرت في موقف هؤلاء الأطباء الذين يرون بأعينهم التعذيب المبرح والقتل ولا يفعلون شيئًا .. لقد حدث هذا في معظم السجون سواء أثناء التحقيق، أو بعد صدور الأحكام، يستوى في ذلك الأطباء المدنيون والعسكريون، وأطباء الشرطة، وقد أجد الفرصة لسرد بعض الوقائع في حينها، وأذكر أن واقعة مشابهة حدثت في جنوب أفريقيا، وكانت النتيجة أن نقابة الأطباء التي ينتمي إليها الأطباء المتواطئون قد شطبت أسماءهم وقدمتهم للمحاكمة.. أما في مصر فلم أسمع عن توجيه الاتهام لأى طبيب من هذا النوع.. ومن عجيب الصدف أنني التقيت ببعض أطبائنا العاملين سابقًا في السجن الحربي والسجون المدنية إبان فترة عملي في دولة الإمارات.. وعشنا أصدقاء.. ولسنوات طويلة.. وكنا نتسلى بالذكريات المحزنة..

لكن ما قصتي مع أخي عبد المنعم سليم؟ أو بمعنى أصح ماذا كانت القضية؟ بعد الضربة العنيفة التي وجهها عبد الناصر لجماعة الإخوان، والتصرفات البشعة التي قاسى منها المعتقلون والسجناء وأسلوب المحاكمة بعدة شهور.. قابلني عبد المنعم سليم وقال: «طبعًا تعرف ما يجري..».

- «أجل..».

- «ونحن لا نحرك ساكنًا..».

- «على الأقل نواصل المسيرة.. ومن المستحيل أن نتخلى عن مبادئنا.. ويجب أن نستمر في دراستنا، وتوثيق العلاقة بيننا، فليس هذا نهاية المطاف..».

كان يتكلم بجدية وإصرار، والصرامة والأسى يبدوان على وجهه، وتحدثنا عن الرقابة الشديدة، والمطاردة المستمرة، وعيون الشرطة التي في كل مكان، والواقع إنني كنت في هذه الفترة منهمكًا في الدراسة، إلى حد كبير، ولم يكن لي نشاط يذكر اللّهم إلا دفع الاشتراكات الشهرية التي ترسل لأسر المعتقلين والمسجونين، وتبادل الأخبار، وصلات الصداقة العادية بيننا..

وبدا واضحًا أن عبد المنعم يريد العودة للنشاط السياسي القديم.. لقد ترددت في بداية الأمر.. لكنني شعرت أن التقاعس يأس، والتردد جبن، ووجدتني أوافقه على فكرته.. كان ذلك أثناء النصف الأول من عام 1955.. وذات مساء أخذني عبد المنعم إلى غرفته، وبعد أن جلسنا قليلًا.. وتحدثنا حول بعض الأمور العارضة، وجدته يخرج مصحفًا. ثم يضعه أمامنا.. ويقول «أقسم...».

دهشت في البداية.. كان الأمر مفاجأة تامة بالنسبة لي..

ووضعت يدي على المصحف قائلًا: «أقسم بالله العظيم أن ألتزم بكتاب الله، وأن أضحي في سبيل الإسلام بكل ما أملك، في المنشط والمكره.. والله على ما أقول شهيد...».

ووجدت تحت المصحف مسدسًا..

كان جسدي يرتجف.. لم أكن مهيئًا لهذا الأمر.. جاء دون توقع مني.. وانصرفت ليلتها، والأفكار تعصف برأسي.. لم أستطع النوم حقيقة.. وخفت حدة انفعالي بعد ذلك يومًا بعد يوم..

كانت نهاية العام الدراسي قد اقتربت.. وانشغلنا في الامتحانات، ونال عبد المنعم ليسانس كلية الآداب «قسم الجغرافيا» بتفوق.. وانصرف كل منا لحال سبيله.. هو إلى محافظة الشرقية.. وأنا إلى محافظة الغربية.. ولم يكن لنا نشاط يذكر قبل الافتراق اللّهم إلا تبادل بعض الكتب والمنشورات والأخبار.. وحمدت الله على أن انتهى الموضوع عند هذا الحد، وانحل التنظيم الذي حاول عبد المنعم إنشاءه من تلقاء نفسه، وتخففت من عبء التوتر الذي ظل يلاحقني حتى انصرف كل منا إلى حال سبيله.. كانت قناعتي الوحيدة في تلك الفترة وما بعدها أن أظل محافظًا على انتمائي الإسلامي سلوكًا وثقافة ودعوة، لكنني كنت مؤمنًا أن

مقابلة عنف الحكومة بعنف منا مآله الفشل والدمار، وسوف يؤدي إلى مزيد من الكوارث.. ولم يكن لدي أدنى تردد أوشك فيها انتويته.. ونسيت الموضوع..

حتى كان يوم 1955/8/7 حينها فوجئت بمصطفى بك قنديل يلقي القبض عليّ.. كان الأمر حقيقة مدعاة للدهشة بالنسبة لي.. فمن سوف يصدقني عندما أقول إن الرباط التنظيمي قد انتهى مع عبد المنعم منذ شهور.. منذ أن افترقنا؟ وتساءلت بيني وبين نفسي. من الذي حرك هذا الحدث الذي انتهى بالنسبة لي على الأقل؟ ولم أعرف الإجابة على هذا السؤال إلا بعد التحقيق، إذ وشى أحد المندسين بعبد المنعم، فجاء سيل الاعترافات، وتضخيم الموضوع، واعتبار هذا التجمع الذي انتهى تنظيمًا سريًا، يهدف إلى قلب نظام الحكم بالقوة والعنف..

وحانت ليلة التحقيق.. سمعت اسمي يجلجل ليلًا في ساحة السجن.. فصحت بأعلى صوت وأنا أدق باب الزنزانة بقبضتي المتشنجة «أفندم».. واقتادني العسكري إلى الفناء الواسع.. كان الصمت يرين على المكان.. وعيناي زائغتان لا تريان شيئًا على وجه التحقيق.. كل ما أمامي يبدو كأشباح الرؤى.. «سريعًا مارش»، قالها العسكري، فجريت.. بين السجون الحربية الأربعة..

لم أكن أشعر بأدنى ألم للسياط التي تهوى على جسدي من الخلف.. وبينها كنت أجرى ذاهلًا، انطلقت صرخة في العتمة مع ضربة شديدة على السلاح: «قف.. من أنت.. كلمة السر..».

توقفت.. وسمعت العسكري من خلف يقول ساخرًا: «أمين.. يا روح أمك..»، وتضاحكا.. ثم أمرني العسكري بالجري سريعًا مرة أخرى..

وأخيرًا وصلت إلى الساحة الرهيبة.

لا أريد أن أطيل في وصف المكان والناس والإجراءات، حسبي أن أشير إلى الأجساد العارية التي مزقتها السياط، والتي تنزف دمًا، وإلى أصوات الاستغاثة والبكاء والدموع والضراعات والاسترحام.. وإلى المربوطين في «العرائس الخشبية»، وإلى المغشى عليهم فوق الرمال الصفراء المخضبة، وإلى الأسئلة التي يلقيها المحققون والأجوبة التي يخرجها المتهمون..

كان مشهدًا رهيبًا.. اهتز له جسدي وقلبي.. أين المخرج من هذه الكارثة؟ وهل كل الناس هنا مثلي؟ ومن الأمور المضحكة أن يفكر الإنسان في أمر يبدو غير ذى قيمة في هذه اللحظات.. مثلًا.. قلت لنفسي لو كتبت لي الحياة، فإني أعاهد الله أن أنقل هذه الصورة بقلمي للأجيال التي تعاصرني، والتي سوف تأتي من بعدي.. كان مجرد التفكير في هذه اللحظات بالذات، وفي مثل تلك الموضوعات يبدو عبثًا.. لماذا؟ لأن المأساة التي أوجد في قلبها أكبر من أي وصف، ولأن الجلادين هم الآن أقوى وأرسخ بصورة تدعو إلى اليأس من التخلص منهم، بل التغلب عليهم، ثم من أدراني أنني سوف أفلت من هذا الجحيم؟ لو نجوت.. فسيكون ميلادًا جديدًا، بل عمرًا زائدًا كتبه الله لي.. واتجهت بتفكيري إلى من ليس لي غيره في هذه اللحظات الرهيبة.. إلى الله، علمتني زوجة جدي من قديم أن أقرأ آية «الكرسي» في الأزمات والخطوب الداهمة، وأخذت أردد الكلمات الطاهرة.. فينداح صداها إلى قلبي وروحي.. ربما تساءلت: لماذا يترك الله سبحانه وتعالى هؤلاء القوم يفعلون ما يفعلون؟ لكنني استغفرت الله، واستعذت به من الشيطان الرجيم.. وتساءلت مرة أخرى: لماذا لم أعش كما يعيش الناس بعيدًا عن هموم العمل السياسي والعقائدي؟ إن عشرات.. بل مئات الأسئلة تداهم الإنسان في هذه الأوقات العصيبة الحرجة، ويحاول الإنسان جاهدًا أن يهرب من إلحاح السؤال، حتى لا يقع في مظنة الندم، وشبهة اليأس، وضعف الإيمان، ولا أدري أطال الوقت أم قصر في تلك الساحة الدامية الرهيبة، كنت أقف ووجهي للحائط وذراعي إلى أعلى، ولا أدرى متى يهوي السوط على جسدى..

وساقني العسكري إلى مكتب جانبي، وأمام المكتب أخذ يكيل لي الضربات، ليدلل أمام المحقق على اجتهاده وقيامه بالواجب نحوي.. لست أدرى شيئًا عن الساعة في هذا الوقت.. أكانت الحادية عشرة مساءً.. أو الواحدة بعد منتصف الليل.. أو أقل أو أكثر.. لا أدري.. لا قيمة للزمان والمكان.. كان الموقف الرهيب وانعكاساته النفسية هو كل شيء.

لم أستطع أن أتفرس في وجه المحقق.. كانت هناك إضاءة قوية جدًا مواجهة إليّ بحيث يصعب أن أفتح عيني جيدًا، وكان المحقق خلف اللمبة الكهربائية المضاءة بقوة..

قال المحقق بهدوء للعسكري: «كفى.. اتركه..».

ثم استدار نحوي متسائلًا وهو يكتب: اسمك.. عمرك.. هل دخلت الحرس الوطني وتدربت على الطوابير وحمل السلاح؟ هل اشتركت في معسكرات الفدائيين في القنال أو فلسطين؟ هل انضممت لفريق الجوالة بكلية الطب؟ هل كان في بلدكم شعبة للإخوان المسلمين؟ وهل نشاطك كان في الشعبة أو في جامعة القاهرة أم في المدينة الجامعية؟

قال لي المحقق: «متى دخلت الإخوان المسلمين؟».

قلت دون وعي: «بعد محنة 1948».

وكم كانت هشتي عندما رأيت يد المحقق التي كانت تجري على الورق بالقلم تتوقف عن الحركة، ثم يدق على المكتب بيده في غضب ويقول: «محنة؟ ماذا تقصد بكلمة محنة؟ أتقتلون النقراشي باشا ثم تأتي الحكومة لتؤاخذكم بما أجرمتم، فتسمون ذلك محنة؟ أتحاولون اغتيال الرئيس عبد الناصر، ثم تأتي الحكومة لتؤدبكم فتقولون عن ذلك محنة؟ أتنسفون وتقتلون وتدمرون.. ثم تقدمون للمحاكمة فتعتبرون ذلك محنة؟».

قلت في ألم: «آسف.. لم أقصد ذلك بالضبط...».

- «ماذا تقصد يا حضرة الأخ؟».

- «أقصد أنني دخلت تنظيمات الإخوان في عام 1950...».

قال في غضب: «إن فلتة اللسان هي التي تبين عما في نفوسكم.. أنت تستحق خمسين كرباجًا..» ولم يكد يكمل عبارته، حتى انهالت السياط على رأسي العاري الحليق، لكنه أشار بيده على الفور إلى العسكري كي يكف عن الضرب.. يبدو أن هناك «منعكسًا عصبيًا» بين الرأس والعينين.. فقد شعرت أن قطرات تنسكب من عيني، على الرغم من أنني لم أكن أبكي..

وعاد المحقق إلى القلم: وقال: «هية؟ ولماذا دخلت الإخوان؟».

- «كنا نبحث عن طريق نخدم به الوطن.. وكانت الأحزاب كما تعلم.. قاطعني قائلًا: «أنتم ألعن من الأحزاب..».

ولست أدري لماذا توقف عن الأسئلة ذات الصلة بالقضية، ثم وجه إليّ سؤالًا لا أتوقعه إذ قال: «هل الجلباب الذي تلبسه جلبابك».

دهشت، لأن الجلباب فعلًا ليس جلبابي، فقد اتسخ السروال والقميص النص كم، وتبرع لي أحمد سلام زميلي في الزنزانة بواحدة من جلابيبه، وكان أحمد أطول مني قامة، ولهذا كان الجلباب طويل الأكمام، ويلامس الأرض عند الأقدام..

قلت: «لا..».

- «من أين أتيت به؟».

- «أعطاه لي أحد المعتقلين..».

قال في غضب: «يا أولاد الـ.. ألا تكفوا عن الأخوة في الله؟..».

قالها بأسلوب عامي غاضب فيه الكثير من التهكم..

ثم انتقل بعد ذلك إلى صلب الموضوع.. ما هي صلتك بعبد المنعم سليم؟ وهل أخذ عليك البيعة أم لا؟ كان معنى إقراري بالبيعة الإدانة التامة ثم الحكم بالسجن.. لهذا رأيت من الأفضل أن أنكر الواقعة.. خرج من خلف مكتبه وواجهني لأول مرة، حيث رأيت وجهه جيدًا، وقال لي وهو يجذبني من كمي الطويل المدلى: «لن يفيدك الإنكار.. وسوف نواجهك بعبد المنعم.. بل لن نحتاج إلى ذلك.. أنا واثق أنك ستعترف.. انظر خلفك.. إخوانك هناك اعترفوا بكل شيء.. منهم من ظل معاندًا يومًا.. أو يومين أو ثلاثة.. أو أسبوعين.. لكنهم يعترفون في النهاية..».

وبرز إليّ رجل أشعث الشعر كالشيطان، وأخرج من حقيبة جلدية في يده مسدسًا.. لم أعرف الرجل.. وجه المسدس صوب بطني.. وقال: «أستطيع أن أقضى عليك في لمحة.. أنتم لا قيمة لكم بالمرة..».

لست أدري لماذا وقفت جامدًا دون أن يبدو علي الخوف من المسدس، ربما كان السبب هو أنني لم ألحظ ملامح الجد على وجهه أو في نبراته، لكنني استدركت على الفور، معنى عدم خوفي معنى خطير.. يجب أن أتظاهر على الأقل بالخوف، وسرعان ما تراجعت للخلف.. وأظهرت قدرًا من الانزعاج المفتعل.. ثم رأيته يعيد المسدس إلى الحقيبة.. بعد أن قال المحقق: «أعتقد أنه سوف يتكلم يا حمزة بك..».

وعرفت أنه حمزة البسيوني، قائد السجن الحربي، الذي طبقت شهرته الآفاق في العنف والتعذيب.. قال المحقق: «حسنًا.. ماذا قلت في القسم.. قسم البيعة..».

- «اقسم بالله العظيم أن أئتمر بما أمر الإسلام، وأن انتهي عما نهى عنه، والله على ما أقول شهيد..».

أردف المحقق قائلًا: «وأن تحمي الدعوة بالدم.. في المنشط.. وفي المكره.. قل.. أكمل..».

- «لن أزيد عما قلته حرفًا..».

- «هل كان لك قسم خاص بك..».

- «هذا ما أقسمت عليه..».

لم يكترث بما قلته، ولكنه أخذ يضيف كلامًا كثيرًا من عنده، وأنا واقف صامت لا أدري ماذا يكتب.. ثم عاد يقول: «والمسدس؟».

- «لم يكن هناك مسدس..».

- «عبد المنعم يؤكد..».

- «ربما نسي..».

وأخذ المحقق يكتب كلامًا كثيرًا، لم أستطع أن التقط منه حرفًا لشدة الضوء الموجه إليّ..

وأخيرًا قال المحقق بصوت جلي واضح: «أنت متهم بالاشتراك في تنظيم سرى مسلح بهدف قلب نظام الحكم بالقوة والعنف، فما قولك؟».

قلت: «أبدًا.. لم يحدث تفكير في شيء من هذا».

لم يلتفت إلى قولي، وسمعته يتكلم بصوت واضح وهو يكتب ما يقول: «أنا آسف.. أنا كنت مضللًا.. وأنا أعترف بأني أخطأت، و..» وكلام آخر لا أذكره، وما إن انتهى من الكتابة، حتى هب واقفًا وفي يده الأوراق، واقترب مني، ووضع الأوراق أمامي، ثم أعطاني القلم، وأخذ يشير إلى الأماكن التي يجب أن أوقع فيها باسمي.. كانت يدي ترتجف، ولم أستطع إمساك القلم جيدًا، وبدت الحروف مهزوزة.. ولم أقرأ كلمة واحدة مما وقعت باسمى عليه.. كان كل همي أن أنصرف.. لقد بدت لي الزنزانة بالقياس إلى ما أراه في هذه المجزرة جنة..

عدت إلى الزنزانة عند الفجر.. وشعرت ببرودة الجو وأنا أسير صوب سجن 4 على الرغم من أننا في شهر أغسطس.. رأيت إخواني يقظين في انتظاري.. وألقيت بجسدى المنهك على أرض الزنزانة في الظلام.. أحسست بأيديهم تلامس جسدي ورأسي وأقدامى وذراعي..

قال أحدهم: «هل انتهى التحقيق؟».

- «الحمد لله..».

- «هل ضربوك كثيرًا..».

- «ليس كثيرًا.. ولم أكن أشعر بأى ألم..».

قال محمود جبريل: «الماء بالملح يشفي الجروح..».

قلت في مرارة: «وجراح النفس.. كيف تشفى؟».

ثم انفجرت باكيًا.. كنت أحاول أن أكتم شهقاتي.

وأيديهم تربت على جسدي برقة.. وعلى الضوء المتسرب من النافذة «والشراعة» رأيت الدموع تنسكب في صمت من عيونهم «إلا أحمد حامد» فقد بقي صارمًا صامدًا، وقال دون أن يبدو أي أثر للانفعال على صوته: «هيا.. تيمموا لكي نؤدي صلاة الفجر..».

بعد أيام نقلوني إلى مكان جديد، إذ صعدت إلى الدور الأعلى، في زنزانة رقم 47، حيث التقيت بالإخوة الدكتور إبراهيم الصياد والدكتور محمد عامر «وكانا طالبين في كلية الطب»، والحاج فتحي عبد البديع الصادي، وقد اعتقل عند عودته على الباخرة من الحج، والأستاذ عز العرب فؤاد حافظ، والأخ حسن علي جاد، وأخ آخر لا أذكره..

وقيل لنا إنه سوف يسمح لنا بالخروج صباح كل يوم للطابور.. فسعدنا أيما سعادة.. سوف نجري وننشط، ونخرج من هذا المكان الضيق ولو لساعة نشم فيها الهواء، ونمارس رياضة الجري.

قال إبراهيم الصياد في شك:

«أخاف أن تتحول هذه المنحة إلى نقمة..».

قال واحد من الإخوة: «لقد انتهت التحقيقات، ولم تبق إلا المحاكمة، فماذا يريدون منا بعد ذلك؟»، قال حسن جاد: «قالوا: يا قرد حيسخطوك.. قال يعني هيعملوني غزال؟».

وضحكنا رغم الألم والمرارة.

لقد أجدنا الطوابير أكثر من العسكر، كنا نمشي صفين، «معتادًا مارش» في البداية، ثم «سريعًا مارش» بعد ذلك.. وكنا سعداء بذلك أيما سعادة.. لكن للأسف لا وجود للاستقرار في هذه البقعة المحاصرة الحبيسة من أرض مصر.. لقد بدأ طابور الرياضة -كما توقع إبراهيم الصياد- يتحول إلى طابور للتعذيب.. لقد تناثر العسكر بقيادة الجاويش «أمين» المعروف بقسوته ودهائه وحقده، حاملين السياط.. وأخذوا يهوون بسياطهم على أجساد المعتقلين الذين يجرون حسبما اتفق، ويا ويل من يتخلف في الطابور.. كان الطابور يضم المعتقلين جميعًا، المرضى والأصحاء، والشباب وكبار السن، فكنت ترى الأعمى والأعرج والمصاب بالشلل النصفي، وكنت ترى الشباب في ميعة الصبى. ووجوههم تشرق بالإيمان والرضى، وكثيرًا ما يسقط المرضى وكبار السن، فلا ترحمهم السياط.. على الرغم من عجزهم البين، ولهاثهم، إنهم يرقدون مستسلمين على جانبي الطريق.. وحاولنا أثناء الجرى أن نحمي العجزة والمرضى، فكان كل شاب يجري خلف واحد منهم ليتحمل عنه الضرب، واستطاع الدكتور مصطفى أبو العينين، أن يقنع الجاويش عبد المقصود بأن يقسم المعتقلين إلى طابورين، طابور للشباب، وآخر للمتعبين والمسنين وذوي العاهات، وأطلق على هذا الطابور الأخير طابور «الشفاخانة»، حيث سمح لهم بأن يمشوا في الطابور الهوينى دون جرى، أما الطابور الأول «طابور القادرين» فقد ظل تحت رحمة السياط والقسوة.. ولم يدم الحال طويلًا، فقد ازادد عدد المنضمين لطابور «الشفاخانة» بصورة ملفتة للنظر، وجاء قائد السجن الحربي -البكباشي حمزة البسيوني- ذات يوم كي يفتش على المعتقلين.. ثم نظر بعنجهية إلى طابور الشفاخانة، وقال: «من هؤلاء يا أمين؟».

فجرى أمين بالخطوة السريعة نحو حمزة بك، ودق الأرض بقدمه، وأدى التحية والعسكرية وقال: «طابور الشفاخانة يا افندم.. ».

رد حمزة على الفور: «مفيش حاجة اسمها شفاخانة.. كلهم طابور واحد..».

وسرعان ما نفذ أمين الأوامر، إذ ضم الطابورين معًا، وكم كان مؤلمًا للنفس أن ترى من جديد المرضى والمسنين، وهم يلبسون المعاطف أو الجلابيب، ويجرون بصعوبة حتى يسقطوا إعياء وعجزًا والسياط من فوقهم..

كان حسن على جاد مراقب الصحة بمدينة بنها، والذي يقيم معنا في الزنزانة، يعاني من أزمات الربو، وأمكننا بعد جهد جهيد أن نلحقه بطابور الشفاخانة بمساعدة المعتقل الدكتور مصطفى أبو العينين، وكان حسن رجلًا مرحًا خفيف الظل، فإذا ما وجهنا إليه نقدًا أو عتابًا لأمر من الأمور، نظر إلينا من علٍ وقال في كبرياء: «كيف تعاملونني هذه المعاملة؟ أنسيتم أنني من طابور الشفاخانة؟».

وكأن الشفاخانة فئة متميزة، وطبقة من طبقات المجتمع العليا، وكنا نضحك من قلوبنا، ونحن نسمع حسن يشمخ بأنفه، ويردد بافتخار أنه من الشفاخانة، ويوم أن أمر حمزة البسيوني بإزالة الفوارق بين الطبقات، وأصبحت الشفاخانة مثل عامة المعتقلين، عاد حسن إلى الزنزانة يلهث، والعرق يتصبب من جبينه الأسمر، كان يتألم ويتأوه، لأنه تلقى عددًا من السياط بسبب بطئه في الجرى، وأخذنا ننظر إليه ونحن نكتم الضحك، احترامًا لمشاعره ومعاناته، لكنه نظر إلينا، وأدرك ما يعتمل في نفوسنا، فانفجر ضاحكًا وهو يقول: «لقد مرغوا شرف الشفاخانة في التراب.. ارحموا عزيز قوم ذل يا إخوان».

وأخذنا نضحك في براءة.. وقال إبراهيم الصياد في جد: «ألم أقل لكم؟ إن هؤلاء الجلادين إذا أرادوا أن يتكرموا علينا بشيء مفيد، فلابد وأنهم يهدفون في النهاية إلى اتخاذه أداة للنكد والإساءة..».

قال الزميل الطيب الطاهر الأخ الدكتور محمد عامر: «مهما كان الأمر.. فإن الجرى مفيد لمرضى السكر والجهاز الهضمي.. والسمنة.. بل ومفيد أيضًا لمرضى الشلل النصفي..».

رد عليه الصياد في غضب: «اعمل معروفًا واسكت يا محمد..».

جلسنا نستريح، ورائحة العرق تملأ الزنزانة، وفجأة سمعت حسن علي جاد يقول دون مقدمات: «هل تتصورون أن السجن الحربي أفضل ألف مرة من مستشفى الأمراض العقلية؟».

صرخ الدكتور الصياد في غضب: «كف عن هذا الكلام الفارغ يا شيخ حسن..».

ورأيت العيون تحاصر حسن علي جاد، وكعادته قال في مرح: «لماذا تنظرون إليّ هكذا؟ إن أخانا نجيب الكيلاني هو الوحيد الذي لا يعرف.. أنتم تعرفون، ومن حقه هو الآخر أن يلم بالحقيقة..».

ثـم طـوقني بذراعـه الأيمـن وقـال: «يـا أخ نجيـب أنـا مـن خريجـي مستشفى الأمـراض العقلية»..

وهاج الحاضرون وماجوا، لقد نصحوه بعدم الحديث في هذا الموضوع كلية، فهو أمر لا يشرف، لكن حسن لم يقتنع بهذا الأمر، وخاصة أنه لم يكن مجنونًا في يوم من الأيام، فالأمر حدث لظروف خاصة، فقد كان رئيسه في العمل يضطهده اضطهادًا شديدًا، وخاصة عندما علـم أنه من الإخـوان المسلمين، كـان حسن يـرفض النفـاق والإهمـال والكـذب، ويبرأ مـن الرشوة والخديعة والاستغلال، لكنه يرى بنفسه كيف أن القسم الـذي يعمـل فيه، يضرب عرض الحائط بالقوانين الصحية، نظير رشاوى تافهة من المـال، يدفعها أصحاب المحالات التجارية، وموزعو التغذية، كأصحاب المطاعم والجزارين وغيرهم، وكان يرفع الشكاوى تلو الشكاوى للجهات المسئولة، وفي كل مرة يتواطئون ضده، ويجعلون من شكواه بلاغًا كاذبًا وإزعاجًا للسطات.. ولم يكتفوا بـذلك بـل لفقـوا لـه التهم، وتسببوا لـه في العقوبات والجزاءات المختلفة والخصم من مرتبه الضئيل.

وعندما حضر مفتش من الوزارة بالقاهرة لينظر في أمر حسن.. جن جنونه.. إن البريء متهم.. والمتهم بريء.. لقد انقلبت الموازين.. أي فساد في هذه الدنيا الغريبة.. وحسن رجل صعيدي لا يعرف اللف ولا الدوران، حاول أن يقنع المفتش بالحقيقة، فلم يصدقه، لأنه مصر على عدم التصديق.. أو قل متواطئ.. فما كان من حسن على جاد إلا أن خلع حذاءه القـديم، وانهـال بـه عـلى رأس المفتش.. ورأس مـدير القسـم.. وكـل المتـواطئين في مكتب الصحة.. وظـل حسن يضرب ويضرب دون وعي حتى أحاطت به الشرطة، ووضعت الأغلال في يديه.. لكنه استمر يضرب بقدميه ويديه المقيدتين.. فلم يجدوا مناصًا من أن يحقنوه بمادة مخدرة.. ثم أخذوه إلى مستشفى الأمراض العقلية «تحت الاختبار».. حيث بقي فيها فترة قصيرة، كان كل علاجه المهدئات وتحصيل قسط وافر من النوم والغذاء.. وخرج حسن بعد براءته من الجنون.. ولم يكد ينقضي عليه بضعة أيام في العمل، حتى ساقوه إلى المعتقل.. يقول حسن: «في مستشفى الأمراض العقلية يضربوننا ضربًا مبرحًا.. الممرضون هناك لا يقلون قسوة عن عساكر السجن الحربي وجلاديه.. بعض النزلاء بالمستشفى يموتون مـن الضرب.. ولـيس هنـاك مـن يصدق أنـك عاقـل.. أبـدًا.. لا يقتنعـون.. شيء رهيـب أن يعتبرك الناس مجنونًا.. ولذا فهنا أفضل لي من هناك.. صدقوني..».

وعلى مدار الأيام كان حسن يأنس لي ويروي الكثير عن حياته، وبخصوص قضيته قال: «لا أعرف لي قضية.. لقد أخذوا يضربونني في مكاتب التحقيق ويسألونني عن منشورات سوريا.. وما شأني أنا بسوريا؟ أنا لا أفهم شيئًا..».

كان المسكين لا يتصور ما يريده المحقق منه، فالمحقق يسأله عن منشورات هربت من سوريا إلى مصر تهاجم الحكومة، وحسن يظن أن أي شيء يتعلق بسوريا لابد وأن يكون في سوريا، ويقول حسن: «أخذت أجري وأدور.. والسياط تلهب جسدي العاري.. انظر إلى ظهري.. هكذا.. كانت الدماء تسيل مني.. وأنا أجري وأقول «أنا مريض بالصدر ياهوه.. ارحموني» ولا فائدة.. وأخيرًا قلت لهم سأعترف.. نعم رأيت منشورات سوريا قالوا لي وماذا فيها؟ لم أكن أعرف بالطبع.. ضربوني مرة أخرى.. اتهموني بتصنع البلاهة والغباء.. وأوحى لي الله بفكرة.. قلت لهم لقد تذكرت.. كانت المنشورات تشتم في الحكومة.. قالوا: وفي الرئيس؟ قلت: نعم وفي الرئيس..

ولم أكن أعلم أن هذا سوف يفتح للعذاب أبوابًا يصعب إغلاقها سألوني: من الذي أتى لك بالمنشورات؟ وفي أي مكان تسلمتها منه؟ وأين ذهبت بها؟ يا إلهي!! ووجدتني غارقًا في بحر لا قرار له تحيط به الوحوش من كل جانب.. هذه هي اللحظات الرهيبة التي يجب أن يصاب فيها الإنسان بالجنون.. ولكني لا أستطيع أن أجن.. ويبدو أنهم اقتنعوا أخيرًا ببراءتي حينما قلت لهم: «عندي اقتراح.. اكتبوا ما تشاءون وسوف أوقع لكم بكامل إرادتي على المحضر.. ولتعدموني بعدها.. فإن حياتي لا تساوي شيئًا..».

واستدعوا إخواني في بنها، فأقروا جميعًا أنني لم أر المنشورات. ولا أعرف عنها شيئًا.. تلك قصتي.. أعني قضيتي.. ومع ذلك فإن الاتهام الموجه لي ما زال الاشتراك في مؤامرة لقلب نظام الحكم.. بكم سنة سجنًا تظن أنهم سوف يحكمون عليَّ؟».

قلت له: «إعدام.. أو على الأقل الأشغال الشاقة المؤبدة..».

ومن الطريف أن حسن قدم للمحاكمة فعلًا، ونال البراءة، لكن بقي في المعتقل حوالي عامين.. أي خرج في عام 1956 بعد صدور الدستور الأول، لكنني التقيت به مرة أخرى في عام 1965 في المعتقل أثناء قضية الشهيد سيد قطب الشهيرة.. ولم يحاكم هذه المرة، وإن بقى في المعتقل أكثر من عامين.. كان قد تقدم به العمر، واشتد بياض شعره، وأصبح مرض الربو

أشد من ذي قبل.. لشد ما أحببت هذا الرجل، وأحببت أحاديثه الجميلة، وتعليقاته الساخرة الذكية، وبراءة الطفولة في عينيه الصافيتين..

والأخ عز العرب فؤاد حافظ، خريج كلية الحقوق، هو الآخر من المقيمين في مدينة بنها، وكان طاقة من النشاط والحركة، لا يكف عن الحوار والنقاش، سألته عما قاله حسن علي جاد، فأيد كل ما قال، وعز العرب الداكن السواد، له شخصية خاصة جذابة، ولقد علمت أن الإخوان كلفوه بالاندماج مع الشيوعيين حتى يعرف تحركاتهم وأخبارهم، وخاصة ما يتعلق منها بالعداء للحركة الإسلامية، وكان لزامًا على عز العرب أن يدرس الماركسية جيدًا، حتى يمكنه أن يتعايش مع الشيوعيين، وينال مكانة مرموقة بينهم، ولعل ذلك هو السبب في شغفه بالحوار والجدل وكثرة الكلام، ومع ذلك فلم أكن أمل حديثه مهما طال، ونال عز العرب مكانة بارزة في مجتمع بنها بعد خروجه عام 1956 مع المعتقلين، فكان يخطب الجمعة في أشهر مساجدها، وكان المحافظ هناك حريصًا على الصلاة معه، كما صدرت لعز العرب بعض المؤلفات في الاقتصاد والقانون والدراسات الإسلامية، لكني لم ألتق به إلا في الاعتقال الثاني عام 1965..

كان عز العرب يريد أن يعرف أي شيء.. أو كل شيء يحدث، فلا يكاد يسمع صراخًا في الدور الأرضي حتى يهرع إلى الباب، ويحاول أن يتنصت أو يتسمع الأنباء، وكان في ذلك مخاطرة كبيرة، قد تجر علينا الوبال، فكنا نشده شدًا لكي نجلسه بالقوة، وخاصة إبراهيم الصياد الذي يقول: «سوف تتسبب لنا في كارثة يا عز..» لكن عز كان يؤكد لإبراهيم أنه حريص أشد الحرص، ويتحوط لكل شيء..

وحدث ذات مرة أن كنا جالسين في أمان الله «وباب الزنزانة مفتوح للتهوية» فسمعنا صوت استغاثة.. إنه أمر مألوف أن يعذبوا أحد المعتقلين لسبب من الأسباب.. فليس في الأمر جديد.. لكن عز العرب هب واقفًا. واندفع صوب الباب.. ومد رأسه إلى الخارج في محاولة ليرى ويسمع ما يحدث.. وصاح الصياد: «تعال ياعز واجلس..».

- «لا تخف يا إبراهيم.. قلت لك ألف مرة أنا حريص.. لا توص حريصًا..»..

ولم يكد يتم عبارته، حتى سمعنا صوت العسكري محمد عبد الحليم ينادي: «الولد اللي هناك.. تعال هنا..».

كان العسكري مختبئًا خلف ملابس مغسولة فوق السور، ولم يره عز العرب، وسرعان ما جرى عز للداخل، وجلس لكن العسكري عاد يصيح: «الواد أبو وش أسود اللي في زنزانة 47.. تعالى يا ابن الـ..» ونظرنا إلى عز العرب في ألم.. لابد مما ليس منه بد.. قال عز في استسلام: «يجب أن أذهب إليه حتى لا يأتي ويضربنا جميعًا..».

ومشى مسرعًا، ونحن نشعر بألم عميق.. وسمعنا الصفعات تنهال عن وجه عز.. ثم السياط وهي تهوى عليه.. وبعد فترة وجيزة جاء.. وجلس بيننا صامتًا ونحن صامتون.. لكنه قال بعد لحظات وهو يتحسس أذنيه: «ياه.. أذناي ساختنان..».

ضرب الصياد على فخذيه وهو جالس بيدين متشنجتين وقال: «ألم نحذرك يا عز؟».

وكم كانت دهشتنا عندما قال عز: «لم أكن حريصًا هذه المرة.. سوف أتلافى ذلك مستقبلًا..».

وضحكنا، بينما قال الصياد في غضب: «أتنوي أن تفعلها مرة أخرى؟».

- «نعم.. وسأكون حذرًا..».

وتسلم الحاج فتحي عبد البديع الصادي طرد ملابس أرسله إليه أخوه حكمدار الشرطة، وكان فتحي سكرتيرًا للمعهد الديني بالشرقية، وبينما وهو يفك الملابس وجد اسم وحيدته الصغيرة «سلوى» مكتوبًا بالحبر، وبخط يدها الذي يعرفه، على قطعة من الملابس الداخلية، ودقق فتحى النظر إلى الكلمة المكتوبة، ثم انهمرت دموعه، وأخذ يبكي في مرارة، واضعًا اسم وحيدته على عينيه..

قال عز العرب: «اذكر الله يا حاج فتحى..».

ورأيت الدموع تترقرق في عين حسن على جاد.. أما أنا فقد سارعت بمسح دموعي قبل أن يراني أحد».

لكن إبراهيم الصياد كان ينظر في سقف الزنزانة.. إلى بعيد.. أين؟ لا أعرف..

****

[9] المحاكمة

أردت أن أستعرض إجراءات المحاكمة، بعد أن تناولت بشيء من الإيجاز طريقة التحقيقات المبدئية، وأسلوب انتزاع الاعترافات، وكان أملنا أن نجد في المحاكمة ما يعوضنا عن الأسلوب غير الإنساني في التحقيق، ومن الضروري أن نعطي صورة لتلك المحاكمات للحقيقة والتاريخ، ومن واجبنا أن نفعل ذلك، حتى تعرف الأجيال الجديدة الأرض التي تتحرك عليها في مسيرتها، والمؤامرات المختلفة في الأحداث الكبار، وقوى الدفع والجذب التي يتعرض لها الناس في كل موقع، إن التجربة تلد الخطأ والصواب، ومن البديهي أن العقلاء المخلصين يستطيعون استخلاص العبرة مما يمرون به من تجارب، فالماضي والحاضر والمستقبل لا تطابق بينهم، ونحن نحرص دائمًا على أن يكون حاضرنا أفضل من ماضينا، ومستقبلنا أحسن من حاضرنا، وإلا كان الجمود والتخلف والهزيمة، ولا يمكن أن يتم ذلك على وجه صحيح إلا بالوعي والصدق والعمل الدائب من أجل التغيير، وتلك هي معادلة التاريخ التي يمكننا أن نمضي حسب منطقها، سنة الله في الأرض ولن تجد لسنة الله تبديلًا.

واستعدادًا لمبدأ المحاكمات «ونحن الدفعة الثالثة بعد دفعة أكتوبر 1954 ومارس 1955» جمعونا في طوابير، وتسلم كل واحد منا «الادعاء» المقام ضده، وقرأت الادعاء، فكان مفاده أنني اشتركت في نظام سري مسلح يعمل على قلب نظام الحكم بالقوة والعنف، مخالفًا بذلك قوانين البلاد، وقرار حل جماعة الإخوان المسلمين.

ثم أعادوا توزيعنا في زنزانات أخرى، طبقًا لنظام لا نعرفه، ووجدت نفسي في غرفة في الدور الثاني فيها الفلاح عبد العزيز نوفل من قرية «ميت أول الليت هاشم» قرب مدينة المحلة الكبرى المدينة الصناعية الشهيرة، وفيها حسن عبد الهادي وهو مشرف في مصنع للزجاج يملكه عمه، وهو في نفس الوقت صهره، ورجلان متقدمان في السن من قرية من قرى بني سويف أحدهما الحاج محمد كحيل وهما فلاحان، والأخ ناجي «دبلوم صناعي»، وآخرون لا أتذكرهم حاليًا..

كان الفلاح عبد العزيز نوفل يعمل خفيرًا في إحدى العزب، وكان يجمع بعض القروش القليلة من صغار الطلبة، ويرسلها لأسرة أحد المسجونين الفقراء من الإخوان المسلمين، واتضح أن المبلغ الذي يجمعه في حدود ثلاثة جنيهات تقريبًا، وكان عبد العزيز نبيلًا صادق الفطرة، إذ قرر أن يتحمل العبء وحده، فقال في التحقيق: «أنا الذي أدفع الجنيهات الثلاثة..».

- «لكن هذا مبلغ كبير.. ولا شك أنك تتزعم شبكة لجمع الاشتراكات..».

- «أنا رجل جاهل مسكين، ولا أعرف ما تتحدثون عنه. كان الأمر مجرد صدقة أدفعها عن طيب خاطر لجار لنا..».

- «ألم تكن من الإخوان المسلمين..».

- «كلنا مسلمون يا بك..».

- «من كان رئيسك في التنظيم؟».

- «لا رئيس ولا يحزنون..».

وتعرض عبد العزيز لضرب شديد لعله يضيف شيئًا إلى اعترافاته، لكنه أصر على موقفه وطلبوا منه أن ينتزع شعر شاربه الكث بيده، تحت ضرب السياط، ولم يجد مناصًا من أن يفعل، يقول عبد العزيز: «لقد ساعدني الله.. لم أشعر بألم يذكر.. وأخذت أنتزع الشعر بهدوء حتى أديت المهمة.. لكني لم أغير كلامي..»..

وكان عبد العزيز قوي الجسم، فارع الطول، متين البنيان، يوحي لمن يراه بالنموذج الكامل للبطل الشعبي في أعماق الريف، ويحفظ بعض الأوراد، وقليلًا من القرآن الكريم، وبعض أشعار السير الشعبية، كان كثيرًا ما يردد موالًا شهيرًا يقول فيه:

«انهض يا علي... انهض عمر.... عمر انحظر... في أرض واسمها صالحجر».

وعلى الرغم من أنني لا أعرف سندًا تاريخيًا لمجيء الإمام علي بن أبي طالب، أو عمر بن الخطاب إلى صالحجر تلك البلدة الموجودة في دلتا مصر، إلا أنني كنت أطرب لصوته القوى الجياش بالعاطفة، وخاصة عندما ينفعل وتجتاحه الحماسة، وتبتل عيناه بالدموع.. وبعد أيام نما شاربه من جديد.. وابيض وجهه الأسمر لطول إقامته بالزنزانة.. وكان أنموذجًا فذًا في

الصبر والإيمان والاطمئنان لقضاء الله.. مرة واحدة وجدته شاردًا يفكر.. وطال شروده، ثم انفجر باكيًا.. وجاء صوت الحاج محمد كحيل: «اذكر الله يا عبد العزيز..».

وسرعان ما جفف دموعه بطرف كمه الواسع، وعاد يبتسم وهو يقول: «الشيطان شاطر.. لقد تذكرت الأطفال وأمهم.. لكن.. استغفر الله.. لهم رب يرعاهم ويرعانا..».

أما مشرف مصنع الزجاج بشبرا الأخ حسن عبد الهادى، فقد كان خفيف الظل، لديه رصيد هائل من القصص والحكايات والأخبار، وهي موهبة يحسد عليها، لأنه كان يستطيع بحسن أسلوبه، وطرافة قصصه، أن يحلق بك في عالم مثير آخاذ، فتكاد تنسى كل ما حولك، وإذا انصرفنا عنه، يضع «رأسه في عبه» كما يقولون، ويستغرق في الصمت..

لقد اعتقل حسن عبد الهادي لأنه كان يحمل قصيدة من الشعر كتبها أحد الشعراء الإسلاميين، يرسم فيها صورة محزنة لما يجري في مصر، ولما يتعرض له الإخوان المسلمين من عذاب واضطهاد، كان حسن يحفظ القصيدة عن ظهر قلب، وفيها الكثير من الأوصاف الجارحة لعبد الناصر وسلوكه، وفي التحقيق طلبوا منه أن يقف فوق كرسى وأن يترنم بالقصيدة في صوت جهوري.. بشرط.. كل حرف بكرباج.. يا إلهي!! لكن لا حيلة.. ولم يكد حسن يلقى أبياتًا ثلاثة فقط، حتى سقط من فوق الكرسى في شبه إغماءة لكثرة ما ناله من سياط العسكر، والضباط يضحكون.. ويصفقون ويقولون «برافو.. أعد يا أبو على أعد.. إيه الجمال ده.. يا رجل يا فصيح..».

أما الرجل الثاني من محافظة بني سويف فكان يبدو عليه الوقار.. وقار عمدة القرية صاحب الحول والطول، وكثيرًا ما عانى في طوابير الجرى السريع بسبب البدانة التي يتسم بها، ويعاني منها، وخاصة أن المتخلفين في طوابير الجرى، كانوا يتعرضون لهجوم الكلاب الشرسة.. كان بالسجن الحربي عدد من الكلاب المدربة أذكر أشهرها «توسكا» الكلبة المدللة، و«لكي» الكلب المحظوظ، وكانت هذه الكلاب تهاجم المعتقل عندما ترى العسكري يهوي عليه بالسوط، بل وتستجيب لدعوة الجاويش إذا أشار إلى أحد المعتقلين.. وأخونا من بني سويف -كما قلت- تعرض مرارًا لشراسة الكلاب، وقد نهشته في مؤخرته، فمزقت ثيابه، وأحدثت جروحًا غائرة في جسده، احتاجت لفترة طويلة للعلاج..

ما إن تحددت أيام المحاكمة، حتى ساقونا أفواجًا مرة أخرى إلى مكاتب التحقيق، وذلك في إجراء شكلي لقراءة المحاضر التي وقعنا عليها عند التحقيق، والإقرار بأن كل ما جاء فيها صحيح، عندما ذهبت، وجدت ممثل الادعاء البكباشي سعد الدين خليل، وقائد السجن الحربي حمزة البسيوني، وعدد كبير من ضباط «المباحث العامة» والمخبرين.. وقد حاول بعض الإخوان إنكار ما جاء في المحضر، فكان أن جروهم أمامنا، وظلوا يوقعون بهم العقاب المرير، حتى تراجعوا، ووافقوا على ما جاء في المحضر، ووقعوا بذلك.. وكان واضحًا أنه لا مجال للإنكار أو التغيير، أو الاحتجاج بالتعذيب فيما ورد من اعترافات تؤدي لا محالة إلى السجن..

وقبيل الذهاب إلى المحكمة، أعادوا على مسامعنا التحذير تلو التحذير، من ذكر أي شيء عن التعذيب، وأدخلوا في روعنا أن الأحكام معدةٌ سلفًا، وأن الإنكار لن يجدي، وخير لنا أن نقر بما جاء في محاضر التحقيق حتى تنتهي المحاكمة بسرعة لأن الحكومة مشغولة بما هو أهم..

كانت قضية «العنف» -كما سموها- لعبد المنعم سليم وإخوانه من أوائل القضايا التي نظرت.. في الليلة السابقة للمحاكمة، نزلنا إلى ساحة سجن 4، وجلسنا على الركبتين فوق الحصا والظلط.. رافعين الأيدي إلى أعلى.. وبقينا هكذا لبضع ساعات.. والعسكر يتسلون بضربنا بالسياط على دفعات قليلة.. مجرد تذكير حتى لا يصدر منا غدًا أي تصرف لا يرضون عنه في محاكمة الغد..

وفي الصباح وقفت مجموعتنا أمام السجن الحربي «الكبير» المجاور لسجن 4، ووجوهنا إلى الحائط وأخذ الأومباشي يقرأ الأسماء، ليتمم علينا، وعندما جاء اسم الزميل محمد الفاتح عمر، نطقها الأومباشي «الفانخ» أي أبدل التاء بالنون، والحاء بالخاء، فصحح له محمد الاسم، وكرر الأومباشي نطق الاسم خطأ، فعاد محمد وصححه للمرة الثانية.. فما كان من الأومباشي إلا أن أمسك بالسوط وهوى به ثلاث مرات على رأس محمد الفاتح، ثم عاد يسأله مرة أخيرة: «محمد الفانخ يا ولد؟».

- «نعم «الفانخ» يا افندم..».

- «أعرفكم.. إنكم تغيرون أسماءكم..».

وكتمنا الضحك على الرغم من قسوة الموقف، وبقينا طوال فترة السجن، ننادى محمد الفاتح باسمه الجديد، وهو يضحك.

أخذتنا السيارات المغلقة إلى مكان قريب،، قيل إنه الكلية الحربية، وسط معسكرات العباسية، وجلسنا فرادى على مقاعد أسمنتية باردة، وأمام كل واحد منا جندي مصوب مدفعه بصفة دائمة نحو رءوسنا.. وطال الانتظار وكان كل من يحاكم يخرج، ويجلس في نفس مكانه السابق..

شعرت برغبة شديدة في الذهاب إلى المرحاض، استأذنت من الجندي، فقام بدوره وهو في مكانه بالاستئذان من رئيسه الذي يمر من وقت لآخر، وذهب رئيسه إلى من هو أعلى رتبة منه، وهكذا حتى صدرت الموافقة.. وسرت أمام الجندي والمدفع الرشاش في ظهري.. عندما وصلت إلى المرحاض قيل لي لابد أن تبقي الباب مفتوحًا، هكذا الأوامر، وتلفت الجندي يمنة ويسرة، ثم قال لي هامسًا: «من أنتم؟».

قلت -«ألا تعرف؟».

- «جئت في مهمة للحراسة ولا أعرف شيئًا..».

- «نحن إخوان مسلمون.. أتوا بنا من السجن الحربي للمحكمة..».

- أوه.. هكذا.. أما يزال هناك إخوان؟».

ثم عاد إلى وضعه الرسمي من جديد.. وعدت إلى مكاني الأول..

ورغب عدد آخر من الإخوة في الذهاب إلى دورة المياه، بعد أن طال وقت الانتظار، ولم تحدث ممانعة في البداية، لكن بعد أن كثر العدد صاح أحد الضباط في غضب: «لن يذهب أحد بعد ذلك إلى دورة الماء.. من أراد أن يفعل شيئًا فليفعل وهو جالس..».

وضحك الضباط والعسكر، أما نحن فقد بقينا صامتين دون حركة.. ولم يصبنا الدور في المحاكمة أول يوم، لكن أمرًا غير عادي قد حدث، لقد رأينا أحد المحامين، وهو اللواء عباس زغلول، يدخل المحكمة للدفاع عن بعض المتهمين، وهم من أسرة عمارة، وخاصة فتحي وفؤاد، لقد فكرنا أن نوكل محامين للدفاع عنا، لكن رئيس دائرة محكمة الشعب التي تحاكمنا وهو اللواء صلاح الدين حتاتة، رفض ذلك بشدة، وقال قولته المشهورة: «نحن هنا

في المحكمة مثل مجالس العرب.. لا محامين ولا دياولو.. الشعب قال لنا خلصونا من هؤلاء الناس المجرمين ونحن نقوم بهذا الواجب..».

لكن الإخوة من أبناء عمارة، وهم إخوة أعزاء، وعلى خلق طيب كان لهم إخوة وأقارب من كبار ضباط الجيش، وعلمنا أنهم توسطوا لهم كي توافق المحكمة على أن يقوم اللواء زغلول المحامي بالدفاع عنهم، وكان من ضمن ما جاء في دفاع اللواء زغلول عن الأخ المتهم «فؤاد عمارة» الآتي:

«حضرات القضاة.. إن المتهم فؤاد عمارة صغير السن.. طالب في إعدادى كلية الهندسة.. وقد خدعه وضلله المتهم عبد المنعم سليم.. انظروا يا سيدي الرئيس إلى وجه عبد المنعم سليم.. ألا ترون أنه وجه إرهابي ضليع مخيف.. أقسم يا سيادة الرئيس لو أن عبد المنعم سليم دخل علي بسحنته تلك. لبايعته على الفور..».

ولم يحكم على فؤاد إلا بخمس سنوات سجن مع إيقاف التنفيذ، فيما بعد، وخرج مع المعتقلين، وكذلك فتحى عمارة الذي نال البراءة، وخرج معه..

لنعد إلى ما كنا فيه.. ذهبنا للمحكمة مرة أخرى، وجلسنا في مكان المتهمين، عبد المنعم سليم، وإبراهيم الصياد، والمرحوم محمد يحيى شيته طالب الحقوق، وفؤاد عمارة، وأنا.. من غريب الصدف أن إبراهيم الصياد من قرية تجاور قرية رئيس المحكمة اللواء صلاح الدين حتاتة، وكان واضحًا أن الرئيس حتاتة يعرف إبراهيم، وابتدأت محاكمة إبراهيم، وكان الحوار يدور أساسًا حول نقطة أثارها رئيس المحكمة، مؤداها أن الطب تخصص، وأن على المتهم أن يهتم بذلك، أما العمل بالسياسة والدعوة الدينية فليس من اختصاصه، ورفض إبراهيم هذا المنطق، وقال إن الدعوة الإسلامية أمانة في عنق كل مسلم، سواء أكان طبيبًا أم عالمًا دينيًا، وطلب منه القاضي الأدلة، فقام إبراهيم بشرح وجهة نظره والتدليل عليها، لكن السيد اللواء ظل مصرًا على موقفه، وأكد أن الدعوة من واجب رجال الأزهر وحدهم كجهة اختصاص.. وعلى الرغم من أن هذه كانت نقطة هامشية بالنسبة لقضية التنظيم المطروحة، إلا أنها أخذت وقتًا طويلًا..

وبعد أن انتهت محاكمة إبراهيم نادوا اسمى فوقفت..

كان ثلاثتهم يجلسون على المنصة اللواء حتاتة في الوسط رئيسًا، وضابط كبير من البحرية، وآخر من المشاة على ما أذكر، كعضوية يسار ويمين، وقال حتاتة دون اكتراث: «مذنب أم غير مذنب؟».

قلت: «غير مذنب».

التفت إلى البكباشي سعد الدين خليل المدعي أو ممثل الاتهام وقال له: «المدعي عاوز يقول حاجة؟».

وقف المدعي، ووضع يديه على طاولة أمامه، وقال: «المتهم اعترف بكل شيء.. ولا داعي للتفصيل.. ولهذا أطالب بالعقوبة المناسبة...».

التفت حتاتة صوبي وقال: «هل لديك شيء تقوله..».

قلت: «ما دام لم يسمح لنا بمحام، فأرجو من هيئة المحكمة الموقرة أن تفسح لي صدرها..».

- «قل وخلصنا..».

قلت وأنا أرتجف واكتم انفعالي: «سيدي الرئيس.. إن الادعاء المقام ضدي يرميني بتهمة خطيرة، وهي الاشتراك في جهاز سري مسلح لقلب نظام الحكم بالقوة.. وتعلمون سيادتكم أن مثل هذا القول لكي تثبت صحته لابد من توافر أشياء أساسية ثلاثة:

أولها: وجود السلاح، ثانيها: وجود خطة ولو مبدئية للتنفيذ، ثالثها: صفة السرية».

فهل وجدتم عندي سلاحًا؟ هل في التحقيق معي ما يفيد -ولو من بعيد- بإعداد خطة لعمل انقلاب؟ وهل كان هناك أحد يجهل أننا نتمي لجماعة الإخوان المسلمين؟ إن نشاطنا نشاط ثقافي بحت، أو هذا ما كنا نقصده أو مارسناه فترة قصيرة من الزمن، ولا يعتبر النشاط الثقافي سرًا من الأسرار.. نعمله في الجامعة.. وفي الشارع.. وفي البيت.. في أي مكان..

علق الرئيس قائلًا: «يا سلام.. تعمله علنًا؟».

- «نعم.. لأنه لا خطر منه، ولم يصدر قانون بمنعه..».

- «يبدو أنك «عنتيل»..».

وعدت لاستطرد في شرح وجهة نظري. لكني لاحظت أن اللواء حتاتة قد انصرف عني، وأخذ يتكلم مع عضو اليمين، فتوقفت عن الحديث.. ولما أدرك ذلك قال في شيء من الغضب: «هيه.. واصل حديثك..».

وتكرر الموقف مرة أخرى، فقال بحدة: «قلت لك تكلم.. ولاشأن لك بي..».

وحاولت أن أثبت أن اتفاقي مع عبد المنعم قد انتهى بعد أن افترقنا، وأصبح ماضيًا، إلى جانب كونه مجرد علاقة أخوية ثقافية:

وعاد اللواء حتاتة للمدعى العام يسأله: «أتضيف شيئًا..».

ابتسم المدعى وقال: «لاشيء.. الاعتراف موجود، وموقع عليه من المتهم.. ولا أطالب إلا بالعقوبة المناسبة..».

وعدنا في المساء إلى سجن 4، شعرت أن جزءًا كبيرًا من العبء النفسي الذي أرزح تحت آلامه قد انزاح، ولم يبق سوى إصدار الأحكام.. لكن ذلك لن يتم إلا بعد الانتهاء من محاكمة ما لا يقل عن ثلثمائة شخص..

وكانت المحاكمات تجري بصورة هادئة، ولم تكن تستغرق بالنسبة لكل متهم سوى دقائق في أغلب الأحيان، وأنكر بعض الإخوان ما نُسب إليهم في محاضر التحقيق، لكن المحكمة كانت ترد إنكارهم عليهم نظرًا لأنهم قد وقعوا بمحض «إرادتهم» على أقوالهم، ولم يكن في استطاعة أحد أن يشير صراحة إلى التعذيب، طبقًا للأوامر الصارمة، ولجأ المنكرون إلى حيلة يعرفها القضاة العسكريون في هذه المحكمة، كأن يقول المتهم: «لقد كنت متعبًا جدًا.. ولهذا قمت بالتوقيع دون أن أعي تمامًا وكان حتاتة ومن معه يبتسمون في استخفاف، ثم يعلق القاضي «المحترم» ساخرًا: «ولماذا التعب؟» إنكم تأكلون وتشربون بالمجان.. وليس وراءكم أي عمل.. وكما يقول المثل، أكل ومرعى، وقلة صنعة، ...».

وفي الواقع لم يكن هناك أدنى فائدة من الإنكار أو الدفاع عن النفس بالمنطق والبرهان، فكل شيء يتم من جانب واحد، والقضاة هم الخصم والحكم، فضلًا عن أن وجودهم وجود شكلي، فالأحكام كما أكدوا لنا أكثر من مرة جاهزة، ومهمة المحكمة أن تقوم بالدور المنوط بها، طبقًا للسيناريو والإخراج الذين أعدهما رجال المباحث العامة..

وفي يوم من الأيام -أثناء المحاكمات- سمعنا ضجة كبرى في معتقل 4، سبابًا وصراخًا وحركة غير عادية، وغلقت الأبواب، فأخذنا نصيخُ السمع لما يجري، كنا في الدور الأعلى، وبدأت حركة تعذيب هائلة مثيرة، والإخوة المعتدى عليهم يصرخون ويتألمون ويستغيثون.. ولا مغيث.. وتساءلنا في حيرة.. ماذا جد من أمور؟ هل قبضوا على تنظيم جديد؟ هل أصيب الرئيس -لا سمح الله- بمكروه؟! إن الأمر يبدو خطيرًا، واستمر التعذيب من الساعة الرابعة عصرًا «مساءً» حتى العاشرة مساءً. وأخذنا نلتقط كلمة من هنا وهناك.. كنا نسمع كلمات قصارًا.. نحاول تحليلها.. وربطها.. محاولين في صعوبة أن نشكل تصورًا مبدئيًا لما يجري.. واتخذ الموضوع أبعادًا خطيرة، حينما حاولوا الإساءة إلى المتهمين بأسلوب رخيص تشمئز منه النفس، وذلك بمحاولة الاعتداء عليهم جنسيًا، وكنا نسمع -في تقزز- الكلمات البذيئة، والرفض الدامي من المعتدى عليهم.. وسمعنا أيضًا عبارات مثل:

«كيف تتبجحون أمام المحكمة؟».

«أتظنون أنفسكم رجالًا؟».

«إننا نعرف كيف نؤدبكم، ونقطع ألسنتكم للأبد يا أولاد الـ..».

وعلق أحد الإخوة المعتقلين قائلًا: «واضح أن صدامًا حدث بين المتهمين وهيئة المحكمة..».

واستطعنا أن نميز أسماء بعض الإخوة الذين علقوا من أيديهم وأرجلهم في ساحة السجن، عراة تمامًا.. أحمد حامد قرقر «رحمه الله»، محمد أنور رياض، ومحمد الطويل، ومحمد شفيق.. وغيرهم.. كانوا تسعة عشر..

وحوالى الساعة العاشرة مساءً سمعنا الصفارات المجنونة، ودعونا جميعًا للنزول إلى الساحة الكبيرة خارج سجن 4، ووجدنا عددًا هائلًا من العسكر بعضهم يحمل الرشاشات، والبعض الآخر يحمل السياط، وشاهدنا فئة ثالثة تحمل السكاكين أو العصي.. كنا نهبط الدرج ونجرى والضرب يعتورنا من كل جانب، وجو الرعب البشع يسود المكان، فكرنا بسرعة، ظننا أنها النهاية بالنسبة لنا جميعًا.. يبدو أنهم قد قرروا التخلص منا.. علق أحد الإخوان «يا إلهي.. هل هذا يوم الحشر؟» ووقفنا أخيرًا على هيئة مربع.. وكل ضلع من أضلاع هذه المربع يتكون من عدد من الصفوف المتلاصقة المتزاحمة.. وران علينا صمت

كالموت.. وسمعنا صوت نعرفه جيدًا: «الولد اللي هناك ده.. أنت تعال.. لماذا تتحرك.. خمسون كرباجًا..»، كان صاحب الصوت البكباشي حمزة البسيوني، وفي لحظة، كانت السياط تهوي على الأخ المسكين، حتى تكوم على الأرض، ثم دار حمزة بنظراته الشرسة مرة أخرى، وأشار إلى معتقل ثانْ.. وثالث.. ورابع.. وتكرر نفس الشيء.. ثم ساد الصمت من جديد..

كان حمزة البسيوني يقف متنفش الشعر كالديك، ووجهه الأبيض المشرب بالحمرة يبدو في بحر الأضواء الكهربائية كتمثال شمعي رخيص، ليس فيه أدنى شعور بالإنسانية.. وقال بصوت أجش كريه: «اسمعوني جيدًا..».

«أنا هنا أفعل ما أشاء، لا يحاسبني أحد..».

«اسألوا إخوانكم القدامى.. لقد دفنت عددًا منهم في رمال صحراء العباسية هنا.. أنا أحكم وأنفذ...».

ثم أشار بيده إلى وسط المربع في الساحة وقال: «انظروا إلى هذه الحيوانات..».

ونظرنا.. يا ربي.. كان الرجال التسع عشرة عرايا تمامًا.. والقيود الحديدية في أيديهم من الخلف.. والدماء تنزف من أجسادهم ورءوسهم ووجوههم.. كأنهم قد كفّنوا أحياء بشيلان حمراء.. ستة منهم كانوا ملقين على الأرض لا يستطيعون الحركة.. والباقون ظلوا وقوفًا كالتماثيل المرمرية الحمراء.. لأول مرة أراهم على الرغم من أنني أقف في الطابور منذ ما يقرب من عشر دقائق.. وعاد حمزة البسيوني يقول: «نعم هم حيوانات.. فالإنسان لا يقف هكذا... أنا قلت ألف مرة دافعوا عن أنفسكم في المحكمة.. لكن بأدب.. هؤلاء البهائم أساءوا الأدب في المحكمة اليوم.. ولهذا كان لابد من تلقينهم الدرس الذي يستحقون حتى يتأدبوا.. أنا هنا القانون.. أنا أفعل ما أشاء.. ولن يستطيع أحد أن يفلت من يدي».

تذكرت في هذه اللحظات مئات الألوف التي تشق حناجرها من الهتاف للزعيم القائد وهو يتحدث عن الحرية والكرامة، وعن شعاره العظيم «ارفع رأسك يا أخى فقد مضى عهد الاستعباد».. تمنيت في هذه الساعة أن أهتف «يحيا العدل» لكن كلمة واحدة الآن معناها الموت.. وما أسهل أن يكتبوا أمام اسمى «فرار أو هروب»..

ومضى حمزة خارجًا من وسط الساحة شامخ الرأس متألها، وسمعته يقول للضابط النوبتجي بصوت عالٍ: «فليبقوا هكذا حتى الفجر.. ومن يتحرك منهم أدنى حركة يضرب خمسين كرباجًا فورًا..».

لم نبق حتى الفجر كما قال، فقد أعادونا إلى الزنازين حوالي الواحدة بعد منتصف الليل، كانت أرجلنا شبه متصلبة لطول الوقوف، وأغمي على عدد من المعتقلين لكنهم كانوا يفيقون بالسياط..

حينما عدنا إلى الزنازين في هذه الليلة الليلاء تنهدت في حزن، والدموع تتساقط من عيني وقلت: «الحمد لله.. لقد نجونا من الموت بأعجوبة..».

لكننا حتى هذه اللحظة لم نكن نعرف تفاصيل ما جرى في المحكمة، وفي الأيام القليلة التالية تجمع لدينا كل ما حدث في المحكمة في ذلك اليوم المشهور.

لقد دأب اللواء صلاح الدين حتاتة على السخرية والاستهزاء من المتهمين بصورة منفرة لا تطاق، واستشاط بعض الإخوان غضبًا وقرروا الرد على بذاءته بأسلوب مناسب، مهما كلفهم الأمر من تضحيات..

سألت أحمد حامد قرقر عما جرى، فقال: «سألني القاضي عن سبب ممارستى لنشاطي الديني، مع أن الحكومة قد أصدرت قرارًا بحل الإخوان المسلمين، فكان جوابي أننا لا نعترف بقرار الحل، إننا لم نأت بقرار لنلغى بقرار.. هاج القاضي وماج.. وسب ولعن.. فأفهمته أن هذا لا يليق برجل مثله في مكانة القضاء المقدس.. ولم يكن ليقبل أن أوجه إليه النصح والإرشاد.. فصحت في وجهه: لو بقيت قطرة دم منا لظلت تهتف «الله أكبر ولله الحمد».

وسألت محمد أنور رياض فقال: «لقد فوجئت باللواء حتاتة يقول لي في بجاحة شكلك مثل شكل الخولات.. اشتعل جسدى من الغضب.. قلت له في تحدٍ: احترم الكرسي الذي تقعد عليه يا سيادة القاضي..».

بإيجاز كان الحوار في المحكمة يدور حول بطلان قرار الحل ، وحق الشعب في التعبير عن رأيه، والالتزام بالإسلام شرعة ومنهاجًا، وبطلان السلطات الاستثنائية، والمحاكم العسكرية، وضرورة التقيد بالقوانين الصحيحة، والإجراءات الجنائية السليمة، وكفالة كل

الحقوق الإنسانية التي يجب أن يتمتع بها المتهمين، كما قام بعض المتهمين بخلع ملابسهم أمام القاضي وإظهار آثار التعذيب كالسياط والحرق بالنار وخلع الأظافر وغيرها.. وذهل المتهمون إذ رأوا القاضي يعلق بعبارات سمجة ساخرة..

إن هناك لحظات نادرة قد يرى الإنسان فيها أن الموت أفضل من الحياة.. لقد يئس الذين آمنوا من عدالة المحكمة تمامًا، ورأوا أن يقذفوا في وجهها بالحقيقة دون خوف.. ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ [الأحزاب:23].

لقد كان السكوت والاستسلام سمة عامة في هذا المكان الموحش الرهيب، لكن فئة من الرجال المؤمنين أبوا إلا أن يصفعوا وجه الطغاة بالحقيقة والصدق، وذرفنا الدموع من أجلهم.. والغريب أن هؤلاء الإخوة حظوا باحترام الجلادين أنفسهم، فقد وقع أمامي حادث صغير لا أنساه.. كنا نجلس على الأرض طابورًا في انتظار التوزيع الجديد، وجاء الجاويش أمين رائد التعذيب الأول في السجن الحربي، ولما رأى «المرحوم أحمد حامد قرقر» جالسًا معنا، اقترب منه، وصافحه بحرارة وقال: «أنت رجل يا قرقر.. لا يوجد في مصر كلها عشرة مثلك.. أنت بطل..» ثم نادى بأعلى صوته قائلًا: «عسكري.. هات شاي لقرقر..».

واحمر وجه أحمد حامد قرقر خجلًا لما سمعه من إطراء، وأخذ يردد: «العفو.. العفو.. لا بطل ولا حاجة.. المسألة بسيطة..».

كانت جراح «قرقر» قد التأمت، وعادت الحيوية والنشاط إليه، وأصبح الدرس الذي لقنه لسيادة القاضي المشهور على كل لسان في المعتقل، سواء العسكر أو الضباط أو قدامى المعتقلين والمحدثين منهم، وكان أحمد حامد قرقر موظفًا، وفي نفس الوقت طالبًا في كلية التجارة، كما كان متزوجًا، وله طفل واحد ولد قبل دخوله المعتقل بشهور اسمه «مورو»، ولعله سماه بهذا الاسم تقديرًا لما بذله الدكتور عبد الوهاب مورو باشا مدير جامعة القاهرة من جهود رائدة، في مساعدة الفدائيين الجامعيين إبان معركة القنال، وتأصيله لمعاني الحرية والتضحية أثناء ولايته بالجامعة..

وحكم على «أحمد حامد قرقر» فيما بعد بالأشغال الشاقة عشر سنوات، ثم نقل إلى «ليمان طره» مع عدد من إخوانه، حيث قتل بعد ذلك بحوالي عامين داخل السجن في حادث طره

الشهير الذي دبرته حكومة الرئيس ضد المسجونين من الإخوان وراح ضحيته واحد وعشرون سجينًا، وقد صدرت بعض المؤلفات عن هذا الحادث البشع.. وأخذنا ننتظر صدور الأحكام..

وفي أحد الأيام ساقونا جميعًا إلى المحكمة.. كانوا يطلقون علينا «جهاز يوليو سنة 1955» وكان الأمر بسيطًا وسريعًا رغم خطورته..

كنا ندخل واحدًا واحدًا.. وينادى على الاسم.. ثم ينطق اللواء حتاتة بالحكم في لحظات.. ونودي عليّ، وقلت: «أفندم..».

وأديت التحية، وأنا أقف «انتباه» حليق الرأس.

وقال رئيس المحكمة: «حكمت المحكمة حضوريًا على المتهم نجيب الكيلاني عبد اللطيف بالسجن عشر سنوات مع التنفيذ».

أديت التحية، وقلت: «متشكر»، ودرت لليمين طبقًا للنظم العسكرية، ثم خطوت إلى الخارج..

قلت لأخي إبراهيم الصياد، وكان قد حكم عليه هو الآخر بالسجن عشر سنوات: «الحمد لله.. سوف نخرج من جحيم السجن الحربي، ونذهب إلى السجون المدنية.. إنني أعتبر الخروج من هنا شبه إفراج..».

كز إبراهيم على أسنانه في أسى وحزن وقال: «سوف نبدأ رحلة عناء جديدة.. ستظل الحكومة تلاحقنا حتى الموت.. هذا قضاء الله، ولابد من الرضى به..».

أما عبد المنعم سليم فقد حكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة..

وعند عودتي من المحكمة، وبينما كنا نقف طوابير أمام مكاتب التحقيق، جاء أحد ضباط السجن الحربي وهتف باسمي، وردد العسكر اسمي وراءه، فصحت في دهشة: «افندم..»، فأخذونا إليه، نظر إلي ثم سألني عن الحكم الذي صدر ضدي فقلت «عشر سنوات سجن»، فقال: «مع إيقاف التنفيذ؟» قلت: «لا.. بل تنفيذ..» فلوى شفتيه، وهز رأسه وقال: «مع السلامة»، ولم يكن لذلك من معنى سوى أن أحد الأقارب كان قد كلفه بالسؤال عني..

بعد الأحكام انتقلنا إلى السجن الحربي الكبير في جناح خاص، وتم تجميع المحكوم عليهم في الزنازين المتجاورة استعدادًا لترحيلهم إلى السجون المدنية، وقضينا بضعة أيام ننتظر الترحيل، وخلال تلك الفترة التقيت بالإخوة الأساتذة يوسف القرضاوي وعبد الودود شلبي ومحمد الوكيل والأستاذ الدكتور عبد العزيز كامل وقورى اليهودي.. والبشير الإبراهيمي الجزائري المبتور اليد..

ومما يجدر الإشارة إليه أن الأستاذ المرشد حسن الهضيبي كان في بداية هذه الفترة رهين محبسه في السجن الحربي رقم 2، وكان يحلو للجلادين أن يمارسوا طقوس التعذيب إلى جوار نافذة زنزانته إمعانًا في إقلاقه وإيذائه.. لكنهم نقلوه بعدها إلى سجن مصر..

إن المدة التي قضيتها في السجون الحربية كانت أقل من ثلاثة شهور، لقد دخلت هذا المكان في الثامن من شهر أغسطس عام 1955، وتم ترحيلي منه في أواخر شهر أكتوبر من نفس العام حسبما أعتقد، وإن كنت لا أتذكر تاريخ الترحيل بالضبط.. هذه الفترة العصيبة كانت حدثًا ضخمًا في حياتي.. لقد أفقت على عالم جديد.. ورأيت الناس بصورة أخرى.. وكان لابد أن أعيد النظر في كل شيء.. لم أكن أتخيل أن هناك نوعيات من البشر أشد حماقة وقسوة وشراسة من وحوش الغاب.. إن أشياء كثيرة عن البراءة وحسن النية تنزوي أو تضمر في داخلي.. وأخذت أتساءل: لماذا هذا العناء؟ وهل للعدالة صورة متعددة؟ لمن الملك؟ ومع من الحق، ولماذا يطغى الطغاة، ويقسو الجلادون؟ لماذا لا نتحاور بدلًا من أن نتحارب؟ ولماذا لا نتفاهم بدلًا من أن نقتل أو نسيل الدماء؟ ولماذا ينجرف الناس لتيار الهوى، ويميلون مع القوة، ويرهبون السلطان ويلغون إرادتهم وذواتهم؟ ولماذا الغرور والجشع وسوء الظن؟ ولماذا التمادي في الانتقام، والقسوة في العقاب؟ علامات استفهام كثيرة كانت تموج في رأسي.. ولم أجد لها جوابًا شافيًا.. كان لابد من التفكير الطويل، والدراسة، والتأني، وإعادة النظر في كل شيء مرة أخرى.. وليس هناك داع للعجلة.. فأمامي عشر سنوات سأقضيها –إذا أراد الله– في غياهب السجون.. عندئذ ستكون أمامي فرصة كافية جدًا للتفكير العميق، والدراسة المستفيضة..

وصدرت أحكام محكمة الشعب.. وأعيد تنظيم إسكاننا في السجن الحربي، المحكوم عليهم في أماكن خاصة، والبراءة في مكان آخر، أما من أخذوا أحكامًا مع وقف التنفيذ، فقد كانوا في جهة ثالثة.

وذات يوم نادوا أسماء المحكوم عليهم، وتراصت صفوفهم، وفهمنا أننا على وشك الرحيل.. إلى أين؟ لا ندري.. وجاءوا بسيارات كبيرة مغلقة.. وتم وضعنا فيها.. وكل سجين مربوط مع شرطي في قيد واحد.. ودارت بنا السيارات من طرق خارج مدينة القاهرة، كنا نعبر القبور أو المدافن الواسعة.. ومدينة الموتى تبدو كمستعمرة شاحبة متربة، يكتنفها الحزن والأسى.. وانتابنا صمت عميق.. النظرات الشاردة، والضوء الخافت يتسلل داخل السيارات بصعوبة، والجد والصرامة تبدوان على وجوه العسكر، وكأنما قد عافت النفوس الكلام.. وشق الصمت صوت أحد الإخوة فجأة:

«الله أكبر ولله الحمد..».

الله غايتنا.. والرسول زعيمنا.. والقرآن دستورنا.. والجهاد سبيلنا..

والموت في سبيل الله أسمى أمانينا..

واشتعلت السيارات المتتابعة بالهتاف الصاخب، وتوترت أعصاب الحراس، وأخذ كبار الضباط يحثون السائقين على الإسراع في سيرهم، بعد أن فشل تهديهم لنا بالسلاح..

كانت الهتافات مجرد تنفيث عن القهر والكبت والعذاب الطويل.

إن الإيدي مقيدة، والنفوس ثائرة، والظلم تمادى دون رادع، وكان الهتاف «أضعف الإيمان».

وأمام بوابة سجن القاهرة «قرة ميدان» توقفت السيارات..

كانت الساحة أمام السجن ممتلئة برجال الأمن والشرطة.. ولم يسمح لأحد من عامة الناس أن يتواجد أمام البوابة رغم أن الوقت ضحى، ظلت الهتافات تدوي حتى ابتلعنا جوف السجن الكبير.. وهكذا بدأنا مرحلة جديدة..

****

الجزء الثالث

[1] في «قرة ميدان»



كان سجن مصر -أو قرة ميدان- كما كانوا يسمونه، أول سجن مدني، أصل إليه مع الدفعة الجديدة من الإخوان، وكان بالباب الضخم الأسود منفذ يدلف منه الداخلون، فالباب الكبير لا يفتح في العادة، ولكن يفتح هذا المنفذ فقط، ويضطر الداخل أن ينحني حتى يمر منه، لأنه دون قامة الإنسان، ولا يتسع لدخول أكثر من واحد، كنا نمضي في طابور طويل واحدًا واحدًا، ثم تجمعنا في الساحة الصغيرة، وبعدها أغلقوا الباب..

قال أحد الإخوة ساخرًا وسط الجو المتوتر الكئيب: «أيها الداخلون ودعوا آمالكم..».

ترقرقت الدموع في عيون البعض، ولم تنطفئ تلك الابتسامة التي ترتسم على الوجوه الشاحبة رغم ما يجثم على الصدور من آلام، وصاح الملازم رجائي في شيء من الحزم والضيق: «لا أريد أن أسمع صوتًا.. فيه هنا نظام..».

وأخذوا يسجلون أسماء «الوارد» وهو المصطلح الذي يطلقونه على الوافدين الجدد إلى السجن، ثم سحبوا منا جميع الملابس الخاصة، والنقود والأوراق والحقائب والكتب وغيرها، ووضعوها -كما قالوا- في «الأمانات».. وسلموا كل واحد بدلة زرقاء من الدمور، وقميصًا كالحًا يميل إلى اللون الأبيض، وكانت رائحة هذه الملابس تدعو إلى الاشمئزاز، فضلًا عن أنها ممزقة، ولا تتفق مع طول وحجم المسجون، فقد تكون واسعة متهدلة، وقد تكون ضيقة يصعب إدخال الجسم فيها، وليس هناك مجال للاعتراض أو الاستبدال، ثم سيق الجميع إلى عنبر «ج» بالدور الأرضي، كان العنبر من أربعة طوابق، وكانت أبواب الزنازين التي وضعنا فيها عبارة عن قضبان حديدية متقاطعة، بحيث نُرى في داخلها مكشوفين، كما أننا نرى الذين يتحركون في الصالة من سجانة ومذنبين يتولون غسل الأرض وتنظيفها، وتسلم كل مسجون

منا «بطانية» وبرشًا مجدولًا من سعف النخيل، ثم حشرنا بطريقة عجيبة في هذه الزنازين الضيقة، كل ثمانية في واحدة، وعند النوم لم نستطع أن نجد أمكنة كافية، كان على كل فرد أن ينام على جنبه، فلا يُسمح بالاستلقاء على الظهر، وبات من الضروري أن نرقد «خِلْف خِلاف».. بمعنى أن يكون قدماك إلى جوار رأس من يليك، وبرغم هذا التنظيم، فقد بقي واحد منا دون مكان، ولم يكن هناك مفر من أن يجلس القرفصاء في ركن من أركان الزنزانة، وينام على هذا الوضع، ولكي نتشارك في حل هذه المشكلة قررنا أن ينام كل واحد منا وهو في وضع القرفصاء لمدة ساعة ونصف، ولدى الباب وضع دلو «جردل» للشرب وآخر للتبول، ولم نجد مكانًا للأحذية فاضطررنا إلى وضعها في فتحات الباب بين القضبان، وكانت بقية زنازين الدور الأرضي مشغول بإخوة مسجونين سبقونا إلى هذا المكان منذ بضعة شهور فيما سمي بقضية «مارس سنة 1955»، أما الأدوار الثلاثة الأخرى فكان بها معتقلون مضى عليهم أكثر من عام، لكنهم كانوا يلبسون ملابسهم العادية، ولهم غذاء أفضل من غذائنا، وكثيرًا ما كانوا يتنازلون عن جزء من غذائهم لنا نحن المسجونين، لأن غذاءنا كان رديئًا للغاية، ففي الصباح نأخذ رغيفًا واحدًا صغيرًا وقطعة من الجبن «القريش» لا تكفي ربع الرغيف، وفي الظهر ثلاث ملاعق من الفول المدمس أو العدس مع رغيف، وفي المساء رغيفًا أيضًا ونوعًا من الخضار المطبوخ المجهول الهوية لا يزيد عن ثلاث ملاعق في داخله قطعة من اللحم لا تؤكل، لأنه تشبه إلى حد كبير في قوامها نعل الحذاء!! وكان علينا أن نصبر على هذا الوضع، كما كان الجوع يجعلنا نأكل أي شيء وبسرعة، لكننا كنا نفكر في حل جذري لهذه المشكلة المحزنة.

مضت الليلة الأولى قاسية رهيبة، ترى هل يمكننا تحمل هذه الحياة لسنوات؟ كيف؟ وبأية طريقة سوف نقضي أربعًا وعشرين ساعة كل يوم، وليس معنا كتاب أو صحيفة وبدون عمل أيضًا، ونحن نجلس متلاصقين في هذا الجحر الكئيب؟ وتمر ذكريات الماضي كالأطياف.. كنا في نعمة لم نكن ندرك عظمتها وروعتها، مجرد المشي في الشارع كان شيئًا رائعًا، تصفح جريدة –رغم ما فيها من زيف– متعة، قراءة كتاب حياة.. اختيار الطعام الذي يروق لك. شيء مهم تكمل به حريتك في الرفض والقبول.. هناك أشياء صغيرة، قد تبدو في الحياة تافهة لا معنى لها، لكنها تبدو الآن ذات دلالات ورموز كبيرة..

قال أحد الأخوة: «نحن اليوم في مقام الصبر».

رد عليه آخر في ثقة: «وفي مقام الشكر أيضًا..».

قلت معلقًا وأنا أبتسم: «الحمد لله الذي لا يُحمد على مكروه سواه..».

وبعد أن أدينا صلاة العشاء جماعة في الليلة الأولى، ألقينا بأجسادنا المنهكة على الأبراش الجافية، ودون وسائد، كان الجو باردًا في المساء، وكانت الملابس والأغطية قليلة، لكن أنفاسنا وازدحامنا، أعطيانا بعض الدفء، ونمت ولم أفق إلا على صوتٍ نَدِيّ أخاذ لأحد المسجونين وهو يقدم بعض التسبيحات والأدعية تمهيدًا لأذان الفجر.. كان يقول:

لا تظلمــن إذا مــا كنــت مقتــدرًا

فــالظلم شــيمته تُفــضي إلى النــدم

تنــام عينــاك والمظلــوم منتبــه

يــدعو عليــك، وعــين الله لم تــنم

وشعرت بدموعي تنسكب تحت جنح الظلام والصمت، كنت أشعر بحرقة الظلم القاهر، وأشعر أن الانتقام الذي حاق بنا فوق ما يتصوره عقل، لم يكن هناك مبرر لما اتخذوه ضدنا من إجراءات عنيفة، ولا لما نعامل به من إهمال غريب، ولم نستطع الوضوء، لأن كمية الماء المتوفرة لدينا تكفي بالكاد للشرب، ولهذا أشار علينا أحد الإخوة بالاستعاضة بالتيمم عن الوضوء، وكانت أصوات الأئمة المصلين تنبعث في عرض العنبر داخل جميع الزنازين في خضوع وخشوع، وكانت كلمة «آمين» أثناء قنوت الصلاة تتردد عالية قوية في إلحاح، وما إن انتهينا من الصلاة حتى بدأنا الختام وقراءة المأثورات بصوت جماعي، حتى يشترك الذين لا يحفظون الأوراد مع الذين يحفظون، والمأثورات مجموعة من الأدعية والتسبيحات والآيات أو ذكر الله، جمعها -المرحوم الشهيد- الإمام حسن البنا في كتاب صغير مختارًا أصح الروايات فيما ورد عن رسول الله، وقد انتشرت هذه المأثورات بين الإخوان منذ سنوات طويلة، والواقع أن المأثورات من خير ما ورد في هذا الباب، إذ إنها ملتزمة بشروط العقيدة الصحيحة، وبعد الانتهاء من المأثورات تناولنا طعام الإفطار وهو عبارة عن رغيف وقطعة صغيرة من الجبن «القريش» كما أسلفنا، ولجأ بعضنا إلى النوم مرة أخرى، بينما أخذ البعض الآخر يتلو القرآن بصوت خفيض، ولم يكن قد سمح لنا بالمصاحف بعد، ولهذا كنا نستمع إلى حفظة القرآن منا، وفي السابعة حضر سجانة النهار، وخرج خفر الليل، وساد العنبر قدر

من الضجيج مبعثه أولئك المساجين الذين أحضروا لتنظيف صالة العنبر ودورات المياه فيه، وهم من المحكوم عليهم في قضايا أخرى غير سياسية، كان جاويش العنبر «إبراهيم» رجلًا هادئًا رزينًا طيبًا، ويختلف أشد الاختلاف عن شياطين السجن الحربي من العسكر المجندين قساة القلوب، وأصبح من الواضح أن المعاملة في «قرة ميدان»- أو سجن مصر- معاملة معقولة، وتختلف تمام الاختلاف عن المعاملة الشاذة في السجن الحربي، والجاويش إبراهيم رجل قليل الكلام، لا يجيب على الكثير من أسئلتنا حرصًا منه، ولكي لا يقيم علاقات مع أحد، وبذلك يدرأ عن نفسه الشبهات، وإذا تكلم فإنه يدعو لنا بالنجاة، وينصحنا بالطاعة، وعدم مخالفة الأوامر، لأن وضعنا شائك ودقيق، ويختلف عن وضع باقي فئات المسجونين، ويذكرنا دائمًا بأن الحياة في السجن لها طابعها الخاص، وأن التمرد أو عصيان الأوامر يعنى كارثة كبرى، وهو حريص على مصلحتنا، لأننا كما يقول «ناس طيبون.. وبتوع ربنا»، وكان لكلماته صدى حسن في نفوسنا، وقد سمح لبعض إخواننا من السجناء القدامى الذين سبقونا إلى هذا السجن، بالاتصال بنا من خلال باب الزنزانة المغلق، فشرحوا لنا الوضع في السجن، والنظام المعمول به، وأرشدونا إلى ما يجب عمله، كما قدموا لنا بعض المعونات الطبية البسيطة كأقراص الأسبرين، وأدوية المغص أو الإسهال، وقطرات العيون والأنف والأذن وغيرها.

وبعد نصف ساعة سمح لنا بالذهاب إلى دورة المياه، كان عددنا كبيرًا لا يتناسب مع عدد المراحيض -وأظنها ثلاثة أو أربعة- ولهذا تكدسنا في داخل الدورة ننتظر الدور، وكانت مهمتنا التخلص مما تحويه جرادل البول وغسلها بالماء، ثم ملء جرادل الشرب، ودخول المرحاض لدقائق، ثم الاغتسال والوضوء، والعودة بعد ذلك إلى الزنزانة، ثم عاد السجان إبراهيم لإغلاق الأبواب علينا من جديد بعد حوالي الساعة، وبعد فترة قصيرة رأينا المعتقلين -سكان الأدوار الثلاثة العليا في عنبر «ج» - يهبطون الدرج في صفوف منتظمة، لقد كانوا خارجين لطابور الصباح اليومي، حيث يتمشون في ساحة السجن بين العنابر، أو يجلسون في الشمس، وأثناء مرور المعتقلين علينا وهم يخرجون إلى الساحة تعرفنا على الكثيرين من إخواننا القدامى، وتبادلنا التحيات بحرارة وصدق، لم نستطع أن نتعانق أو نتصافح فقد كان السجانة يضربون نطاقًا حولهم، ويمنعونهم من الاقتراب من أبواب زنازيننا حتى لا يعلو الضجيج، أو تعم الفوضى، وخاصة أن بعض الضباط يرقبون الموقف عن كثب، لقد شعرت

بالارتياح وأنا أرى أخوة لنا يحيوننا ويبتسمون لنا في ود، وهم في حالة نفسية وصحية لا بأس بها، إننا لم نزل معًا، ولم تزل قلوبنا تنبض بالحب وبالمعنى الكبير العظيم الذي اجتمعنا من أجله، إن هذا التجمع الضخم يبعث فينا الدفء والحيوية والأمل، وكانت الكلمة الشائعة التي نسمعها من الإخوة المعتقلين المارين:

«شدوا حيلكم.. ربنا معكم..».

والمعتقل لم يصدر ضده حكم، ولهذا فسوف يخرج من السجن إن عاجلًا أو آجلًا، أما نحن المسجونين، فقد صدرت ضدنا أحكام بالسجن، والمفروض ألا نخرج إلا بعد انقضاء مدة الحكم، ولهذا كان المعتقلون يعطفون علينا، ويسبغون علينا كلمات العزاء والتشجيع، ومع ذلك فإن نظرة إدارة السجن إلى المعتقلين أو المسجونين سواء، فكلهم إخوان، ولا فرق بينهم إلا في الأحكام الصادرة ضد المدانين في دوائر محكمة الشعب، وفي الملابس وبعض الميزات الغذائية لهم.

ولفت نظري بين المعتقلين رجل طيب يصفق بيديه كما يفعل الرجل الشعبي الأصيل ويرحب بنا في حرارة، ويلقي بكلمات تعبر عن الحب والتقدير بالنسبة لنا، ولم يحاول السجانة أو حتى الضابط أن يمنعه من ذلك، وحاولت أن أتذكر من هذا الرجل، لكن حيرتي لم تطل فقد قال أحد الإخوان: «هذا هو الحاج إبراهيم كروم».

- «ومن يكون الحاج إبراهيم كروم؟».

تساءلت، وعلمت أن للرجل قصة طريفة يعرفها معظم إخوان القاهرة، فالحاج إبراهيم كروم كان من الرجال القساة الأشقياء، وكان «فتوة» شهيرًا لحي من أحياء القاهرة العريقة، استطاع أن يفرض سطوته على قطاع عريض من الناس، بل وتخطى سلطانه حدود الحي الذي يحكمه إن صح التعبير، وعلى الرغم من أنه كان يفرض الإتاوات، ويطيح بالأقوياء، ويؤدب المناوئين له، ويريق الدماء، ويحرق ويدمر، إلا أن الشرطة كانت تعمل له ألف حساب وتتجنب الاصطدام به وبرجاله، ويعتبرون العلاقة الطيبة به من وسائل الاستقرار واستتباب الأمن، كما إن رجالات الأحزاب في الحي كانوا يجاملونه ويتقربون إليه، من أجل الانتخابات في عهد ما قبل الثورة، ويتسابقون لإنقاذه إذا وقع في ورطة مع الحكومة، حتى يكتسبوا رضاه أو تأييده.

وعندما اتسع المد الإخواني، وأصبح لحسن البنا تأثير كبير في الشارع المصري، استدعاه أحد رجال الأحزاب، وعقد معه صفقة، مؤداها أن يُدفع له مبلغ كبير من المال، وأن يحموه من بطش السلطة، وذلك إذا استطاع أن يذهب إلى المركز العام للإخوان المسلمين في أحد أيام «الثلاثاء»، أثناء إلقاء المرشد العام درسه الأسبوعي -درس الثلاثاء الشهير- على جموع الإخوان في ميدان الحلمية، وأن يعتدي على البنا، ويفسد الاجتماع، وكان هذا أمرًا عاديًا بالنسبة لإبراهيم كروم، فوافق على الصفقة فورًا، وفي اليوم المعهود أخذ رجاله وسلاحه وقصد إلى «ميدان الحلمية»، كانت الحشود تجلس على الأرض في هدوء عجيب، وكأن على رءوسهم الطير، وكان الإمام الشهيد يتحدث عن مبادئ الإسلام وأمجاده، بأسلوبه المؤثر الساحر «إن من البيان لسحرًا»، ولم يكن يقطع هذا المشهد الرائع إلا الهتافات والشعارات المعروفة لدى الإخوان «الله أكبر ولله الحمد.. الله غايتنا.. والرسول زعيمنا.. والقرآن دستورنا.. والموت في سبيل الله أسمى أمانينا..».

وتعلقت عينا إبراهيم كروم بالرجل الطيب الذي يتحدث، وانجذبت أذناه وقلبه وروحه إلى كلماته، ونسي تمامًا ما جاء من أجله، ولم يعد يهتم بلكزات عصابته وهم يذكرونه بالمهمة التي قدموا من أجلها، وفي لحظة من اللحظات لا يدري كنهها، وجد إبراهيم كروم نفسه يهتف مع الهاتفين، ويردد الشعارات كما يرددها الآلاف، وما إن انتهى المرشد من حديثه، حتى اندفع إليه إبراهيم في حماسة وحب، ثم احتضنه وأخذ يقبل رأسه ولحيته، ويحاول تقبيل يديه، وانفرط دون تحفظ يشرح خطوط المؤامرة التي جاء لتنفيذها، وكان هذا بداية علاقة وثيقة بقيت حتى استشهد الإمام، وتاب إبراهيم وودع حياة الدماء والعدوان والخمر والمخدرات والنساء، وبدأ عهدًا جديدًا من الطاعة والصفاء، فكان يبدأ يومه في المسجد بصلاة الفجر، وينهيه في المركز العام مستمعًا إلى الأحاديث الطيبة، بعد أن أصبح أثيرًا لدى الإمام رحمه الله، وانصرف أيضًا الحاج إبراهيم -بعد أن حج بيت الله الحرام- إلى التجارة الحلال، فكثرت أمواله، واستقام سلوكه، وأصبح من المشهود لهم بحسن العبادة، وكرم الأخلاق، والعطف على الفقراء.. واشتقت للتعرف عليه، كان -رحمه الله- يعاني من انزلاق غضروفي على ما يبدو، ولم يجد العلاج المناسب في المعتقل، ولهذا كان يعرج في مشيته البطيئة، على الرغم من فتوته وبناء جسده القوي.

وتمنينا أن نخرج إلى طابور الصباح مثل باقي الإخوان، لكننا فهمنا أننا في فترة «العزل» وسوف يسمح لنا بذلك بعد فترة، ولهذا كانت الفترة التي نقضيها في الزنزانة يوميًا- وهي ما يقرب من ثلاث وعشرين ساعة- ثقيلة مملة على نفوسنا، لكننا كنا نلجأ إلى مناقشة بعض الأمور الدينية أو الأدبية أو السياسية، كما كنا نستمع إلى بعض الدروس المتخصصة من الإخوة ذوي التخصصات، فالطبيب يحدثنا عن الأمراض والوقاية منها وعلاجها، وميكانيكي السيارات يشرح لنا تركيب ماكينة السيارة والخلل الذي تتعرض له، والمحامي يحدثنا عن القانون، ويعقد مقارنات بين القوانين الوضعية والسماوية، والمفسر للقرآن يتناول بضع آيات بالشرح، والمحدث يساعدنا على حفظ بعض الأحاديث النبوية الصحيحة، والذي جاهد ضد الانجليز في معركة القنال الشعبية، أو حارب اليهود في فلسطين يحكي لنا الكثير عن ذكرياته ومعاركه، وهكذا كان الوقت يمر علينا بسرعة..

وفي المساء يحلو السمر والذكريات الشجية، وكان الذين يتحدثون عن أطفالهم يثيرون في نفوسنا الكثير من التعاطف والألم، وأصحاب الأعمال الخاصة والحرف يذكرون ما أصابهم من خسائر وتعطيل وغرامات تخرب البيوت، وطلبة الجامعة والمدارس الثانوية وما في مستواها يذكرون بالحسرة السنوات التي تمر من عمرهم دون استفادة دراسية، وخاصة أن القوانين الثورية الجديدة لا تسمح للمعتقلين والمسجونين السياسيين بدخول الامتحانات على النقيض تمامًا مما كان كان يحدث إبان العهد الملكي، ومعظم الطلبة المحجوزين من الأسر الفقيرة المكافحة التي بذلت الكثير في سبيل تلقي العلم، غير أنه من الجدير بالملاحظة أن أصحاب الأعمال الخاصة قد عانوا الكثير من المتاعب الأسرية والنفسية.

وجاء اليوم الذي سمح لنا فيه بالخروج في طابور الصباح، كنا نفتح أعيننا بصعوبة في ضوء الشمس، ومع ذلك كنا سعداء كالأطفال بالشمس والهواء والمشاهد الجديدة في ساحة السجن، وتبادلنا التحيات والمصافحة بحرارة مع الإخوة القدامى، كان فيهم مجموعة كبيرة من الشخصيات المعروفة، أساتذة جامعة وأطباء وعلماء في مختلف الفروع، كما شاهدت مجموعة صغيرة من الشيوعيين بينهم الأديب القصصي الدكتور يوسف إدريس، ورأيت المتهم الأول في قضية «الجبهة الوطنية» لأول مرة وهو المرحوم المهندس محمود عجوة، وكان هو المسئول عن مكتبة السجن، ومحمود شاب طيب القلب يتمتع بقوة بدنية خارقة، وبشجاعة يحسد عليها، وقضية «الجبهة الوطنية» قضية مضحكة، فقد قبض على مجموعة

متنافرة من الطلبة -أغلبهم من جامعة عين شمس- لاشتراكهم كما قيل في بعض المظاهرات أو التحريض عليها، ولم يستطع المحققون أن يكتشفوا أدنى رباط بين أفراد هذه المجموعة، إذ وجدوا فيهم الإخواني والوفدي والشيوعي واللامنتمي، كما بدا واضحًا أنه لا يوجد ما يمكن أن يطلق عليه تهمة، فما كان من أحد كبار رجال الأمن إلا أن استدرج أحد المتهمين، وبذل له الوعد والوعيد، كي يدلي بأقوال تجعل منها مؤامرة يقوم بها هؤلاء الشباب، والغريب أن إحسان عبد القدوس الصحفي الشهير كان قد قبض عليه قبل ذلك، وحاول المحققون أن يجعلوا منه المتهم الأول لهذه الجبهة بسبب مقالاته الجريئة في صحف «روز اليوسف» لكن تم العدول عن ذلك، وأفرج عن إحسان عبد القدوس، واختير المهندس محمود عجوة «طالب هندسة آنذاك» لكي يكون المتهم الأول، وكان السبب في وضع هذه التهمة في رقبته، أنه أثناء دخوله كلية الهندسة التي تحاصرها الشرطة تعرض له أحد الضباط ومنعه من الدخول، وكان محمود شابًا انفعاليًا صريحًا، فاختطف الضابط وحمله على كتفه، وجرى إلى داخل كلية هندسة عين شمس، ولما أمسك به أحد جنود الشرطة ضغط محمود على أصبع الجندي فكسره.. وأخيرًا وصل إلى الداخل، وبعدها ترك الضابط حرًا ثم ذهب إلى المدرج لحضور المحاضرات، وفي المساء قبض عليه في بيته بشارع الشيخ قمر.. وهكذا سيق إلى المحاكمة، وحكم عليه بالسجن خمس سنوات.. وكما سبق وشرحنا، فقد تطوع الزميل «الشاهد مَلِك» بالاستجابة لأوامر رجل الأمن الكبير، وأدلى بتفاصيل مؤامرة من نسج الخيال، ونتج عن ذلك الحكم على محمود عجوة، وعدد من زملائه، وتراوحت الأحكام بين 1-5 سنوات، وبالطبع برئت ساحة «الشاهد مَلِك»، الذي أفشى السر أثناء المحاكمة، واستطاع بعض أقارب المتهمين تسجيل ذلك الاعتراف الذي أدلى به الشاهد المأجور على شريط، ثم أخذوه غلى محكمة «الدجوى» عن طريق المحامي الموكل بالدفاع عن عجوة وزملائه، ثم زعم أنه فقد، فعاد المحامي في الجلسة التالية ومعه نسخة أخرى من الشريط، فحاول رئيس المحكمة التأجيل مرة أخرى لإحضار جهاز لسماع التسجيل، لكن المحامي كان حريصًا هذه المرة فأخرج من حقيبته مسجلًا حتى يسمع الشريط، ومع ذلك لم تنفع هذه المحاولة في تبرئه ساحة المتهمين من المؤامرة الملفقة..

وقضى المرحوم محمود عجوة خمس سنوات كاملة في سجن مصر أمينًا للمكتبة، وبعد أن أفرج عنه أكمل دراسته في هندسة عين شمس، ولما أخذوه إلى التجنيد، كتب ضد نفسه

شكوى قائلًا إنه من الإخوان المسلمين أساسًا وأن في وجوده بالجيش خطرًا على الدولة، فسرحوه فورًا، حيث تم تعيينه مهندسًا للكهرباء في الإسكندرية، وقد استطاع أثناء وجوده في الإسكندرية الهرب إلى ليبيا، لكنه عاد مرة أخرى إلى الإسكندرية والتحق بنفس عمله بعد أن احتسب مدة الهرب أجازة مرضية، ولما سألته عن سبب عودته من ليبيا، وهو الذي كان يحلم بالهروب من مصر، وكان ذلك عندما التقينا مرة أخرى في الاعتقال الثاني عام 1965 بعد قضية الشهيد الأستاذ سيد قطب الشهيرة قال لي محمود عجوة رحمه الله: «أنت السبب في ذلك».

صحت في دهشة: «أنا؟ كيف؟».

- «هل نسيت أنني عندما عرضت عليك فكرة الهرب لأول مرة وكنت تزورني في الإسكندرية.. هل نسيت أنك رفضت الفكرة، وأخذت تحدثني عن حب الوطن، وضرورة البقاء فيه، والعمل من أجل رفعته وتحريره من قبضة الظلم، حتى تتحقق الحرية والتقدم وتسود مبادئ الإسلام، وذلك لأن مصر تعتبر أهم وأخطر بقعة في العالم الإسلامي.. وأن... وأن...».

قلت شاردًا: «نعم أتذكر...».

قال محمود في سخرية: «وعندما وصلت إلى ليبيا، شعرت بالعزلة والضيق والضياع.. وأخذت أفكر في كلامك.. وبعد أيام من التفكير المضطرب المقلق، عدت مرة أخرى عبر الحدود إلى الإسكندرية.. وليتني ما عدت.. إذ لم تكد تمر بضعة شهور حتى حدثت الأزمة من جديد، وساقوني إلى المعتقل من جديد.. والكارثة أنهم وضعوا عصابة على عيني وأوسعوني ضربًا دون سبب حتى كدت أموت.. والغريب أنني استطعت أن أميز –أثناء الضرب– صوت أحد الضباط وهو من أصدقائي القدامى اسمه «س.ح»، والأغرب من ذلك أنه كان منتسبًا للإخوان أثناء مرحلة دراسته الثانوية.. ليتني ما تذكرت كلماتك وأنا في ليبيا.. إذن لكنت حرًا الآن».

قلت له: «هذه أقدار...».

قال: «أعلم.. ولسوف أهرب مرة أخرى إذ كتب لي الخروج من المعتقل، ولن أعود أبدًا أبدًا مهما كان الأمر، حتى ولو حملت قصعة على رأسي.. إن أى شيء أهون من ضياع الحرية...».

وقد نفذ محمود عجوة وعده بعد ذلك، فما إن خرج من المعتقل، حتى اخترق الحدود -لا أدري كيف- إلى الأردن، ثم قضى فترة في الكويت بجواز سفر غير مصري، ثم استقر به المقام في المملكة العربية السعودية، حيث تزوج فتاة سورية من أسرة طيبة كانت تراسله من قديم، وكانت هذه الفتاة على علاقة بزوجتي من خلال معسكرات الطالبات المشتركة بين طالبات مصر وسوريا أثناء الوحدة، ولما قدمت هذه الفتاة -واسمها فاطمة غريب- إلى مصر في إحدى زياراتها التالية للعلاج زارت زوجتى -قبل زواجنا- وأثناء الزيارة ذكرت عنوان شاب تراسله من قديم، وكم كانت دهشتي عندما وجدت أنه نفس عنوان «محمود عجوة»، وأن الاسم اسمه، وذهبنا معًا لزيارته.. أقول إن محمود تزوج هذه الفتاة في السعودية، وعلى الرغم من استقرار حياة محمود وسعادته هناك إلا أن الله اختار زوجته فاطمة إلى جواره أثناء عملية جراحية، بعد أن تركت له بنتًا، ثم أصيب محمود بمرض في الكبد، تدهورت صحته على أثره، وسافر إلى لندن للعلاج، لكنه عاد دون نتيجة ولقي ربه.. ولا أدرى شيئًا حتى الآن عن طفلته..

رحم الله محمودًا، فقد كان رجلًا صادق النية، قوى العزيمة، مؤمنًا بمبادئه أعمق الإيمان، وقد قضينا معًا سنوات طيبة من أزهى سنوات العمر جهادًا وصدقًا وعطاءً.

من الشخصيات البارزة في وسط المعتقلين الدكتور توفيق الشاوى أستاذ القانون الجنائي بكلية الحقوق، وهو رجل ذو ماضٍ مشرف، وجهاد متصل، وقد كان له مع جمال عبد الناصر صداقات عديدة، من أبرزها ما حدث في ذلك الاجتماع الشهير بين الرئيس وأساتذة الجامعة، حيث دافع الدكتور توفيق الشاوي دفاعًا مستميتًا عن الحريات العامة والالتزام بالدستور والقوانين، وناصره في ذلك الاجتماع عدد من الأساتذة الفضلاء، وفي الأيام التالية صدر القرار الخاص بفصل حوالي أربعين أستاذًا وأستاذًا مساعدًا من الجامعة على ما أذكر، وكان الدكتور الشاوي على رأسهم، كما كان الدكتور الشاوي من أوائل المعتقلين في حل الإخوان المسلمين الأول في عهد الثورة «يناير سنة 1954»، وبعد أن خرج من المعتقل، كتب في

جريدة المصري سلسلة من المقالات بعنوان «حقوقك إذا اعتقِلْت» كان لها صدى واسع بين المثقفين ورجال السياسة بصفة خاصة، مما أحنق عليه عبد الناصر أشد الحنق، ثم أعيد اعتقاله –وكذلك إخوته الدكتور محمود والمهندس عمر وإبراهيم- بعد حادث المنشية، وقدم الدكتور توفيق للمحاكمة، فصدر ضده حكم مع إيقاف التنفيذ، لكنه لم يفرج عنه بعد الحكم، بل وضع مع المعتقلين، ولما أفرج عنه في عام 1956 سافر إلى الجزائر، والسبب في ذلك أنه كان على صلة وثيقة بكبار أعضاء جبهة التحرير الجزائرية، فعمل مستشارًا لهم، وظل على رأس عمله حتى دب الخلاف بين القادة وكان الدكتور توفيق حريصًا على لم الشمل بينهم، وخاصة أنه يحمل إعزازًا وتقديرًا خاصًا لبعضهم مثل خيضر وآية أحمد اللذين أبعدا، فترك الجزائر وعمل مستشارًا لفترة مع الملك الحسن، ثم استقر به المقام أخيرًا في المملكة العربية السعودية مستشارًا للمرحوم الملك فيصل حتى وفاته، وقد تجنس بالجنسية السعودية، وطوال تلك الفترة أصدر عددًا من الدراسات السياسية والاقتصادية والعلمية، وكانت دراساته الاقتصادية هي اللبنات الأولى في إقامة البنوك الإسلامية المعاصرة وعلى رأسها بنك فيصل الإسلامي، كما اهتم بالتعليم الحديث وأسلحته، فأنشأ مدارس «المنارات» الشهيرة في شتى أنحاء المملكة العربية السعودية وهي مدارس خاصة، ولها مناهج إسلامية متميزة متطورة، أنتجت نخبة من التلامذة الممتازين، كما انتشرت هذه المدارس بمناهجها في بعض الدول الأفريقية والأسيوية. وساهم كذلك في إنشاء مدارس بأوروبا وأمريكا على نفس النمط، حتى مدارس اللغات الأجنبية الخاصة في السعودية وغيرها التزمت نفس المنهج، ولهذا اختير أمينًا عامًا للاتحاد العالمي للمدارس الإسلامية، كما أصدر كتابًا مهمًا عن الميكافيلية في السياسة العربية تحت اسم مستعار وهو «محمد صادق».. وغير ذلك من الدراسات الحيوية المعاصرة، وما زال يعمل بجد ونشاط على الرغم من أنه في العقد السابع من عمره المديد إن شاء الله، ويجب أن نشير هنا إلى أن الدكتور الشاوي كان على علاقة وطيدة بالكثيرين من فقهاء القانون كالسنهوري رحمه الله، ومن رجالات الفكر والسياسة لا على مستوى مصر وحدها، ولكن على مستوى العالم العربي والإسلامي..

ولكم عانى الدكتور توفيق إبان الفترة التي قضاها في السجن الحربي بعد حادث المنشية، فقد كان يضرب ويهان ويمسح بلاط السجن «بالخيشة»، أما أخوه محمود الطبيب فقد حكم عليه بالسجن عشر سنوات أشغال شاقة قضى فترة طويلة منها في ليمان طرة، وكان يقطع

الصخر بالجبل، كما حضر حادث إطلاق الرصاص على المسجونين من الإخوان في نفس السجن، والذي راح ضحيته واحد وعشرون أخًا بالإضافة إلى العشرات الذين أصيبوا بجراح، ولم يحكم على الأخوين الآخرين إلا بالاعتقال. كذلك كان من المعتقلين في سجن مصر الدكتور محمود أبو السعود وهو من علماء الاقتصاد الإسلامي البارزين، والشيخ مصطفى العالم، وقد استوطن الأول بعد ذلك أمريكا وأوروبا، أما الثاني فقد عاش بقية حياته في السعودية، وهناك غيرهما كثيرون لا ترد أسماؤهم إلى ذهني الآن.

لم تحدث منغصات تذكر خلال الفترة القصيرة التي قضيناها في «قرة ميدان» اللّهم إلا تلك الليلة التي أصر فيها إخواننا القدامى من المسجونين بالاحتفال بنا على طريقتهم، فقد أخذوا يرددون وهم في زنازينهم بعض الأناشيد الإخوانية التي تتناول موضوع الجهاد في سبيل الله، والتضحية في سبيل المبدأ، والتنديد بالظلم والدكتاتورية، وكان لهذه الأناشيد وقع طيب في نفوسنا، لكننا فوجئنا بباب العنبر يُفتح ويدخل منه الضابط «النوبتجى»، وحوله كوكبة من حرس الليل «خفر الليل»، ثم يخرجون بعض الإخوان من زنازينهم، ويعتدون عليهم بالضرب وبالعبارات النابية..

كما كنا نفاجأ من وقت لآخر بحملات تفتيشية يقودها أحد الضباط، ومن الطريف أنه كانت هناك «كلمة سر» يعرفها المسجونين جميعًا، فعندما تهجم فرقة التفتيش يصيح أحد المسجونين بصوت عالٍ «خَشَب»، فيسرع الجميع بإخفاء ما معهم من ممنوعات، وهي أشياء تبدو تافهة مثل القلم –الورق – شفرة الحلاقة- عملة مالية.. إلخ لأن حيازة مثل هذه الأشياء تعني العقوبة المقررة في لائحة السجون المدنية وهي تتراوح بين عزل المسجون في التأديب، والجلد على «العروسة»، وعزل المسجون في التأديب تعني أنه لن يصرف له غير وجبتين أي رغيفين في اليوم وقليل من العدس أو الفول وبطانية وبرش، ولا يسمح له بلبس الحذاء، والجلد يكون بحكم يصدره مدير السجن، ثم يرفع إلى مدير مصلحة السجون لاعتماده، ويظل المسجون حبيس السجن الانفرادي حتى يأتي الرد مهما طالت المدة.. ولقد حدث التفتيش الأول، وكانت مشكلتي الكبرى هي أنني كتبت قصيدة شعرية عن قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام مع النمرود الذي كان يحكم «بابل»، ثم تعرضت لرمي نبي الله في النار، وكان واضحًا أن القصيدة ذات مرامٍ وأهداف سياسية ودينية ترتبط بالواقع الذي نعايشه.. فماذا أفعل؟

لو عثروا على هذه القصيدة بين طيات ملابسي لكان ذلك بمثابة كارثة، فسوف يرسلونها إلى المباحث العامة، وسيقومون بدراستها وتحليلها، ولا أعرف بالضبط ما سوف ينزل بعد ذلك عليّ من مآسٍ.. وتلفت حولي، هل أقذف بها من النافذة الصغيرة ذات القضبان المتقاطعة؟ إنه ليعز عليّ أن أفقدها للأبد، وأخيرًا اكتشفت أن مقبض دلو البول به تجويف صغير، فأسرعت بحشر الورقات فيه، وعندما دخل السجانة زنزانتنا للتفتيش كان أول شيء فعلوه هو حمل «الجرادل» إلى الخارج حيث وضعوها في دورة المياة، والحمد لله مر التفتيش بسلام ولم يعثروا لدينا على شيء ممنوع.. وبعد أن انتهى التفتيش، وانجابت الغمة، وفتحوا لنا الأبواب كي نذهب إلى دورة المياه، أسرعت لأفحص مقابض الجرادل الكثيرة المتراصة، كانت «الدورة» مكتظة بالإخوان، ولم أعثر على القصيدة، وحزنت لذلك حزنًا شديدًا.. إنها أول ترجمة لمشاعري بعد تلك الشهور القاسية من العناء، وعدت إلى الزنزانة كسيف البال، وأخذ الإخوة يواسونني بكلمات فيها الكثير من المزاح، وبعد ساعة جاء أحد الإخوة من المسجونين القدامى ووجه حديثه إلي: «هل هذه لك؟».

نظرت إلى يده المطبقة قليلًا، كان حذرًا حتى لا يراه السجان، وفهمت على الفور إنها قصيدتي، وعلمت أنه وجدها ملقاة على أرض دورة المياة وسط البلل وتحت الأقدام، ولما رآها شعرًا رجح أنها ربما تكون لي، فأنا المعروف بينهم بكتابة الشعر، وفرحت أيما فرح بهذه الأبيات التي كتبتها بحرارة لتعبر عن أحوالنا ووضعنا، وعلى الرغم من أن القصيدة الطويلة كانت تتحدث عن ظلم النمروذ لخليل الله إبراهيم عليه السلام، إلا أنني كنت أضع نصب عيني وأنا أكتبها قصة الإخوان والثورة، والقسوة البالغة، والظلم الفادح الذي وقع علينا بأمر جمال عبد الناصر، ولم أكن في هذه المرحلة الأولى من سجني أرى من الحكمة أن أكتب صراحة عن ظلم الحاكم، فكنت أتستر وراء الرموز التاريخية وغير التاريخية، لأن التصريح آنذاك معناه الموت لي، أو على الأقل مزيد من التعذيب وزيادة سنوات الحكم الصادر ضدى، ووضع اسمي في أشد القوائم سوادًا، ومعناه أيضًا ألا أخرج من السجن أبدًا حتى ولو انتهت مدة السجن القانونية التي أصدروها ضدي، ولم تنشر هذه القصيدة في الدواوين التي صدرت لي بعد ذلك، ولكني أتذكر منها بضعة أبيات، منها أبيات عن سيدنا إبراهيم وهو ملقى في النار أقول فيها:

يــــا خليـــــل الله بالحـــب انثنـــى
كـــل جَــوْرٍ، وانطـــوى كـــل عتيـــدْ
إن مـــــن ألقـــاك للنــــاس هــــدى
هـــو حاميـــك مـــن البـــأس الـــشديد
فليــــــدبر ظـــــالم مــــا يــــشتهي
وليكـــد بالـــشر فـــيهم مـــن يكيـــد

كما قلت في نهاية القصة القصيدة وأنا أتصور «بابل» عاصمة القهر آنذاك:

أبعـــثُ الطَـــــرفَ إلى «بــــابلهم»
عــــاد لي الطـــرف برســـم الطَلَـــلِ
عـــين فـــأبكى مـــن بغـــى أو مـــن طغـــي
عَلَّــــلَ الظلــــم بـــــشتى العِلَـــلِ
إنــــما النــــاس عــــلى أيامنــــا
هـــم كـــما كـــانوا بعـــصر الجَمَـــلِ

أقول كان التعبير الأدبي بصراحة عن مظالم الحكم باهظ التكاليف، قليل الجدوي، فما نكتبه لن ينشر في الصحف خارج السجن، أو يصدر في مطبوعات، لأن حرية التعبير كانت مفتقدة تمامًا، وأقصد بها حرية الأقلام المعارضة، ولقد بقيت فترة طويلة حتى بعد خروجي من السجن أتخذ نفس الأسلوب في التستر وراء الرموز التاريخية، ولهذا فإن كتاباتي التاريخية لم تكن هروبًا إلى الماضي، أو عجزًا عن مواجهة قضايا العصر، ولكنها كانت تعبيرًا عن أزمة وواقع، وكانت إسقاطًا لانحرافات العهد الذي نعيشه، ولقد تقدمت خطوة أخرى حينما تناولت قضايا ومشاكل معاصرة في قصص يستطيع القارئ المتعمق أن يعرف ما وراءها من رموز وقضايا خطيرة، وإني لأذكر أنني ذات مرة كتبت قصة قصيرة لمجلة الرسالة في أوائل الستينيات من القرن العشرين، وكان عنوانها «البحث عن منى» وكان موضوع القصة رجلًا عجوزًا متسولًا ضعيف البصر، تقوده طفلته الصغيرة الجميلة «منى» وهو يتسول رزقه في

الشوراع، وذات مرة أرسل الشحاذ ابنته لتشتري له رغيفًا وطعمية، وفي فترة غيابها انتزعه الشرطي من مكانه، وساقه إلى قسم الشرطة بتهمة التسول، ولم يستجب الشرطي لضراعات العجوز كي يصبر قليلًا حتى تعود الطفلة.. وهكذا ذهب العجوز إلى السجن.. وضاعت منى.. وخرج العجوز بعد الشهر الذي حكم عليه به من السجن ليبحث عن طفلته.. كان يلح في البحث دون جدوى.. ويذرف الدموع.. لكن كان واثقًا دائمًا أنه سوف يجد منى حبيبة قلبه، والمتسولون في العادة يحكم عليهم بالقائمة.. كأن يصدر الحكم على عشرين أو ثلاثين منهم دفعة واحدة.. والسجن يكون لفترة قصيرة.. وإذا عاد للتسول تزداد العقوبة قليلًا كل مرة.. إن مشكلة المتسولين مشكلة غريبة فعلًا..

أقول عندما سلمت هذه القصة للأستاذ الشاعر الدكتور عبده بدوي لنشرها، قال لي بعد أن قرأها: «هذه قصة خطيرة.. ونشرها في مجلة حكومية أخطر.. سوف أقنع الأستاذ أحمد حسن الزيات بنشرها.. وربما يسلّم..».

كان واضحًا أن الصغيرة الجميلة المسكينة «منى» ما هي إلا رمز للعدالة الضائعة.. وهناك قصة قصيرة أخرى نشرتها في جريدة «المساء» اسمها «القافلة» تنحو نفس المنحى، وعشرات القصص القصيرة الأخرى، وعدد من الروايات أذكر منها رواية «ليل وقضبان» والتي صدرت في طبعتها الأولى تحت اسم ليل العبيد، وقد أخرجها أشرف فهمي للسينما، ونالت جائزة مهرجان طشقند الدولي الأولى، وعلى الرغم من أن أحداث الرواية تصور مدير السجن وجبروته، إلا أنها ترمز بصورة واضحة إلى انطباق صفات المدير على أي حاكم جائر.. وقد استطاع أشرف فهمي أن يبرز ذلك بصورة واضحة مقنعة في آخر الفيلم السينمائي «ليل وقضبان».

لكنني لم أستطع اللجوء دائمًا إلى هذه الحيل الفنية، فعندما كتبت دراستي الإسلامية عن «الطريق إلى اتحاد إسلامي» كان الأمر مشكلة مؤكدة، خاصة أن الوقت الذي كتبت فيه هذه الدراسة كان مشحونًا بالدعوة إلى القومية العربية، ولهذا صادرت الرقابة كتابي ولم يكن بالقاهرة منه سوى عدد محدود من النسخ لأنه كان صادرًا عن «دار النور» بطرابلس ليبيا «1961».. كما صادرت الرقابة قبل ذلك كتابًا للمرحوم الشيخ محمد أبو زهرة عنوانه «الوحدة الإسلامية».

ومن حسن الحظ أن مساءلتي حول هذا الموضوع أمام المباحث العامة كانت مساءلة سريعة، ولم يجر عليّ مشاكل تذكر، وحدث نفس الشيء بالنسبة لكتابي «الإسلامية والمذاهب الأدبية»، لكن الأخطر من ذلك حينما تجرأت وكتبت نقدًا للميثاق من وجهة نظر إسلامية، في مجلة الاعتصام التي تصدرها الجمعية الشرعية، كما كتب الدكتور محمود فايد دراسة شاملة حول الميثاق أيضًا في نفس العدد، ونتج عن ذلك وقف صدور المجلة لفترة، على الرغم من أن النقد الذي كتبناه كان هادئًا ومتزنًا، ويستشهد بفقرات من الميثاق نفسه لتأييد وجهة نظرنا، وأذكر أيضًا أنني كتبت وأنا في السجن قصيدة بعنوان «خواطر سجين في عيد الأم»، ونشرتها مجلة الرسالة الجديدة التي كان يرأس تحريرها المرحوم الأستاذ يوسف السباعي، لكنهم غيروا العنوان وكتبوه «الأم».

ولقد بدأت هذه القصيدة بالمقطوعة التالية:

خَبَت في غمرة الآلام والبؤس ترانيمي

وجفت نضرة الأحلام من عصفٍ وتحطيم

فلا كأسي بمترعة، ولا رنت تقاسيمي

أساقي الليل أوهامي وأحزاني وتسليمي

وقلت موجهًا الخطاب لأمي رحمها الله:

تعالى عانقي شوقي، فقد طالت بنا الغُربة

وما زال الزمان الجَهْم يشعل بيننا حربَه

وهل سيضيع يا أماه عبدٌ قاصدٌ ربَّه؟

إلى أن قلت في آخر القصيدة:

ليالٍ كنت يا أماه أهواها وتهواني

وأمرح في مفاتنها بأفراحي وأشجاني

وعقلي الطفلُ يا أماه وشاها بألوانِ

مضت.. لم يبق لي منها سوى الذكرى..

وكانوا يقرءون هذه القصيدة الطويلة لأمي فتبكى بكاء مرًا، وتجلس في الفجر فوق سطح منزلنا الريفي بالقرية، وتضرع إلى الله بدموعها كي يفرج عني. وكان واضحًا أن نشر مثل هذه القصص أو القصائد في المجلات أو الصحف حتى وأنا سجين كان بسبب النظر إليها نظرتهم إلى نص أدبي مجرد لا شأن له بالسياسة، لكني مع ذلك كنت في سجني أكتب الكثير من الأدب المعارض الصارخ، ولا أنشره في الخارج، بل كنت أكتفي بقراءته بين زملائي المسجونين، وقد حدثت لي مشكلة عويصة بسبب ذلك، عندما وقع مخطوط شعري لي في يد أحد الضباط ولعلي أتعرض لهذه الحادثة في حينها.

****

[2] على أسيوط

في الإمكان أن أسمي الفترة القصيرة التي قضيناها في سجن مصر فترة استجمام لحد ما، إذ لا يوجد فيه سياط وزبانية وتحقيق ودماء، على الرغم من رداءة الطعام، وعدم مغادرة الزنازين إلا في الأيام الأخيرة، ولقد فوجئت بالسجان يهتف باسمي ذات صباح فأصابني القلق والتوجس، إن استدعاء السجين أو المعتقل مرتبط في الذهن دائمًا بما لا تحمد عقباه، والسجين السياسي يتوقع الشر والأذى دائمًا، إن سوء النية المزمن بين السلطة والمعارضة حقيقة أصيلة في مشاعر الطرفين، وخاصة الطرف الأضعف المظلوم الذي لا يملك بيده قوة مادية أو قانونية لحماية نفسه أو حقوقه، ففي هذا الزمن لا حقوق لصاحب الرأي المعارض، فهو متهم دائمًا بالخيانة والغدر والعقوق والتمرد، ولعل السبب في ذلك أن السلطة كانت تلجأ دائمًا إلى أحط الوسائل وأشنعها وأقساها للانتقام من أصحاب الرأي المخالف، وهذه أعراض عامة لكل أنماط الحكم الديكتاتوري أو الفردي، لأنه قائم أساسًا على القهر والتوجس وعدم الثقة بالآخرين، وقائم أيضًا على غرور السلطة بقوتها وتوجهاتها الجائرة.

أقول الحقيقة.. لقد دق قلبي من الخوف، وبدا الشحوب على وجهي، وأدرك أخي السوداني «الدكتور أبو بكر عثمان» ذلك، فقال: «سلم الأمر لله.. خير إن شاء الله».

قلت في أسى: «ماذا أفعل لو أعادوني إلى السجن الحربي مرة أخرى لاستكمال تحقيق من التحقيقات؟...».

قال بهدوء وهو يبتسم، وكانت ابتسامته النقية دائمة: «لا أعتقد.. ومع ذلك، فالأمر لله ما شاء يفعل..».

لم يكن في إمكاني أن أنفي عن نفسي القلق الذي يساورني، ومضيت مع الجاويش إبراهيم مستسلمًا، فتح باب العنبر «ج» بمفتاحه الضخم، وقطعنا الفناء الواسع، ووقفت حافي القدمين أمام الضابط الذي بدا مجاملًا رقيقًا.. سمعته يقول: «آسف يا ابني.. البقية في حياتك..».

فهتفت وقد ازدادت ضربات قلبي عنفًا حتى كدت أسقط: «من؟».

قال: «جدك الحاج عبد القادر الشافعي.. توفي أول أمس.. وأرسلوا إليك برقية في السجن..».

خفضت رأسي قائلًا: «حياتك الباقية..».

وانسكبت دموعي بهدوء.. لم يزل لدي بقية من الدموع.. رحمك الله يا جدى الحبيب.. كان عطوفًا وكريمًا.. علمني كيف أن العطف والكرم من قيم الحياة الرفيعة.. وكان محترمًا.. وعلمني كيف أن التزين بالاحترام ثقة ورجولة.. وكان كثير القراءة للقرآن، ويشجعني كلما حفظت سورة أو ختمت ختمة.. علمني حب القرآن.. وكان حكمًا عدلًا يلجأ إليه المتخاصمون والمتنازعون، وكان حكمه العادل يشيع الحب ويمحو الكراهية، ويقارب بين النفوس المتباعدة..

أفقت على يد الجاويش إبراهيم وهو يربت على كتفي: «تعال إلى العنبر..».

وعدت وأنا لا أكاد أرى ما أمامي، وقال الجاويش: «لقد ارتاح.. كلنا سنموت.. نحن كالمسافرين في قطار.. ولكل واحد محطة ينزل فيها.. وفي آخر الخط يفرغ القطار..».

عندما وصلت إلى الزنزانة سمعت إخواني يقدمون لي كلمات العزاء الرقيقة، حتى الزنازين المجاورة تناهت إلي منها كلمات المواساة، لا شك أن أحد السجانة قد أخبرهم.. وجلست في ركن الزنزانة محتقن العينين.. كان الحيز الضيق الذي نحشر فيها ملفعًا بالصمت، واستعاذ أحد الإخوة بالله من الشيطان الرجيم وبسمل ثم أخذ يتلو سورة ياسين بصوت مؤثر..

وحان الوقت الذي يسمح فيه لأهلنا بزيارتنا حسب اللائحة، وتقاطر الأهالي من أحياء القاهرة لزيارة ذويهم المسجونين، فكلفت أحدهم بأن يطلب من أخيه أن يرسل خطابًا لأبي يشرح له فيه إجراءات الزيارة الخاصة.. والزيارة الخاصة تحدث مرتين في العام تقريبًا، وفيها يجلس السجين مع اثنين من أهله لمدة ربع ساعة في الزيارة الواحدة، أما الزيارة العامة فتحدث كل شهر، ويكون بين السجين وأهله حاجز سلكي لا يسمح بالتلامس، وهي في حدود عشر دقائق.. وقد تسلم أبي الخطاب بالفعل، وسرعان ما اتخذ العدة لزيارتي في سجن القاهرة، ولم أكن أتصور أن يحدث الأمر في غضون أيام قليلة، وعندما سمعت اسمي في كشف الزيارة في أحد الأيام أصابني الارتباك، كانت لحيتي طويلة كثة، وكنت مشفقًا أن يراني

أبي لأول مرة على هذه الصورة، فأسرعت إلى أحد الإخوة كي يحاول تهذيبها أو حلقها، لكن الأدوات المطلوبة لذلك لم تكن متوفرة.. وابتسم الدكتور أبو بكر عثمان قائلًا: «اللحية سنة فلماذا تريد التخلص منها؟».

وذهبت إلى غرفة الزيارة.. فترة طويلة مضت دون أن أرى أبي!! ترى ماذا ستكون مشاعره في هذا اللقاء الأول؟ ماذا سيفعل عندما يراني في بدلة السجن الزرقاء، وتلك اللحية الكثة الطويلة السوداء؟ وهل سيعقد مقارنة بين هذا الرداء الأزرق ورداء الأطباء الأبيض؟ دعوت في نفسي الله قائلًا: «يا رب هون عليه مصيبته».

كنت أفكر في أبي أكثر مما أفكر في نفسي، إن لدي من اليقين والرضى بقضاء الله وقدره ما يكفيني، ولقد قطعت شوطًا في التجربة المرة الأليمة حتى اعتدتها، وأصبحت أمرًا مسلمًا به، والأمور تسير بصورة شبه طبيعية، أما أبي فإن الأمر قد يختلف عندما يرى ولده الأكبر الذي كان يعول عليه كثيرًا، وقد فقد مكانه في كلية طب القصر العيني، وأصبح في عداد المسجونين.

دخلت غرفة الضابط الذي سيحضر للإشراف على الزيارة ولمراقبتنا أساسًا، كان أبي يجلس مرتديًا جلبابه الصوفي الأزرق وعمامته، وكان إلى جواره خالي الحاج محمد عبد القادر الشافعي في زي مشابه، لم يلفت نظرهما دخولي، فهما لم يتعودا على هيئتي الجديدة: ملابس السجن الزرقاء المصنوعة من قماش الدمور الرخيص المصبوغ الكالح، وطاقية السجن المميزة، ثم اللحية الكثة الطويلة، وألقيت السلام واقتربت منهما مصافحًا، أسرعت بتقبيل يد أبي ومعانقته في حرارة، وهو ذاهل لا يكاد يصدق عينيه، كان ينظر إلي في دهشة وحيرة، وصافحت خالي وتعانقنا أيضًا، ثم جلست بينهما بعد أن حييت الضابط المسئول وشكرته، وجلسنا صامتين لفترة قصيرة، كان انفعالي عنيفًا والدموع تخنقني لكني كنت أتكلف الابتسام..

قال أبي مستغربًا: «لماذا تلبس هذا الزي؟».

- «ذلك نظام السجن يا أبي.. فلابد أن يلبسه كل محكوم عليه..».

قال وقد اتسعت عيناه وفغر فاه: «وهل حكموا عليك؟».

- «أجل.. عشر سنوات سجن مع الشغل.. ألا تعرف؟».

لم يتمالك أبي أعصابه، وتدفقت الدموع من عينيه رغمًا عنه، وتأرجحت مقلتاه في حيرة بالغة، وتمتم: «عشر سنوات؟ كيف؟ ولماذا؟ هذا غير معقول؟ هل قتلت أحدًا؟».

قلت بصوت خافت: «حوكمنا محاكمة سرية.. لم تستغرق المحاكمة أكثر من عشر دقائق.. والتهمة كما تعلم الانضمام للإخوان المسلمين..».

قال وقد بدا الاحتقان على وجهه القمحي: «ولماذا لم تخبرني كي أوكل لك محاميًا؟».

قلت بإيجاز: «رفضوا..».

رد وهو يضغط على أسنانه في غضب: «حكم قراقوش؟».

قلت هامسًا: «ألعن من حكم قراقوش.. لقد عذبونا بدون رحمة.. الحمد لله أن نجونا..».

وهنا تدخل الضابط قائلًا: «بم تهمسون؟ ارفعوا أصواتكم حتى أسمع.. هكذا الأوامر».

وكان الضابط يبتسم -مع ذلك- في رقة ووداعة.

وسمعت أبي يردد في دهشة «عشر سنين.. يا للمصيبة!! لماذا؟ عشر سنين؟ هل أنا في حلم أم في علم.. عشر سنين؟ الله يجازي الظَلَمَة!!».

قال خالي الذي ظل صامتًا يرقب الموقف بحسرة: «كنت أعرف ذلك.. لقد أخبرني صهري شقيق زوجتي محمود بك.. لكني لم أشأ أن أزعجك يا شيخ كيلاني..».

ومحمود بك هو اللواء محمود الشافعي الذي ترك الخدمة في عام 1965 وهو في وظيفية مدير مصلحة الأمن العام بالقاهرة، وذلك بسبب اعتقال شقيقه الأكبر الحاج محمد في قضية سيد قطب، وكان رئيسًا سابقًا لشعبة الإخوان المسلمين بقريتنا «شرشابة»، ثم أفرج عنه بعد حوالي شهرين من الاعتقال، وكان هذا الاعتقال سببًا كافيًا لإحالة شقيقه اللواء محمود إلى التقاعد على الرغم من صداقته الوطيدة مع الليثي عبد الناصر شقيق الرئيس، وكانت هذه الإحالة سببًا في إصابته بنوبة قلبية ظل يعاني منها حتى اختاره الله إلى جواره، فقد كان ضابطًا مشهودًا له بالكفاءة والنزاهة والخبرة الواسعة، ولم يكن يتصور قط أن يرمى خارج الخدمة بسبب اعتقال شقيق له لمجرد التحفظ، ودون أن توجه إليه أى تهمة.

أدركت أن أبي يبذل جهودًا خارقة حتى لا ينهار، كانت معرفته المفاجئة للحكم على بمثابة صدمة شديدة زلزلت كيانه، وندمت على تسرعي في إبلاغه بذلك، ولهذا أردت أن

أخفف وقع الصدمة فقلت بثقة: «تأكد يا أبي أن هذا الحكم ليس له معنى أو قيمة.. الأحكام السياسية دائمًا قد تلغى في أي وقت، إنها مرهونة بالوضع العام، وبالحالات السياسية المتقلبة التي لا تستقر على حال، إنها أشبه ما تكون بالاعتقال.. فلا تهتم بهذا الأمر، إننا وديعة بين يدي الله، والحكم حكمه، والأمر أمره..».

قال أبي: «عشر سنوات؟ لم أكن أتصور أن يصل الأمر إلى هذا الحد!! أليس في قلوبهم رحمة؟».

وأخذت أسأل عن أمي وأخوتي وأقربائي وأصدقائي، فرد بإيجاز: «كلهم بخير.. كن في نفسك أنت...».

وأردت أن أخفف عنه قليلًا فقلت: «سوف يسمحون لنا بالمذاكرة وأداء الامتحان..».

- «أي امتحان يا ولدي.. هل هناك امتحان أشد مما أنت فيه؟».

- «إني راض وصابر ومحتسب.. ولم أرتكب وزرًا أعاقب عليه..».

وقف الضابط فجأة وقال بحزم: «وقت الزيارة انتهي.. مع السلامة..».

وخرج أبي وخالي، كان يتطوحان في مشيتهما وَهَنًا وحَزَنًا، أخذت أرقبهما بعين دامعة، وقلبي يتفطر أسى، لقد اقترب أبي من سن الخمسين، وكان ينتظر مرور عامين آخرين حتى يسعد بتخرجي طبيبًا، ثم يذهب ليؤدي فريضة الحج، ويحمد الله على نجاحه في إتمام تعليمي، لكنني لاحظت أن هذه الشهور القليلة التي مضت منذ اعتقالي قد أورثته شيبًا مبكرًا، بل وأحنت ظهره، وعمقت من تجاعيد وجهه وجبهته، وكلما تذكرت دموع أبي الصامتة المتدفقة أشعر كأن سكينًا تنفذ إلى قلبي، إنني حتى اليوم لا أستطيع أن أنسى هذا المشهد، وعندما أكتب شعرًا أو قصصًا تعود إلى عقلي وقلبي صورة تلك الأيام المؤلمة، ومن أوائل القصائد التي كتبتها بعد هذه الزيارة قصيدة «في الوادي الرهيب» التي نشرت بعد ذلك في مجلة «الأدب»، ثم نشرت في ديوان «أغاني الغرباء» وفيها قلت على لسان أختي:

أبي مـا بالنـا نمـضي، وروحُ الحـق مقهـورة

وأحلامـي وآمـالي بـسجن الليـل مأسـورة

يقال الناس أحرارٌ، ودنيا الناس مهدورة

أريد الفجر بسامًا، وأعشق يا أبي نُوره

قطيعٌ نحنُ يا أبتي، ولا فرقٌ سوى الصورة

سياط الدهر تدفعنا لوادي العسف والنقم

وفي آخر القصيدة الطويلة تقول الابنة:

أجل سيعود يا أبتي، ويحمي ركبه القَدَرُ

أجل ورفاقه معه، فجيش الحق منتصرُ

فهم زحفوا، وهم وثبوا، وذاك الليل معتكرُ

وكم لاقوا بعتمته من البلوى وكم صبروا

لقد عاشوا لغايتهم، فللرحمن ما بذروا

أجل سيعود يا ليلى وتخمد جمرة الألم

وفي قصتي القصيرة «القافلة» التي نشرت في جريدة «المساء» فيما بعد، كما صدرت في مجموعة «عند الرحيل» وضعت صورة صادقة مؤثرة لأب ذهب لزيارة ولده السجين في «الليمان»، وقد ألح عليه الحب والشوق العارم، وأخذ يتكلم.. ثم يهذي طوال رحلة العودة في القطار حتى اختل عقله أو كاد، وهي صورة مأساوية دامية، أثنى عليها الناقد الكبير المرحوم الأستاذ أنور المعداوي حينما قرأها.

إن صورة الأب والأم في شعري ورواياتي ذات طبيعة خاصة، والعجيب أن أحد النقاد لفت نظري إلى ذلك، وأشار إلى أنني أضفى على صورتها قداسة من نوع مميز، مع أن هناك أمهاتٍ وآباء يتسمون بصفات مغايرة..

عدت إلى زنزانتي بعد الزيارة مرهقًا مكدورًا، وكأني كنت أسابق الريح في رحلة شاقة طويلة، كان العرق يندي جسدي رغم برودة الجو، ولم أجد شيئًا أقوله لإخواني، فقد كنت عازفًا تمامًا عن الكلام، وتجسدت مأساتي الأسرية بعد هذه الزيارة بصورة مؤلمة، إذ يبدو أن أبي كان ينظر إلي كأمل للأسرة، وقد انطفأ الأمل فجأة، وخلف وراءه الآلام والأحزان، لم

أكن أدرك ذلك من قبل على نحو واقعي، فشبابنا قد أمدنا بطاقة قادرة على الصمود في وجه المحنة، وتجمعنا في صعيد واحد، قد بعث فينا الثقة والقوة، وانهماكنا في العمل الإسلامي قد كشف لنا عن عدم ثبات الأوضاع والمواقع السياسية، وخاصة أننا في زمن كثرت فيه الانقلابات في أنحاء العالم العربي والإسلامي والعالم الثالث بصفة عامة، كما كثرت فيه تدخلات القوى العظمى في مصائر الدول الصغيرة أو الضعيفة أو الفقيرة، ولهذا كنا ننتظر فرج الله في أي وقت من الأوقات، ومن يدري؟ فقد تشعر الحكومة بخطئها الفادح ذات يوم، فتفتح لنا أبواب السجون ونعود إلى عالم الحرية من جديد، ومن العجيب إنه في هذا الوقت بالذات كانت تتناثر الشائعات عن تفكير رسمي للإفراج عن المعتقلين والمسجونين، وخاصة بعد أن تم الإفراج عن المرشد العام المرحوم الأستاذ حسن الهضيبي بعفو صحي كما سمعنا.. لكن الأهل ليس لديهم ذلك التصور الذي نعيش في رحابه، والمسجون دائمًا لا يفقد الأمل، بل يظل يحلم بيوم الحرية كلما أشرقت الشمس أو غربت، وفي الصباح نسمع عن كل رؤيا جديدة شاهدها أحد الإخوة في منامه، ويكون التفسير في جميع الحالات هو أن الفرج قريب، وأن ساعة النصر لا شك آتية، وأن المحنة تعقبها منحة، وأن مع العسر يسرًا، وهكذا فإن أي مسجون –سياسي أم غير سياسي– ينتظر دائمًا يوم الفرج القريب..

كان السجن في بدايته رومانسيًا إن صح التعبير، ولم نكن نشعر بثقله وكوارثه النفسية، فهو بمثابة تجربة جديدة مثيرة، وهو مدرسة للصبر والصمود والتكوين العقلي والنفسي، وهو خلوة للعبادة حيث انهمكنا في قراءة القرآن والصوم والصلاة وتلاوة الأوراد، بالإضافة إلى أنه منحة تفرغ للتعمق في الفكر والفقه والتفسير ومختلف العلوم، وكانت طاقاتنا الحبيسة –لاشك– تتمرد من آن لآخر، لكن حلقات الحوار والفكر الديني كانت كفيلة بإطفاء جذوة التمرد.

إن القضية التي نؤمن بها تمدنا بقوة هائلة لا تتزعزع، وتفجر فينا آمالًا تتأبى على الفناء، وتفتح أمامنا آفاقًا رحبة تمتد إلى آخر المدى، عندئذ يهون العذاب، وترخص الدنيا بكل زخارفها ومباهجها ومغرياتها، وتتوارى الشهوات المادية خلف ستار كثيف من الزهد والقناعة والرضى بقضاء الله، فالعقيدة القوية هي العصمة من الندم والضعف واليأس، والثقة بالله تزيل هواجس التردد، وبواعث الملل، وعندما يوسوس الشيطان، أو تهجم

الذكريات المثيرة للشجن، يقف الإنسان بين يدي الله ليصلي، ويستغرق في صلاته وخشوعه، ليس في السجن عجلة أو ارتباط بمواعيد أو تكاليف معيشية، ومن ثم فإن مناجاة الله تتم على الوجه الأفضل، وقراءة القرآن تبدو وكأن لها مذاقًا خاصًا رائعًا، وفي الحياة الجماعية دفء صادق، وعاطفة مغذية، وتبادل الخبرات والمعارف يفيض بالثراء، وينمي الفكر، ويضيف إلى الشخصية الكثير من الصفات، والأمر المهم هو المنهج السلوكي الصحيح، فالقدوة موجودة، والسجين صاحب العقيدة يتحرج من إتيان فعل شائن، أو تصرف خارج، ولهذا فإن فترات السجن المتعاقبة قد نفت الكثير من الممارسات الجانحة، وعمقت في النفس معنى الترابط والالتزام والصدق، ويا ويل السجين السياسي إن اهتزت عقيدته، أو ندم على ماضيه، أو داخله الشك في صحة ما التزم به في سابق الأيام، عندئذ تنقلب حاله، وتتبدل سلوكياته، ويصبح أسيرًا للغضب واليأس والتمرد، فيكثر شجاره، وتتبدى أنانيته، وتتناوبه العلل النفسية الماحقة التي لا حصر لها، وهناك فرق شاسع بين السجين العادي الذي أدين في جريمة سرقة أو مخدرات أو قتل أو نصب أو هتك عرض، وبين السجين السياسي الذي يحمل رسالة نحو دينه أو مجتمعه، بل إن السجناء السياسيين «كما يسمونهم» يختلفون من فئة لأخرى، فالشيوعيون يختلفون عن الإخوان، والجواسيس يختلفون أيضًا في نوعياتهم، والمتآمرون أو الانقلابيون أشكال وألوان، لكن الذي لا شك فيه هو أن العقيدة الدينية الراسخة هي التي تتميز عما عداها بقوة التأثير، وبالطبع فإن هذا لا ينفي وجود قلة من الشيوعيين أو أصحاب المذاهب السياسية الأخرى استطاعت أن تثبت وتقاوم لفترات طويلة.

أقول كانت الفترة المبكرة في السجن ذات صورة رومانسية شائقة جذابة، ولماذا لا يسعد السجين وهو يرى نفسه مجاهدًا في سبيل الله، وضحية من ضحايا الغدر والظلم، وداعية من دعاة العدل والحرية وتطبيق شريعة الله في الأرض؟! إن كل ما يعاني منه ذلك السجين إنما هو جهاد في سبيل الله، ومن ثم فهو يستعذب الحرمان والتعذيب، ويرضى بالقليل من القوت، ويلبس التافه من الثياب، ويغض الطرف عن زنزانته الضيقة المزدحمة، وعن قعوده الساعات الطويلة رهين محبسه، وماذا يضيره إذا كان يعبد ربه؟ أما أهله فهم وديعة عند الله، وهو الرزاق ذو القوة المتين. فالسجين صاحب التوجه الإسلامي يجد التفسير المريح دائمًا لكل ما يحل به من مضايقات وكوارث، ويعتبره حسبة عند الله تعالى، وعند الله لا تضيع الحقوق،

ولا يهدر الجزاء الأوفى، وإذا أحب الله عبدًا ابتلاه ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ [محمد:31].

ولنا أن نتساءل: إلى متى تدوم هذه الفترة الرومانسية الجميلة؟ لا أريد أن استعجل الأحداث، فإن قصة السجن طويلة، امتدت بالبعض منا إلى أكثر من عشرين عامًا، ومن الطبيعي أن تحدث مداخلات، وتجدّ مؤثرات، وتبرز عوامل، فيبدأ الحوار، ثم يحتد، وقد يتحول إلى شجار وخلاف، وقد ينتهي إلى شقاق، عندئذ تحل الكوارث، والواقع أن هذا أمر طبيعي لا غرابة فيه، ما دامت قوة التحمل أو الصبر تختلف من شخص إلى آخر، وما دامت وجهات النظر تتأبى على التماثل، وما دامت ردود الأفعال تصطبغ بصبغة الأهواء والثقافات والتجارب والأطماع، وما دامت هناك أيد خفية تعمل في الظلام لبث الفرقة، وتمزيق الوحدة، والتشكيك في سلامة المقصد، بما تدسه من وثائق مزيفة، وأخبار كاذبة، وبما تقدمه من وعود براقة، وجوائز ثمينة، إنها فتنة قاسية لا ينجو منها إلا من عصم ربك.

انتهت أخيرًا فترة الحجز علينا، وسمح لنا بأن نخرج في طابور الصباح لننعم بالشمس والهواء في فناء السجن، وقد كنا سعداء بذلك غاية السعادة، إن أي ترفيه ولو بسيط يجعل السجين فرحًا نشطًا، وقد يتخيل أن وراءه فرجًا قريبًا، ترى هل تعود للسجين روح الطفولة والبراءة مرة أخرى، فيطرب قلبه للأشياء الصغيرة، ويصدق الهواجس والأوهام، وينفي عن نفسه الخواطر السوداء المزعجة؟

كنت أنظر إلى وجوه الإخوة المتناثرين في فناء السجن ساعة الصباح والشمس مشرقة بسخاء، فأرى على الوجوه رضى وتسليمًا وسعادة لا زيف فيها، وكنت أسمع ضحكاتهم التي تنبعث من القلب دون تكلف، وكان بيننا بضعة أفراد أوتوا موهبة سرد القصص والحكايات، أو ذكر الطرائف والنكت، وكان لديهم قدرة فائقة على جذب انتباهنا، والاندماج الكامل فيما يقولون، وكان طبيعيًا أن نتحلق حولهم، ونستمع إليهم في شغف بالغ، لكن الشيء الملفت للنظر أن إخواننا الذين كان لهم شرف الجهاد على أرض فلسطين، أو في منطقة قنال السويس، كانوا عازفين عن الحديث عن ذكرياتهم وتجربتهم الخصبة، فإذا ما سئلوا صمتوا أو أجابوا باقتضاب.

وعلى الرغم من التشدد في معاملتنا إلا أنه كان بسجن مصر عدد من المتهمين في قضية التجسس لحساب إسرائيل ويسمح لهم بطعام من خارج السجن على نفقتهم الخاصة، وتقدم لهم كافة التسهيلات الممكنة الخاصة بالملابس والكتب والمراسلات والأدوية وغيرها، وكم كان غريبًا أن يظل المعتقلون من الإخوان «الذين لم يقدموا للمحاكمة» دون السماح لهم بالزيارات أو كتابة رسائل لذويهم، مع أنهم قد مضى عليهم في المعتقل أكثر من عام.

والحقيقة أن مشكلة الزيارة بالنسبة للمعتقلين، وبالنسبة للمسجونين قبل صدور الأحكام عليهم، كانت تحتل أهمية كبيرة، فالانقطاع التام عن الأهل يبعث دائمًا على القلق، ويعطل الكثير من المصالح، فمثلًا قد يكون لأحد المعتقلين ديون عند بعض الناس، ويريد تحصيلها حتى تستطيع الأسرة أن تنفق على نفسها، أو يكون المعتقل صاحب أعمال أو تجارات أو مقاولات، ويريد أن يعطي أوامره فيما يختص بهذا أو ذاك، لكن منع الزيارة، وتحريم إرسال الخطابات، يكون سببًا في تعطيل ذلك كله، بل وفي حدوث خسائر مالية كبيرة، ولم يكن المعتقل يقف عاجزًا إزاء هذا الوضع الظالم، فكان يُهَرِّبُ الخطابات، عن طريق العسكر، ويدفع لمن يقوم بهذه المهمة خمسة أو عشرة جنيهات، ونظرًا لأن المعتقل -وكذلك السجين- لا يملك مالًا في يده، فكان ينص في رسالته لأهله أن يعطوا حامل الرسالة مبلغ «كذا» جنيهًا حسب الاتفاق، وبالطبع فإن الأهل يبادرون بدفع المبلغ المطلوب للعسكري بعد قراءة الرسالة، فهم يعتقدون أن معتقلهم لا شك محتاج لذلك، ثم إن هناك بعض المسجونين العاديين الذين يخرجون للعلاج في المستشفيات الخارجية، وهناك المسجونون الذين يرحلون من سجن لآخر، وهناك أيضًا بعض المحجوزين الذين يؤخذون للمحاكم لتكملة محاكمتهم في جرائم مختلفة، كل هؤلاء يمكن أن يحملوا معهم رسائل من المعتقلين ويرسلوها إلى أهليهم بأسلوب أو بآخر، بقي أن نعلم أن تهريب الخطابات يعتبر -بنص لائحة السجون- جريمة يعاقب عليها القانون، وقد يصل الحكم فيها إلى ستة شهور سجنًا، بالإضافة إلى ما يجره تهريب الخطابات من تكدير وعقوبات داخلية، تشمل الضرب والإهانة، ومنع الخروج من الزنزانة لفترة، ومضاعفة «مقطوعية العمل» والجلد والتأديب، وسحب الأوراق والأقلام والكتب إذا عثر عليها أثناء التفتيش مع عقوبة أخرى صارمة، وعلى الرغم من ذلك كله، فإن المعتقل كان يجد نفسه مضطرًا لارتكاب هذا «الجرم» لكي يقضي مصالحه المهمة، ويرتب أمور أسرته اقتصاديًا واجتماعيًا، وليبدي رأيه في مسائل الزواج والطلاق وغيرها، بل

إن المسجونين الذين سمح لهم بالزيارة، كانوا ممنوعين من كتابة الرسائل لما يقرب من عامين، وقد حدثت لي مشكلة من هذا القبيل تتعلق بالرسائل في فترة اعتقالي الثانية عام 1965لعلي أتعرض لها في حينها.

ولكني اكتشفت في سجن القاهرة وسيلة مبسطة وبدائية للزيارة، فقد كانت النوافذ التي تطل على الشارع تهيئ الفرصة لسكان الزنازين الغربية كي يطلوا من هذه النوافذ ذات القضبان الحديدية المتقاطعة، ويتكلموا مع أهليهم في الشارع –خارج السور– بصوت عالٍ يسمعه الجميع، ولم تكن الفرصة تتاح لهؤلاء المحبوسين إلا في المساء، بعد أن ينصرف مدير السجن والمأمور، لكن سكان زنازين الجهة الشرقية التي تطل نوافذهم على باحة السجن، لم تكن تتاح لهم هذه الفرصة الذهبية.

ومن الطريف أن أخانا المعتقل –تاجر الساعات «بالدقي»– عبد المنعم قنديل، كان يسكن في إحدى الزنازين الغربية، وفي كل يوم كنا نسمع صوت امرأة ملتاعة تنادي بصوت باك، وبلهجة غريبة، وتقول: «جنديل «قنديل» يا حزين.. يا واكلهم.. وين محمد ولدي؟».

فيرد عبد المنعم قائلًا: «محمد بخير يا أم محمد...».

– «عايزة أشوفه يا حزين..».

– «مش ممكن ياست أم محمد».

– «ليش؟».

– «لأنه في الناحية الشرقية...».

– «وكيف أشوفك أنت وما أشوفه هو.. يا حزين يا واكلهم...».

وأصبح هذا الحوار مادة يومية، وعلمت من عبد المنعم أنها امرأة مسكينة وحيدة من «النوبة»، وكانت تعيش في القاهرة مع ولدها محمد، الذي يعمل طول اليوم لينفق عليها وعلى نفسه، وكان شابًا طيبًا مستقيمًا بريئًا، واستطاع عبد المنعم أن يرفع من مستواه الاجتماعي لحد ما، وأن يساعده في تحصيل رزقه، وبمرور الأيام انضم إلى الإخوان، وعثر على اسمه في كشف بإحدى الشعب الإخوانية، فتم اعتقاله مع الآخرين.

الطريف أيضًا أن محمد هذا كان في زنزانة تضم نخبة من الإخوان فيهم مدير عام مصلحة المساحة، وبعد أن خرج محمد من المعتقل في عام 1956 ببضعة أيام ولى وجهه شطر مصلحة المساحة، وطلب مقابلة المدير، فلم يرق هذا للسكرتير، لكن إصرار محمد جعله يدخل ليستأذن له من المدير، كان المدير رجلًا صالحًا نظيفًا، لكنه بعد خروجه من المعتقل كان يتحرز -حسب أوامر المباحث- من مقابلة الإخوان، فأوعز إلى سكرتيره بأن يصرفه بلباقة تجنبًا لأي مشاكل، وخاصة أن رقابة المباحث مشددة، وعندما أدرك محمد أن المدير يتهرب منه صاح بأعلى صوته: «هو سعادة البك المدير نسي ولا إيه؟ داحنا واكلين عيش السجن سوا.. قل له وحياة العدس والفول يسمح لي بالمقابلة.. دانا كنت باغسل له هدومه، وأنفض له فرشه من التراب..».

وهرول السكرتير العام يخبره بما سمع، فما كان من المدير إلا أن هب واقفًا وهتف: «أدخله...».

ودخل محمد في أدب وهو يبتسم ويقول: «أيوه كده.. دى الوقتي إحنا إخوان بصحيح..».

- «خير يا محمد...».

- «لا قهوة ولا شاي؟».

- «اعذرني يا محمد أنا مشغول.. هذا ليس بيتي.. وكنت سأقابلك بوسيلة أخرى».

قال محمد بصلابة: «نفذ وعدك».

- «أي وعد؟».

- «قلت لي في المعتقل إنك إذا خرجت فستوظفني عندك..».

- «لا تذكر كلمة الزفت «المعتقل» دي هنا...».

- «خلاص.. الوظيفة.. عايز أستلمها حالًا..».

قال المدير العام لسكرتيره: «ابحث له عن وظيفة عامل.. بس تكون بعيدة عن الإدارة.. واكتب رسالة للداخلية لأخذ موافقة الأمن مع السلامة..».

هتف محمد وقد أشرق وجهه بالفرحة: «عشت يا بك.. والله لو اعتقلونا تاني لأشيلك على رأسي..».

وقال البك في غضب:

- «أعوذ بالله.. فأل الله ولا فألك يا شيخ.. توكل على الله يا محمد..».

ومن الصدفة الغريبة أنه في عام 1965 أعيد اعتقال الإخوان وكان من بينهم سيادة المدير العام، وقد بدا متقدمًا في السن عليلًا، ضعيف البصر بعد أن أجريت له في عينيه عملية المياه البيضاء «الكاتاركت».. كما اعتقل محمد أيضًا.. وكان في سجن آخر، لكنه كان يسأل كل يوم عن «سعادة البك» هل وصل أم لا، ولم يتم لقاؤهما إلا في شهور الاعتقال الأخيرة.. وكان محمد يضحك في براءة ويقول: «الأيام تفرقنا والمعتقل يجمعنا يا سعادة البك.. وراك وراك.. هتروح مني فين؟ حتى الحكومة كانت تعتقل السكرتير كمان.. لكن ليه.. أنا هنا في خدمتك.. وربنا يديم المعروف..».

كانت الأيام تمر علينا في سجن القاهرة بطيئة مملة، ونحن نتساءل: هل نظل على هذا الوضع عشر سنوات؟ لم نكن نعلم تمامًا ما يراد بنا، لقد اقترب عام 1955 من نهايته، ومازالت المحاكمات جارية في جلسات سرية، ولا يكتب عنها أي شيء في صحف الدولة، وما زال المعتقلون الذين لم توجه إليهم أية تهمة في نطاق الأسر المفروض، وما زال الأفق السياسي ملبدًا بالغيوم منذ عام 1954.

لم نكن وحدنا في السجن، كان هناك بعض الشيوعيين، وعدد من الإخوة المسيحيين الذين خطفوا البطريرك، ويقولون إنهم من تنظيم سرى اسمه «حزب الأمة القبطي»، وعلى رأسهم المسجون إبراهيم هلال، وكان هناك -كما قلنا- بعض الجواسيس وفئات سياسية أخرى، وبعض ضباط الجيش الذين أدينوا في انقلابات سابقة فاشلة، لكنهم كانوا يرتدون ملابسهم المدنية، ويقيمون في المستشفى أذكر منهم الدمنهوري والصاوى والمصري وغيرهم.

وذات يوم فوجئنا بحركة غير عادية وإجراءات وحصر للمسجونين السياسيين وحدهم، وترددت في أروقة العنبر «ج» كلمة «الترحيل».. وفهمنا معناها بالطبع، فهي تدل على أن عددًا من المحبوسين السياسيين سوف ينقل إلى سجن آخر، وأين هذا السجن؟ لا يدري أحد، وقيل أيضًا أن الترحيل سيتم غدًا، فأسرعنا ببث رسالة عبر نوافذ السجن إلى الخارج،

وما إن حط المساء حتى تزاحم الأهالي خارج السور متساءلين عن المكان الذي سنقصده.. لكننا لم نكن نعرف، وفي الصباح الباكر جمعونا في فناء السجن بعد أن وضعوا اختام «الترحيل» السوداء على سواعدنا، ثم قسمونا إلى مجموعتين مجموعة يتم ترحيلها إلى سجن «بني سويف» والثانية إلى سجن «أسيوط» وهما بالوجه القبلي من مصر، وكان نصيبي أن أكون في الفئة الثانية «المصدرة» إلى أسيوط عاصمة الصعيد..

خرجنا في طابور طويل، وكل واحد يحمل «بقجة» قماشية بها أشياؤه التافهة التي كانت موضوعة في أمانات السجن، وحشرونا في سيارات «بيك أب» صغيرة وعلى الرغم من أن الشمس لم تكن قد أشرقت بعد، إلا أننا وجدنا حشدًا هائلًا من أهالي السجناء الذين يعيشون في القاهرة، أغلبهم من النسوة اللابسات السواد، وكان الضجيج يصم الآذان، والنسوة يصحن: «مع السلامة يا حبايب...».

«مع السلامة يا مظاليم...».

«ربنا يكتب لكم في كل خطوة سلامة..».

نظرت إلى النسوة الغارقات في البؤس والسواد، وصك سمعي الصيحات المتحشرجة الباكية، كانت وجوههن الشاحبة الحزينة تضيء رغم الظلام، وأيديهن تلوح لنا بعصبية في حركات رتيبة، كأنها تتابع لحنًا جنائزيًا ينتفض أسيً ولوعة.. لكن الشيء الذي يدعو إلى الدهشة، أن بعض الزغاريد انطلقت فجأة.. ثم تعالت من النسوة صيحات «الله أكبر».

وتدفقت دموعي، حاولت أن أحبسها دون جدوى، لم تكن أمي معهن ولا إحدى أخواتي، لكني شعرت أن كلهن أمي.. كلهن أخواتي.. ووجدتني أردد أنا الآخر «الله أكبر...» وكذلك الإخوة الذين معي.. وأسرع الحراس بالهجوم على النساء لتفريقهن.. ولكن دون جدوى.. لقد بقين في أماكنهن المحيطة بقافلة السيارات دون أن يتزحزحن بوصة واحدة..

وتحرك الموكب، والنفير يعلو صوته ويتردد صداه في هذا الحي القاهري النائم، ومئذنة مسجد السيدة عائشة –رضي الله عنها– تمتد في قلب الأفق مضيئة صامدة.. لم يأخذونا إلى محطة القاهرة الرئيسية للسكك الحديدية حسبما توقعنا، بل ساقونا إلى محطة الجيزة.. كانت هناك عربات خاصة لشحن المسجونين، وهي عربات مخصصة لنقل الحيوانات أساسًا،

وكانت هتافاتنا –ونحن ننتقل من السيارات إلى القطار ترج المكان رجًا، كانت الشمس قد أشرقت وغمر ضوءها المكان، وتوقف الناس على أرصفة القطارات ينظرون إلينا في دهشة وذهول، كان كل واحد منا مربوطًا بالأغلال الحديدية «الكلبشات» مع عسكري شرطة، بحيث تكون اليد اليمنى للسجين مقيدة مع اليد اليسرى للعسكرى، ولهذا فإن السجين لا يمكن أن يتحرك إلا مع الشرطي.

وتحرك بنا القطار أخيرًا، وما زال الواقفون على الأرصفة ينظرون إلينا في ألم وإشفاق، وما زالت هتافاتنا بالتكبير.. وبسقوط الطاغية.. وبسقوط الظلم، تدوي بقوة..

كان قائد القوة التي تقوم بترحيلنا على ما أذكر هو البكباشي شوقي المنيسى، وهو كما يبدو رجل طيب متحفظ، ولعله قريب للشهيد أحمد المنيسي الذي استشهد في معركة التل الكبير ضمن فدائيي الإخوان المسلمين في يناير عام 1952، ولعله أيضًا قريب ضابط الشرطة المعروف في الإخوان المسلمين أيضًا شوقي المنيسي.. المهم أن البكباشى دخل إلى العربة التي كنت فيها، واتجه إلي بالقول في عصبية:

«كفى هتافًا..».

قلت له: «لن نكف!! إننا نعبر عن رأينا...».

قال في ضيق: «إذا لم تكف فسأضربك باللانكستر «مدفع رشاش كان معه»..

- «لن نسكت..».

حاول أن يخفف من لهجته الحادة، فقال: «من أجل مصلحتكم يجب أن تهدءوا.. أنتم تعرفون أن الحكومة لا ترحم.. فلماذا تصرون على إحراجنا؟..».

رددت في سخرية: «إن هتافات المأجورين تدوي في أنحاء مصر وخاصة عندما يخطب الرئيس..فلا أقل من أن نهتف في قطار...».

قال وقد احتقن وجهه: «يا ابني.. عندما تكونون مثلهم فافعلوا كما يفعلون.. هذا فيه الكفاية».

وتركنا وانصرف، فودعناه بنفس الهتافات السابقة، لكنه لم يلتفت.. وصمتنا عندما أرهقنا الهتاف، وبحت أصواتنا، وقررنا ألا نردد شعاراتنا إلا عند وقوف القطار في المحطات، وفي

إحدى المحطات وجدنا باعة «القصب» والساندوتشات، فانتهزنا الفرصة واشترينا بعضًا منها، فالطريق طويل ويحتاج إلى ساعات طويلة، لكن لم يكن معنا أموال سائلة، فكيف نتصرف؟ كنا نستعمل «علب السجائر» كعملة متداولة، وعندما بدأنا دفع ثمن الأشياء بهذه الطريقة رفض الباعة الجائلون، وأصروا على أن يكون ما أخذناه منهم مجرد هدية، أو ضيافة صعيدية عربية، لكننا ظللنا نلح وهم يرفضون حتى تحرك القطار، فلم يكن هناك بد من أن نلقي بالثمن -علب السجائر- على الأرض ومضى القطار مسرعًا، ونحن نرقب المشهد، والإخوة الصعايدة ينظرون إلينا في تألم، وتكاد الدموع تطفر من أعينهم، وعلب السجائر ملقاة على الرصيف لم تمتد إليها يد بعد، وبقي الأمر على هذا الحال، حتى غيبتنا سرعة القطار عنهم، إنه مشهد نبيل لا يمكن أن أنساه ما حييت..

نزلت الفئة الأولى منا في محطة بني سويف، وكان فيهم أخي الدكتور إبراهيم الصياد، ومضى بنا القطار متجهًا جنوبًا صوب أسيوط، وابتسم أحد الإخوة ولعله الأخ المرحوم رجب الخميس، وأخذ يردد أغنية شعبية مطلعها:

«يا سايج الجطر وديني على أسيوط... على أسيوط».

وأخذنا نشاركه الغناء..

وصلنا إلى أسيوط بعد العصر..

كان في استقبالنا المحافظ ومدير الأمن والحكمدار و«نخبة» من رجال المباحث العامة ورهط من المخبرين..

لأول مرة في حياتي أرى أسيوط..

أين شرشابة قريتي النائية الآن من أسيوط؟

وهل سيتكبد أبي المشاق في قطع هذه المسافة الطويلة لزيارتي؟

قال أخونا أبو بكر عثمان «السوداني الجنسية»: «مشيناها خطى كتبت علينا..».

فاكملت له البيتين وأنا ساهم أفكر..

مشينا في صمت وهدوء، وفتحت لنا «الكوة» الصغيرة في باب السجن الكبير، دخلنا واحدًا واحدًا.. وجلسنا القرفصاء في ساحة السجن بنظام، كانت الشمس تغرب، والجو أخذ

يبرد، وملابسنا خفيفة متآكلة.. ونظرنا فإذا بعنبر للسجناء في الناحية الشرقية، وآخر في الناحية الغربية، بالإضافة إلى سجن النساء الذي يقبع إلى جوار مبني الإدارة.

كبار الرتب العسكرية كانت تحيط بنا، كنا نعرفهم من أزيائهم والرموز النحاسية المثبتة على أكتافهم.. ولا تكتمل وجاهة رجل الشرطة إلا إذا انتفخ وبدا متعجرفًا متكبرًا، هذا ما لاحظته في ذلك الوقت، رجل واحد.. واحد فقط.. بدا عليه قدر من الحزن الظاهر لا يمكن إخفاؤه.. وقلت في نفسي لعلها طبيعته.. فالناس ليسوا جميعًا على نمط واحد.. اتضح فيما بعد أنه رجل عظيم.. ومن منا يستطيع أن ينسى ضابط الشرطة.. الصعيدي.. المسلم الشجاع.. «مصطفى أبو دومة»؟

قال أحد ضباط الشرطة من كبار الواقفين حولنا للبكباشي شوقي المنيسى قائد قوة الترحيل: «لسوف تبقى معنا في أسيوط الليلة.. فيه فيلم عظيم جدًا في السينما..».

وبدا على المنيسى أنه غير مكترث لما يقول، وقال في شيء من التبرم: «خير لنا أن نعود الليلة.. لقد انتهت مهمتنا..».

رد عبد العظيم بك سليم مدير السجن، وكان يضع على عينيه نظارة سوداء أنيقة: «اطمئن يا بك.. ألا تراهم يجلسون كالفراخ في القفص؟».

وضحك ضحكة ساخرة آلمتنا، لكننا لم نكن في حالة تسمح لنا بالرد على التعليقات الجارحة التي تنطلق هنا وهناك، بعد أن تم إغلاق باب السجن، وأحاط بنا السجانة من كل جانب، تنهدت في ألم وتطلعت إلى نوافذ الزنازين، ودققت النظر، لقد رأيت وجوهًا سمراء تزدحم في كل نافذة.. إن النزلاء جميعًا يرقبوننا، أليس هذا غريبًا، فالسجن يستقبل «الإيراد» كل يوم، وهو أمر طبيعي لا يثير أدنى دهشة، لكننا علمنا فيما بعد أن ضابط السجن، وخاصة اليوزباشي محمود أبو كريشة والملازم أول زكي، قد حذروا النزلاء منا، وأفهموهم أننا ألعن من الشياطين، وأننا سوف نسبب لهم العديد من الكوارث والمتاعب إذا قامت بيننا وبينهم أي علاقة، المهم أنهم شحنوا النزلاء ضدنا بطريقة مثيرة، حتى بدا أنهم يتوجسون منا خيفة.. هذا ما علمناه فيما بعد..

وما إن انتهى الحصر والتسجيل، حتى أخذونا إلى العنبر الشرقي في الدور الرابع أو الأخير، ووزعوا كل مجموعة منا تتراوح بين 8-10 سجناء في غرفة من الغرف الكبيرة، مع

المسجونين العاديين، وأعطوا كل نزيل «برشًا»وقطعة من البطانية، أو بطانية رقيقة متهرئة.. ألقينا على النزلاء القدامى السلام، ثم افترش كل واحد برشه، وجلسنا متجاورين صامتين، كانت عيون المسجونين من مواطنينا الصعايدة تنظر إلينا في حذر، ولم نجد لديهم الترحيب أو حسن الاستقبال المعهود، ولم نعر الأمر أدنى اهتمام، فإن قابل الأيام سوف يعقد بيننا الصلات الحميمة، بعد أن نتعرف عليهم، ويثقوا فينا.. كان يجلس على يميني أخي السوداني الدكتور أبو بكر عثمان، الذي لا تفارقه الابتسامة أيضًا كان يتميز بنحافة جسمه، وقصر عوده، وكان أبو بكر في دهشة من أمره، فقد صدر ضده حكم بالسجن خمس سنوات لأنه كان يجمع التبرعات لمساعدة أسر المسجونين من الإخوان المسلمين، لكنه فوجئ في الترحيل بأن السجن عشر سنوات.

كان ليل أسيوط شديد البرودة، وكانت البطانية التي أغطي بها جسدي قصيرة بحيث لا تصل إلى قدمي، وحاولت أن أنام دون جدوى وذلك بسبب البرد، وقلة الطعام، ورأيت أخي أبو بكر هو الآخر يرتجف، قلت له: «ما نفعل؟».

- «لا حل سوى أن ننام تحت البطانيتين معًا..».

ونمنا القرفصاء، ركبنا عند صدورنا، ككرتين كبيرتين من المطاط، وحاولنا أن ننام، كنا نغفو فترة قصيرة، ثم نصحو من جديد على لسعات البرد، وظل الأمر على هذا النحو حتى أذن الفجر، ونهضنا لنتوضأ؛ لم يستخدم أي منا سوى سطل واحد في عملية الوضوء، فقد كان «جردل» الماء لا يكفي هذه المجموعة الكبيرة، وأدينا الصلاة جماعة لكننا لاحظنا أن إخواننا الصعايدة لم ينضموا إلينا في الصلاة، بل أدوا الفريضة فرادى.

واكتشفنا في الصباح أن هناك مجموعة أخرى من قدامى الإخوان المسلمين الذين حوكموا في بداية المحنة أواخر عام 1954، موجودة في السجن منذ شهور، وتعرفنا عليهم في الصباح، كان فيهم الضابط نجيب عطية والمهندس إبراهيم الخضري والمحاسب عثمان شميس، وطالب الهندسة سيد القشاط الموهبة الفذة في لعب الشطرنج، والذي يعيش حاليًا في ألمانيا الغربية، ويقوم بدور طيب في نشر الإسلام هناك وغيرهم كثيرون، وكان من فريقنا أيضًا الأخ الفنان فؤاد شاكر الذي كان طالبًا في الجامعة، وأصبح فيما بعد مذيعًا تليفزيونيًّا ناجحًا، وقدم برامج دينية ناجحة، وكان معنا أيضًا خريج الفلسفة الأخ الفاضل المرحوم

محمد أنور حسنين، ومحمود أبو بكر موسى الشهير بحاتم، والأخ المهذب حسين عبد المعطى والمرحوم رجب الخميسى، والأخ حسين عاشور رئيس تحرير مجلة المختار الإسلامي حاليًا، والأخ المرحوم يحيى أبو شيته زميلي في القضية، وعدد كبير من طلبة الجامعات والثانوي والأزهر وبعض الإخوة الفلسطينيين.

والحقيقة أننا عانينا كثيرًا أثناء وجودنا في سكن مشترك مع إخوتنا المسجونين غير السياسيين من أهل الصعيد، وذلك بسبب الشكوك التي بذرها بيننا وبينهم بعض ضابط السجن، وبسبب اختلاف العادات والتقاليد والمستوى الثقافي وأساليب الوقاية الصحية، ومع ذلك فإننا استطعنا بمرور الوقت أن نخفف الكثير من الشكوك، وبدأ النزيل الصعيدي محمد عبد العال يجلس في المساء، ويترنم ببعض المواويل أو الحكايات الشعرية الشعبية، التي تتحدث عن أبطال محليين من وجهة نظرهم، وخاصة أولئك الذين اعتصموا بالجبل، وتصدوا للحكومة، وأرهقوها في الصراع لسنوات طويلة، وكان الموال المحبب لمحمد عبد العال هو الذي يروي قصة «الخُط» المجرم الصعيدي الشهير، والذي ألفت حوله الأفلام السينمائية والمسلسلات، وكان محمد ينفعل وهو يعالج الفترات العصبية في حياة «الخُط»، وكنا نحن نستمع إليه في لهفة، وذات مساء بعد أن انتهى محمد عبد العال من موال الخُط سمعنا سجينًا آخر «محمد الجمل» ينتفض واقفًا ويصيح قائلًا: «خُط إيه.. وزفت إيه!! دا كان حرامي وخطاف وابن ... كفاية وجع راس يا محمد يا عبد العال.. داهية لا ترجعه مطرح ما راح..».

وثار جدل صاخب حول «الخُط»، كاد يصل لحد التشابك بالأيدي، لولا أن تدخلنا بالتهدئة، والانتقال إلى أحاديث أخرى شتى.

وكان محمد عبد العال له بعض الأغاني الشعبية المبتكرة التي تؤدى بين اثنين، وبنظام خاص متفق عليه، فمثلًا يبدأ محمد عبد العال قائلًا بنغمة جميلة:

وأفـــــــــوت ع «الهريـــــــــدي»

يـــــا حاجـــــة يـــــا حاجـــــة

وافـــــــــوت ع «الهريـــــــــدي»

ويأتي المشارك الثاني ويأخذ الشطرة الوسطى فيرد قائلًا:

يــــا حاجـــــة يـــــا حاجـــــة

ونــــــزور الهــــــادي نبينـــــا

يــــا حاجـــــة يـــــا حاجـــــة

ويرد محمد عبد العال بعد أن يلتقط الشطرة الوسطى ويقول:

ونــــــزور الهــــــادى نبينـــــا

أبـــــو عيــــــون كحيلـــــــة

ونــــــزور الهــــــادي نبينـــــا

وموضوع الأغنية كما هو واضح يتعلق بمناسبة الحج المقدسة التي تحظى بعدد هائل من الأغاني الشعبية في كل أنحاء العالم العربي والإسلامي، وذات مساء قلت لمحمد عبد العالم إنني سوف أشاركه الغناء هذه الليلة، فابتسم الإخوة الصعايدة واعتدلوا في جلستهم ذلك المساء، وبدأت المباراة بلغة عشاق كرة القدم، وكان موضوع الغناء يدور حول الرسول «ﷺ» والمناسبات الدينية الغالية، وهكذا قضينا ليلة ظريفة مسلية، وحظى محمد عبد العال بتصفيق وهتاف إخوانه الصعايدة، إذ إنه من الصعب عليهم أن يقروا بتفوق أحد عليهم في هذا الفن، وإلا تحول الأمر إلى معركة حقيقية فالمسألة مسألة كرامة وشرف، والصعيدي لا يتنازل عن ثأره.. والحقيقة أن كلمات محمد عبد العال كانت سلسة وشعبية أصيلة، أما أنا فكنت أحيانًا أجدني مضطرًا – أثناء الارتجال– إلى استعمال بعض الكلمات الفصيحة، وذلك بالنسبة لهم يعتبر ضعفًا أو تكلفًا.

وكانت الأشعار التي تقال عن أبي زيد الهلالي والزير سالم وغيرهما من أبطال السير الشعبية تحتل مساحة شاسعة من الأغاني، وأغلبها محفوظ عن ظهر قلب من تلك السير، وكان بعض إخواننا في الغرف الأخرى يعانون من ذلك أشد المعاناة، للتكرار وطول ساعات الغناء في تلك الليالي الباردة، ولذلك فقد عبر أحد إخواننا عن ضيقه وسخريته بأغنية من الشعر الشعبي يقول فيها:

«أبو زيد» يقول «لدياب» يا للا نصالح مراتي

وهمه راجعين يا سادة يا كرام وقعوا في البتاتي

و«البتية» هي الجردل الذي يتبول فيه السجين ليلًا، حيث لا توجد دورات مياه في الزنازين أثناء إغلاقها في الليل غير ذلك، ويقول أخونا عبد الرءوف أيضًا مواصلًا أغانيه:

أبو زيد يقول لدياب يا للا نصيد غزال في البراري

وهمه راجعين يا سادة يا كرام وقعوا في المجاري

إلخ..

وهذه -كما هو ظاهر- من أغاني الربابة، ونظرًا لعدم توفر الآلات الموسيقية، فقد كان عبد الرءوف يترنم بأغانيه، والجوقة تضرب على الأواني المشكلة من الصفيح والزنك، وعن طريق الفم أيضًا..

وكنا نسمع من إخواننا الصعايدة الكثير من الحكايات وأنواع الجرائم التي أدينوا فيها، وهي تشتمل على جوانب عدة من الطرافة والإثارة.

قضينا في «التخزين» فترة شهر تقريبًا، لم يكن يسمح لنا فيها بالعمل أو الخروج، وهذه فترة إلزامية يوضع فيها السجين تحت الرقابة والملاحظة حتى يثبت خلوه من أي مرض من الأمراض المعدية، وإن كنا لم نلتق بالطبيب خلالها، وبعد هذه الفترة أخذنا إلى مدير السجن لإجراء ما يسمونه بعملية «التصنيع»، ويقصد به العرض على المدير نفسه، كي يوجه للسجين بعض الأسئلة، ثم يختار له المهنة المناسبة التي يعمل بها في السجن، ومن شروط العرض على المدير أن نخلع الأحذية.. وكان سيادته يسأل كل واحد منا عن عمره وعمله في الخارج، ثم يقيسه بنظراته، وبعد ذلك يكتب المهنة، في كشف أمامه أو العمل الذي سوف يقوم به السجين.

عندما جاء دوري سألني عن اسمي وعمري، ثم قال: «ما هو عملك بالخارج؟».

- «طالب بكلية الطب المرحلة النهائية..».

قال في شيء من السخرية: «نعملك إيه هنا؟ صبي صيدلي؟ ولا مساعد دكتور؟..» وقبل أن أرد عليه كتب وهو يقول: «ترزي..».

وانصرفت وجاء بعدي من يليني..

بعضنا ثم تعيينه في «ورشة النسيج»، وأغلبنا أصبحوا «ترزية»، ولم يسمحوا لأحد منا أن يعمل في المخبز أو المطبخ أو المغسلة أو المكوجية وكذلك منعنا من ممارسة أعمال المكاتب، خوفًا من أن نكتشف بعض المكاتبات أو الأسرار، أو نجري اتصالات بالخارج.

كان العمل في ورشة النسيج بالغ القسوة، إذ يمتد من الساعة السابعة صباحًا حتى الرابعة عصرًا، وعلى كل مسجون في الورشة أن ينجز كمية من العمل محددة يسمونها «المقطوعية»، ولابد من إتمامها، ومن يعجز عن ذلك يرسل إلى التأديب وتزاد عليه «المقطوعية»، وقد يجلد، وكان النسيج في سجن أسيوط منصبًا على صناعة البطاطين التي تورد لمصلحة السجون، وطريقة النسج تعتمد على استخدام «الأنوال» اليدوية، والواقع أن تشغيل النول يحتاج إلى بذل جهد كبير، إذ يستعمل السجين يديه، ورجليه وعقله وعينيه بصورة دائمة، ولهذا فإن العاملين في هذا المجال يصابون بالنحول والضعف والأمراض بعد فترة من الزمن، فضلًا عن أن الزغب الذي يلوث جو المنسج يتراكم على الوجوه والشعور وأهداب العيون، كما يتسلل مع التنفس إلى الرئتين مما يسبب نزلات شعبية، أو أزمات ربوية عند الكثيرين من السجناء، وقد قاسى إخواننا العاملون في النسيج آلامًا مرهقة، ولم نجد حيلة لهم كي يفلتوا من هذا العقاب اليومي الرهيب.

أما العمل في الترزية فهو أمر ميسور لحد ما ، ونحن كترزية لا نؤدي عملنا على ماكينات خياطة كما يتوهم البعض، ولكن العمل يدوي، أي بالإبرة والخيط، فتأتي إلينا سترات السجناء وسراويلهم مفصلة جاهزة للخياطة، ويمكننا أن ننتهي من كل بدلة خلال ساعتين، فإذا ما علمنا أن نصيب كل سجين ترزي بدلتان أو ثلاثة أمكننا تقدير ساعات العمل، وكان هناك بعض الصعايدة الفقراء المودعين تحت التحقيق أو الذين في التخزين على استعداد لأن يخيطوا البدلة بسيجارتين فقط، ولهذا كنت أخيط بدلة واحدة، وأستأجر من يخيط لي الباقي، وأدفع له أجره بالسجائر، كنت أراه عملًا مملًا لا قيمة له، وأفضل أن أقرأ في كتاب أو أكتب شيئًا، على أن أقضي الوقت في هذا العمل الميكانيكي الذي يخلو من أي إبداع أو فائدة.

وكان أخي وزميلي في الزنزانة الدكتور أبو بكر عثمان ترزيًا هو الآخر، وكان يضحك ويقول: «عندما تتخرج من كلية الطب إن شاء الله بعد عمر طويل، يمكنك أن تكتب على لافتة العيادة الخاصة «طبيب.. وجراح.. ومولد.. وترزي.. وخلافه..»».

ولم يكن أمامنا سوى أن نبتسم ونصبر، ونتلقى هذه الأمور بالضحك والمرح. كان أغلبنا كما قلت «ترزية» طبقًا لتصنيف سيادة المدير، ولم تكن ورشة الخياطة تتسع لعددنا الكبير، ولهذا رأى المدير أن نقوم بعملنا في الزنزانات التي نسكنها، وكان هذا أفضل بالنسبة لنا.

الذي شغلنا في تلك الفترة هو وضع نظام مناسب لحياتنا في السجن تلك التي قد تمتد لسنوات لا يعلم إلا الله مداها، ولهذا وضعنا أمام أعيننا بعض القضايا التي تحتاج إلى دراسة وأهمها:

أولًا: انفصالنا في دور خاص بنا من أدوار العنبر.

ثانيًا: تحويل إحدى الزنازين إلى مكتبة نجمع فيها ما تيسر لنا من كتب، والطلب من أهلينا تزويدنا ببعض الكتب المسموح بها، في شتى المجالات الثقافية، واختيار واحد منا ليكون أمينًا للمكتبة، كي يتولى الإشراف والإعارة.

ثالثًا –اختيار مسئولين عنا– بطريق الانتخاب المباشر – من بيننا، حتى يتولوا الاتصال بالإدارة، وحل مشاكلنا معها، وتنظيم باقي أمور حياتنا والفصل فيما ينشب من خلافات.

رابعًا –تنظيم الإخوان في أسر دراسية تعني بالدراسات الدينية كالفقة والتفسير والسيرة والحديث، والدراسات الاجتماعية والنفسية والسياسية المعاصرة، وحفظ القرآن، وتنسيق المواقف، وتعلم اللغات الأجنبية..

خامسًا– وضع نظام مالي أو اقتصادي، يعتمد على حصر الميزانية التي لدينا والتي تتوفر مما يرسله ذوونا شهريًا من مصاريف لنا، حيث إن البعض منا ليس لديه مصدر مالي، والبعض الآخر لا تصله المصروفات بطريقة منتظمة، ولهذا فإنه كان من الضروري إقامة نظام يكفل لكل سجين إخواني الحد الأدنى من الطعام الإضافي أو الدواء أو الملابس الداخلية وغيرها.

سادسًا – تطوير مقصف السجن بطريقة توفر لنا بعض الأطعمة التي يمكن شراؤها بأموالنا الخاصة، نظرًا لفقر الوجبات الغذائية الرسمية من حيث النوع ومن حيث الكمية.

سابعًا – التفاهم مع الإدارة حول إدخال النور الكهربائي في الزنازين، حتى ولو كان على حسابنا الخاص.

ثامنًا – تنظيم الزيارات، والسماح لنا بكتابة الرسائل للأهل.

تاسعًا – الطلب إلى الإدارة بالسماح لنا بممارسة بعض الهوايات النافعة كالعمل في التجارة بطريقة حرة، أو تعلم الموسيقى، وتشجيع الألعاب الرياضية، والفن المسرحى، والرسم والنحت غير ذلك من الفنون حسب الرغبات.

عاشرًا – العمل على تحسين الوضع الوقائي والعلاجي في السجن، مع السماح لنا بفترة فسحة صباحًا وعصرًا.

وكانت المعركة الأولى التي خضناها تتعلق بانفصالنا في دور خاص بنا، لأن ذلك يكتسب أولوية خاصة، وعلى أساسه يمكن أن نسير في تنفيذ المطالب الأخرى الحيوية، واستخدمنا كل الوسائل الممكنة في هذا المجال، على الرغم من تعنت الإدارة ورفضها المتكرر، ويبدو أنها كانت تنتظر الأوامر من المباحث العامة، التي لها حق الإشراف علينا، وإصدار الأوامر بخصوص التعامل معنا، دون غيرنا من فئات المسجونين الأخرى، وقد نما إلى علمنا أن المباحث وافقت على هذا الفصل أخيرًا، حتى لا يكون اختلاطنا بالمسجونين العاديين وسيلة للتأثير عليهم، وضمهم إلى صفوف الإخوان المسلمين، قياسًا على ما سبق في المحن السابقة أيام النقراشي باشا وإبراهيم عبد الهادي باشا، وهكذا تم تسكيننا في الدور الثاني «فوق الأرضى» من العنبر نفسه، ولم يكن هذا الدور مكونًا من غرف كبيرة كالدور الرابع، ولكنه عبارة عن زنازين صغيرة يسكن فيها ثلاثة أو خمسة، لأن الأعداد الزوجية غير مسموح بها في السكن لأسباب تتعلق بالحماية من الشذوذ الجنسي الذي يشيع بين المسجونين.

كان معي في زنزانتي الأخ الدكتور أبو بكر عثمان والأخ الدكتور يحيى عبد الرحمن، وشعرنا بالارتياح الكبير، وخاصة بعد أن أنشئت مكتبة في إحدى الزنازين، وأصبح أمينها الأخ المرحوم محمد أنور حسانين بموافقة مدير السجن، وأصبح فحص أي كتاب يرد إلى السجن من الأمور الأساسية المتفق عليها.

كانت زنزانتى تجاوز الزنزانتين الوحيدتين المخصصتين للمحكوم عليهم بالإعدام، وزنزانة الإعدام لها تصميم خاص، بالنسبة للحيطان والمقتنيات الداخلية والأثاث والباب؛ وذلك حتى لا يحاول السجين الانتحار، وأمام الزنزانة يجلس السجان بصفة دائمة ليلًا ونهارًا، وهذا السجان ليس وراءه عمل سوى مراقبة المحكوم عليه بالإعدام، وهو غير السجانة المشرفين على الدور، وكان هناك محكوم واحد في إحدى الزنزانتين اسمه «مليكة»،

وهو شاب مسيحي قتل أباه، ويرتدي البدلة الحمراء المخصصة لمن يصدر ضده حكم بالإعدام، وهو في انتظار التنفيذ أو قبول طلب النقض وإعادة المحاكمة، كان مليكة شابًا صغيرًا في أوائل العشرينيات من عمره نحيلًا وسيمًا، يجلس معظم الوقت لدى الباب مع السجانة، ويشاركهم الطعام، وفي المساء كنت أسمعه يردد بعض الأغاني الحزينة، ويظل على هذا المنوال حتى بعد منتصف الليل، ولم يفقد مليكة الأمل أبدًا في تخفيف الحكم، وخاصة بعد أن تم قبول النقض من الناحية الشكلية، وسرعان ما خلع الملابس الحمراء، وارتدى الزي الأبيض الكالح الخاص بمن هم رهن المحاكمة، ولم تطل فرحته، فقد تم تأييد الحكم السابق، وعاد إلى الرداء الأحمر، وزنزانة الإعدام مرة أخرى، لكنه رغم انتهاء الأمر على هذا النحو المؤلم، إلا أنه –وهذا أمر غريب- لم يفقد الأمل.

إن الإنسان نادرًا ما ييأس يأسًا تامًا، وهذا من رحمة الله، وعادة تحاول الأفلام السينمائية أن تنقذ المحكوم عليه في آخر لحظة، وقبل أن يحرك «الجلاد» -أو كما يسمونه عشماوي- يده للتنفيذ، وظل «مليكة» يأكل مع العسكر، ويغني في المساء أغنياته الحزينة، حتى كان يوم تهامس فيه المسجونون بخبر عن مليكة وهو أن التنفيذ سيتم صباح الغد «فبراير 1956»، وبعد فسحة العصر كان السجناء يعودون إلى زنازينهم، وكنت أرقبهم وهم يصعدون الدرج، فإذا ما مروا «بمليكة» الذي لا يعرف شيئًا عن الموضوع نظروا إليه في حسرة وألم، لم يكونوا يفكرون في هذا الوقت في الجريمة التي اقترفها، ولكنهم يشعرون شعورًا معينًا نحو إنسان سيموت غدًا.. في الصباح لم يفتحو أبواب الزنازين في المواعيد المقررة، ونظرنا من النافذة، وجدنا عددًا من كبار الضباط يعبرون الفناء، ومعهم المدير العام ومدير السجن وقسيس وعرف البعض «عشماوي» الذي قدم خصيصًا لهذا الموضوع.. وبعد دقائق سمعناهم يصعدون الدرج للطابق الثاني لأخذ مليكة الذي لم يكن يدري شيئًا.. قال السجانون فيما بعد أن مليكة عندما رآهم بعد أن فتحوا باب زنزانته ساد وجهه شحوب شديد كشحوب الموتى، لم يستطع الحركة.. عاونوه على السير.. كان يهبط الدرج متهافتًا متهالكًا.. رأيناه من النافذة يسير مذهولًا.. أخذ يصيح واختفى صياحه بعد فترة.. بقينا متشبثين بقضبان النافذة.. وبعد فترة رأينا اثنين من العسكر يحملون «نقالة»، وعليها جثة مغطاة تمامًا ببطانية تشبه جلد الفئران.. انتهى مليكة.. بعد دقائق كان صوت المفاتيح وهي تدور في «كالونات» الزنازين

يصل إلى أسماعنا بوضوح.. وعادت الحركة الدائبة في السجن إلى طبيعتها مرة أخرى.. مثل أي يوم.. قال السجان الذي كان يحرس مليكة أمام زنزانته: «قدس الله روحه».

في هذا اليوم لم يكن لدي أدنى رغبة للطعام: وكتبت بضعة أبيات من الشعر عن الإنسان والموت والحياة، ولا أدري أين ذهبت، لعلها ضاعت أثناء حملات التفتيش المتتالية التي كنا نفاجأ بها من يوم لآخر..

وظلت زنزانة مليكة خالية لعدد قليل من الشهور، ثم فوجئنا برجل جديد حكم عليه بالإعدام، الشيء الغريب أننا لم نكن نتعاطف مع هذا الرجل بالذات، كانت تهمته أنه تربص لأخته وقتلها، من أجل أن يرث ربع فدان منها.. ستة قراريط من الأرض.. كان رجلًا يبدو بليدًا في تصرفاته وكلماته وحركاته، وكان مجرد النظر إلى وجهه يضايقنا، ربما لارتباطه بجريمة تشمئز منها النفوس، وكان جاهلًا متخلفًا في كل شيء، ولم يكن يكترث لهندامه الأحمر، ولذا كثيرًا ما يسقط السروال الأحمر قليلًا، ويكشف عن جزء من مقعدته، وهو لا يبالي، فإذا ما لفت أحد نظره إلى ذلك كي يعدل من هندامه لا يلتفت أو يكترث.. عندما ساقوه إلى تنفيذ حكم الإعدام، وأخذ واعظ السجون يلقنه الشهادتين قال: «بتعدموني علشان مرة «أي امرأة»؟».

- «إنها روح يا مسلم...».

- «أنا قتلت عشرين واحدًا وما أصابني شيء.. تقوموا في النهاية تقتلوني علشان مرة؟».

قال له المدير في ضيق: «خلاص.. هنعدمك عشان واحد من العشرين اللى قتلتهم..».

كانت مشاكلنا مع الإدارة لا تنتهي فهم يريدون تطبيق لائحة السجون بحذافيرها، ونحن نجد في بنود اللائحة الكثير من الظلم والفساد، وكثيرًا ما حاولوا إفهامنا أن للسجون نظامها الراسخ منذ عشرات السنين، وأنه من المستحيل أن يتغير شيء، ومن المعارك الطريفة التي خضناها مع الإدارة معركة «الحمام».. فالمفروض أن كل مجموعة من السجناء يخلعون كافة ملابسهم في باحة أمام الحمام، ثم يدخلون عراة كما ولدتهم أمهاتهم، ويحشرون هكذا بالعشرات في مكان واحد، تحت المياه الساخنة التي تنصب من صنابير في سقف الحمام، وكان هذا المنظر يبدو قبيحًا مقززًا، ولهذا ارتدينا «مايوهات» صغيرة صنعناها بأنفسنا من أقمشة ملابس سجن قديمة، كي نستر عوراتنا أثناء الاستحمام، ورفضت إدارة السجن لبس

«المايوهات» بحجة أن الطبيب يقف ليتأكد من خلو السجين من بعض الأمراض المعدية، وخاصة التناسلية، وأصر النزلاء الإخوان على ارتدائها، وقالوا إن الطبيب يمكن أن يقوم بفحصه في أي وقت، لكل فرد على حدة، وبعد مداولات بين الإدارة قرروا إرغامنا على تنفيذ اللائحة وأوامر السجن.

قال أحد العلماء السجناء للمدير: «إن تصرفكم هذا يخالف الشرع والآداب الإسلامية».

قال المدير في سخرية: «ما سمعنا بهذا من قبل.. أنتم رجال».

وأردف الضابط زكي أمين: «كنا نستحم عراة في كلية الشرطة، فلماذا تعترضون على ذلك؟ أنتم رجال..».

رد العالم قائلًا: يقول رسول الله ﷺ ما معناه: «لعن الله الناظر والمنظور».

واستمر يدلي بعدد من النصوص والأدلة.

وأخيرًا قال المدير: «أوامر السجن لابد أن تُنفذ..».

وانصرف بعد أن غمز بإحدى عينيه..

كنا نقف بدون ملابس اللّهم إلا «المايوه» الصغير.. وانقض علينا السجانون بالعصي والأخشاب، وقامت بيننا وبينهم معركة على باب الحمام الكبير، ثم انطلقت الصفارات وساقونا إلى الزنازين.. وحرمنا من الاستحمام ذلك الأسبوع، وفي الأسبوع التالي، أنزلونا مرة أخرى للاستحمام.. قلنا لهم سوف نلبس المايوهات.. ولم نجد هذه المرة اعتراضًا.. وسعدنا بهذا الانتصار الصغير الذي بدا لنا كبيرًا جدًا.. ومن المؤسف أنه بعد أسبوعين حاول السجناء العاديون من مواطنينا الصعايدة أن يقلدونا فيما فعلنا، لكن إدارة السجن رفضت بشدة، ولقنتهم درسًا قاسيًا، إذ انهالوا عليهم ضربًا، وفرضوا عليهم طابورًا شاقًا من الجري السريع لأكثر من ساعتين، حتى أرهقوهم فاستسلموا لأوامر السجن، وظلوا يستحمون عراة.. ولم يكن في الإمكان أن نتدخل صراحة في هذا الأمر، وإلا اعتبره السجن تمردًا شاملًا، وفي هذه الحالة يستطيعون إطلاق الرصاص علينا جميعًا، واكتفينا بتقديم النصيحة – في إطار الآداب الإسلامية– كي يسمحوا للسجناء بما سمحوا به لنا، ولكن دون جدوى، وقال أحد الضباط: «بالله عليكم لا تفسدوا علينا الآخرين.. ثم إن ظروفهم، وطبيعة حياتهم، تختلف تمامًا عنكم..».

كانت ليالي الشتاء باردة طويلة، وكانت أطول مما في جعبتنا من أحاديث، وفكرنا أن نستغل هذه الساعات في القراءة، لكن كيف؟ إن الزنزانة غارقة في ظلام دامس، ويمنع منعًا باتًا إضاءة أي نوع من النار أو النور داخلها، واهتدينا إلى حيلة بدائية قررنا تنفيذها رغم المخاطر، إن كمية قليلة من زيت الطعام بها فتيل من القطن أو الخيوط السميكة تستطيع أن توفر لنا شعلة صغيرة تشبه الشمعة ونستطيع أن نقرأ في ضوئها، وقمنا بتنفيذ المشروع، وهو لا يحتاج إلا إلى غطاء علبة ورنيش «طلاء الأحذية» صغيرة، نملؤها ببضع سنتيمترات مكعبة من الزيت.. ثم نشعل الفتيل.. ولكي لا يرانا خفر الليل في الفناء الخارجي، كان لابد أن نسد النافذة تمامًا بعدد من ستراتنا الزرقاء حتى لا يظهر النور، ومع ذلك فقد سمعنا حارس الليل يصرخ في الفناء: «اطفي النور يا دور 2».

آه.. إذن لا فائدة، إذا تجاهلنا الأوامر، فإن ذلك سوف يجر علينا «التأديب» والجلد، لهذا أطفأنا النور واستجبنا للأمر، وكان رأيي أن يقوم الإخوة المسئولون عنا بالتفاهم مع العسكر حول هذا الموضوع، ولا بأس من أن ندفع لهم مبلغًا شهريًا من المال، حتى يغمضوا أعينهم عن هذه المخالفة، وقد نجحت الخطة، واستطعنا بذلك أن نستفيد من الساعات الطويلة المهدورة التي تشكل جزءًا من أعمارنا، وقد اندمجت في هذه الفترة في قراءة تفسير ابن كثير، وهو من أكثر التفاسير رواجًا بين الإخوان المسلمين في تلك الفترة، لقد حفظت الكثير من القرآن الكريم، وكنت أعيد قراءته من وقت لآخر، هذا حسن، لكنه لابد أن أركز بعد ذلك في فهم الآيات ومعانيها وأحكامها، فالقرآن لا شك هو المدرسة الحقيقية للمسلم، وهو النصوص التي نريد أن نطبقها في واقع الحياة، ولا يمكن أن يكتسب المؤمن صفة الداعية الحقيقي إلا إذا عرف تفسير القرآن، فهو المؤهل الأساسي له.. كنت أقرأ التفسير ليلًا ونهارًا بنهم وشغف، وكنت أقلق لمجرد التفكير في أنه ربما تواجهني عقبة، أو أصاب بمرض، أو أودع الحياة قبل أن أنتهي من التفسير، لقد بدا ذلك في هذه الفترة أمرًا بالغ الأهمية أكثر من أي شيء آخر في الحياة.. والحمد لله فقد استطعت أن أنجز ذلك في حوالي ستة شهور.. وكنت في غاية السعادة..

وخلال انهماكي في قراءة التفسير، كنت أناقش بعض إخواني من العلماء في بعض الأمور التي تحتاج إلى إيضاح، فكانوا يبدون رأيهم، أو يوجهونني إلى تفاسير أخرى تفيض في هذا الجانب أو ذاك..

ثم ظهرت تصريحات للمسئولين في وزارة الداخلية نشرتها الصحف، وهي تؤكد حق السجين في أداء الامتحان بالجامعات أو المدارس، ولقد فرحنا لهذا الأمر فرحًا شديدًا، لأن ذلك كان سائدًا في السجون قبل الثورة، ثم توقف بعد قيامها، وبادرت بتسطير رسالة إلى مدير عام مصلحة السجون أطلب فيها السماح لي بأداء الجزء الأول من امتحان بكالوريوس الطب في نهاية العام، وانتظرنا وأخيرًا جاء الرد إلى المدير، وكان فيه:

«نرجو تفهيم المسجون «......» أن القرار الخاص بالامتحانات لا ينطبق عليه..».

لقد ذابت فرحتنا وتبخرت، وواضح أن السجين السياسي لن يسمح له بالامتحان.. وعلق أحد الضباط قائلًا: «هل يعقل أن يأخذوا هذه الأعداد الكبيرة من الإخوان إلى لجان الامتحان؟ أنتم تحتاجون إلى فرقة كاملة من الجيش كي تحرسكم».

لقد كان السجين السياسي في عصر ما قبل الثورة يعامل معاملة «أ» أما السجين العادي فيعامل معاملة «ب»، ومعاملة «أ» فيها الكثير من الميزات التي تتعلق بالغذاء الجيد، والمكان المريح، والزي المناسب، وغير ذلك، وعندما جاءت الثورة قالوا إنهم سيجعلون من جميع السجناء فئة واحدة هي فئة «أ»، والحقيقة أننا فوجئنا بأن الجميع فئة «ب»، لقد ضاعت كل الميزات الخاصة بالسجناء السياسيين بما فيها السماح بأداء الامتحانات، وهكذا فرضوا علينا التخلف والتوقف تمامًا في مجال المراحل الدراسية المتتابعة.. ألا يحق لنا أن نهتف من أعماقنا عاشت الثورة.. ثورة الشعب.. ثورة العلم والحرية..؟

****

[3] ليالي السجن القاتمة

الرعاية الصحية في السجون رديئة، ولست أعرف سببًا وجيهًا لذلك، فإذا كان الهدف من وراء الإهمال الصحي هو مزيد من تعذيب السجين أو تأديبه، فهو أمر في غاية الغرابة، لأن عقوبة الحجز والطعام الردئ، والحرمان الجنسي الشرعي، والعمل المرهق، والإذلال اليومي وغير ذلك يكفي، ولقد حدث ذات ليلة أن سمعنا في الدور الأرضي «حيث يسكن من هم رهن التحقيق والمحاكمة، ولم تصدر ضدهم أحكام بعد» دقًّا عنيفًا على باب الزنزانة رقم «..»، وجاء السجان خفر الليل بخطى بطيئة مسموعة جيدًا، لأن وقع حذائه الثقيل على البلاط يسري أثناء الليل بوضوح، وقال بصوت جاف:

- «إيه الحكاية يا ولد؟».
- «مريض يا شاويش.. واحد مريض جدًا..».
- «طيب.. ناموا للصبح..».
- «الرجل تعبان وممكن يموت..».
- «في ستين داهية..».

وانصرف السجان، لكن لغط المسجونين لم يتوقف، وكأنما سد السجان أذنًا بطين وأخرى بعجين كما يقولون، وبعد دقائق عاد المسجونون للدق على الباب مرة أخرى بمزيد من العنف، وأخذوا يتوسلون للسجان كي يبلغ الإدارة أو الطبيب بالأمر، لأن المريض على وشك الموت، وحتى يكفوا عن الدق، قال السجان: «خلاص.. بلغنا الإدارة».

المعروف أن السجان لا يستطيع فتح باب الزنازين أثناء الليل، لسبب بسيط وهو أنه لا يحمل مفتاحًا، بل إن السجان نفسه داخل العنبر لا يستطيع الخروج، لأن العنبر مغلق أيضًا، وفي الحالات الطارئة الشديدة يقوم السجان خفير الليل بإخطار زميلة في فناء السجن؛ فيذهب الأخير إلى الضابط الخفر «النوبتجي» ويبلغه بالواقعة، ويقوم الضابط بعد ذلك

بإعلام المأمور أو المدير في بيته.. المهم أن باب أي زنزانة لا يفتح في الليل إلا بأمر قائد السجن وبحضوره في الحالات الخطيرة..

وبعد ما يقرب من نصف ساعة سمعنا صراخًا وعويلًا، وجاء صوت من أسفل يعلن في مرارة: «المسجون مات يا كفرة يا مجرمين..».

وحدثت ضجة هائلة في الأدوار الأربعة عقب إعلان هذا النبأ المحزن، وأخذت كل الأيدي تدق الأبواب الصلدة في غضب وسخط هائل، وظل الأمر على هذا النحو حتى سمعنا الصفارات والنداءات المميزة التي تعني أن مدير السجن قد أتى أخيرًا.. وانقطع الدق على الأبواب وساد الصمت، وأخذنا نتسمع لما يجري، فهمنا أن الطبيب حضر وكذلك المدير وعدد من الضباط، سمعنا أحد المسجونين الصعايدة ينوح قائلًا: «الرجل مات يا بيه.. دا لو كان بهيمة كان يصعب علينا..».

رد اللواء و«الشاعر» عطوة حنفي مدير السجن قائلًا في رقة مبالغ فيها: «يا بني دا عمره لغاية كده.. قسمة ونصيب يا حبيبي.. لا الدكتور ولا ألف دكتور يقدر يمد في عمره دقيقة.. لازم تكونوا مؤمنين بقضاء الله وقدره.. يا للا يا بني أنت وهو شيلوه لبرة عشان ننقله إلى المستشفى.. الله يرحمه ويرحمنا جميعًا..».

صاح أحد الإخوان المسلمين في الدور الثاني قائلًا: «لكن هذا ظلم وإهمال...».

قال المدير في غضب ممزوج بالسخرية: «خليك في حالك إنت وهوه.. مالكوش دعوة بغيركم ولا عايزين تشعللوها نار؟ أنا عارفكم كويس.. الصعايدة رجال ومؤمنون بالله..».

انتهى الأمر بسرعة، وعاد الهدوء إلى العنبر بعد نقل المتوفى، وإغلاق باب الزنزانة وخروج الطبيب وبقية الحاشية، وفي الصباح علمنا من رفاق المتوفي أنه كان مريضًا منذ أيام، وكان يشكو من حمى وهذيان وآلام بالبطن وصداع، وأنه ذهب إلى الطبيب أكثر من مرة، ولم يكن يقوم بفحصه بل يكتفي بالنظر إليه، ثم يصرف له قرصين من الأسبرين وجرعة واحدة من مزيج معين يضعها له الممرض السجان في فمه.

ولقد جرت العادة أن يجري تشريح مبسط لأي سجين يموت في السجن، وقد علمنا في اليوم التالي أنه تم تشريح جثة السجين، وأن الجثة مازالت في المشرحة، ولم تسلم بعد لأهل السجين، واقترح علينا الأخ الدكتور أبو بكر عثمان «السوداني الجنسية»، أن نحاول فحص

الجثة بأية طريقة، وكان لنا صديق سجان طيب القلب، أخبرناه أننا طلبة في كلية الطب، وأن التشريح مادة أساسية عندنا، وطلبنا منه فقط أن نلقي نظرة على الجثة ونطلع على طريقة تشريحها حتى نتعلم درسًا عمليًا، وتردد السجان في البداية، لكن علبتين من السجائر كانتا كفيلتين بإنهاء تردده، واشترط علينا أن نذهب تحت إشرافه إلى حجرة المشرحة في وقت الظهيرة، حيث يكون المدير قد ذهب إلى مسكنه للغداء، والضباط ذهبوا للاستراحة الخاصة بهم، وكذلك باقي السجانة، وذهبت أنا وأبو بكر وزميلنا الثالث الدكتور يحيى عبد الرحمن، ودلفنا إلى الغرفة وأغلقنا الباب، ومعنا السجان الذي لم يطق النظر إلى الجثة، فانصرف مؤكدًا علينا أن ننتهي بسرعة من هذه المعاينة «المقرفة» على حد قوله..

كان هناك شق طولي مخيط في البطن يمتد من أسفل الصدر إلى قرب منطقة العانة، ومد أبو بكر يده وأمسك بطرف الخيط ثم شده برفق فانفتح الشق وتبدت أمامنا الأحشاء الداخلية، وأخذنا نفحص المعدة والأمعاء الدقيقة والغليظة والكبد وغير ذلك، وأخيرًا اكتشف الدكتور أبو بكر ثقبًا في الأمعاء ومظاهر التهابات في الغشاء البريتوني وربما بعض الأنزفة، وكان الاحتمال الأكبر أن المتوفى أصيب بالتيفوئيد، ولم يتيسر له الغذاء أو الدواء النوعي، وكان الإهمال سببًا في حدوث هذه المضاعفات المميتة.. وأخيرًا جاء العسكري وقال: «أسرعوا حتى لا يأتي أحد الضباط ونقع في مصيبة...».

وخلع أبو بكر طاقيته الزرقاء، واستخرج منها إبرة الخياطة «فقد كان يعمل في السجن ترزيًا مثلي»، وأعاد خياطة الشق مرة أخرى كما كان، ثم أسرعنا بالعودة إلى الزنزانة. وكان لابد أن نغسل أيدينا جيدًا، ونعقمها بالمطهرات مخافة العدوى، وخاصة أننا كنا نعمل دونما قفازات.. ومع اتخاذ الاحتياطات إلا أنني بقيت يومين أشعر بالغثيان وفقدان الشهية، وكان مجرد النظر إلى الطعام يثير المزيد من التقزز في نفسي، وأذكر أنني كتبت خلال تلك الفترة قصيدة وأذكر أيضًا أن مطلعها كان:

أيهـــا النـــائم هـــل نلـــت الـــسلاما

بعـــد أن ذقـــت الأســـى عامًـــا فعامـــا

ويبدو أن مجهولًا قد أبلغ النيابة العامة في أسيوط بأن المتوفى فلان قد عانى من الإهمال في السجن، ولم يخف أحد لنجدته أو علاجه أثناء مرضه. وفي يوم من الأيام وجدنا حركة غير

عادية في الدور الأرضي، بل إن المدير قد أتى بنفسه والتقى على انفراد بسكان زنزانة الفقيد، كما قام الضباط والسجانة بالمرور على بقية الزنازين الأرضية والتفاهم مع أصحابها، وكان واضحًا أن هناك شكوى، وأن النيابة العامة قادمة للتحقيق أو التحري عن الحالة، ونجحت التمثيلية..

خاف المسجونون أن يدلوا بالحقيقة، وأجابوا على الأسئلة التي وجهت إليهم طبقًا لتعليمات المدير والسادة الضباط، وكان التركيز في التحقيق مع من كانوا مع المتوفى في الزنزانة، ولم يكن صعبًا على الطبيب أن يستكمل ملف المريض وعلاجه بالطريقة المثلى.. و.. حفظت الشكوى..

والمعروف أن النيابة تقوم بالمرور دوريًا على السجون حتى بدون شكوى، لكن الشيء الملفت للنظر أن النيابة لم تفكر مرة واحدة في المرور على الدور الذي يسكن فيه الإخوان المسلمون المسجونون.

-لكن هل هذا الإهمال الصحي موجود دائمًا؟

هناك أولًا بعض أهالي المسجونين المرضى الذين يذهبون إلى طبيب السجن في عيادته الخاصة، ويتم التفاهم معه حول دفع تكاليف العلاج والدواء الذي يشترى من الخارج للسجين، عندئذ ينقل السجين المريض إلى مستشفى السجن، ويتم علاجه على النحو الكامل، وقد تجرى له إحدى العمليات الجراحية المسموح بها إذا لزم الأمر، وهناك ثانيًا التوصية من شخصية ذات حيثية، عندئذ تقدم الرعاية التامة للسجين المريض، وهناك ثالثًا الشكوى التي يبعث بها أهل السجين إلى وزارة الداخلية أو مدير مصلحة السجون، فتقوم الإدارة العامة في القاهرة بطلب تقرير صحي عن السجين المريض الذي أرسلت من أجله الشكوى، ولابد أن يكون التقرير الرسمي مطمئنًا، وقد تشير الإدارة بإحالة المسجون للعلاج في إحدى مستشفيات المدينة تحت الحراسة إذا لزم الأمر، وبهذه المناسبة أشير إلى قصة أخينا محمد البكري السجين في بني سويف، إذ قاسى كثيرًا من آلام وانسكاب وتورم في إحدى ركبتيه، ولما عجز عن الحصول على دواء ناجع، أرسل شكوى لجمعية «الرفق بالحيوان».. طالبًا منهم أن يعتبروه حيوانًا، وأن يساعدوه في العلاج كما يعالجون الحيوانات، وأثارت هذه الشكوى ضجة عندما أحيلت من جمعية الرفق بالحيوان إلى الداخلية؛ ثم إلى

مصلحة السجون، وصدر الأمر بترحيله من سجن بني سويف إلى سجن القاهرة كي يعالج في القصر العيني. ولا أنكر أن هناك بعض أطباء السجون الذين كانوا على جانب كبير من النزاهة والعدالة والإنسانية، وأخص بالذكر منهم الجراح الدكتور إبراهيم زكي الذي كان يعمل في مستشفى سجن القاهرة، هذا الرجل كان جديرًا بشرف المهنة.

وإزاء ذلك كان علينا أن نعتمد على أنفسنا كلية في تنظيم الرعاية الصحية والعلاج بسجن أسيوط، واستطعنا توفير الأدوية الضرورية، وشدّدنا على الالتزام بالقواعد الصحية الوقائية، واستطعنا التنسيق مع طبيب جديد حل محل الطبيب القديم في إجراء الجراحات البسيطة بالمستشفى، واكتسبنا -كطلبة طب- خبرة لا بأس بها، كما تفاهمنا مع الإدارة حول الاهتمام بالمقصف الذي نشتري منه بنقودنا، وزيادة عدد الأصناف التي تباع فيه، مع التركيز على أنواع الأغذية الضرورية للصحة، لأن طعام السجن كما ألمحنا كان رديئًا من حيث النوعية، وقليلًا من حيث الكمية، وإني لأذكر كيف أن كمية الأرغفة «ثلاثة في اليوم لكل سجين» لم تكن تكفيني، وبحثت عن وسيلة لشراء الخبز من الخارج دون جدوى، وفي أحد الأيام أخبرني أحد السجناء الصعايدة أنه بإمكاني أن أشتري خبزًا بالسجائر من المسجونين العاملين في مخبز السجن، إذ كانوا يبيعون 12 رغيفًا بعلبة سجائر، ولكن أحد الإخوة أصدر فتوى بأن هذا حرام، لأنه خبز مسروق من خبز المساجين المساكين، وأن عمال المخبز يقتنصون من كل رغيف جزءًا يسيرًا حتى يستطيعوا في النهاية أن يزيدوا عدد الأرغفة، ويبعوا الكميات الزائدة، ويعطوا الحراس كمية منها، وقد يرمون عددًا كبيرًا في أماكن النفايات التي تجمع كل يوم..

ومن الطريف أن معركة فقهية اشتعلت حول هذا الموضوع، وكان رأيي أننا في حالة اضطرار، وأننا نعاني من فقر التغذية، ومعرضون للأمراض المعدية، والسجن يرفض شراء الخبز لنا من خارج السجن. وأمام سطوة الجوع ذهبت إلى الفرن، ودفعت عليه سجائر، وعدت باثني عشر رغيفًا.. وعندما صعدت الدرج ومعي الأرغفة سألني أحدهم:

- «ما هذا؟».

قلت: «خبز حرام..».

- «أعوذ بالله.. أتقبلها على نفسك؟».

- «كي لا أموت جوعًا..».

وفي الزنزانة رفض الإخوة مشاركتي في أكل الخبز الذي اشتريته، كان خبزًا طازجًا لذيذًا، وكنت آكل منه بنهم دون إدام، ولأول مرة أشعر بالشبع الحقيقي، وتمنيت لو أن معي بضع حبات من الزيتون الأسود، أو قطعة من الجبن أو حتى بصلة.. ولكن العين بصيرة واليد قصيرة..

والحقيقة أن مشكلة «الرغيف» ظلت تؤرقنا، وظللنا دون جدوى نبحث عن حل، صحيح إن بعض المسجونين أو السجانين كانوا يهدوننا أحيانًا عددًا من الأرغفة الإضافية، لكنها كانت قليلة لا تغطي العجز الكبير الذي نعاني منه، ولكن المشكلة حلت مع الزمن.. كيف؟ بالطريقة التي نفذتها من قبل.. لقد تحمل كل واحد وزره وأخذت الغالبية تشتري الخبز بالسجائر، ومع ذلك فقد بقي عدد من الإخوة مصرًا على موقفه من أنه خبز حرام لا يصح شراؤه.. وليغفر الله لمن استسلم لشهوة بطنه.. والحقيقة أننا كنا نشترى من «كيروسين» السجن وزيت السجن وقماش السجن لنصنع لأنفسنا ملابس إضافية كافية مناسبة، وكنا نستعمل الكيروسين مع قطع القماش البالية ونشعل منهما نارًا لتسخين الطعام أو عمل الشاي أو القهوة، على الرغم من أنه أمر غير مسموح به، كما كنا نستعمل الزيت في إشعال فتيل للإضاءة، ولإضافته على الفول أو الجبن.. وكنا نشتري الشاي المهرب من السوق السوداء في السجن، ولم أجد سببًا وجيهًا للسماح شرعًا بشراء الكيروسين والزيت والقماش، وتحريم ذلك بالنسبة للخبز، علمًا بإصابة البعض منا بمرض السل، أذكر منهم «عزت غريب» الذي كان يعالج مع الشهيد «سيد قطب» والزميل «إبراهيم الصياد» في المصحة. مرة أخرى أقول.. ليغفر لنا الله.. فإن الجوع كافر كما يقولون.

ولقد كان في سجن أسيوط سجين شهير اسمه «على إسماعيل» محكوم عليه في قضية مخدرات، ولعب هذا الرجل دورًا بارزًا في إحضار الممنوعات إلينا بعد دفع ثمنها، كان تعاونه معنا صادقًا وأمينًا.. وله قصة مثيرة فيها الكثير من الطرافة والعبرة.. أذكرها كنوع من الترفيه أو التسلية.

لقد سجن «على إسماعيل» في قضية مخدرات قبل ذلك، ثم خرج منها بعد قضاء المدة المحكوم عليه بها، لكن كان سوء حظه يترصده، فقد توقع ضابط المباحث أن علي إسماعيل -

كحشاش قديم- لابد وأن يحتفل بمناسبة خروجه من السجن، والاحتفال في مثل هذه الحالة معروف، وينصب أساسًا على «الجوزة» و«رص التعميرة»، وداهم الضابط منزل «علي» بعد إذن النيابة وأمسك به وفتشه وأخرج الحشيش من جيبه، وسيق مرة أخرى إلى السجن، وحكم عليه بالسجن خمس سنوات مع الشغل، ولذا كان علي يشعر بحقد هائل نحو هذا الضابط واسمه «أحمد مكي»، لكن ماذا يفعل «علي» العاجز المقهور السجين؟

كان «علي» ينتظر آذان المغرب، فإذا ما صاح المؤذن «الله أكبر الله أكبر» تبعه على الفور صوت «على إسماعيل» وهو يردد:

«الله أكبر فيك يا أحمد يا مكي».

«أذان في كل مكان يا أحمد يا مكي

ربنا ينتقم منك».

«ويخرب بيتك.. زى ما خربت بيوتنا يا أحمد يا مكي».

وظل «علي إسماعيل» يفعل ذلك دون انقطاع طوال العام الأول من السجن وجزءًا من العام الثاني، وأصبح ذلك مألوفًا كل مغرب شمس.. وفي أحد الأيام قرأنا في جريدة الأهرام المهربة إلينا عن حادثة وقعت في «أسيوط» إذ قام الضابط أحمد مكي بحملة تفتيشية على الجزارين وقبض على عدد منهم يبيعون اللحم بأكثر من التسعيرة، وهاج الجزارون وماجوا في السوق، وهاجموا أحمد مكي بالسكاكين وهو في وسط عسكره، ثم نقل إلى المستشفى في حالة سيئة بين الموت والحياة، وانتشر الخبر في أنحاء السجن بسرعة، ووقف علي إسماعيل في فناء السجن في حالة من الفرح لا مثيل لها، كان محتقن الوجه، تعروه دهشة من نوع غريب، والمساجين يأتون إليه أفواجًا للتهنئة، لقد استجيبت دعوة علي إسماعيل، واعتبره النزلاء رجلًا خطيرًا، بل وصالحًا أيضًا، أليس مستجاب الدعوة؟ وساد حوله جو من المرح والضحك.. ثم مات الضابط أحمد مكي في اليوم التالي متأثرًا بجراحه.. كان معنا في السجن آنذاك الزميل الأخ فؤاد شاكر مذيع التليفزيون ومقدم البرامج الدينية فيما بعد، وأخذنا معًا نعلق حول الموضوع، واقترحنا أن نتقدم لعلي إسماعيل برجاء أن يحول دعواته من أحمد مكي الذي انتهى أمره إلى دعوات ضد الرئيس.. كان الأمر في حقيقته نوعًا من المزاح، وإن كان يعبر عن مكنون ضمائرنا نحو من ظلمنا.. وقررنا أن نعطي على إسماعيل عددًا من علب

السجائر ثمنًا لذلك.. وعرضنا عليه الأمر فصمت برهة ثم قال: «يا إخوان اعذروني.. دي مصيبة كبيرة لا أقدر عليها..».

وأخذ يشرح لنا وجهة نظره التي تتركز في أنه لو فعل ذلك لاعتبرته الحكومة من الإخوان وهذه كارثة كبرى، وأفهمنا أن تهمة المخدرات أمرها سهل، وعقوبتها محتملة، لكن تهمة الإخوان قد تقذف به إلى الليمان ولا يخرج منه أبدًا، وطبعًا هناك أمر آخر لم يفصح عنه علي إسماعيل وهو أن الرئيس صعيدي مثله، وعصبية الصعايدة تراعي هذا الجانب مراعاة شديدة، وأمام إصرارنا وإلحاحنا نزل علي إسماعيل على رغبتنا.. وانتظرنا موعد أذان المغرب، وما إن انطلق صوت المؤذن، حتى سمعنا صوت يقول:

«الله أكبر فيك يا اللي في بالي

أذان في كل مكان يا اللي في بالي»

«ربنا ينتقم منك، ويخرب بيتك زي ما خربت بيوت المظاليم يا اللي في بالي...».

وضج السجن كله بالضحك العالي والتعليقات المرحة.. وأخذ بعض الإخوان في الدور الثاني يعتبون عليه عدم الالتزام ببنود الاتفاق، واتهموه بالخوف والجبن مما لا يتفق وطبيعة الرجل الصعيدي، وفي اليوم التالي بعد أن فتحت الزنازين التقينا مع علي إسماعيل وأخذنا عليه أقسى ألوان التقريع والملام، وأخذ علي يشرح لنا الأمر من وجهة نظره.

أخبرنا أن الصعيدي شهم وذو أنفة، لكنه إذا سجن لا يفكر في مقاومة السلطة داخل السجن، بل يرضخ لإهاناتها دون اعتراض، ولا يعتبر عدوان الحكومة عليه وهو سجين أمرًا يتنافى مع كرامته، كما أنه رجل متخصص في المخدرات، ويعتبر السياسية أمرًا لا يخصه ولا يتناسب مع شخصيته، لأنه لم يحلم في يوم من الأيام أن يدخل الانتخابات، ومن المستحيل أن يكون موظفًا، ويبلور فكرته في جملة واحدة: «أنا راجل صاحب مزاج وبس.. وإن شاء الله تخرب مالطة» ثم عاد يطرح علينا حلًا وسطًا وهو أن نختار اسمًا آخر من الأسماء التي آذتنا بحيث لا يكون عضوًا في مجلس الثورة، وهو على استعداد لأن يدعو عليه، واقترح عليه أحد الإخوان اسم الضابط «أحمد صالح داود» - «توفى عام 1986»-، الذي عرف بشدة الإيذاء أثناء التحقيقات التي تجرى مع الإخوان في السجن الحربي أو سجن القلعة أو مقر المباحث العامة، ووافق على الفور، ونفذ وعده لمدة ثلاث ليال فقط.. ثم صمت..

الحقيقة أن «علي» هذا كان خفيف الظل، يذكرني بشخصية «زوربا اليوناني» في الرواية الأدبية الشهيرة، كان طوله الفارع ونظرته وطريقته في الكلام، وأخذه الحياة دون اهتمام، ثم خروجه من ورشة النسيج التي يعمل فيها إلى ما بعد العصر، ثم وقوفه يرقص وسط حلقة كبيرة من السجناء.. كل ذلك كان يذكرني بشخصية «زوربا اليوناني» وكنت اسمي رقصته تلك برقصة «النول»، فقد كان يحرك ذراعيه ورجليه ورأسه بحركات تشبه حركته وهو ينسج، وهو عمل شاق مرهق كما قلنا.. يظل يرقص ونحن نصفق له على «الواحدة» حتى تنطلق.صفارات العسكر، ونتجه صوب باب العنبر، بسبب اقتراب موعد «التمام» النهائي، و«التمام» يعني حصر المسجونين في زنازينهم، ثم إغلاق الأبواب عليهم حتى الصباح.

ولقد كانت علاقاتنا بالمسجونين طيبة، وكونا معهم علاقات وطيدة رغم فصلنا عنهم في السكن، وكانت هذه العلاقة ضرورية من وجوه عدة، أولها معنى الإخوة الإسلامية الإنسانية، وثانيها التعاون في الحصول على بعض ما نريد من ضروريات لا توفرها لائحة السجون، وثالثها أهمية التعريف بقضيتنا والمبادئ التي ندعو إليها، بالإضافة إلى تبادل المصالح، فقد كانوا مثلًا يحتاجون إلى بعض الأدوية المتوفرة لدينا، كما كان بعضهم يقوم بتقديم بعض الخدمات لنا مقابل أجر زهيد، وكانوا أيضًا يساعدوننا في تهريب بعض الخطابات التي نبعث بها للأهل، لأن التفتيش بالنسبة لمن يخرج منهم من السجن للمحاكمة أو العلاج يكون تفتيشًا هينًا أما نحن فكنا نخضع دائمًا داخل السجن أو عند الزيارة أو الخروج للعلاج لتفتيش دقيق جدًا.. ومع ذلك فقد حدث ذات يوم أن قام أحد الضباط بتحريض الصعايدة «الأسايطة» ضدنا لتأديبنا، وفي هذه الأزمة انحاز لنا السجناء «السوهاجية» الذي يجيدون اللعب بالعصا، كما إن عددًا قليلًا من الأسايطة لفت نظرنا إلى المؤامرة، ولم يحدث احتكاك والحمد لله، فقد انكشفت المؤامرة، وتأذى منها العقلاء من رجال أسيوط، وأعلن المسجونون السوهاجية وقوفهم إلى جوارنا، وهكذا مرت الأزمة –كما قلت– بسلام، وقررنا أن نزيد من توطيد علاقاتنا مع السجناء العاديين، كما أصبح أيضًا من الضروري أن نتعلم اللعب بالعصا، من يدري فقد نحتاج إليه في وقت من الأوقات، والحقيقة أن تعلم ضرب العصا فن جميل، يحتاج إلى ذكاء ومهارة، وكانت حلقات اللعب بالعصا تنصب كثيرًا في فناء السجن، ونحتشد حول المتبارزين لنسعد بهذا الفن، ونحاول تعلمه، كان اللاعب يستطيع أن يغطي جسده كله ورأسه بعصاه، بحركاته الماهرة السريعة،

وبعد أسابيع استطاع البعض منا أن يدخل الحلبة، كنا مبتدئين، وكان إخواننا الصعايدة يعرفون ذلك، ويلعبون معنا برفق، حتى وصلنا مرحلة لا بأس بها من المعرفة لأسرار هذا الفن.. والبراعة في استعمال لعبة العصا قريبة الشبه بلعبة «الشيش»..

واستطعنا إقناع الإدارة بإنشاء ملعب للكرة الطائرة، وتكون منا فريق قوي ذاع صيته خارج السجن، حتى إن الجامعة الشعبية بأسيوط أرسلت فريقًا لينازلنا في مباريات عدة، كانت مسلية وجميلة، كما وافقت الجامعة الشعبية أيضًا على أن ترسل إلى السجن بعض مدرسي الموسيقى لنتعلم منهم النوتة الموسيقية والعزف على الآلات، وسمح لنا بشراء عدد من هذه الآلات، واخترت أنا آلة «الكمان» لأتدرب عليها، وقد نجح في فن الموسيقى عدد من الإخوان على رأسهم الأخ عبد الرحمن الجنايني الذي حقق درجة من الإتقان جعلته يستطيع العزف «سماعيًّا»، وكانت الآلات المتوفرة لدينا آنذاك الكمان —العود — الماندلين — الهرمونيكا — الناي — الطبلة... إلخ. واستطعنا تكوين فرقة كانت تعزف في حفلات السجن وفي المناسبات، أما بالنسبة لي فقد كان تقدمي في الموسيقى بطيئًا، وعندما عزفت لحن «النهر الخالد» أمام بعض الإخوة، علق حسين عاشور «رئيس تحرير المختار الإسلامي فيما بعد» قائلًا: «ليس هذا النهر الخالد... إنه «الترعة البولاقية»...».

لكنني مع ذلك كنت مرتاحًا لأني عرفت على الأقل ما الموسيقا.

أما أخونا فؤاد شاكر فقد تفرغ «للرسم»؛ واستطاع أن يقدم عددًا من اللوحات الرمزية الجميلة ذات المعاني العميقة، وأذكر أن بعض لوحاته كانت تتخذ آية من القرآن أو جزءًا من آية عنوانًا لها، كما رسم لوحة رمزية جميلة تحت اسم الإمام الغزالي، وقد استطاع أخونا الأستاذ «علي عثمان» في سجن بني سويف أن يحقق إنجازًا فنيًا ضخمًا، حينما أعد لأول مرة في تاريخ السجون معرضًا للوحاته التي استوحاها من حياة السجون، وقد أشادت الصحف المصرية في تلك الفترة بنجاح علي عثمان، واعتبروه موهبة ممتازة، علقت الجمهورية على نجاحه تعليقًا مهمًا، لكنها أضافت قائلة: «... تذكر أيها الفنان هؤلاء الذين وضعوا في يدك القنبلة.. والمسدس.. وقالوا لك اقتل شعبك.. اقتل أهلك.. اقتل وطنك..» ونسيت الجريدة أن علي عثمان ا لمسكين لا يعرف شيئًا عن هذا كله، ولم تلمس يده طول حياته قنبلة أو مسدسًا، وإنما كانت التهمة الموجهة إليه هي أنه جمع بعض القروش كإعانات لأسر

المسجونين، وكان يمكن أن يصل علي عثمان لدرجة كبيرة من التفوق لولا أنه هجر الصحافة، وقنع بوضيفة في وزارة التربية والتعليم بالكويت تدر عليه دخلًا ممتازًا، وكان يعمل في مجال إخراج الكتب..

وهنا ك فئة من الإخوان انصرفوا إلى هوايات أخرى لتمضية وقت السجن، كهواية فن «الأركيت» والنحت، والنجارة، وتأليف الكتب، وفنون الأدب المختلفة كالشعر والمسرح والقصة، وقد نبغ في هذا المجال أخونا الدكتور عبد الفتاح الحسيني «في القصة والمسرحية»، لكنه تفرغ فيما بعد لعلم الطبيعة النووية الذي أصبح أستاذًا وعالمًا فذًا فيه في بريطانيا، كما نبغ في القصة أيضًا الأخ المهندس أنور رياض والأخ على جمال الدين، وفي الدراسات محمود هاشم، وغيرهم كثيرون وفكرت مع مرور الأيام أن أنشئ مجلة حائط يكتب فيها الإخوان ويعبرون عن أفكارهم وآرائهم، وأن تفسح صدرها للحوار البناء الهادف، وكان من الضروري أن نتجنب الاصطدام بالإدارة بالنسبة لهذا الموضوع الحساس، ولذلك كانت موافقتهم مشروطة بعدم التعرض للحكومة بالنقد.. وتم تنفيذ الفكرة وأطلقنا على هذه المجلة «الشروق»، وكانت هذه المجلة رغم تواضعها متنفسًا لنا جميعًا، نكتب فيها عن السياسة العالمية، والفكر الإسلامي والآداب والفنون المختلفة، وكانت تثور خلافات، وتدور مناقشات حول بعض القضايا الحيوية، وتفتح أمامنا الطريق للاستزادة من المعرفة حول بعض الموضوعات التي يصطخب حولها الجدل، ولقد استمرت هذه المجلة لفترة طويلة من الزمن، ولم تكن ترفع من مكانها إلا إذا كانت هناك جولة تفتيشية من رئاسة السجون في القاهرة، ولقد قمنا بعمل مسابقات في فن القصة، وفي الألعاب الرياضية، والعزف على الآلات الموسيقية، وانخرطت فئة أخرى من الإخوان في استكمال حفظ القرآن والاستغراق في العبادة ودراسة الفقه والتفسير والتاريخ والتاريخ الإسلامي، وكان هناك اهتمام بالغ بمؤلفات الإمام أحمد بن تيمية، وحرصت طائفة أخرى على الاستزادة من علم الاقتصاد ومذاهبه الغربية وحاول البعض عمل دراسات مقارنة بينه وبين الاقتصاد الإسلامي، وفي هذه الفترة سمح لنا أ يضًا بمشاهدة بعض الأفلام السينمائية، أذكر منها فيلم عن مصطفى كامل، كما سمح بالنشاط المسرحي، وبعض الحفلات، وخاصة مناسبة المولد النبوي، واشتركت في بعضها كممثل، ولعلي أشرت فيما سبق إلى المسرحية الشعرية التي نشرها الشاعر محمود زيتون عن ميلاد الرسول، حيث مثلت فيها دور «أمية بن أبي الصلت»،

وقد أعجب المسجونون والإدارة بهذه المسرحية إخراجًا وتمثيلًا، وفي عيد الثورة أقام السجن احتفالًا قدمنا فيه لقطعة من مسرحية «قراقوش» أعدها الأخ فؤاد شاكر والمهندس عبد الفتح الحسيني، وسببت لنا مشكلة عويصة مع المباحث العامة «أمن الدولة» في أسيوط، حيث وشى بنا البعض عندهم، وترتب على ذلك حرماننا من كثير من المميزات التي حصلنا عليها، لكن لفترة قصيرة من الزمن، وفي أثناء الأزمات التي نتعرض لها كنا نلاحظ أن الضابطين محمود أبو كريشة «وشهرته في السجن محمود المطيعي» وزكي أمين كانا يقسوان علينا، بينما الضابط المهذب النبيل مصطفي أبو دومة يحاول أن يخفف عنا، ويوجهنا إلى ما يجب عمله، ويحذرنا مما يدبر لنا في الخفاء، وقد علمنا فيما بعد أنه من أوائل طلبة كلية الشرطة الذين انضموا إلى الإخوان المسلمين في وقت مبكر، مع إخوانه صلاح شادي وكمال عبد الرازق وعباس أبو كرم وغيرهم.

لقد بدا لنا أن السجن ستطول أيامه، وأن علينا أن نهيئ لأنفسنا وضعًا نفسيًا يجعلنا نصبر ونحتسب وأن نضرع دائمًا إلى الله، فهو مفرج الكروب، وبيده وحده مقاليد الأمور، وعلى ذلك فقد ثار الجدل حول موضوع «الجهاز الخاص» أو «الجهاز السرى» كما أطلقت عليه الصحف، وكان بعض الإخوة يرى أن هذا التشكيل خطأ كبير، وأنه جر علينا الكثير من الكوارث، ويكفي أن جمال عبد الناصر، وعددًا من ضباط مجلس الثورة تتلمذوا على يدي عدد من أقطاب هذا الجهاز منهم أنور السادات وخالد محيي الدين وحسين الشافعي وعبد اللطيف البغدادي وغيرهم كما ورد في مذكراتهم بعد ذلك. وكان البعض الآخر يعتقد أن هذا الجهاز كان ضرورة في وجود الإنجليز والملك الطاغية والعدوان المستمر على الجماعة، وظل الخلاف حول وجهتي النظر لفترة طويلة، بل يبدو أنه ما زال مستمرًا حتى يومنا هذا، وقد ظهرت بعض الجماعات الإسلامية -فيما بعد- التي تعتنق فكرة تنمية القوى المادية في مواجهة أعداء الإسلامية تحت شعار ﴿ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ﴾ [البقرة:193]، ولقد تناولت هذا الموضوع الكثير من الكتب والنشرات.

وبرغم مرارة السجن إلا أننا تكيفنا – إلى حد كبير – على الوضع القائم، ولم يكن ينغص علينا إلا بعض الخلافات الفكرية، وتصدي الإدارة لنا من وقت لآخر بأسلوب فيه الكثير من القسوة والمهانة والحرمان، وإن لم يكن يرقى إلى أسلوب السجن الحربي البغيض، وذلك

الفصل الأسود في سجل مصر الحديثة، والذي سيظل حدثًا رهيبًا لا يقل بشاعة عن أحداث محاكم التفتيش في أوروبا، وجنون القائمين بالثورة الفرنسية الشهيرة..

ولقد كان السجن -بما فيه من فراغ، وبما يحاك فيه من دسائس- مجالًا لاستعراض تاريخ الجماعة، وتقييم التصرفات التي صدرت عن بعض قياداتها، وتحليل الأحداث المتلاحقة، وما صاحبها من صواب أو خطأ، كان الموضوع يلمس برفق في البداية وفي شيء من التحرج، وبمرور الوقت، أصبحت نبرة الحوار عالية، ولم تكن المباحث العامة وأذنابها، بمنأى عن تحريك الفتن، وإثارة الحزازات بيننا، وكان أغلب مجموعتنا في سجن أسيوط من صغار السن، أي من شباب الجامعات والمرحلة الثانوية، وهم بالطبع في مرحلة حساسة وحرجة من مراحل العمر، ولذا كان الحوار يتسم بالحرارة والصخب في كثير من الأحيان، والواقع أنني كنت أشعر بحزن عميق إزاء ما يجري بيننا من خلاف، فتصوري السابق أننا كمسلمين مجاهدين يجب أن نلتزم خطًّا سليمًا في التفكير والحوار، وألا يكون خلاف الرأي مدعاة للشقاق، لكن علمت فيما بعد أن الخلاف من طبائع الناس، وأن اختلاف مستويات الثقافة والتجربة والخبرة تؤثر تأثيرًا بعيد المدى، أضف إلى ذلك الضيق الذي يشعر به الإنسان في زنازين السجن الموحشة، وإلى الكبت الذي يغالبه الشباب في هذه الأيام الحرجة، وأوشكت الفتن أن تطل برأسها لولا لطف الله. فقد دأب «مازن بك» رئيس المباحث العامة بأسيوط على زيارة السجن من آن لآخر، واستدعاء أفراد بعينهم ليختلي بهم، ويتناقش معهم، وهم ثلاثة أفراد، وكان هذا التصرف يبعث في نفوسنا الشك والريبة، على الرغم من أن الثلاثة كانوا يسردون علينا تفاصيل المحادثات، لكن الهمس يدور، والشكوك تتصاعد، وكان أحد هؤلاء الإخوة هو المسئول عن الاتصال بالإدارة، ونتيجة لذلك أصر بعض الإخوان على إجراء انتخابات جديدة لاختيار مسئول آخر، وهذه الفكرة زادت من البلبلة والخلاف والاضطرابات، كانت فترة عصيبة، وكاد يحدث الانقسام، وانتهى الرأى لاختيار قيادة جماعية من خمسة أعضاء، حتى لا ينفرد مسئول واحد باتخاذ القرار، وفعلا تم تنفيذ ذلك، وكان المسئول السابق واحدًا من الخمسة المنتخبين..

لكن هل استقرت الأمور، وساد الهدوء والاطمئنان؟

****

[4] عقبات في الطريق

كانت لدي حساسية مفرطة لتلك الخلافات التي دبت بيننا، لأنها شيء لم نتعوده على هذا النحو، وبذلك الحجم في سالف الأيام، لقد كانت الجماعة تنطلق في الماضي دون معوقات تذكر، صحيح أن بعض المشاكل كانت تحدث بين القيادات في القاهرة، وكان يتناثر رذاذها أحيانًا في الصحف المعادية، فتضخم الأحداث، وتبالغ في الوقائع، لكن تصريحًا واحدًا من المركز العام، أو نشرة دورية، أو بيانًا مقتضبًا كان كافيًا لإسكات الإشاعات والفتن، أما اليوم، ونحن نقاسي أهوال السجن فقد كان الأمر شديدًا بالنسبة لنا، وخاصة أنها المرة الأولى التي نعاني فيها بأنفسنا وليس القيادات الكبيرة في القاهرة.

وازداد اضطراب أمورنا إداريًا وتنظيميًا في السجن وخاصة بعد تشكيل القيادة الجماعية «اللجنة الخماسية»، وتغير المسئول رقم 1، وأدركت إدارة السجن هذا التغير عندما رأوا وجهًا جديدًا يعبر عن مطالبنا، وبدأ التساؤل يكثر ويلح، وخاصة أن المسئول الأول كان وثيق الصلة بهم ولبقًا في الحديث معهم، ومن ثم بدءوا يعاملوننا بشيء من الجفوة، وبدا كأنهم كانوا مرتاحين لوجود المسئول القديم، وأنهم من مؤيديه، ونتيجة لذلك فقد أصبح التعامل مع إدارة السجن فيه الكثير من العنت والمراوغة، وكثرت حملات التفتيش و«التكدير» كما يسمونها في السجن، التكدير يعني -كما ألمحنا من قبل- سحب معظم الميزات التي حصلنا عليها مثل الكتب وفترة الرياضة وتحسين الطعام، وفتح المقصف، والسماح بالأقلام والأوراق، وكتابة الرسائل للأهل بعد مراجعتها، واللجوء إلى الضرب والتأديب لأوهى الأسباب، وتساءل البعض: لماذا لا نعيد المسئول الأول بكامل صلاحياته حتى تحل الأزمة الخانقة مع الإدارة، إن هدفنا الأول في السجن هو أن نعيش في هدوء واستقرار، ومن ثم فإن الأمر لا يحتاج لأكثر من اختيار فرد يعبر عن مطالبنا لدى الإدارة أيًا كان هذا الفرد، لكن هذا التصور لم يلق قبولًا لدى غالبية الإخوان، وأصروا على اختيار الشخص المناسب مهما كانت التضحيات والمنغصات، لأنها مسألة مبدأ لا يصح التفريط فيه، وتوترت الأمور عندما انسحب المسئول القديم من اللجنة الخماسية، وأجريت انتخابات

جديدة، وأصبح أخونا السوداني الدكتور أبو بكر عثمان خليل هو المسئول الأول، وكان أبو بكر رجلًا صلبًا في الحق لا يخشى في الله لومة لائم، ويتعامل مع الإدارة بإباء وعزة، وقد عُرف أبو بكر باستقامة الخلق، وقراءة القرآن، وإتقان العبادة، والبراعة في ممارسة عمله البطيء، كما كان متزوجًا وله طفل واحد، ويعيش مع أبيه في القاهرة بحي «معروف» بشارع «مكسر الخشاب» منذ أكثر من 16 عامًا، قضاها بعيدًا عن السودان، كما كان يدرس الطب معي بكلية طب القصر العيني جامعة القاهرة لكنه كان يسبقني في الدراسة بعامين، ونعيش معًا في زنزانة واحدة.

إن التعامل مع إدارة السجن يحتاج إلى مواصفات معينة كاللباقة والدهاء والاستجابة لأوامرهم بصرف النظر عن معقوليتها، واكتساب قلوبهم بالكلمات الحلوة التي لا تخلو من المجاملة أو قل الرضوخ أحيانًا، كما تحتاج الإدارة إلى من يجنبهم مشاكل المسجونين التي تستدعى حضور المباحث العامة، والسياسيون في السجن لهم الكثير من المشاكل المتعلقة بهذه الناحية، وبناء على ما سبق فإن «أبو بكر عثمان» كان الرجل الذي لا يروقهم التعامل معه، وذات مرة جاءني أحد المسجونين وقال: «إن فلانًا «المسئول السابق» كان يؤدي واجبه بكفاءة واقتدار، وهو على علاقة وطيدة بالإدارة ووضعه كضابط سابق في الجيش يجعله أكثر فهمًا بطبيعة تفكيرهم، ولهذا أرى أن تنحيه عن المسئولية أمر ضار ولن يعود علينا بالفائدة.. والأفضل أن نلح عليه في العودة إلى المسئولية..».

قلت دون تحفظ: «إن له تصرفات تثير الريبة».

قال: «ماذا تعني؟».

- «مقابلاته لرجال المباحث العامة».

- «أنت تتهمه.. إنه يحاول تلطيف الجو، حتى يجنبنا الأذى..».

- «ألست معي في أنه أمر محير؟ نحن نريد مسئولًا نثق فيه تمام الثقة، وخاصة في أيام حرجة كهذه..».

لم أكن أعلم أن حديثي هذا سوف يثير مشكلة كبرى عندما نقل إلى المسئول السابق، لقد ظن أني أتهمه بالعمالة، وكان أن أصيب بنوبة تشنج نقل على أثرها إلى المستشفى، ولم أكن أعلم سبب نقله إلى المستشفى في البداية، لقد نسيت الأمر برمته، وبعد أيام ثلاثة أتى أحد

أصدقائه وأفهمني أنني السبب فيما حصل له، وعليّ أن أبادر بزيارته في مستشفى السجن وأعتذر له، ووقعت في حيرة، كنت أشعر بحرج شديد، ويبدو أنني تعجلت في التعبير عن ظنوني دون بينة مقنعة، فهل مجرد لقائه مع رجالات المباحث العامة يكفي للشبهة أو الإدانة؟ ومن منا يستطيع رفض المثول أمامهم إذا استدعته المباحث لمناقشة أي أمر؟ إزاء ذلك أسرعت بالذهاب لزيارته بالمستشفى، وما إن رآني حتى هب من سريره معانقًا وهو يبكي بمرارة.. وشعرت بالخجل والحزن في نفس الوقت، وقلت: «آسف.. لم أكن أقصد الإساءة إليك..».

قال وهو يجفف دموعه: «هذا يكفي..».

أردفت: «نحن في ظروف صعبة..».

- «أعلم.. أعلم.. هيا سوف أخرج من المستشفى الآن...».

وعشت أيامًا وليالي أقاسي من مرارة الندم، لماذا أقدمت على ذلك الاتهام؟ أما كان الأحرى بي أن أتجنب مثل هذه الأمور الحساسة والخوض فيها؟ وآلمني أكثر أن الأمر كله يتنافى مع الخلق الإسلامي الأصيل، فالاتهام بدون دليل أو بينة، قد يكون هذا الاتهام شائعًا، ويردده المسجونون، لكن هذا ليس مبررًا لما فعلته، ثم إن الخلاف في بعض الأمور الفرعية، ومنها أساليب الإدارة، لا يعتبر خلافًا في أصول العقيدة أو حقائق الدين.

أعود مرة أخرى إلى مشكلة «اختيار المسئول» فقد وفد إلينا من القاهرة الأخ الدكتور محمود الجندي «رحمه الله»، وكان إنسانًا صادقًا بارًا مؤمنًا حق الإيمان، يعامل الناس جميعًا بحب حقيقي، وأخوة صافية، ولا يفكر في اتهام أحد، ويرفض الدس والوقيعة، ويتسامح مع كل من يسيئون إليه، بل وينسى الإساءة، كما كان صابرًا محتسبًا، وثيق الصلة بربه، لا يتزعزع إيمانه أو يضعف، إن أصابته ضراء صبر، وإن أصابته سراء شكر، نادرًا ما يغضب أو يثور، ولو حدث ذلك فإنه يكون بأسلوب هين، ودون غلو أو انفعال ظاهر، ويفتح قلبه الكبير للجميع.. سواء المؤيد أو المعارض.. فالجميع لديه سواء.. وهكذا كان محمود الجندي طول حياته، وقد تصادف بعد سنوات أن كنا زملاء عمل في الإمارات العربية في «دبي»، وكان يعمل جراحًا بالمستشفى فيها، ولم يطرأ على شخصيته أدنى تغيير، بل ازداد إيمانًا وتقوى، وظل على هذا النحو إلى أن وافته المنية فجأة وهو نائم صائم في الخامسة مساءً من اليوم الثاني

من شهر رمضان قبل المغرب، وكان قد أدى عمله، وأجرى عمليات الجراحة كعادته مثل كل يوم، وكانت وفاته يوم 2/6/ 1984، رحمه الله رحمة واسعة، وأثابه عن جهاده ونقائه خير الجزاء.

أعود فأقول أن الإخوان أجمعوا على أن يكون الدكتور محمود الجندي هو المسئول الأول، فقبلها على مضض، ولأسبق الأحداث، فقد حدث بعد ذلك مفاجأة أذهلت الجميع، إذ أصدرت المباحث العامة أمرًا بنقل محمود الجندي وعددٍ من إخوانه إلى سجن الواحات الخارجة في الصحراء، وقبلها نقل الدكتور أبو بكر عثمان إلى سجن قنا في الجنوب ومعه ما يقرب من عشرة أغلبهم مما شاركوا في تحمل المسئولية، ولاقوا في سجن «قنا» الكثير من التعذيب والعناء..

وعاد المسئول الأول القديم لتسلم مقاليد الأمور بعد هذه التجربة المحزنة المريرة، ولم تعد المسئولية في السجن شيئًا يؤبه له، ولم يعد الإخوان يفكرون بجدية فيمن ينتخبون لهذه الغاية، لأن الذي سوف يُنتخب ولا يكون على هوى الإدارة، سرعان ما يرحل إلى سجن ناء، وهو ما يسمونه بلغة السجن «التغريب» وكان ذلك يحدث بأمر المباحث العامة، التي تمدها إدارة السجن بأي تغيير في المسئولين أو أي حدث يحدث منا تجاه هذه الإدارة.

نعود إلى الوراء مرة أخرى..

كان سجن أسيوط بعيدًا عن ديارنا، ولهذا لم أسعد بزيارة أهلي لي إلا بعد عام تقريبًا، حيث حضرت أمي لأول مرة، وحضر أبي، كان لقاء مشحونًا بالانفعال، إنهما يقفان خلف شبكة الأسلاك الدقيقة، وينسى أبي ويمد يده ليصافحني، فتمنعه الشبكة، وأمي تنحدر دموعها في صمت مزلزل.. وأنا أحاول التماسك، كنت أبتسم، وأتكلم كثيرًا، مؤكدًا لهم أني في أسعد حال، وهم يستمعون في حسرة وألم، لقد قضوا الليل كله مسافرين من القرية حتى أسيوط، ووصلوا فجرًا، وجلسوا على «بوفيه المحطة» ينتظرون الصباح، ويسألون عن مكان السجن، وقالت أمي: «لقد تعبنا كثيرًا».

وفهمت أن هناك أحداثًا غير طبيعية تجري في القاهرة الليلة الفائتة، وأن الأنوار قطعت، وأن العسكر يتحركون هنا وهناك، ولكني لم أفهم شيئًا مما تقوله أمي، ولهذا لم أكترث كثيرًا بتلك الأخبار، لكن الأمر الذي هزني هزًّا عنيفًا هو ذبول وجه أمي ونحولها.. إنني لم أرها منذ

أول أغسطس 1955 ونحن الآن في أواخر أكتوبر 1956... لشد ما تغيرت!! ما أكثر الهموم والأحزان التي داهمتها بسببي حتى لأكاد أشعر بالذنب.. ولا أستطيع سوى أن أقول لها: «الله معك» وانتهزت الفرصة لأفتح أمامهم أبواب الأمل، وأمنيهم بفرج الله القريب.. وحدثني أبي باختصار عن الجهود المتواصلة التي يبذلها كي يساعد على إخراجي من هذه المحنة، وذكر لي عددًا من الشخصيات التي ذهب إليها، والهدايا التي يحملها إليهم، والنفقات الباهظة التي بذلها عن طيب خاطر، وعن بعض الأراضي الزراعية التي باعها كي يواصل جهوده بحثًا عن مخرج لي، وكنت أشعر بمزيد من الألم وأنا أستمع إليه، وحاولت أقناعه كي يكف عن هذه المجهودات التي لا طائل من ورائها، مؤكدًا له أن الأمر كله بيد الله، وأن فرجه قريب.. لكنه لم يرض بالسكوت.. إنه أب..

انتهت الزيارة.. ولوحت بيدي مودعًا.. وما إن وليت وجهي شطر فناء السجن حتى تساقطت دموعي.. لكني أسرعت بتجفيفها فلا يصح أن يراني أحد وأنا أبكي..

ونمت في هذه الليلة في وقت مبكر.. أردت الهروب إلى النوم.. إن وجهي أمي وأبي لا يفارقان خيالي، لكن ماذا أفعل أمام هذه الحواجز الرهيبة التي صنعها الطغاة؟ وعند منتصف الليل أيقظني الإخوة الذين انتقلت حديثًا للسكن معهم في زنزانتهم وهم محمود هاشم أبو بكر «الشهير بحاتم»، وحسين عبد المعطي، ورجب الخميسي رحمه الله.. أقول أيقظوني، وكان صوت الميكروفون يجلجل بصوت المذيع.. ويحدث ضجة هائلة..

قلت: «ماذا جرى؟».

قالوا: «الحرب».

قلت في دهشة: «أي حرب؟».

وفهمت أن اليهود والإنجليز والفرنسيون قد هجموا على مصر بسبب تأميم قناة السويس، كان الحدث كبيرًا ومباغتًا، لم نكن نقرأ الصحف إلا نادرًا، كما لم نكن على علم بمجريات الأمور، صحيح أنني ناقشت موضوع تأميم القناة منذ ما يقرب من شهر مع الأخ «سيد الريس» المحكوم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة «وكان الحكم قد خفف عليه من الإعدام إلى الأشغال الشاقة المؤبدة»، وهو في تلك الفترة سجين بسجن الواحات الخارجة مع قيادات الإخوان هناك، وقد قدم للعلاج بأسيوط لفترة قصيرة، أقول ناقشت معه هذا

الموضوع -التأميم- وما يمكن أن يترتب عليه من آثار، ووصلنا في نهاية النقاش إلى ضرورة قيام حرب بسبب ذلك، ولكن ما قيمة رأينا؟ نحن مجرد مسجونين، وتحليلنا للموقف السياسي بين أربعة جدران.. وهو مجرد «دردشة» أو ثرثرة لتمضية الوقت.. لكن ما توقعناه حصل.. وقامت الحرب.. ومع ذلك فإن الدهشة ألجمتني.. لم أكن أتصور أن تقوم حرب على الرغم من التحليل المنطقي الذي تناولناه.. هكذا كان شعوري.. إنه متناقض لكنه حدث.. والآن ما الذي يخبئه المستقبل؟

كانت الزنزانة خافتة الضوء، لأن المصباح الكهربائي منطفئ، وانعكاسات الأضواء الخارجية هي التي تتسلل عبر الفتحة الممتدة فوق الباب المغلق، وجميع السجناء من الإخوان قد استيقظوا من نومهم، وأصبحت أصواتهم مسموعة، والزنازين تتناقش، وتستفسر، وحرس الليل لا يستطيعون إيضاح أي شيء، فهم مجرد عساكر ليس لديهم الحد الأدنى من المعلومات السياسية أو العسكرية، ثم إن الأمر كله مفاجأة -كما قلنا- أذهلت الجميع، حاولت أن اضطجع مرة أخرى.. صاح أخونا رجب الخميسي في غضب: «استيقظوا.. لقد أُحتُلت بلدنا...».

كنت أشعر بجوع شديد، والبرد قارس، والحيرة مضنية، قمت من مكاني، وأنا متلفع بالبطانية، وحاولت أن أبحث عن لقمة من الخبز الجاف وبعض الملح، وعاد رجب ينظر إلي في ضيق ويقول: «لا تمس الخبز.. إنه للإفطار..».

قلت بهدوء: «سأفطر الآن..».

- «لكن الساعة الواحدة صباحًا..».

ولما وجدني أمضغ اللقيمات الجافة قال: «إنني أعجب، كيف يكون لديك شهية للأكل في هذه الساعات الرهيبة..».

قلت محاولًا تبديد جو الكآبة والتوتر: «حتى نقوى على مجابهة العدو».

كانت عواطف شتى تتنازعني، إن الأمر يبدو مغامرة شائكة، أيعود الإنجليز -ومعهم الإسرائيليون والفرنسيون- لاحتلال مصر مرة أخرى؟ لو حدث ذلك لا قدر الله فستكون كارثة، فتاريخنا مع الإنجليز والتصدى لهم في منطقة القنال معروف، وجهادنا في فلسطين ضد الصهيونية أمر شائع يعرفه الجميع، بل إن اتفاقية الهدنة في «رودس» أشارت إلى خطورة

الإخوان، وطلبت من مصر «الملك» قص أجنحتهم حتى تستمر الهدنة، والفرنسيون لا يرحمون من يجابههم في مستعمراتهم، وما أمر الجزائر منا ببعيد، فالأمر بالطبع ليس في صالح الوطن، ولا في صالح الإخوان بداهة، ومن هنا جاء تفكير بعض الإخوان في الأيام التالية في إرسال برقية للحكومة يعرضون فيها استعدادهم للتطوع فورًا للحرب، والخروج من السجن إلى ميدان القتال مباشرة، فالأمر لم يعد أمر معارضة وحكومة، ولكنه أصبح أسمى من ذلك وأكبر، لأن التصدي للعدوان الأجنبي ليس بالأمر الجديد على الإخوان، والجهاد في هذا الوقت دفاع عن العقيدة والشرف والحرية واستقلال البلاد.

ولنعد إلى تلك الليلة الليلاء التي لم ننم فيها بعد أن علمنا بالخبر، فما إن أشرق الصباح حتى بدأت في كتابة قصيدة، كانت هذه القصيدة مثل دقات طبول الحرب في إقاعاتها.. أذكر منها:

لتـــــأت جحافــــــل تزخــــــر
كجــــــيش الليـــــل أو أخطــــــر
فجــــــيش الحــــــق لا يُــــــدحر
ونــــــور الله لا يقهــــــر
لــــــذا أقــــــسمت أن أثــــــأر

كان عنوان القصيدة «القسم»، وأسرعت بإعداد مادة لعدد خاص من صحيفة الحائط «الشروق» التي كنت أصدرها، وتفاهمت مع بعض الإخوة بعد الفجر كي يشاركوا في كتابة موضوعات حول موضوع تأميم قناة السويس وعن العدوان الجديد ومطامعه.

لقد ملأ الحدث الضخم كل فراغ حياتنا، فما إن فتحت أبواب الزنازين في السابعة والنصف صباحًا، حتى تجمهر الإخوان في دور 2، وحمى وطيس المناقشات، وتلهفت الأسماع لكل جديد من الأخبار، وشغلنا العدوان عن كل ما عداه من أمور، ولقد لاحظت أن إدارة السجن تعاملنا بقدر كبير من الرقة والسماحة، ويتناقشون معنا في أخوة، ويحاولون أن يستشفوا ما وراء كلامنا من دلائل، لقد كانوا يتوقعون أن تبدو في تصرفاتنا وتعليقاتنا علامات الشماتة، والواقع أن ذلك الشعور لا يتناسب مع أصحاب عقيدة بذلوا في سبيلها الدماء الغالية طوال السنين السابقة، وأنا لا أنكر أن البعض منا كان ينحو باللائمة على

سياسة الحكومة التي تتسم بالعنف والبطش وتكميم الأفواه، ويعلن أن الشعب المقهور المستعبد تقل كفاءته في ميدان القتال، وأن الشعوب الحرة وحدها هي القادرة على ضرب المعتدين، وإفشال مخططات الغادرين، وما من شك فإن استعداد الجيش للتصدي لهذا الهجوم المحتمل لم يكن على المستوى اللائق من حيث الإعداد والتدريب والسلاح، وقد هزمنا فعلا من الناحية العسكرية، لكننا كسبنا المعركة سياسيًا، وخاصة بعد أن أصدرت أمريكا أمرها بانسحاب الدول الثلاث في موعد أقصاه تاريخ محدد، ولم يكن للإنذار الروسي أية قيمة كما يزعم البعض، وبالطبع فإن الانسحاب من سيناء وبورسعيد كان نصرًا سياسيًا كبيرًا لعبد الناصر، ولم يستطع أن يستثمر هذا النجاح استثمارًا شاملًا إلا في قليل من النواحي.

ولعبت المقاومة الشعبية في منطقة القنال، وفي بورسعيد بالذات دورًا مشرفًا في هذه المعركة، وقد أشرت إلى ذلك في الجزء الأخير من روايتي «الطريق الطويل»، وكان تدخل أمريكا لصالحنا له أسباب معروفة آنذاك، إذ إن التخطيط للحرب تم دون علمها، كما أنها كانت تنوى أن ترث بريطانيا في نفوذها بمصر، ولهذا انتهزت الوضع الحرج الذي سقط فيه المعتدون، والرفض العالمي للعدوان، وطالبت بالانسحاب الفوري في وقت قصير.

لم تفعل أمريكا –أيزنهاور– ذلك لوجه الله، ولكن لمصالحها ونفوذها، ومن أجل بترول الدول العربية، ولتثبت أنها –وحدها– القادرة على حماية مصر وليس الاتحاد السوفيتي أو سلاحه.

ومن الأمانة أن نشير إلى أن بعض الإخوة رفضوا التوقيع على طلبات التطوع للحرب، وكانت لديهم أسباب لذلك، فقد رأوا أنه لا جدوى من ذلك، لأن الحكومة نفسها لن تسمح به، حيث إنه يعني إعادة الثقة في الإخوان المسلمين أصحاب المعارك الماضية مع الاستعمار، ويعني التصالح، ويعني الإفراج عن المسجونين، إذ ليس من المعقول أن يخرجوا ليحاربوا، ثم يعودوا للسجن مرة أخرى، وكان من المستبعد أن تثق الحكومة أو تتصالح أو تفرج عن مسجوني الإخوان في تلك الفترة، فكراهيتها لهم لا تحدها حدود، ثم إن عدد المسجونين لن يؤثر في نتيجة المعركة لأنه لا يتجاوز الألف بعد الإفراج عن المعتقلين، وقد رأى البعض أيضًا أن طلب التطوع يعني ضمنيًا شيئًا من التزلف مما يمس الكبرياء، أو يتجاهل العنف الرهيب الذي عاملتهم به الحكومة منذ الأزمة وحتى اليوم، إن اليأس من عدول الحكومة عن

خطتها القاسية تجاه الإخوان قد جعل عددًا منهم لا يكترث لهذا ويعتبره «لعب عيال» لا جدوى من ورائه، ولا قيمة له، بل اعتبروه نوعًا من المساومة كي يكون بداية لحل الأزمة مع الحكومة، والخروج من السجن، وهو أمر يأنف منه كبرياء البعض، ومتى كان الجهاد الحق متعلقًا بمطالب دنيوية؟

وبالنسبة لي فقد كنت أحاول أن أتجنب تلك الصراعات، وكان أمر المعركة متروكًا للحكومة التي تتولى قيادة العمل الوطني، فإن دعتنا للجهاد لبينا النداء، وإن أغفلت ذلك صبرنا واحتسبنا فنحن مجرد مسجونين، ولهذا كنت أراقب الموقف وأنتظر، وكان جل همي كما قلت أن أصدر الأعداد المتلاحقة من مجلة الحائط، أعبر فيها عن رفض العدوان والتصدي له بكل قوة، وضرورة قيام الشعب كله ببذل أقصى ما يستطيع من جهد وطاقات لإفشال مخطط العدو، والقضية الوطنية ليست ملكًا للحكومة وحدها، ولكنها قضية الأمة كلها دون استثناء، وتذكرت في هذه الآونة هذا الرهط من الصحابة الذين أرادوا السير مع المسلمين للجهاد، ولم يكن لديهم من المال أو الإمكانات ليذهبوا إلى الميدان، حيث قال لهم الرسول: ﴿لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ﴾ [التوبة:92]، عندئذ رجعوا إلى دورهم ﴿وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا﴾ [التوبة:92] حسبما ورد في القرآن الكريم. إن قرار مشاركتنا في المعركة لا نملكه نحن، ولكن يملكه من وضعونا في السجون، ألا وإنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى.. وكان مسئولنا الإداري يرى فتح باب الحوار مع المسئولين من خلال إبداء الرغبة في التطوع للقتال..

إن الوقت الذي يتعرض فيه الوطن للأخطار، لا يحتمل جدلًا طويلًا، ولا تصفية حسابات قديمة، وليس هناك سوى موقف واحد أصيل، يدركه أولئك الرجال المؤمنون الذين يعرفون واجبهم المقدس حيال العقيدة والعرض والشرف والحرية، ذلك الموقف يتركز في كلمات الله ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة:41]، وليس بعد قول الله قول لقائل، ذلك المنطق يتسق مع الماضي الجليل لهذه الجماعة المسلمة التي كان من شعاراتها «الموت في سبيل الله أسمى أمانينا» و«..الجهاد سبيلنا»، أما مجرد الشماتة في مثل هذه الأوقات فهي مرض، بل مروق عن وجهة الحق التي ارتضاها الله لعباده المؤمنين الصادقين، فالخلاص من العدو الخارجي الكافر الظالم أولًا، ثم تصفية

الحسابات القديمة المحلية ثانيًا، وقد يكون الحاكم قد أخل بشروط العقد المفترض بينه وبين أمته، وخاصة في مجال الشورى والعدالة والحرية، لكن هذا الإخلال لا يصح أن يكون سببًا للتقاعس عن ملاقاة العدو ودحره، وهذا ما حدث بالفعل خارج السجن، فقد سارعت جموع غفيرة من الإخوان الذين لم يعتقلوا أو الذين خرجوا من المعتقل منذ فترة وجيزة، وانتقلوا إلى أرض المعركة في منطقة القنال، وأظهروا بطولات فائقة، لفتت أنظار المخلصين الصادقين من المؤرخين المعاصرين، ونشر القليل منها في الصحف المصرية السيارة، دون الإشارة إلى أنهم من الإخوان.

قلت فيما سبق، إن المعركة على الصعيد العسكري كانت مأساة، وليس أدل على ذلك من أن قوات الدول الثلاث إسرائيل وبريطانيا وفرنسا، قد اخترقت الحدود، واجتاحت صحراء سينا الشاسعة، ووصلت إلى الضفة الشرقية للقنال في أيام معدودة، وحاولت احتلال الضفة الغربية للقنال أيضًا، وأنزلت بعض المظليين والقوات في بعض المواقع، وخاصة مطار الجميل وبورسعيد وغيرها، ولكن المقاومة الشعبية تصدت لها باستماتة حتى بردت قواها، وأفشلت مخططاتها، إلى أن توقف القتال باتفاق دولي، بعد أن سقطت بورسعيد في أيديهم.

وأخيرًا انسحبت القوات الغازية، واتخذت إسرائيل بعض المواقع الصغيرة للوصول إلى البحر الأحمر في أوقات السلم ، وظل هذا الأمر خافيًا على الشعب المصري حتى حرب 1967، وإن كان معروفًا وشائعًا على مستوى العالم.

وكان انسحاب القوات انتصارًا سياسيًا كبيرًا لمصر ولعبد الناصر شخصيًا، بل وللعرب أيضًا، وأصبح يوم 23 من ديسمبر عيدًا للنصر يحتفل به كل عام، وكان عمي عبد الفتاح رحمه الله يعمل في العريش إبان نشوب الحرب، وكان يروي لي الكثير عن الأيام الرهيبة لتلك المعركة، والانسحاب غير المنظم لجيشنا في سيناء، وكيف أنه قطع المسافة من العريش إلى شاطئ القنال سيرًا على قدميه، وكيف أنه كان يتوسل لراكبي السيارات من العسكر كي يحملوه معهم دون جدوى، وفي أيام عيد النصر التي كان يحتفل بها كل عام، كان يبتسم في مرارة ويقول: «أي نصر يا بني؟ لقد ذقنا الويل، وكان القتلى يزحمون الطريق..

وظللت أجرى حافيًا أيامًا وليالي حتى تقطعت أنفاسي..».

فكنت أرد عليه في حماس وأقول: «المهم المحصلة النهائية يا عمي.. ربما نكون قد اندحرنا على أرض سيناء، لكن العدو رحل، والبلاد تحررت، وأصبحت القنال لنا، فهل يوجد احتلال الآن؟».

كان يهز رأسه في حيرة ويقول: «هذا من فضل الله.. ربما تكون على حق.. المهم النتيجة النهائية..».

والواقع أن تصور عمي للنصر يكمن في سحق العدو، وعقابه بما يتلاءم مع جرمه، بل واختراق حدود إسرائيل، والدخول إلى الأرض المقدسة فلسطين، وتحريرها من قبضة الغاصبين.. كان ذلك هو النصر الذي يحلم به عمي، ويعتبره النصر الحقيقي الذي يجب الاحتفال به.

وبعد هذه المعركة، أخذ نجم عبد النصر في الصعود على المستوى المحلي والعالمي، وصدرت مئات الكتب وآلاف القصائد والتمثيليات والأغاني الرائعة تؤرخ للنصر العظيم، والبطل الذي هزم الدول الثلاثة، وأسقط حكومتي انجلترا وفرنسا لفشلهما في تحقيق الهدف المرجو من العدوان، وببساطة فإن الإعلام المصري أمكنه أن يستثمر ما حدث ببراعة فائقة.

وقبعنا نحن في السجون نلوك عذاب الليالي الطويلة، والقهر المتصل، والإهمال المتعمد، وما أصدق قول الشاعر القديم:

النـــاس مـــن يلقـــى خـــيرًا قـــائلون لـــه

مـــا يـــشتهي، ولأم المخطـــئ الهَبَـــلُ

وهكذا كيل للقائد ما يشتهي من مديح وثناء، وصُب على أعدائه مختلف التهم والإهانات، وأصبحت المعارضة البريئة خيانة، والرأى الآخر جريمة، وما جدوى المعارضة أو الرأي إذا كان النصر حليف الزعيم، وكان واضحًا أن قضية المسجونين من الإخوان لم يعد هناك مبرر لفتح ملفها أو إثارتها، حتى أعضاء الأمة، عندما تشجع بضعة أنفار منهم وأثاروا هذه القضية، كان رد وزير الداخلية زكريا محيى الدين قاطعًا وحاسمًا على النواب إذ قال: «هؤلاء ارتكبوا جرائم، وحوكموا بموجب قوانين جنائية معينة، وبالتالي فليس لدينا ما يسمى بالسجناء السياسيين..».

ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل تم فصل النواب الذين قدموا الاستجواب في المجلس، وعلى رأسهم النائب أبو الفضل الجيزاوي، الذي سيسجل له التاريخ هذا الموقف العظيم، بل قيل إنه تم اعتقاله فيما بعد..

وهكذا بدأنا نجني ثمار النصر إهمالًا واحتقارًا وعذابًا.

أما قصائدي عن المعركة والانتصار على العدو فقد ظلت تراثًا أخفيه تحت «البرش» الذي أنام عليه، لعل يومًا ما يأتي، وأنشر فيه هذه الخفقات التي اختلجت في قلبي، وانسكبت مع مداد قلمي..

****

[5] في التأديب

التأديب في السجون وسيلة من وسائل العقاب داخل السجن، وله لائحة خاصة، لكن سلطات السجون -بالنسبة للسياسي- كثيرًا ما تتخطى هذه اللائحة، بل تتجاوزها إلى عقاب أشد وأنكى، وحتى بالنسبة للسجين العادي فإن عقوبة التأديب تتخذ مسارًا فيه إضافات من الضرب والإيذاء التي لا توجد أصلًا في اللائحة المذكورة ، فإذا ما ارتكب السجين خطأ ما، فقد تكون العقوبة بالجلد، وفي هذه الحالة لابد أن يرسل محضر التحقيق إلى الإدارة العامة للسجون بالقاهرة للتصديق عليه، وقد تكون العقوبة ست جلدات أو أكثر طبقًا للخطأ الذي يقترفه السجين.

والسوط الذي يستعمل في الجلد له فروع أربعة حسبما أتذكر، ويؤدي بطريقة «قانونية» معينة، يقوم بها سجان خاص مدرب، فيربط السجين أولًا في «العروسة» وهي تصميم خشبي وذات فتحة توضع فيها رأس السجين واقفًا، ولها يدان أفقيتان تربط فيهما يمنى السجين ويسراه، كما أن بها بروزان أسفلها تُثبتُ فيها الأقدام، بحيث لا يستطيع السجين الإفلات عند ضربه على ظهره، وكل جلدة لابد أن تترك آثارها الدامية على ظهر السجين وهو المكان القانوني الذي يضرب عليه، ويكون تنفيذ العقوبة عادة أمام حشد من السجناء لكي يتعظوا ويعتبروا، وقد تكون جريمة السجين تافهة كأن يحوز مثلًا نصف شفرة حلاقة أو بعض الممنوعات الأخرى التي لا يسمح بحيازتها، وقد يكون الجلد بسبب التعدي على سجان أو على سجين آخر، وبالإضافة إلى الجلد يوضع السجين في مكان خاص يسمى «زنازين التأديب» لفترة قد تمتد إلى عشرة أيام أو أسبوعين أو أكثر ، وقد لا تكون العقوبة جلدًا، بل حبسًا في التأديب فقط.

والسجين الذي يوضع في التأديب يحرم من الاتصال بالآخرين منعًا باتًا طوال تلك الفترة، ولا يخرج من زنزانة التأديب إلا في الصباح الدقائق كي يملأ دلو الماء، ويرمي بما تجمع من البول في الدلو الثاني، ويقضي حاجته ثم يعود إلى زنزانته، ونفس الشيء وقت

العصر، ويظل السجين محبوسًا حبسًا انفراديًا طوال اليوم، ولا يفتح الباب إلا عند إعطائه الغذاء اليومي، والغذاء اليومي بالنسبة للسجين الموضوع في التأديب وجبتان فقط؛ أي رغيفان وقطعة جبن وكمية ضيئلة من الفول أو العدس، ولا يسمح له بشراء أي طعام من المقصف، وتمنع عنه الكتب والملابس الداخلية والحذاء والزيارات الأسرية، فلا يكون معه غير «برش» من السعف وبطانية، وهناك نوع من التأديب خاص بالذين لا ينجزون كمية العمل الموكولة إليهم، فإذا كان عليه أن يخيط أربع بذلات ولم يحقق ذلك، تكون العقوبة بوضعه في التأديب لمدة معينة، بالإضافة إلى مضاعفة كمية العمل، وإذا كان من المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة، فتكون كمية الصخر التي يقطعها من الجبل مضاعفة، وفي الجبل يكون لهم زي خاص أحمر «أقل احمرارًا من الزي الذي يلبسه المحكوم عليه بالإعدام»، ولهذا السبب يجمعونهم في مكان خاص للعمل ويسمونهم فرقة «الحمراء».

هذا ما يحدث طبقًا للائحة السجون المدنية، أما بالنسبة للسجين السياسي، فكما قلنا، ليست هناك قواعد ولا لوائح ولا قوانين للضرب والإيذاء، وليست هناك محاضر تكتب وأحكام تأديبية تصدر وتعتمد من الإدارة العامة لمصلحة السجون، فكل القواعد والقوانين تنتهك بالنسبة للسجين السياسي من حيث المدة وطريقة العقوبة وغير ذلك، ونادرًا ما تطبق لائحة التأديب «القانونية» على السياسيين.

في أحد الأيام جاءني في زانزانتي متهم «تحت التحقيق» من إخواننا الصعايدة، وكان مقبوضًا عليه بتهمة القتل أخذًا بالثأر، وكان يشكو من آلام شديدة في الظهر، جاء يطلب المشورة الطبية مني كطالب طب، فقمت بفحصه وأخذت أدلك له ظهره ببعض أنواع المراهم، كما أعطيته جرعة من الدواء المتوفر لدينا لعلاج الروماتزم العضلي، ومن سوء الحظ أن وقت التمام كان قد أزف، فلم يجده السجان في زنزانته التي تقع في الدور الأسفل تحتنا «دور واحد»، فما كان من السجان إلا أن أتى، وانتزع المتهم من بين يدي وأخذ يقذفني بأبشع أنواع السباب، فلم أجد مناصًا من أن أتصدى له بمجرد الكلمات وكانت كلماتي لا تخرج عن رفضي لهذا الأسلوب البذيء، وضرورة التزامه بالأدب واللياقة، واحتد الكلام، وعلت الأصوات، ثم أغلق السجان الزنزانة في غضب شديد، وهو يضغط على أسنانه مغتاظًا، ويرميني بنظرات متوعدة حاقدة، فوجئت -أنا وزملائي- بباب الزنزانة يفتح، ثم يأتي أربعة من العسكر الأشداء، وينتزعوني من بين يدي زملائي، ثم يهبطون بي السلم، ويعبرون باب

العنبر إلى ساحة السجن الواسعة خلف «ورش النسيج» في الناحية الغربية، وهناك وجدت دائرة من العسكر يقفون أمام الضابط «م.م» الذي أومأ برأسه إليهم دون أن يخرج يديه من جيبي السروال ويقول: «علموه الأدب».

وانقض عليّ العسكر من كل جانب، صفعًا وركلًا وضربًا بالأيدي والخيزران فإذا ما أفلت من واحد، تلقفني ثان، وهكذا دواليك، حتى دارت بي الأرض وسقطت مكومًا منهوك القوى لا أستطيع أن أبدى أدني مقاومة، كنت يومها مصابًا بما يشبه الأنفلونزا، وحرارتي مرتفعة، ولاحظت أن إخواني في عنبر 2، يراقبون المشهد المؤلم في ثورة تجلت في أصواتهم التي تصيح عبر النوافذ ذات القضبان الحديدية المتقاطعة، وفي أيديهم التي تلوح مهددة محتجة. ثم قال الضابط دون اكتراث: «خذوه إلى التأديب».

كان التأديب في العنبر الغربي بالدور الأرضي، وكان إخواني يسكنون في العنبر الشرقي «الدور الثاني»، وبين العنبرين ورشة النسيج وباحة السجن الواسعة، وهكذا وجدت نفسي وحيدًا منعزلًا في زنزانة صغيرة، ليس بها أي شيء من متاع الدنيا.. الأرض الباردة السوداء المكسوة بطبقة من الزفت المحبب، والنافذة الصغيرة، والباب المغلق، نظرت حولي بعيني المتعبتين، ثم ألقيت بظهري المنهك على الحائط الأجرب، دون أن أستطيع تجميع شتات أفكاري، لكن السجان جاء بعد فترة، ومعه أحد مسجوني الخدمات الذي رمى إلي ببرش وبطانية، ثم وضع دلوًا به كمية من الماء وآخر فارغًا للتبول.. ثم أغلقوا الباب، دون أن يتركوا لي شيئًا من الطعام..

كنت في حالة نفسية سيئة، لقد حط الظلام، ومعه البرد القارس، وجسدى يرتجف من الحمى والغضب، وعندما سمعت أذان المغرب أخذت أردده في شيء من الهدوء والتماسك، ثم تحاملت على نفسي وتيممت، وأخذت في الصلاة باستغراق وعمق، وشعرت آنذاك أن الله معي، وأن هناك أيد خفية تمسح على وجهي ورأسي وآلامي، وبعد أن انتهيت من الصلاة كنت أفضل حالًا مما سبق، وبدأت في قراءة «المأثورات»، وبعض سور القرآن الكريم.. كنت أجلس في رحاب الله مع الصمت والظلام والتأمل، وتذكرت كلمات للإمام تقى الدين أحمد بن تيمية قالها في سجنه: «إن حبسي خلوة، وقتلي شهادة، وإخراجي من بلدي سياحة، والمحبوس من احتبس قلبه عن ربه، والأسير من أسره هواه».

إن الله سبحانه وتعالى يمد الإنسان بالصبر والإيمان في مواقف الحرج والشدة، متى صدقت العبودية له، والاعتصام به، والتوكل عليه، قد يأتي البلاء، لكنه سرعان ما ينجلي، وقد تهاجم الأحزان؛ لكنها بعد فترة ترحل، وقد تشتد الأزمة، لكن المولى يأتي بالفرج، والمؤمن الحق هو الذي يرضى بقضاء الله وقدره، ويصبر على الابتلاء، وكأنه أراد سبحانه وتعالى ألا تسير الحياة على نمط واحد، حتى يرى الإنسان شتى المواقف والمنغصات، فيكتسب الخبرات ويعي الدروس، ويستعد لما تأتي به الأقدار من أحداث، إن حالة الأسى لن تدوم والمؤمن يثاب على كل ما يلقاه في سبيل دعوته، حتى الشوكة يشاكها له بها أجر، وقد يكون ما يلقاه الإنسان من عنت بابًا للعفو والمغفرة ومحو الذنوب، وما أكثر ما نذنب في هذه الحياة..

كان البرد شديدًا كما قلت، وأخذت أسعل بشده، حتى إن ذلك السعال أزعج جيراني في زنازين التأديب الأخرى، وقد كان جاري فلاحًا مسيحيًا من أسيوط اسمه «جرجس»، قال لي ونحن في دورة المياه في الصباح همسًا حتى لا يسمعنا السجان: «لقد كان سعالك يمزق قلبي».

ابتسمت له في ود وشكرته بنظرات عيني التي تشى عما بداخلي وعاد يقول: «لابد أن يبعث لك «الجماعة» بدواء..».

قلت: «كيف؟ إن الحصار من حولي شديد». وصمتنا عندما جاء العسكري، وعدت مسرعًا إلى زنزانتي، وفي هذا اليوم تسلمت وجبتي الطعام المختصر حسب لائحة التأديب، وقلت للسجان: «كم يومًا سأقضيها في التأديب؟».

- «ستعرف ذلك عندما تُعرض على مدير السجن».

- «ومتى يتم ذلك؟».

- «ومن أدراني؟».

ثم أغلق الباب، كان اليوم طويلًا بلا نهاية، لو أخذوا نصف طعامي وأعطوني كتابًا لحل جزء كبير من المشكلة التي أعاني منها، لكن هذا مستحيل، وبقيت طوال اليوم الأول في قلق وأرق؛ وكم كانت دهشتي عندما رأيت سجينًا صعيديًا يطل علي بوجهه من النافذة في الخارج

بعد العصر، ثم يقذف إلي بقطعة من الحلوى، وعلبة مغلقة صغيرة من سمك «التونا».. «السلام عليكم.. أنا فرغلي الحاج فرغلي.. عمدة «بني حسين»».

قالها، ثم اختفى.. أعني أسقط نفسه من علٍ، وسمعت صدى سقوطه بالخارج كان الأمر مفاجأة بالنسبة لي، إنني لا أعرف الحاج فرغلي إلا معرفة عابرة، كنت أراه لكني لم أحفظ اسمه، ولا أعرف شيئًا عن القرية التي أتى منها، ولا التهمة التي أُدين بسببها، لا أنكر أنني التهمت قطعة «الحلوى الطحينية» بعد دقيقتين، كان طعمها لذيذًا، وانحنيت على دلو الماء لأعب منه، لم يكن لدي كوب، ولا وسيلة للشرب غير ذلك، لكني بعد أن شربت فكرت في علبة «التونا» كيف أفتحها، ولابد أن أفتحها وآكلها الليلة، قبل أن يأتي السجان في الصباح ويضبطني متلبسًا بحيازتها، ومعنى ذلك عقوبة جديدة، إضافة إلى العقوبة التي لم يصدرها المدير بعد، ولم يكن أمامي سوى الانتظار حتى يحط الليل، ويسود الظلام، وبعد أن صليت العشاء، أمسكت بعلبة «التونة»؛ وأخذت أحكها بشدة في أرض الزنزانة السوداء المحببة، وطال بي الوقت وبذل الجهد حتى تفصد جبيني عرقًا، وبعد ساعة أو أكثر تآكلت الحواف المعدنية لعلبة «التونا» ثم سقط غطاؤها، ونفذت إلى خياشيمي رائحتها الشهية، وسالت كمية من الزيت على الأرض وعلي يدي، لكني أسرعت وأفرغتها في «القروانة» المصنوعة من الزنك أو الألومنيوم، ولم يكن لدي خبز ، لهذا أخذت أتناولها كما هي بشهية لا مثيل لها.. حلوى.. ثم «تونة» في ليلة واحدة؟ وفي «التأديب»؟ إنه فضل كبير من الله.

شعرت بالدفء أكثر، وأنا أجلس متلفعًا «بالبطانية» جالسًا فوق البرش الخشن، وحمدت الله.. لكن السعال يشتد، وأسمع «جرجس» يهتف بي ليلًا: «سلامتك يا دكتور» وأنا أرد قائلًا: «تسلم يا جرجس»؛ ويمتد ليل الشتاء البارد، وأنا أجوب الماضي البعيد بخيالي وفكري، وأتذكر تفاصيل حياتي التي تبدو كشريط سينمائي طويل.. القرية.. الأهل.. سكان قريتنا الطيبين البسطاء، ثم المدينة وأيام الغربة.. والصراعات السياسية والمعارك الطاحنة.. الثورة.. الإخوان.. السجن الحربي.. ونظرات الذئاب من رجال الأمن والسياط والدماء.. والموت.. والمحاكمات والمصير الذي لا يعلمه إلا الله وأشعر برغبة عارمة في القراءة.. أجل القراءة ذلك العالم السحري الرائع.. إن منعي من القراءة في حد ذاته عقوبة قاسية.. ولو أنهم سمحوا لي بمصحف لكفاني ذلك.. أفكار كثيرة تدور في رأسي، وأبيات من الشعر تتزاحم.. وتريد أن تخرج إلى الوجود كائنات على الورق.. والسعال يهزني هزًا عنيفًا، وكأنه مديّ تمزق

حنجرتي وصدري والشعب الهوائية.. وأظل شاردًا في دنيا الذكريات والأفكار والمشاريع المستقبلية والآمال، رغم الظلام الدامس، والدلائل السيئة التي لا تبشر بخير، وبرغم سياسة السحق والتكميم والتكدير المستمر، والإهانات البالغة التي نقاسي أهوالها، وتذكرت حكمة قديمة لا أدري أين قرأتها، إنها تقول: «علمتني الحياة أن أستخرج من المر حلاوة».. نعم حلاوة.. ربما تذكرتها بسبب «الحلوى الطحينية» التي أتى بها الحاج «فرغلي».. لكن لماذا الحاج فرغلي بالذات؟ لا أستطيع الإجابة، عليّ أن آكل أولًا.. وفي العمر -إن شاء الله- متسع لمعرفة ذلك فيما بعد..

جاء يوم الجمعة وأنا مازلت في التأديب، وسمح لي السجان بالاختلاط ببعض السجناء من أبناء الصعيد لمدة ساعة، كانوا كرماء معي، فقد قدموا لي في زنزانتهم كوبًا من الشاي الساخن، وحاولوا مساعدتي في حلق اللحية دون جدوى، فقد كانت شفرة الحلاقة غير حادة بالمرة، وبعد أن أتموا الحلاقة، وجدت الشعر كما هو تقريبًا.. لكنني شعرت أن وجهي يلتهب..

قبيل المغرب، بعد أن أغلق السجان نهائيًا باب الزنزانة، سمعت صوت الأخ الضابط السابق السجين نجيب عطية ينادي من النافذة، ولكي أستطيع أن أطل عليه، أحضرت دلو الماء، ووضعت قدمي على أطرافه حتى أستطيع الوصول إلى النافذة ورؤيته وقال لي: «لقد أحضرت لك قنينة دواء سعال «بنيلين»، وبعض الطعام.. اعذرنا.. نحن لا نستطيع الاتصال بك باستمرار نظرًا لأن عنبرنا الآن موضوع تحت «التكدير»، فقد حدث صدام بين إخوانك والضابط زكي، واختطفوا منه المسدس.. وكادت تحدث كارثة لولا لطف الله.. إنه أخطأ بإحضاره المسدس معه، وقد اقتنع المدير بذلك.. لكن كان لابد من اتخاذ بعض العقوبات والتكدير ضدنا.. وكان ما حدث لك أحد الأسباب التي أدت إلى سوء التفاهم بين الإخوان والإدارة..».

وودعني ومضى، وأثناء نزولي من فوق «دلو الماء» اختل توازني، فتدحرج دلو الماء، وانسكب كله على أرض الزنزانة، وأصبت بالذهول وأنا أرى تلك الكارثة وأسرعت بالتقاط «البرش» و«البطانية» قبل أن يطولها البلل، وإلا تعذر على النوم في ذلك الليل القارص.. ووضعت تلك الأمتعة البسيطة فوق الدلو الفارغ، ثم أخذت اغترف الماء المسكوب بيدي

وأضعه في دلو البول، لا أدري كم بقيت من الوقت أمارس هذا العمل في سرعة وحماسة، ثم انتزعت «طاقيتي الزرقاء» من فوق رأسي، وأخذت أكمل تجفيف الأرض بها، وأعصرها من آن لآخر، كنت أسعل بشدة، والعرق يندي جبيني وأشعر به يبلل جسدي، وبعد فترة طويلة استطعت أن أفرش البرش، وألتف بالبطانية وأستعد للنوم لكنني تذكرت الطعام، فقد كانت معدتي -بعد ذلك الجهد المضني- يعتصرها الجوع، وقلما يشبع الإنسان في السجن، فالتهمته التهامًا.. وفي اليوم التالي أرسلت إلى إخواني أطلب أن يبعثوا إلي بحذاء وجورب من الصوف مهما دفعوا مقابل ذلك من ثمن للسجان، وقد نجحوا في تحقيق هذه الرغبة، ثم جاء اليوم الذي سيأخذونني فيه إلى المدير لإصدار العقوبة.. كنت واقفًا أمام باب المدير، ومعي سجان آخر من الإدارة غير سجان التأديب..

قال لي السجان: «اخلع نعليك..».

قلت: - «لماذا؟».

- «لأنه لا يدخل مسجون على المدير إلا حافي القدمين».

كان حذائي من القماش الرخيص، وأخذت أشرح للسجان قصة سيدنا موسى حينما قال له ربه: ﴿فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى﴾[طه:12]، وقلت للسجان ليس المأمور إلهًا، ولست أنا موسى، ولسنا في الوادي المقدس.. بل في سجن لعين، فقال السجان في غضب: «لا نسمع منكم إلا الفلسفة.. وتَعْصُون الأوامر دائمًا».

ومر بنا في هذا الوقت الأخ اليوزباشي «مصطفى أبو دومة» مأمور السجن، وهو كما قلت من الرعيل الأول من ضباط الإخوان في الشرطة، وأدرك على الفور أن هناك خلافًا على نحو ما بيني وبين السجان، فسأل السجان عن الأمر فرد: «يا سعادة البك لا يريد أن يخلع حذاءه عند دخوله إلى المدير».

فقال مصطفى دون أن ينظر إلي، وهو مستمر في سيره إلى مكتبه: «وهل لائحة السجون تقول ذلك»؟

وفهمت على الفور أن لي حقًا لابد أن أتمسك به، ورفضت خلع الحذاء مهما كان الأمر..

ودخلت على المدير «اللواء عطوة حنفي» وكان ينظر في أوراق أمامه، كنت ثابت الخطى، رغم شحوب وجهي، وحشرجة صدري الذي يسمع صوت أزيزه أثناء تنفسي بالنسبة

للقريب مني، وألقى عليّ نظرة عجلى ثم أصدر حكمه دون تحقيق أو حتى مناقشة وقال: «خمسة أيام في التأديب... امش».

فدفعني السجان في غلظة إلى الخارج كما هي العادة المتبعة في وجود المسئولين الكبار.. كنت أحسب أن مدة العقوبة قد انتهت، فقد قضيت خمسة أيام في التأديب، وهذا هو اليوم السادس، لكن للأسف فإن العسكري –عندما قلت له ذلك– أخبرني بأن التنفيذ يبدأ بعد تقرير المدير، وما قبل ذلك –مهما كانت المدة– لا يوضع في الحسبان..

وعدت إلى الخندق الضيق وحدي مع الألم والضيق، لكن النجدة كانت تأتيني دائمًا عندما ألوذ بذكر الله ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ [الرعد:28]، وأحاول أثناء عبادتي أن أنسى الدنيا من حولي، فتشرق روحي بلون من الفرح عجيب لا يمكن وصفه في كلمات، إنها تحلق في سماء عالية شفافة فيها زرقة مريحة تهدئ من اللوعة والأشجان، حتى لكأن ذكر الله معراج يصعد بالروح إلى آفاق طاهرة نقية لا يشعر بها حزن ولا أسى ولا شجون.. حتى عندما كنت أناجي ربي، والدموع تبلل أهدابي، أشعر بتلك النشوة العجيبة.. فرح ودموع.. كيف يلتقيان؟ إنها سر من أسرار الخلق، وكم في النفس الإنسانية من أسرار!!

وفي نهاية أيام التأديب حملت فراشي البسيط، ووليت وجهي شطر العنبر الشرقي الذي يقيم فيه الإخوان، وفي الدور الثاني، وجدت الأذرع المفتوحة، والعيون الباسمة الفرحة، والكلمات الحلوة، وتجمع الأحباب من حولي، وكأني عائد من سفر طويل.. طويل.. أصبحوا هم أحبابي وأهلي وعشيرتي وكل دنياي.. ﴿ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾ [الأنفال: 63] ها هو أخي أنور حسانين.. ومحمود هاشم «الشهير بحاتم»، وحسين عاشور، والحاج عبد العزيز عبد الجواد، وفؤاد شاكر، وحسين عبد المعطي، ورجب الخميسي، وأبو بكر عثمان، ويحيى عبد الرحمن و.. و.. و.. وغيرهم كثيرون.. وقال لي بعضهم على طريقة السينما المصرية لمن يخرج من السجن: «كفارة يا معلم.. تعيش وتاخد غيرها...».

ويضحكون.. وأضحك.. وآثار دموع تتألف في العيون الطيبة الصابرة.. جلست في ركني المعهود، وشردت ببصري إلى بعيد، وقلت: «إلى متى هذا العناء؟» قال الأخ أنور حسانين «رحمه الله»: «عندما ينتهي صراع الحق والباطل، وينتصر الخير على الشر..».

- «أيمكن أن يتحقق ذلك؟».

- «لا يستطيع الإجابة على ذلك غيره..» وأشار بسبابته إلى السماء.

حاول أحد الإخوة التحول إلى جو المرح، وقال مقلدًا الممثل الشهير يوسف وهبي: «هيه.. ما الدنيا إلا مسرح كبير...».

وأسكتوني بكوب ساخن من الشاي، ومر السجان صاحب المشكلة، والذي وشى بي إلى الضابط، وأضاف إلى ما حدث الكثير من أكاذيبه وأباطيله، وقال وهو يرمقني بنظرات لا تعرف الحياء: «حمدًا لله على السلامة.. حقك يا دكتور.. النظام نظام..».

لم أجد مبررًا أو جدوى من أن أرد عليه، أو أبادله الحديث، حقيقة لقد كرهته، إن العسكر في الحقيقة لا يخلون من أناس طيبين، يقدرون ظروف السجين، ويدركون أبعاد مأساته، ويتصرفون مع السجناء كآدميين لهم حقوق، ولا يضخمون الخلافات، أو يختلقون أسبابًا للإيذاء، لكن السجان «عبد اللاه» كان عنيفًا قاسيًا، ميت العواطف والمشاعر على الأقل – حسبما نرى- في تعامله مع المسجونين، لقد كرهته، لأنه يجعل الإدارة الظالمة فوق مبادئ الرحمة والمبادئ والسماحة التي أوصى بها رسول الله ﷺ، وكنت متحمسًا للعمل على نقله من عنبرنا بأسلوب أو بآخر، ولم يهدأ بالي إلا بعد أن تم ذلك.. وعلى الرغم من مشاكلنا، وحساسية وضعنا، إلا أن السجانين الذين يتناوبون في عنبرنا يفرحون بذلك، لأنهم يستفيدون منا ماديًا.. لشد ما كانت شهيتي للقراءة مفتوحة.. وللكتابة أيضًا.. إن «الحبس الانفرادي» شديد القسوة، وخاصة إذا حرمت من كل وسائل قضاء الوقت، لكنه بالنسبة لي كان فترة مهمة، تعلمت منها كيف أعتكف عند الضرورة، وأتفرغ لعمل جاد، أو إنجاز دراسة ما، أو لمجرد الذكر والعبادة، وخاصة في عقد الأربعينيات والخمسينيات من عمري.

إن الاعتكاف أو الخلوة تعتبر ضرورة في كثير من الأوقات للعديد من الأسباب..

****

[6] مع أصدقائي المذنبين

لم نكن نعيش في السجن كإخوان مسلمين منعزلين عن باقي السجناء، فالعزلة في هذا المجتمع الصغير غير ممكنة، وغير مفيدة في نفس الوقت، فضلًا عن أنها تتنافى مع أبسط قواعد الدعوة التي ندعو الناس إليها، والواقع أن الاختلاط بالسجناء الآخرين له حدوده وتقاليده، كما إن له نظامه وترتيباته. ولقد تخبطت سياسة الحكومة إزاء هذا الموضوع ففي المعتقلات كنا معزولين دائمًا، فلا يسمح لنا بالاختلاط بأحد، كانت التعليمات للعسكر مشددة بألا يعقدوا معنا أية صلات أو صداقات حتى لا نجرهم إلى مساعدتنا في نقل رسائل للأهل، أو نأخذ عنهم أخبارًا، أو نخفف من عدائهم لنا، وهم الذين يحملون السياط، وينفذون عمليات التعذيب أثناء التحقيق، وفي غير أوقات التحقيق أيضًا، فإذا أراد أحدنا الحديث مع أحد منهم تجهم وجهه وأسرع برفع سوطه، أو انصرف عنه دون أن ينطق.

ولقد بلور ذلك المعنى أحد العسكر -وكان من بلديات أحد الإخوة- هذا المعنى بقوله: «أنا لا أرى.. لا أسمع.. لا أتكلم»، لكننا بعد أن انتقلنا من المعتقلات إلى السجون المدنية، تغير الوضع، وأصبح السجانون والمسجونون -على حد سواء- يتعاملون معنا في معظم الأحيان، ونستثني من ذلك فترات «التكدير» والصدام..

في هذه السجون المدنية تخبطت سياسة الحكومة، مرة تأمر بتسكيننا مع هؤلاء المساجين العاديين، ومرة أخرى تسمح لنا بدور مخصص، ثم تعود مرة أخرى فتأمر بتسكيننا معهم، والحقيقة أن هذه السياسة أو تلك لم تكن بمانعة من التعامل والتفاهم والتعاون مع هؤلاء السجناء؛ لكننا كنا نفضل أن يحدد لنا مكان معين نستطيع أن نطبق فيه القواعد والشروط الصحية، وأن نحافظ فيه على بعض خصوصياتنا، فنحن لنا برامج في القراءة وتنظيم الأسر، ومساعدة بعضنا البعض عند الحاجة في مجال المصروفات وإعداد الطعام والعبادات وغير ذلك من الأمور الأخرى التي لا يمكن أن تتم في سكن مختلط، لقد دفعنا مثلًا من جيوبنا الخاصة ثمن إدخال النور الكهربائي إلى الزنزانات الخاصة بنا، وبعدها بفترة أدخلت الحكومة

النور في زنازين الآخرين دون أن تكلفهم شيئًا، وكنا نطلب الفرق الصحية لتطهير العنبر بالمبيدات الحشرية، كما كنا نستخدم بعض المطهرات والستائر أثناء الاستحمام أو دخول دورة المياه، بينما السجناء الآخرون لا يهتمون بمثل هذه الأمور، رغم محاولة إقناعهم بها.

لقد كُلّف الإخوة بعمل اتصالات مع بعض العسكر والمساجين العاديين وذلك لشراء - أو بعبارة أدق- لتهريب بعض ما نحتاجه من الممنوعات كالشاي والسكر والزيت، وشفرات الحلاقة وبعض الملابس، وبعض الأطعمة التي لا يسمح بتواجدها في المقصف، وهناك أيضًا تهريب الرسائل، لأن الرسائل التي سمح لنا بها في الفترة الأخيرة كانت لا تتجاوز نصف صفحة، ولابد أن يقرأها الضابط المختص ويعتمدها، ولا يكتب في الرسالة سوى التحيات والتسليمات، لكن الرسائل المهربة كانت شاملة، بحيث نكتب فيها كل ما نريد عن إدارة الأمور المالية أو الاقتصادية، وإبداء المشورة في كثير من القضايا الأسرية، كما يمكن أن نضمنها عند الضرورة أخبارنا ومدى ما نتعرض له من تكدير وعقاب ومظالم حتى يعلم أهلونا حقيقة أوضاعنا، وقد نحرض الأهل على إرسال شكاوى بخصوص الإهمال في علاج المرضى منا، وغير ذلك من الأمور الحياتية المختلفة.

كما إن اتصالنا بالمسجونين أحيانًا ما كان ينقل إلينا بعض ما تنويه الإدارة من مضايقات لنا كالتفتيش المفاجئ، أو تدبير بعض الفتن، أو الإيقاع بنا في مشاكل لاختلاق أسباب للإهانة والتكدير، ومن الطبيعي أن تلعب الإدارة معنا نفس اللعبة كأن تدس بيننا بعض عملائها من المسجونين الذين تعتقد أننا نثق بهم، كي ينقلوا إليها أخبارنا. لكن بمرور الزمن، وطول مدة الحبس، توطدت العلاقة بيننا وبين عدد كبير من المساجين، وخاصة أولئك القدامى الذين يستطيعون تقديم الخدمات لنا، وإن كان كل خدمة لها ثمنها، كما توطدت العلاقة بين بعضنا وبين عدد من العسكر والضباط، وكلما مرت الشهور تحسنت الأحوال، لكن يا ويل من يُمسك به متلبسًا من المسجونين وهو يسلم لمندوبينا بعض الاحتياجات الضرورية الممنوعة، إن أبسط عقوبة له هي الضرب والحجز في التأديب، ثم منعه منعًا باتًا من الاتصال المباشر بنا.

كان بسجن أسيوط سجين يبدو أبْلَهَ، ويتصرف كما يتصرف الأطفال، وقد قرر الأطباء أن يعامل برقة كما يعامل الطفل، وكان هذا المسجون ولنسمه «س» يقلد الأطفال في حركاته وكلامه وتعبيرات وجهه ونظرات عينيه، ولهذا كان يسرح ويمرح في فناء السجن كيفما يشاء،

والغريب أن هذا السجين الصعيدي كان من أهم الشخصيات التي تقوم بتهريب احتياجاتنا، كنت أجلس معه أثناء التعامل، فأراه رجلًا عاديًا ترتسم على وجهه سيما الجد والصرامة والرجولة، ويقوم بإجراء العمليات الحسابية بدقة وذكاء، لكن إذا ما رأى أحد الضباط قادمًا ظهرت على الفور أمارات البلاهة والغباء في وجهه، ولم يكن أمره مكشوفًا إلا لنا، ولعدد محدود من العسكر الذين يتصل بهم لتسهيل مهمة الأشياء المهربة، وإيصالها إليه، ثم إلينا، أو إلى مسجونين آخرين، ولقد كنت شديد الإعجاب بذكاء هذا الرجل، وتمثيله دور الأبله بمهارة وثقة وإتقان.. ومن الشخصيات الأخرى السجين العائد «ذو السوابق العديدة» محمود.. كان محمود لصًا محترفًا، دخل السجن بسبب السرقة أكثر من عشرين مرة، لقيته أول مرة وأنا واقف خلف الباب الحديدي للعنبر الذي نسكن فيه، في انتظار السجان كي يفتح لي وأخرج إلى فناء السجن.. وجدت محمود يقترب مني ويقول: «هل صحيح يا أستاذ كنتم تريدون الحكم بالشريعة؟».

بدا لي السؤال تحصيل حاصل، ولم يغب عني أنه يريد أن يتحدث معي لشيء في نفسه، ومع ذلك قلت في اقتضاب: «نعم صحيح..».

اقترب مني أكثر، وقال بصوت واضح قوي: «يا سبحان الله، وهل هناك أحسن من حكم الله؟» ثم أخذ يشرح لي كيف أن انحرافه إنما كان بسبب الظلم، وأنه لم يلجأ للسرقة إلا بعد أن أعيته الحيل في إيجاد عمل شريف، أو الحصول على رزقه من طريق حلال، مما جعله يفقد الثقة في الناس.

«الناس وحوش يا أستاذ، لم أر في قلوبهم رحمة ولا إيمان».

«أنت نفسك رأيت كيف عاملوكم لأنكم طالبتم بالشريعة .. بالعدل.. لو كان فيه عدل ما أكل الناس بعضهم البعض».

«السجانة يعاملوننا كحيوانات.. هؤلاء بقر في صورة بشر يا أستاذ».

كل ذلك وأنا أنظر إلى وجهه الشاحب النحيل المغبر، وإلى يديه المعروقتين اللتين تتشابكان بقضبان الباب، وإلى إحدى عينيه المعتمة، وعوده الضامر، ووجدتني أقاطعه قائلًا: «هل تعرف القراءة؟».

رد بسرعة:

- «طبعًا يا أستاذ.. ليس عندي شهادة، لكني أجيد القراءة والكتابة.. وأحفظ عددًا من سور القرآن..».

وأراد أن يثبت ما يقول، فأخذ يقرأ عددًا من السور الصغيرة، وأنا أستمع إليه، ثم قلت: «وما تهمتك؟».

- «سرقة.. سرقة بالإكراه.. كل من في السجن يعرفني.. أنا محمود..».

- «وهل يسرق من يحفظ جزءًا من القرآن؟».

- «الجوع كافر يا أستاذ.. السرقة أو الموت، والله لا يرضى أن أموت جوعًا.. أنا في رقبتي خمسة من البشر..».

وفجأة أمسك بيدي في ضراعة وقال: «أرجوك.. أريد مصحفًا أقرأ فيه ثم أعيده إليك.. من يدري؟ لعل الله يهديني على يديك!! قل لي.. ما اسم حضرتك؟».

واستطاع بذكائه وإلحاحه أن يجعلني أعود إلى زنزانتي وأحضر له مصحفًا صغير الحجم، وما إن سلمته المصحف حتى أشرق وجهه بالفرحة. ثم رفعه إلى فمه وأخذ يقبله في حرارة، وسرعان ما فتحه وأخذ يقرأ في سورة «يس» ليثبت لي أنه يجيد القراءة.. وبعد قراءة بضع آيات، أغلق المصحف وقال: «ألا أجد عندك «بصلة».. واحدة فقط».

وضحكت، لكني عدت مرة أخرى إلى الزنزانة، وأحضرت له ثلاث بصلات، وقطعة من «الحلوى الطحينية»، ثم اختفى.. بعد أن فتح السجان باب العنبر الذي أخذ المسجونون يتدافعون منه إلى الفناء، وفي صباح اليوم التالي وجدت السجان يهتف باسمي عاليًا، فأسرعت خارج الزنزانة لأتبين ما الأمر، ونظرت إلى الدور الأرضي، فوجدت السجان ممسكًا بملابس «محمود» من أعلى الكتف، ويدفعه أمامه في غلظة، ويكيل له الصفعات، وما إن رآني السجان حتى أخذ يحتج ويعتب علي في عنف وغضب شديد، وما إن نزلت إلى الدور الأرضي، حتى بدأت في تهدئة السجان الثائر، فأفهمني أنه من الخطأ أن أعطى «المصحف» لهذا المذنب اللص «النجس» -على حد تعبيره- لأنه استغل المصحف في السرقة، كيف؟ جلس محمود يقرأ في المصحف بصوت منغم عالٍ بجوار المقصف، وأثناء القراءة، كان يغافل البائع ويمد يده ليسرق علبة سجائر، أو علبة الطعام المحفوظ، حتى تنبه البائع وأمسك به متلبسًا.. وأعطاني السجان المصحف مؤكدًا على ألا أقع في هذا الخطأ مرة أخرى، وألا أتعامل

مع مثل هؤلاء اللصوص الأوباش، ولم يترك محمود إلا بعد أن لقنه درسًا قاسيًا، حتى احمر قفاه ووجهه من الصفع وأقسم أنه لو رآه في عنبرنا مرة أخرى لجلده، ثم جره جرًا إلى خارج العنبر.. وأخذت أتابعه بألم وعطف رغم خطئه، ولكن محمود لم يجرؤ على الاقتراب من عنبرنا بعد ذلك، غير أنه كان يلتقي بي أثناء «الفسحة» في فناء السجن عصر كل يوم، كان يفهم في السياسة، وله نظرات في الظلم الاجتماعي والفساد والطمع الذي تفشى، وكانت له تحليلاته وتبريراته التي تتفق ومنطقه، لكنه كان يؤكد في كل مرة –لا أدري صدقًا أم كذبًا– أن الحكومة لو طبقت «الشريعة» لما كان هناك مجرم ولا لص ولا محتال.

وتعرضت ذات مرة للإصابة بإنفلونزا حادة والتهاب بالشعب الهوائية مما جعلني ألزم فراشي –أعني «برشى» في زنزانتي لبضعة أيام، لم أستطع خلالها النزول إلى فناء السجن، وذات يوم فوجئت بمحمود يدخل عليّ الزنزانة وهو يتلفت في خوف يمنة ويسرة، ثم جثا إلى جواري على ركبتيه، وأمسك بيدي في حنان، والدموع تترقرق في عينيه، بل همّ بتقبيلها لولا أني انتزعتها منه بسرعة.. كان يقول: «سلامتك ألف سلامة.. كان لابد أن أزورك وأطمئن عليك حتى ولو جلدوني..».

لكنه مع ذلك كان قلقًا مضطربًا في جلسته، ومن آن لآخر يمد بصره عبر الباب مخافة أن يضبطه السجان، ولهذا أردت أن أحميه من شر العقاب، فشكرته وأشرت عليه بأن يمضي في حذر وخفية كي يصل آمنًا إلى «عنبره» في الناحية الأخرى، ولم أنس أن أزوده ببعض الأطعمة وبرغيف وسيجارة.. وبصلة كبيرة.. وأخذ ما أعطيته وهو يقول بإخلاص: «والله ما أتيت إلا لأطمئن عليك...».

وفر محمود هاربًا في لمح البصر، فتنهدت في ارتياح، لكني علمت بعد ما يقرب من ربع ساعة أن السجان أمسك به، وأشبعه ضربًا، وأخذ منه الطعام، ورماه في المكان المخصص للنفايات.

إن أمثال محمود لا يزورهم أحد في السجن، وليست لديهم أية مبالغ من المال ليشتروا شيئًا من المقصف، إنهم يعيشون على الغذاء المحدود الذي يصرفه لهم السجن، لكن قد يجلس إلى جوارهم مساجين آخرون يستمتعون بأشهى وألذ الأطعمة المهربة، ولا يفكر هؤلاء في أن يجودوا على محمود وأمثاله بشيء منها، فكل سجين غالبًا لا يفكر إلا في نفسه..

واستمرت علاقتي بمحمود فترة طويلة رغم المنغصات ومضايقات السجان القاسي، كنت أشعر نحوه بتعاطف حقيقي رغم جرائمه العديدة، ولم يحاول مرة أن يسرق مني شيئًا، أو يخدعني، كان يكاشفني بما يدور في نفسه، وكان يطلب مني أن أساعده في البحث عن عمل شريف عندما نخرج من السجن، ويقسم أيمانًا مغلظة أنه لو تم ذلك فسوف يحيا حياة شريفة مستقيمة، وسيصبح منا، ويطالب بتطبيق الشريعة معنا، حتى ولو سجنوه بسبب ذلك، لأن السجن في مثل هذا الحال -كما يقول- شرف أي شرف.

وذات يوم سمعت «محمود» يهتف باسمي وهو في الدور الأرضي، وأطللت عليه، فوجدته حزينًا دامع العينين، يحمل برشه وبطانيته تحت إبطه، ورفع إلي وجهه الشاحب قائلًا:

- «مع السلامة..».

- «ترحيل إلى سجن طرة.. لقد حكم علي بالسجن ست سنوات أشغال شاقة.. في الجبل.. وسأسافر غدًا..».

كان السجان يقف إلى جواره هذه المرة.. إنها المرة الوحيدة التي يسمح له فيها بذلك، لأنها رغبة أخيرة.. «من يدري.. فقد تتلاقى الوجوه في يوم من الأيام إن كانت بقية من عمر..».

قالها والسجان يجذبه ناحية باب العنبر، وأخذ محمود يتوارى بعيدًا، ينقل خطاه الواهنة إلى المجهول.. كادت الدمعة تطفر من عيني.. ست سنوات أشغال شاقة؟ ومن أجل السرقة؟ وقال أحد الإخوة الخبراء:

- «إن اللص كلما كرر جريمة السرقة، تزداد العقوبة كل مرة.. تبدأ بشهور.. وبعد «السوابق» الكثيرة.. تتحول عقوبة السجن إلى عقوبة أشغال شاقة في الليمان.. إن أمثال هؤلاء الناس معتادي الإجرام يعيشون في السجون أكثر مما يعيشون خارجها.. وهكذا تصبح الحياة في السجن هي القاعدة، والعيش خارج السجن هو الاستثناء وهل نسيت أن بعض السجناء كان يرفض الإفراج عنه، ويتشبث بالبقاء في السجن، حتى ولو افتعل جريمة جديدة قبل أن يخرج كأن يتطوع بالإبلاغ عن نفسه بأنه يحوز بعض المخدرات؟ مثل هؤلاء لا يعرفون الاستقرار إلا في السجن فالغذاء مكفول، وإن كان في حده الأدنى، والمأوى متوفر وإن كان زنزانة ضيقة، والفراش موجود وإن كان «برشًا وبطانية» والملابس لا إشكال فيها

فهي رخيصة وتافهمة ومتوفرة بالمجان.. ومجتمع السجن هو المجتمع الذي ألفه وعرفه.. أما الطموحات والآمال فلم يعد لها جدوى أو قيمة اللّهم إلا في حالات نادرة.. عند من يهيمون في أحلام اليقظة..».

كان لي طوال فترات السجن أصدقاء كثيرون متنوعون، منهم من تخصص في النصب والاحتيال، أو التزوير وتزييف العملة، أو القتل، أو تجارة وحيازة المخدرات، أو الاختلاس، لكن جرائم القتل والثأر كانت تشكل نسبة كبيرة في سجن أسيوط، أما في سجن القاهرة فكانت الجرائم الغالبة من نوعية أخرى تتعلق بالسرقة والانحرافات المالية والأخلاقية وغيرها، وكانت هناك جرائم غامضة يجد الإنسان نفسه حائرًا حيالها، وأذكر من هذه الجرائم جريمة رجل يدعى «الشيخ عبد المجيد» وقد وردت شخصية مستوحاة منه في روايتي «ليل وقضبان» التي أخرجت فيلمًا سينمائيًا.

كان الشيخ عبد المجيد محكومًا عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة، وبعد أ ن قضى سنوات في «ليمان طرة» يكسر الحجر في الجبل، وتقدمت به السن، ثم ترحيله إلى السجن المركزي في محافظته وهو سجن أسيوط، حيث يعيش في هذا السجن الأخير دون عمل، ويظل ينتظر انتهاء المدة كي يفرج عنه، ومن العجيب أن «عبد المجيد» كان يعرف الكثير من الأحكام الفقهية، وحفظ القرآن في صغره، ويستطيع أن يجادل في بعض الأحكام، ويدلي بالأسانيد والنصوص، لكنه كان يصاب من آن لآخر بنوبات من الخرف أو قل الجنون، فيخلط في الكلام، ويخرج من موضوع إلى آخر، ويتحدث عن أشياء خرافية، ويحكي تفاصيل غريبة لا تُصدق، ففي بعض الأحيان تراه يتحدث بمنتهى الرزانة والمنطقية، وفي أحيان أخرى ينقلب الحال إلى النقيض، وفي حالاته الطبيعية كانت هناك عبارة تقلب حاله قلبًا في لحظات، هذه العبارة هي «نبيهة بنت حسن عرفات» حاولت كثيرًا أن أتقصى أخبار «نبيهة» هذه، من تكون؟ وما علاقتها به؟ لكنني لم أجد الجواب الشافي، كان الشيخ عبد المجيد يحب الجلوس معنا أثناء «الفسحة» في العصر، ونتبادل معًا شتى الأحاديث.. وكلما حاولت أن أسأله عن «نبيهة» سرعان ما يحتقن وجهه، وتجحظ عيناه، وينطلق في حديث ثائر، يصحبه الزبد والرذاذ، فنندم على أننا قد نكأنا جراحه.. كان يقول: «نبيهة بنت حسن عرفات» وباء أصفر.. إنها جاسوسة يهودية.. إنها تزعجني طول الليل، تبعث إلى موجات صوتية وإشعاعات.. أي والله إشعاعات فلا أستطيع النوم.. تريدني أن أجن أو موت.. الخيانة هي.. لا تستحق إلا

الإعدام.. الحكومة جاهلة ولا تعرف عنها شيئًا... انظروا كيف أسد أذني حتي لا أسمع صوتها..

وننظر فنجد إنه قد وضع على أذنيه أغطية من الصفيح مبطنة بقطعة من القطن «غالبًا ما تكون أغطية لعلب الفرنيش أو الورنيش التي كانت تستعمل قديمًا لتلميع الأحذية» ثم يلف عليها شالًا أبيض حول الرأس والأذنين.

كان عبد المجيد مسليًا ومحدثًا لبقًا، لديه الكثير من القصص والتجارب، ويعرف الكثير عن تقاليد وطباع إخوتنا في الصعيد «الوجه القبلي»، وعلى الرغم من حيرتنا حيال جريمته إلا أن الحكم عليه بالأشغال الشاقة يعني أنه قاتل، وقد قيل إنه قتل «نبيهة» زوجة أخيه، وقيل أيضًا إنه لم يقتل نبيهة ولكنه قتل أخاه، وأشياء أخرى قيلت، لكن الحقيقة ظلت ضائعة، ولعل ملف القضية هو الذي يكشف وجه الصدق، وأين هو ملف القضية؟ لكن يبقى عبد المجيد الذكي والمحدث اللبق و.. المجنون في كثير من الأحيان، والمؤكد أن وضعه العقلي – رغم كل ذلك– ليس في حالة طبيعية، قد يكون ذلك بسبب ملابسات الجريمة التي اقترفها، وظل شبحها يطارده، وقد يكون بسبب المدة الطويلة التي قضاها في ليمان طرة وفي سجن أسيوط الله وحده يعلم..

وهناك العم «عبد الرحيم» زميل الشيخ عبد المجيد في زنزانته، إنه أيضًا رجل متقدم في السن، قضى فترة الليمان، ثم أحيل إلى سجنه المركزي، وأعتقد إنه كان متهمًا بالقتل، وهو في أثناء وجودي بسجن أسيوط في الستين من عمره تقريبًا، وقد أفرج عنه بعد قضاء سنوات طويلة لأنه كان محكومًا عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة، لكن الغريب والمذهل أن عبد الرحيم عاد إلى السجن مرة أخرى بعد أربعة أو خمسة أشهر، بتهمة قتل جديدة.. كيف يمكن أن يحدث ذلك؟

كان عبد الرحيم صديقنا هو الآ خر، لكنه يختلف كثيرًا عن الشيخ عبد المجيد المتوتر المضطرب أو المشوش الذهن عندما تنتابه الأزمة، عبد الرحيم مبتسم دائمًا، يجيد لعبة العصا، ساخر من الحياة لا يعبأ بالسن ولا بالمرض ولا حتى الموت، لا يتهيب المستقبل، ولا يتبرم من الحاضر، قلما تجده مهمومًا أو مكروبًا، لكن رجل في مثل سنه وتجربته المريرة كيف يجرؤ على القتل مرة أخرى؟

كان عبد الرحيم سعيدًا عندما تقابلنا معه بعد إعادته إلى السجن، لم تفارقه سخريته وابتسامته، لكأن الجريمة التي ارتكبها أمر عادي لا يثير استغرابًا، لقد تحجر قلبه، من جراء الأحقاد وليالي السجن وأيامه القاسية كما هو واضح، لكن ألم تردعه شيبته وشيخوخته؟ لقد قال في معرض الدفاع عن تصرفه ذلك: «في المرة الأولى اتهموني ظلمًا، كان أخي الأصغر هو القاتل، لكنهم ألقوا بالتهمة علي، وأجمع الشهود على ذلك، وكان بيننا وبين أسرة القتيل ثارات قديمة، أتدرون لماذا اتهموني أنا؟ ليضربوا عصفورين بحجر.. أدخل أنا الليمان.. ثم ينفردون بأخي الأصغر القاتل.. وقد قتلوه فعلًا وأنا سجين.. بل في العام الأول من سجني.. لقد ترملت زوجته وتيتم عياله.. وكذلك زوجتي وأولادي رغم أني حي أرزق .. لكني في السجن.. عندما خرجت كان لابد أن آخذ بثأري.. فهم حبسوني ظلمًا.. وآخذ بثأر أخي.. هذا هو قانوننا هنا.. وإذا لم أفعل ذلك فسيركبني العار أبد الآبدين...».

قلت له: «سيثأرون من أولادك».

- «فليفعلوا إن استطاعوا..».

- «ولن تجف الدماء أبدًا يا عم عبد الرحيم...».

هز رأسه وهو ما زال يبتسم وقال في سخرية: «أعرف.. وهي لم تجف أبدًا في يوم من الأيام.. هذا قانون يا ولدي..».

- «إن «قانون الله» أعظم».

وضع يده على كتفي وقال:

- «وقانون الله يقول ﴿وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ﴾ [المائدة:45] ويقول ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [البقرة:179] لكن الحكومة لا تعرف قانون الله.. تقتُلُ إنسانًا فيحكم عليك بالسجن سنة.. خمس سنوات.. عشرة.. وربما براءة.. ثم تخرج ويراك أهل القتيل فتغلي الدماء في عروقهم...».

ثم قطع حديثه فجأة وقال:

- «انظر.. عيني محمرة.. أليس عندك قطرة أو مرهم للعين..».

قهقه مرة أخرى في سخرية وقال: «هيا وأحضر القطرة.. عيني تدمع باستمرار، والموت لابد قادم.. والأعمار بيد الله يا ولدي.. يكفي أن أهل بلدي كانوا ينظرون إلي باحترام وأنا عائد إلى السجن للمرة الثانية.. وزغردت النساء.. كانت زوجتي هي الأخرى تزغرد.. وبناتها كذلك.. لكن أقول لك الحق.. كانت الدموع تنسكب من عيونهن..».

الحقيقة أن مشكلة «الثأر» في الصعيد مازالت مشكلة عويصة، وعلى الرغم من أنها تؤرق ذلك المجتمع، وتكبده أفدح الخسائر إلا أنها مازالت متغلغلة فيه، وأغلب المساجين -كما قلنا- في الصعيد بسبب مصيبة الأخذ بالثأر، رغم التوعية والأفلام السينمائية والمسلسلات التليفزيونية ورغم الدراسات الاجتماعية العديدة التي أجريت عنها، إلا أن الشيء المهم والملفت للنظر أن الذين انضموا إلى «الإخوان المسلمين» من أخوتنا الصعايدة قد تأثروا بتعاليم الإسلام و أحكامه وآدابه، وأمكنهم التخلص من هذه التقاليد وبذلوا جهودًا دائبة في مكافحتها وحققوا قدرًا لا بأس به من النجاح، وقد استطاع الإمام الشهيد حسن البنا في الأربعينيات من القرن العشرين، أن ينجح في إتمام الصلح بين عدد من العائلات الكبيرة في الصعيد أثناء جولاته العديدة لنشر دعوته، وقد أشار عدد من المؤرخين المعاصرين لجهوده في ذلك المجال حتى إن المؤرخين اليساريين أنفسهم أثبتوا شيئًا من هذا في كتاباتهم، أذكر منهم الأستاذ الدكتور مكي، كما سجل ذلك أيضًا الأستاذ محمود عبد الحليم في ثلاثيته عن تاريخ الإخوان، والأستاذ أنس الحجاجي وهما من الإخوان وغيرهما كثيرون..

لا أستطيع أن أتناول بالتفصيل أصدقائي المذنبين، فهم كثيرون، وبعضهم كان يزورني في السجن بعد خروجه، وإنما أردت أن أشير إلى بعض النماذج هنا، كما أشرت إلى نماذج أخرى في أجزاء هذا الكتاب، فضلًا عما ذكرته في كتابي «المجتمع المريض»، وما ورد في بعض رواياتي وقصصي الكثيرة التي تعرضت للسجن أو السجناء في مختلف الجوانب، وما أكثر ما تعرضت للسجون والسجناء في كتاباتي القصصية!

****

[7] نساء مجاهدات

. كانت المحنة التي عاني منها رجال الإخوان المسلمين في السجون والمعتقلات محنة قاسية لم يسبق لها مثيل في تاريخ مصر الحديثة، ولقد كان لهذه المحنة مضاعفات وآثار عميقة لا يمكن محوها، لكن الجانب الذي أهمله الكتاب والمؤرخون لتلك الفترة «1954-1965» هو الدور الذي أدته نساء الإخوان سواء أكن زوجات أو أمهات أو أخوات أ و بنات، وهو دور مشرف لم يكشف عنه النقاب بصورة تفصيلية حتى الآن، ربما لزهد الإخوان في تسليط الأضواء على هذا الجانب؛ أو بسبب أن ذلك أمر واجب، وسلوك طبيعي لا يعتبر غريبًا بالنسبة للبيئة أو الأسرة المسلمة، أو لأن معظم هؤلاء السيدات يعتبرن ذلك قربة لله، ومشاركة للرجال في صبرهم ومعاناتهم، ولقد كان جهاد النساء مؤثرًا وعميقًا -كما قلت- لكنه بدأ منذ وقت مبكر، أي قبل أن يحدث الصدام، وتتعقد الأمور، وتسيل الدماء على أرض السجون والمعتقلات في الزنازين السوداء.

كانت النسوة لهن تنظيم خاص في المركز العام للإخوان المسلمين، وكانت لهن محاضراتهن ونشاطهن في المؤسسات التعليمية وعلى المستوى الاجتماعي الشامل، وكانت نسبة المصاهرة بين أسر الإخوان المسلمين نسبة عالية، وغالبية هذه الزيجات اتسمت بالنجاح والتوفيق، وانعكس ذلك على الأجيال الجديدة التي تسلمت الراية في السنوات اللاحقة، لكن صمود هؤلاء النسوة قد تجلى بصورة أقوى وأوضح إبان الأزمات والمحن، لقد صبرن واحتسبن سنوات طويلة، وعانين شظف العيش، لقلة الموارد، وانقطاع الرواتب الخاصة بالمحكوم عليهم من رجالهن، أو انهيار المؤسسات التجارية والمالية للعاملين في القطاع الخاص «غير الحكومي» منهم، بالإضافة إلى أن الحكومة كانت تقف حجر عثرة في طريق الأسر حتى تجعلهن بسبب «لقمة» العيش يخضعن أو يتمردن على رجالهن الذين حرموهم متعة الحياة وهنائها واستقرارها، ولقد سبق وأشرنا إلى موقف الحكومة من أولئك المتطوعين الذين كانوا يجمعون الإعانات والمساعدات للأسر التي سُجن عائلها، فقد اعتقلت هؤلاء المتبرعين

بأعداد كبيرة، وقدمتهم للمحاكمة تحت اسم «قضية الجهاز السري التمويلي»، وكان ذلك عام 1955، كانت أسر المسجونين تعيش في مأزق حقيقي، لدرجة أن أحد الإخوة المسجونين في سجن أسيوط عاد باكي العينين من إحدى زيارات أهله له، ولم يفصح عن سبب بكائه إلا لإخوته في الزنزانة، وعلمنا أن أبناءه وبناته على وشك الانقطاع عن التعليم، والبحث عن عمل يدر عليهم دخلًا يكفي لتحقيق الحد الأدنى للمعيشة، وكانت هذه الأسرة تعيش في منطقة منعزلة لا يعرف عنها الإخوان شيئًا في الخارج، وآلمنا هذا الوضع، فاقترح أحد الإخوة المسجونين وأظنه المذيع التليفزيوني «فؤاد شاكر» أن نجمع تبرعات -مهما كانت ضئيلة- من داخل السجن، وبصورة عاجلة، ونرسلها إلى هذه الأسرة، رغم ضعف الإمكانات المادية المتاحة لنا، وقد أقبلنا على تنفيذ ذلك بحماس منقطع النظير، ومن لم يكن لديه مال تبرع ببعض قطع ملابسه الداخلية، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل أجرينا اتصالات سريعة ببعض الإخوة الأخيار المطلقي السراح كي يتدبروا هذا الأمر العاجل.

وهناك بعض السيدات من ربات البيوت واللائي لم يسبق لهن العمل في وظيفة من الوظائف، فقد كن يركزن على رسالتهن الأسرية في تربية أولادهن، ورعاية أزوجهن، لكن إزاء هذه الظروف القاسية، وبسبب محاصرة الحكومة لعملية جمع التبرعات، ومراقبة الأسر والعائلات مراقبة صارمة، ولم يكن هناك بد من أن تخرج الكثيرات لسوق العمل المناسب، حتى يحصلن على الرزق الحلال بالأسلوب الحلال، ويواصلن رسالة الأب السجين في مجال تعليم الأولاد ورعايتهم بل وتزويجهم في كثير من الأحيان، وبعض هؤلاء النسوة المحتاجات اشتغلن في التجارة البسيطة بيعًا وشراءً، ومنهن من تكبدت المشاق في الحصول على «ماكينة» خياطة، لتخيط للغير، وأخريات عملن في مجالات متعددة، صابرات محتسبات، وقد يكون الأمر هينًا إذا كان لبضعة شهور، أما أن يمتد أحيانًا لسنوات طويلة.. فهو أمر يبدو فوق الطاقة، لكن هل كانت هناك حلول بديلة لهذه الحلول؟

ويجب ألا ننسى أن هناك أسرًا أخرى كانت لديها الإمكانات أو الرصيد الكافي للإنفاق على الأسرة دون حاجة إلى معونة من أحد، ودون الاضطرار للبحث عن وظيفة، فضلًا عن إخوة السجين وأهله كثيرًا ما كانوا يعولون زوجته وأبناءه، قيامًا بالواجب، وصلة للأرحام.

لكن تظل غيبة «الأب السجين»، أو الأخ الأكبر العائل، أمرًا ذا أبعاد اجتماعية ونفسية كبيرة لا يمكن التهوين من شأنها، وقد رأيت أحد الإخوة من الآباء مكتئبًا حزينًا لأن ابنته وافقت على الزواج من شخص لا يناسبها، وأنها اختصرت آمالها العريضة في تلقي العلم، واكتفت بالثانوية العامة، وشغلت وظيفة صغيرة ولم تدخل كلية الطب كما كانت تحلم من قبل، وكان واضحًا أن الفتاة المسكينة رأت بعينها ولمست مدى ما تعانيه أمها من ضيق ذات اليد، فأرادت أن تخفف العبء وتلوذ بكنف رجل، لعلها في المستقبل تستطيع أن تستدرك ما فاتها من فرص.

ولقد عانت بعض الزوجات والأبناء من اضطرابات نفسية مرضية اقتضت مشورة الأطباء، وأخذ علاجات لفترات ليست بالقصيرة، والأبناء في غيبة الأب قد يشعرون بما يشبه اليتم، ويشعرون بأن هناك شيئًا ناقصًا في حياتهم، وخاصة عندما يعقدون المقارنات بينهم وبين ملائهم.

لقد أصيبت زوجة أخينا «غ» بمرض نفسي شديد قلب حياتها رأسًا على عقب، بحيث لم تعد قادرة على متابعة رسالتها نحو منزلها وأبنائها، وكان قرار الطبيب المختص المعالج أن وجود زوجها بالقرب منها أمر ضروري لنجاح العلاج، وأخذنا نتدارس الوضع الحرج، وما المخرج الممكن؟ وأخيرًا -بعد تفكير وجهود مضنية- أمكننا تدبير ترحيل الأخ «غ» من سجن الصعيد إلى سجن القاهرة لعلاجه من انزلاق غضروفي في الظهر، وارتفاع في ضغط العين «جلوكوما»، وفي سجن القاهرة «قره ميدان»، أشار الأخصائي بإحالته إلى المستشفى الجامعي «بالقصر العيني»، وعندما يكون السجين بالقسم الداخلي يوضع عادة في غرفة خاصة، ويوضع على بابها حراسة مشددة ليلًا ونهارًا، بالإضافة إلى المرور الدوري لرجال المباحث لمراقبة أحواله واتصالاته، وبقي هذا الأخ في القصر العيني ما يقرب من عام، لقد استطاع أن «يروّض» الحراس بأسلوب أو بآخر، وبالتالي أصبح من اليسير عليه أن يقضي فترات طويلة مع زوجه وأولاده، وسرعان ما شفيت من مرضها النفسي، وعادت إلى حالتها الطبيعية، بل إنه خلال شهر رمضان كان يذهب إلى بيته في وقت أذان المغرب متخفيًا، ويعيش بين أسرته حياة طبيعية لساعتين أو ثلاثة، بل إن بعض الحراس الطيبين كانوا يتركونه في منزله حتى الفجر، تكرمًا منهم وعطفًا، وتقديرًا لظروفه، ومهما كانت قسوة الشرطة في مثل هذه الظروف العصيبة، والأوامر المشددة، إلا أنك قد تجد بعض الأفراد من ذوي

القلوب الرحيمة، وخاصة بين أولئك العسكر الذين لم يعملوا في السجون أو المعتقلات من قبل، ولم يمارسوا التعذيب كغيرهم، لكن الأمور لم تمض على هذا النحو الهين اللين، فقد داهم رجال المباحث بيته ذات ليلة، وأمسكوا به متلبسًا، ولابد أن نفسًا حاقدة قد وشت به قال الضابط له: «أنت متهم بالهروب؟».

قال «غ»: «ليس للحارس ذنب، لقد غافلته..».

- «سوف يلقى جزاءه.. وأنت أيضًا..».

- «لا يهمني نفسي.. لكن الحارس لم..».

قاطعه الضابط قائلًا: في خشونة: «كفى.. نحن نعرف ما يجب عمله.. ستحاكم بتهمة الهروب، وستعاد إلى سجنك الأصلي.. لقد أتيت إلى بيتك مرات عديدة.. ولقد عرفنا ذلك..».

قال السجين: «وهذا يدل على أنني لم أنو الهرب أبدًا، ولو كان في نيتي ذلك لفعلته منذ البداية.. لقد كنت مضطرًا لعلاج زوجتي المسكينة التي لا ذنب لها..».

جذبه الضابط من طوقه، ووضع الأغلال في يديه قائلًا: «وتنجب أطفالًا؟ يا لك من متبجح!!».

- «هذا حق شرعي.. وإنساني..».

- «سنرى.. هيا..».

إن الحاجة تفتق الحل، والظلم الفادح الذي يقع على الإنسان، وما يتبعه من مضاعفات وكوارث، قد يدفع الإنسان دفعًا للتصرف الذي يخفف من البلاء، أو يحل بعض المشاكل، ولهذا رضخت الحكومة -في فترة من الفترات- للأمر الواقع، وأفسحت المجال للقاء الأزواج والزوجات في «سجن الواحات الخارجة فقط»، أما باقي السجون فقد تعذر ذلك تمامًا، وخاصة أن سجن الواحات كان يقع في قلب الصحراء، ويستغرق القطار وقتًا طويلًا للوصول إلى هناك، وقد يتوقف القطار ليوم أو أكثر أثناء الطريق من أسيوط إلى الواحات، بسبب العواصف الرملية، التي تطمر القضبان الحديدية، وكان على الزائرين أو الزائرات، وبعضهم يأتي من غزة أو الإسكندرية أو القاهرة أن يقضوا أيضًا ليلة أو ليلتين حتى يحين موعد رجوع القطار إلى أسيوط، وكان سجن الواحات الخارجة عبارة عن مخيم كبير، يقيم

السجناء في خيام نصبوها بأنفسهم، ويحيط بالسجن أسلاك شائكة، وحراس مسلحون، لكن هذا المجتمع الصغير كان بعيدًا عن توقع المنغصات، ويستحيل فيه الهرب، وإلى أين يذهب السجين إذا هرب؟ إنه يموت في هذه الصحراء الشاسعة ظمأ أو بسبب ضربة الشمس أو الجوع، ومن ثم أعدت خيام خاصة لاستضافة الزوار إذا قضوا ليلة أو ليلتين هناك، لكن هذا السجن لم يستمر إلا حوالي أربع سنوات، وأعيد السجناء بعدها إلى السجون المغلقة الكئيبة كسجن «قنا» أو أسيوط أو غيرهما من سجون الجمهورية.

وما أكثر ما عانت النساء في هذه الأعوام المظلمة!!!

ومع هذه الظروف القاسية لم تسجل حالات طلاق إلا في النادر جدًا جدًا، ولظروف وأسباب قهرية، وهذا أمر ملفت للنظر، وخاصة أن عددًا من سجناء الإخوان قد قضى في السجن ما يقرب من ثمانية عشر عامًا متصلة نذكر منهم الأستاذ المرحوم عمر التلمساني والأستاذ محمد حامد أبو النصر والأستا ذ صلاح شادى وغيرهم ، بل إ ن الأخ الشهيد كمال السنانيري قد عقد قرانه على شقيقة الشهيد سيد قطب وهو سجين بليمان طرة، وظلت تنتظره حتى خرج «زواج مع وقف التنفيذ»..

أقول إن هناك حالات طلاق نادرة جدًا حدثت، ويجب أن يذكر ذلك من باب الأمانة، والحقيقة التي يجب أن نسجلها بأمانة أيضًا، أن الإخوان الذين حكم عليهم بالسجن بأحكام طويلة قد خيروا زوجاتهم بين البقاء في عصمتهم أو حرية طلب الطلاق، لكن النساء تمسكن بأزواجهن، وقررن أن يتحملن عبء الجهاد والمسئولية مع الرجال سواء بسواء.

كان الأخ «م» قد عقد قرانه، لكن الزفاف لم يتم، فقد قبض عليه بعد عقد القران مباشرة، وحكم عليه بالسجن خمسة عشر عامًا، وتم ترحيله إلى أحد سجون الصعيد لقضاء المدة المحكوم بها عليه، وبعد ثلاث سنوات ونصف تقريبًا نقل إلى سجن القاهرة، وكانت هناك معرفة سابقة بين أصهار «م» ومدير سجن القاهرة المرحوم اللواء محمود صاحب، وذات يوم جاء المدير بنفسه، ثم أخذ «م» معه إلى مكتبه، وحينما عاد بعد حوالي نصف ساعة إلى زنزانته لاحظنا أنه يعاني من أزمة نفسية ظاهرة، على الرغم من أنه التزم الصمت، وعلمنا بعد فترة قصيرة أن المدير قد فاتحه في أمر طلاق زوجته التي لم يدخل بها بعد، كان الأمر مفاجأة بالنسبة لأخينا «م»، فقد كان يعتقد أن الصلة الوثيقة القديمة كفيلة باستمرار الرباط بين

الأسرتين، فضلًا عن أن السجين السياسي قد يطلق سراحه في أي وقت، ومن جانب آخر قد يبقى في السجن بعد انتهاء فترة الحكم، بحجة صدور أمر جديد باعتقاله لخطورته على الأمن، لكن الذي حدث هو أن أهل الزوجة يريدون الطلاق، لم يمانع «م» من ناحية المبدأ، لكنه طلب أن يسمع ذلك بنفسه من زوجه التي لم يدخل بها كما قلنا، إننا كبشر لابد وأن نتألم من مثل هذا الموقف، والألم النفسي لايعني الانهيار، إنه ألم صامت مع التماسك والتصبر، أليس ذلك ضربًا من ضروب الابتلاء؟

وتم الطلاق!!

العجيب في الأمر أن «م» صدر له أمر بالإفراج بعد حوالي ثمانية أشهر من هذه الواقعة، وما إن ترك السجن حتى بحث عن زوجة جديدة وخطبها على الفور، وكم كانت دهشته عندما جاءته زوجه الأولى تسبقها عبراتها وندمها وأسفها، وتتوسل إليه أن يعيدها إلى عصمته، ولكنه لم يجد رغبة لديه فقد فات الأوان، وبعد أن تزوج «م»، بقيت طليقته أعوامًا دون زواج، ثم تزوجت من رجل متقدم في السن، لم يمهله الموت طويلًا، وحينما التقيت مع «م» في اعتقالنا الثاني عام 1965 فيما عرف بقضية المرحوم «سيد قطب»، أراني صورة فوتوغرافية لأبنائه الثلاثة، وقضى معنا هذه المرة في المعتقل حوالي العام والنصف ثم أفرج عنه.

أعود مرة أخرى لأشير إلى الموقف الصامد المذهل لنساء الإخوان في هذه الفترة العصيبة، والذي يصعب أن نجد له مثيلًا في أي مكان في العالم الآن، وخاصة ذلك العصر الذي سيطرت عليه الماديات والشهوات والمصالح، وطفح بشتى أنواع الأنانية والأثرة، وبالإضافة لهذا الدور البطولي للنساء فقد لعبن أدوارًا مهمة -غير المهام الأسرية- في الحركة الإسلامية واستمراريتها، وخاصة أن الحكومة في هذه الفترة كانت تتهيب اعتقالهن أو محاكمتهن، لكن الأمر تغير في أزمة 1965 الطاحنة فيما بعد، إذ تجرأت الحكومة الناصرية هذه المرة، واعتقلت عددًا كبيرًا من النساء، وقدمت البعض منهن -وليس كلهن- للمحاكمة، من أمثال السيدة زينب الغزالي ومن آل قطب وغيرهما، وكان ذلك التصرف في عام 1965 حدثًا غريبًا شاذًا بالنسبة للمجتمع المصري المسلم، لأنه يحدث لأول مرة، وتعامل النسوة بقسوة وجرأة عجيبة، ثم تكرر الأمر مرة أخرى. وإن كان بصورة أخف كثيرًا جدًا - في عهد

السادات، حينما صدر أمر باعتقال «وليس محاكمة» عدد من النسوة منهن صحفيات وداعيات وصاحبات وجهات نظر سياسية، فيهن صاحبات اتجاه إسلامي، وفيهن أيضًا من كن يعملن في تنظيمات اليسار..

ولقد عمد بعض رجالات المباحث -للأسف الشديد- إلى أسلوب دنيء، في محاولات مستميتة لتحطيم الكيان الأسرى في بعض البيوتات الإخوانية، إذا حاولوا تحريض بعض الزوجات على طلب الطلاق، وحاولوا اختراع الأكاذيب والمفتريات كي يلصقوها بأزواجهم الأبرياء، كما حاولوا أن يبعثوا اليأس في نفوس زوجات أخريات، مؤكدين لهن أن أزواجهم لن يخرجوا من السجن مطلقًا، وأنهم سوف يبقون فيه إلى أن يموتوا، ثم ألم يقل جمال عبد الناصر نفسه في إحدى خطبه «عام 1965» وقد سمعناها من خلال الميكروفون بصوته هو، ونحن في المعتقل «اللي يلعب بديله «بذيله» من الإخوان المسلمين لن نخرجه من المعتقل أبدًا»؟ ورغم بذاءة الكلمة – فالذيل للكلاب والحيوانات وليس للإنسان- إلا أن مدلولها كان خطيرًا، إذ يكفي أن يكتب مخبر تافه تقريرًا عن إنسان يشير إلى أنه «خطر على الأمن العام» دون ذكر أية أخطاء محددة، ومن ثم يلقي به في المعتقل، ولا يخرج منه أبدًا.

في هذا الجو العنيف المخيف كان يعيش أبناء الإخوان وزوجاتهم وذووهم، ومع كل تلك التهديدات والمؤامرات والحروب النفسية، والجو القاتم المرعب الذي يخيم على سماء البلاد، مع كل ذلك، فقد بقيت «الأسرة الإخوانية» صابرة متماسكة، لم يروعها تهديد، أو يحطمها يأس، أو ينلها وعد أو وعيد، وبقي الرباط المقدس الوثيق، والعواطف السامية الشريفة، والوفاء الفذ، بقيت هذه المعاني النبيلة، والقيم الرفيعة، تغذي القلوب والأرواح بالأمل، وتستعذب المعاناة المريرة، وترضى بالقليل من الزاد واللباس، إيمانًا واحتسابًا لوجه الله الكريم..

لقد كانت الخسائر المادية والصحية فادحة، وكانت دموع النساء المظلومات، والأطفال الأبرياء تبلل الوسائد، وتتألق في ظلمات الليالي الطويلة، واستبد الحرمان ومرارة انتظار الفرج، لكن بقي الإيمان يغمر القلوب.. وبقى الحب ذلك الرصيد الهائل الذي لا تضارعه أعظم كنوز الأرض، ولا يضاهيه السلطان وما حوله من هالات وأضواء وهتافات وبريق.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾ نُزُلًا مِّنْ غَفُورٍ رَّحِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [فصلت: 30-35].

صدق الله العظيم

اللّهم لا شماتة في أحد.

إن أحد أركان حكم عبد الناصر، عندما قبض عليه فيما سمي بثورة التصحيح، وصدر ضده حكم بالسجن، لم تكد تمر إلا فترة قصيرة حتى طلبت زوجته الطلاق، فقد أحبت حارسه الخاص الضابط الشاب، وتركت أولادها، وجرت وراء حبيبها الجديد..

مرة أخرى.. اللّهم لا شماتة في أحد..

لقد كان الله رحيمًا بالإخوان وأسرهم إبان الأزمات المتتالية المستعرة، وهذه في حد ذاتها نعمة كبرى، وذلك فضل من الله ونعمة، ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾ [يونس:10].

ولقد تجرأ بعض النسوة في عام 1957، وسرن في مظاهرة صامتة إلى قصر «القبة» لمقابلة عبد الناصر نفسه، وتقديم تظلم إليه بسبب بقاء ذويهم في السجون، وكانت من بينهن والدة الأخ الأستاذ «عبد المحسن عبد الحي» حيث جاءت لزيارة ابنها في سجن أسيوط، وشرحت له تفاصيل المقابلة، وقالت إن الرئيس قال لهن في النهاية: «سنخرجهم من السجن.. لكن علموهم الأدب!!».

****

[8] عودة إلى الجهاز السري

موضوع «التنظيم الخاص» أو «الجهاز السري» كما سماه البعض، موضوع مهم شغل الأقلام والأذهان بين صفوف الإخوان خاصة، وبين المؤرخين والسياسيين ورجال الأمن، والمحللين الأجانب شرقًا وغربًا، أولئك الذين تخصصوا في دراسة الحركة الإسلامية المعاصرة، وما صاحبها من أحداث وتحولات..

فلم يكن غريبًا أن يهتم الإخوان في السجون بهذه النقطة اهتمامًا بارزًا، لأن هذه النقطة كانت بابًا للهجوم على الجماعة، وسببًا من أسباب اتهامها باللجوء إلى العنف، وأيًا كان الأمر، فإن هذه القضية -كما سبق وشرحت في القسم الثاني من هذا الكتاب- لا يمكن النظر فيها، والحكم عليها بعيدًا عن ظروف العصر وأحداثه وملابساته، أو بعيدًا عن طرفي الصراع وأسلوب كل منهما في التعامل والتحاور، وعن الأهداف العامة التي كان كل فريق يتطلع إليها.

ومن الأمور المعروفة أ ن الحكومات التي تصادمت مع الإخوان، وكذلك التجمعات والهيئات والأحزاب المضادة اتخذت من موضوع الجهاز السري مطعنًا كبيرًا، ومدخلًا أساسيًّا للهجوم المستمر المتكرر الشديد ضد الجماعة وتاريخها، ولقد ساهمت أجهزة الإعلام المعادية للإخوان مساهمة كبيرة وشاسعة، و أطلقت لخيالها وأكاذيبها وافتراءاتها العنان، حتى أوهموا الناس أن حركة الإخوان تعني الإرهاب والعنف والدماء، ومن يرجع إلى الصحافة المصرية في الفترة التي تمتد من أواخر أ كتوبر عام 1954 إلى الشهور الأولى من عام 1955، ثم الفترة من أغسطس عام 1965 إلى النصف الأول من عام 1966 بالذات، يجد مساحات مهولة قد خصصت لهذا الموضوع، ولقد اشتركت في هذه الحملة الضخمة أو المضخمة عشرات، بل مئات الأقلام ابتداءً من محمد حسنين هيكل إلى صغار الصحفيين من كتاب الأعمدة والتعليقات و«الريبورتاج» وجامعي الأخبار، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل إن الإذاعة والتليفزيون قد ساهما إلى حد كبير في هذه الحملة الشرسة دون هوادة، وكيف لا

يفعلون ذلك ورئيس الدولة نفسه في ذلك الحين، كان يتكلم باستفاضة وغضب في خطبه الطويلة عن ذلك الموضوع، حتى قبل أن تصدر الأحكام فيه، وهو يعلم طبيعة الاعترافات التي انتزعت تحت التعذيب والإجراءات القمعية، والمحاكمات السرية التي لم يكفل للمتهم فيها أدنى حقوق الدفاع عن النفس، وتنأى عن المعقول في إطار الواقع والمقبول، وليس هناك دليل على صدق ما نقول إلا العودة -كما قلنا- إلى صحف ومجلات مطبوعات تلك الفترة، فهي الشاهد الأكيد الذي سيبقى مسطورًا أبد الدهر، ومن العجيب أن «صلاح نصر» مدير المخابرات العامة في ذلك العصر، كتب في مذكراته، وبخط يده فيها بعد أن قضية الإخوان يجب أن يعاد فيها النظر، وقال إنه رفض أن يتولى قضية «الشهيد سيد قطب» حينما طلب منه عبد الناصر ذلك، وكانت حجته في الرفض أنه لم يجد قضية أو جريمة بالمعنى الصحيح، وأن عبد الناصر رد عليه قائلًا: «هو احنا كل ما نكلفك بحاجة تقول لأ!». كما إن الصحفي اللامع «محمد حسنين هيكل» الذي كال الاتهامات والافتراءات للإخوان إبان المحن القاسية، عاد يقول في كتابه عن حرب السويس إن أجهزة الأمن قد بالغت كثيرًا في اتهاماتهم للإخوان، واستشهد في هذا المجال «في إحدى وثائق الكتاب» بتقرير كتبته مباحث الإسكندرية وأشارت فيه إلى أن أجهزة الأمن كان فيها أناس مغرضون وكارهون للإخوان، استطاعوا أن يعطوا صورة غير صحيحة للإخوان، كي يوقعوا بينهم وبين السلطة، وينتقموا منهم.

أيًّا كان الأمر، فقد كان «الجهاز الخاص» هو الفرصة الذهبية للذين أرادوا الكيد للإخوان والانتقام منهم، على الرغم من أن أحداث العنف التي نسبت إليهم كانت محدودة للغاية، بحيث لا تتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة «طبقًا لما ذكره فهمي هويدي في جريدة الأهرام»، وأن ظروف هذه الأحداث وملابساتها لم تؤخذ في الاعتبار أو الحسبان.

وفي البداية يجب أن نقرر أ ن أسلوب الدعوة إلى الله يجب أن يكون بالحكمة والموعظة الحسنة، وهو ما درج عليه الإخوان ومرشدهم الأول الشهيد حسن البنا، وهو مثبوت أيضًا في رسائله وكتاباته العديدة التي بين أيدينا حتى اليوم، وعندما قتل النقراشي باشا أصدر حسن البنا بيانًا في الصحف استنكر فيها الحادث، وكان في البيان ما نصه «ليسوا إخوانًا وليسوا مسلمين»، ولم يثبت في التحقيقات التي أجريت أثناء وبعد ذلك أن له أدنى علاقة بالحادث، ونفس المعنى أعلنه المرحوم الأستاذ حسن الهضيبي، وأكده في التحقيقات

والمحاكمة التي أجريت في عام 1954، ثم في الكتاب الذي صدر عنه في الستينيات، من القرن العشرين، بعنوان «دعاة لا قضاة»، ثم جاء المرحوم الأستاذ عمر التلمساني المرشد الثالث للإخوان وأكد في تصريحاته وخطبه وكتاباته على نفس المعنى، وهو أن أسلوب الدعوة هو هو لم يتغير «بالحكمة والموعظة الحسنة»، بل كان رحمه الله يطوف بالجامعات «وخاصة في أسيوط والصعيد بصفة عامة» ويحاضر الشباب ويحذرهم من اللجوء إلى العنف، ويوصيهم بنشر الدعوة بالأسلوب العلمي الصحيح، ثم جاء المرشد العام الرابع الأستاذ محمد حامد أبو النصر، والتزم نفس الخط في بياناته الرسمية، وحينما دخل الإسلاميون انتخابات مجلس الشعب في مصر، وطرحوا شعار «الإسلام هو الحل» أكدوا على أن أسلوب الدعوة هو تقديم النصيحة، وإبداء الرأي الحر، انطلاقًا من تعاليم الإسلام، كما أكدوا رفضهم واستنكارهم لأساليب العنف والصدامات الدامية، وأدانوا الأحداث الدامية التي حدثت في الفترة الأخيرة دون مواربة أو غموض.

أعود مرة أخرى فأقول إن «الإخوان المسلمين» في السجون إبان عهد عبد الناصر، قد فتحوا ملف «الجهاز الخاص» وناقشوا الموضوع بصراحة ووضوح، بل شكلوا لجنة لتقصي الحقائق، ومساءلة أعضاء الجهاز المحكوم عليهم، وكان من جراء ذلك أن حدثت خلافات عميقة، فقد رأى البعض أن إنشاء مثل هذا الجهاز منذ البداية كان خطأ، وأعطى فرصة للمسئول عنه كي يتصرف من تلقاء نفسه، مما أوقعه وأوقع الجماعة في مآزق شديدة، وأعطى الفرصة لأعداء الحركة الإسلامية كي يثيروا غبار الشبهات حول تاريخها وجهادها وتأثيرها العميق في المجتمع المصري والعربي والإسلامي، واتهامها بالخروج عن الأسلوب الأمثل للدعوة إلى الله، هذا على الرغم من قلة عدد الأخطاء التي وقعت، أما البعض الآخر، فلم ينكر أن الدعوة إلى الله لابد وأن تكون بالحكمة والموعظة الحسنة، لكنهم أشاروا إلى أ ن عنف السلطة في العهد الملكي، وما تلاه من عهود، كان -أي عنف السلطة- يؤدي إلى ردود أفعال وتصرفات مشابهة، وخاصة عندما تغيب الحرية، وتكمم الأفواه، وتلقى التهم جزافًا، ولا يعطى للمتهم الفرصة كي يرد أو يوضح أو يدافع عن نفسه، فضلًا عن أن ظروف إنشاء أو تشكيل «الجهاز الخاص» بدأ في فترة العهد الملكي والاستعمار الإنجليزي، واجتياح الصهيونية لفلسطين، وعبث الأحزاب والحكومات، وتفشي الفساد والانحلال والانحراف، وما زال العقلاء والمفكرون والعلماء في مصر حتى اليوم يشيرون إلى أ ن عنف السلطة

وإجراءاتها اللاقانونية وممارسات التعذيب هي التي أوجدت التطرف والعنف، وقد أفسحت الصحف -حتى الحكومية منها- مجالًا لنشر هذه الآراء في أكثر من مناسبة، ولم يعد خافيًا على أحد مدى التهور والإجحاف والتعذيب الذي حاق بالموقوفين من الإخوان في مختلف العهود.

ومعظم الأحداث العنيفة التي اتهم بها الإخوان كانت في عهد ما قبل الثورة، أما ما جرى بعد ذلك فإن أبرزها «حادث المنشية» بالإسكندرية الذي اتهم فيه «محمود عبد اللطيف» وآخرون، وهو حادث حوله جدل كبير، كما سبق وذكرت في القسم الثاني، وأما حادث اغتيال «السادات»، ثم الحوادث الأخرى التي جرت في عهد مبارك فلم يثبت أن للإخوان بها أدنى صلة، وهو أمر معروف لا يحتاج لشرح.

والواضح -من خلال لجنة التقصي التي شكلها الإخوان- أن عبد الرحمن السندي، غفر الله له ولنا، كان رئيسًا للنظام الخاص، وأن مسئولية ما جرى كانت تقع على عاتقه، كما ثبت أنه تصرف -من تلقاء نفسه- في المواقف التي ألصقت بالإخوان كجماعة، كقضية الخازندار والنقراشي، وهما أشهر قضيتين في عهد فاروق، ولقد عاش عبد الرحمن السندي حتى جاء الهضيبي، وأراد تصفية «الجهاز الخاص» وكان أن عزل «السندي»، وولى مكانه «المهندس المرحوم سيد فايز» ليقوم بمهمة تصفية هذا الجهاز ودمجه مع التنظيم العام، وتجنبًا للأخطاء التي جرت، وسد باب الفتنة والقرارات الفردية، ودرءًا للشبهات والاتهامات التي استغلها الكتاب والمحللون والمؤرخون أسوأ استغلال، ولم تكن تصفية هذا التنظيم بالأمر السهل فقد تمرد «عبد الرحمن السندي»، وحاول عزل الهضيبي بأسلوب القوة والقهر، وقد نشرت الصحف هذه الواقعة في حينها، وخاصة أن عبد الرحمن السندي بعد فصله من الجماعة، وضع يده في يد عبد الناصر، ولم يصدر الأمر باعتقاله كباقي قيادات الإخوان بعد حادث المنشية، وظل حرًا طليقًا حتى وافاه الأجل المحتوم، وأنا شخصيًا لم أر عبد الرحمن السندي في حياتي إلا مرة واحدة، أثناء وجودي في سجن القاهرة عام 1958، حين أتى لزيارة الأخ الأستاذ علي صديق، فقد عملا معًا سنوات طويلة، وكان علي صديق محكومًا عليه مثلنا، وكان عبد الرحمن يقف قبالة سجن القاهرة مستندًا إلى جدار، ونحن نطل عليه من نافذة بمستشفى السجن، ولم يدر بينه وبين «علي صديق» إلا حوار مقتضب تبودلت فيه التحيات والتمنيات، ثم نزل علي ليستقبله في زيارة خاصة.

خلاصة الأمر أن الغالبية العظمى من الإخوان المسجونين أدانوا العنف، ولم يقروا أية تنظيمات سرية بعيدة عن أعين القيادة ورقابتها، ورأوا أن مثل هذه التنظيمات أو الأجهزة تضر أكثر مما تنفع، وأن القوة الحقيقية تكمن في عظمة المبادئ، ورسوخ العقيدة، والقدرة على الإقناع بالكلمة والموقف والقدوة، ولقد كانت تجربة الإخوان الفذة على الصعيد الاجتماعي، وعلى أ رض الجهاد في فلسطين والقنال، وفي التصدي لانحرافات السلطة، وتبني قضايا الجماهير وفق المقاييس الإسلامية، والاهتمام بتربية الأجيال الجديدة على مثل الإسلام وأعلامه، ونجاحهم الفردي والجماعي في مختلف القطاعات وحقول العمل والإنتاج، والالتزام الأخلاقي دينيًا ودنيويًا، أقول كانت تجربة الإخوان تلك هي الإنجاز الكبير الذي ترك بصماته حتى اليوم على توجهات أجيالنا المعاصرة، وكان من أهم أسباب الحفاظ على شخصيتنا وانتمائنا الإسلامي، على الرغم من محاولات المسخ والهدم والتشويه التي تعرضت لها بلدان العالم العربي والإسلامي في العقود الأخيرة من هذا القرن.

وقد يظن ظان أن المد الإسلامي قد انحسر من جراء ما تعرض له من هجمات، وبسبب الحملات الإعلامية المغرضة الشرسة، والممارسات القمعية من السلطة في العهود المتتالية، لكن الواقع المعاش قد أثبت عكس ذلك، فما زال المد الإسلامي يتسع ويقوي، ويثبت وجوده وفعاليته وإيجابياته في شتى المجالات، ولو أعطيت الفرصة العادلة لهذا التحرك لتغير وجه الحياة، وفي اعتقادي أن محاربة التيار الإسلامي المعتدل المتزن سياسة خاطئة، وإهدار للوقت والجهد، وتضييع للفائدة، لأن حاجتنا إلى ضمائر حية، وأخلاق فاضلة، وإيمان صادق، وعلم حديث، أكثر من حاجتنا إلى استيراد أنظمة وبرامج وقروض وتحالفات مع القوى الكبرى، فالاعتماد على الذات، ومشاركة الأمم في تقرير مصائرها، والوعي بالعصر الذي نعيشه وبمتطلباته، هو الطريق الصحيح للخروج من الأزمة الخانقة التي تشل حركة التقدم والازدهار في عالمنا الإسلامي..

أقول لقد تحدد موقف الإخوان بصورة واضحة قاطعة في رفض أسلوب العنف والتطرف، واتخاذ أسلوب «الحكمة والموعظة الحسنة» لدعوة الناس إلى حياة أفضل وأطهر، ولعل ذلك كان السبب في ظهور انشقاقات محدودة عن صفوف الجماعة، نذكر منها بالذات جماعة «شكري مصطفى» الذي كان أحد المعتقلين الإخوان في عام 1965، ثم انشق وكون ما سمي بعد ذلك بجامعة «التكفير والهجرة».

ثم ظهرت بعد ذلك جماعات صغيرة محدودة العدد، رفضت الاعتدال، ورأت أن تجابه السلطة عنفًا بعنف، وأن تغير «المنكر» بيدها، ما دامت الآذان قد صمت، وما دامت السلطة قد فرضت القيود على حرية الرأي وتشكيل الأحزاب، ووضعت لذلك قوانين صارمة تتنافى مع الحرية الصحيحة، وصنعت قانونًا عجيبًا للانتخابات، بالإضافة إلى ما يصاحب ذلك عادة من تزييف وتزوير في النتائج وتدخُّل في مسار العمل السياسي والاجتماعي لجعله ينحرف إلى اتجاهات بعينها، وحتى بعد أن نجح عدد لا يستهان به -تحت تلك الظروف الصعبة- لم تزل السلطة ترفض السماح للإخوان بتشكيل جماعة تتولى مسئولياتها في خدمة المجتمع في النور، وفي ظل الالتزام بالقوانين المرعية، ومازالت السلطة تماطل وتسوف في تطبيق «الشريعة الإسلامية» على الرغم من مطالبة الشعب الملحة بذلك، بل إن الصحافة التي تمثل التيار الإسلامي لم تزل تعاني من الرفض والعراقيل العديدة التي توضع في طريقها، ولاشك أن هذه الأساليب الجائرة هي التي تمهد الطريق لظهور تيارات تتسم بالعنف والشدة، وهو ما لا يريده الإخوان، ولا يفكرون فيه، لا عن ضعف وخور، ولكن عن عقيدة وسلامة اعتقاد، وثقة بالمبدأ وبالنفس..

مما لا شك فيه أن قضية «التنظيم الخاص» أثارت العديد من التساؤلات والمناقشات، وكانت سببًا في حدوث خلافات بين الإخوة في السجون وخارج السجون، لكنها حسمت في النهاية، ووضعت في إطارها الصحيح، فكان ما كان من إعلان الجماعة على لسان قياداتها بالالتزام بالحكمة والموعظة الحسنة.

بقي أن أذكر القارئ بأن جمال عبد الناصر وثمانية من أعضاء مجلس قيادة الثورة كانوا -كما قلت في مكان آخر- جزءًا من هذا «الجهاز الخاص» أو «التنظيم السري» أو الجهاز السري كما يحلو للبعض أن يسميه، وظل الجهاز السري الخاص يعمل بعد ضربة الإخوان في عام 1948، وكان عبد الناصر هو المسئول المباشر، لكنه طور الجهاز وفتح بابه على مصراعيه لنوعيات مختلفة من الضباط، لا صلة لها بالعمل الإسلامي، وكان هو وحده الذي يمسك بخيوط هذا التنظيم والذي لم يبلغ المائة، إلى أن قامت الثورة، وبقية القصة معروفة ولا تحتاج إلى مزيد من التفصيل، ومن أراد المزيد فليرجع إلى ما كتبه المرحوم حسن العشماوي «الإخوان والثورة» وقد كان عضو مكتب الإرشاد للإخوان المسلمين، وإلى ما كتبه الأستاذ صلاح شادي المسئول عن الجناح العسكري للإخوان، ثم إلى ما كتبه الأستاذ أحمد عادل

كمال، أحد قادة ذلك التنظيم وقد سجل تاريخه بأمانة وصدق، وغير هؤلاء كثيرون، فقد عاشوا التجربة بأنفسهم، وشرحوا أهم ما يتعلق بجوانب هذه القضية الحساسة، التي أخذت أكثر مما تستحق من اهتمام، وسودت بسببها عشرات الآلاف من الصفحات، على الرغم من محدودية عدد الحوادث التي جرت، وعلى الرغم من جانب آخر- مما قدمه الكثيرون من تضحيات وجهاد على أرض المعركة مع الصهيونية والاستعمار، وعلى الرغم أيضًا من مشاركة ضباط الثورة أنفسهم -وعلى رأسهم جمال عبد الناصر- في تشكيل ذلك النظام، والإفادة منه في الحركة التاريخية التي تركت بصماتها وآثارها العميقة -إن سلبًا أو إيجابًا- على تاريخنا المعاصرة.

إنني ما قصدت بالعودة إلى هذا الموضوع مرة أخرى إلا لكي نأخذ العبرة، ونفهم حقيقة الظروف والملابسات، ونصدر أحكامنا في روية واتزان، بعيدًا عن الأهواء، ثم ننظر بعد ذلك إلى الأمام، حتى نستطيع أن نمضي على وعي وبصيرة في مرحلتنا الجديدة، وأمامنا الغايات النبيلة، والأهداف السامية، التي نتطلع إليها، وحتى تصبح كلمة الله هي العليا، وكلمة الذين كفروا السفلى.

***

[9] حادث خطير

إن طبيعة الحياة في السجون متقلبة، يكتنفها الخوف، وتعصف بها المفاجآت، فمهما صفت السماء، وبدت الأمور مستقرة، فإن ذلك لا يعدو أن يكون خدعة أو إجراء مؤقتًا، وسرعان ما يحدث التوتر، وتقع الواقعة، فيتعرض النزلاء لشتى أنواع العقوبات كالضرب، أو الحرمان من الخروج إلى الفناء، والحرمان من مختلف الأشياء التي سبق السماح بها، مثل الأكل الإضافي الذي نشتريه من المقصف، والكتب والأقلام والمراسلات والزيارات والملابس الداخلية والرياضة والهوايات.. كل هذه الأشياء تمنع، وتصبح في مستوى الممنوعات الأخرى كالمخدرات وشفرات الحلاقة وحيازة العملة، يضاف إلى ذلك قطع الكهرباء عن الزنازين، ويصبح المسجونون لا يملكون غير السترة الزرقاء وسروالها، والبرش، وبطانية واحدة، وجردلًا لماء الشرب وآخر لقضاء الحاجة، ولا تمنح الفرصة لأحد كي يستحم في الأسبوع مرة، ويصبح الغذاء قاصرًا على ثلاثة أرغفة وقطعة صغيرة من الجبن أو ملعقة من العسل الأسود، وكمية قليلة من العدس أو الفول المدمس، وبعض الخضار المطبوخ المجهول الهوية في المساء، مع حلق شعر الرأس والشارب واللحية إن وجدت..

إن «التكدير». -كما يسمونه- أمر وثيق الصلة بحياة «السجين السياسي»، حتى ينشغل بالأمور الصغيرة من أكل وشرب ورياضة، ولكي يظل متوترًا مترقبًا لما سيجد من أحداث مرهقة نفسيًا وجسديًا.

لكننا بمرور الوقت تعودنا على هذه المنغصات والمضايقات، وأصبحنا نتوقعها في أي وقت من الأوقات، ولم يكن أمامنا سوى الرضا بقضاء الله وقدره، والانكباب على القرآن حفظًا وقراءة ودراسة، والانشغال بالصلاة والصوم ومختلف أنواع الذكر والعبادة، حتى تنجلي الغمة وتعود الأمور إلى مجراها العادي مرة أخرى.

وكان من المعروف أن لكل تكدير سببًا لا يصعب علينا التوصل إليه، قد يكون هذا السبب هو الاحتكاك أو الاختلاف في الرأى مع ضابط من ضباط السجن أو سجان عادي،

إن لإدارة السجن دائمًا أسلوبها الجاف في التعامل مع السجناء، وهذا الأسلوب كثيرًا ما يجر إلى الصدامات معنا، مع أنه يعتبر أمرًا مألوفًا مع السجناء العاديين «غير االسياسيين»، لأنهم يتقبلون المعاملة الجافة أو اللاإنسانية دون تذمر يذكر، لكن الأمر يختلف عند السجناء السياسيين الذين يأنفون من الإهانات والمعاملات التي لا تليق.

ومع ذلك فقد حدث ذات يوم لنا تكدير «غير مبرر»، لم نفهم له أي سبب، لقد أغلقوا أبواب الزنازين في الصباح، ولم يسمحوا لنا بالذهاب إلى دورة المياه، أو الخروج إلى الفناء في طابور الصباح، بل انقضوا على الزنازين وجردوها من كل شيء حتى الطعام الإضافي والملابس الداخلية والكتب وغيرها، وكنا نتساءل: «لماذا؟» لكننا لم نجد الجواب.. وبقينا نعاني آلام الحيرة والقلق إلى أن استطعنا الاتصال بوكيل السجن النقيب مصطفى أبو دومة، وهو من الإخوان السابقين في تنظيم الشرطة قبل الحل الرسمي للجماعة كما سبق وقلت، وصدمنا بأخبار مزعجة غاية الإزعاج جعلتنا نتوقف ونفكر ونعيد النظر في مواقفنا كلها من جديد.

فماذا جري؟

قيل لنا أنه حدث صدام بين الإخوان المسلمين في «ليمان طرة» وبين إدارة السجن، ونتيجة لهذا الصدام الداخلي صدرت الأوامر لإدارة سجن طرة وللكتيبة التي تحرس السجن خارج الأسوار بإطلاق الرصاص على السجناء من الإخوان، واستمرت المعركة بين المسلحين من الجنود والعزل من الإخوان بضع ساعات، بقيادة وإشراف كبار مسئولي وزارة الداخلية والمباحث العامة «أمن الدولة»، وكان زكريا محيي الدين هو وزير الداخلية في تلك الفترة «يونيو 1957»، وما إن انتهت المعركة حتى كان حصادها واحدًا وعشرين قتيلًا من الإخوان المسلمين وأكثر من عشرين جريحًا، وبعدها أذاعت الحكومة بيانًا مقتضبًا نشر في الصحف جاء فيه «أنه حدث احتكاك بين بعض المسجونين في ليمان طرة وبين الحراس، ونتج عنه بضع إصابات في كلا الجانبين» هذا كل ما نشر في الصحف المصرية، كما نقلت وكالة «تاس» السوفيتية نفس الخبر الرسمي الذي نشرته الحكومة المصرية، لكن إذاعة بغداد في تلك الفترة روت المأساة كاملة، وكذلك بعض الصحف العربية الحرة أو المعادية لمصر ، كما صدرت فيما

بعد كتب خارج مصر تروي القضية تفصيليًا، وتسجل أسماء الشهداء وأعمارهم والوظائف التي كانوا يشغلونها، ونلاحظ في البيان الرسمي الذي أذاعته الحكومة المصرية آن ذاك أنه:

أولًا: حاول إيهام الناس بأن صدام بسيط بين السجناء دون تخصيص، وبين الحراس.

ثانيًا: لم يذكر البيان أسباب ذلك الصدام.

ثالثًا: لم يذكر البيان أن هناك قتلى من طرف واحد وأنهم واحد وعشرون شهيدًا.

رابعًا: لم يشر البيان من قريب أو بعيد إلى الإخوان المسلمين أو أنهم هم الضحايا وبالتالي لم يذكر أسماء القتلى أو الجرحى.

وهذا يعطي فكرة عن مدى مصداقية البيانات الرسمية في تلك الفترة، كما يعطي صورة محزنة عن الصحافة القومية الخاضعة للسلطة، والمؤتمرة بأمرها دون وازع من ضمير.

وقد قيل الكثير عن هذه المذبحة المروعة، لكني بعد شهر تقريبًا من حدوثها تم ترحيلي من سجن أسيوط إلى سجن القناطر الخيرية، وفي القناطر الخيرية التقيت بسجناء ليمان طرة الذين نجوا من الحادث، ونقلوا بعده مباشرة من طرة إلى القناطر، وكان بينهم المصابون أيضًا الذين شفوا من أثر الجراح التي لحقت بهم نتيجة إطلاق الرصاص أو الضرب بالعصي الغليظة، وكان من بين الناجين الأخ الأستاذ حسن دوح زعيم الطلبة وأحد قادة معركة القناة ضد الإنجليز ومعركة فلسطين، كما كان بينهم الأخ المهندس مجدي زهدي نجل المستشار إسماعيل زهدي، والشيخ حسن أيوب الداعية الكبير والذي قضى سنوات في الكويت والمملكة العربية السعودية بعد خروجه من السجن، والأستاذ أحمد البس أحد قيادات الإخوان البارزين، والشيخ عبد الرزاق أمان الدين، والأستاذ عبد المنعم محمد سليم، والأستاذ محيي الدين عطية محمد رئيس تحرير مجلة «المسلم المعاصر» حاليًا، والأستاذ الدكتور سليمان حجر الأستاذ حاليًا بكلية التربية الرياضية بالقاهرة، وضابط الجيش السابق عبد الكريم عطية وغيرهم كثيرون، كما كان بينهم أربعة من الشيوعيين الذين حكم عليهم بالأشغال الشاقة في إحدى قضايا الإخوان، لأنهم كانوا قد انضموا إلى الإخوان كي يتجسسوا عليهم، فوقعوا في كمين مع الإخوان، وسيقوا إلى المحاكمة حيث صدرت ضدهم أحكام باعتبارهم من التنظيم الإخواني، لكنهم كانوا يعيشون في السجن منعزلين عن الإخوان، ويعلنون تمسكهم بالمبادئ الشيوعية.

في سجن القناطر علمت قصة ما جرى، فقد بدأ الصدام عندما كان بضعة أفراد من الإخوان في استقبال أهليهم الذين جاءوا لزيارتهم في السجن، وأثناء الزيارة تحرش بعض الضباط بالمسجونين الإخوان أمام ذويهم، مما اضطر الإخوان للرد على كلماتهم البذيئة، وتحول الكلام إلى اعتداء وضرب وتشابك بالأيدي وأنهيت الزيارة بصورة سيئة.

وفي هذه الأيام كان الإخوان المسجونون قد تقدموا بطلب لإدارة السجن جاء فيه أنهم قضوا في الجبل يقطعون الصخر لسبعة وعشرين شهرًا، والمسجون غير السياسي عندما يصل لهذا الحد يعفى من الخروج للجبل، ويوكل إليه أعمال أخرى داخل السجن، تكون أخف وطأة مثل العمل في الخياطة أو المطبخ أو النجارة أو غيرها من الحرف الأخرى، لكن إدارة السجن لم تهتم بالطلب؛ مما جعل الإخوان يهربون خطابات فردية إلى النائب العام يطلبون منه التحقيق في الأمر، ويشعرونه بأنهم في خطر، وأن الإدارة تتحرش بهم، وتوشك أن تقضي عليهم، وفعلًا وصلت هذه الخطابات للنيابة.. وقبل أن تتحرك النيابة حدثت مشكلة الزيارة وما تبعها من إهانات، وفي اليوم التالي طلبت الإدارة من الإخوان الخروج إلى الجبل كالمعتاد، وكان الجو متوترًا ولا يوحي بالثقة والأمان، بل نما إلى علم الإخوان أن الحكومة قد بيتت أمرًا خطيرًا، وأنه من المحتمل أن يطلق عليهم الرصاص أثناء تواجدهم بالعمل في الجبل، وسوف تدّعي الإدارة أنهم قد تمردوا.. والتمرد خارج السجن «في الجبل» معناه إطلاق الرصاص فورًا، وهنا تردد الإخوان في الاستجابة للخروج إلى الجبل، وطلبوا من إدارة السجن أن تحضر النيابة للتحقيق، وهذا من حق أي سجين، لكن الإدارة رفضت، فاعتصم سجناء الإخوان بالزنازين، وتم إغلاقها عليهم، وبعد فترة جاءت فرقة من الضباط والسجانة، وأخذوا يفتحون الزنازين واحدة واحدة، وكلما فتحوا غرفة انهالوا على من فيها بالضرب والإهانة، وقيدوهم بالسلاسل، كي يخرجوهم إلى الجبل عنوة، وتنبه أحد الإخوة إلى خيوط المؤامرة، فاختطف مفتاح الزنازين من السجان، وفتح أبواب جميع الزنازين بسرعة، وساعده في ذلك من خرج من الزنازين الأولى، وتراص الإخوان أمام زنازينهم طالبين النيابة، ورافضين للدخول بعد أن ثبت سوء نية الإدارة، وحدث شيء من الهرج والمرج داخل العنبر الكبير، في الدور الذي يسكنه الإخوان، وفي هذا الوقت طلب مدير الليمان عددًا من الإخوان للتفاهم، وكان من بينهم الأستاذ حسن دوح، كما كان الشهيد سيد قطب مقيمًا في مستشفى السجن في تلك الفترة، بعيدًا عن عنبر الإخوان.. ونزل حسن وإخوانه للتفاهم مع الإدارة،

لكنهم فوجئوا بأن الضباط وضعوهم في زنازين التأديب، وقد كان هذا نافعًا لهم كما سيتضح فيما بعد.. وبعد دقائق ذهل الإخوان المتراصون أمام الزنازين؛ إذ بدأ العسكر في إطلاق الرصاص فجأة، وأخذ المصابون يتساقطون وسط الدهشة والذهول، ولم يجد سيجناء الإخوان مناصًا من الدخول مرة أخرى إلى الزنازين للاحتماء في داخلها من وابل الرصاص، بل وأغلقوا أبواب الزنازين، وهي أبواب قوية سميكة، وزادوا من قوة إغلاقها بأجسادهم، لكن الرصاص المنهمر لم يكف، كان العسكر يوجهون رشاشاتهم من النوافذ، ومن نظارات الأبواب السميكة، بل أطلقوا الرصاص على الأبواب نفسها حينما اكتشفوا أن السجناء يحكمونها بأجسادهم.. حتى إن ظهور بعض الإخوة تلقت دفعات من الرصاص عبر الأبواب حتى أصبحت هذه الظهور كالغربال عند من عاش منهم بعد ذلك، وانبعثت التأوهات والاستغاثات.. وانتصر العسكر.. ولفظ عدد من أبرياء الإخوان آخر أنفاسهم.. ولجأت أرواحهم إلى الله الذي لا يظلم عنده أحد.. وسيق الذين آمنوا في أغلال السلطة إلى ساحات التعذيب مرة أخرى.. قالوا للعالم الكبير «قل أنا عائشة..» .. لم ينج الجرحى من التعذيب.. حضرت النيابة أخيرًا للتحقيق.. وليتها لم تحضر.. قال المستشار إسماعيل زهدي لابنه السجين الذي أصيب إصابة بالغة في الحادث: «لقد أثبت التحقيق أن الحكومة مدانة تمامًا، لكن صدر الأمر من الجهات العليا بحفظ التحقيق» وحُفظ التحقيق.. واستمر التعذيب في سجن القناطر أيضًا بواسطة «الشلقامي» -حضرة الصول- وعدد من العسكر الذين أصيب بعضهم بانهيار عصبي لهول ما رأوا..

عندما كان الرصاص يزغرد في أروقة الليمان، كان النسوة من أهالي المسجونين اللائي حضرن للزيارة يصرخن ويستغثن.. ولا مجيب.. ودفنت جثث الضحايا بإشراف الحكومة، دون أن يسمح لأهليهم بإلقاء النظرة الأخيرة.. مات أحمد حامد قرقر صاحب الشجاعة والصمود المبهر أثناء المحاكمة.. ومات العزب صوان عامل بشركة المحلة الكبرى وبطل حمل الأثقال.. ومات خيري عيطة بن العالم الفاضل، وفهمي نصر.. وغيرهم.. مع ذلك نجد اليوم زبانية عبد الناصر الأحياء يتحدثون في مذاكرتهم وكتاباتهم عن طهارة الثورة التي لم تلوث يديها بالدماء، وعن معاملتها الكريمة الرقيقة للثورة المضادة والمعارضة!!

وقيل يومها في تفسير هذا الحادث المروع الغريب، أن جمال عبد الناصر أراد أن يلقن الإخوان درسًا جديدًا، بسبب مشاركة إخوان المملكة الأردنية الهاشمية في إفشال الانقلاب

الذي قام به الضابط أبو نوار ضد الملك حسين.. وقيل أيضًا أن زكريا محيى الدين كان يشرف بنفسه على المعركة العجيبة داخل سجن طرة، وما أكثر ما قيل من أشياء لم تتضمنها بالطبع وثائق الكاتب الهمام محمد حسنين هيكل الذي اكتفى بالإشارة إلى الظلم الذي حاق بالإخوان ونسبه إلى الجهات الأمنية، ولم يقدم سوى وثيقة يتيمة كتبتها مباحث الإسكندرية، وسجلها في كتابه عن حرب السويس، ونسي الكاتب الهمام مقالاته وتشهيره بالأبرياء المضطهدين من الإخوان على صفحات جريدة الأهرام الغراء في تلك الحقبة السوداء من تاريخ مصر العزيزة..

نعود مرة أخرى إلى سجن أسيوط، فقد بلغتنا أنباء مذبحة طرة، ونصحنا الضابط مصطفى أبو دومة بالركون إلى الهدوء والروية داخل السجن، لأن الظروف ليست في صالحنا، وأن الحكومة على استعداد لتكرار مأساة طرة في أي وقت من الأوقات، وفي أي مكان من الأمكنة التي يتواجد فيها الإخوان المسلمون، ولقد كان وقع الحادث علينا أليمًا، كما كان له أسوأ الصدى في نفوس أهلينا، على الرغم من ذيوع الخبر، وانتشاره في كل الأنحاء إلا أن أحدًا لم يجرؤ على مناقشته علانية، بل إن البعض كان يعبر بخلاف ما يعتمل في داخله، فيمتدح الحكومة، وهو يلعنها بينه وبين نفسه، وأهل القتلى انطووا على ذواتهم يجترون أحزانهم المريرة دون أن يفكر أحد في رفع قضية ضد الحكومة، لقد كانت الحكومة في أوجها، والقومية العربية تتألق، ألم يهزم عبد الناصر جيوش العدوان الثلاثي منذ بضعة شهور، ويسكت المعارضة -كما يبدو- إلى الأبد، ويضرب بيد من حديد على كل من يفكر في نقد أو حتى مجرد التعرض لنظامه بالنصيحة البريئة؟

لعل هذه الفترة كانت من أسوأ الفترات التي مرت بنا داخل السجون، فقد كان واضحًا أن الأمور قد بلغت منتهاها من التبجح وعدم الاكتراث، فماذا بعد أن يسمح الحاكم بقتل سجناء الرأي علانية وبالرصاص داخل السجون؟ إن هذا التصرف ذروة البطش والجبروت وسوء النية والحقد، ولقد كان من المتوقع أن يحدث عكس ذلك، فماذا تريد الحكومة بعد أن كسرت شوكة المعارضة في الداخل، ونجحت -ولو مرحليًا- ضد الغزو الخارجي؟ كان يفترض أن تمنح الشعب مزيدًا من الحرية أو الديمقراطية، وأن تلتزم بالقوانين الرسمية، والشرائع الأخلاقية، في دولة إسلامية، وإذا كانت الحكومة قد تجاوزت الحدود في تعاملها مع الإخوان أثناء الصدام في عام 1954، فربما كان ذلك من جراء الحادث المريب، والتوتر

السائد، ورغبة الحكم في حماية نفسه، وتدعيم أسسه، أمّا اليوم وقد انتهت الجولة لصالح الحكم الشمولي المطلق، فلا مبرر لمزيد من سفك الدماء، وإزهاق الأرواح.. لكن ما قد حدث جاء بعكس المنطقي والمعقول، ولعله ناجم عن الغرور الذي انبثق بعد انسحاب القوى الغازية، أو نابع من الحقد القديم الذي يكنه عبد الناصر للرجال الذين بايعهم من قبل على المصحف..

كاذب.. كاذب من يزعم أن عبد الناصر لم يكن يدري شيئًا عما يحدث، لأن أمرًا خطيرًا كهذا الذي حدث في ليمان طرة لا يمكن أن يتم على مستوى إدارة السجن ومديره، والمعروف أن المساجين السياسيين يتبعون أساسًا مباحث أمن الدولة «المباحث العامة آنذاك»، ولا يمكن أن يصدر أمر إطلاق الرصاص عليهم بدون المباحث العامة، والمباحث لا تستطيع أن تبت وحدها في أمر بالغ الخطورة كهذا الأمر، بل إن وزير الداخلية زكريا محيي الدين لا يجرؤ على فعل ذلك إلا بأمر «سيادة الرئيس»، فهل في هذا التقرير شك أي شك؟ قد يحدث الأمر كحالة فردية طارئة.. أما أن يحدث بالنسبة لمئات من السجناء، وفي داخل العنبر فلا يصدق أن يتم دون أمر من رئيس الجمهورية شخصيًّا.. لقد قامت الدنيا وقعدت عندما قتل «شهدي عطية» أحد زعماء الشيوعيين في السجن في بداية الستينيات، من القرن العشرين، واحتج الاتحاد السوفيتي وسكرتير عام الحزب، وحدثت أزمة دبلوماسية، لكن ضحايا الإخوان المسلمين سقطوا شهداء دون احتجاج رسمي أو غير رسمي من أحد، ومر الأمر وكأنه لا يعدوا أن يكون حدثًا عابرًا لا قيمة له، ولا يصح أن يخلف وراءه أية تساؤلات، وهل كان في مصر عندئذ من يجرؤ على الاحتجاج أو مجرد التساؤل؟ إن الدكتاتورية لا تحب أن تسمع كلمة «لماذا؟» أو كلمة «لا»، حتى مجلس الوزراء كما يقول العلامة الأستاذ فتحى رضوان زعيم الحزب الوطني، وأحد وزراء عبد الناصر، يقول كان الوزراء يجلسون في الاجتماع الأسبوعي ليسجلوا أوامر عبد الناصر لينفذوها دون نقاش.. كانوا مجموعة من السكرتارية.. ومر الحادث المؤسف.. حادث مذبحة طرة مرور الكرام.. ولم يترك غير الحسرة والدموع لعدد من الأسر الصغيرة المحدودة في مصر الصبور..

أكاد أقول إن أحلام النجاة من قبضة الطغيان قد تبددت في تلك الفترة العصيبة، لكننا كنا نقاوم اليأس والإحباط بتوجهنا إلى الله، ولجوئنا إلى رحابه، كنت أقول لنفسي إن العمر قصير، وإن نهاية الحياة لابد ستأتي إن عاجلًا أو آجلًا، فلماذا نجزع أو نيأس؟ ستمر الأيام،

وينقضي العمر بالنسبة لنا جميعًا.. حكامًا ومحكومين.. سجناء وسجانين.. ظالمين ومظلومين.. وعند مالك الملك يشرق صبح العدالة الأبدي، وينال كل ذي حق حقه، وتشمل رحمة الله جراح المعذبين والمجرومين، ويؤخذ بناصية كل جبار عنيد.. أليس ذلك اليوم هو يوم الجزاء؟ ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾﴾ [المؤمنون:115] صدق الله العظيم..

أليس غريبًا أن تكون مصر ذات الملايين من السكان، وعشرات، بل مئات الآلاف من المفكرين والعلماء وأصحاب الماضي العريق، أقول أليس غريبًا أن تصمت مصر هذا الصمت الرهيب طوال تلك السنوات الكئيبة؟

وركنت إلى زنزانتي أقرأ وأكتب.. لعلي أعبر عما يجيش في صدري، وأخفف عما ألم بي من هم وكمد، والقراءة بالذات عالم رحب فسيح يهيم فيها العاشق فينسى كل ما حوله، ويجوب الآفاق، وينتقل من المشرق إلى المغرب، ويخالط العديد من الأفكار والأجناس والشخصيات، إنها رحمة من الله لمن يعيشون خلف القضبان والحرمان منها يعتبر أقصى عقوبة لمن يقرءون.. شيئان لا غنى لنا عنهما ذكر الله والقراءة.. أما متع الحياة الأخرى، فقد حرمنا منها ولا حيلة لنا في ذلك حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولًا..

يا لها من أيام!! كنا ونحن جياع –وما أكثر ما نجوع!- نقبل على خبز السجن والملح والبصل وكأنما نقبل على الحمام المحشو، وكنا نأكل بشهية غريبة تغمرنا السعادة.. وكانت أجسامنا النحيلة نشطة.. خفيفة الحركة.. وقلما نعاني من أي مرض من الأمرض.. والآن من ينجينا من أكداس الشحم، وفقدان الشهية، وتصلب الشرايين، وعسر الهضم، وعذاب الأرق؟

في أحد الأيام جاءني الأخ الكريم زينهم حسن علي من إخوان «إمبابة»، وقدم إلى مجلة أدبية مصورة وقال: «خذ يا عم.. اقرأ..».

كانت مجلة «الرسالة الجديدة»، ولعلها أول مجلة أتحصل عليها منذ سجنت حتى تلك اللحظة، وتصفحتها فوجدت فيها العديد من القصص والقصائد والمقالات النقدية، وأحاديث متنوعة مع بعض مشاهير الأدباء في تلك الفترة.. لكن الذي لفت نظري أكثر، هو ذلك الإعلان الكبير المنشور داخل المجلة عن المسابقة الأدبية الكبري التي تجريها وزارة

التربية والتعليم كل عام، وترصد لها جوائز ضخمة.. وكانت المسابقة تنقسم إلى أبواب عديدة منها القصة القصيرة والرواية والنقد والدراسات الاجتماعية وأدب الرحلات، وعشرات الموضوعات الأخرى كالتراجم والسّير والشعر وتاريخ الأدب.. إلخ.

شعرت بنشوة غريبة..

وأغمضت عيني.. كنت أحلم..

لم يكن أخي زينهم حسن علي يعرف أ ن هذه المجلة التي أخذها من زواره القادمين من القاهرة سوف تنحو بحياتي منحى جديدًا، وتضعني على أعتاب مسيرة جديدة، ورحلة طويلة.. إلى آخر العمر..

لم أنم جيدًا في تلك الليلة، وكنت في نفس الوقت عازفًا عن الكلام مع الإخوة في الزنزانة.. ليس في رأسي بعد أن صليت وتعشيت وألقيت بجسدي على البرش سوى إعلان المسابقة وشروطها وآخر موعد لها، هل أستطيع خلال شهر واحد أن أعد نفسي لهذه المسابقة؟ وهل في الإمكان قبول اشتراكي فيها أصلًا؟ وكيف أخرج مواد المسابقة من السجن إلى وزارة التربية والتعليم؟

قلت في نفسي المهم أن أبدأ خطوة خطوة.

وعلى الله «التساهيل..».

****

[10] شعاع من نور

كان لدي من الحماسة والطاقة ما يكفي لإنجاز هذه المهمة الطارئة بأسرع وأفضل ما يمكن، قررت أن أتقدم للمسابقة الأدبية بكتابين، الكتاب الأول جاهز بكامله، وقد كتبته عن الشاعر الفيلسوف محمد إقبال، فقد أعجبت بفلسفته أشد الإعجاب، كما شدني إليه شعره السلس العميق المترجم إلى اللغة العربية، واقتنعت أن فكر هذه الرجل وآراءه تتفق تمامًا مع الصيغة العامة التي تتبناها جماعة الإخوان المسلمين، أو بمعنى آخر كان فهمه للإسلام فهمًا مستنيرًا شاملًا موثقًا، أما الكتاب الذي انتويت إعداده فهو رواية تحت عنوان «الطريق الطويل» تتعرض للأوضاع العامة في مصر إبان الحرب العالمية الثانية، وكان من الضروري أن تمتد أحداث القصة حتى معركة السويس طبقًا لشروط المسابقة.

وفي اليوم التالي مباشرة ابتدأت في كتابة الصفحات الأولى من الرواية التي تجري أحداثها أساسًا في قرية مصرية، وقد استطعت بحمد الله إنجاز الرواية في فترة لا تزيد عن ثلاثة أسابيع، وهو رقم قياسي في تصوري، ولعل ذلك كان راجعًا للاستعداد النفسي ووفرة الأحداث، وعمق التجارب التي تتصل بهذا الموضوع، وانتعاش الأمل بعد أن أظلمت الآفاق، وكاد اليأس يستحكم.

وكان من الضروري أن أعد نسختين من كل موضوع، وأن أرسل المادة إلى وزارة التربية مسجلة قبل انتهاء الموعد، ومن شروط المسابقة أن يكتب المتسابق على مؤلفاته اسمًا مستعارًا ورقمًا سريًا، ثم يرفق بها خطاب مغلق به الاسم الحقيقي للمتسابق وعنوانه، وقد تعاون معي بعض الإخوة في نسخ الأصل وأذكر على رأسهم الأخ محمود الصواف العامل بشركة المحلة الكبري للغزل والنسيج المحكوم عليه معنا بالسجن عشر سنوات، وكان محمود ذا خط جميل.

وساعدنا الزميل والضابط السابق بالجيش نجيب عطية، عن طريق باشكاتب السجن الأستاذ محمود أبو الروس، ولم يتكلف التسجيل أكثر من نصف جنيه، وشعرت بعد ذلك

بالارتياح الكبير، ولم يعد أمامي سوى أن أنتظر النتيجة، وهي فترة لا تقل عن بضعة شهور بالطبع، وذلك لضخامة المسابقة وكثرة موضوعاتها المتنوعة.

لقد عشت فترة الكتابة وأنا متفرغ لها تمامًا، حتى في أوقات الراحة، كنت أعيش في جو الرواية، وقد تخطر لي فكرة أو حدث أو حوار، فأترك طعامي، وانسل من بين إخواني كي أسجلها على ورقة صغيرة قبل أن تهرب.. إن الفكرة بقوتها وحرارتها تظل متوهجة إذا سجلت في حينها، أما إذا أرجئت لوقت آخر، فقد تفقد الكثير من عمقها وجمالها.. وفي حياتي الأدبية ضاعت مني أفكار كثيرة؛ لأني تكاسلت عن تسجيلها في حينها، وفي حالات كثيرة كانت المبادرة بتسجيل الأفكار بداية نجاح في الإبداع، وإني لأذكر، وأنا اكتب رواية «اليوم الموعود» بعد ذلك في عام 1960، كنت قد انتهيت من كتابة الفصل الثالث، وتوقفت لأبحث عن حدث أو شخصية تكون لها القدرة على بث مزيد من الحرارة والتشويق أو الإثارة في الرواية.. وفي أثناء عودتي من كلية طب القصر العيني ذات يوم، وثبت إلى ذهني شخصية «ياقوتة» الغجرية، وكانت رواية «اليوم الموعود» رواية تاريخية عن الحروب الصليبية، وأسر الملك لويس الفرنسي في «دار ابن لقمان» بالمنصورة، وكنت ملتزمًا لحد كبير بالأحداث التاريخية، لكن «ياقوتة» كانت شخصية «موضوعة» تمثل واحدة من بنات الشعب المصري، وفي «الترام» سارعت بتسجيل ما تخيلته عن هذه الشخصية المثيرة، وما إن وصلت إلى البيت حتى أخذت في الكتابة، واكتشفت بعد الانتهاء من الرواية بعد فترة، أن شخصية هذه الغجرية قد أعطت الرواية نكهة خاصة، وكانت سببًا من أسباب نجاحها..

وبينما كنت أقرأ تفسير ابن كثير للقرآن الكريم، جذبتني قصة هاروت وماروت التي وردت في سورة البقرة، وخاصة عندما أغوتهما امرأة من «بابل» القديمة تسمى «أناهيد»، كانت القصة تحفل بطبيعة الإنسان وغرائزه، وقضية العدالة وقداستها، ومداخل الانحراف عند من يمسكون بأمن المجتمع واستقراره، وفكرت في أن أكتب مسرحية تدور أحداثها حول هذا الموضوع، وفعلًا أتممت كتابة الفصول الثلاثة للمسرحية، ووضعت لها عنوان «حسناء بابل» ومن سوء الحظ أن هذه المسرحية استولى عليها العسكر في إحدى حملات التفتيش ولم أستطيع العثور عليها بعد ذلك.

ولقد قمت بجمع شعري في تلك الفترة في كراسة واحدة، وأطلقت على هذه المجموعة من الشعر «أغاني الغرباء»، وفي حملة أخرى من حملات التفتيش استولى عليها الضابط «زكي»، وكانه عثر على كنز ثمين، وبعد أن قرأها أحالها إلى مدير السجن مطالبًا بتقديمي مرة ثانية للمحاكمة نظرًا لما يتضمنه الديون من هجوم على الحكومة وأسلوبها، وكان من حسن الحظ هذه المرة أن مدير السجن الجديد «صدقي محمود» كان رجلًا مهذبًا، وتعاطف مع موقفي، وساعدني في ذلك أيضًا ضابط شاب آخر هو الملازم أول عبد المنعم، وحلا للإشكال تقرر إحراق الشعر، والاكتفاء بذلك، فأبديت اعتراضي الشديد، وتم إبلاغه للمدير عن طريق عبد المنعم الذي جاءني بعد يومين وقال: «هذا هو الشعر.. خذه.. ولا تطلع عليه أحدًا.. وأخرجه من السجن بأية وسيلة.. لأننا أخبرنا الضابط زكي أنه تم حرقه..».

كان موقفًا نبيلًا لاشك، ولم تكد تمر فترة وجيزة حتى جاء أحد الأقرباء لزيارتي من وراء الأسلاك، فأخبرته بأني سوف أرسل إليه كراسة الشعر بعد الزيارة، وعليه أن يحتفظ بها حتى نخرج من هذا الجب.. ربما بعد عام أو أعوام.. الله أعلم.. وكان هذا القريب هو الأستاذ حلمي الشافعي الذي كان يعمل وقتها مدرسًا في الصعيد.. لكن الضابط زكي ظل على اعتقاده بأن الشعر قد أحرق، وكثيرًا ما كان يأتي إلي في تشفٍ ويواسيني في الشعر المحروق، وهو لا يعلم حقيقة ما جرى. وقد شاء الله أن تصدر هذه المجموعة من الشعر في بيروت بعد سنوات أي في أوائل السبعينيات، من القرن العشرين، كما أعيد طبعه في مؤسسة الرسالة ببيروت أيضًا.

وهذه الفترة كان السيد الوالد رحمه الله يبذل قصارى جهده في نقلي من سجن أسيوط إلى سجن القاهرة حتى أكون على مقربة منهم، بحيث تسهل الزيارة ومختلف المعاملات الأخرى، وقد نجح الوالد في ذلك أخيرًا بتوفيق الله، لكن الخطاب الذي جاء بأمر ترحيلي أشار إلى أني سأذهب إلى سجن القناطر الخيرية وليس سجن القاهرة، وكنا نعلم أن إخواننا الذين كانوا في «ليمان طرة». قد نقلوا بعد الحادث إلى سجن القناطر الخيرية، وأنهم يعيشون تحت ظروف عقابية وتكديرية شديدة، فأشفقت من الذهاب إلى القناطر الخيرية لدرجة أنني فضلت البقاء في سجن أسيوط، لكن لم يكن لي في الأمر حيلة، لقد صدر القرار وانتهى الأمر، ولابد من التنفيذ، فأرسلت رسالة إلى الوالد أخبره فيها بمكاني الجديد، وأصر إخواني على

إقامة حفل «وداع» لي بعد أن أخذوا إذنًا من الإدارة، على أن يكون الحفل داخل العنبر، في مكان رحب لحد ما بالدور الثاني عند بسطة الدرج..

كان وداعًا حارًا أسال دموعي، وكانت الكلمات تحتبس في حلقي، وكان بين المودعين الأستاذ أحمد شريت عضو مكتب الإرشاد للإخوان المسلمين، الذي قدم من الواحات للعلاج في أسيوط، وكان رحمه الله رجلًا شهمًا من رجالات الصعيد المرموقين، والدعاة المخلصين، ومنهم أيضًا المرحوم الأستاذ الشاعر الداعية «أحمد نار» وقد حضر أيضًا للعلاج من الواحات لاشتباه وجود ورم خبيث بالأمعاء؛ وعلى الرغم من وجود بعض الخلافات في الرأي حيال بعض الموضوعات الفكرية والتنظيمية، إلا أن الجميع جلسوا على صعيد واحد، في مودة صادقة، وكانت الكلمات التي قيلت في هذا الصباح معبرة عن صدق العزيمة، والالتزام بالمبادئ، والتواصي بالصبر، وأخذ العبرة مما يجري، أما كلمتي الأخيرة فقد كانت تركز على الاعتصام بالرابطة العَقَدية في ظل الإخاء والحب والتفاهم، على ألا يكون الخلاف في الرأي مدعاة للقطيعة.. ودعوت أصحاب الآراء المتصادمة إلى التصالح فورًا والآن، وكان مشهدًا رائعًا حينما تعانق الإخوة وتصافوا.. فكان ذلك إيذانًا ببداية جديدة..

وفي فجر يوم صيفي لعله في شهر أغسطس عام 1957، خرجت من سجن أسيوط والدموع تخنقني، كان الإخوان خلف أبواب الزنازين المغلقة يبعثون بتحياتهم، وأنا عاجز عن الرؤية أو النطق لشدة الانفعال، وهبطت الدرج تسبقني عبراتي، وقال لي السجان وهو يضع الأغلال «الكلبشات» في يدي: «هكذا الدنيا.. لقاء وفراق.. هنا سجن وهناك سجن.. لكن على الأقل سترى الدنيا ولو لساعات..».

كانت حراستي مكونة من ضابط وصول واثنين من العسكر، ومضى الضابط الشاب أمامنا حتى وصلنا إلى أحد صالونات الدرجة الأولى بالقطار، إنها المرة الأولى في حياتي التي أجلس في الدرجة الأولى، واستأذنت من الضابط أن أشتري الصحف والمجلات فوافق على الفور، كنت جائعًا لمثل هذه الوجبة الثقافية، وأخذ الضابط يسألني عن عملي، وقضيتي والحكم الصادر ضدي، وأخيرًا نظر إلى الصول وأمره بأن يفك الأغلال، فكانت لفتة طيبة منه..

وجاء أحد الركاب واستسمح الضابط في أن يعطيه مكانًا بالصالون لعدم وجود أماكن أخرى شاغرة بالقطار، فتردد الضابط قليلًا في البداية، ثم سمح له، وجلس الوافد الجديد صامتًا، يتصفح الجريدة، لكنه انتهز فرصة خروجهم وسألني: «ما هي حكايتك».

- «سجين.. ألا ترى السترة الزرقاء؟».

- «يبدو أنك متعلم، فلماذا سجنت؟».

قلت باقتضاب: «من الإخوان المسلمين..».

وبدت عليه الدهشة وقال: «ألم يزل في السجون إخوان؟».

قلت له: «طبعًا.. ألا تعلم؟».

فمط شفتيه وسكت..

هذا الحوار الموجز أصابني بألم نفسي شديد، حتى أمثال هذا الرجل من المثقفين لا يعرفون عنا شيئًا؟ هل العيب في الصحف التي لم تعد تشير إلى قضيتنا من قريب أو بعيد، أم العيب في الأخلاقيات الجديدة التى جعلت كل فرد ينطوى على خصوصياته ويبعد عما قد يجلب له المتاعب؟

كانت تنتظرنا في محطة السكة الحديد بالقاهرة سيارة «جيب» تابعة لوزارة الداخلية، ومن القطار إلى السيارة مباشرة، ومضت «الجيب» في طريقها إلى سجن القناطر، كنا في وقت الغروب الحزين، والسجن صامت صمت القبور، واستقبلنا أحد ضباط السجن وبعد التسليم والتسلم وعمل التسجيلات الدفترية، أخذت إلى الداخل بعد أن شكرت حراسي الكرام المرهقين من طول السفر..

كان الصول شلقامي يجلس خلف مكتب حقير، ونظراته الجامدة مسددة نحوي، وقال: «مرحبًا.. شعرك طويل.. لابد من حلاقته غدًا..».

أعوذ بالله، أهذه هي البداية؟ إن شعري لا يزيد عن سنتيمترين، لم يزعجني ذلك كثيرًا، فقد تعودت على مثل هذه الفتاهات، والأمر لله ما شاء يفعل.. وقال لي الشلقامي: «هنا سجناء طرة.. وهؤلاء لهم معاملة خاصة.. إنهم شياطين.. والاتصال بهم ممنوع منعًا باتًا..

طبعًا سمعت عن حادث «طرة».. مفهوم؟» لم أجب بشيء، هذا هو أسلوبهم المقيت الذي قلما يتغير..

وسلمني الشلقامي «برشًا» من السعف وبطانية، ثم أخذني إلى الزنزانة المجاورة لمكتبه، وما إن فتحها حتى وجدت فيها إخوة لي أعرفهم من قديم: علي محمد عبد المنعم، وعبد الوهاب السقا، وسمير الغندور.. كانوا معنا في سجن أسيوط قبل ذلك، ثم تم ترحيلهم إلى هنا منذ زمن ليس بالطويل.. وكان الترحيب والعناق.. وشعرت بالارتياح.. لأني لن أكون وحدي في حبس انفرادي..

وقال الشلقامي وهو يغلق علينا الزنزانة: «اشرحوا لأخيكم التعليمات..».

وانفجرنا من الضحك، والدموع تملأ عيوننا..

وأخذت استفسر عن إخوان طرة المتواجدين في الزنازين المجاورة لنا بنفس الطابق، وأخبرني الإخوة أن الشلقامي يمنع الاتصال بهم، وقال على عبد المنعم: «الشلقامي هذا كالوحش، ونحن نحاول ترويضه بشتى الطرق، ونقدم إليه الهدايا والمنح التي يأتي بها زوارنا، ونشتري له السجائر والبولوبيف، وذلك حتى يسمح لنا بإرسال بعض أقراص الأسبرين وأدوية المغص وغيرها إلى إخواننا القادمين من ليمان طرة عقب الحادث المؤلم.. والأمر يحتاج منا إلى الكثير من اللباقة والكياسة حتى نستطيع أن نقدم أية خدمة ممكنة لهم، ونحاول جاهدين أن نجعل الشلقامي وعساكره يقللون من الإهانات والضرب بالنسبة لهم..».

قلت: «هل معاملتنا تختلف عن معاملتهم؟..».

قال علي: «بالطبع.. لأننا لم نكن ممن حضروا الحادث.. ويبدو أن هناك أوامر بمعاملتنا بصورة طبيعية..».

عندما فتحت الأبواب في الصباح، نبه علينا الشلقامي ألا نخرج أثناء خروج الآخرين، ورأيت إخوان طرة يجرون في طابور طويل، حاملين جرادل الماء والبول، متجهين إلى دورة المياه، كانوا شاحبي الوجوه، حليقي الرءوس، متسخي الثياب، يختلسون النظرات إلينا عبر بابنا المفتوح، وسمعت بعضهم يقول بصوت هامس: «حمدًا لله على السلامة يا نجيب..».

قلت: «كيف عرفوا بمجيئي؟».

قال علي: «كلهم يعرفون.. نحن ننتهز فرصة غياب الشلقامي، ونتصل بهم خفية، ونبعث إليهم بما تيسر من أخبار ودواء..».

وانتشرت في هذه الفترة «الأنفلونزا الأسيوية» في مصر، فكان هذا سببًا وجيهًا لمنع الزيارات عن المسجونين، وفي هذه الفترة لم نكن نعرف شيئًا عما يجرى في الخارج، حتى عنابر السجن الأخرى لم يكن يسمح لقاطنيها بالاقتراب منا، والأعجب من ذلك أننا نشغل الطابق الثاني، وهناك ثلاثة طوابق أخرى اثنان فوقنا، وواحد تحتنا، ومع ذلك لم يكن يجرؤ أحد من سكان هذه الأدوار على الحديث أو التعامل معنا، وكان الطابقان العلويان مخصصين لكبار السن والمرضى والعجزة أو أصحاب العاهات، وكان الطابق الأسفل مخصصًا للعاملين في النظافة، ولقد سمحت الإدارة لأفراد زنزانتنا بالخروج صباحًا حوالي الساعة التاسعة كل يوم للشمس في فناء السجن لمدة ساعة تحت إشراف أحد السجانة، والحقيقة أن الإدارة أخذت تخفف الضغط تدريجيًا على إخوان طرة، فقل الضرب، كما خفت حدته، وسمح لهم بالاستحمام، ونتيجة للإكراميات التي نغرق الشلقامي بها، كان يسمح لنا باستضافة واحد أو اثنين منهم لربع ساعة مثلًا، ولم يعد يعارض مدهم بالأدوية..

في أحد الأيام أرسلت الإدارة في طلبي، واستدعاء السجين للإدارة في مثل هذه الأوقات العصيبة أمر مخيف كما سبق وأشرت، هذه الأوضاع السائدة الفاسدة تجعلنا دائمًا نفكر في الجوانب السوداء من المفاجآت، ونظل دائمًا نشفق من المجهول..

قال الضابط سامي وهو يهم لمصافحتي على غير العادة.. «مبروك يا نجيب...».

- «خير يا سعادة البك؟».

- «لقد فزت بالجائزة..».

لم أكن أصدق، دارت بي الأرض، نظرت إلى الورقة التي قدمها لي كي أوقع عليها بالعلم، إنها من مصلحة السجون بالقاهرة، ومضمونها أنني فزت بالجائزة في مسابقة التراجم والسير، والتي تقدمت فيها بكتابي عن «إقبال»، وفزت أيضًا بالجائزة عن روايتي «الطريق الطويل».. لقد انهمر الخير على دفعة واحدة.. ومجموع الجائزتين مبلغ كبير من المال، كيف تم الأمر بهذه الصورة التي لا تصدق؟ هل أنا في حلم أم في يقظة؟ شعرت أن شعاعًا من النور ينبثق في حياتنا المظلمة.. كانت الكلمات والسطور تتداخل على الورقة وأنا أقرأ.. ترى ماذا سيقول أبي

وأمي وأصدقائي وهم يقرءون الخبر في الصحف.. إن فرحتهم ستكون ممزوجة بالأسى.. لا أستطيع أن أصف هذه اللحظات المثيرة العجيبة، قد يبدو الأمر معقول التأثير في الظروف العادية، لكنه بالنسبة لسجين محكوم عليه بالسجن عشر سنوات، ويعيش في جو رهيب من المعاناة والمكابدة، وليس له ماض أدبي يذكر.. عندئذ فإن الأمر يختلف.. إن روحي تحلق إلى بعيد.. إلى آفاق أرحب وأوسع.. ولم لا؟ ألا نتحدى اليأس والألم والفناء؟ اعتذر الضابط عن إعطائي نسخة من الخطاب، وقال إنه سيضعها في ملفي بالسجن، لكنه سألني كيف تتسلم هذا المبلغ الكبير من المال؟

قلت: «أحيله إلى أهلي».

قال: «وإذا رفضت الإدارة؟».

قلت: «فليوضع في أماناتي بالسجن..».

وطرت إلى إخواني لأزف إليهم النبأ..

وانقضوا على عناقًا وتقبيلًا.. وضربًا أيضًا.. لحظة من العمر لا تنسى..

قال الأخ عبد الوهاب السقا وهو يضيق عينيه في حصافة وعمق وتفكير: «قد يكون فوزك فاتحة خير كبير».

- «كيف؟».

- «قد يفكرون في الإفراج عنك..».

- «لا أظن.. في السجون العديد من المفكرين والأدباء.. يكفيني هذه المكافأة من الله، والعجيب أن المباحث العامة قد سمحت بذلك الفوز.. إنه أمر ملفت للنظر ولاشك، ويحتاج لمزيد من التفكير والتحليل..».

لم يكن الفرح من أجل الجائزة المالية.. بل فرح من نوع آخر لا يقدر بثمن ولا مال، إنه تأكيد الذات، والقدرة على النجاح رغم العوائق والسدود، والإصرار على الإيمان والأمل، وفي الصحراء الجرداء قد تنبت نبتة خضراء، وفي الأرض الخراب قد تتجلى زهرة حلوة العبير، لأن الإنسان لا يموت ما دام معتصمًا بالإيمان والأمل..

وفي اليوم التالي قابلني الضابط سامي في فناء السجن أثناء فترة الفسحة، ودعاني لأن ألعب معه مباراة «راكت» في ملعب صغير من أطراف الفناء، إنه تصرف يدعو للعجب، وأخذت ألعب معه بتحفظ رغم أني أجيد اللعبة، ومن آن لآخر أوجه الكرة بطريقة فنية يعجز عن ملاقاتها، وكان يعلق باسمًا، ممتاز في الأدب وفي الرياضة أيضًا..

وفي نفس الأسبوع سمح لإخوان طرة لأول مرة بالنزول إلى طابور الفسحة كما سمح لنا بالاختلاط بهم، وكان يومًا سعيدًا بالنسبة للجميع، ولعبنا كرة السلة وجرينا وعرضنا أجسادنا لشمس أكتوبر، وأصبحت الحياة في سجن القناطر أكثر راحة وألفة..

وطلبت من الضابط سامي أن يستأذن الإدارة في أن أكتب رسالة إلى الأديب الراحل الأستاذ محمد عبد الحليم عبد الله، لعله يرشدني إلى الطريقة التي أطبع بها قصتي وأنشرها، ولم أجد ممانعة في ذلك، فكتبت الرسالة، لكن الرد لم يكن إيجابيًّا، حيث أخبرني أن دور النشر مؤسسات تجارية ويهمها الربح بالدرجة الأولى، وإنهم ينشرون لكبار الكتاب، ويترددون كثيرًا في النشر للناشئين الأدباء، لكني لم أيأس، وأخذت أفكر في طريقة أخرى لنشر كتبي..

في هذه الفترة جاءني كاتب السجن خفية، وأخبرني أن الأخ الصديق دكتور عبد الأحد جمال الدين «رئيس المجلس الأعلى للشباب والرياضة حاليًا»، قد جاء على رأس مجموعة من طلبة حقوق عين شمس لزيارة السجن، وكان عبد الأحد وقتها يعمل في هيئة التدريس بالكلية، وقد رتب هذه الزيارة ليراني، وخاصة أنه مسافر إلى إيطاليا في بعثة دراسية قريبًا، لكن الإدارة لم توافق على زيارة لي، فأرسل إلي بطاقة صغيرة مع هذا الكاتب..

ولم تكد تمر فترة أسابيع قليلة على تغيير المعاملة إلى الأحسن، حتى انفجرت الأمراض النفسية بين مسجوني ليمان طرة السابقين كالوباء.. نعم كالوباء.. إن الحادث الرهيب وما تركه من أثر، وكذلك المعاملة القاسية التي تعرضوا لها عقب الحادث قد أفرزت حالات من الانهيار العصبي والهستيريا والاكتئاب وغيرها من الأمراض النفسية، وقد تفاقمت حالات البعض ووصلت إلى درجة خطيرة تكاد تكون جنونًا.. كان عدد هؤلاء المرضى أربعة أو خمسة..

وكان الدكتور مصطفى النحاس طبيب السجن آنذاك، وطبيب الرئيس عبد الناصر فيما بعد، أقول كان رحمه الله طبيبًا على خلق كريم، فقد تفهم الوضع وأوصى بأن يوضع المرضى

النفسيون تحت الإشراف الطبي الدائم في مستشفى سجن القناطر، وتم اختياري لكي أكون مرافقًا لهم بالمستشفى، لكوني طالب طب سابق في المرحلة النهائية من الدراسة، والحقيقة أن هذه الفترة كانت عصيبة بالنسبة لي، كان هؤلاء المرضى يشكلون مأساة أخرى مجسدة لمظاهر القهر والعنف والوحشية التي تعرضوا لها، فالسجين «معوض» مثلًا، كان يجلس صامتًا طول اليوم، قلما يأكل أو يشرب، وفجأة يقف عند نافذة في المستشفى، ويؤذن للصلاة بصوت عالٍ، وقد يكون الوقت منتصف الليل أو الساعة العاشرة صباحًا، وبعد أن ينتهي من الأذان، يصيح: «لن تمنعني من الأذان يا عبد العال «وهو ضابط بالسجن» سأقوم بالأذان غصبًا عنك».

ولقد تعرض معوض لضرب مبرح لأنه أذن للصلاة أثناء التكدير وهو في زنزانته، ولقد أتت «زينب» زوجة معوض لزيارته لكنه لم يتعرف عليها، ورفض التحدث معها، ومن المؤسف أن معوض بعد ذلك أصيب بنزيف دموي في المثانة دون أن يشعر به أحد، وظل ينزف في مستشفى آخر حتى مات رحمه الله.

لا أريد أن استطرد في شرح مآسي هذه المجموعة من المرضى، ويكفي أن نقول إن هذه الظاهرة المحزنة، كانت دلالاتها خطيرة على ما يحدث خلف القضبان من مآسٍ تجل عن الوصف..

وفي أحد الأيام جاءني لأول مرة مدير السجن اللواء «عباس قطب الغايش»، حسبته في البداية يقوم بمرور عابر في نواحي السجن، وأخذ العسكر يجرون هنا وهناك ويصدرون النداءات العالية «انتباه»، وينفخون في صفاراتهم بشدة تتناسب مع قدوم شخصية كبيرة، وكانت التعليمات قد صدرت لنا كمسجونين أن ننظف الزنازين، ونرتب فراشنا، ونلبس الطواقي الزرقاء، ونجلس في هدوء ونظام، فإذا ما دخل علينا المدير وقفنا «انتباه»، وإذا تكرم المدير وسألنا عن أحوالنا قلنا: «كل شيء تمام يا أفندم».

وإذا استفسر عن مطالبنا قلنا: «ليس لنا أي مطالب يا أفندم».

لم يمر المدير كما توقعنا، لكن قصد الزنزانة التي أقيم فيها، فانتفضنا واقفين حسب الأوامر، وأخذ يجوس خلالنا بنظراته الفاحصة، وأشار الضابط نحوي، عندئذ ابتسم سعادة المدير اللواء وقال لي: «سيأتي لزيارتك اليوم مندوب من مجلة «المصور» ليجري حديثًا

صحفيًا معك.. طبعًا ستعطيه الانطباع الطيب عن المعاملة في السجون.. ولولا هذه المعاملة الكريمة لما اشتركت في المسابقة وفزت بها.. إن الصحف في الخارج تتحدث عنك باحترام.. ويبدو أنك رجل طيب.. مؤدب.. سننقلك الآن إلى المستشفى، لأن المكان أنسب هناك».

- «متشكر يا افندم..».

وانصرف المدير -كما جاء- محاطًا بكل مظاهر الاحترام الرسمي، ثم أخذني الضابط سامي إلى مكتبة السجن، وطلب مني أن أختار مجموعة من الكتب لا تزيد عن عشرة من أمهات الكتب، وصعدت إلى المستشفى، فوجدتهم قد أخلوا الصالة الشرقية من المرضى تمامًا، وهي تتسع لأكثر من خمسة عشر سريرًا، واختاروا لي سريرًا بفرش جديد نظيف، ووضعوا إلى جواره باقة من الزهور التي قطفت حديثًا من حديقة السجن، ثم أشار الضابط بأن أضع صف الكتب على «الكوميدينو» المجاور للسرير، ثم صعدت إلى السرير وجلست أنتظر..

وبعد ما يقرب من ربع ساعة، جاء صحفي ومعه مصور، يسبقهما الضابط سامي، وأجال الصحفي العجوز بصره في أنحاء المكان وابتسم، كان قصيرًا تبدو على وجهه أمارات الطيبة والوقار، وصافحني في ود بالغ، وجذب أحد المقاعد وجلس، وأخذ يسألني عن صحتي وأحوالي، وانتهز فرصة ذهاب الضابط لبعض الوقت وسألني عن السبب في الحكم علي بالسجن، ولما أخبرته هز رأسه وتنهد وقال: «أدعو الله أن يفرج كربتك»، ثم أخذ يسألني عن المسابقة وقصة فوزي بها، وعن قراءاتي، واهتماماتي الأدبية، والموضوعات التي أنتوي الكتابة فيها مستقبلًا، وغير ذلك من الأمور الأخرى المتعلقة بالفن والأدب بصفة عامة، ثم أمر المصور بالتقاط بعض الصور لي من زوايا مختلفة، وجاء الضابط سامي وهو يسألني: «ماذا تكتب الآن؟» فقلت له بأدب: «إنني أنتظر موافقة الإدارة بالسماح لي بالأوراق والأقلام حتى أبدأ» فنظر الصحفي وكان اسمه الأستاذ حسني الحسيني «دار الهلال» إلى الضابط سامي متسائلًا: «لماذا لا تسمحون له بالأقلام والأوراق؟» فأجاب بسرعة: «سوف نسمح له في الحال»، فأخرج الصحفي قلمًا ثمينًا من جيبه وقال لي: «هل تقبل هذا هدية مني؟».

كانت مجاملة رقيقة منه ملأت قلبي بالامتنان، ومددت يدي لأتناول القلم الهدية لكن يد الضابط سامي كانت أسبق مني، إذ أخذ القلم وأكد للصحفي إنه سوف يسلمه لي فيما بعد عن طريق المدير، حسب النظام واللوائح..

قضى معي الصحفي أكثر من نصف ساعة، ثم صافحني مودعًا، وعلى وجهه تبدو علامات الانفعال الصادق، والمشاركة العاطفية العميقة، وبعد دقائق، أعيدت الكتب إلى المكتبة، وحملت باقة الزهور بعيدًا، وأخذت أنا إلى العنبر في زنزانتي المعهودة..

وبعدها بأيام زارني الأستاذ «عبد الحميد العتريس» موظف العلاقات العامة بمصلحة السجون، وأحد المشرفين على مجلة السجون، وأجرى معي تحقيقًا صحفيًا رائعًا كان من أجمل ما كتب في هذا الموضوع، وقدم للتحقيق بعبارات قوية شيقة مؤثرة.

وصدرت بعد ذلك مجلة المصور، وفيها صفحة عن حكايتي، وكان العنوان الرئيسي: هل وجدت قصة أغرب من هذه القصة؟ لكنها كتبت عن قضيتي إنني حاولت إثارة طلبة الجامعة ضد الثورة في عام 1955، فكان أ ن قدمت للمحاكمة وصدر ضدي حكم بالسجن عشر سنوات مع الشغل، مع أن التهمة لم تكن كذلك، ويبدو أن الإدارة هي التي ألزمت المجلة بذلك، وعلى كل فإن بعض وكالات الأنباء قد نقلت خبرًا صغيرًا عني، فتلقفته إذاعة إسرائيل، وقدمت حديثًا إذاعيًا عني، أشارت فيه إلى أن عبد الناصر يلقي بالأدباء والمفكرين خلف الأسوار، ويعاملهم أسوأ معاملة، وضربت بي مثلًا لذلك، وتحدثت باستفاضة، وأذيع الحديث مرتين في أسبوع واحد، وسمعه الكثيرون حتى إن مدير سجن القاهرة اللواء محمود صاحب فاتحني في الأمر بعد أن انتقلت إلى سجن القاهرة، فقلت له: «وما ذنبي في ذلك؟ لو علمت إسرائيل أن قصة «الطريق الطويل» التي فزت فيها تتعرض للصهيونية ومخازيها وعنصريتها لما أعادوا هذا الحديث.. إنهم يستغلون كل خبر ويستثمرونه لصالحهم، وهذا أمر معروف..».

وتمر الأعوام تلو الأعوام، وأنشر الجديد والمزيد من الكتب بعد خروجي من السجن، وتضعني إسرائيل ضمن «القائمة السوداء» التي يمنع كتب أصحابها من الدخول أو التداول في إسرائيل، وكنت في هذه الفترة أعمل طبيبًا بدولة الإمارات العربية المتحدة، ومن أهم

الكتب التي أغضبت إسرائيل كتاب «دم لفطير صهيون» وكتاب «عمر يظهر في القدس» وكتاب «أرض الأنبياء» وغيرها من الكتب..

في سجن القناطر تحسنت الأحوال كثيرًا، وسمح لنا بالذهاب إلى المكتبة واستعارة الكتب، كما سمح لنا بالأوراق والأقلام، وبدأت أمارس حياتي الأدبية كالمعتاد قراءة وكتابة، وكتبت عدد من الصفحات في رواية جديدة بعنوان «في الظلام»، ولقد كنت في هذه الفترة أفكر في أن أنسب مكان لي حاليًا هو «سجن القاهرة»، لأن على رأسه رجل مثقف، وإنسان كبير القلب، هو اللواء محمود صاحب، فضلًا عن أن سجن القاهرة آنذاك، كان يفسح الطريق أمام المواهب، ويعامل السجناء بطريقة إنسانية، ووسائل الاتصالات والزيارات متيسرة لحد كبير، كما أنه لم يكن سجنًا للسياسيين تقريبًا، ولهذا فكرت في العمل جديًّا للانتقال إلى سجن القاهرة بحجة العلاج، وتكرم طبيب السجن بكتابة تقرير طبي أكد فيه على ضرورة نقلي إلى سجن القاهرة للعلاج، ثم العودة بعد الشفاء مرة أخرى للقناطر، وإن كان أمر العودة هذا لم يتحقق كما سنرى، إذ بقيت في سجن القاهرة حتى قرار الإفراج عني..

كان معنا في سجن القناطر مجموعات شتى من السجناء، ومن ضمنهم مجموعة اتهمت بالتجسس بينهم «الخواجة وليم» وهو صحفي لبناني متقدم في السن، كان يلتقى بنا كل يوم ليخفف من بؤسه وشقائه، ويتحدث معنا في شتى الموضوعات، وكثيرًا ما كان يردد باللغة الإنجليزية «إنها حياة بائسة»، وكان كلما مر «الخواجة وليم» أمام مشرحة السجن يصاب بالذعر، ويقول: «لشد ما أخاف أن أموت في السجن ويشرحون جثتي هنا..» فكنت أقول له ضاحكًا: «ياخواجة.. وماذا يضير الشاة سلخها بعد ذبحها؟» فيلوح بيده في غضب، ويستنكر ذلك ويهرول بعيدًا عن المشرحة.. ومن عجائب الصدف أن يموت وليم في السجن، وتنقل جثته كالمعتاد إلى المشرحة للتشريح..

كان الضابط «ع. س» من أخطر الضباط في سجن القناطر، فإلى جانب أنه شارك في أحداث ليمان طرة، فقد انتقل مع المسجونين بعد الحادث إلى سجن القناطر، وكان هو المشرف الفعلي على التعامل مع السجناء، كما لعب دورًا خطيرًا في الدس والوقيعة بين الإخوان، وإثارة الشكوك الكبيرة في صفوفهم، وظل يمارس هذا الدور في سجن طرة والواحات والقناطر، ثم في عام 1965، 1966 في سجن أبي زعبل، ثم أصيب فجأة بداء

عضال أودى بحياته، لكنك إذا تعاملت معه تجده يبدو رقيقًا باسمًا مهذبًا ناعم الملمس.. وأخيرًا تم ترحيلي إلى سجن القاهرة، فودعت سجن القناطر وسط حفاوة بالغة من الإخوان.. كانت الابتسامات تعلو الوجوه، لكن قطرات الدموع تبلل الأهداب.. ويبدو أنهم في سجن القاهرة كانوا على علم بحضوري إليهم، فما إن دخلت السجن «وكان معي زميلان آخران» حتى قال الضابط المناوب بعد الظهر، وهو يتفحصنا: «من فيكم نجيب الكيلاني؟».

فهززت رأسي مبتسمًا، فأقبل نحوي فرحًا، وصافحني بحرارة.. كان هذا الضابط هو مأمور السجن، واسمه «سمير قلادة»، رجل مسيحي نبيل.. وكان هذا اللقاء مع سمير قلادة بداية صداقة طويلة جدًا.. امتدت حتى يومنا هذا، إنه الآن على التقاعد برتبة لواء، ويعيش في مدينة طنطا معنا، ولقد ارتبط بوالدي وبأسرتنا، بل بقرية «شرشابة» بلدنا ارتباطًا قويًا، وكان يزورنا فيها كثيرًا هو وأسرته، ولقد قدم لي هذا الرجل الكثير من الخدمات الجليلة، بل إنه عرض نفسه لخطر كبير عندما سمح لي ذات مساء بالاتصال بأحد المعارف عن طريق تليفون السجن.

كانوا يطلقون على سجن القاهرة «اللوكاندة» أي الفندق، لما فيه من تسهيلات ومعاملة حسنة، و ذلك راجع بالطبع إلى منهج المرحوم اللواء محمود صاحب في الإدارة، وهناك التقيت مرة أخرى بالأخ المهندس المرحوم «محمود عجوة» المتهم الاول في قضية الجبهة الوطنية، وقد أشرت إلى ذلك من قبل، كما التقيت بعدد آخر من الإخوة الذين قدموا من سجون أخرى لإجراء عمليات جراحية، وبعدد من ضباط المدفعية الذين سبق تقديمهم للمحاكمة بتهمة محاولة الانقلاب ضد عبد الناصر منهم المصري والصاوي والدمنهوري وغيرهم كما سبق وأشرت.

واستدعاني اللواء صاحب في اليوم التالي، ورحب بي، وطلب مني المساهمة في تحرير مجلة «السجون» التي يتولى الإشراف عليها، ولما سألني إن كان لي أية طلبات كي يحققها لي، فقلت في إيجاز: أولًا: زنزانة خاصة بي، ثانيًا: مكتب خشبي صغير ومقعد، ثالثًا، أن أستقر في سجن القاهرة، ولا أذهب إلى سجن القناطر أو أي سجن آخر.. فوعدني الرجل خيرًا.. وانصرفت..

وكنت أذهب إلى مكتبة السجن وقتما أشاء باستثناء فترة المساء من الخامسة عصرًا وحتى السابعة صباح اليوم التالي، وفترة الظهيرة بين الواحدة والنصف ظهرًا حتى الرابعة، وكان أخي محمود عجوة هو أمين المكتبة، ووضع تحت تصرفي كل ما أريد من كتب وصحف ومجلات، كما إن مدير السجن أصدر أمرًا بأن يسمح لي بزيارة في يوم يحضر فيه أحد من أهلي، وأن تكون الزيارة شخصية وليست «سلكية» أي بدون حواجز وقد تصادف وجاء والدي ووالدتي في يوم عيد الأم لزيارتي، وكان زحام الزيارة شديدًا، مما جعل المدير يأمر بأن تكون زيارتي في المستشفى، وهناك استقبلت الوالدين، ووجدتهما في حالة أفضل كثيرًا من ذي قبل، وفوجئت أثناء جلوسي معهما بصحفي من مجلة التحرير يحاول التقاط صورة لي، فأصرت والدتي على أن تغطي وجهها بالشال الأسود الرقيق وكانت الصورة التي نشرت في المجلة على هذا النحو من الذكريات الطريفة..

ألا شتان بين سجن القاهرة الآن 1958 وسجن القاهرة عام 1955 حينما نقلنا إليه من السجن الحربي المشئوم.

وشمرت عن ساعد الجد.. كان لابد أن أعمل أغلب الليل والنهار في القراءة والكتابة، وأن أسابق الزمن، ومن خلال المعاملة الطيبة في تلك الفترة، كنت أعتبر نفسي بلا قيود، أشعر أن نفسي حرة، وأنني أنطلق بروحي أينما وكيفما أشاء، ومن الأمور التي أثرت في نفسي أنني وجدت أحد السجانة يضع صورة لي قصها من إحدى المجلات في حافظة نقوده معتزًا بها، كما إن بعض السجون وضعت صورتي على باب مكتبة السجن كما روى ذلك ضابط منقول من سجن «شبين الكوم» وزارني في السجن أيضًا «الأستاذ فهمي عمر» الإذاعي الشهير لتسجيل حديث في برنامجه «مجلة الهواء»، وأجرت صحفية من دار أخبار اليوم تحقيقًا صحفيًّا معي، كما عرضت الأهرام والجمهورية والاكتواليتيه التي تصدر بالفرنسية نبذة عن حياتي وأدبي.

شعرت أن المسئولية أصبحت ثقيلة، وأخذت أستعد للمسابقة الجديدة التي تجريها سنويًّا وزارة التربية والتعليم، كما اشتركت في مسابقة نادي القصة ومسابقة الشبان المسلمين وغيرها من المسابقات، وكنت مهتمًا بمسابقة وزارة التربية بصفة خاصة وأعددت لها ثلاثة كتب:

- الأول عن أمير الشعراء شوقي.

- الثاني دراسة اجتماعية نفسيه عن السجون تحت عنوان «المجتمع المريض»، مدعمًا بالصور والإحصاءات والوقائع، ومن أهم موضوعات هذا الكتاب فصل بعنوان «مجتمع له قيمه الخاصة» وفصل آخر بعنوان «الفنون في السجون».

- والثالث رواية سياسية بعنوان «في الظلام» أخرجت مسلسلًا إذاعيًا فيما بعد.

لقد كانت فرحتي غامرة حينما فزت بجوائز الكتب الثلاثة في وزارة التربية والتعليم لعام آخر، كما فزت بجائزة مجلة الشبان المسلمين عن القصة القصيرة، وإحدى جوائز نادي القصة، لقد كان التوفيق كبيرًا، وخاصة أن كتاب «المجتمع المريض» قد استحق الفوز في فرع دقيق اشترك في مسابقته بعض الدكاترة من الأساتذة المتخصصين وعدد من الكتاب المرموقين في مصر.

نعود مرة أخرى إلى مشكلة نشر الكتب الفائزة التي كانت تشغلني كثيرًا، والواقع أن هناك عددًا من الشخصيات التي أسهمت بجهد كبير في هذا الموضوع، على رأسهم شقيقة الشهيد الأستاذ سيد قطب التي تولت التنسيق والتعاقد مع مكتبة مصر بالفجالة «السحار وشركاه» كما ساهم في ذلك المرحوم اللواء محمود صاحب والضابط سمير قلادة وغيرهم.

وأشار علي بعض الإخوة بأن أحاول الخروج إلى القصر العيني لعلاج ركبتي التي أصيبت منذ فترة، وحدث كسر في شوكة عظمة الساق، لكنه حدث ضمور في عضلات الفخذ، وما زالت آلام الركبة تزعجني، وفعلًا اتصلت بالدكتور إبراهيم زكي جراح مستشفى السجن، فأبدى تعاطفًا كبيرًا، وكتب تقريرًا لإدارة السجون المركزية يطلب فيه عرضي على أخصائي عظام بالقصر العيني، وتمت الموافقة على التقرير..

عندما ذهبت إلى القصر العيني، وقفت جياش العواطف، ففيه كنت أتلقى دراساتي الطبية.. المباني التي عشت فيها سنوات من عمري، الأساتذة الكبار الذين نسي أغلبهم اسمي ورسمي، زملاء الدراسة وقد تخرجوا وأصبحوا أطباء امتياز ونوّابًا في مختلف الأقسام، إنهم يقابلونني بالأحضان والقبلات، وتبدو أمارات الألم الشديد على وجوههم وهم يرون يديّ في الأغلال، والملابس الزرقاء فوق جسدي، وأنا ابتسم متكلفًا في مرارة، ويتسابقون لخدمتي، رغم وجود رجال المباحث العامة في أزياء مدنية يتابعون خطواتي ولقاءاتي، ويسجلون بعض الأسماء وخاصة من يأتي من الأهل أو الأصدقّاء لرؤيتي.

كان علي أن أذهب للقصر العيني مرتين أسبوعيًا، وكان ذلك فرصة لتدبير أموري، وإنجاز نشر الكتاب الأول «الطريق الطويل»، وجاءت شقيقة الشهيد سيد قطب ووقفت على مقربة مني بزيها الشرعي المميز، كنت خائفًا عليها من رجال الأمن، وكان هناك رسول يذهب ويجيء بيننا وهي إحدى قريباتي وأرسلت إلي عقد «مكتبة مصر» فقمت بالتوقيع عليه، وأخذت العقد وانصرفت بسرعة دون أن أتكلم معها شخصيًا كلمة واحدة، إن أخاها الشهيد كان سجينًا آنذاك في سجن طرة، وكان رجال الأمن يكنون له -رَحِمَهُ اللَّهُ- أسوأ المشاعر..

وفي أحد الأيام استدعاني اللواء محمود صاحب مدير السجن، وأخبرني أن وزير الثقافة والإرشاد الأستاذ الكبير فتحي رضوان قد اتصل به تليفونيًا، وأعلمه بأن وزارة الثقافة ستقوم بنشر كتاب «الطريق الطويل» على نفقتها، مقابل مكافأة مجزية وسوف تطبع منه عشرة آلاف نسخة، وهذا رقم كبير في ذلك الوقت «1958»، وبدا الأمر مفاجأة سارة جدًا بالنسبة لي، لكني فكرت كيف أتصرف حيال العقد الذي وقعته منذ فترة مع مكتبة مصر.. وشرحت الأمر للمدير، فوعد بأن يتفاهم معهم، لكني لم أطق صبرًا، وتفاهمت مع صديقي الضابط سمير قلادة.. ففكر قليلًا، ثم قال: «ما رأيك في أن تتفاهم بنفسك مع مكتبة مصر؟».

قلت: «كيف؟».

قال: «بالتليفون؟».

أدركت أنها مجازفة خطيرة قد تضره لو انكشف أمرها، وخاصة أني سجين سياسي وليست سجينًا عاديًا، وأثناء القيلولة، انفتح باب زنزانتي، وأخذني سمير إلي مكتبه، واتصلت بالمكتبة، وأبدى الناشر «الأستاذ غريب» عدم ممانعته في ذلك، لكنه اشترط علي أن تتولى مطبعته طبع الكتاب لحساب وزارة الثقافة والإرشاد، حيث إن الوزارة لابد وأن تكلف إحدى المطابع وهم أولى بذلك، عندئذ يلغي العقد الموقع مني.. وعندما أبديت تشككي في قدرتي على فعل ذلك قال الناشر: «كيف وخالك الأستاذ عبد الرافع الشافعي هو مراقب عام الوزارة؟».

نعم.. تذكرت.. وأجريت اتصالًا سريعًا بالأهل، ونجح مسعانا، ولم يكد يمر شهران حتى صدر الكتاب في طبعة أنيقة، بمقدمة كتبها الوزير باسم وزارة الثقافة والإرشاد، ويوم

أن تسلمت النسخ الهدايا لأول مرة، كنت هائمًا في دنيا من السعادة لا مثيل لها، وجاءني مندوب من الوزارة يحمل عقدًا وشيكًا بمائتي جنيه..

كان نشر الطريق الطويل خطوة مهمة في حياتي الأدبية.. كان بداية خير.. وسوف نرى فيما بعد مدى النجاح الكبير الذي حققه هذا الكتاب.

وذات مساء، بعد ذلك بأيام، قالوا لي في السجن: «استعد سوف نأخذك الليلة إلى مقر نادي القصة لاستلام جائزتك من السيد كمال الدين حسين وزير التربية والتعليم...».

لم أكن أصدق ما أسمع..

أيمكن أن تسمح الحكومة لي بهذا كله؟ إن الأمر غريب غاية الغرابة!!

وهل سأرى القاهرة في المساء، وأقف تحت الأضواء بعد غيبة عن الحياة دامت أكثر من ثلاث سنوات؟

وماذا ألبس وليس لي في السجن ثياب مدنية؟ أم أني سأذهب مرتديًا بدلة السجن الزرقاء..

قال لي الضابط سمير قلادة: «اطئن.. سوف ندبر الأمر.. سعادة اللواء الباشا مهتم شخصيًّا وسيحضرون لك بدلة.. وحلاقًا.. وستخضع لكشف الهيئة قبل ذهابك إلى نادي القصة وجمعية الأدباء.. سيكون هناك الوزير وصحفيون.. ونخبة من كبار الأدباء فيهم الحكيم وطه حسين وغيرهما..».

شعرت بالارتباك والحيرة..

يا ألطاف الله ماذا يجري؟ إنه شيء كالحلم بالنسبة لفتى قروي مثلي..

****

[11] اليقظة في حلم جميل

كنت كمن يعيش حلمًا زاهيًا جميلًا، لم يخطر ببالي قط أن تمضي الأمور على هذا النحو المذهل، ولا تصورت أن تتوالى الأحداث بهذه السهولة واليسر، لكني كنت أرفع وجهي المندى بقطرات الدمع إلى السماء وأحمد الله، وكل ذرة في كياني تسبح بحمده. لقد رأيت بنفسي كيف يولد الأمل من قلب اليأس، وينبثق النور من بحر الظلمات الرهيب، وتتجلى إرادة الحق لتملأ القلوب بالإيمان والثقة والرضى..

احضروا لي بدلة خواجة أجنبي متهم بتهريب العملة الصعبة، وعندما لبستها بدت وكأنها أعدت خصيصًا لي، واستعاروا لي حذاء ورباط عنق وقميصًا قيمًا، وأخذوني إلى المدير الذي ابتسم وقاسني بنظراته الودود وقال: «لا يبدو عليك أي أثر من آثار سنوات السجن.. لكن شعرك قصير.. لا بأس.. ضع منديلًا في جيب الجاكتة بصورة هرمية.. ابتسم أفضل من ذلك.. أريد ابتسامة حقيقية.. اذهب عشرة على عشرة..».

جاء المساء وقلبي يدق رهبة وإشفاقًا..

جلست أنتظر في زنزانتي.. إن الموعد في الساعة الثامنة مساءً.. والدقائق تمر بطيئة.. أريد أن أنتهي من هذا الأمر المربك بأسرع ما يمكن.. لماذا القلق والتوجس؟ وحان الموعد..

وأخذوني من الزنزانة إلى مكاتب السجن، كان في انتظاري الصاغ «الرائد» صلاح طه مدير العلاقات العامة بمصلحة السجون آنذاك، وكان هناك ضابط من المباحث العامة واثنان من المخبرين يتميزان بالقامة الطويلة والعضلات المفتولة، وجمود الملامح، وأنا بينهم كدمية شاحبة مضطربة..

ثلاث سيارات كنت في واحدة منها مع المخبرين والصاغ صلاح طه، أخذت أنظر إلى القاهرة في المساء، الأضواء تتلألأ بألوانها المختلفة الجذابة، والرجال والنساء والأطفال في الشوارع، والحافلات والسيارات تنساب في هدوء ويسر، لم تكن حمى الزحام والضجيج قد

غشيت المدينة في ذلك الزمان.. الحياة تبدو ذات نكهة غريبة لم أتبينها في سنوات العمر التي مضت.. لها حلاوتها وإغراؤها وسحرها..

قال لي الصاغ صلاح طه: «أنت رجل أديب.. وعاقل وتدرك أبعاد الأمور، ولا يصح أن توقعنا في أي حرج».

قلت ببراءة: «مستحيل أن يحدث ذلك.. ماذا تعني؟».

قال وهو يتنحنح: «لا تذكر لأحد أنك من مساجين الإخوان المسلمين.. لدينا تعليمات بذلك هل فهمت؟».

- «بالطبع.. اطمئن...».

واستطرد: «يكفي أن الحكومة سمحت لك بالكتابة، والاشتراك في المسابقات، وطبعت لك بعض مؤلفاتك.. وها هي الليلة تفتح أبواب السجن ليلًا -وهذا لم يحدث قط من قبل- لتخرج وتشترك في مهرجان أدبي لتتسلم الجوائز.. وتلتقي مع كبار المفكرين.. ومع وزير مهم من أعضاء مجلس قيادة الثورة «كمال الدين حسين»».

- «إني مدرك لكل ما تقول، ولن يحدث إلا كل خير. وليس من المعقول أن أفسد كل هذا بكلمة واحدة...».

كنت أمعن التفكير فيما يقوله مرافقي الضابط الذي أصبح فيما بعد مديرًا عامًا لمصلحة السجون، إن طبيعة الموقف أبعد ما تكون عن الصدام مع السجن ونظامه، ومع منطق السلطة وتصوراتها، وفي ظني أن الأمر لا يحتاج إلى تحد أو إعلان، فسيعرف الجميع الحقيقة بأسلوبهم الخاص، وجميع الصحف والمجلات التي كتبت عني تعرف هويتي العقائدية، وإن كانوا لا يشيرون إليها فيما يكتبون، وكذلك النقاد الذين كتبوا عن روايتي «الطريق الطويل» ركزوا على فنية القصة ومضمونها، ولم يلتفتوا إلى الكاتب وظروفه الخاصة.. بل إن إحدى الصحف ذكرت -كذبًا- أنني دخلت السجن منذ سنوات، ولم أكن أعرف القراءة والكتابة، وتعلمتها في السجن، وأصبحت أديبًا، لم أتضايق من مثل هذه الأخبار المضحكة، فنحن نعرف أن بعض الصحف تحتفي بالطريف والغريب من الأخبار، وإذا لم تجد أيًا منها انتحلته انتحالًا.. لكن مثل هذه الترهات تذهب أدراج الرياح، وتذوب تحت شمس الحقيقة التي لا

تعرف الكذب أو المجاملة، فسيان قيل أنني صاحب قضية، أو إنني ارتكبت جريمة من الجرائم العادية، لأن الناس دائمًا تعرف الحقيقة مهما استترت وراء الحجب.

دخلت نادي القصة بمقر نادي الأدباء «68 شارع القصر العيني»، بجواري المخبران، وأمامي الضابط المكلف بحراستي من قبل مصلحة السجون، في زيه المدني، كان النادي غارقًا في الأضواء، مكتظًا بشباب الأدباء، ويبدو أن بعض المخبرين الآخرين كانوا في انتظارنا، ولم يتركني الضابط حرًا وسط هذه الجمهرة وإنما أخذني إلى سكرتارية المرحوم الأستاذ يوسف السباعي، حيث يجلس الأديب الأستاذ محمد عبد الحليم عبد الله، والسكرتير «حسين رزق»، كما استقبلني الأستاذ يوسف السباعي بابتسامة حلوة وترحاب، واقترب مني شاب لا أعرفه، وقدم نفسه إلي قائلًا: «أنا صلاح المراكبي» صحفي، وشد على يدي في حب، كما قرأت في عينيه الكثير، ولم يعترض مرافقي، ولقد أصبح صلاح فيما بعد مديرًا لتحرير جريدة «الجمهورية» عندما كان الأستاذ حلمي سلام مسئولًا عنها، وبعد سنوات ذهب صلاح إلى السعودية وأشرف على تحرير إحدى المجلات، لكن هذا اللقاء كان بداية لصداقة وطيدة امتدت حتى اليوم.. وصلاح كان واحدًا من شباب الإخوان..

وحضر وزير التربية والتعليم السيد كمال الدين حسين وسط عاصفة من التصفيق، ثم قام بتسليمنا الجوائز، وقد أبدى اهتمامًا ملحوظًا بي عندما جاء دوري، وسمعت منه بعض كلمات المجاملة الطيبة، وبعد انتهاء مراسم الاحتفال انتقلنا إلى صالة واسعة يجلس فيها كبار الأدباء رأيت منهم -على ما أذكر- الدكتور طه حسين، والأستاذ توفيق الحكيم والأساتذة أنيس منصور وعباس خضر وغيرهم، وجاءت جلستي إلى جوار الأستاذ أنيس منصور، الذي أخذ يفيض علي بعذب حديثه، وينتقل من حكاية إلى أخرى، ويسرد الطرائف والذكريات العديدة عن أسفاره دون تحفظ، فلا بأس أن يروي عن مغامرة عاطفية لأحد أصدقائه في إحدى العواصم الأوروبية، وهكذا أشعرني بإسقاط الكلفة بيني وبينه، لدرجة أنه أنساني مرارة السجن، وخيل إلي أنني صديق يجلس معه في مكتبه بأخبار اليوم، وقطع علينا الحديث قدوم الأستاذ محمد عبد الحليم عبد الله الروائي المعروف، وطلب أن أصحبه لمصافحة الدكتور طه حسين ليتعرف علي، وذهبنا إليه، وهمس الأستاذ عبد الحليم في أذنه فهب واقفًا مادًا يده، وبعد أن حياني وهنأني قال: «لماذا سجنت يا نجيب؟».

وتلفت حولي، كان ضابطي يقف إلى جواري، هذا هو المأزق، لكني اعتصمت بالصمت، ويبدو أنه ظن أني لم أسمع سؤاله، فأعاده مرة أخرى، فقلت في شيء من الارتباك الواضح: «أبدًا.. أعني.. حاجة بسيطة..».

وأصر قائلًا: «ما هي؟».

وأنقذني الأستاذ عبد الحليم من ورطتي، فمال على أذنه هامسًا، وبعدها رأيته يهز رأسه ويهمس «هيه»، ثم أردف ذلك بكلمات للتشجيع وأمل في أن يحقق الله لي الفرج، وعدت إلى مكاني لأشرب الشاي وأتناول بعض قطع الحلوى والفطائر، ولكني كنت في عزوف تام عن أي طعام، بسبب ما أعانيه في هذه اللحظات من توتر شديد، وتحدثت مع الأستاذ عباس خضر، ومع الأستاذ يوسف السباعي، الذي كتب في اليوم التالي مقالة جيدة عن المسابقة، عني وعن الأستاذ صبحي الجيار الذي فاز معنا وبقي ملازمًا لفراشه بضعة وعشرين عامًا لعدم قدرته على الحركة، وكانت المقالة بعنوان «السجين.. والمريض» وقد أعاد نشرها بعد ذلك في أحد كتبه.

قبل أن ينتهي الاحتفال جاءت صحفية أعتقد أن اسمها «سلوى حبيب» وطلبت من الأستاذ عبد الحليم أن يسمح لي بالذهاب إلى الصحفيين في غرفة خاصة احتشدوا فيها كي يجروا معي تحقيقًا صحفيًا مشتركًا، ولم يعترض الضابط، وذهبت إلى الحجرة، كان فيها أكثر من عشرة صحفيين، وتواترت أسئلتهم عن أفكاري الأدبية، والقصص أو المؤلفات التي أنجزتها، والمشاريع التي أعتزم تنفيذها في المستقبل، والمهنة التي أنتويها، وبدت عليهم الدهشة عندما علموا أنني طالب في المرحلة النهائية بكلية الطب، وما إن انتهى هذا المؤتمر الصحفي الصغير حتى يممت وجهي شطر القاعة السابقة، لكن الصحفية سلوى جرت خلفي وقالت: «سؤال أخير...».

قال الأستاذ عبد الحليم وهو يمسك بيدي وكاني أحد أبنائه: «ما هو؟».

- «لماذا سجنوك؟».

- «أظن أن هذا لا يهم».

قالت: «بل مهم جدًا...».

وبعد إلحاح منها، ورفض منه، قال لها فجأة، ودون توقع: «إخوان مسلمين.. هل استرحت؟» ومضى بي مسرعًا، والضابط يبتسم، وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لن تستطيعي أن تكتبي حرفًا واحدًا عن ذلك..».

كان العرق يتقاطر على وجهي رغم أن الجو يميل إلى البرودة، وكان قلبي يدق في انفعال، لم أزل أعيش في حلم غريب، والناس من حولي كأنهم أشباح تتحرك في الضباب.. أقول الحق.. تمنيت أن ينتهي هذا المشهد بأسرع وقت ممكن، فقد تعبت أعصابي، وشعرت بالإرهاق، وجاء صوت الضابط يقول بنبرات خفيضة: «يجب أن نعود الآن».

- «تحت أمرك..».

وصافحتهم..

كان صلاح المراكبي على مقربة مني طوال الوقت..

وبقي معنا الأستاذ عبد الحليم عبد الله حتى الباب، كما كان معي الأستاذ محمد حسن عبد الله الذي كان طالبًا آنذاك بكلية دار العلوم، ونال جائزة القصة الأولى والميدالية الذهبية المهداة من الدكتور طه حسين، وهي نفس الجائزة التي نلتها أنا في العام التالي «1959».

وهنأني الأستاذ عبد الحليم بصدور الطريق الطويل، ودعا لي بحرارة أن يفك الله أسري، وأن تكون فترة السجن بالنسبة لي تجربة مفيدة..

وحينما ركبت السيارة متجهًا إلى السجن، كان هناك عدد من رجال الأمن لا يقلون عن خمسة، وعندما وقفت أمام السجن من جديد، أطلت عينا السجان من خلال كوة صغيرة، ثم فتح.. وتنهد الضابط في ارتياح.. ثم جاء الضابط النوبتجي وتسلمني، وأخذني إلى العنبر.. كانت الساعة تقترب من العاشرة مساءً.. وسمعت عشرات النداءات من الإخوان.. كانت الأبواب مغلقة، لكنها عبارة عن قضبان، تستطيع من خلالها أن ترى وتصافح وتتكلم، وفي الدور أكثر من ستين زنزانة.. ومن الواجب أن أمر عليهم بسرعة.. إنهم متلهفون لسماع الأخبار.. وبعضهم يلمس البدلة التي ألبسها.. بدلة الخواجة.. ويقولون: «ربنا يجعلنا من بركاتك يا عم..».

«كيف الدنيا هناك؟

حسبنا إنك ستنال الحرية الليلة..

ماذا يقول الناس عنا؟

هل ما زال أحد يذكرنا؟؟»

وأنا كالأصم في الزفة، وكيف أستطيع أن أجيب على أسئلة كهذه؟ بل كيف أجيب على عشرات الأسئلة في وقت واحد؟

جاء السجان وفتح باب الزنزانة، وما إن دخلت حتى درت بنظراتي في أنحاء هذا العالم الضيق.. لقد عدنا من جديد إلى المقر، والمكتب الخشبي الكالح، والمقعد المتهالك، وأرغفة جافة، وقطعة من الجبن «القريش»، وجردل الماء والبول، وأقلام وأوراق، وخلعت البدلة الأنيقة، وليست سترة السجن الزرقاء.. ومن الغريب أنني شعرت بجوع شديد.. أقبلت على الخبز والجبنة بشهية عجيبة.. تذكرت أطباق الحلوى والفطائر.. أكانت حماقة منى حينما عزفت عنها؟ وشربت كأسين من ماء الجردل «الدلو» وحمدت الله.. وألقيت بجسدي المنهك على الفراش، كنت في حاجة ماسة إلى النوم، ولكي أستطيع أن أستيقظ في الفجر فلابد أن أنام فورًا، لكني كنت أشعر أن رأسي يلتهب، والنوم يعاندني، فأخذت أتقلب على الفراش دون جدوى، ولكني في النهاية استسلمت لنوم عميق لا أدري متى..

وفي اليوم التالي نشرت الأهرام صورة كبيرة تظهرني وأنا أتسلم الجائزة من السيد كمال الدين حسين، في الصفحة الأخيرة، وتحتها كتبت الجريدة شيئًا عن المناسبة، وأنهت تعليقها حسبما أتذكر «وغدًا يعود الكيلاني إلى المجتمع أديبًا لامعًا...»، كما نشرت الصحف والمجلات الأسبوعية شيئًا من هذا القبيل، وتنبأ بعض الإخوة بأن هذه المظاهر كلها مقدمة للإفراج عني، لأن الحكومة إذا كانت لا تعتزم ذلك فعلًا، لما سمحت بنشر أي تعليق أو صورة لي، لكن الحقيقة المؤكدة هي أنني لم أزل في السجن، وإن تحسنت المعاملة لدرجة لا تصدق في مثل هذه الظروف.

****

[12] الشيوعيون يكرمونني في السجن ثم يقدمون شكوى في حقي

أصبحت في سجن القاهرة «قره ميدان» شخصية بارزة معروفة لدى الجميع، فالضباط والسجانون يكنون لي الاحترام الوفير، وزعماء المسجونين على اختلاف جرائمهم يتقربون إليّ ويقيمون معي علاقات وطيدة، وإذا كنت من الشخصيات المرموقة في السجن فإن ذلك يلزمك ببعض الواجبات التي لا فكاك منها، فسوف يأتي الكثيرون إليك في زنزانتك ليزوروك، ولابد أن تقدم لهم الشاي وبعض المأكولات كتحية، ومنهم من يطلب معونة مالية أو ملابس داخلية قديمة أو حذاء، وبعضهم يطمع في علبة سجائر، وهذه الواجبات لا تؤدى للمسجونين فقط ولكن للسجانين أيضًا، إن خفر الليل لا يحلو لهم السهر إلا أمام زنزانتي، كي أقدم لهم البيض المسلوق أو «علبة بولوبيف» وما إلى ذلك، وكان علي أن أرضخ لهذا الوضع وإلا ساءت سمعتي داخل السجن، لأنهم يحصون علي الجوائز التي أحصل عليها، وليس في السجن أسرار، فكل شيء معروف.

وكان عدد من المسجونين الشيوعيين يقيمون في عنبر آخر مجاور لنا، وكنا على علاقة معتدلة أو شبه عادية معهم أثناء التقائنا في الفسحة اليومية، مع اتخاذ كافة الاحتياطات والحذر الواجبين وذلك ناتج عن تلك الصراعات الناشبة بيننا وبينهم على الساحة السياسية منذ سنوات طويلة، لكن المصائب يجمعن المصابين، وليس هناك مانع من قيام علاقات إنسانية متوازنة مهما كان خلاف الرأي والمبادئ.

وذات يوم جاءني أحدهم، وأخبرني بأنهم يدعونني على مأدبة غداء أقيمت على شرفي بمناسبة الجائزة وصدور كتاب الطريق الطويل، والحقيقة أنني وافقت على ذلك لأول وهلة، لكني اشترطت أن يأخذوا إذنًا بذلك من الإدارة في السجن حتى لا نقع في حرج، لكن بعض الإخوان -عندما طرحت عليهم الفكرة- رفضوها بشدة، ودار حول الموضوع جدل تشعب، لكن بعض الإخوة الذين نكن لهم الاحترام، رأوا أنه لا مانع من ذلك..

وفي اليوم المحدد ذهبت إلى عنبر الشيوعيين بعد الظهر، ودخلت إلى غرفة فسيحة نظيفة، يبدو أنها رتبت بطريقة جيدة استعدادًا لهذه المناسبة، كان الطعام مما يتوفر عادة في مقصف السجن «الكانتين»، علب من السمك المحفوظ والحلوى الطحينية والجبن والبيض وغيره، وما إن انتهى الطعام، حتى أقاموا ما يشبه الندوة حول رواية «الطريق الطويل»، وكان من بينهم الدكتور شريف حتاتة، وهو طبيب وشيوعي قديم محكوم عليه بالسجن عشر سنوات، وكان فيهم أحمد الزقم وهو شاعر درس في كلية دار العلوم، وكان يكتب بعض القصائد في مجلة السجون، ومحمود يوسف وهو طالب بكلية الحقوق ومهتم بالأدب وعدد آخر لا أذكر أسماءهم بعد مرور تلك السنوات الطويلة.

وكان مما لفت نظري أنهم أثنوا ثناء عاطرًا على الرواية، وأضفوا عليها الكثير من الصفات التي لم أكن أتوقعها منهم وكان مجمل قولهم إن الرواية قد احتفت بالقرية وأحوال الفلاحين التعساء في فترة الحرب العالمية الثانية، وأنها صرخة في وجه الظلم الإقطاعي، والفساد الاجتماعي، ثم قال أحدهم: «إن هذه الرواية تمثل مذهب الواقعية الاشتراكية»، واندهشت لهذا التعليق.. لقد كنا آنذاك في عام 1958، ولم تكن شعارات الاشتراكية التي نادى بها عبد الناصر قد رُفعت بعد، وأنا في الحقيقة لم يخطر ببالي قط وأنا أكتب هذه الرواية شيء من هذا التصور المذهبي الذي يشيرون إليه، وهم يعلمون تمام العلم وجهة نظري في أشياء كثيرة، نظرًا للمناقشات التي كانت تحتدم بيني وبينهم قبل ذلك داخل سجن القاهرة، وبعد قليل قلت لهم: «لا تحاولوا أن تضعوا أدبي في هذا القالب أو ذاك، إنني أردت فقط أن أكون أمينًا في التعبير عن حياة شعبنا في هذه البيئة.. إن «عبد الدايم»، «أحد شخصيات القصة» فلاح بسيط، يجاهد في حياته في صبر وإيمان وصلابة، ويضرع إلى الله.. ويلتزم بقيم الخير والدين والعدل.. إنه فلاح مؤمن في قرية مصرية لا يعرف المذاهب الأدبية ولا الشعارات والمظاهرات، على النقيض من رواية «الأم» لمكسيم جوركى الكاتب الروسي المعروف.. حينما جعل من امرأة من أعماق الريف تحمل علمًا، وتقود مظاهرة، وتتحدى السلطة.. إنني هنا أكتب عن فلاح آخر.. في وطن آخر.. ذي طبيعة خاصة».

وطال بنا الحديث وتشعب عن الأدب المعاصر، والتيارات الصاخبة فيه، وأعلام الأدب في تلك الفترة، وتقييم الأدباء ودورهم، والثورة وعلاقاتها بالأدب والأدباء، وأحلام المستقبل أو الصورة المتوقعة لأدب الغد.

وانتهت الزيارة وشكرتهم على هذه المبادرة الطيبة آملًا أن أدعوهم لوجبة عندي، وإن كانت الظروف لم تسمح بذلك لأسباب عدة..

بعد أيام فوجئت بمدير مستشفى السجن يمنعني من الذهاب إلى القصر العيني لتكملة علاجي في قسم العظام، وكان هذا التصرف غريبًا من وجهة نظري، فأنا لم أنته من العلاج الطبيعي الذي أخضع له، ولم أرتكب مخالفة تغضب المباحث العامة، فكتبت عريضة أتظلم فيها من هذا الإجراء الجائر، ورفع الأمر للديوان العام لمصلحة السجون التي أمرت بتشكيل لجنة طبية من ثلاثة أطباء «أحدهم طبيب شرعي» لفحصي وتقرير ما يجب عمله..

عقد اجتماع لجنة «القومسيون» الطبي، وقاموا بالفحص بدقة، واطلعوا على «الأشعات السينية»، ثم خرجت لأترك لهم فرصة المداولة، وبعد نصف ساعة استدعوني للمناقشة، وزعموا أن العلاج الذي سبق يكفي، ولم أجد في قولهم عدالة أو اقتناعًا، وبعد نقاش حار مستفيض استقر الرأي على إحالتي مرة أخرى على القصر العيني لتحديد مدة العلاج المتبقية حسب تقرير أخصائي العظام، وكتبوا رسالة بهذا المعنى أرفقوها بأوراقي، وسلموها لضابط الحراسة الذي ينقلنا من السجن إلى القصر العيني، وهناك نظر الطبيب المختص إلى الرسالة باحتقار وكتب بسرعة «سوف نخطركم عند انتهاء العلاج»، وحاولت أن أشرح له أن مثل هذا الرد لن يرضيهم، لكن رفض إجراء أي تعديل قائلًا: «هذا شغلنا، ونحن لا نتلقى الأوامر من أحد» والحق أنني أكبرت هذا الرجل، وأخذت أقارن ما فعله الآن، وما كان يفعله زملاء أطباء منذ سنوات قليلة في السجن الحربي، حيث كانوا يشهدون المذابح المروعة، وصنوف التعذيب، دون أن يجرؤوا على الاعتراض، أو حتى إثبات إصابات التعذيب في ملف المعتقل.. أما كان يجب على نقابة الأطباء -على الأقل- أن تحقق معهم؟

وفشلت مؤامرة منعي من الذهاب إلى العلاج.. أما كيف عرفت أنها مؤامرة، فقد همس الدكتور إبراهيم زكي -جراح السجن- في أذني قائلًا: «إن الشيوعيين هنا قد كتبوا شكوى ضدك، ذكروا فيها أنك لست مريضًا، وأنك تخرج للاتصال بالإخوان في الخارج، وتحمل معك بعض الرسائل، وطالب الشيوعيون أيضًا بأن يسمح لهم بالكتابة في الصحف والمجلات والاشتراك في المسابقات» وعجبت لهذا السلوك الغريب، فكيف يكرمونني بالأمس، ثم يكيدون لي في الخفاء، ومن قال إن الحكومة سمحت لي بالكتابة في الصحف

والمجلات أو وافقت على اشتراكي في المسابقات الأدبية الكبرى؟ إن ما حدث في الحقيقة خلاف ذلك تمامًا، فقد اشتركت في المسابقات الأولى سرًا، وهربت المادة الأدبية دون علم من الإدارة، لأني لو اتبعت الطريق الرسمي، فسوف يأخذون ما أكتب إلى الإدارة العامة للسجون، التي ستحيلها بدورها على إدارة المباحث العامة، والتي لن تتصرف في أمر مهم كهذا إلا بعد أخذ رأي الوزير شخصيًا، وبذلك يكون قد فات الموعد المضروب للمسابقة، حيث إن تلك الإجراءات تحتاج لشهور طويلة، وتنتهي في الغالب بالرفض، أما وإن اشتراكي في المسابقة قد مضى خفية، وأعلنت النتيجة، فقد بدأ واضحًا أن المسئولين نظروا إلى ذلك دون اكتراث، بل أغمضوا الطرف عنه كلية، وخاصة أن أمور الأمن العام أصبحت شبه مستقرة، ولا شك أن اللواء صاحب مدير سجن القاهرة قد لعب دورًا في إقناعهم بالسماح لي بالخروج لتسلم الجائزة، وأكد لهم أكثر من مرة حسن سيري وسلوكي، وأنه يضمنني شخصيًا، حيث لا أشكل -فيما أكتب- أية خطورة على الأمن..

واستمر ذهابي إلى القصر العيني رغم أنف الأصدقاء الأعداء الشيوعيين،ولم أفكر في عتابهم أو مؤاخذتهم، فهم رجال سياسة، ويعتقدون أن لهم الحق كل الحق في أن يتخذوا أحط الوسائل وأقذرها للوصول إلى أهدافهم الشريرة، وتسألني: هل قاطعتهم بعد ذلك؟ فأقول لا.. لقد مضيت في طريقي وكأن لم يحدث شيء، أتبادل معهم الكتب، وأدير معهم الحوار حول الأدب والنقد والسياسة، وحول الإسلامية والماركسية دون حرج، والغريب أن بعضهم ظل على علاقة محددة بي بعد الخروج من السجن، وخاصة بعض العاملين منهم في مؤسسات الدولة الصحفية والمؤلفين.

لكنهم كانوا ينتهزون الفرصة، ليعطلوا أعمالي في الصحف التي يعملون بها، أو في المؤسسات الحكومية التي يحتلون فيها بعض المناصب القيادية، وكمثال لذلك، فقد كانت مؤسسة السينما «مؤسسة الإنتاج السينمائي العربي» تنتج بعض القصص المهمة كأفلام للعرض، وحدث أن طلب الأستاذ الكبير نجيب محفوظ بعض رواياتي لإخراجها للسينما، ولقد وقع الاختيار على رواية «اليوم الموعود» التي تتناول حقبة مهمة من تاريخنا الإسلامي والعربي وهي فترة الحروب الصليبية، وكانت هذه الرواية قد نالت جائزة المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب، في مسابقة كبرى أعلن عنها في عيد المنصورة، وقام عبد الناصر بنفسه بتسليم الجوائز في عام 1960، وكان من الفائزين أيضًا الأستاذ علي أحمد باكثير عليه

رحمه الله. المهم أن مؤسسة السينما قررت إنتاج هذه الرواية التاريخية في أفلام الدرجة الأولى بالألوان، وكانت ميزانية الإنتاج مليون جنيه حسب اقتراح الفنيين، ومضى المشروع في طريقه، ثم كتابة العقد والتوقيع عليه مني ومن المسئول عن المؤسسة.. وطال الانتظار.. وذات يوم كنت أمر بمسجد «الكخيا» الشهير بميدان «الأوبرا» بالقاهرة، والتقيت بأحد الأصدقاء الشيوعيين الذي أخبرني بكل تشفٍ، أنه أوقف العمل في الإنتاج، قلت: «لماذا».

وضع يديه في جيب معطفه الصوفي الثمين وقال: «لأن البطولة في الرواية بطولة فردية..».

- «هذا غير صحيح يا أستاذ «ب.ش»، فالشعب كله يخوض معركته ضد الصليبيين، ولست أدري من أين أتيت بهذا الفهم؟».

ثارت الدماء في رأسي حينما سمعته يقول بعنجهية: «ذلك رأيي، وأنا صاحب الكلمة..».

قلت بهدوء ظاهري: «لا يهم.. سواء تم إنتاجها أو لم يتم..».

واستأذنت منصرفًا.

وجاء بعضهم ومنع نشر تحقيق صحفي كبير عني في جريدة الجمهورية بعد خروجي من السجن، وقد قام بإجراء هذا التحقيق المرحوم الأديب وحيد النقاش، شقيق الناقد المعروف الصديق رجاء النقاش، بل استصدر بعضهم قرارًا بعد خروجي من السجن، بعدم استضافتي في أي برنامج من برامج الإذاعة، حيث تعمل شقيقة زوجتي السيدة نفيسة شاهين مذيعة هناك، وبعد ذلك بفترة أمكن التغلب تلقائيًا على بعض هذه الحواجز وليس كلها..

وفي ندوة نجيب محفوظ الأدبية، ومقهى الأدباء في ميدان الدقي، كان يجتمع الأدباء، وكنت أذهب إلى هذين المكانين وغيرهما بعد خروجي من السجن، وكنت أجلس بين الكتاب الشيوعيين وأتسامر معهم دون حرج أو حساسية، وعلى الرغم من حرصي الشديد إلا أنني كنت أتعامل معهم من خلال معتقداتي الإسلامية بوضوح تام، وكانوا يعرفون ذلك جيدًا، ويصرون على مناقشتي في بعض الأمور العَقَدية، وأشرح لهم بعض الحقائق حول تصوراتهم الخاطئة بالنسبة للإسلام، ومن الملفت للنظر أن عددًا منهم كان يكثر من الاطلاع بعمق على بعض الفترات الحاسمة، والمواقف المشهودة في التاريخ الإسلامي، ويفسرها بطريقتين، متسلحًا بالكثير من النصوص وآراء بعض المستشرقين، مثال ذلك موضوع «الناسخ والمنسوخ» وموضوع «الأحكام الشرعية»، وعددًا من المسائل الاقتصادية في

المعاملات الإسلامية وغيرها، وكانت جوانب الخطأ والخبث في تحليلاتهم لا تخفى علي، حتى أصبحت خبيرًا في محاوراتهم..

لقد سبقت الأحداث، لكن ما الحيلة.. والشيء بالشيء يذكر؟

نعود مرة أخرى إلى السجن، فقد التقيت في سجن القاهرة بعديد من الشخصيات التي لا تنسى، ومن بين هذه الشخصيات المنوم المغناطيسي الشهير «س» أو مستر «إكس»، ولقد اشتهر هذا الرجل، وأصبح مادة صحفية حتى إن إحدى كبريات الصحف الكبرى قد أفسحت له صدرها كي يكتب مذكراته، وقد كان مستر «إكس» هذا صديقًا حميمًا لرئيس تحرير الجريدة، وقد رأى في صاحبنا المنوم المغناطيسي مادة للإثارة، واستغلال العامة والبسطاء، ومن ذاع صيته، وأصبح معروفًا في كل مكان، كما أصبح يقصده أصحاب المشاكل والحاجات ليقدم لهم الحلول، وكان لقب الدكتور يسبق اسمه دائمًا، حتى ظن القراء أنه دكتور فعلًا، ولست أعرف السر وراء انكشاف أمره فجأة، وتقديمه للمحاكمة، واتهامه بانتحال صفة طبيب، وقيامه بعمليات نصب وتحايل وإغراء، ويبدو أن موضوع التصدي له قد صدر من جهة لها وزنها في السلطة والله أعلم..

المهم أن سيادة المنوم المغنطيسي قدم للمحاكم، وأدين في بعض التهم الموجهة إليه، وحكم عليه بالسجن عامين على ما أذكر، وأتوا به إلى سجن القاهرة، وكان اللواء مدير السجن يعطف عليه، ولاحظت أن مستر «إكس» يتقرب مني يومًا بعد يوم، ويحرص على مجالستي كلما ذهبت إلى مكتبة السجن، وأخيرًا أفصح عن طلبه الذي ظل يخفيه.. لقد طلب شيئًا عجيبًا، فأخبرني أن لديه بعض القصص والوقائع التي عرضت له في حياته «المغنطيسية»، لكنه لا يستطيع أن يصوغها في أسلوب أدبي راق، وأنه يستحلفني بالله أن أساعده في ذلك من باب الأخوة الإنسانية والعطف على مأساته حيث إنه كان بالأمس يربح الآلاف من الجنيهات شهريًا، وهو الآن في حالة من الفقر يرثى لها.. كنت في حيرة وجلست أستمع إليه، وهو يروي خرافات غريبة لا تصدق، فإذا ما استفسرت منه عن شيء أجاب بعبارات لا تقنع الأطفال.. فأخذت أشرح له طبيعة التنويم المغناطيسي، والمجالات التي يمكن أن يتحرك فيها، والفوائد التي يمكن أن نجنيها منه، فرد في ذكاء: «هل تستطيع أن تكتب لي هذه الأمور كلها حتى أستفيد منها؟ فعلًا هذا هو العلم الصحيح».

وحمدت الله على أن الله قد هداه على يدي، وقدمت له في اليوم التالي ما أراد، وكم كانت دهشتي حينما قرأت بعد فترة نفس الأفكار بنصها منشورة باسمه في إحدى المجلات، وعندما قابلني بعدها كان سعيدًا غاية السعادة، أما أنا فقد كنت أشعر بالارتباك والخجل، وكأني أنا السارق لا هو..

ومرة أخرى أخذ يسألني عن الإيحاء في العلاج النفسي، ودور التنويم المغناطيسي في ذلك، وأكد لي أنه لن يستغل ذلك مطلقًا في النشر، إنه فقط يريد أن يصل إلى الحقائق العلمية، وتكررت المأساة مرة أخرى، وعندما عاتبته على ذلك قال: «ألا تريد أن تتصدق على قلمك؟».

قلت: «ليس بهذه الطريقة».

قال: «الرئيس نفسه لديه من يكتب له الخطب والتصريحات الصحفية.. وأنا أحق بالعطف من أي رئيس.. أنا الآن مسكين محتاج..».

****

[13] ضباط وأطباء وطلبة... في السجن

في أحد الأيام من عام 1958 أتى ضابط عنبر «ج» الذي نقيم به في سجن القاهرة، وأخبرني أن شخصية مهمة سوف تقيم معنا، أي في الطابق الخاص بالإخوان المسلمين الذين قدموا من مختلف سجون الجمهورية للعلاج، وفهمت منه أنه هذه الشخصية ضابط من ضباط الصف الثاني للثورة، وأنه قد حكم عليه بالسجن لمدة عامين أو ثلاثة، كما أخبرني أن معه مهندس بدرجة مدير عام حكم عليه أيضًا في نفس القضية، كنت مندهشًا لما أسمع، وسألت ضابط العنبر: «أهي محاولة لقلب نظام الحكم؟».

قال دون إكتراث.. «لا.. إنها قضية تبديد أو اختلاس أو نحو ذلك».

لقد رفض الضابط الكبير المحكوم عليه أن يعيش وسط المسجونين العاديين، فقد قضى بينهم ليلة كانت أتعس ليلة في حياته كما يقول، لدرجة أنه كان يفضل الموت على البقاء وسطهم لما طبعوا عليه من إهمال واستهتار وقذارة وفوضى، وأخيرًا تداولت في الأمر مع إخواني لأنها المرة الأولى أن يأتي سجين من غير الإخوان ليقيم معهم هنا، ورأينا أنه —من وجهة النظر الإنسانية البحتة- لا مانع من ذلك، ومن ثم أخلينا له زنزانة صغيرة، وقدم الضابط السجين مع زميله المهندس المدير العام بعد نصف ساعة، كان يخطو في اعتداد وغضب، ولم يكن شعره حليقًا كباقي السجناء، واستقبلناه بابتسامات وترحيبات مجاملة لابد منها، وقدمنا له قدحًا من الشاي، كان يلتفت يمنة ويسرة، ويراقب تحركات الإخوان وأحاديثهم في اهتمام، ثم قال: «من هؤلاء؟ إنهم يختلفون تمامًا عن باقي المسجونين» وبعد أن أجبنا على أسئلته قال وقد بدا الارتياح على وجهه: «إن الصورة تختلف تمامًا عما كنت أعرفه طوال السنوات السابقة..». لم نعلق كثيرًا على قوله، فعاد يقول: «هل بينكم محام من الإخوان؟».

- «نعم معنا محامون.. وأطباء.. ومهندسون وعمال وطلبة.. من كل الأصناف..».

ثم قدمت له أخانا المحامي الأستاذ حسن دوح، فكان سعيدًا بذلك.. وعرفنا فيها بعد أن الضابط السجين كان مسئولًا عن «لجنة الجرد» بالقصور الملكية، وأنه اتهم بالاستيلاء على بعض الأشياء الثمينة لنفسه، كما باع البعض الآخر بأثمان زهيدة أو رمزية، فقد باع سجادة أعجمية فاخرة بمبلغ ستة وثلاثين جنيهًا فقط لإحدى الراقصات المعروفات..

قد عرض الضابط السجين الملف كاملًا على الأخ حسن دوح، فوجد الملف متخمًا بالعديد من المخالفات، وكان رأي حسن أنه لا أمل في إعادة نظر القضية، وظل هذا الضابط السجين في عنبرنا، لم يكن لديه أي عمل سوى الحديث عن ذكرياته في الثورة، وعن علاقاته بجمال عبد الناصر وعن قائد البوليس الحربي، وعن المكيدة التي دبرت له، كي يتخلصوا من شخصيته القوية، وتحديه للمفاسد والمهازل التي كانت تحدث، وكيف طرد وكيل النيابة الذي جاء للتحقيق معه في البداية، وطلب قائد البوليس الحربي وكال له السباب عبر التليفون، كما كان يؤكد دائمًا أنه بريء براءة الذئب من دم ابن يعقوب، حتى إننا مللنا السماع لهذه القصة التي لا تتغير، والتي يرويها بمنتهى الحماسة والقوة والثقة، مع أن ملف القضية الذي يحمله معه يؤكد عكس ذلك تمامًا..

وعندما كنت أرى الدموع تترقرق في عينيه أرق لحاله وأواسيه بشتى الطرق، فأنا ضعيف أمام الدموع، وما ظنك برجل كان ملء السمع والبصر، وتنظر إليه أسرته كمثال ناجح ذي نفوذ ومكانة، وفجأة يجد نفسه نزيل السجن مع العديد من المنحرفين والمجرمين، ويرتدي تلك البدلة الزرقاء الكالحة، ويأتمر بأمر السجان الذي لا يزيد عن كونه واحدًا من عشرات أو مئات الجنود الذين كانوا يلبون إشارته.. «ارحموا عزيز قوم ذل».

وهناك ضابط سجين آخر برتبة نقيب، كان يعمل بشرطة الآداب، وقد عرف عنه العنف، ومطاردة المنحرفين والبيوت السرية دون هوادة، حتى إن رؤساءه كانوا يكنون لنشاطه كل تقدير واحترام، ولم يكن يتورع عن مداهمة البيوت المشبوهة حتى ولو كان بها بعض الشخصيات المرموقة.. كما كانت أخبار غزواته الموفقة تنشر في الصحف، وشعر تجار «الرقيق الأبيض» بالحيرة حياله، وأخذوا يدرسون وضعه بدقة، ويعقدون معه الصلات، ويدعونه – بحق الصداقة- إلى الحفلات ذات المستوى الرفيع، وأدركوا بخبثهم أنه فقير، وبدءوا في مغازلته بالهدايا، وتقرب بعض النسوة إلى زوجته دون أن تعرف حقيقتهم، بدافع الجوار

أحيانًا، وبالصدفة أحيانًا أخرى، واكتشفوا أن لعاب حضرة النقيب يسيل خاصة أمام بريق الذهب والساعات الأنيقة والبدل المستوردة..

وبعد أن تعمقت الصلة معهم، اتخذت العلاقة مسارًا أوضح، قالوا له إن العديد من المسئولين ينالون جعلًا أو راتبًا شهريًا كي يغمضوا أعينهم قليلًا، فتجار المخدرات يدفعون، وتجار الرقيق الأبيض يدفعون، ومخازن التموين الغذائي أيضًا.. وهم على استعداد لدفع المبلغ الذي يريد، ولن يحرموه من ضبط بعض القضايا التافهة الراتبة، بحيث لا تكون الإدانة فيها ثابتة.. وهكذا أوقعوه في قضية رشوة ليتخلصوا منه. عندما حكم على هذا النقيب المتهم بالسجن ثلاث سنوات، كان منهارًا انهيارًا تامًا، والدموع تتساقط من عينيه بغزارة، ولا يستطيع تناول الطعام أو النوم قلت له: «وما نتيجة ذلك كله؟».

أخذ يدق رأسه بقبضته في عصبية ويقول: «أنا انتهيت..».

في مثل هذه الأحوال –مهما كانت الجريمة– لابد من المواساة والتخفيف، قلت له: «تستطيع بعد خروجك أن تجد العمل المناسب في الشركات أو الأعمال الحرة.. الوظيفة الحكومية قيد، وليس فيها غير المظاهر الكاذبة والراتب الضئيل، ولابد أن وزارة الداخلية سوف تساعدك».

قال في مرارة: «أنا لا أفكر في ذلك».

- «فيم تفكر إذن؟».

- «زوجتي.. زوجتي.. هل ستقبل الانتظار والعيش معي بعد ذلك؟».

قلت في دهشة: «إن كانت وفية مخلصة فستقف إلى جوارك حتى النهاية، وهذا أمر يطمئن، وإن كانت غير ذلك فلا تستحق البكاء عليها..».

على الرغم من أن كلامي كان منطقيًا معقولًا، إلا أنه كان في حالة اضطراب نفسي شديد، ويريد التشبث بزوجته مهما كان الأمر، كان يحبها بجنون، وعلمت أنها جميلة وغنية ومثقفة، واستطعت بعد جهد جهيد أن أبعث في نفسه قدرًا من الأمل.. وبمرور الأيام ألف الواقع المر، وتكيف على الجو القاتم في السجن، لكنه كان كثير الشرود، يعود إلى الحديث معي عن زوجته كل يوم، حتى جاء اليوم الذي كانت ترتعد فرائصه منه، لقد طلبت زوجته الطلاق، وهو حقها القانوني، لكنه ثار وفار، ورفض الموافقة على الطلاق، فلجأت إلى القضاء كي تحرر

نفسها من الحياة معه، كان -وهو ضابط شرطة سابق- يعلم أن المحكمة ستحكم لصالحها، لكنه كان يريد مضايقتها بتطويل الإجراءات، ثم لجأ إلى الادعاء بأنها أخذت كذا وكذا، وأنه يطلب استرداد هذه الأشياء، وكثيرًا ما حاولت إقناعه بإسدال الستار على هذه القضية، والموافقة على الطلاق، لكن دون جدوى، لقد تحول حبه العميق إلى كراهية بشعة، لدرجة أنه كان يهدد بقتلها عندما يخرج من السجن، وكنت أحاول بلباقة أن أشعره بأنه هو الذي أخطأ بقبوله الرشوة، وأن القانون أعطاها الحق في طلب الانفصال، لكنه عمي عن إدراك الحقائق الجلية في عنفوان غضبه وحقده، وعدت أؤكد له: «ألم أقل لك أن امرأة كهذه لا تستحق الاستمساك بها؟ وكيف تصر على العيش مع امرأة ترفضك على هذه الصورة، وفي تلك المحنة؟».

وكان يقول في تعاسة: «الرشوة في كل مكان.. لكن التعساء وسيئ الحظ هم الذين يقبض عليهم متلبسين.. الكبار والصغار يرتشون.. وأبوها من المرتشين الكبار.. وهي نفسها لم تكن تهتم بمصدر الأموال التي أشترى بها الهدايا لها، هي تعلم أن مرتبي أصغر من ذلك بكثير.. كانت تعلم كل شيء.. إنها ملعونة.. لو كانت الرشوة سببًا للطلاق لكان في البلد ملايين المطلقات الآن..».

قلت له ذات صباح: «لماذا لا تؤدي الصلاة؟».

قال في استهتار: «وما الفائدة».

- «ستؤدي فرضًا، وترضي ربك، فقد يغفر لك، وتشعر بالرضى والاطمئنان..».

أدار وجهه بعيدًا عني وقال: «لا أمل في شيء.. العالم غابة.. والناس وحوش..».

- «قد يكون الأمر كذلك.. لكن الاستمساك بحبل الله هو الأمل.. وبابه دائمًا مفتوح.. وهو الغفار والرحيم.. وأنت في حاجة إلى الغفران وإلى الرحمة.. تلك هي الحقيقة.. وهي البداية الصحيحة لحياة جديدة.. ثم ماذا كنت فاعلًا لو أنك مكاني؟ تهمتي تافهة.. والادعاء تافه.. والحكم عشر سنوات سجنًا.. أتسمع؟ عشر سنوات سجنًا..».

طأطأ رأسه وقالك «ليتني مثلك!!».

- «كيف؟».

- «أنت يمكنك أن تعتز وتفتخر بالتهمة الموجهة إليك.. أنت صاحب مبدأ.. أما أنا».

لم أجد ما أجيب به، كان يدرك أبعاد الموقف جيدًا، لكن عواطفه الثائرة، تدفعه إلى العناد، وكبرياءه العمياء، تحرضه على التمادي في الانتقام، وكنت أدعو له بيني وبين نفسي أن يهديه الله إلى الصواب.. لكأن الله قد استجاب لدعائي، إذ سمعته يقول وقد هدأت أعصابه: «حسنًا.. إن ما أريده منك هو أن تعلمني الوضوء والصلاة».

وشعرت بفرح غامر، لكني تعجبت كيف لمسلم في مثل هذه السن لا يعرف كيف يتوضأ أو يصلي؟ ألم يتعلم شيئًا من ذلك في بيته أو في المدرسة؟

ليس هذا فحسب، بل لاحظت أيضًا أنه لا يهتم بقراءة أي كتاب، ولا يفكر في تصفح الجرائد اليومية أو المجلات، ولا يفهم في الأمور العامة أو السياسة إلا الذي كان يلقن له من خلال رئاسته أثناء الخدمة، لكني لاحظت أيضًا أنه «معلم» في حبك الحيل والخداع والإغراء، وسبحان من جعل في كل قلب ما يشغله، لقد تبين لي أن مثل هذا الصنف من الناس يعيش حياته الوظيفية من خلال التعليمات الرسمية الصادرة إليه، وليس لديه رصيد من الفكر كي يناقش أو يبدي رأيه، أو يطور العمل الحساس الذي يشارك في أدائه.

أما الضابط الثالث فقد كانت حكايته طريفة، وجريمته أعجب، لقد كان ضابطًا في الحرس الملكي، ومقربًا من الحاشية في القصر، وعندما قامت الثورة صدر قرار بإحالته إلى التقاعد وهو برتبة صاغ «رائد»، لكنه قدم التماسات عديدة لمجلس قيادة الثورة، وأكد لهم أنه لم يشترك في أى عمل يتنافى مع الكرامة والشرف أثناء خدمته في القصر الملكي، وبعد أخذ ورد وافقوا على إلحاقه بوظيفة مرموقة في إحدى المؤسسات الصحفية بمرتب مجزٍ، وبقي فيه حتى ارتكب جريمته.. وقصته كما رواها لي بنفسه هي أنه اشترى من شقيقته ثلاثة أفدنة ودفع لها الثمن، وعندما أراد استلام الأرض لزراعتها. اعترضه أخوه الأكبر -وهو من أعيان القرية- وأخبره أنه اشترى هذه الأرض نفسها قبله وسجلها فعلًا باسمه.. فجن جنون الضابط، وأنذر أخاه بأن هذا التلاعب والتزوير لن يؤدي إلا إلى الكوارث التي ستدمر الأسرة، وفي النهاية عرض الأمر على القضاء الذي حكم لصالح أخيه، فما كان من الضابط السابق إلا أن قام باختطاف ابن أخيه، وأخفاه في مكان سري، وقرر أنه لن يسلم الطفل لأخيه إلا إذا دفع ثمن الأرض أو سلمه الأفدنة الثلاثة، وبعد مفاوضات ووساطات وافق

الأخ الأكبر على دفع مبلغ كبير من المال، وعند إتمام الاتفاق انقضت الشرطة وأمسكت بالضابط السابق متلبسًا.. ثم قدم للمحاكمة حيث حكم عليه بالسجن خمس سنوات تقريبًا..

كان يقول لي: «أنا لست قاطع طريق.. ولا زعيم عصابة.. لقد فشلت في أخذ حقي بالحسنى، فاضطررت لأخذه بطريقة أخرى.. لم أكن أعلن أن أخي قد تواطأ مع النيابة والشرطة للإيقاع بي.. ويوم أن قبض علي بكيت.. لكن أخي الأكبر لم يرحم صلة الرحم ولا الدموع.. هل كان من المعقول أن ألحق الأذى بابن أخي؟ إنه مثل ابني تمامًا.. لكن العدالة كما يقولون معصوبة العينين.. أقسم لك أني مظلوم.. مظلوم وجلال الله...».

وفي السجن كل الناس «مظاليم»، ويصعب على أي إنسان أن يعرف الحقيقة، ولهذا فإن السجان لا يصدق أحدًا من المسجونين، ويرمي وراء ظهره بكل القصص والحكايات التي يسمعها، ولا يكترث للدموع التي يذرفها المظلومون.. فالسجن عالم من الشك والريبة والغموض.. وصدق الشاعر الذي يقول:

لا يـــدخل الــــسجن إنـــسان فتـــسأله
مـــا بـــال ســـجنك إلا قـــال مظلـــومُ

وهكذا يخيل للرائي أن السجن ليس فيه سوى المظلومين وأن خارج السجن هو العالم الواسع الذي يعج بالظلمة من البشر..

أما القضية التي هزت مشاعرنا، فقد كانت قضية طالب الطب «ع»، وقد اهتمت بها الصحف في تلك الفترة، ونشرتها بالتفصيل، وكنا نتابع مراحل هذه القضية جلسة بعد جلسة، فقد كان لطالب الطب «ع» صديق عزيز يدرس معه في الكلية، وكثيرًا ما كان «ع» يذهب إليه في منزله ليذاكر معه حيث يسكن هو وأمه وحيدين بعد أن مات والده، ولم يكن أحد يتصور أن «ع» يمكنه أن يقع في حب أم صديقه، لكن هذا ما حدث بالفعل، وتسلل ذات يوم إلى بيت صديقه في غيبته، وأخذ يطارح الأم الغرام، فصدته بعنف ووجهت إليه أشد اللوم، لكنه لم يرتدع، فهددته بالكشف عن نذالته أمام أهله وأمام ابنها، غير أنه استمر في تذلله وإبداء حبه، وعدم القدرة على العيش بدونها، ولما يئس منها أخرج مسدسه وأفرغ في السيدة المسكينة عددًا من الرصاصات القاتلة، وبالطبع قبض عليه وقدم للمحاكمة.

كان وقع الحادث أليمًا بالنسبة لأبيه الأستاذ الجامعي والذي يحظى بالاحترام والتقدير، كما كان أشد إيلامًا بالنسبة لأمه، التي ماتت بعد فترة وجيزة. وفي نهاية المطاف حكم على «ع» بالسجن خمسة عشر عامًا «أشغال شاقة»، عندئذ سقط مغشيًا عليه في قفص الاتهام، وعندما حاول مصورو الصحف التقاط صورة له، تصدى لهم أحد أشقائه وكان يعمل ضابطًا بالمخابرات العامة، وانتزع منهم آلات التصوير وأتلف الأفلام على مرأى ومسمع من هيئة المحكمة والنظارة، واحتجت الصحف في اليوم التالي، المهم أن المتهم نقل على الفور إلى مستشفى سجن القاهرة لعلاجه من أثر الصدمة قبل ترحيله إلى «ليمان طرة» ليقطع الصخر في الجبل، ولم نستطع أن نمنع أنفسنا من الهرولة إلى المستشفى لنشاهد هذا الشاب العجيب التصرفات.. كان كما هو متوقع منهارًا يبكي، ولا يستطيع أن يتصور أن مستقبله قد دمر، وأنه سوف يقضي خمسة عشر عامًا بين القتلة والسفاحين في محاجر ليمان طرة، وأخذ كالعادة يزعم أنه مظلوم وأنه لم يكن يقصد قتلها.. وأنها هي التي أغوته وحطمت حياته.. وأخيرًا اتهم القاضي بالظلم والتحيز، وكان متواجدًا معنا الأخ الصديق السجين عبد الوهاب السقا، فسدد إلى «ع» الراقد على السرير نظرات احتقار، وقال له في حدة: «فعلًا القاضي قد يكون متحيزًا.. لكن لصالحك».

- «كيف؟».

- «لأنك تستحق الإعدام..».

فأسرعنا بإبعاد عبد الوهاب بعيدًا عنه وهو يزمجر ويتحدث عن بشاعة الجرم، ويستغرب تلك الأحكام المخففة التي تصدر في مثل هذه القضايا الواضحة مع توفر الدليل والاعتراف والقصد الجنائي، والحقيقة أن القاضي يطبق القانون مستندًا -في تكييف القضية- على ما يراه من أدلة ووقائع، وللمحامين حيل عديدة في النيل من تصور الادعاء، وبيانات الشهود، وتلقين المتهم بعض الأقوال التي تخفف من الحكم المتوقع..

الحقيقة أنني التقيت ساعات طوالًا مع المسجون «ع»، وكنت أشفق عليه من الحديث والتلميح عن القضية، ولم أستطع أن أكتشف أمورًا تساعدني على اكتشاف بواعث الجريمة، لكنه بالتأكيد مندفع وعاطفي في تصرفاته، ويحاول دائمًا أن يعلق أو يدلي بوجهة نظر في الموضوعات، قبل أن تكتمل الصورة بأبعادها المختلفة في ذهنه... وبعد بضعة أسابيع رحل

عنا إلى «ليمان طرة».. ولم نعد نسمع عنه شيئًا، وذات يوم بعد أن أفرج عني من السجن، كنت أتصفح جريدة الأهرام، فقرأت في صفحة داخلية خبرًا صغيرًا داخل مربع جاء فيه: أن طالب الطب السجين «ع» قد ألقى بنفسه من الدور الرابع في أحد مباني سجن طرة وأسلم الروح على الفور.

أما والده الأستاذ الدكتور الجامعي، فقد علمت أنه بينما كان يلقي إحدى محاضراته في المدرج الكبير، سقط ميتًا إثر نوبة قلبية مباغتة.. وهكذا أسدل الستار على واحدة من المآسي العديدة التي تحدث في مجتمعنا كل يوم، ولا تخلف وراءها سوى الحسرة والألم..

وننتقل بالحديث من طالب الطب، إلى اثنين من شباب الأطباء، كانت لهما أيضًا قضية مثيرة، تناولتها الصحف في حينها، فقد كانا على علاقة آثمة بإحدى الممرضات كانت تعمل معهما في عيادتهما، وعندما اكتشفت الحمل فكرا في إجراء «كحت وتفريغ»- «إجهاض»- لها كي يتخلصا من الجنين، لكنها أصيبت بالنزيف أثناء العملية الجراحية، مما اقتضى إجراء نقل دم بأسرع ما يمكن، واستعانا بأحد الأطباء المتخصصين، لكن الممرضة أسلمت الروح بعد أن اتهمتهما، فأبلغ الطبيب المختص عنهما وسيقا إلى المحاكمة التي حكمت عليهما بالسجن عامين لواحد وثلاثة أعوام للآخر، مع فصلهما من الخدمة، كما سحبت النقابة العامة للأطباء منهما تصريح مزاولة المهنة..

وأمام مكتبة السجن التقيت برجل وقور أشيب الشعر، يلبس ملابسه المدنية الأنيقة، ويضع الطربوش على رأسه، وكنت أشعر بالعطف والألم لهذا الرجل المسن الوقور، ولم أجرؤ على سؤاله عن الاتهام الموجه إليه، والذي يحاكم بسببه آنذاك، وذات مرة كنت أتصفح مجلة «البوليس» ووقعت عيني على صورة كبيرة بالألوان لنفس الرجل العجوز، وتحتل الصورة نصف الصفحة طوليًا، ومكتوب إلى جواره عنوان بارز يقول: «إمبراطور النصب في الشرق» لم أصدق ما أرى.. أيمكن أن يكون هذا الوجه الطيب البريء الذي يشبه وجه جدي في طيبته وصلاحه أيمكن أن يكون وجه نصاب كبير؟ وأخذت ألتهم كلمات التحقيق الصحفي التهامًا.. وسائل غريبة.. لا من حيث النوع أو المبالغ الضخمة فحسب، بل من حيث عدد الجرائم أيضًا..

وفي مرة أخرى أشار الأخ الصديق محمود عجوة إلى رجل يجلس في الشمس مع زمرة من المسجونين المتقدمين في السن وقال: «انظر إلى هذا الرجل.. وقل ماذا تلاحظ عليه».

نظرت، وقلت: «لاشيء.. إنه مثل من يجلسون معه، لا فرق بينه وبينهم...».

قال: «إنه مدير عام بإحدى الوزارات المهمة، اختلس عشرين ألفًا من الجنيهات «وهو مبلغ كبير في ذلك الوقت»، وحكم عليه بالسجن أربع سنوات.. أكان هذا الرجل يومًا مديرًا عامًا، يجلس على مكتب أنيق، ويتحلق حوله الموظفون وطاقم السكرتارية والسعاة وكبار الزوار؟ أكاد لا أصدق.. لقد مسخه السجن مسخًا شديدًا، وها هو يلبس رداء متسخًا كالحًا أزرق اللون، يتفق تمامًا مع ذقنه غير الحليق، ووجهه المتهدل، وعينيه ذات الزوايا الحمراء الملتهبة، ثم جاء السجان وأخذ يدفعهم باحتقار وإهمال كي يذهبوا إلى «العنبر».. يا إلهي اللعنة على المال الحرام الذي يستعبد الإنسان، ويسقط هيبته، ويدمر مظهره ومخبره...».

وأمام المكتبة أيضًا كان يعقد مؤتمر لكبار اللصوص المسجونين كل صباح، يناقشون فيه أهم القضايا الجديدة التي ضبطتها الشرطة، وأسباب فشل عملية السرقة أو السطو، ويستخلصون العبر من هذه الحوادث اليومية التي ترد إلى السجن، وكنت تشعر وأنت تستمع إلى أحاديثهم وأفكارهم أنك أمام مجموعة من المختصين والخبراء المحترفين حتى لكأن اللصوصية نشاط وطني اجتماعي له أحكامه وتقاليده ومبرراته، ولا تسمع منهم كلمة حرام أو حلال، ويبدو أنهم ينظرون إلى اللصوصية كمهنة تحتاج إلى موهبة وفن، وليست انحرافًا خطيرًا يبعث على التقزز والتستر.

أما تجارة المخدرات داخل السجن فهي على أشدها، فأصحاب المزاج يجدون ألف حيلة وحيلة للحصول على الأفيون والحشيش، بل والخمر أيضًا، والتجار – أو المعلم الكبير- معروف لجميع المسجونين، بل وللسجانة أيضًا، والدليل على ذلك أنهم يفاجئون مروجي المخدرات داخل السجن من آن لآخر، وكثيرًا ما يكون المروج على علم مسبق بالحملة، ولقد أشرت إلى هذه الظاهرة بشيء من التفصيل في كتاب لي عن السجون بعنوان «المجتمع المريض»، وكان المتهمون في قضايا المخدرات –كما سبق وأشرت- يلتقون بي كثيرًا، لأنني كنت أكتب بعض القصص عن هذه السموم في مجلة السجون، وأتعرض لحياتهم وسلوكهم بشيء من الدقة، مما جعل أحد زعمائهم يقول عني: «هذا المسجون يعرف الكثير عنا، ولو

بحثنا وراءه لتبين لنا أنه «صاحب مزاج...» وحاولوا دعوتي على مأدبة غداء في يوم عيد، وبعد الأكل همس أحدهم في أذني قائلًا: «الصنف موجود»، وانفجرت ضاحكًا.. وأكدت لهم أنني لم أجرب هذه الأشياء طول حياتي، وأن ما أكتبه عنهم إنما أستمد حقائقه من الدراسات الطبية عن المخدرات في علوم الفاركولوجيا والطب الشرعي.. وعلى الرغم من الأيمان المغلظة التي كنت أقسم بها على صدق كلامي إلا أنني كنت أقرأ الشك في عيونهم..».

****

[14] مهرجان الحرية المؤقتة

لا أنسى ما حييت ذلك المفكر الهمام الكبير الأستاذ «أمين الخولي»، وهو واحد من الأساتذة المجددين في الجامعة، وأصحاب الرأي الحر، والبحث العميق، ورئيس جمعية الأمناء، وكان يصدر في هذه الفترة مجلة «الأدب»، وقد أفسح الرجل رحمه الله مكانًا لي في هذه المجلة أكتب فيه الشعر أو القصة وأنا سجين، بل أرسل إلي خطابًا مؤثرًا ما زلت احتفظ به، بدأه بقوله «تحية إليك في معقلك»، وكلمة المعقل –وليس المعتقل- تحمل الكثير، ثم استطرد قائلًا: «إن الفلك دوار، ولم يدق فيه مسمار».

الحقيقة أنني شعرت بالارتياح لرسالته العميقة الشجاعة، لأن من يغامر في تلك الفترة ويتصل أو يراسل سجينًا يعرض نفسه فيها لمشاكل لا حصر لها، ولقد حرصت بعد خروجي من السجن على الاتصال بهذا المربي الأصيل، وبحرمه السيدة الدكتورة بنت الشاطئ، وما أكثر ما ذهبت إليه في بيته بمصر الجديدة؛ كما كان حريصًا على أن يدعوني إلى الحفل السنوي الذي تقيمه مجلة «الأدب» كل عام.

ولقد تعرض الرجل لأزمة صحية شديدة، إذ أصيب بورم في المصران الغليظ، وأجريت له عملية جراحية كبيرة، وأشهد أن الرجل في محنته المرضية كان مؤمنًا قويًا باسمًا دائمًا، لا يرهب الموت، ولا ترتعد فرائصه أمام مرض خطير كهذا، وقد شفي بعد ذلك، لكني أعتقد أن وفاته بعد ذلك ربما تكون بسبب هذا المرض نفسه.

وكان علي في تلك الفترة أن أخطط بصورة أدق وأوسع لحياتي في السجن ما دام الأمل في الإفراج لم يتحقق، ولهذا أعددت عددًا من المشروعات الأدبية منها ما يتعلق بالكتابة، ومنها ما يتعلق بدراسة بعض العلوم الإنسانية والموضوعات الإسلامية التي أراني في حاجة إلى الاستزادة منها، والمسئولية تكبر وتثقل كلما حققت خطوة في طريق النجاح، وكلما ازدادت مؤلفاتك انتشارًا، وخاصة أن النقاد –وهم لا يرحمون- بدءوا النظر الدقيق فيما أكتب.. إن النجاح يؤدي إلى مزيد من القلق، والمضي قدمًا يحتاج إلى عرق وسهر وصبر وأناة..

كان الأخ السجين البكباشي حسين حمودة أحد ضباط الإخوان الذين ساهموا بجهد مشكور يوم قيام ثورة 23 من يوليو عام 1952، وقد شرح هو بنفسه دوره وعلاقاته وتاريخه مع الثورة في كتاب صدر عن دار الزهراء بالقاهرة مؤخرًا، ونظرًا لاستمساكه بوجهة النظر الإخوانية فقد غضب ضباط القيادة منه، وأدخلوه في زمرة المقدمين للمحاكمة من الإخوان المسلمين، وحكم عليه بالأشغال الشاقة هو والبكباشي فؤاد جاسر، والصاغ جمال ربيع وغيرهم، وعاش حسين حمودة في سجن الواحات بالصحراء مع إخوانه بضع سنين، ثم نقل في عام 1958 إلى سجن القاهرة معنا، وذات يوم استدعي حسين حمودة وكان الوقت بعد العصر، ثم حان موعد التمام، وأغلقت الزنازين، وانصرف سجانة النهار، وجاء بعدهم خفر الليل.. لكن حسين حمودة لم يعد.. وأخذنا نضرب أخماسًا في أسداس، ترى أين ذهب؟ هل أخذوه إلى إحدى المستشفيات؟ لكنه والحمد لله لم يكن مريضًا، هل رحلوه إلى سجن آخر؟ ليس هناك ما يدعو إلى ذلك، الحقيقة أن ذهاب حسين هكذا فجأة أثار العديد من التساؤلات المقلقة.

وفي حوالي العاشرة والنصف صباحًا وجدنا حسين حمودة يدخل علينا عنبر «ج» مرتديًا أفخر ثيابه، إذن قد خلع لباس السجن، وارتدى بدلة مدنية، فتجمهر الإخوان حوله وهم يتساءلون: «ماذا جرى؟».

وأخذ يشرح كيف جاء أحد ضباط الداخلية الكبار مساء أمس ومعه عدد من الحرس، وكيف ساروا به في شوارع المدينة، ثم أدخلوه أحد الأمكنة، وهناك وجد وزير الداخلية زكريا محيي الدين جالسًا في انتظاره، وتعانق الإخوة الأعداء، وأعادا ذكريات الصداقة القديمة والكفاح الطويل، كان حسين مبهورًا لا يكاد يصدق ما يجري، وقال له زكريا محيي الدين حسب روايته: «لم يكن في إمكاننا كثورة أن نواصل مسيرتنا وننفذ خططنا وأنتم تعارضوننا وتتصدون لنا، ومن ثم لم يكن هناك مناص من حجزكم في السجن فترة حتى لا ننشغل بمعارك ثانوية.. والآن قد استقرت الأمور، وأستطيع أن أقول لك، مبروك، لقد أمر الرئيس بالإفراج عنك.. وتستطيع الآن أن تذهب إلى بيتك...».

كنا نستمع إلى حسين في ذهول، لم يتركنا حسين لكي نناقش ونستنتج ونستقرأ الأحداث المفاجئة، فاستطرد قائلًا: «وقد أخبرني الوزير أن الإفراجات عنكم ستتوالى تباعًا..».

الإفراج بالنسبة للسجين السياسي حلم، وهو لا يأتي عادة إلا وسط دراما مثيرة، فقد يخرج السجين السياسي غدًا، وقد يبقى سنوات طوالًا، وقد لا يخرج أبدًا، إذ إن العبرة ليست بالحكم الصادر في حقه، ولكن الأمر يتوقف على الوضع السياسي العام، وتطور الأحداث ومدى المعارضة وما فيها من لين أو شدة، ولهذا فإن الإفراج عن حسين حمودة على هذا النحو قد هزنا هزًا من الأعماق.

ولم تكد تمر أيام قليلة حتى أفرج عن معظم ضباط البحرية الذين كانوا مسجونين معنا على ذمة قضيتنا، وكذلك أطلق سراح عدد من الضباط الآخرين منهم جمال ربيع ونجيب عطية وفؤاد جاسر، ثم توالت الإفراجات بأعداد قليلة في سجن أسيوط، وسجن بني سويف، ثم توقفت فجأة، ولم تدم الفرحة طويلة، وأخذت الشكوك تراودنا من جديد، إن ما جرى من إفراجات ليست له صفة الإفراج العام، أو العفو الشامل، لكنها جاءت كعينات منتخبة محدودة..

في هذا الأثناء استدعاني الصديق الضابط سمير قلادة لأتسلم من المكاتب طردًا من الكتب كنت قد أوصيت أهلي بشرائها، وحينما كنت جالسًا في مكتب الإدارة كان يتواجد به حوالي أربعة ضباط، وفجأة سمعت أحدهم يقول لي: «ما رأيك في الثورة؟».

ارتج الأمر علي، ولم أدر بماذا أجيب، فابتسمت في اضطراب وقلت: «أهو تحقيق يا «زايد» بك؟».

قال: «لا والله.. وإنما أردت أن أستمع إلى رأي مفكر مثلك..».

كان من الصعب أن أراوغ أو أصمت، كما كان من غير اللائق أن أثني على الثورة على طول الخط، فسوف يدركون أني أخدعهم، وكان من الخطر أيضًا أن أشن على الثورة هجومًا يورطني فيما هو أكبر وأنا مازلت سجينًا؛ عندئذ فكرت وتمالكت أعصابي وقلت بمنتهى الوضوح: «من الخطأ أن أصدر رأيًا واحدًا شاملًا على الثورة...».

قال: والضباط من حولنا يتابعون الحوار -وهو يبتسم: «كيف ذلك؟».

قلت: «إن الحكم الصحيح على الثورة لابد وأن يكون مجزءًا.. أو يتناول كل قضية على حدة.. ودعني أشرح لك الأمر بضرب الأمثلة.. إخراج الإنجليز من مصر عمل عظيم.. وكذلك تأميم قناة السويس، وخطوات التصنيع، أما موضوع الحريات العامة والمحاكم

الاستثنائية، وبقاؤنا في السجن، والمعاملة التي عوملنا بها.. فهذه أمور سيئة لا يقرها عدل.. ذلك هو حكمي على تقييم الثورة.. أشياء طيبة، وأشياء أخرى على النقيض.. ولا أستطيع أن أقول غير ذلك.. ولا مجال للتفصيل.. وكل لبيب بالإشارة يفهم». وتبادل السادة الضباط النظرات، وعلق الضابط زايد قائلًا: «كلام منطقي معقول، ولا خلاف عليه..»، قال ضابط آخر: «لقد كنا نتوقع أنك ستكون من أوائل المفرج عنهم..».

فقلت وأنا أهم بالخروج: «الأمر لله ما شاء يفعل..».

والواقع أن خروج البعض منا فتح شهيتنا للرغبة في الحرية، وكثرة الأقاويل والتحليلات السياسية، فهناك من قال إن الثورة تحاول إرضاء الضباط المحبوسين في البداية، وتجعل لهم الأسبقية في الإفراج، وهناك من قال إن المجموعة التي خرجت لم تصطدم بالإدارة أو توجه انتقادات جارحة للحكومة أثناء فترة السجن، وهناك من أشار أيضًا إلى احتمال وجود «واسطة» من شخصيات كبيرة بالنسبة للبعض، وتعبنا من كثرة الكلام والتحليلات.. فآثرنا العودة إلى ما كنا فيه قبل حركة الإفراج المحدودة التي مرت بسرعة..

وجاء أبي متلهفًا لزيارتي وليسألني عن مصيري، قلت باسمًا: ما المسئول بأعلم من السائل، وقد وعد خالي اللواء منذ شهور بأنني سأكون من أوائل المفرج عنهم بإذن الله، ولكن وعده لم يتحقق، وبان الضيق والغضب على وجه أبي الذي ازدادت تجاعيد وجهه عمقًا وعددًا، ولم يعلق بكلمة، كنت أقرأ كل ما يريد قوله على وجهه الطيب وعينيه الحائرتين.

وخرجت ذات يوم إلى القصر العيني لمتابعة العلاج بقسم العظام، وفي هذا اليوم جاء لأول مرة جدي محمود وهو عم والدتي، وكان رجلًا متقدمًا في السن، كما جاء أبي أيضًا للزيارة ومعه أخي الصديق الأستاذ مصطفى عبد الحافظ. وكان طالبًا آنذاك في كلية اللغة العربية، ويرتدي زية الأهزي المميز، وأثناء جلسة العلاج، وكانوا جميعًا يجلسون إلى جواري قدم ضابط الحراسة وسألني: «هل أنت فلان؟» قلت: «نعم».

قال: «أنت مطلوب للسجن حالًا».

ودق قلبي.. آه يا قلبي المعنّى!! دائمًا تعيش بين الخوف والرجاء، واليأس والأمل، مضطربًا هائمًا كطائر يعلو ويعلو حتى يعانق السحاب، ويهبط ويهبط حتى يصطدم بصلابة

الأرض وقسوتها.. قال لي الضابط مسرعًا: «هيا حتى أوصلك ثم أعود لباقي إخوانك المسجونين..».

وحينما أراد الضابط أن يعلق الأغلال «الكلبشات» على يدي كما هو متبع، انحشرت فيها قطعة من جلدي فانسكبت قطرات من دماء، تأوهت دون وعي، فقال الضابط في ارتباك: «آسف.. يبدو أنني تعجلت.. هل تحتاج إلى ضماد؟».

قلت: «لا داعي فالإصابة سطحية..».

كنت شاردًا طوال الطريق، لم يكن يعلق ببصري شيء من المشاهد العديدة التي تتوالى علي مع أني كنت أركب سيارة مكشوفة ويجلس إلى جواري شرطي حراسة واحد، يبدو على وجهه أن الأمر لا يعنيه في شيء.

تطلعت إلى باب السجن من بعيد، كان يقف أمامه ضابط طويل القامة، كبير المقام، وما إن اقتربت حتى تبينت أنه القائم مقام إبراهيم عزت، وعندما رآني ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة، فوثبت من فوق السيارة، فإذا به يستقبلني فاتحًا ذراعيه ويقول: «مبروك يا ابني.. لقد صدر أمر بالإفراج عنك..» احتضنني الرجل الطيب، ذو الوجه الأبيض، والابتسامة الحلوة، والشيب الوقور، وطبع قبلته الأبوية على جبيني، لقد امتلأت عيناي بالدموع، وعجزت تمامًا عن النطق، كنت أتحرك كالآلة، أخذني نائب المدير إلى مكتب المدير، حيث يتواجد معظم الضباط، وتسابقوا في تقديم التحية إلي، وكان المدير يقف على مقربة من مكتبه، ولاحظت وجود رجل غريب يرتدي الزي المدني يجلس مكان المدير، وكان يشهد الترحيب والتهاني بكثير من الاهتمام، قلت في نفسي لعله ضيف طارئ، ولم أركز كثيرًا على ملامح وجهه، ودهشت إذ سمعت هذا الضيف يقول مبتسمًا: «ما دمتم تحبونه هذا الحب الشديد، فسوف نبقيه معكم ولا داعي إذن للإفراج عنه..».. وضحكوا.. وشاركتهم الضحك.. ونظرت إلى وجه الرجل الضيف.. من هو؟ لقد رأيت هذه الوجه من قبل.. أين؟ أين؟ ولم تطل حيرتي فقد قال المدير: «أحمد بك صالح داود...».

وانتبهت تمامًا.. إنه هو.. الرجل الذي كان له دور كبير في عنف التحقيقات التي جرت في السجن الحربي، كان اسمه يبعث الرعب في النفوس، ها هو يجلس أمامي مبتسمًا هادئًا وكأن لم يحدث شيء.. وتمالكت أعصابي قال: «هل تعرفني؟».

- «بالطبع...».

- «لم تنس بعد..».

لم تكن حالتي النفسية تسمح بالبحث وراء الكلمات التي يتفوه بها، ولا النظرات الثاقبة التي يسددها إلي، وعاد يقول وهو يعبث بشيء في يده لا أذكر ما هو: «البلد ليست بلد جمال عبد الناصر وحده.. ولكنها بلدكم أيضًا..».

كنت أقف «انتباه» كأحد العساكر الجدد في معسكر للتدريب، ورددت باقتضاب: «نعم..» فاستطرد: «والرئيس لا يحب أن يحبس أو يعتقل الكفاءات الممتازة..».

- «نعم».

- «ولهذا أمر بالإفراج عنك..».

- «متشكر يا فندم...».

- «ويجب أن تنسى ما مضى، وتبدأ حياة جديدة.. أنت لم تخسر الكثير، بل استفدت خبرات ودروسًا..» وأضاف وهو يبتسم: «وجوائز أدبية ضخمة.. وأصبح لك اسم معروف في عالم الأدب.. ولقد كان ملفك بين يدي خلال الأيام الماضية.. وكل السجون التي عشت فيها تشهد لك بحسن الخلق..».

واختتم حديثه بقوله: «وأنا مكلف بأن أحل لك أي مشكلة تعترضك في الخارج.. لكن لا تنس أنك ستخرج إفراجًا صحيًا.. أتعرف معنى الإفراج الصحي؟ معناه أن نعيدك إلى السجن إذا ما صدر منك أي تصرف خاطئ، بحجة أن صحته قد تحسنت.. وهكذا ستظل معلقًا بكلمة منا.. تذكر أنه ليس عفوًا شاملًا، ولكنه إفراج صحي..». وأعطوني إذنًا بالانصراف..

خرجت من مكتب المدير، وخطواتي مرتبكة، والعرق يسيل على وجهي رغم أننا في الثلث الأخير من شهر نوفمبر، وفي فناء السجن لحق بي الضابط سمير قلادة الصديق المخلص وقال: «أنا كنت أول من قدم البشرى لوالدك.. إنه -وعدد من أهلك- بباب السجن، وقد سألني عما يجري، وأخبرته أنه سيتم الإفراج عنك في خلال يومين أو ثلاثة، وأخبرته أن يحضر لك بدلة وحذاء والذي منه..». كان سعيدًا جدًا لنبأ الإفراج عني، وأخذ علي عهدًا أن أقبل دعوته لتناول الغداء في منزل أسرته بمصر الجديدة بعد خروجي، فرحبت

على الفور، وصحبني حتى باب العنبر، كان السجناء غير السياسيين يلتقون في الطريق، ويقدمون التهاني، وعندما صعدت إلى الطابق الثاني بعنبر «ج» تزاحم الإخوان من حولي مهنيئن، ولم أستطع كبح مشاعري فانهمرت من عيني الدموع..

قال أحد الإخوة: «لماذا البكاء؟».

- «كنت أتمنى أن نخرج جميعًا..».

- «أنت اليوم.. وغدًا غيرك.. كلها آجال..».

جلست في غرفتي صامتًا استعيد ما تشتت من مشاعري وأفكاري، وأطل السجان الأسمر بوجهه الباسم علي من الباب قائلًا: «لا تنس الحلاوة.. نحن حلاوتنا كبيرة جدًا.. أكلنا معك عيش السجن.. أم أنك لن تهتم بنا عندما تلبس الملابس المدنية وتصير دكتورًا؟».

- «من عيني يا شاويش محمد».

وعلمت أن أربعة من الإخوة سيخرجون معي في نفس اللحظة وهم سمير فهمي الغندور طالب الطب البيطري ابن الأميرالاي فهمي الغندور المفتش العام بوزارة الداخلية، وعبد الرحمن شفيق الطالب بكلية العلوم ابن العلامة المتخصص في اللغة والأدب وشارح بعض الدواوين الشعرية المهمة، والأخ عبد الوهاب السقا، وأخ رابع لا أتذكره الآن..

في اليوم التالي قدمت إلى السجن «لجنة طبية» مشكلة من عدد من الأطباء لفحصنا طبيًا، وتقرير الإفراج الصحي، وكان الموضوع مجرد إجراء شكلي ليس إلا، وجلست أمام اللجنة، وأخذوا يوجهون إلى بعض الأسئلة وهم يكتبون دون أن ينتظروا إجاباتي أخبرتهم أني مصاب بالتهاب عظمي مفصلي في الركبتين وبواسير نازفة، وضعف في كفاءة الكبد وغير ذلك من الأعراض أو العلامات التي كنت أعاني منها فعلًا... وفي نفس اليوم جاء أبي لزيارتي، ومعه بدلة جديدة وملابس داخلية وحذاء، وكانت السعادة تغمر وجهه الطيب، وقال جدي العجوز محمود: «لقد تصادف الإفراج عنك في أول زيارة أزورك فيها.. وهذا من فضل الله».

وفي اليوم الثالث بقي أبي منذ الصباح أمام السجن، كان يصلي ويأكل وهو جالس على مقهى شعبي صغير مقابل السجن العتيد، وكان سمير قلادة يذهب من وقت لآخر إليه ليجامله ببعض القهوة أو الشاي.

حانت لحظة الخروج مساءً بعد صلاة العشاء، وودعت أعز الأحباب داخل السجن وأنا أبكي من جديد، كنت أشعر أن فرحتي ناقصة، وأنني لن أستطيع مهما فعلت أن أمحو صورة هؤلاء الأحباب -بأرديتهم الزرقاء ووجوههم النحيلة الشاحبة داخل الزنازين- من ذاكرتي، لقد ترسخت مشاهد السجن في روحي وعقلي، حتى إنني بعد ذلك لا أكاد أكتب رواية إلا وفيها شيء من ذلك إلا النادر. عندما خطوت إلى الخارج، كان هناك حشد كبير من الرجال والنسوة والأطفال، وانطلقت الزغاريد، وامتدت الأيدي، واختلطت الكلمات، لم أكن أستطيع أن أفرق بين أهلي وغيرهم من أهالي الإخوان الآخرين.. وبحثت عن أبي، وأشاروا إلى مكان قريب.. كان يفترش عباءته الصوفية، ويصلي لله شكرًا.. كانت عمامته البيضاء تشع في الضوء الخافت، وجبهته ساجدة على أرض الله، وانتظرنا لحظات حتى انتهى أبي من صلاته، ثم قدم نحوي، واحتضني بيدين واهنتين، وكان التعبير عن فرحته بالدموع التي تسيل صامتة على وجهه المغضن.. إنني أبكي الآن وأنا أسجل هذه الكلمات.... و..

واقتضت الرسميات أن توضع الأغلال في أيدينا، لكي ننتقل إلى وزارة الداخلية، ودخل موكب السيارات إلى الساحة الكبيرة، وصحبنا الضابط إلى المكاتب الداخلية، كان أحمد بك صالح داود يجلس في مكتبه الصامد وأمامه عدد من التعهدات التي يجب أن أوقع عليها، وهذه التعهدات تشمل عدم الاشتغال بالسياسة حيث إننا معزولون سياسيًّا، وعدم الاتصال بأعضاء الإخوان المسلمين الذي سبق اعتقالهم أو سجنهم أو قيامهم بأنشطة قديمة، وضرورة إبلاغ المباحث العامة عن أي سفر من مقر الإقامة أو إليها قبل أن يبدأ السفر بوقت كاف، وعدم تغيير السكن أو عنوان العمل إلا بعد الاتصال بمكتب المباحث المختص.. وخرجنا من المباحث العامة بميدان «لاظوغلي».. شعرت أنني أتنفس هواءً جديدًا لأول مرة.. الهواء هو الهواء.. لكن هكذا خيل إلي.. وذهبنا إلى بيت خالي الأستاذ عبد الرافع الشافعي بمصر الجديدة حيث احتشد الأهل والأقارب والمعارف الموجودين في القاهرة والقادمون من القرية.. وبعد التهاني والتبريكات وقف خالي، رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وسمى بسم الله، وأثنى عليه ثم قال: «نحن لا نحتفل بخروجك من السجن، ولكننا نحتفل بتخرجك من جامعة.. وسوف تكون السنوات التي قضيتها داخل الأسوار وأنت تعاني وتتألم ستكون مصدرًا لعطاء وفير، وخبرات فذة، وستؤثر على أفكارك ومسيرتك في الحياة أعمق تأثير..

وسيكون ذلك كله خيرًا إن شاء الله.. وأنت ضربت أروع المثل في صبرك، وفي محاولاتك العديدة للتغلب على الصعاب والعقبات..».

هذا بعض ما تذكرته من كلماته المؤثرة، ثم مدت الموائد، وتناولنا طعام العشاء، وبعد انقضاء السهرة كان علي أن أذهب لأنام، فغدًا أمامنا سفر ليس بالقصير على قريتنا التي تبعد عن القاهرة أكثر من تسعين كيلو مترًا.. لكنني تسللت في نفس الليلة مع أحد أقربائي وزرت العالم الوقور الجليل الشيخ محمود شاهين والد زوجتي فيما بعد.

في اليوم التالي وصلنا إلى القرية بعد العصر أو قبيل المغرب بقليل، وعند القنطرة الغربية التي تؤدي إلى داخل قريتنا شرشابه رأيت حشدًا هائلًا من أهل البلدة.. كانت السيارات تشق طريقها بصعوبة.. إنه مشهد لم أره طوال حياتي بعد ذلك.. لم أكن زعيمًا من الزعماء، ولا عضوًا في البرلمان، ولاحتى موظفًا ذا شأن.. مجرد طالب في كلية الطب.. وابن رجل فقير يشتغل بالزراعة.. وتلك هي القرية.. حب.. وتلاحم، إخلاص ووفاء، فطرة صادقة ترفض الظلم، وعندما يدخل الفرح بيتًا تفرح القرية كلها، وعندما يلامس الحزن قلوب أسرة من الأسر، تحزن القرية كلها.. الهتافات تشق عنان السماء.. وزغاريد النسوة تملأ سماء القرية.. عندها عاهدت الله بيني وبين نفسي أن أعيش خادمًا لهذه القرية الأمينة الآمنة، وعندما تخرجت طبيبًا فيما بعد قررت أن يكون عملي في هذه القرية، وأن أقدم خدماتي دون مقابل ليلًا ونهارًا.. مما أرهقني وأرهق الذين أتوا للعمل كأطباء بعدي، وقد سجلت بعضًا من ذلك في رواية «الذين يحترقون». وقد أعدّت الوالدة رحمها الله مجموعة من الأغاني الشعبية بهذه المناسبة، وكانت الفلاحات يرددنها وهن يطفن شوارع القرية في تلك الليلة المشهودة، على الرغم من وجود عدد كبير من الشرطة السرية فيها..

كان خروجي بالنسبة لأهل القرية يعتبر أمرًا غريبًا غاية الغرابة، فلم يحدث في تاريخها قط أن خرج سجين دون أن يكمل المدة القانونية للسجن، وهم في تلك الأيام لا يعرفون الفرق بين السجين السياسي وغير السياسي، ولهذا نظروا إلى خروجي نظرتهم إلى شيء غير مألوف.. وأرجعوه في النهاية إلى لطف الله وقدرته وعظمته.

وبقيت حتى منتصف الليل واقفًا على قدمي أستقبل الفلاحين في «الدوار الكبير» وكل واحد يصر على معانقتي وتقبيلي حتى تسلخت أجزاء من بشرة وجهي، لكنني كنت سعيدًا

بهذا الحب الذي لا يقدر بذهب الدنيا كلها، وفي اليوم التالي قدم أهالي القرى المجاورة كفر السنادية، كفر حسين، ميت المخلص، كفر الجزيرة، ميت ميمون، شنراق، السنطة، سنباط وكفر العرب. وبقيت على هذا الحال أسبوعًا. وبعد عشرة أيام تقريبًا أخبرت أبي بأني لابد أن أعود للقاهرة كي أستكمل دراستي في كلية طب القصر العيني، وأواصل المسيرة من جديد، فدعا لي بالتوفيق، وأشار علي بأن أذهب إلى عمي عبد الفتاح كي يدبر لي مسكنًا، لأن المدينة الجامعية لن تقبلني مقيمًا بها بعد ما حدث، وأوصاني -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- بأن أتفرغ للدراسة تفرغًا تامًا، حتى أعوض السنوات التي قضيتها داخل السجن، وهكذا عدت إلى القاهرة، بعد أن أبلغت «مباحث طنطا» بأنني سأسافر حسب التعهد المأخوذ علينا..

حينما وصلت إلى مبنى الكلية، تدفق الحنين القديم إلى قلبي، لقد أصبحت جزءًا من كياني وحياتي وتاريخي، وتذكرت المؤامرات السياسية الصاخبة، وأيام النضال ضد الملك والإنجليز، ثم الصراع مع الثورة من أجل الحريات، وصحف الحائط التي كانت تلتهب بالمقالات العنيفة، والشعر الثائر.. لكن الكلية تبدو اليوم هادئة كالشيخ الوقور الذي يحمل على كاهله عبء السنين الثقال.. ودخلت مكتب المسجل «كامل افندي»، نظر إلي طويلًا وقال: «أنت...».

- «نعم أنا هو... وهذه هي وثائق الإفراج الصحي...».

أشرق وجهه بالفرحة ونهض من فوق مقعده، وصافحني بحرارة قائلًا: «ألف مبروك». وقدم لي الشاي، ثم أخرج سجلاته القديمة، وأطال فيها النظر، وظل صامتًا بعض الوقت، فمددت رأسي بالقرب من السجل.. كان اسمي مكتوبًا، لكن مشطوب بالقلم الأحمر، وفي خانة الملاحظات قرأت: «فُصل لأسباب سياسية».

قال الرجل بألم: «تعرف أنها أوامر....».

- «والحل يا كامل أفندي؟».

- «الحل في وزارة الداخلية..».

قابلني المرحوم الأستاذ إبراهيم نوار رئيس تحرير جريدة الجمهورية وعرض علي وظيفة كبيرة بدار التحرير مقابل مرتب مجزٍ، فقلت دون تردد: «أنا لا أفكر إلا في شيء واحد وهو العودة إلى الكلية...».

ذهبت إلى خالي ضابط الشرطة الكبير وعرضت عليه الأمر، وبعد بضعة أيام أخبرني أن إعادة قيدي أمر مقرر، لكنه يستغرق بعض الوقت، وسوف يصدر أمر للكلية بالسماح لك بالحضور حتى تنتهي الإجراءات..

دخلت أحد أقسام الجراحة كالغريب.. لم أجد أحدًا من الوجوه القديمة، لقد تخرجوا وأصبحوا أطباء، وتحلق الطلبة حول أحد المرضى، ثم جاء الأستاذ ليناقش الحالة.. الكلمات التي أسمعها من الأستاذ تبدو كطلاسم.. لقد أنستني هموم السجن ولياليه الطويلة معظم ما تعلمته.. لا بأس.. فلأعتصم بالصبر.. وبالإرادة.. ولأبدأ من جديد.. وعلى بركة الله.

❊❊❊

الجزء الرابع

[1] حياة جديدة



كنت بعد أن صدر أمر الإفراج عني كالمبهور، فحياة السجن شديدة الاختلاف عن خارجه رغم ما في الحياة من منغصات وأعباء ومسئوليات، وكان يسيطر على ذهني وأنا أخطو خطواتي الأولى في حياتي الجديدة عدة أمور مهمة منها العودة إلى كلية الطب جامعة القاهرة (القصر العيني) بعد أن فصلوني منها، وهناك أيضًا المضي قدمًا في مجال الأدب وخاصة القصة والشعر والدراسات التي تبلور أفكاري وآرائي في الحياة، ثم هناك قضية الزواج التي يجب أن تحسم في أسرع وقت، فقد بلغت مرحلة من العمر تقتضي أن أكوّن أسرة تحقق لي ما أصبو إليه من استقرار وسعادة على الرغم من أني لم أتخرج من الكلية بعد، هذا ولا أستطيع أن أنسى القيود السياسية المفروضة علي ولباقة التعامل معها بشيء من الحكمة والكياسة وإلا تعرضت لمتاعب كثيرة. أهمها أن يعيدوني إلى السجن مرة أخرى. كما كان علي أن أدبر حياتي المعيشية واعتمد على الله وعلى جهودي الخاصة في توفير الدخل الذي يكفل لي حياة مناسبة، ويكفي ما تكبده أبي -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- من نفقات وآلام نفسية طوال فترة سجني، فضلًا عن أنه يتحمل مسئولية باقي أفراد الأسرة.

وأشاروا عليّ أن أذهب إلى الإسكندرية، ونحن في بداية فصل الشتاء. لقضاء فترة استجمام لدى خالي الأستاذ عبد المالك الشافعي ولم أمانع، كانت الإسكندرية في هذا الوقت هادئة جيدة الطقس الذي يميل إلى البرودة، وكان الأقارب يذهبون إلى أعمالهم في الصباح ويتركونني، فأخرج إلى شوارع المدينة وشواطئها وحدي، مستخدمًا الترام في تنقلاتي، أتطلع صامتًا إلى المباني والناس في الشوارع، وكأني استطلع عالمًا جديدًا غريبًا عني، يشدني إليه ما فيه من بساطة وسلاسة، كما كنت حريصًا على قراءة الصحف والمجلات التي حرمت منها طويلًا بشغف وتعمق، وتبين لي من خلال قراءاتي ومشاهداتي أن الدنيا تغيرت كثيرًا خلال

الأعوام القليلة التي قضيتها سجينًا، كما لاحظت أن الإسكندرية على الرغم من جمالها قد أصبحت أقل مستوى ونظافة وجمالًا بالمقارنة إلى حالها قبيل الثورة المصرية، كما بدأ الناس أكثر عزوفًا عن الحديث في السياسة وأحوالها اللّهم إلا في المؤسسات الحكومية التي تتبع التنظيم السياسي للحكومة وهو التنظيم الوحيد المسموح به، لكن الإنسان لا يعدم أن يجد هنا أو هناك فردًا أو أفرادًا يبكون جمال الزمان الغابر، وينحون باللائمة على الثورة وأيامها القاتمة في صوت خافت، وتوجس بيّن، وأصبحت الشعارات تملأ الشوارع والصحف وأجهزة الإعلام، وبدا أن الفن والأدب أصبحا يخضعان للسلطة وتوجيهاتها، وغدت خطب الرئيس مادة رئيسية في برامج الإذاعة التي تعيد إذاعتها مرارًا وتكرارًا، ولم يعد لرجل الشارع المصري مجال للتنفيس عن آرائه الحقيقية سوى «النكتة» حتى جاء اليوم الذي أصبح جهاز الأمن فيه يتابع ما يتردد من «نكت»، وكثيرًا ما يسوق قائليها إلى التحقيق والحبس، وكانت النكتة بمضمونها تضارع مقالًا كاملًا يحتل مساحة كبيرة من الصحيفة أو المجلة، أما «النكت» الرسمية في صحافة الحكومة فكثيرًا ما كانت تتضمن هجومًا على أعداء الثورة والرجعية والاستعمار، أو تروج لسياسة الحكومة ومشاريعها، وكان علي أن أكون حذرًا جدًّا إزاء هذه الصور الخفية للمعارضة.

وقبل سفري إلى الإسكندرية كان علي أن أذهب إلى أحد رجال الأمن المسئولين لأستأذن منه في السفر، وأسجل العنوان الذي سوف أذهب إليه، كما كان علي أن أذهب عقب وصولي إلى الإسكندرية. إلى المباحث العامة هناك لأخطرهم بمجيئي والفترة التي سأقضيها في الاستجمام. وفعلًا ذهبت في اليوم التالي إلى مقر المباحث بناءً على موعد حددوه لي، وقضيت بعض الوقت في أمور روتينية وأسئلة عن شعوري بعد الإفراج، وخطواتي المقبلة، والمدة التي سأقضيها في الإسكندرية وما إلى ذلك.

وقد لاحظ عليّ الأقرباء أنني أطيل الصمت، وأكثر من الشرود، ولا أشارك في المناقشات العادية أثناء السهر بالقدر الكافي، بل إني علمت فيما بعد أنهم لهذا السبب كانوا معتقدين أن السجن قد أثر في تفكيري وسلوكي وعقلي، ويبدو حقيقة أنني كنت أعاني من قيود ومحاذير وهمية، ترسبت في أعماقي أثناء السجن، ولم أستطع أن أتخلص منها بسرعة، وخاصة أنني قضيت عامي الأخير في السجن -كما سبق وقلت- في الحبس الانفرادي، مستغرقًا في كتاباتي

وقراءاتي، ولم يكن معي بالزنزانة من يشغلني عن ذلك، فضلًا عن الحرص المبالغ فيه الذي التزمت به بعد الأهوال التي رأيناها.

وأخيرًا عدت إلى قريتي (شرشابة) وقضيت بضعة أيام مع الأهل، ثم عزمت على الرحيل إلى القاهرة لاستئناف دراستي وأعمالي هناك. وكانت أمي رحمها الله متشبثة بي، وتقول: «لم أشبع منك بعد»، كما كانت زوجة جدي العجوز التي أصيبت بالشلل متمسكة ببقائي بحجة أنها قد تلقى الله في أي وقت، وقد لا تراني مرة أخرى، أما أبي فقد قال: «مصلحتك أهم، سافر على بركة الله».

كانت القاهرة -رغم ما عانيته من أهوال- لها مذاقها الشهي، القاهرة بكل ما فيها من علم وثقافة وأجواء روحية خلابة وذكريات حلوة، وآمال كبيرة، ولم أكن أستطيع العيش وحدي في هذه الفترة، ولهذا آثرت أن أسكن مع شقيقتي وزوجها المرحوم محمد السعدني الذي كان يعمل مدربًا في الحرس الوطني، واتخذنا مسكنًا مشتركًا في حي شبرا شارع «كنيسة الراهبات»، وقد قاما على خدمتي خير قيام، ولم أشعر معها بآلام الوحدة أو الغربة، وعدت إلى الكلية طالبًا منتظمًا، وبدأت في مجموعة تدرس أمراض العيون على يد الأستاذ الدكتور «عبد المنعم لبيب»، كان أستاذًا دقيقًا في عمله، ماهرًا في علمه، وكان يسجل الحاضرين بدقة، ويشرك الطلبة في الفحص والدراسة، لكني بقيت ملتزمًا الصمت في الأسابيع الأولى، لأن علومي القديمة. بمرور الزمن في السجن لم يبق منها إلا القليل، فكان عليّ أولًا أن أراجع ما مضى من تعليم في المراحل السابقة، ويبدو أن الأستاذ أدرك ذلك، فقال لي ذات يوم وهو يسجل اسمي في الحضور «إنك تعيش معنا كضيف، لماذا لا تشارك في المناقشة»، وابتسمت دون أن أجيب، فلم يكن المجال يسمح بشرح ظروفي، لكني حرصت في قابل الأيام أن أقرأ الدرس قبل أن أذهب في الصباح إلى الحلقة العلمية، وهكذا بدأت في الاشتراك في المناقشات العلمية، وذات يوم نشرت الأهرام في صفحتها الأخيرة خبرًا عني وصورة تحت عنوان «طالب طب يكتب بحثًا عن فيلسوف». وفي هذا اليوم كان الأستاذ يسجل أسماءنا كالعادة، وعندما جاء دوري قال: «أهو أنت؟» ونظر نحوي بشيء من المودّة والتقدير، وفي فترة دراسة العيون أيضًا، كنت أهرول ذات مرة إلى الحلقة الدراسية. ووجدت زميلي السابق في السجن الأستاذ يوسف هارون يعترض طريقي قائلًا: «هل قرأت الأهرام اليوم؟ لقد أعلنت نتيجة

مسابقة القصة القصيرة ونلت أنت الجائزة الأولى والميدالية الذهبية، وستتسلم الجائزة من الرئيس» وكان يوسف هارون ما يزال على ذمة السجن، وتحت العلاج، وحوله الحراس.

والواقع أن هذه الأخبار السارة قد فتحت شهيتي لمزيد من الكتابة، وأدخلت السرور إلى نفسي، وجعلتني أمضي في طريقي بثقة وأمل، كما جعلتني معروفًا في أوساط الطلبة وهم جيل غير جيلي الذي سبق وتخرج قبلي بأكثر من ثلاث سنوات.

ودعاني عدد من الأدباء وكبار الصحفيين للكتابة معهم، وهذا شيء مهم، فما أقل ما يحدث ذلك عبر التزاحم الشديد لناشئة الأدباء في ذلك الوقت على أبواب الصحف والمجلات والإذاعة، الحقيقة أني وجدت الطريق ممهدًا، فوجدت الفرصة سانحة لأتخذ مكاني وسط شباب الأدباء حتى أصبحت أكثر شهرة من كثير من قدامى الكتّاب الذين هم في سن أبي والحمد لله. ويبدو أن العناية الإلهية شاءت أن تعوضني عما فاتني من فرص أثناء سجني، كما كانت أُدعى لبعض الندوات في الإذاعة، ولبعض التحقيقات الصحفية، بل إن الاستفتاء الذي أجرته مجلة آخر ساعة في أواخر عام 1958 على ما أذكر عن أشهر أدباء العام أسفر عن فوز الأستاذ توفيق الحكيم بالأغلبية العظمى، لكن المجلة ذكرت في عددها الصادر بهذا الخصوص أن بعض من اشتركوا في الاستفتاء ذكروا اسمي.

لقد تركت العمل بالسياسة في هذه الفترة، لكن هل تركتها فعلًا؟

لقد كنت «معزولًا سياسيًا بأمر السلطة، أي لا يحق لي الاشتراك في أي عمل سياسي أو الانضمام حتى لحزب الحكومة، وقد كنت مرتاحًا جدًا لذلك، إذ يصعب على نفسي أن أصفق وأهلل لأولئك الذين أذاقوني وأذاقوا إخواني الأهوال، ومع ذلك فقد كنت في قرارة نفسي أجدني مقتنعًا وملتزمًا بالنهج الإسلامي، ولم يقف الأمر عند هذا الاقتناع الداخلي، بل تعداه إلى كتاباتي المتنوعة، فلم يكن غريبًا في ذلك الوقت أن أفكر في خط حديث لأدبنا المعاصر، وهو «الأدب الإسلامي» وأصدرت في ذلك الموضوع أول دراسة لي بهذا الخصوص تحت عنوان «الإسلامية والمذاهب الأدبية» ونشرته في دار النور بطرابلس ليبيا لدى الصديق الأخ محمد نشنوش، ثم فكرت أيضًا في الوحدة الإسلامية، في وقت كان الجميع يتحدثون فيه عن القومية العربية وأصدرت في نفس دار النشر المذكورة كتابًا تحت عنوان «الطريق إلى اتحاد إسلامي»، وقد صودر هذا الكتاب في القاهرة ولم يسمح بتداوله، وسبب لي العديد من

المشاكل، هذا بالإضافة إلى بعض القصص والمقالات في الداخل والخارج، وكنت أسأل نفسي من وقت لآخر: لَماذا أجر نفسي إلي المشاكل التي لا يعلم إلا الله عواقبها؟» ولكني أدركت أنني أقدم على الموضوعات الإسلامية بحماسة بالغة، ودون تقدير للعواقب، وكأن هناك قوة خفية تدفعني دفعًا إلى ذلك.. فأقول إنها إرادة الله.. وأقول قد يثاب المؤمن رغم أنفه، وكثيرًا ما كنت ألجأ إلى كتابة القصة التاريخية (قصيرة أو طويلة) وأودعها ما أؤمن به من أفكار وآراء، وكان أحد أصدقائي يقول لي: «لن تتغيروا.. يموت الزمّار وأصبعه يلعب» كناية عن التشبث بالمبادئ التي تربينا عليها.

ولقد كان من الأمور المحرمة علينا أن نلتقي بأحد من الإخوان المسلمين القدامى أو نجالسهم أو نتزاور معهم، وهذه من الناحية العملية قضية شاقة وشائكة، لأن معظم صداقاتي كانت معهم، وتعاملي في شتى أنحاء الحياة كان معهم، وخاصة ما يتعلق بالمصالح والبيع والشراء، انطلاقًا من الثقة والمحبة التي تجمع بيننا، لم يكن الأمر سهلًا في الحقيقة بالنسبة لي، فأنا أريد ناشرًا لكتبي الجديدة ممن تتحقق فيهم صفة «الإسلامية» فهم أحرص على حقوقي، وأسرع في تنفيذ رغباتي، ولقد نشرت كتابي الأول «الطريق الطويل» لدى مكتبة مصر (السحار) وهي دار محايدة، وكان للمرحوم سيد قطب ولنجيب محفوظ علاقات وطيدة بهم، ونشرت كتابي الثاني في الشركة العربية للطباعة والنشر، وصاحبها لبناني اسمه حسن إيراني، وكتابًا ثالث في دار القلم لصاحبها محمد المعلم، ولم أتوجه إلى دار إسلامية إلا في وقت متأخر نوعًا، فنشرت في دار العروبة (التراث حاليًا) وصاحبها إسماعيل عبيد، ومكتبة وهبة وصاحبها الحاج وهبة، ثم نشرت في دار النور (ليبيا) كما سبق وأشرت، وكان المكان الأثير الذي أجلس فيه كثيرًا في أيام الخميس هو مكتبة العروبة (التراث) في شارع الجمهورية (إبراهيم باشا سابقًا) وبمحض الصدفة علمت أن أحد رجال الأمن السريين يتابعني فيها، فقد سقطت مفكرة ذلك الرجل (المخبر) في منزل أخي وصديقي الفنان الرسام علي عثمان، فالتقطها خفية، وأخذ يقرأ ما فيها، فعثر على تقارير عني، وعن تحركاتي من بينها زياراتي المتكررة للمكتبة، ولقد كان لذلك علاقة في حادثة وقعت بعد ذلك، فقد أمسكت الحكومة بمنشور يوزع سرًّا بعنوان «فرعون مصر الصغير»، وكان المنشور يهاجم عبد الناصر وسياسته، وينحي باللائمة عليه في تعامله الجائر وقوته البالغة على جماعة الإخوان المسلمين،

وظن رجال الأمن أن الذي يروج لهذا المنشور هو صديقي المرحوم أسعد سيد أحمد الذي يعمل بمكتبة دار العروبة، كما توهموا أن كاتب المنشور هو أنا.. لكنهم لم يكونوا متأكدين من هذه المعلومات، ومع ذلك فقد قبض على الأخ أسعد سيد أحمد وأرسل إلى معتقل القناطر الخيرية للتحقيق، أما أنا فظل رجال الأمن يطاردونني في مقر عملي حيث كنت حينذاك «طبيب امتياز» بمستشفى «أم المصريين» بالجيزة (1961)، وكانوا يجالسونني ويناقشونني في سكن الأطباء، حتى إني هرعت إلى خالي اللواء محمود الشافعي وهو ضابط كبير بالداخلية، فشرحت له شكواي من المخبرين. فطمأنني، ثم جاءني أحد زملائي في العمل وهو الدكتور إبراهيم عبد الله، وقال لي إنه قدم شهادة طبية لصالحي حيث إن أحد المخبرين من أقربائه، ونصحني بالحيطة والحذر، وعدم الالتقاء بالإخوان القدامى لأني تحت المراقبة الدائمة، وكانت الدهشة تبدو على وجهي. وأنا أستمع إليه، فإن آخر ما كنت أفكر فيه أن يستغلوا زملائي المحترمين في جمع المعلومات عني، وأحد المخبرين قال لي: «أنصحك أن تبعد عن ابن ال.. الملعون أحمد سيد أحمد، لأنه سيسبب لك المشاكل» ولم أستطع أن أجيب إلا بكلمات قليلة مؤداها أنني لا ألتقي به إلا في إطار المصالح فهو يشارك في نشر بعض كتبي، ويقوم بالترويج لها وتوزيعها، ثم آخذ حسابي وأنصرف، وليس في علاقتي به غير ذلك..

واستطاع أسعد سيد أحمد أن يقنع المحققين بأن هذا المنشور لم يطبع في مصر. وأنه مهرب من الخارج، من لبنان على الأرجح، واستشهد في ذلك بطريقة الطباعة ووضع نقطتين تحت الياء في كلمة «في» ومثيلاتها، وغير ذلك من الأمور الفنية الأخرى، كما أكد لهم بالتالي ألا صلة لي بهذا المنشور وأنيّ لم أكتب حرفًا واحدًا منه، ومع ذلك لم يفرج عن أسعد سيد أحمد إلا بعد ثلاثة أشهر.

وقبل ذلك بفترة كنت أقطع الجسر الذي يفصل بين ميدان باب الحديد وشارع شبرا بالقاهرة، متجهًا إلى منزلي سيرًا على الأقدام، فلاحظت وجود شاب أسمر اللون يلاحقني أينما ذهبت، ويتوقف إذا توقفت عند أحد المتاجر. وظل يقترب مني حيث واجهته قائلًا: «ماذا تريد؟».

- «ألا تعرفني؟».

قالها في شيء من السخرية، ولما أخبرته أنني لم يسبق لي التعرف عليه أفصح عن هويته قائلًا: «أنا من المباحث العامة، في مكتب محيي الدين بك شفيق» أصابني شيء من الضيق، لكني تماسكت، ومضيت في طريقي وهو يسير إلى جواري.

قال لي: «تعلم أن كل حركاتك وسكناتك محسوبة».

قلت: «أنا لا أفعل ما يمكن أن تؤاخذوني عليه».

نظر إلي نظرة ذات معنى وقال: «إنّك خرجت من السجن بدون ثمن».

لم أفهم، وأدرك هو ذلك فقال: «المفروض أن ترشد عن أية تحركات مشبوهة للإخوان».

قلت على الفور: «لقد أخذتم عليّ إقرارًا ألا أتصل بأحد منهم».

عاد ينظر إليّ بخبث ويقول: «نستطيع أن نعيدك إلى السجن في أي وقت، هل نسيت أننا أفرجنا عنك إفراجًا صحيًّا، وفي الإمكان إلغاء الإفراج بحجة أنك شفيت من المرض، ثم تعود إلى السجن لتكمل باقي السنوات العشر المحكوم بها عليك».

لم يكن هناك جدوى من الحوار معه في هذا الموضوع، فهو يعلم جيدًا من ملفى لديه وأنني لم ولن أكون أداة طيعة لخدمة أهدافهم الخبيثة، ربما يكون لي بعض الأفكار الخاصة بي في هذه القضية أو تلك، لكنها لا تتداول إلا مع إخواني، فاختلاف الرأي لا يفسد للود قضية، وهو درس تعلمناه من رسولنا الكريم ﷺ، ومن صحابته الأجلاء، لكن لا دخل للحكومة في مثل هذه الأمور، والغريب أن بعض إخواننا كانوا ينظرون إلى الاختلاف في الرأي على أنه مروق وخروج على النظام.. المهم أن رجل الأمن أخذ يلقي بالتهديد تلو التهديد وأنا في حيرة من أمري، ولا أدري ماذا أفعل له، وعدت إلى بيتي مكتئبًا ضائق النفس، إذ أدركت أن الحرية التي خيل إلي أني حصلت عليها يشوبها الكثير من النقص والمنغصات، وأن الحياة على هذا النحو ستكون شقية مقلقة، وفي العادة كنت أبث همومي لخالي ضابط الشرطة الكبير، فكان يطمئنني برقته المعهودة دون أن يفصح لي عما سيفعل ولم تكد تمضي على هذه المقابلة الحافلة بالتهديد ثلاثة أيام حتى استدعيت إلى المباحث العامة بوزارة الداخلية لمقابلة محيي بك شفيق الضابط المعروف هناك. ولم أكد أجلس أمام مكتبه على المقعد حتى انبعث صوت من خلفي يقول: «دكتور نجيب.. لقد رأيتك في مسجد السيدة زينب».

التفت إليه فوجدته يقف أمام خزانة الملفات، إنه الصول «سليمان» على ما أذكر، وكان يرتدي زيًا مدنيًا، فقلت: «وماذا في ذلك؟».

فرد في صوت يتصنع الحنكة والدهاء والمعرفة: «فيها الكثير»!! لقد كنت تجتمع مع بعض الإخوان المسلمين المعروفين بمشاغباتهم، وفاجأني صوت محيي بك وهو يتصفح بعض الأوراق أمامه وقال: «دعه يا سليمان يفعل ما يشاء.. يبدو أنه نسي أنه على ذمة إفراج صحي وأننا نستطيع أن نعيده إلى زنزانة السجن في أية لحظة».

استبد بي الغضب والضيق، لكني كبتُّ مشاعري، إنهم يحاولون استدراجي لكي أقع في الفخ بأسلوبهم الساذج، وقلت لسليمان: «متى رأيتني في مسجد السيدة زينب؟».

- «منذ أسبوعين».

- «ماذا تقول إذا علمت أنني لم أدخل هذا المسجد منذ أكثر من ستة شهور» ثم التفت إلى الضابط الكبير وقلت بثقة: «يا محيي بك، أنا لست جاهلًا ولا ساذجًا، وهذا الأسلوب لا يليق بي، وليس في حياتي شيء يعاب أو أحاسب عليه سياسيًا...».

فابتسم محيي بك وقال: «هل تضايقت؟ لا.. لا.. نحن نمزح يا رجل.. احضر له الشاي يا سليمان».

وذات يوم كنت في مسكني بشبرا، وفوجئت بعدد من إخواني جاءوا لزيارتي، كان فيهم الأستاذ محمود هاشم «وشهرته حاتم» والأخ محمد نصار والأخ حسين عاشور (رئيس تحرير مجلة المختار الإسلامي حاليًا) والأستاذ فوزي عبد المنعم وغيرهم، وجلسنا نحتسي الشاي وقت العصر، وانزلق الحديث إلى الأحداث السياسية، وفي هذا الوقت الدقيق دق جرس الباب، وكم كانت دهشتي عندما وجدت المخبر (رجل الأمن) يقف أمامي بلحمه ودمه.. يا للمصيبة!! ماذا أفعل الآن؟ إن إخواني لا يعرفونه، وسوف يدخل ويستمع إليهم، وبالطبع سيعتقدون أنه أحد أقربائي، ووقعت في حيرة قاتلة، فأنا لا أستطيع أن أتركه هكذا واقفًا بالباب، ولم يكن أمامي سوى حل واحد غامرت بالإقدام عليه، لقد أدخلته عليهم فهبوا مصافحين، وقبل أن ينزلقوا إلى ما كانوا فيه من أحاديث في السياسة قلت بصوت عالٍ: «سوف أعرفكم ببعض.. هذا فلان.. وهذا فلان..» وأخيرًا قلت: «وهذا فلان من المباحث العامة» ألقيت العبارة الأخيرة كالقنبلة.. المخبر أخذ يتصفح الوجوه بنظراته العميقة

الكريهة، أما الإخوة. وكانوا في حدود ثمانية أفراد. ساد وجوههم القلق والشحوب، فهذا المخبر يستطيع أن يسوقنا جميعًا إلى التحقيق، ويفتح علينا بابًا من أبواب الكوارث التي تلاحقنا.

قال الأخ حاتم أبو بكر موسى (محمود هاشم) وهو يدعي الجهل: «ما معنى المباحث العامة».

قاسه المخبر بنظراته النارية وقال: «صحيح؟ ألا تعرف المباحث العامة؟ والنبي إيه «يا رجل...». وساد الصمت العاصف، وحاولت جاهدًا أن أتقمص شخصية الرجل الذي يتصرف بتلقائية لا تثير أدنى شك، وأخذت أفتح الحديث في موضوعات شتى لا تمت إلى السياسة بصلة، وطوال الجلسة كنت أرزح تحت عبء ثقيل، وأنفاسي تتلاحق، وبعد ساعة انصرف الجميع، وجلست وحدي أجفف عرقي، واستعيد هدوئي، وأدعو الله ألا يكون لهذه الجلسة عاقبة سيئة.

ألم تكن الحياة على هذا النحو مريرة، ألم يكن من الضروري أن فكر في الأمر بطريقة أخرى؟

***

[2] دنيا الأدب والأدباء

قلت من قبل أنني ولجت باب الأدب عن طريق المسابقات والجوائز، وأصبح لي مكان في هذا العالم العجيب المليء بالشخصيات والأفكار والأحداث والتقلبات، ولقد ظهر كتابان لي وأنا سجين؛ الأول رواية «الطريق الطويل» والثاني «عذراء القرية»، وكانت الخطوة التالية أن أعايش هذه المجتمعات، واندمج فيها، لأن المؤلفات وحدها لا تكفي لربط الأديب بالمجتمع الأدبي، ثم إن المؤلفين لا يكتبون في كتبهم ومقالاتهم كل شيء، فالكتابة مهما كان الأمر عمل له طقوس ومواصفات وآداب فنية واجتماعية وسياسية أيضًا، لكن حديث الأدباء في المقاهي والمجالس له طبيعة خاصة، إذ يتخفف الكتاب من رسمياتهم ويبدون لحد ما على صورتهم الطبيعية وهم يتحدثون ويأكلون ويشربون ويتفكهون. ويلعبون الشطرنج أو النرد، ويوجهون النقد لهذا أو ذاك، فضلًا عن وجود عدد من الكتاب لم يكتب لهم الشيوع أو الذيوع بعد على الرغم من كفاءتهم ومستواهم الفني الجيد ومجتمعات الأدباء ليست حرة أو سوية بصفة تامة، إذ لاحظت فيها بعض الأمور:

أولًا: نظام «الشِّلل» أو التحزب، وأعني به مجموعة مترابطة من الأدباء يجمعهم مذهب سياسي معين، قد يظهرونه وقد يخفونه، لكنه غالبًا ما يكون واضحًا بكثرة الحوار والمجالسة، هذه «الشلة» أو تلك لها أدباؤها ونقادها، وهم يشايعون كتابهم ويروجون لهم بالحق أو بالباطل، ويهاجمون من يخالفهم في الرأي أو الفكر، وعلى الرغم من أن الكتاب من حزب الحكومة الناصرية كانوا أكثر من غيرهم إلا أنهم لم يكونوا فصيلًا واحدًا، فقد كان فيهم الماركسيون والوجوديون والكلاسيكيون، ولن تعدم أن تلمح تيارًا إسلاميًّا خفيًّا بين الحكوميين لكنهم يبذلون قدر ما يستطيعون من جهد لإخفاء هويتهم.

ثانيًا: الكتاب في تلك الفترة يحذرون البوح بآرائهم السياسية مخافة القمع سواء في أحاديثهم أو كتاباتهم، ونادرًا ما تسمع همسة نقد، أو نكتة جارحة لاذعة تتناول النظام، بل إن

بين هؤلاء الكتاب بضعة أفراد مجندين لدى المباحث والمخابرات بنقلون إليهم أخطر الأحاديث في تقارير دورية.

ثالثًا: ارتبطت أفكار معظم الكتاب وإبداعاتهم بسياسة الحكومة وشعاراتها، حتى أولئك الذين يكتبون إبداعات تاريخية، كانوا يوظفونها فيما يعني التأكيد والتأييد لمبادئ الثورة وزعيمها، ومن وقت لآخر كنا نسمع عن أديب من هذا الاتجاه أو ذاك اختفى فجأة، ثم نعلم أنه قد سيق إلى المعتقل أو السجن بسبب مادة كتبها، أو بسبب انتمائه لإحدى التنظيمات السياسية الممنوعة كما يقال، وقد يطول اختفاؤه، وقد يظهر مرة أخرى دون أ ن يتحدث عما جرى له، وعند ظهوره نجده أكثر حرصًا، وأهدأ شخصية، يفضل الصمت على الكلام، ويهجر الكتابة، لكنه قد يعود إليها على هيئة كتابات رمزية قد يستعصي علينا حل رموزها.

رابعًا: أصبح الهجوم على الإسلام أسلوبًا سائدًا، من خلال ربطه بالرجعية والجمود، أو من خلال نسبة الإرهابيين والمتطرفين إليه، وتراجع دور الأزهر وعلمائه، ولم يبق على الساحة في الغالب إلا نسبة ضئيلة من العلماء التزمت الحياد، وتجنبت الموضوعات الحساسة، لكن العلماء الأعلى صوتًا هم من كانوا يدافعون عن سياسة الحكومة ويبررون مواقفها وأفعالها.

خامسًا: استولى النقاد الماركسيون (الذين شاركوا في إصدار بيان تأييد ومبايعة للثورة والتخلي عن شيوعيتهم) على الساحة الأدبية، وعلى مناصب مهمة في الصحف والمجلات والمسرح والسينما والنقابات الفنية، ولم ينج من شرهم إلا اتحاد الكتاب في معظم انتخاباته.

سادسًا: كان الوجه الثقافي للوطن مشوهًا لكثرة ما وضع فوقه من «مكياج» أو مساحيق وعمليات تجميل (أو تقبيح إن صح التعبير)، وانعكس ذلك كله على الجيل الجديد الذي أنشأت له الثورة منظمات خاصة، تسقيه فيها مبادئها وشعاراتها. وأصبحت النماذج والمثل العالمية المستوردة تملأ الساحة، فتقرأ الكثير عن «تشي جيفارا» و«هوشي منه» و«فيدال كسترو» و«ماو تسي تونج» و«الشهيد لومبا»!!، ونادرًا ما تقرأ شيئًا عن قادة الفتح الإسلامي، أو زعماء التنوير المسلمين، بل إن حملات ضارية شنت على كتاب معاصرين لهم وزنهم مثل عباس العقاد وتوفيق الحكيم وطه حسين وغيرهم. ومع ذلك فقد ظلت الآثار الأدبية التي سبقت الثورة المصرية زادًا للكثير من القراء، كما كثر عدد طبعاتها، بينما ركدت مطبوعات الحكومة في مخازنها حتى أصبح عدم توزيعها مشكلة من المشاكل، ولم يجد نفعًا

عمليات الدعم والترويج التي دفعت الحكومة الكثير في سبيلها لتوزيع تلك المطبوعات الرسمية.

سابعًا: كانت أدبيات تلك الأيام مكتظة بالتعبيرات الحاقدة ضد الماضي ورموزه وفكره وطبقاته الاجتماعية، وكان هناك تسابق مجنون بين الكتاب لإدانة كل ما مضى لصالح العهد الثوري الجديد، فتشوهت في النفوس وحدة الوطن وأبنائه، واتصال حاضره بماضيه، وزادت مشاعر البغضاء والتفرقة.

ثامنًا: لم يصاحب هذه المفارقات الفكرية والمضمونية تجديدًا في الأشكال الفنية أو الأساليب، بل إن الأساليب الأدبية قد انحطت لغتها، وكثرت الكتابة بالعامية في حوارات القصص القصيرة والروايات والمسرحيات، وكان للأدب الروسي عامة، وللمذهب «الواقعية الاشتراكية» خاصة تأثير كبير في قولبة الأشكال الفنية، أو دمغها بالتقليد للنماذج المستوردة، أذكر في تلك الفترة أن أحد شباب الكتاب قد ترجم مجموعة من القصص البلغارية إلى اللغة العربية، وألح علي أن أكتب لها مقدمة بقلمي، وقرأت المجموعة فوجدت أن قصصها لا ترقى إلى المستوى الفني المناسب الذي يدفع إلى ترجمتها، بل وجدت بعض القصص لا تصلح بالمرة لأن تندرج تحت «فن القصة القصيرة» فماذا أفعل في هذا المأزق؟ لقد كتبت المقدمة عن فن الترجمة، وما يجب ترجمته وما لا يجب، وضوابط الترجمة والهدف منها، وأشرت إلى أن بعض قصص المجموعة التي تدور أحداثها في مزرعة جماعية لا تخرج عن كونها «ريبورتاج صحفي» عن تلك المزارع، وبعد أن صدرت المجموعة في كتاب لاحظت أن المترجم قد حذف من المقدمة المقطع الخاص بالمزارع الجماعية، لكن الأهم من ذلك أننا ونحن نناقش هذه المجموعة في ندوة «الأستاذ نجيب محفوظ» في ميدان الأوبرا كازينو بديعة قال الأستاذ الأديب الناقد المرحوم عباس خضر بالحرف الواحد: «أهم ما في هذه المجموعة القصصية المترجمة مقدمتها...».

تاسعًا: الكثرة الغالبة من الكتابات في هذه الحقبة اتسمت «بالقلق الفكري» وعدم وضوح الانتماء، مضمون الحكومة العالي يروج لدعوى القومية العربية (حرية - وحدة -اشتراكية)، وهناك فئة أقل تؤمن بالوطنية المصرية وتروج لها على استحياء، أما أصحاب الاتجاه الإسلامي فكانوا يعيشون تحت حصار قاتل، ورجالات الأحزاب القديمة لا يقلون حصارًا

عن الإسلاميين، والشيوعيون يلعبون على الحبلين، فهم عقائديًا ضد القوميات، لكنهم يسلكون سلوكًا غير ما يعتقدونه لتجنب شر الحكومة، أو لأنهم آمنوا بفكرها، أو لمجرد تكتيك مرحلي، سرعان ما يغيرون جلودهم بعده عندما تحين الفرصة، ولقد لوحظ في خلال تلك الفترة العدوان على التاريخ حتى القريب منه، وأخذ مؤرخو الثورة يكتبون التاريخ وفق مقتضيات الظروف الراهنة، فيضيفون ويحللون ويحذفون، ولا حسيب ولا رقيب..

عاشرًا: انعدم المرجع الدائم، وأصبحت المراجع التي يلجأ إليها المفكرون والأدباء مراجع متغيرة متناقضة، وهكذا انطمست هوية الناس أو كادت، ولم يبق سوى فئة قليلة من الكتاب والمفكرين حافظت على توازنها، والتزمت بمنهجها، فكان مصيرها الإهمال أو الطرد أو الملاحقة البوليسية.

لكن أي منتدى أو ندوة أو جمعية أدبية يمكنني أن أذهب إليها؟! لم أقف طويلًا عند هذا التساؤل، وقلت لنفسي لماذا لا أذهب إلى أكبر عدد ممكن من هذه التجمعات الأدبية لأعرفها عن كثب، وأستفيد من إيجابياتها إن وجدت، وأتحاشى سلبياتها عندما أدركها؟

في أحد أيام الجمع، توكلت على الله، وقلت لنفسي: «لأذهب إلى ندوة نجيب محفوظ التي يطلقون عليها «الحرافيش»، والحرافيش كلمة وردت في تاريخ «الجبرتي» خير من أرخ للحملة الفرنسية على مصر، والكلمة تعني الطبقة الدنيا من الناس كالحرفيين والعمال وعامة الفقراء.

كانت الندوة تنعقد كل يوم جمعة ابتداءً من الساعة العاشرة صباحًا تقريبًا، في مكان يطل على ميدان الأوبرا (ميدان إبراهيم باشا) وسط القاهرة، وتقع الساحة التي نجلس فيها في الدور الثالث، وجدرانها من زجاج، ولا يجلس فيها أحد غير أعضاء الندوة، وكان هذا المكان يستغل في المساء «لسمار الليالي» وأصحاب المزاج، أما في صباح الجمعة فيخلى المكان تمامًا، ويكون أول الحاضرين إلى الندوة هو الأستاذ نجيب محفوظ وصديق له هو الأستاذ «هارفي» وهو محام مهذب لا أعرف له إنتاجًا أدبيًا، وكثيرًا ما كان الأستاذ علي أحمد باكثير هو الآخر يأتي مبكرًا، وهو ممن كانوا يواظبون على حضور هذه الندوة، وهناك صداقة قديمة وطيدة تربط بينه وبين الأستاذ نجيب محفوظ والأستاذ عبد الحميد جودة السحار والأستاذ المرحوم. سيد قطب والأستاذ محمد عبد الحليم عبد الله، حيث كانوا يلتقون في لجنة النشر للجامعيين

وفي مكتبة مصر التي يمتلكها آل السحار بشارع الفجالة، والتي نشرت العديد من مؤلفات هؤلاء الكتاب، وكان الأستاذ عبد الحميد السحار يأتي إلى الندوة هو الآخر ولكن بصورة غير منتظمة، ومن الأدباء والصحافيين الذين رأيتهم في هذه الندوة أيضًا: الأستاذ عباس خضر، الأستاذ أحمد عباس صالح، الأستاذ عبد الله الطوخي، الأستاذ صالح مرسي، الأستاذ فاروق منيب، الأستاذة سناء جميل «الممثلة»، الأستاذ صوفي عبد الله، الأستاذ نظمي لوقا، الأستاذ توفيق حنا وغيرهم، كما كان يأتي إلى الندوة عدد من الكتاب العرب اللاجئين إلى مصر في بعض الأوقات، وبعض الزوار الأجانب من أوربا أو روسيا.

دخلت عليهم لأول مرة كانوا يتراصون حول طاولة مستطيلة طويلة، على يسار الداخل تجد الأستاذ نجيب محفوظ جالسًا في الطرف المجاور للنافذة، ووجهه إليك، وقبالته الأستاذ علي أحمد باكثير الذي لا ترى سوى ظهره، الحقيقة أنني دخلت وهم منهمكون في المناقشة فلم أشأ أن أقطع عليهم الحديث، فاخترت طاولة صغيرة مستديرة على مقربة منهم وجلست.. كنت أشعر بالخجل، وأخذت استمع إليهم، وبعدما يقرب من نصف ساعة سمعت أحدهم يشير نحوي ويقول: «لماذا لا يأتي الأخ ويجلس معنا؟». ابتسمت في ارتباك ونهضت مسرعًا، ثم حييتهم وجلست إلى جوار المرحوم باكثير وأنا أعرف نفسي بهم، وسرعان. حسبما أدركت. ما تذكروا حكايتي عن الجوائز والسجن وما إلى ذلك، وضحك الأستاذ نجيب محفوظ ضحكته المشهورة وهو يقول «حمدًا لله على السلامة»، وفهمت أنه يشير إلى خروجي من السجن، وانتهزت الفرصة وقدمت إليه كتابين من مؤلفاتي هما «الطريق الطويل»، و«إقبال الشاعر الثائر» فقبل الهدية شاكرًا، ثم أخذ يبادلني الحديث عن الشاعر الفيلسوف محمد إقبال، ويبدو أنه كان مهتمًا به جدًا، أما الأستاذ علي باكثير فقد وضع يده على كتفي وشد عليه بحرارة تغني عن أي بيان.

وابتسم لي الأستاذ السحار ابتسامة أبوية حانية ثم قال موجهًا الحديث للأستاذ نجيب محفوظ: «نحن الذين قررنا طبع روايته «الطريق الطويل» قبل أن تتولاها وزارة الثقافة والإرشاد القومي وهو لم يزل في السجن.. تصور هربنا له العقد إلى هناك ليوقع عليه، كانت هذه الجلسة الأولى جلسة ودية فيها رقة ومواساة، وكان الزملاء الشيوعيون ينظرون إلي دون أن يعلقوا، لكنني عمومًا شعرت بالارتياح..

كان «مسجد الكخيا» الشهير على مقربة منا. وسمعنا صوت المؤذن يدعو إلى صلاة الجمعة، فتلفت حولي، كنت أريد أن أقوم للصلاة، ولما لم يتحرك أحد، وقفت فجأة وقلت: «بإذنكم» وكان سبب استئذاني واضحًا، وعقب قيامي رأيت عددًا قليلًا من الجالسين يتبعني إلى الخارج.

وبعد أن أديت الصلاة فكرت في العودة إلى الندوة مرة أخرى، وعندما دلفت إلى المجلس ابتسم الأستاذ نجيب محفوظ وقال «حرمًا» وابتسم البعض ولم يعلق البعض الآخر بشيء.

أصبحت هذه الندوة عادة أسبوعية أحرص عليها كل جمعة، كانت ندوة حرة، تطرح فيها شتى القضايا الفنية والأدبية والفكرية، ونسمع فيها عن آخر الانتاجات العالمية في الأدب والمشاهير من الكتاب والنقاد، لم تكن هناك قيود على الحوار، كل واحد يعبر عما يريد، بالأسلوب الذي يريد، قد يكون التعليق جادًا عميقًا، وقد يكون ساخرًا ضاحكًا، وقد يكون تأييدًا أو هجومًا، وقد يشتبك المتحاورون ويختلفون، ونجيب محفوظ يستمع أكثر مما يتكلم بحيث لا يلحظ أحد أنه رئيس الجلسة، إنه يعلق كبقية الحاضرين دون أن يظهر أستاذيته أو تفوقه، متواضع، رقيق الحاشية، لكن إذا كان الكلام غير منطقي علق بنكتة ظريفة لا تجرح.. وما أكثر المشاغبين والمتحمسين والمتشنجين في الندوات الأدبية.. والحقيقة أنني معجب بشخصية الرجل، وكنت أتابع ما يقول بدقة، وأقرأ ما يصدره من كتب، أو ما تنشره له الصحف من قصص وآراء وأفكار.

لم أكن لأتغيب عن الندوة إلا لعذر شديد، وإذا غبت. وهو نادر الحدوث. أتعرض لسين وجيم، وأصبحت جلستي في مواجهة الأستاذ نجيب محفوظ مباشرة، لماذا؟ لأنه بمرور الوقت كلفني الأستاذ نجيب محفوظ بقراءة الكتب التي ترد إليه وإلى الندوة من المؤلفين، كي نناقش واحدًا منها في الجلسة القادمة.. فكنت أقرأ الكتاب المختار قصصًا أو رواية أو غيرها، ثم أطرح موجزًا عن الكتاب في الجلسة، وأجيب على الاستفسارات التي توجه إلي، ثم بعد ذلك يبدءون في مناقشة الكتاب والمؤلف.. بمعنى آخر.. أصبحت «سكرتير الندوة».. وكان كلما أتى أديب وأهدى كتابه إلى نجيب محفوظ، أخذه شاكرًا، ثم سلمه لي كي أعده للحوار.. وبتكرار ذلك فقد أصبح الكتاب يأتون لي أنا الآخر بنسخة هدية. كانت هذه الندوة متنفسًا لي، وكنت أجلها جدًا، وأصطحب بعض أصدقائي معي، لكني كنت في نفس الوقت أذهب

إلى ندوات أخرى أهمها نادي القصة واتحاد الكتاب بشارع القصر العيني (عمارة سيف الدين) المقابلة لشارع المبتديان بالقاهرة، كما كنت أذهب إلى مقهى الأدباء بالدقي، ورابطة الأدب الحديث، والجمعية الأدبية المصرية وغيرها، وإلى دار الأمناء لدى الأستاذ الكبير أمين الخولي وحرمه الأستاذة الدكتورة بنت الشاطئ، ومع ذلك فقد بقيت ندوة نجيب محفوظ عميقة الأثر في نفسي رغم ما كان فيها من تيارات متصارعة، وآذان خبيثة، وأقلام متسأجرة، شغفت بكتابة التقارير عن خلق الله المساكين، والحق أن تقديرى لنجيب محفوظ. رغم اختلاف التوجهات في بعض الأمور تقدير لا يمحى، فهو كإنسان حلو المعشر رقيق الحاشية، خفيف الظل، لا يسيئ إلى أحد، ويحاول ألا يكره أحدًا..

****

[3] رجال الأمن يعصفون بالندوة

كانت ندوة «نجيب محفوظ» متنفسًا حقيقيًّا للأدباء والمفكرين، كما كانت غنية بالجديد من الآراء حول الاتجاهات الأدبية المعاصرة، وكثيرًا ما تشعب الحوار حول أدباء في مختلف أنحاء العالم لهم شهرتهم وآثارهم المهمة، ولم تغفل الندوة ما يجري من أحداث أدبية وفنية في مصر وفي العالم العربي، ولم يكن في استطاعة مجلة من المجلات مهما كبرت. أن تغطي الموضوعات الكثيرة المتنوعة التي يطرحها المتحاورون في حرية وشمول، وكثيرًا ما كان يطرح اسم من الأسماء الجديدة ليس لغالبية الحاضرين علم به، فينبري أحد المتخصصين من ذوي الدراية، فيعطي فكرة كاملة عنه، ويكون هناك مجال للدراسات المقارنة.

في أحد أيام الجمع اتفقت مع صديقي المدرس الأستاذ لطفي صقر لنذهب معًا إلى الندوة، وكان يحضرها لأول مرة، وقصدنا إلى المكان المعهود، وما إن عبرنا الميدان ووصلنا إلى باب «الكازينو» حتى برز إلينا رجل غريب، أتى من الشرفة المطلة على الميدان وقال: «إلى أين؟».

قلت: «إلى ندوة نجيب محفوظ».

فأشار إلينا أن نتبعه، لم أكن أفهم السبب، ولم أستطرد في التفكير طويلًا، إذ وجدت نفسي. ومعي صديقي. أمام رجل يضع نظارة سوداء على عينيه، ويجلس خلف طاولة صغيرة عليها فنجان من القهوة، وبيده سيجارة مشتعلة، وإلى جوار الفنجان قداحة ذهبية اللون، وعلبة سجائر، ونظر إلينا في تمعن وقال: «البطاقة الشخصية».... أخرجت بطاقتي الشخصية، وقدمتها إليه، وقد أدركت أنه بلا شك واحد من رجال الأمن، وكذلك فعل صديقي، وأخذ يتصفح بطاقتي، ثم أمسك بقلم وبدأ ينقل البيانات المدونة عني.

المعروف أن رجال الأمن في المباحث العامة بوزارة الداخلية أقسام متخصصة، قسم يتولى السياسيين من الإخوان المسلمين، وقسم آخر للشيوعيين وفصائلهم المختلفة، وقسم للأحزاب القديمة، ورابع لحزب البعث، وخامس لتنظيم «الأمة القبطية» وسادس يتقصى النشاط اليهودي أو الصهيوني، وسابع للفلسطينيين ومنظماتهم وهكذا.. أدركت للوهلة

الأولى أن رجل الأمن هذا ليس من الضباط المختصين بالإخوان المسلمين، وتبادر إلى ذهني أنه من القطاع الذي يتولى متابعة الشيوعيين وملاحقتهم، ولقد علمت أن ندوة نجيب محفوظ متهمة بأن أغلبها من الشيوعيين، ومعنى ذلك أن هذا الضابط سوف يضع اسمي بين أسماء الشيوعيين، وهذه كارثة.. لأنهم عندما يفكرون في اعتقال الإخوان المسلمين فسوف يعتقلونني على أساس أني واحد من تنظيماتهم القديمة، وصدر ضدي حكم بالسجن لذلك في عام 1955، وعندما يفكرون في اعتقال الشيوعيين مستقبلًا فمن المحتمل جدًا أن يعتقلوني معهم أيضًا، وأدركت أن الأمر لا يمكن السكوت عليه فقلت لضابط الأمن: «اسمح لي أن أوضح بعض الأمور.. إنني في الواقع ممن انتموا إلى جماعة الإخوان.. ولم أكن في أي يوم من الأيام مع أي تنظيم آخر.. وضباط الأمن عندكم بالداخلية المختصون بالإخوان يعرفونني جيدًا.. أذكر منهم أحمد بك صالح داود ويحيى بك شفيق والغمراوي بك وغيرهم.. واعتقد أنك في قسم آخر، وأظن أن من حقي أن أوضح الأمر لك، حتى لا تضعني بين أسماء الشيوعيين وأنا منهم بريء. وإلا فسأكون مطاردًا هنا وهناك..»... وضحك الضابط في سعادة، ويبدو أنه أعجب بتحليلي للموقف، وإدراكي ما ينطوي عليه من مفارقات، ثم استدركت قائلًا: «أما صديقي هذا فلا صلة له على الإطلابق بالسياسة أو التنظيمات، وهو يحضر اليوم الندوة لأول مرة..».

وبعد إتمام الإجراءات، وتوجيه بعض الأسئلة والإجابة مني عليها، سمح لنا بالانصراف، واستفسرت منه عما إذا كنت أستطيع الصعود إلى الندوة، فرد وهو يتفحصني بنظراته المنذرة: «عد إلى بيتك، ليس هناك ندوة بعد اليوم».

وأثناء انصرافنا تطلعت إلى أعلى، رأيت وجه الأستاذ نجيب محفوظ يطل من النافذة في الدور الثالث والأخير من المبنى، وإلى جواره المرحوم الأستاذ على أحمد باكثير ولوحت بيدي مودعًا.

وكان موضوع إغلاق ندوة نجيب محفوظ في الأيام التالية حديث المحافل الأدبية، وخاصة على مقهى الدقي الذي يجتمع فيه بعض الأدباء، وفي نادي القصة بشارع القصر العيني، وقيل يومها إن ندوة نجيب محفوظ تضم مجموع من الشيوعيين القدامي الذين سبق لبعضهم الاعتقال، والواقع كما سلف وأوضحت أن الندوة كانت تضم أشخاصًا من

اتجاهات مختلفة بينهم كتاب وصحفيون وممثلون وفنانون تشكيليون، وكان بينهم الإسلاميون والشيوعيون والمستقلون والناصريون، وكان هناك أعضاء طارئون في الندوة، يأتون إليها لمامًا ولا تعرف هويتهم، بل هناك من الأعضاء من كان من ضباط الشرطة العادية، ومن ثم فإن الحكم على الندوة بأنها ذات صفة شيوعية حكم يجانبه الصواب.

وهكذا أغلق باب هذا المتنفس الذي كان ملاذًا لنا في النصف الأول من عقد الستينيات، والذي تميز عطاؤه بالفائدة والجدية وسعة الأفق، وخاصة أن «عمدة» الجلسة كان نجيب محفوظ النجم اللامع في عالم الرواية، وصاحب الاطلاع الواسع على الآداب العالمية والعربية، وصاحب الرأي المتزن البعيد عن الهوى، بصرف النظر عن اختلاف الناس حول صواب هذه الآراء أو خطئها [1].

ولقد شعرت بإحباط شديد من جديد، لأن دولة ليس فيها أحزاب أو معارضة رسمية مثل مصر، كان المفكرون والكتاب يجدون ظلًا يلجأون إليه للترفيه والترويح في ذلك المناخ العصيب الذي يفتقر إلى الحرية والتعبير الصادق عن وجهات النظر، لقد كان الحديث عن الحرية في تلك الأيام أكذوبة كبرى، رغم كل ما يدعيه أيضًا ذلك العهد، فلم يكن هناك سبب إنساني جدي يحرم الناس من حقهم في الحرية، ولا معنى للحرية إذا كانت في إطار التعليمات والسياسات والنظم الذي يضعها الحزب الحاكم، وأية حرية تلك إذا كان الناس يُساقون إلى المعتقلات من أجل «نكتة» ناقدة أو ساخرة، أو رأي يعبرون به عن ذواتهم، أو مجرد رواية أحداث حقيقية يتهم قائلها بنشر الإشاعات الكاذبة؟ كان العنف الثوري الحكومي طاغيًا بصورة مخيفة، ألجمت الأفواه، وحطمت الأقلام الحرة، فآوى الناس إلى الصمت والعزلة، حتى لا تتعرض كرامتهم للخطر، وحتى لا يتهموا بالرجعية والخيانة، وهذه ليست افتراءات نلصقها بهذا العهد، ولكنها حقائق أكدها رجالات عبد الناصر فيما بعد، كما أشار إليها مؤرخه الشهير محمد حسنين هيكل في أكثر من موقع في كتبه، بل واستغلها الأستاذ نجيب محفوظ نفسه في كثير من قصصه القصيرة ورواياته بطريقة رمزية فيها الكثير من الوضوح، حتى إن نجيب محفوظ نفسه تعرض للاعتقال، وكان أن تطوع الدكتور ثروت عكاشة بإنقاذه، وإقناع عبد الناصر بخطأ حبسه، (ولقد روى نجيب محفوظ نفسه هذه الوقائع في

(1) كتبنا هذا الكلام قبل أن ينال نجيب محفوظ جائزة نوبل.

تصريحاته بعد فوزه بجائزة نوبل) ومما رواه نجيب محفوظ تلك الواقعة الخاصة باعتقاله، وكذلك ذكر أن عبد الناصر عند زيارته لجريدة الأهرام ومصافحته لنجيب محفوظ، قال هيكل للرئيس: «إن كتابات نجيب محفوظ تودي في داهية». فرد عبد الناصر ضاحكًا: «إللي يروح في داهية رئيس التحرير».

وتضاحك الجميع، ومعروف أن رئيس التحرير للأهرام هو «هيكل»، وهناك عشرات الأحداث تؤكد إلمام عبد الناصر بالانتهاكات الإنسانية التي تعرض لها أصحاب الرأي والفكر من مختلف الاتجاهات، ولقد كان معنا في السجون والمعتقلات الكثير من هؤلاء، وإن كان العنف الأكبر كان موجهًا لجماعة الإخوان المسلمين بالذات. وإني أقول بأمانة تامة، بأني استفدت كثيرًا من ندوة نجيب محفوظ، وخاصة أنني في فترة ما قبل اعتقالي كنت بعيدًا عن الأجواء الأدبية، وكانت كل علاقاتي بالأدب هو الكتب التي أقرؤها، ولم تتح لي فرصة اللقاءات المباشرة بالأدباء إلا بعد حصولي على الجوائز الأدبية في المعتقل. والحكمة ضالة المؤمن، يستفيد منها أنَّي وجدها، ولقد أعجبني في نجيب محفوظ الحزم الذي أخذ به نفسه، والانضباط الذي فرضه على حياته، واطلاعه الواسع وخاصة ما يتعلق بفن القصة وباللغة العربية ونحوها وصرفها، وقراءاته المتنوعة في التراث وفي بعض اللغات الأجنبية، كما كان دقيقًا في عمله الفني، فهو يحكم صنعته، ويجيد الإعداد للموضوع الذي يكتب فيه، ويعمل «أرشيفًا» لأبطال قصصه، ثم يراجع ما يكتب، ويحتفي بالأسلوب، ويحرص على الفصحى حتى في الحوار، وكان نجاحه ردًّا مفحمًا لدعاة الكتابة العامية، كما أنه أحسن الاستفادة من حياته في الطفولة والصبا والشباب، ومن البيئة الاجتماعية والسياسية التي عاش في ظلها، وسجل أهم أحداث البلاد في رواياته، ففي ثلاثيته مثلًا «وقد كتبها قبل الثورة» يعرض للتيارات السياسية في مصر وتطورها، ولا يغفل الأحزاب المصرية التقليدية ولا الشيوعيين، ولا الإخوان المسلمين وغيرهم، كما أشار إلى الأمراض الفتاكة التي تهدد أمن وسلامة المجتمع على مختلف المستويات، وعرّى النفاق والرياء والوصولية والجشع وإن كان لي بعض التحفظات على بعض أفكاره المتضمنة في قصصه.

ولقد أتيح لي مناقشة مجموعة قصصي القصيرة في الندوة، وكذلك رواية اليوم الموعود، كما قرأ لي نجيب محفوظ عددًا من الروايات الأخرى التي أعجبته، وأختار واحدة منها للسينما وهي رواية ليل وقضبان، وكان له فضل إخراجها إلى مشاهدي السينما عن طريق مؤسسة

الإنتاج السينمائي العربي (شبه حكومية)، والتي أعد لها السيناريو والحوار الأستاذ مصطفى محرم، وأخرجها الفنان أشرف فهمي، ومثل فيها من النجوم سميرة أحمد ومحمود ياسين ومحمود مرسي ومجدي وهبة وتوفيق الدقن وغيرهم، وقد فاز الفيلم بالجائزة الأولى في مهرجان طشقند الدولي في السبعينيات من القرن العشرين، ولأن الفيلم كان ذا رمز سياسي، فقد اعترضت عليه الرقابة بشدة، ولكاتب السيناريو الأستاذ مصطفى محرم حديث حول الرقابة وفيلم «ليل وقضبان» نشر في جريدة الخليج، أوضح تفاصيل اعتراض الرقابة.

بعد انفضاض ندوة نجيب محفوظ سمعت أنه يجلس في مقهى «ريش» بالقاهرة، وفكرت أن أذهب إليه، وكنت مترددًا، ولكني حزمت أمري وذهبت إلى هناك، وخيل إلي أن هناك عيونًا ترصد حركاتنا، وآذانًا تتابع أحاديثنا رغم خلوها مما يضايق الحكومة، ولهذا آثرت في النهاية الانقطاع عن الحضور وأنا حزين.. لم يكن نجيب محفوظ بقادر على أن يترك المقاهي الأدبية، لأنه لم يكن يستقبل أدباء في بيته، ولم تكن له هوايات أخرى سوى الجلوس مع أصدقائه خارج المنزل. وذلك يشكل جانبًا أساسيًا في حياته، إنه يشرب القهوة، ويقرأ الصحف، ويتحدث مع أصدقائه في الأدب والفن خاصة، ويجد في ذلك متعة كبيرة، ثم ينصرف إلى بيته للعمل قراءةً أو كتابة، لقد أخلص لفنه وأعطاه الكثير من الوقت والجهد والإعداد، ولهذا تجد مستوى متميزًا مقبولًا في مختلف قصصه ورواياته، على عكس الكثيرين من الكتاب الذين تتفاوت إجادتهم من عمل لآخر، كما كان متفرغًا تقريبًا لفنه لا يشغله عنه شاغل، وأعتقد أن هذا التفرغ لم يتح إلا لعدد قليل من أدبائنا ومفكرينا نذكر منهم الأساتذة توفيق الحكيم وعباس محمود العقاد ومحمود تيمور والدكتور طه حسين.

ولم تنقطع صلتي بنجيب محفوظ إلا بعد أن سافرت للعمل بدولة الإمارات العربية المتحدة في عام 1968، وإن بقيت على اطلاع دائم بمؤلفاته وخاصة مسلسلاته التي ينشرها في الأهرام، وفي أثناء وجودي بإمارة دبي قرأت له في مجلة المصور القاهرية تصريحًا يتحدثون فيه عن أجيال القصة المصرية، فذكر الجيل الأول ومنهم طه حسين والعقاد وتيمور.. إلخ، ثم الجيل الثاني وذكر منهم نفسه وعبد الحليم عبد الله والسباعي وغيرهم، ثم الجيل الثالث وأورد أسماء ثروت أباظة ويوسف إدريس ومصطفى محمود، وذكر اسمي بينهم، ثم الجيل الرابع وهم جيل الشباب الجدد وطرح بعض الأسماء. وعندما حصل على جائزة نوبل كتبت عنه مقالة في مجلة «المنتدى» التي تصدر في دبي، وفي تصريح صحفي له حول أهم الكتابات

التي أعجبته عن أدبه، أشار إلى مقالتي بحماس، وأكد أنها من أحسن ما كتب عنه، ثم أردف قائلًا: «إن نجيب الكيلاني من التيار الإسلامي، وهو منظر الأدب الإسلامي الآن» (مجلة المصور 13 أكتوبر 1989).

وفي خلال فترة وجودي بالإمارات كتبت عددًا من المقالات النقدية عن بعض رواياته.

والحقيقة أن نجيب محفوظ. دون شك القمة الباذخة للقصة العربية المعاصرة، وهو التطور الطبيعي المزدهر لهذا الفن، بعد أن تلقاه على أيدي من سبقوه، وبعد أن استطاع أن يستفيد من التراث العالمي القصصي العظيم، وليس هناك من استطاع مطاولته في فنه ذاك إبان هذا العصر، ولقد استطاع نجيب محفوظ بحنكته وذكائه ألا يقع في إغراء الحداثة المفرطة في الغموض والرموز والكوابيس والهلوسات غير الهادفة، وظل متماسكًا ومتمسكًا في فنه، ولم ينس قط أن يحمل عمله القصصي فكرة من الأفكار، أو يحرص على موقف من المواقف، أو بمعني آخر كان صاحب رسالة وإن اختلفنا أحيانًا في مضمون الرسالة، وطبيعة الخطاب، ولقد تعلمت من نجيب محفوظ في هذا المضمار أنه فعلًا «وراء كل فن عظيم فكر عظيم»، وأن الفن لابد وأن يؤدي دورًا إيجابيًا في الحياة غير الاستمتاع والتذوق الجمالي، ومن غريب الصدف أن نجيب محفوظ عندما سألوه عن «الأدب الإسلامي» بعد فوزه بجائزة نوبل، ذكر آراء وأفكارًا تتفق تمامًا مع وجهة نظري في ذلك، تلك التي حرصت على ترديدها وكتابتها في مؤلفاتي ومحاضراتي طوال الثلاثين عامًا الماضية، مع اختلاف طفيف في بعض الجزئيات والتقويمات [1].

****

(1) أضيفت إلى هذا الفصل فقرات خاصة بعد فوز نجيب محفوظ بجائزة نوبل.

[4] اتحاد الكتاب ونادي القصة

كان اتحاد الكتاب، وبه نادي القصة، في البناية المقابلة لشارع المبتديان (68 شارع القصر العيني)، وكان يؤمه العديد من شباب الكتاب. شعراء وقصاصين ونقادًا. وموعد اللقاء فيه يوم الثلاثاء من كل أسبوع، وكان النجم اللامع فيه دون شك هو الأستاذ القاص محمد عبد الحليم عبد الله، والذي يتواجد مساء كل ثلاثاء في النادي، وهو الذي يقوم بافتتاح الأمسية أيًا كان موضوعها، ويقدم المتحدثين، وكثيرًا ما يقوم بالتعليق، وهو الذي يختتم الأمسية في النهاية، ففي إحدى الأمسيات مثلًا يختار ثلاثة من كتاب القصة، يقرأ كل واحد منهم قصة جديدة، ويعلق عليها أحد الفقهاء المتخصصين، ويشترك في المناقشة جمهور الحاضرين كل حسب توجهاته ورأيه.

وقد تكون الأمسية شعرية، فيتتابع الشعراء لإلقاء قصائدهم، ويتناوب المعلقون بعدهم للتحليل والنقد، وقد يكون الشعر عموديًا، وقد يكون من شعر التفعيلة الحديث، وقد تركز الأمسية على شخصية من الشخصيات أو على كتاب من الكتب الأدبية المهمة، وكمثال على ذلك فقد أقيمت أمسية خاصة بالشاعر أحمد رامي، وأمسية أخرى عن أدب الرافعي، وثالثة عن كتاب «فن القصة» للدكتور رشاد رشدي، ورابعة عن الأدب أو الفن الشعبي، وقد تجد في اتحاد الكتاب أفرادًا ممن يداومون على ندوة نجيب محفوظ أو رابطة الأدب الحديث، أو الكتاب المصريين وغيرهم، ونظرًا لأن الأستاذ المرحوم يوسف السباعي هو سكرتير عام الاتحاد ونادي القصة، والدكتور طه حسين هو رئيس الشرف، فإن الاتحاد - وهو مؤسسة شبه رسمية - كان يحظى بالدعم والحماية من الدولة، وكان أعضاؤه المسجلون يدفعون اشتراكًا شهريًا، كما كان للانضمام إلى الاتحاد (أو نادي القصة) أسلوب محدد؛ إذ لابد أن يكون للعضو إنتاج أدبي مقبول، وأن يزكيه ثلاثة من كبار الأدباء حتى يصبح عضوًا عاملًا، وهناك من يفوزون بالجائزة الأولى في مسابقة نادي القصة، فهؤلاء يقبلون أعضاء في النادي، وكان نادي القصة يجري مسابقات كل عام من أبرزها مسابقة القصة القصيرة، ومسابقة

الرواية، وتوضع لهذه المسابقات الشروط الخاصة بها، والمواعيد المحددة لها، وتمر الأيام وأصبح بعد سنوات قليلة عضوًا في التحكيم بهذه المسابقات (القصة القصيرة والرواية).

وهناك قصة طريفة قد يكون من المفيد تسجيلها، فقد رأيت فيما يرى النائم ذات مرة أنني أجلس في مدرج مكتظ بالناس، وكنت أجلس على ما أتذكر في الصف الثالث، وأمام الجمهور وضعت منصة كبيرة يجلس عليها أشخاص ذوو حيثية لكن لم أعرف شخصية أحد منهم، وفجأة صدر أمر من الجالسين في المنصة أن أنتقل من الصف الثالث إلى الصف الأول الذي وجدت نفسي وحيدًا فيه.. وأفقت من نومي وأنا أتذكر الرؤيا جيدًا، لكن فشلت في إيجاد تفسير لها فتناسيتها آيسًا من تأويلها.. وذات يوم قرأت في الأهرام نبأ فوزي بالجائزة الأولى في مسابقة القصة القصيرة لعام 1959، وبالميدالية الذهبية المهداة من الدكتور طه حسين.. وأسرعت بالذهاب إلى النادي مساء، فاستقبلوني بالتهاني والترحاب، وكان فراش النادي «عم حسين» رَحِمَهُ ٱللَّهُ، من أشدهم سعادة، والتف حولي الأصدقاء، وإن كان بعضهم أبدى سخطه على الفائزين العشرة وخاصة الأول، لا أدري لماذا؟ جلست مع الأستاذ حسين فؤاد سكرتير المرحوم يوسف السباعي في مكتبه، وسألته عن تفاصيل النتيجة، فقام وأحضر نسخ القصة الفائزة، كان عدد واضعي الدرجات في اللغة الفرعية واللجنة النهائية ستة من كبار الكتاب بعضهم كتب عشرة على عشرة ممتازة ممتازة ممتازة وآخر كتب تسعة على عشرة، أما الأستاذ الصديق الأستاذ عبد الحليم عبد الله للأسف فقد كتب: خمسة على عشرة لا بأس، لكن الثلاثة الأعضاء في اللجنة النهائية فقد أعطى كل منهم النهاية الكبرى (عشرة على عشرة)، وبذلك فزت بالجائزة الأولى.. ومن خلال اطلاعي على أوراق المسابقة أدركت أن اللجنة الفرعية كان مجموع درجاتها 24 درجة من 30 أما اللجنة النهائية فقد كانت 30 درجة من 30 درجة معنى ذلك أنني تحولت من المرتبة الثالثة في اللجنة الفرعية، إلى المرتبة الأولى في اللجنة النهائية، وحكمها هو الفيصل في المسابقة، وكان على رأسها الأديب الكبير الأستاذ يحيى حقي. وهنا تذكرت تلك الرؤيا الغامضة الغريبة التي لم أستطع تأويلها منذ أيام، لقد أصبحت في غاية الوضوح.. كانت رؤيا صادقة مهما قال علماء النفس، فإن التجربة أقوى برهان، وكيف تشك في ذلك وفي القرآن الكريم الدليل الحاسم الصادق على مختلف أنواع الرؤيا؟

وتسابقت الصحف والمجلات على نشر قصتي الفائزة، وأذكر أنني سمحت بنشرها، عندما قرأت هذه القصة واسمها «شجاع» في ندوة نجيب محفوظ لمناقشتها، استمع الحضور جيدًا، وكان نجيب محفوظ يضع يده خلف أذنه، ويوجه صيوانها نحو الصوت كعادته. وأخيرًا أجمع المتحدثون على تميز القصة، وقال علي أحمد باكثير فيما أذكر: «إن هذه القصة قدمت أنموذجًا إنسانيًا واقعيًا مؤثرًا، في إطار قضية كبرى، قدمت تقديمًا فنيًا بارعًا» وعلق الأستاذ نجيب محفوظ مؤكدًا على نفس المعنى البارز في القصة، أما الأستاذ عباس خضر فقد أفاض في الشرح والتحليل بما لا يخرج عن خلاصة الرأي العام، وتطرق إلى دقة الحوار وإيجازه وتوظيفه توظيفًا جيدًا في إطار القصة القصيرة التي هي مكثفة بطبيعتها..

ولقد تحمست جدًا للاشتراك في الأمسية التي أقامها اتحاد الكتاب عن أدب الرافعي، حيث انقسم المعلقون إلى فريقين متضادين، أحدهما يثني ويؤيد الرافعي في أسلوبه ومنهجه، والآخر يعارض ويرفض، ولقد كنت قد كتبت عن الرافعي كتابًا كاملًا أثناء وجودي في السجن، تناولت شتى جوانب إنتاجه الأدبي، وخاصة في مجال القصة والشعر، والمقالة بالطبع، ووجدت عناء كبيرًا في تصنيف هذا الكتاب، ولكن المخطوط للأسف الشديد فقد بعد ذلك ولم يكن لدي نسخة منه، وكان أحد المتحدثين يهاجم شعر الرافعي (وأظنه الأستاذ المرحوم عباس خضر)، ويرميه بجمود العاطفة في تعبيره الفني، فقمت بعد فترة لأوضح مكان الرافعي بين أدباء عصره، ثم ارتباط قصصه بالواقع المؤلم في ذلك الوقت، وبالأحداث الكبار، وركزت على براعته في تحليل النفس الإنسانية وتحولاتها، في وقت لم يكن «علم النفس» قد شاع مثل أيامنا هذه، وكان ردي على العاطفة في شعره، بأن ألقيت بعض أبيات من شعره الرقيق الرومانسي، وخاصة قصيدته الشهيرة التي بدأها بالبيت التالي:

مـــن للمحــــب ومـــــن يعينــــه
والحـــــب أهنــــــأه حزينــــــه
أنــــا مــــا عرفـــت ســـوى قـــسا
وتـــــه فقولــــوا كيــــف لينــــه

.... إلخ، فضجت القاعة بالتصفيق.

وختمت كلماتي بأن الرافعي بأسلوبه المتميز الرصين، وتشبثه بلغة الآباء والأجداد، لغة القرآن الكريم، كان حارسًا يقظًا مثابرًا يسهر على تراث لغتنا، ويحميها من المخربين والأوغاد من دعاة العامية، وأعداء الإسلام.

ولقد أثار كتاب الدكتور رشاد رشدي عن «فن القصة القصيرة» عاصفة من النقد والتعليقات، ولعله كان أهم كتاب صدر في هذا الباب وقتذاك، وكان واضحًا أن رشاد رشدي من دعاة «الفن للفن»، ويركز على «الجمالية» وحدها في العمل الفني، ويرفض أن يكون الفن بوقًا من أبواق الإيديولوجيا أو المذاهب، وكانت الجلسة في تلك الأمسية مكتظة بالحاضرين وكبار النقاد والكتاب من مختلف المشارب والأهواء، لكنه، أي رشاد رشدي، بعد أن قدم عرضًا لكتابه وأفكاره، اصطخب الجدل، وبرز عدد من المعارضين لفكره، وأنا لا أخوض في تفاصيل ذلك، فقد تعرضت لطرف منه في بعض كتبي، ولكني عندما وقفت لأدلي بدلوى في المعمعة قلت ما معناه، إننا لا نتنكر للقيم الجمالية في الفن لأنها أساسية، ولكننا نصر ونؤكد على قيام الأدب بدور إيجابي لدى المتلقى، وبالتالي لدى المجتمع، وأعلنت بصراحة أن الفنان «متحيز لموقف» ولابد أن يكون كذلك وإلا فقد الكثير من تميزه وهويته وقيمته.

وفي أمسية المرحوم الشاعر أحمد رامي، وقف أحد النقاد اليساريين ووجه إليه نقدًا لاذعًا بخصوص أشعاره العاطفية، وخاصة الأغاني العاطفية التي كان يكتبها للسيدة أم كلثوم، ولامه على قلة شعره الوطني والنضالي، إلى غير ذلك من التهم التي يروجها الماركسيون حول من لا يتفقون معهم في الرأي والمسيرة.. وبدا الألم على وجه الشاعر الكبير، وهو يستمع إلى هذا الهجوم الضاري، وامتقع وجهه، وكنت على مقربة منه، والواقع أنني تألمت لألمه، وخاصة عندما أغرورقت عيناه حينما سمع الناقد يقول إن أغاني رامي عن الهيام والهجران والدموع وعذاب المحبين وأرق العاشقين، قد علمت الشباب والمراهقين الميوعة، ودفعتهم إلى ارتكاب جرائم الانتحار من فوق مبنى «مجمع التحرير». وضحك البعض..

كانت كلمات قاسية..

ووقف رامي حزينًا ليذكرنا بشعره العذب، وقصائده الكثيرة عن الوطن والناس والقيم والمبادئ، وعن صفحات كثيرة له تشهد بنبوغه وتاريخه الأدبي، والحقيقة أنه وجد استجابة

وترحيبًا حارًا من المشاركين. تجلى في تصفيقهم له تصفيقًا طويلًا، كما تجلى في تعليقات كبار النقاد والأدباء الآخرين الذين أعطوه حقه، ولم تفتني هذه الفرصة، فقد خطوت إلى المنصة، وقلت: لماذا نحاول أن نقيم الأدباء من خلال وجهة نظر ضعيفة لا عصمة لمنهجها، وليس هناك دليل مؤكد على صحتها؛ وماذا يمنع أن يهتم شاعر بالعواطف الإنسانية ويترجم عنها بل وقد يتخصص فيها؟ لماذا لا ندع البلابل تغرد بالحب والوطن وعواطف الإنسان المختلفة.. لماذا لا ندعها تدعو وتضرع لله، وتبكي وتضحك؟ ثم ختمت كلمتي بالثناء على تاريخ شاعرنا الكبير، وبأبيات من إحدى قصائده التي تترنم بحب الأوطان والإنسان والحياة.

ما أكثر الأمسيات الأدبية الرائعة التي قضيناها في نادي القصة واتحاد الكتاب، وما أكثر الأدباء البارزين الذين استمعنا إليهم وحاورناهم.. كان بعضهم قممًا شامخة، وتاريخًا عريقًا، وتجربة أصيلة، وجهدًا رائدًا، لقد سعدنا أيما سعادة ونحن ننهل من فيضهم على اختلاف مشاربهم، وكنا نحبهم ونشعر بالارتواء والشبع ونحن نجالسهم ونراقب حركاتهم وسكناتهم وانفعالاتهم، لم يخطر ببال أحدنا أن نسيئ إليهم، أو نسخر، غرورًا منهم، وكنا نرى أننا أكثر حظًّا من غيرنا؛ إذ نراهم ويروننا، ونحادثهم ويحادثوننا.. إنه لأمر عظيم أن ترى العبقرية مجسدة أمامك، فتراها بعينيك، وتسمعها بأذنيك، وتتمثلها في فكرك اليقظ.

لقد مرت الأيام، ومات أغلب هؤلاء، لكن مازالت ذكراهم العطرة عالقة بذهني، وما زلت أتذكر أحاديثهم ومجالسهم وتعليقاتهم الجادة والضاحكة.. لكم أتمنى أن تعود تلك الليالي الحلوة.. لكن الماضي لا يعود.

والواقع أن تاريخي السياسي لم يكن عقبة في طريق الانطلاق إلى هذه المجتمعات، كانوا يعرفون عني الكثير، وكانوا يخالفونني في الرأي والموقف، لكننا عشنا كأصدقاء، يحترم كل منا الآخر، لكن ذلك لم يمنع البعض من اتخاذ الحيطة والحذر، فقد تجر صداقتي لهم بعض الأضرار والشكوك حولهم.. كنت أصافح اليد التي تمتد لمصافحتي أيًّا كان صحابها، وأعذر من يزورّون عني، وفي كل الأحوال لم أتلبس فكرًا غير فكري، أو أحمل شعارًا غير شعاراتي الراسخة، دون ضجيج أو إعلان.. نعم حاولت أن أبقى مسلمًا.. ففي هذه الفترة العاصفة المتوترة أصدرت في ليبيا كما قلت كتابين لهما أهميتهما هما «الطريق إلى اتحاد إسلامي»

و«الإسلامية والمذاهب الأدبية» ثم مجموعة قصصية اسمها «العالم الضيق» إنني كل عام أو عامين أطل على نادي القصة، فأرى الوجوه قد تغيرت.. لقد ذهب الكثيرون.. وجاءت أجيال جديدة.. ومصطلحات جديدة... وموظفون جدد.. وهكذا الدنيا..

***

[5] لقاء الأدباء مع عبد الناصر

في شهر فبراير 1962 انعقد بالقاهرة مؤتمر «كتاب آسيا وأفريقيا» وقد اختارني اتحاد الكتاب في مصر لأكون من الأعضاء المشاركين في المؤتمر ومعي عدد كبير من الأدباء، وكنت أعمل كطبيب امتياز بمستشفى أم المصريين آنذاك، وقد حشد المؤتمر عددًا لا بأس به من المشاهير في فنون الأدب المختلفة وعلى رأسهم الشاعر التركي الشهير «ناظم حكمت» وأديبنا الكبير نجيب محفوظ وغيرهما من روسيا والهند واليابان والصين والدول الأفريقية وغيرها، ولقد تحدد يوم يلتقي فيه الأدباء مع الرئيس جمال عبد الناصر في قاعة العرش بقصر عابدين الخاص بالملك السابق فاروق الأول، وفي اليوم المحدد حملتنا السيارات الرسمية إلى ساحة عابدين.

وعلى باب القصر كان الضباط يأخذون ما معنا من حقائب يد قبل الدخول، ويتفحصوننا جيدًا، ثم احتشدنا في القاعة الواسعة، التي ليس فيها سوى «كرسي العرش» وحده، وليس هناك مكان للجلوس، وفوق رأس الكرسي كتب بالذهب عبارة أظن أن منطوقها يقول: «بالعدل تساس الرعية» أو شيئًا من هذا القبيل، وتناثرنا في القاعة، وجاء الرئيس ومعه عدد من رجال الثورة والوزراء والحرس، ثم وقف في الاتجاه المقابل لكرسي العرش، وألقى بيانًا تاريخيًّا بهذه المناسبة أشار فيه إلى أهمية الأدب، ودوره في رفع مستوى المجتمعات والتقريب بين الشعوب، ومناصرة قضايا التحرر ومكافحة الاستعمار وما إلى ذلك، واستقبله الحضور بعاصفة من التصفيق، وكانوا جميعًا وقوفًا كما سبق وأشرت، وكان إلى جوار الرئيس وهو يخطب المرحوم الأستاذ يوسف السباعي سكرتير عام المؤتمر، ثم سمعناه يقول لنا إن الرئيس سوف يصافحنا فردًا فردًا، وطلب منا أن نذكر أسماءنا ونحن نصافح الرئيس وأن نقف صفوفًا منتظمة استعدادًا لذلك.

وكان من بين الحضور في ذلك اليوم أعني تلك الليلة الصحفيان الكبيران علي أمين ومصطفى أمين وإلى جوارهما الأستاذ أنيس منصور، ولقد عجبنا لهذا الأمر، ذلك لأن

الثلاثة كان الرئيس قد غضب عليهم ونحاهم منذ فترة، فكان لظهورهما المفاجئ بيننا مدى كبير من الدهشة والتساؤل.

وبدأ عبد الناصر يصافحنا، كان إلى يميني المرحوم الأستاذ على أحمد باكثير، وعلى يساري الصديق الأستاذ رجاء النقاش، وعلى مقربة منا الأستاذان علي أمين ومصطفى أمين، ولاحظت من موقعي أن الرئيس صافحهما بفتور وبسرعة، وعندما جاء الدور على الأستاذ باكثير صافح الرئيس صامتًا دون أن يذكر اسمه له، أما أنا ورجاء النقاش فقد عرّفناه بأسمائنا، قلت للأستاذ باكثير: لماذا لم تذكر له اسمك؟ فلوح بيده دون اكتراث، ونطق بكلمات قليلة لم أفهمها، وفي اليوم التالي كتب رجاء النقاش مقالة جميلة في الصفحة الأولى من جريدة الأخبار بعنوان «رأيت جمال».

وبعد ذلك انتقلنا إلى قاعة تناول العشاء، حيث وضع الطعام على «البوفيه»، وكان كل واحد منا يذهب ويأخذ طبقًا، ثم يتجه إلى الطعام ليأخذ ما يشاء، ثم نتناول طعامنا وقوفًا، كان إلى جواري رجل طيب ذو لهجة مغربية، وكنت أتبادل معه الحديث، وفجأة رأيت الرئيس يتجه ببصره نحونا، وكان لا يأكل، وأشار بأصبعه، فأصابني ارتباك شديد، وبقيت جامدًا في مكاني، أما الزميل الذي كان يحادثني فقد وضع طبق الطعام على «البوفية» ثم اتجه ناحية الرئيس، وأنا مشدود البصر إليه، ووجدته يصافحه، والرئيس يبتسم في ود بالغ وبعد دقائق قليلة عاد الرجل، ثم تناول طبقه من جديد ليواصل الأكل.

قلت له: «ماذا قال لك جمال؟».

قال: «كلمات ترحيب ومجاملة».

قلت له وأنا أتفحص ملامحه: «من أنت؟».

قال بصوت خفيض متواضع: «مهدي بن بركة».

- «الزعيم المغربي»؟

لم يرد، فقد كان كفاح مهدي بن بركة على كل لسان، وكانت صوره وتصريحاته تملأ الصحف، وكان يجد التأييد والرعاية والدعم من رئيس مصر، وكلنا يعرف بعد ذلك المأساة الدامية التي راح ضحيتها مهدي بن بركة بعد ذلك، حينما تآمر «الجنرال أوفقير» المغربي مع المخابرات الفرنسية لقتله، بطريقة شيطانية مقززة، ويشاء الله بعد ذلك أن يتآمر الجنرال

أوفقير على ملك المغرب، ثم يسقط صريع طموحاته الجنونية، وهكذا ينطبق عليه «من قتل يقتل ولو بعد حين». بينما كنا نصافح الرئيس، سمعت من خلفي فتاتين تقول إحداهما للأخرى: «هل رأيت عيني الرئيس ونظراته؟».

- «في منتهى القوة.. حاجة تجنن».

وضحكت أنا والأستاذ باكثير لحوارهما.

وبعد أن التقى الرئيس بمهدي بن بركة، ودعاه لمقابلته فيما بعد، شاهدت الشاعرة العراقية «نازك الملائكة» وزوجها الدكتور عبد الهادي يقفان مع الرئيس الذي يتبادل الحديث مع الشاعرة المبهورة به، ثم أشار الرئيس بعد ذلك إلى رجل أفريقي يلبس الكثير من عقود الخرز، والزي المميز، وتحدث معه وبينهما مترجم، وهكذا استمر الوضع في الحديث مع بعض الضيوف.

كنت أشعر بآلام شديدة في ركبتيّ وساقيّ بسبب الوقوف مدة طويلة، وكنت أريد أن أجلس بضع دقائق لآخذ قسطًا من الراحة، وتخف الآلام، لكن كيف السبيل إلى ذلك وليس هناك مقعد، هل أجلس على الأرض؟! ونظرت إلى بعيد فوجدت في آخر الساحة المجاورة جنديًا عملاقًا من الحرس، وبالقرب منه مقعد صغير، فتوجهت نحوه وقلت: «هل تسمح لي بالجلوس بضع دقائق؟».

قال برقة: «تفضل..».

ومرت بضع دقائق، شاهدت بعدها الرئيس يغادر الحفل حوله كوكبة من الرجال الكبار في السلطة، وأصابني ارتباك شديد، ذلك لأن الحرس قد يشك في وجودي وحدي في هذا المكان، فماذا ستكون النتيجة لو حدث هذا الشك، ونهضت من مقعدي واقفًا بهدوء حتى لا أثير الريبة، ووقفت وقلبي يدق، وعندما اقترب الرئيس من موقعي وجدت فتاتين تجريان خلفه، فوقف وقال لهما: «ماذا تريدان؟».

- «نريد صورة تذكارية معك يا سيدي الرئيس».

قال: «وأين المصور؟».

ولم يجدوا المصور، فابتسم الرئيس وقال: «خلاص.. مرة ثانية».

وانفض السامر...

قلت للأستاذ باكثير بعد أن عدت إليه: «دمي نشف، وجف ريقي وأنا أقف وحدي والرئيس قادم».

قهقه الأستاذ باكثير وقال: «لماذا تضع نفسك موضع الشبهات؟ أأنت موعود بالمشاكل؟».

- «وعد ومكتوب يا أستاذ.. الحمد لله.. جاءت سليمة».

وفي إحدى الأمسيات دعينا لطعام العشاء في السفارة السوفيتية، وفكرت في عدم الذهاب، ولكني عدت وقررت الذهاب لمجرد حب الاستطلاع، وهناك رأيت عددًا من شباب الكتاب الشيوعيين الذين أعرفهم في قمة النشوة والسعادة، قلت لأحدهم: «ماذا جرى يا عبد الفتاح؟».

قال لي في حماسة: «اسكت.. سوف أشرب «الفودكا» الروسية الشهيرة أنا والرفاق، لقد قرأنا عنها في قصص دستوفسكي وتشيخوف وجوجول ومكسيم جوركي وغيرهم».

قلت له: «وماذا تكون الفودكا؟ إنها شراب ملعون كالخمر التي تشربونها هنا».

- «لا تخض في أمور لا تعرفها، ولا تتدخل فيما لا يعنيك.. الفودكا للشيوعي مثل التعميد للمسيحي...».

والتقيت في أحد الاحتفالات الأخرى بأديب الأطفال الشهير «شوجوكويد»، وكان رجلًا متقدمًا في السن، تبدو عليه الدعة والحكمة والوقار، وكان يحظى باحترام وتقدير جميع أعضاء الوفد الياباني الذين قدموه إليّ، وقالوا إنه كتب للأطفال حتى الآن ما يربو على مائة وست قصص للأطفال من أفضل ما يمكن، وأن جميع الأطفال في اليابان يحبونه حبًّا جمًّا، وكان الرجل يتكلم الإنجليزية ببساطة ووضوح، وأخذ يجاذبني الحديث عن قصص الأطفال في مصر وأعلامها المشهورين، ويطرح الأسئلة حول هذا الموضوع، ثم أخذ يسألني عن الأساطير الفرعونية، وهل جمعت في كتاب باللغة الإنجليزية أم لا، ثم طلب مني أن أرسل إليه هذا الكتاب إذا وجدته، وودعته بعد أن أخذنا الصور التذكارية. وأثناء الاجتماعات العامة، كانت هناك فواصل زمنية قصيرة لمدة ربع أو ثلث ساعة، نلتقي ونتعارف مع الكتاب الأجانب في تلك الفسحة، وذات مرة رأيت الأستاذ رجاء النقاش قادمًا ومعه المرحوم

الأستاذ عبد الرحمن الشرقاوي، وثالثهما مستشرق روسي لا أتذكر اسمه الآن وقال رجاء النقاش: «إنهم يرغبون في ترجمة بعض قصصك للروسية، فاختر لهم الرواية المناسبة».

قلت: «أنت تعرف مؤلفاتي، لدي «اليوم الموعود» و«الطريق الطويل» و«الربيع العاصف» وهناك مجموعات قصص قصيرة..

قال رجاء: أفضل «الطريق الطويل».

- «لماذا؟».

- «لأني أشم فيها رائحة الأرض والفلاحين، وفيها تصوير صادق لحياتهم» وكان رجاء النقاش قد كتب مقالة نقدية في مجلة الإذاعة عن هذه الرواية وهي أول رواية كتبتها في حياتي، ونلت عليها كما قلت من قبل، جائزة وزارة التربية، ثم قررتها الوزارة في عام 1959 وعام 1961 على الصف الثاني الثانوي.

وقد وافق الأستاذ عبد الرحمن الشرقاوي على هذا الاقتراح.

والواقع أنني كنت في دهشة من هذا الأمر، فالجميع يعرفون أنني من أصحاب الاتجاه الإسلامي، وأنني خارج من السجن منذ فترة تناهز العامين، ولو كان الذين يترجمون الرواية من دول أخرى غير دول الكتلة الشرقية لما عجبت، وهذا ما حدث فعلًا عندما طلبوها لترجمتها إلى الإيطالية فيما بعد، ورجحت أن موضوع «الطريق الطويل» واحتفاءها بمآسي الفلاحين ومشاكلهم والظلم الواقع بهم، وكذلك تركيز الرواية على آثار الحرب العالمية الثانية على القرية وما خلفته من معاناة، ربما كان ذلك هو الذي دفع إلى ترجمتها. وفعلًا أحضرت لهم نسخة منها وسلمتها للأخ رجاء النقاش الذي قام بدوره بإعطائها للأديب الروسي الذي سبق وتعرفت عليه، ولعله من المفيد أن أشير إلى أن هذا الأديب الروسي كان يتكلم الإنجليزية، ومن ثم كانت الفرصة مهيأة للحوار قال لي: «ما رأيك في الاتحاد السوفيتي؟». لم أشر في البداية إلى قضية الدين، ولكني قلت له: «إنكم تهدرون الحريات، وتنتهكون حقوق الإنسان».

- «هذه دعاية استعمارية إمبريالية، هل تذكر لي واقعة واحدة».

- «العالم كله يعرف مأساة الكاتب السوفيتي «بوريس باسترناك» الذي نال جائزة «نوبل» عن روايته «دكتور زيفاجو» فأولًا أنتم منعتم نشر روايته في بلدكم، وثانيًا لم تسمحوا له بأن يتسلم الجائزة، وحاولتم إلصاق التهم به، والحد من حركته وإبداعاته...».

نظر إلى وجهي في تمعن وكان يلبس نظارة طبية بيضاء، ثم قال: «في بلدكم، ماذا تفعلون بأي كاتب معارض يهاجم دولته وزعماءها؟».

في البداية، لم أدر بماذا أجيب، فالموقف شائك، ربما لو تكلمت بصراحة لكان ذلك مدخلًا إلى المشاكل التي أحاول تجنبها، فقد تصل كلماتي إلى مسامع السلطة، ولو سكت لكان ذلك إقرارًا بالإجراءات القمعية التي يتخذها الحكام في الاتحاد السوفيتي، ووجدتني في النهاية أقول له: «نحاكمه، ونرمي به وراء الشمس».

- «نحن لم نحاكم باسترناك، ولم نضعه في السجن».
- «الأمور لا يُنظر إليها على هذا النحو».
- «كيف؟».
- «يجب أن تكون الحرية مكفولة للجميع عندنا أو عندكم».
- «أرجو ذلك...».

ومن الشخصيات التي لفتت نظري في المؤتمر الشاعر التركي «ناظم حكمت» الذي صُنِّف في جانب اليساريين، ولم تكن هناك فرصة لحوار عميق معه، لكننا كنا نستمع إلى أحاديثه الرقيقة، وكان رجلًا سمحًا طيب المشاعر، معظم قضايا شعره تنحاز إلى الإنسان المعاصر المقهور، الذي طحنه الظلم والفقر، وكان مديد القامة، طلق الوجه، مبتسمًا دائمًا، مقبول المظهر والملاحم، أنيقًا مهذبًا، ولم يكن شعره يصرخ بالشعارات الحزبية أو السياسية، بل نستطيع القول إنه شاعر إنساني المذاق، وقد مات في منفاه منذ سنوات. ولقد تم توزيعنا من خلال لجان المؤتمر، وكان نصيبي في «لجنة الترجمة» ومن بين أعلامها في تلك الفترة الدكتورة سهير القلماوي والأستاذ خلف الله (وهو غير خلف الله الكاتب العلماني الذي أثار ضجة بكتاباته)، والأستاذ حلمي مراد صاحب سلسلة «كتابي» الشهيرة المترجمة وغيرهم، وقد أنجزت هذه اللجنة عددًا من التوصيات المهمة في مجال الترجمة لا يتسع المقام لسردها ولقد لفت نظري ما قامت به الدكتورة سهير القلماوي من جهود، وما قدمته من أفكار، كانت

تتكلم بالإنجليزية في المؤتمر، ولكنها في نفس الوقت إذا سمعت خطأ في الترجمة الفرنسية بادرت بتصحيحه على الفور باللغة الفرنسية، وكذلك بالنسبة للغة العربية.

ومن الأمور التي لا أنساها في هذا المؤتمر صحبتي الدائمة مع الأستاذ نجيب محفوظ، فكنا نجلس متجاورين طوال جلسات المؤتمر العامة، ونتناقش ونعلق، والواقع، والحق يقال، إن صحبته ممتعة وثرية، فهو قليل الكلام، دقيق الملاحظة، موجز التعليق، لا تشعر معه بملل أو حرج..

لقد مر على هذا المؤتمر ثلاثة عقود من الزمان أو أكثر، ومع ذلك فإن أحداثه مازالت محفورة في ذاكرتي، فقد جاء في بدايات حياتي الأدبية، وكان أول لقاء موسع أحضره في مجال الأدب، مع اتجاهات وتيارات عدة، ضمن وفود أكثر من خمسين دولة أفريقية وأسيوية، وكان هذا المؤتمر يغلب عليه الطابع اليساري في جملته، وإن اشترك فيه أفراد من الكتاب لهم هويتهم وخصوصيتهم، والحقيقة أنني لم أشهد بعد ذلك -على كثرة المؤتمرات التي حضرتها- مؤتمرًا على نمطه من حيث الموضوعات والحوار والتوصيات، ولم نفكر في عقد مؤتمرات للأدب الإسلامي إلا في الثمانينيات من القرن العشرين، مع أنني دعوت إلى ذلك في بداية عقد الستينيات، والحمد لله أن أمنيتي قد تحققت...

قبل التخرج من كلية الطب وفي عام 1959 أعلن عن مسابقة في المجلس الأعلى للآداب والفنون، في الرواية والمسرحية، حول الحروب الصليبية، حملة لويس التاسع ملك فرنسا على دمياط والمنصورة، إبان حكم الملك الصالح نجم الدين أيوب وزوجه «شجرة الدر». ثم أسر الملك الصليبي لويس، ووضعه في «دار ابن لقمان» بالمنصورة، وكانت جوائز المسابقة كبيرة، ووجدت لديّ رغبة شديدة في الاشتراك بهذه المسابقة، لكن المشكلة التي كانت تواجهني هي الامتحان النهائي (درجة بكالوريوس الطب والجراحة)، وكان قد اقترب موعده، وأنا أريد أن انتهى من الدراسة بسرعة بعد الفترة الطويلة التي ضاعت بسبب بقائي في السجن قبل ذلك، ومع ذلك وجدتني مدفوعًا دفعًا لا يقاوم للاشتراك في المسابقة وخرجت إلى المكتبات كي أبحث عن المراجع التاريخية المختلفة التي تمهد لي الطريق للكتابة، وإذا كان التاريخ علم فإن القصة الأدبية فن، له أصوله وتقاليده، ومعنى ذلك أن التاريخ لابد أن يُهضم ويُتمثل حتى تأتي الرواية عملًا فنيًا مقنعًا.. اشتريت الكثير من المراجع التي وجدتها في

المكتبات، ولكن قد يعجب القارئ عندما يعلم أنني عثرت على كتاب صغير ثمنه قرشان فقط وجدته على سور الأزبكية، يتكلم عن هذه الحرب من الوجهة العسكرية، وبه رسوم عن السفن وآلات الحرب في تلك الفترة التاريخية، وكان هذا الكتاب من تأليف خبير عسكري مشهود له بالكفاءة من رجال القوات المسلحة قبل ذلك، وله العديد من المؤلفات في هذا المجال.

وأخيرًا توكلت على الله وبدأت كتابة الرواية، وكنت أقسم وقتي بين الكتابة في الرواية، والمذاكرة استعدادًا لامتحان البكالوريوس، وبعد أن كنت كتبت ثلاثة فصول، وثبت إلى ذهني فكرة وأنا أركب الترام من القصر العيني إلى حي «شبرا» الذي كنت أسكن فيه، هذه الفكرة هي أن أضع في الرواية شخصية غجرية تغني وترقص، وتستطيع الدخول إلى معسكر الصليبيين، لتنقل الأخبار للمجاهدين، وهي في الواقع فتاة مصرية ادعت أنها غجرية لتحقق غايتها، والمعروف عن الغجر أنهم لا ينتمون لوطن، بل انتماؤهم الشديد يكون لجنسهم، وهذا ما يعرفه الفرنجة بالتأكيد، وكانت هذه الغجرية «ياقوتة» أو «زمردة» على علاقة عاطفية بأحد قادة الشباب المجاهدين، وكنت وأنا في الترام أسجل بعض الملاحظات والحوارات الخاصة بهذه الفتاة، وما إن وصلت إلى مسكني حتى ألقيت بكتب الطب جانبًا، وبدأت في الكتابة تحت وطأة الحماسة القائمة، ولم أضيع وقتًا، ومن العجيب أن هذه الشخصية، قد أعطت للرواية نكهة شهية، وأمدتها بالكثير من الجاذبية والتشويق، وتمت كتابة الرواية بحمد الله، ثم نسختها على آلة الطبع من ثلاث نسخ، واستطعنا أن نقدمها في آخر يوم من الموعد المحدد، وبعد بضعة شهور كنت ذاهبًا إلى الكلية في الصباح كالمعتاد، واشتريت صحيفة الأهرام، وأخذت أتصفحها واقفًا حتى يأتي الترام، وفجأة وقعت عيني على نتيجة المسابقة.. الحمد لله، لقد فازت (اليوم الموعود) بجائزة أفضل رواية، وفاز في المسرحية الأستاذ يعقوب الشاروني والأستاذ علي أحمد باكثير، ثم كانت هناك جوائز تشجيعية أقل قيمة من الناحية المالية للشاعر الكبير محمود غنيم والأستاذ «علي شلش» والأستاذ عبد العاطي جلال، والأستاذ إبراهيم مصباح على ما أتذكر، ووضعت يدي في جيبي فلم أجد غير خمسين قرشًا (نصف جنيه) فأخرجتها وأعطيتها لبائع الصحف في الميدان، وهو صديق أتعامل معه من قديم، ولم يكن يعلم السبب، فأريته الجريدة ففرح وأخذ يعانقني في ود، ولم أركب الترام، بل عدت إلى مسكني في شارع «كنيسة الراهبات»، ودققت الجرس، ففتحت أمي -رحمها

الله- الباب، وكانت عندي في زيارة، ونظرت إلي قائلة: «لماذا رجعت؟»، فرويت لها ما حدث، فإذا بها تطلق زغرودة عالية، وأخذت تقبلني وأقبل يدها، ونحمد الله على فضله، ثم قالت: «أرسل لأبيك برقية حتى يفرح».

- «سوف يقرأ الناس الخبر في القرية، وسيعرف».

- «الحمد لله.. كنا قد أفلسنا..».

- «سوف نقترض على حساب الجائزة».

وضحكنا، ثم تركتها مودعًا متجهًا إلى الكلية، حيث استقبلني الأصدقاء استقبالًا حافلًا.. كان «المانشيت». أو العنوان. المكتوب في الأهرام على ما أذكر.

«أبطال بلدنا، ودار ابن لقمان، واليوم الموعود تفوز بالجائزة».

وكنت قد اخترت لروايتي عنوان «اليوم الموعود» وكان لنتيجة هذه المسابقة صدى كبير في الأوساط الأدبية بالقاهرة، وكان الناشرون يفضلون نشر الرواية على المسرحية، ولهذا قدم إلي عدد كبير منهم، بينما لم يجد الزملاء الفائزون في المسرحية بهذا الترحيب، واتفقت مع «دار القلم» وصاحبها الأستاذ محمد المعلم على نشر الطبعة الأولى، وتسلمت منه مقدمًا مبلغًا من المال قبل أن أتسلم الجائزة، ووفد إلى بيتي عدد لا بأس به من المعارف يريدون الاقتراض، ولو حسبت مجموع القروض المطلوبة لوجدتها تفوق الجائزة، وقدمت للبعض ما استطعت. وكان علينا أن نتسلم الجائزة من الرئيس جمال عبد الناصر في احتفال كبير يقام في مدينة المنصورة، يحضره كبار رجال الدولة والمحافظة والفائزون الثلاثة، أنا والأستاذ باكثير والأستاذ يعقوب الشاروني (شقيق الأديب المعروف يوسف الشاروني)، وتسلمنا بطاقات خاصة، وسافرنا في قطار إلى المنصورة حيث خرجت جموع حاشدة على جانبي خط السكة الحديد، لتحية موكب عبد الناصر، وفي المنصورة نزلت ضيفًا على أسرة الصديق الأديب الحبيب الدكتور محمد حسن عبد الله حيث غمرتني بكرم الضيافة والمشاعر الطيبة التي لا تنسى.

أقيم الاحتفال الكبير في ديوان محافظة الدقهلية بالمنصورة، واصطحبنا الأساتذة يوسف السباعي، ومهدي علام، وسعيد العريان إلى المنصة، ووقف الرئيس يلقي خطابًا مهمًا بهذه المناسبة، ولم يكن انتصار مصر على الصليبيين بالشيء الهين، أما نحن الثلاثة فقد جلسنا على

يسار موقف الرئيس، وخلف الرئيس تراص أعضاء الوزارتين المركزية والتنفيذية إبان الوحدة مع سوريا، وكان عددهم كبيرًا، ولاحظت أن زكريا محيى الدين، وعبد الحميد السراج (سوريا) يجلسان متجاورين، لكن السراج وضع ساقًا على ساق، بحيث أصبح حذاؤه متجهًا صوب زكريا الذي بدا الضيق على وجهه، فبادر هو الآخر بوضع ساق على ساق، وهكذا أصبح الحذاءان متقابلين، ويكادان يلتصقان، وثبت الوضع على هذه الصورة..

وطال خطاب الرئيس، فقد تشعب إلى قضايا سياسية واقتصادية وفكرية متنوعة، والجماهير تهدر في حماسة، مال عليّ الأستاذ علي أحمد باكثير وقال: «أشعر بظمأ شديد، ماذا نفعل؟».

- «لا بد أن نصبر حتى ينتهي خطاب الرئيس...».

- «قلت لك يا نجيب لا أستطيع، أنا مريض، ولابد أن أذهب إلى دورة المياه».

- «لن يسمح لنا أحد بالحركة...».

ولكني وجدت حارسًا على مقربة منا فأشرت إليه فأتى، وهمست في أذنيه بأن الأستاذ مريض ويريد أن يشرب، قال الحارس: «دورة المياه أسفلنا، ويمكن أن آخذه إلى هناك».

وجاء الفرج، وخاصة أننا كنا قد استلمنا الجائزة، ونلنا التكريم المطلوب.. ونزلت أنا والأستاذ باكثير إلى أسفل بصحبة الحارس، وتركنا يعقوب وحده جالسًا. شربنا في دورة المياه، وغسلنا وجوهنا وأيدينا، وبقينا فيها لا نستطيع الخروج حتى انتهى الاحتفال، فخرجنا ولحقنا بالموكب أثناء نزوله من شرفة ديوان المحافظة..

وما إن عدت إلى القاهرة بعد ليالي المنصورة الحافلة بالجمال، حتى تفرغت تمامًا للدراسة، ولم تكد تمر بضعة أشهر حتى وصلتني رسالة من وزارة التربية والتعليم، تعلمني فيها بأنها قررت تدريس «اليوم الموعود» على طلبة الصف الثاني الثانوي، وتطلب مني الحضور لتوقيع العقد واستلام مقدم المبلغ المرصود لذلك، فكان لهذا النبأ أثر طيب جدًا في نفسي وفي نفس الأسرة والإخوان، ووفقني الله في أن أجتاز امتحان الجراحة بنجاح، ولم يبق إلا امتحان الأمراض الباطنية بعد ستة شهور. وبعدها أنال درجة البكالوريوس في الطب والجراحة، وعلى الرغم من هذه الظروف الدراسية الصعبة إلا أنني واصلت الكتابة في عدد من الصحف والمجلات في الداخل والخارج، فقد أصبحت الكتابة جزءًا لا يتجزأ من حياتي لا

أستطيع تجاهلها، وكنت أفعل ذلك في أوقات الراحة، حينما أشعر برغبة قوية في التعبير عن فكرة أو رأى..

في هذه الفترة أصدرت كلية الطب مجلتها السنوية، واختاروني أحد المحررين بها، ومن الطريف أن هذه المجلة، أعني مندوبها، أتى إلى ندوة نجيب محفوظ، وأجرى حديثًا قصيرًا معه، ثم طلب منه أخذ صورة تذكارية لنجيب وأنا، ونشرت المجلة هذه الصورة، وكتبت تحتها «النجيبان...».

وكانت علاقتي في هذه الفترة متوطدة مع عدد من الأدباء الكبار الذين تعلمت منهم الكثير، وهذا حق، وكان تعلمي من خلال قناعاتي ومعتقداتي التي كنت أحافظ على جوهرها كما أحافظ على حياتي، بل أكثر، إن أفكار الأساتذة الكبار لا تلغى شخصية التلميذ، بل تدعمها وتقويها، ولا تخرج به عن دائرة قناعاته دائمًا، بل ربما يكون العكس، المهم أن يكون التلميذ واعيًا، مدركًا لأهدافه، متمثلًا لأفكاره، مقتنعًا بها، ويحاول أن يستفيد الكثير مما وراء ذلك، إن اتجاهات عدة تخرج من تحت عباءة المفكر أو الفيلسوف أو الفنان، وبعض هذه الاتجاهات قد تخالفه في كثير مما يؤمن به، وهذا لا يلغي دور الأستاذ ولا أثره، ونفس الشيء بالنسبة للأصدقاء الذين ارتبط بهم، فقد كان فيهم اليساري واليميني، والمسلم والمسيحي، بل واليهودي، كانت علاقات إنسانية، لا تلغي الفروق، ولا تذيب حدود التباين الفكري والمعتقدي، لكنها كانت بالتأكيد ذات فائدة، ذلك لأن «الآخر» مهما كان لونه وميله يعتبر مصدرًا من مصادر المعرفة، ولم يزل هذا دأبي حتى كتابة هذه السطور، ولا أظنني سأتزحزح عن هذا الموقف في قابل ما تبقى لي من عمر..

ومن العجيب أن عددًا من هؤلاء الأصدقاء، بل والأساتذة، قد طرأ على مواقفهم الفكرية بعض التغيير أحيانًا، والبعض الآخر قد تحول تمامًا إلى موقف جديد يختلف تمام الاختلاف عن الموقف القديم، ولذلك كنت أنادي دائمًا بأننا لا يصح أن نحكم حكمًا نهائيًا على صاحب فكر، من خلال موقف واحد له، ربما يتحول عنه فيما بعد..

نعود مرة أخرى إلى رواية «اليوم الموعود» فقد أرسلت إليّ مؤسسة الإنتاج السينمائي العربي تطلب الموافقة مني على إنتاجها فيلمًا سينمائيًا بالألوان، وهي مؤسسة «قطاع عام» شبه

حكومية، وهي المنتج الوحيد في تلك الفترة بعد تأميم صناعة السينما في مصر على يد رجال الثورة، كان ذلك في عام 1963، وتم التعاقد.

ومن الطريف أن أذكر أن أجري في هذا الفيلم كان مائة جنيه فقط تصرف على دفعتين، ومرت فترة طويلة من الزمن دون أن يخرج الفيلم إلى النور، وكانت الحجة التي تساق في تلك الأيام، أنه يحتاج إلى تكلفة تربو على مليون جنيه، لأنه فيلم تاريخي، وفيه معارك، والمبلغ كبير آنذاك، ثم تدخل الشيوعيون الذي يعملون في المؤسسة، وأجضهوا المحاولة بحجج واهية، كما أخبرنا واحد منهم كان اسمه أبوبكر الشرقاوي، وفي عام 1973 بدأت إذاعة الكويت بإنتاجها حلقات إذاعية لمدة شهر يوميًا، بإعداد الأديب عابدين بسيسو، ثم حولت حقي المادي إلى المجهود الحربي في حرب 1973، وبعد ذلك بسنوات تم إنتاجها حلقات تليفزيونية (إنتاج مصري ليبي مشترك)، وكتبت الصحف والمجلات باستفاضة عن هذا المسلسل الذي يقوم ببطولته الممثل أحمد عبد العزيز، والممثلة إيمان الطوخي، ومعهما أمينة رزق الممثلة الكبيرة، وليلى طاهر وغيرهم من نجوم من تونس والجزائر وسوريا، وقد ذكر أن إنتاج المسلسل سيتكلف ثلاثة ملايين جنيه، وسيشترك فيه خمسة آلاف كومبارس، وقد جرى التصوير في مواقع المعارك الحربية في دمياط والمنصورة، ولم يتم عرض المسلسل بعد حتى كتابة هذه السطور.

وفي خلال تلك الفترة أيضًا (1959-1965) قدمت الإذاعة المصرية بعض التمثيليات، منها خماسية عن رواية «في الظلام». إن كثيرين من الخبراء يعتقدون أن معظم رواياتي، بل وقصصي القصيرة، صالحة جدًا للسينما والتليفزيون، ومع ذلك فإن عددًا من المعادين لفكرنا يتربصون بنا الدوائر، ويقفون حجر عثرة في الطريق، ولم ينتج للتليفزيون قبل ذلك إلا مسلسل روايتي «الذين يحترقون» في 13 حلقة، وكان المنتج هذه المرة هو تليفزيون دبي، وقد شاهدها الإخوة في أنحاء العالم العربي ما عدا مصر، ذلك لأن الرقابة منعت عرضها بحجة أنها توجه نقدًا لاذعًا لبعض أنواع الخدمات (الصحية)، وقامت إحدى عضوات مجلس الشعب في مصر بهجوم على المسلسل، وعلى المؤلف وعلى المخرج واعتبرته بمثابة «نشر غسيلنا الوسخ» في الخارج، وشاركها في ذلك بعض الصحفيين، مع أن الرواية نشرت في مصر قبل 12 عامًا من إنتاجها للتليفزيون.

[6] لقاء مع سيد قطب

عرفت سيد قطب أول ما عرفته من خلال مؤلفاته ومقالاته في الصحف والمجلات، كان يكتب في جريدة «الاشتراكية» وفي «الرسالة» وفي غيرهما قبل أن ينضم إلى الإخوان المسلمين، وكان على حد تعبير الأستاذ سليمان فياض في مجلة الهلال مجددًا في أسلوب العربية، مثلما كان طه حسين مجددًا بطريقة أخرى، وكانت سطوره تصرخ بالقوة والثورة على الأوضاع الفاسدة سياسيًّا واجتماعيًّا واقتصاديًّا، التقينا معه لقاء الروح والقلب والفكر قبل أن ألتقي به شخصًا لشخص، وكان في محاضراته وخطبه واضح العبارة، عميق التأثير، قادرًا على الحوار الإقناع، وكان يفسح صدره لمن يحاوره، واثقًا بفكره وإيمانه، رأيناه في مدرجات الجامعة متكلمًا في المناسبات الوطنية والإسلامية، ورأيناه في الاجتماعات العامة للإخوان المسلمين محللًا ومربيًّا، وفي قسم نشر الدعوة بالمركز العام موجِّهًا حصيفًا، وعندما صدر ضده حكم بالسجن في عام 1954 أودع سجن طرة، ثم أتينا بعده وأودعنا سجن أسيوط، ثم سجن القناطر، ثم سجن القاهرة.

ولقد كانت تربطني بشقيقه الأستاذ محمد قطب في تلك الفترة (1959-1965) صلة أخوية وثيقة، فقد كان محل ثقتي واحترامي وتقديري، ولم أكن أخفي عنه أغلب خصوصياتي، وقبل ذلك جاءت شقيقته الفاضلة عام 1958 إلى مستشفى القصر حيث كنت أخرج من السجن للعلاج هناك، وأعود إلى السجن مرة أخرى بعد الظهر، أقول جاءت ومعها «عقد اتفاق» من مكتبة مصر لنشر روايتي الأولى «الطريق الطويل»، وقد وقعت العقد مع هذه الأخت المحجبة والمنقبة دون أن نتبادل سوى كلمات قليلة. وبعد خروجي من السجن في المرة الأولى بعفو صحي، التحقت بالكلية مرة أخرى، وتزوجت وتخرجت وعملت طبيب امتياز، وذات يوم قدم إلي الأخ محمد نشنوش صاحب «دار النور» للنشر والتوزيع في طرابلس، وكنت قد نشرت لديه ثلاثة من كتبي، وأبدى رغبة شديدة في زيارة الأستاذ سيد قطب بالقصر العيني حيث كان مقيمًا هناك للعلاج تحت الحراسة المشددة، واحترت ماذا

أفعل، لو أن رجال الأمن أمسكوا بي زائرًا لكانت كارثة، وخاصة أنني تعهدت عند الإفراج عني بعدم الاتصال مع أحد من الإخوان وخاصة ذوي المكانة، وذهبت إلى الأستاذ محمد قطب لنتبادل الرأي، فكان أن حدد لي وقتًا بعد الظهر، وهو وقت آمن لزيارة شقيقه ليست فيه مخاطرة تذكر، وأخبرني بأنه سوف يكون متواجدًا هو الآخر، وفي الوقت المحدد أخذت زوجتي السيدة كريمة شاهين، والأخ الليبي محمد نشنوش، وتوكلنا على الله وذهبنا إلى موعدنا..

كان لدى باب الحجرة والنافذة شرطيان لا يبدو عليهما الاكتراث لشيء، ودخلنا ببساطة، واستقبلنا الأستاذ سيد رحمه الله بابتسامة ودود ومحبة صادقة، وكان شقيقه الأستاذ محمد يقف إلى جواره، وجلسنا نتحدث في شتى الموضوعات، وكان معظم حديثي، كما سبق وشرحت في أحد كتبي السابقة، عن الأدب الإسلامي، كان يستمع باهتمام وخاصة عندما ذكرته بأن كتابه في النقد الأدبي يُفهم منه أنه يميل إلى نظرية «الفن للفن»، فأوضح لي أن الطبعة الجديدة من هذا الكتاب فيها تعديل، وسأجد فيها بغيتي، ثم طلب من شقيقه أن يهديني نسخة من هذه الطبعة، وكان إلى جواره بعض مؤلفاتي في القصة، فأمسك بها وأخبرني أنه لم يقرأها بعد، وسوف يكون ذلك في وقت قريب إن شاء الله، ولا أتذكر ماذا كان مضمون حديثه مع الأخ الليبي. ووجدت زوجتي تنظر إليه بألم وتكاد تبكي، كانت قليلة الخبرة بأمور الصراعات السياسية ومشاكلها، وكانت في حوالي العشرين من عمرها، لم تكمل تعليمها الجامعي بعد، ووجدتها تقترب منه وتقول له: «أنت مريض، وفي حاجة إلى الراحة والعلاج، فلماذا لا تعقد صلحًا مع الحكومة وتخرج؟». فابتسم لبراءتها وصدق مشاعرها وقال: «الحكومة فكرت فعلًا في التفاهم معي، كلنهم طلبوا أن أسجل رأيي في الثورة وسياستها، وطبعًا كانوا يتمنون أن أعلن تأييدي صراحة حتى يفرجوا عني، ولكني قلت لهم إنه من الأليق بهم أن يأخذوا رأي رجل حر، وليس سجينًا، إن قلت لكم ما يرضيكم، فستقولون أنني فعلت ذلك لكي يفرج عني، وإن قلت غير ما تريدون فلن يتغير الوضع بالنسبة لي...».

وهزت زوجتي رأسها في حيرة، لكني تدخلت واعتذرت له عما قالته، بحجة أنها ليس لديها بعد دراية بمثل هذه الأمور التي لم تمر بتجربتها، ثم استأذنا وخرجنا وتركت الليبي معه.

وصدرت الطبعة الجديدة من الكتاب، وبها التعديل النظري المهم، الذي أعطى الأدب الإسلامي مفهومًا موجزًا واضحًا، وإن بقيت النماذج الاستشهادية كما هي، ثم صدر بعد ذلك الكتاب الموسع الشامل لشقيقه الأستاذ محمد قطب تحت عنوان «منهج الفن الإسلامي»، وهو يعتبر بحق من عمّد نظرية الأدب الإسلامي، وقد اتفق معه شقيقه في المفهوم الشامل لهذا الأدب، ولقد كان حماسي لهذا الكتاب كبيرًا على الرغم من أنني كتبت في مقدمة كتابي «الإسلامية والمذاهب الأدبية» بعض الملاحظات على هذا الكتاب القيم.

وعندما زار «خروشوف» مصر لافتتاح «السد العالي» أُفرج عن الشيوعيين المعتقلين قبل أن يصل الزعيم السوفيتي إلى القاهرة، وبعد ذلك توسط أهل الخير من كبار الشخصيات في الدول العربية، مطالبين بالإفراج عن سيد قطب أسوة بالإفراج عن الشيوعيين، وخرج سيد قطب من سجنه بعد أن قضى فيه أكثر من ثماني سنوات، وعاد إلى بيته لا ليخلد إلى الراحة، بل ليواصل إكمال كتابه «في ظلال القرآن»، وليعقد الندوات في بيته، ويسجل أفكاره في كتب جديدة، وبدأ أعنف وأقوى مما كان، وكان كتابه «معالم في الطريق» هو الانفجار الكبير الذي أحدث دويًا هائلًا في الأوساط الفكرية والثقافية والسياسية في مصر والعالم العربي، وكذلك جاء كتاب شقيقه محمد قطب تحت عنوان «جاهلية القرن العشرين»، وبصرف النظر عما قيل حول هذين الكتابين الخطيرين من انتقادات وتحليلات وآراء، فإن الأمر الذي لا شك فيه أنهما أثارا دويًّا كبيرًا في نطاق واسع داخل مصر وخارجها، ونتج عن ذلك إعادة اعتقال الإخوان وسيد قطب في النصف الثاني من عام 1965وبدأت مأساة جديدة لم تكن في الحسبان، واتهم سيد قطب وعدد من الإخوان بتدبير مؤامرة واسعة النطاق لقلب نظام الحكم، تلك المؤامرة التي قال عنها صلاح نصر مدير المخابرات العامة الأسبق في مذاكراته أنه لم يجد قضية أصلًا، واعتذر، كما قال، عن تولى أمر قضية سيد قطب، وأخبر عبد الناصر بأنه لا توجد قضية، فقال له: «هو كل ما نقول حاجة نعتذر عنها.. خلاص شمس بدران سيتولى الموضوع». ويمكن الرجوع إلى مذكرات صلاح نصر لمن يريد التوسع في هذه الناحية الشائكة..

وقد أراد الله أن أعتقل أنا الآخر في السادس من سبتمبر عام 1965، ولم أكن على ذمة قضية هذه المرة، بل مجرد معتقل لا تحقيق معه، وهذا ما سوف نتناوله إن شاء الله في الجزء التالي من هذا الكتاب، إذا كان في العمر بقية..

[7] في أسواق الأدب

الواقع أن ريادة المكتبات بالقاهرة بالنسبة لي كان أمرًا مفيدًا لا يقل أهمية عن الذهاب إلى المنتديات الأدبية والفكرية المختلفة، فهنا أو هناك نلتقي بكبار المؤلفين في شتى فروع المعرفة والأدب بل والفن بصفة عامة، وكانت هناك ثلاث مكتبات أذهب إليها على الأقل مرة كل أسبوع، وهي مكتبة دار العروبة (دار التراث حاليًا)، ومكتبة وهبة التي كانت تنشر للعديد من المؤلفين، وخاصة سيد قطب ومحمد قطب وخالد محمد خالد وغيرهم، ومكتبة الشركة العربية بميدان الأوبرا، والمكتبات الثلاث في شارع الجمهورية (إبراهيم باشا سابقًا).

وكانت الفرصة متاحة لأن أجلس منفردًا مع أحد الكتاب وأتبادل معه الحديث على مهل، فأتزود مما لديه من علم وتجربة، وقد يجتمع في المكتبة اثنان مختلفان في الرأي فيتحاوران وينفعلان انفعالًا متزنًا رصينًا، وأنا استمع إليهما في اهتمام بالغ، ومثل هذه اللقاءات لا تقل أهميتها عن قراءة كتاب من الكتب، فلا عجب أن ترى الأستاذ محمد قطب إلى جوار الأستاذ خالد محمد خالد، وهما آنذاك على طرفي نقيض في التوجه الفكري، وربما تقابل عالمًا كبيرًا من علماء الدين أو اللغة أو أي لون آخر من ألوان المعرفة في مكتبة العروبة، والتقيت مع المرحوم الدكتور عبد المنعم النمر، وظلت تربطنا صلة وطيدة حتى وافاه الأجل، والتقيت بالعلامة الكبير الأستاذ محمود شاكر، محقق تفسير الطبري، وصاحب مؤلفات مهمة في الفكر واللغة والحائز على جائزة الملك فيصل الكبري، والتقيت بالموسيقار زكريا أحمد، والتقيت أيضًا في مكتبة الشركة العربية بالأستاذ الكبير محمود تيمور، والمؤرخ الكبير الدكتور حسين مؤنس، أما في نادي القصة فقد التقيت بالأعلام من كتابنا عبد الحليم عبد الله، يحيى حقي، أمين يوسف غراب، د.يوسف إدريس، يوسف السباعي، توفيق الحكيم، وعدد كبير من الشعراء المرموقين آنذاك مثل صلاح عبد الصبور، فوزي العنتيل، د. أحمد زكي، أنس داود، أمل دنقل، والشاعر الكبير أحمد رامي، وكامل أمين، وأحمد عبد المعطي حجازي، وآخرين لا

تحضرني أسماؤهم الآن، بالإضافة إلى شيوخ وشباب النقاد أذكر منهم الدكتور محمد مندور والأستاذ يحيى حقي، كما التقيت مع عدد كبير من رجال الصحافة..

أذكر أنه في أيام الوحدة مع سوريا، قام المرحوم الأستاذ يوسف السباعي بتنظيم رحلة للأدباء، والفنانين إلى مدينة غزة قبل احتلالها، واعتقد أن ذلك كان عام 1965، وفي اليوم المحدد انطلقت بنا الحافلات شرقًا إلى القنطرة والعريش في سيناء، وأخيرًا وصلنا بعد ساعات طويلة إلى مدينة غزة الواقعة على البحر، ونزلنا في فندق الأندلس هناك، وكان هدف الرحلة هو الاطلاع على أوضاع إخواننا اللاجئين الفلسطينيين، ثم الكتابة عنهم، والتعبير الفني عن مأساتهم، كان معنا من الممثلين يحيى شاهين، ومن الرسامين بيكار ورخا، ومن الإذاعيين الأستاذ يوسف الحطاب ، وكان معي طوال الرحلة الأستاذ علي أحمد باكثير، وعدد لا بأس به من الشعراء والكتاب والصحفيين، وفي نفس الوقت شاركنا نخبة من كتاب سوريا وفلسطين، وأذكر أننا التقينا في هذه الرحلة مع الشاعر الفلسطيني المعروف هارون هاشم رشيد وشقيقه الأستاذ علي، والأستاذ الناقد الدكتور كامل السوافيري.

وفي هذه الرحلة رأينا ما يعانيه اللاجئون رأي العين، مسكنهم الضيقة الواهنة، كدحهم من أجل الرزق، ملابسهم الرثة، الأخطار المحدقة بهم صباح مساء، وتردي الخدمات الصحية، وعلى الرغم من صبرهم وصمودهم إلا أنهم يكادون يفقدون الثقة في إخوانهم العرب، فمنذ حرب 1956 والأحوال راكدة، والقضية لا تتحرك، قال لنا أحد اللاجئين إنهم يستقبلون وفودًا لا تعد ولا تحصى من العالم العربي والإسلامي ومن خارجها، والجميع يطمئنونهم على مستقبل قضيتهم، لكنهم حتى الآن لا يرون بصيصًا من النور، إن الكلام كثير، والفعل قليل، ومع ذلك فهم يأملون في أن تتحرك مصر ودول الطوق لنجدتهم في يوم من الأيام.

وكان بعض أعضاء وفد الأدباء والفنانين يرتجل الكلمات الحماسية، مؤكدًا أن يوم النصر قريب، وأن المعركة لابد آتية، وأذكر أن الفنان الكبير يحيى شاهين قد استثاره ما رآه، فألقى خطبة عصماء تفيض بالحماسة والقوة، وكان اللاجئون سعداء جدًا برؤية أعلام الفن والفكر من النساء والرجال على السواء.

قضينا بضعة أيام نتجول في القطاع، ونشاهد المستعمرات اليهودية عن قرب دون أن ندنو منها، وكانت بيننا حوارات شتى، وكل يسجل في مذكراته بعض الأفكار، حتى الرسام بيكار شاهدته وهو يخطط لوحة جميلة بخطوطه المميزة، وقد لاحظت أن بيكار اهتم جدًا بكتابي عن الشاعر الفيلسوف محمد إقبال، والذي كان قد صدر تحت عنوان «إقبال الشاعر الثائر»، وأخذ يوجه إليّ العديد من الأسئلة حول حياة هذا المفكر الإسلامي وفلسفته، وبالطبع لم ينس أعضاء الوفد أن يذهبوا إلى أسواق غزة الشهيرة ليشتروا منها الأقمشة والبضائع المستوردة، وكان إخواننا التجار في غزة من أذكى وأبرع التجار حسبما رأيت.

أثناء عودتنا إلى القاهرة، وقع حادث عكّر علينا صفو رحلتنا الجميلة، فبينما نحن في جمرك القنطرة وأثناء التفتيش الروتيني، يبدو أن أحد أفراد الوفد كان معه قطعة من «الحشيش»، وداخله خوف من أن التفتيش قد يمسك بها، فما كان منه إلا أن رمى بها جانبًا، فأمسك به المفتش، ووقعنا في ورطة محزنة، إذ إن رجال الجمرك أخذوا يفتشوننا بدقة، وأمسكوا بالأديب المتهم، واحترنا ماذا نفعل، واستطاع المسئولون عن الرحلة أن يتصلوا تليفونيًا بالأستاذ يوسف السباعي في القاهرة، وسرعان ما اتخذ الرجل الإجراءات العاجلة للمجيء إلينا في القنطرة، ولا أدري كيف جاء! المهم أنني رأيته مقبلًا نحونا في اهتمام. واستطاع بخبرته وذكائه أن ينهي هذه الأزمة، وأن يطلق سراح صديقنا الأديب المتهم، ويعود بنا إلى القاهرة بسلام، ولا أريد في هذه العجالة أن أتعمق هذا الحادث، ولكني أتذكر ما علق به الأخ الصديق الأستاذ علي أحمد باكثير قائلًا: «والله يا أخي هذه مهزلة..» ضحكت وقلت: «مهزلة أم مأساة؟ هل تنوي أن تكتب عنها مسرحية؟»، فلوح بيده، كعادته، في ضيق، ولم يرد.

كنت –كما سبق وأشرت في أحد أجزاء هذا الكتاب– قد زرت القدس والضفة الغربية وباقي أرض فلسطين غير المحتلة في عام 1954 أثناء دراستي بكلية الطب. وبهذه الرحلة الأخيرة، أي بعد حوالي ثماني سنوات، زرت قطاع غزة، مما جعلني ألم عن كثب بأوضاع هذا البلد الحبيب، وكان حصيلة ذلك من الناحية الأدبية أن كتبت عددًا من الأعمال الأدبية منها:

1- رواية «أرض الأنبياء».

2- رواية «عمر يظهر في القدس» التي ترجمت إلى الإنجليزية وعدد من اللغات الشرقية.

3- رواية «دم لفطير صهيون» وهي خاصة باليهود وبعض معتقداتهم المأساوية.

4- عدد من القصص القصيرة، بعضها في مجموعة «عند الرحيل».

5- بعض أجزاء في روايات أخرى لي مثل «الطريق الطويل»و«رمضان العبور» وغيرهما.

وفي أثناء الرحلة وقف الفنان يحيى شاهين يتحدث مع باكثير حول عظمة فيلم «سلّامة» الذي كتب قصته، والذي مثلته أم كلثوم، وأبدى يحيى شاهين رغبته في أن يقوم الأستاذ باكثير بكتابة فيلم جديد عن «الزبير بن العوام»، فهز الأستاذ باكثير راسه دون أن يعلق، ولما انصرف يحيى شاهين قلت للأستاذ باكثير: «هل ستفعل؟» فضحك، ولم يعلق.

وفي أثناء فترة الامتياز وجهت إلي الدعوات من عدد من مدارس الدولة على مدار عامي 1960، 1961 لعقد ندوات عن روايتي اليوم الموعود والطريق الطويل، ولقد كنت سعيدًا بهذه الندوات لوجودي أمام الأجيال الجديدة التي استقبلتني بمنتهى الحب والحماسة، أذكر من هذه المدارس:

- مدرسة المتفوقين النموذجية بعين شمس.
- مدرسة المعلمات في الجيزة.
- مدرسة الأورمان الثانوية بنات.

ولقد كنت مبهورًا بأداء الطلبة والطالبات وهم يستعرضون الرواية أمامي، وقد كرمني أحد أساتذة اللغة بأن ألقى في تكريمي قصيدة عصماء جميلة، وكنت غارقًا في خجلي وأنا أستمع لهذا الإطراء، وفي كل موقف كنت أتحدث عن الرواية والدافع إلى كتابتها، وركزت على أن اهتمامي مُنصب على المواقف الحاسمة والمهمة في تاريخ حضارتنا الإسلامية والعربية، وذكرت أن فترة الحروب الصليبية، ثم الهجمة الاستعمارية في العصر الحديث، ومشروع النهضة المعاصرة، كلها من الأمور التي تشغلني في فكري وفي أدبي، في إطار الالتزام الإسلامي الذي أؤمن به.

ومن الأمور الملفتة للنظر في هذه الندوات أن الطلبة والطالبات (الطالبات بالذات) كانوا يسألونني عن رأيي في بعض الكتّاب، وفي بعض الكتب، وكانت مؤلفات المرحوم الأستاذ إحسان عبد القدوس تحظى بالنصيب الأوفر من الأسئلة، ولم يسألني أحد عن نجيب محفوظ أو باكثير أو السحار مثلًا، وكان الأمر يبدو محرجًا بالنسبة لي، إنك تستطيع أن تتحاور مع

أديب أو ناقد، وتبدي رأيك فيما تقرأ، ذلك أن الطالبات المراهقات في الواقع يردن الرأي حول قصص الحب والغرام والعاطفة، ولا يستطيعون أن يفهموا مدلولاتها البعيدة، أو رموزها الدالة، فهم لا يعرفون عن قصص إحسان عبد القدوس إلا العشق والهيام، ودموع الوله، ونوبات التمرد على العرف والتقاليد، ولا يدركون شيئًا من مراميها الاجتماعية والسياسية، وأنا لا أستطيع أن أمنع أحدًا من القراءة لأحد، أو أصدر حكمًا بحرق كتاب، ولكني كنت أقول لهم:

«إن كل فن أو أدب يرقى بعقولكم ومشاعركم وأذواقكم وأخلاقكم هو المناسب لكم، وكل ما يحرضكم على الفساد والرذيلة والانحراف فهو فن أو أدب فاسد، يجب أن تتجنبوه، وأنتم أدري بأنفسكم ولن تخدعوها».

لكن الكثير من الشباب لا يؤمن بهذه الأحكام العامة في الإجابة، وإنما يريدون إجابات صريحة محددة مباشرة، ولذلك كنت أسمع من يقول إن قصص الغرام والإثارة تفسد علينا حياتنا وأخلاقنا، وقصص إحسان عبد القدوس فيها الكثير من ذلك، فيرد عليه آخر يعترض على كلامه، وتكاد تحدث معركة..

وأذكر أن إحدى الفتيات في مدرسة المعلمات بالجيزة، قدمت إليّ بعد انتهاء المحاضرة، وواجهتني قائلة: «هناك قصص لإحسان عبد القدوس وغيره تحرضنا على الفساد، فلماذا لا تأمر الحكومة بمنعها؟».

قلت لها: «إن إحسان عبد القدوس كاتب سياسي قدير، وله مواقف سياسية جيدة، أما قصصه فالأمر متروك للقارئ وليس للحكومة، ثم إن إحسان نفسه بدأ يتغير في كتاباته، صحيح أني لا أستسيغ رواياته وقصصه الأولى، ولكني آمل أن تكون لديكم الحصانة والوعي لقراءة مختلف المؤلفات، فإذا كانت لديكم الحصانة الأخلاقية والدينية، فلن يضركم أي إغراء يتضمنه الفن والأدب».

ولم يفتني أن أشير إلى أن الروايات التي تقررها وزارة التربية والتعليم على طلبتها في مختلف المراحل، تختار بعناية ودقة، ويجري عليها التعديل أو الحذف عند الضرورة، ولهذا فإن هناك أدباء كبارًا، لم تختر وزارة التربية مؤلفاتهم لتدرسها للطلبة لخروجها على المواصفات التربوية والنفسية.

فاتني أن أشير إلى أن ندوة نجيب محفوظ قبل إغلاقها، ناقشت لي كتابين هما: «اليوم الموعود» ومجموعة قصص «موعدنا غدًا».

وأذكر أن الأستاذين محمد قطب وعباس خضر قد سجلا أحاديث إذاعية في نقدي، كما إن نادي خريجي الجامعة المصرية قد أقام حفل تكريم لي ولبعض الإخوة الأدباء، وكانت ليلة تكريم تجمعني أنا والأستاذ علي أحمد باكثير، وفي هذه الأمسية تحدث الأستاذ «محمد قطب» عن روايتي «الطريق الطويل»، وقارن بينها وبين رواية الأستاذ نجيب محفوظ الباكرة «القاهرة الجديدة»، التي كتبها قبل الثلاثين بزمن، ودهشت إذ وجدت الأستاذ محمد قطب يفضل الطريق الطويل عليها، ولم أصدق أذني، وكانت معي في هذه الأمسية الجميلة السيدة زوجتي بعد زواجنا بفترة قصيرة، كما ألقى أيضًا الأستاذ الدكتور عبد القادر القط كلمة مناسبة عن «اليوم الموعود».. وقد كان أحد المحكمين في مسابقتها، كما شارك في ندوة إذاعية (البرنامج الثاني) مع الصديق المرحوم الأستاذ الدكتور عبد المحسن طه بدر، وقد أدار الندوة الإذاعي والشاعر المعروف فاروق شوشة.

***

[8] نصف الدين

حينما التحقت بكلية الطب جامعة القاهرة، نزلت إلى المدينة الكبيرة العريقة ذات التاريخ التليد، والمآذن العالية، والحركة الموّارة في الفكر والسياسة والتجارة والتعليم، وكان لي فيها عدد من الأقرباء، وآثرت أن أنزل ضيفًا على عمي الشيخ عبد الفتاح الذي يعمل كاتبًا بوزارة الدفاع، وقد سبق وتحدثت عنه في الجزء الأول من هذا الكتاب، فأكرم وفادتي لبضعة أسابيع حتى قبلتني مدينة «فاروق الأول الجامعية» بالأورمان كمقيم فيها مقابل خمسة جنيهات شهرية للإقامة والطعام والشراب، وكانت آية في الجمال والنظافة والإدارة، وقد ضمت هذه المدينة المجاورة لجامعة القاهرة نخبة من القيادات الطلابية السياسية في تلك الفترة، ولم تكن ثورة 1952 قد قامت بعد، والمدينة تضم خليطًا كبيرًا من الطلبة الأغراب، من جميع الكليات، وقد عشت فيها أربعة أعوام كانت من أجمل سنوات العمر. وعلمت أن أحد علماء قريتنا الكبار وهو فضيلة الشيخ محمود محمد شاهين، قد انتقل من قرية «القرشية» التي كان يعمل بها إمامًا وخطيبًا إلى مسجد بالقاهرة، فاعتزمت أنا وابن أخيه الأستاذ فهمي شاهين زيارته في مسكنه الكائن بشارع قدري باشا بحي السيدة زينب، رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، وقد كان رَحِمَهُ ٱللَّهُ رجلًا سمحًا واسع الأفق، حجة في فقه الإمام الشافعي، خبيرًا بشئون الحياة، عميق النظرة، ذا رأي سياسي واضح لكنه يرفض المشاركة في الصراعات الحزبية، وكانت أ كبر أبنائه «كريمة» التي تبلغ من العمر آنذاك أحد عشر عامًا، وعلى الرغم من صغر سنها إلا أنها كانت لماحة ذكية، ذات وجه باسم، وحيوية واضحة، وعذوبة في الكلام، وجمال في الملامح، ولقد دخلت هذه البنت الصغيرة قلبي على الرغم من أنها في مرحلة الطفولة المتأخرة، وكانت تستجيب لنصائحي بسرعة، وتفهم ما أشرحه لها من دروس في محضر والدها، كما كان لها سيطرة كاملة على إخوتها وأخواتها الذين يصغرونها سنًا، فقد بلغ عدد هؤلاء الإخوة سبعة؛ أربعة أولاد وثلاث بنات هي رابعتهم، ولوحظ أنها متقدمة في دراستها كما أنها مغرمة بالأنشطة المدرسية المختلفة، فكانت أبرز طفلة في فريق التمثيل بالمدرسة، وهي التي تتولى

الإذاعة المدرسية بإشراف مدرساتها، وتجيد الكثير من المهارات الأخرى، وترافق أباها إلى المسجد كثيرًا وتقرأ له علوم الدين وأمهات الكتب وتصاحبه في الزيارات الخاصة، لأنها كانت الأكبر سنًا وفهمًا لذلك استطاعت أن تتأثر بهذا الأب الحاني، وتستفيد منه الكثير في قابل حياتها.

وأخذت الأيام تمضي عامًا بعد عام، والأحداث تترى، والصغير يكبر، ووجه الحياة يتغير، وأنا دائم الاتصال العالم الجليل، أرتوي من فيض علمه، وأبادله الحديث حول السياسة التي هي شغلنا الشاغل في تلك الفترة، وفي أمور الحياة، ولما قامت ثورة 23 يوليو عام 1952، وكنت أنا شديد الحماس لها، ولم أكن أعلم بأني سوف أكتوى بنارها، لكنه -رَحِمَهُ اللَّهُ- كان شديد القلق والتوتر، ويتوجس خيفة من المستقبل، وكنت أنا لا أرضى بمثل هذه الآراء، وأجادله بإلحاح حتى يغير رأيه، لكنه كان يبتسم لحماستي، ويدعو الله أن تكون العاقبة خيرًا، ولاحظت أنه لا يثق في أخبار الصحف والإذاعة المصرية، ويلجأ إلى سماع الإذاعات الأجنبية التي تذيع النشرات باللغة العربية ويحترمها، على الرغم من أنني كنت أخالفه الرأي، وأتهم هذه الإذاعات بالعمالة والتآمر والعمل لحساب أعدائنا المستعمرين والطامعين، وكنت أرى وجهه يحتقن غضبًا حينما يسمع جمال عبد الناصر يشتم الملوك والرؤساء العرب، ويوجه إليهم عبارات نابية، ثم يقول عنه: «والله ليخربها ويقعد على تلها».

وهي عبارة يرددها المصريون عادة عندما يرون التصرفات الخاطئة الفاسدة، فهم يعتقدون أن من يفعل ذلك، سوف يبدأ بالخسران، ويخرب الديار، ثم يجلس على التل مذمومًا مدحورًا، وكل الذين لهم صلة بالشيخ الجليل يذكرون ذلك جيدًا، ويحفظون عبارته عن ظهر قلب.

وعندما اندلعت الفتنة عام 1954 كما سبق وأشرت وعقد مؤتمر في كلية طب القصر العيني اختارني زملائي أن ألقى الكلمة الرئيسية في المؤتمر، وفي خطبتي قمت بشن هجوم شديد على الثورة وجمال عبد الناصر، ثم ساعدني زملائي في الإفلات من باب خلفي للكلية، بعد أن أجريت بعض التعديلات في ملابسي، ووضعت نظارة سوداء على عينيّ.. وقلت لنفسي أين أذهب؟ إذا ذهبت إلى مسكن عمي عبد الفتاح فقد يأتون إليّ، وبعد تفكير قررت أن أختفي لدى شيخنا الجليل الشيخ محمود شاهين، ولكني كنت محرجًا، فقد أسبب له

المشاكل، ولكني توكّلت على الله وذهبت إليه، وشرحت له الأمر، وأكدت له أن ذلك لن يستغرق سوى أيام قليلة، ورحب الرجل بي بشدة، وأوصاني أن ظل معتكفًا بالغرفة التي سأستقر فيها، وكانت الصغيرة كريمة تأتي إلي بالطعام والصحف، كما تفسح الطريق أمام بعض الإخوان المخلصين الذين أثق فيهم، مثل الأستاذ فهمي شاهين، والأستاذ محمد صفوت نجم وغيرهم، ولم يطل وقت الاختفاء، فقد أعادت الثورة الرئيس اللواء محمد نجيب إلى منصبه، وأفرجت عن الإخوان المعتقلين وغيرهم من المعارضين من رجال الفكر والصحافة والساسة القدامى، وهكذا استطعت أن أعود آمنًا إلى المدينة الجامعية، وإلى الدراسة بكلية الطب.

في عام 1955 أصبح عمر كريمة أربعة عشر عامًا، وكبر عقلها وأحلامها، وأصبحت فتاة ناضجة ملتزمة، وفي شهر أغسطس من هذا العام تم اعتقالي وتقديمي للمحاكمة، حيث حكم علي بالسجن عشر سنوات كما سبق وأشرت.

وفي عام 1958 كنت أخرج من السجن بضع ساعات للعلاج في القصر العيني تحت حراسة مشددة، وفوجئت بكريمة وأمها وشقيقها الذي يليها في العمر وابن عمتها الحاج محمد مصطفى خضر، وكان موظفًا في إدارة جماعات نشر الرياضة بالقرى يأتون لزيارتي، حينما رأوا القيود في يدي بكوا تأثرًا بينما كنت ابتسم فقد تعودت ذلك، وعندما عدت إلى السجن بعد انتهاء العلاج وجدتني بصراحة أفكر فيها، لقد كانت في السابعة عشر من عمرها، وكنت أكبرها بحوالي تسع سنوات.

وبعد أن أفرج عني ألح عليّ موضوع الزواج على الرغم من أني لم أتخرج من الكلية بعد، ومما سهل أمر التفكير في ذلك أني أصبح لي دخل يكفي أن ابني حياة زوجية معقولة، وخاصة بعد أن قررت وزارة التربية تدريس بعض كتبي على طلبة المدارس، كما إن مؤلفاتي الأخرى وكتاباتي في الصحف والمجلات كانت توفر دخلا لا بأس به، وفعلًا تزوجت قبل تخرجي ببضعة شهور، واستأجرت شقة في حي شبرا، فوق الشقة القديمة.. وواضح أن زوجتى كانت كريمة..

لا أريد أن أستطرد في التفاصيل التي قد لا تهم القارئ، وكان زواجي بعد تخرجها من المدرسة الثانوية (وقد التحقت بعد الزواج بمعهد الخدمة الاجتماعية وتخرجت منه) وأدركت

أن الله قد أنعم علي بهذه الزوجة الصالحة، التي تبر أهلها، وتحفظ زوجها، وتقرأ القرآن، وتحب الاطلاع على المؤلفات الأدبية والدينية، ومغرمة جدًا بمؤلفات الإمام الغزالي، وخاصة كتابه «إحياء علوم الدين»، ومنذ أن تزوجنا وهي تراجع مسودة مؤلفاتي من الناحية الإملائية والمطبعية بل اللغوية أيضًا، ذلك لأن والدها رحمه الله قد أحسن تدريس اللغة لها بصورة جيدة، وتعلمت الكتابة على الآلة الكاتبة خصيصًا لنسخ مؤلفاتي عليها..

وفي العام الأول من الزواج رزقنا الله بابننا البكر حسام الدين، وفي العام الثاني بابنتنا الطاهر النقية الوفية «عزة» طبيبة النساء والولادة، وفي العام الرابع جاء الابن جلال الدين صاحب الخلق القويم، والصدق والإخلاص، وهو طبيب متخصص في أمراض القلب، أما الأصغر محمود فلم يأت إلا في العام التاسع من الزواج وقد ولد في مدينة دبي، وهو حاصل على ليسانس الحقوق، وفاتني أن أذكر أن ولدنا الأول تخرج من كلية العلوم قسم الفيزياء والرياضيات هدانا وهداه الله وهدى إخوته إلى طريق الخير والفلاح. واستطاعت زوجتي فور الزواج أن تدرك بذكائها وشفافيتها مسئولياتها الكبيرة نحو البيت ونحو الأطفال الذين بدأ قدومهم منذ العام الأول للزواج، ونحوي باعتبار انشغالاتي الكثيرة كطبيب وكأديب، فاستطاعت أن توفر لي الجو المناسب دون أدنى تكاسل أو مضايقات حتى في أيام الحمل والولادة.

وفي سنة الامتياز التي كنت أقضيها في مستشفى أم المصريين بالجيزة جاء ابننا حسام الدين كما قلت، وزاد راتبي جنيهًا، كما أخذت علاوة الزوجية، وأصبح مُجْمَل راتبي من الحكومة ثمانية عشر جنيهًا ونصف، واضطررنا إلى الانتقال لحي الجيزة بالقرب من المستشفى الذي أعمل به، وودعنا شبرا وشارع كنيسة الراهبات إلى الأبد، وفي الجيزة ولدت ابنتي «عزة» وأنا الذي قمت بموضوع الولادة بنفسي حيث لم يسمح الوقت باستدعاء زميلة من الزميلات إذ جاءت الولادة سريعة وسهلة، وكانت تقف إلى جواري وتساعدني الحاجة حماتي رحمها الله، وكنت قد انتهيت من سنة الامتياز (أو التدريب)، وقد تسلمت يوم ودلاتها مبلغًا يفوق الستين جنيهًا عن راتب شهرين متأخرين لي، فقبلتها أمها وهي تقول «البنات رزقهن كثير.. مقدمها مقدم خير».

وكانت الحكومة قد أصدرت قانون تكليف الأطباء للعمل بالريف، وكان لابد أن أتخذ الوسائل للرحيل عن القاهرة، والذهاب إلى محافظة الغربية (وعاصمتها طنطا) لأبحث عن القرية التي سأعمل فيها، ومن الطبيعي أن آخذ زوجتي وابني وابنتى معي، إذ لا أستطيع العيش بدونهم، ولقد تضايقت من هذا النقل في البداية وطلبت من وزير الصحة الدكتور النبوي المهندس، رَحِمَهُ اللَّهُ، أن يكلفني بالعمل في القاهرة، ذلك لأن أعمالي الأدبية الكثيرة المتصلة بالصحف والإذاعة ووزارة التربية، ثم الإشراف على طبع الكتب لدى الناشرين، كل ذلك يجعلني في مسيس الحاجة إلى البقاء في القاهرة، لكنه رد عليّ قائلًا: «في الريف ستتفتح أمامك آفاق واسعة للكتابة.. فلتمكث هناك عامًا على الأقل».

وصدق حدس الرجل الذي كان يعمل أستاذًا لطب الأطفال في جامعة القاهرة قبل أن يصبح وزيرًا، وفي تلك الفترة كان تعاملي في النشر مع الشركة العربية للطباعة والنشر، فقد تعاون معي صاحبها حسن إيراني تعاونًا كبيرًا، ولم أكن اهتم كثيرًا بالناحية المادية، إذ كان يهمني بالدرجة الأولى ألا يتأخر نشر مؤلفاتي، فتصل في موعدها إلى القارئ، وكان حسن إيراني على دراية واسعة بأسواق التوزيع بحيث كانت كتبي تصل إلى أقصى المغارب العربي وإلى المشرق أيضًا، حتى إن بعض المكتبات الكبرى في الدولة العربية تضعها بين قوائمها مثل مكتبة «المثنّى» الشهيرة ببغداد، وأخبرني الأستاذ عبد الحليم عبد الله الروائي المعروف رَحِمَهُ اللَّهُ أنه رأى بعض مؤلفاتي في مكتبات المغرب، بينما لم ير مؤلفات عدد من كبار الكتاب المصريين هناك.

وكان عليّ أن أرحل إلى محافظة الغربية للعمل هناك، وسافرت وحدي في البداية إلى طنطا، وقصدت «المنطقة الطبية» هناك، وأشاروا علي بأن أختار بلدًا أعمل فيه، ولما ترددت قيل لي إن مقر عملك سيكون قرية «كنيشة دمشيت» القريبة من طنطا، ولكن طرأت في ذهني فكرة، لماذا لا أذهب للعمل في قريتنا شرشابة، مسقط رأسي؟ إن أهلي فيها، وأهل القرية أغلبهم أحبابي وأصدقائي وأعرفهم جيدًا، وواجب عليّ أن أقدم خدماتي لهم، ألم يغدقوا عليّ حبهم واحترامهم من قديم؟ ألم يتعاطفوا معي في أيام المحن القاسية حينما ألقي بي في السجن، وأبديت رغبتي للمسئولين بالمنطقة الطبيبة فرحبوا بالفكرة حيث إن بشرشابة وحدة مجمعة كبيرة، وتحتاج لأكثر من طبيب، وليس بها سوى طبيب واحد مثقل بالعمل، وسعدت بموافقتهم على ذلك، لكني كنت محرجًا بعض الشيء فقد انتابت علاقتي بالأسرة بعض

الفتور بسبب عدم موافقتي على مشروع الزواج من إحدى القريبات حسب رغبتهم، مما جعلهم يغضبون لحد ما لأني تزوجت من أخرى، وما إن وصلت إلى القرية حتى استقبلني أبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بحفاوة فقبلت يده شاكرًا، وكذلك فعلت أمي وباقي الأسرة، ولم يكن أمامي سوى أن أعود إلى القاهرة وأحمل أسرتي وأثاث بيتي إلى مقر العمل الجديد، ونزلت في البداية في بيت الأسرة، ثم انتقلت إلى فيلا من دورين داخل الوحدة المجمعة حتى أكون في مقر عملي، حيث إني طبيب متفرغ كل الوقت، وأستدعى لفحص الحالات في أي وقت من الليل أو النهار.

في الأيام الأولى لعملي شهدت الوحدة الصحية ما يشبه المظاهرة، فقد احتشد المئات من الرجال والنساء والأطفال طلبًا للفحص الطبي، ولمشاهدة ابن قريتهم الطبيب، الذي يعتبر أول شاب يتولى هذا العمل من بين ظهرانيهم، لكأنما شعروا أن الوحدة الطبية أصبحت بحق وحدتهم، والطبيب ابنهم، وخاصة أن زميلي بالعمل، والذي يعيش بينهم منذ سنوات كان مهتمًا أكثر بالمرضى الخصوصي (الذين يدفعون أجرًا)، ولا يجري العمليات الصغيرة الجراحية المسموح بها مجانًا إلا بعد دفع مبلغ من المال، ورأوني أفحص المرضى بدقة دون مقابل، وأذهب إلى البيوت لفحص وزيارة المرضى دون أن أتقاضى مالًا، وأصرف لهم أدوية الحكومة بالمجان، لقد رأوا الإجادة في العمل، دون أن يدفعوا شيئًا فتشبثوا بي، وعندما قسمت العمل بيني وبين زميلي، بحيث أقوم بعمل العيادة يومًا، في الوقت الذي يؤدي هو فيه عمل مفتش الصحة (عمل وقائي)، والعكس في اليوم التالي، كما قسمت عدد الأسرّة بالمستشفى مناصفة بينه وبيني، فأصبح لي سبع أسرة، وله مثلها، ولاحظت بعد ذلك أن المرضى يتكدسون في اليوم الذي أعمل فيه بالعيادة، بينما يقل عددهم كثيرًا في يومه هو، وكذلك امتلأت الأسرة السبعة الخاصة بي في القسم الداخلي، وبقيت الأسرّة الخاصة به فارغة، لدرجة أنني ابتدأت أن أضع بعض مرضاى في أسرّته، وهكذا وفد إليّ المرضى من شتى قرى المنطقة من «كفر الجزيرة» و«ميت المخلص» و«كفر حسين» و «كفر السنارية» و«كفر السحمية» و«سنباط» و«ميت ميون» و«شنراق» وغيرها. وعانيت من إرهاق شديدة لكثرة العمل، وكان عليّ أن أستمر في أداء رسالتي المهمة، ولم أكن أتصور أن تحدث لي عقبات تشغلني عن رسالتي.

وكانت الدولة قد أعلنت برنامج «اشتراكية العلاج» وأنشأت آلاف «الوحدات الصحية الريفية»، بالإضافة إلى الوحدات المجمعة، ووضعت في كل وحدة طبيبًا أو أكثر، واشتراكية العلاج تعني الرعاية الصحية الكاملة وقائيًا وعلاجيًا للناس، دون تقاضي أي أجر، اللّهم إلا دفع أربعة قروش فقط عند قطع تذكرة الفحص، ويعفى من هذا المبلغ البسيط الفقراء بعد موافقة الأخصائي الاجتماعي بالوحدة، لكن اشتراكية العلاج كما رسمتها الدولة لم يتم تنفيذها على الوجه الصحيح، لأن الأطباء العاملين في هذه الوحدات، كانوا يعتقدون أن مرتباتهم غير كافية، وأنهم يعملون في قلب الريف وسط الغبار والذباب والعزلة، وما دام الأجر كذلك فإن من حقهم أن يبحثوا عن مصدر للدخل، فما كان منهم إلا أن لجأوا إلى اختراع «بدعة» الفحص الخصوصي، ومعناه أن يدفع المريض مبلغًا من المال مقابل الفحص الدقيق، والعلاج الكافي، ومعناه أيضًا أن يدفع المريض أجرًا على العملية الجراحية التي تجرى له داخل المستشفى، وكانت العمليات المسموح بها عمليات صغيرة عددها سبع، منها عملية الفتق والبواسير والدوالي والختان والأكياس الدهنية والخراريج بالإضافة إلى الإصابات الجراحية، وهناك أيضًا الولادات الطبيعية، من هنا نرى أن الطبيب الذي لا يلتزم بقوانين اشتراكية العلاج كما كانوا يسمونها، يحصل من عمله الخارجي أضعاف أضعاف مرتبه، وكان أغلب المفتشين الطبيين في المنطقة الطبية بالعواصم يعلمون ذلك، ويغضون الطرف عن المخالفات مقابل ما يقدم لهم من مال أو هدايا لكني كنت مصرًا على تنفيذ اشتراكية العلاج بدقة، وكان هذا مصدر المتاعب التي داهمتني، إذ فوجئت ذات يوم بقرار نقلي من القرية بعد حوالي شهرين، فأصبت بالذهول، وكان زميلي يبتسم في سخرية، ربما ظن أني ساذج ولا أدرك أبعاد السياسة التي أنتهجها ونتيجتها، وفهمت بسرعة السبب وراء هذا النقل المفاجئ، بل فهمه أهل القرية، والعاملون بالوحدة المجمعة، لقد كان واضحًا أن المدد قد انقطع عن الكبار في الإدارة بالمنطقة الطبية، وكان سبب ذلك أنني قضيت على الفحوصات الخاصة والمبالغ التي تدفع فيها، وكذلك أوقفت دفع أجر العمليات الجراحية، ومنعت أيضًا تسرب وبيع أدوية الحكومة، وخاصة حقن البنسلين والاستربتوميسين والفيتامينات وغيرها. وكان نتيجة لذلك أن توقفت الهدايا والأموال والمجاملات التي يقدمها زميلي للرؤساء في طنطا..

وما إن علم أهل القرية بما جرى حتى ثاروا ثورة عارمة، وكتبوا البرقيات والعرائض الاستنكارية للمسئولين في المحافظة وفي الوزارة، وساد الهرج والمرج، وخرج وفد كبير من

أهالي القرية، وعلى رأسهم قادة فرع حزب الحكومة في القرية (ويلاحظ أنني كنت معزولًا سياسيًا، ليس لي الحق في الاشتراك بأي نشاط حزبي، حكومي أو غير حكومي)، وذهب الوفد إلى مقابلة المحافظ المرحوم المستشار عمر زعفان وكان خال وصهر عباس رضوان وزير الحكم المحلي، وأحد ضباط الثورة السابقين، وكان للموضوع صدى كبير على مستوى المحافظة، فماذا يفعل رؤسائي في الإدارة الطبية بطنطا؟ لقد لجأوا إلى حيلة خسيسة انطلت على السيد المحافظ في البداية إذ قالوا له: «إن نجيب الكيلاني، مشاغب قديم، ومن جماعة الإخوان المسلمين العدو اللدود للثورة، وأن ماضيه حافل بالمظاهرات والتمرد، وقد حكم عليه بالسجن عشر سنوات، وأنه يريد أن يستأنف من جديد حياة التمرد والعصيان، ونحن لم ننقله إلا للمصلحة العامة، فكيف يكون هناك طبيبان في وحدة، بينما نغلق وحدة صحية أخرى ليس فيها طبيب». واستدعاني المحافظ فعلًا وذهبت إليه على عجل..

كنت أجلس في غرفة الانتظار، وإذ بالسيد المحافظ يخرج من مكتبه، ويسدد إليّ نظرات غاضبة ويقول: «أأنت الدكتور نجيب الكيلاني؟».

- «نعم».

- «ماذا تريد؟ ألا تكف عن الشغب والفوضى؟ لماذا لا تنفذ الأوامر؟».

ابتسمت في هدوء، وكان يقف إلى جواري، الدكتور الصديق محمود جامع من أشهر رجالات طنطا، ومدير التأمين الصحي فيها، والصديق الحميم للمرحوم أنور السادات فيما بعد، وقلت للسيد المحافظ بمنتهى الثقة والقوة: «أنت يا سيدي المحافظ مستشار قبل أن تكون محافظًا، وقد أصدرت حكمًا في قضية دون أن تسمع كلام الطرف الآخر». وفوجئ الرجل بردي، وفكر فيه، وخفض رأسه، ثم تخلى عن نبرته الغاضبة وقال بصوت خفيض: «ولماذا لم تخبرني بالحقيقة من قبل؟».

- «أرسلت إليك ياسيادة المحافظ برقية كلفتني خمسة وسبعين قرشًا».

- «لم أرها..».

- «أسأل مدير مكتبك».

التفت إلى مدير مكتبه وسأله عن البرقية فقال: «نعم وصلت».

- «ولماذا لم تعرضها عليّ».

- «سيادتك كنت مشغول».

التفت إلي المحافظ وقال: «أنا ذاهب في مهمة عاجلة إلى «المحلة الكبرى». وهي مدينة صناعية كبيرة مجاورة. واستطرد المحافظ قائلًا: «عليك أن تنفذ أوامر رئاستك أولًا».

ولم يترك لي فرصة للرد أو التعليق، ومضى في طريقه صوب الدرج، الواقع أنني شعرت بإحباط بالغ، فماذا أفعل، وسرت في الطريق أتوكأ على عصاي إلى جوار صديقي الدكتور محمود جامع، وقلت له: «لن أتراجع أو أهادن».

- «ماذا ستفعل؟».

- «انظر.. إن ركبتي اليمنى متورمة، ولا أستطيع المشي إلا بصعوبة بالغة، وسأذهب إلى اللجنة الطبية، لكي أحصل على إجازة مرضية، وبعدها يفرجها الله..».

أخذت إجازة مرضية لمدة أسبوعين، وعدت إلى القرية معتزمًا العودة إلى القاهرة مع أسرتي لنقضي هناك هذه الفترة، وقبل أن أركب القطار إلى القاهرة جلست في «القهوة العثمانية» بطنطا، وسطرت خطابًا مهمًا لسيادة محافظ الغربية، وكان خطابًا واضحًا صريحًا قوي اللهجة، وليكن ما يكون.. جاء في هذا الخطاب «إنكم يا سيادة المحافظ تديرون الأمور من خلف مكاتبكم، وكان حريًا بكم أن تخرجوا إلى الشوارع، وتذهبوا إلى القرى، وتلبسوا الملابس الزرقاء، وتعيشوا بين الفلاحين لتعرفوا الحقيقة على وجهها الصحيح.. سوف تكتشفون المآسي والمهازل، سترون أن عيادات ومستشفيات اشتراكية العلاج.. تباع فيها الخدمات والأدوية.. وأصبحت مؤسسات الحكومة عيادات خاصة.. وضاعت شعارات الاشتراكية التي تنادون بها، وإذا حاول إنسان مخلص أن يلفت نظركم إلى الحقيقة اعتبرتموه متمردًا ورجعيًّا وعدوًّا للحكومة والشعب.. لقد أبرأت ذمتي، وأديت واجبي، وأنا على استعداد تام لأقدم استقالتي لسيادتكم، ثم أعود لقريتي لأزرع الأرض مع أهلي الفلاحين، ولن أتقاضى أجرًا ما حييت من أي مريض، حتى لو استقلت وفتحت عيادة خاصة»، وفي الرسالة أشرت إلى أن الحقيقة قد تختفي وراء غبار الظنون والشبهات وزيف الأقاويل.

ولم أرسل هذه الرسالة تلك المرة إلى مكتب المحافظ بالمحافظة، وإنما أرسلتها على عنوان بيته في طنطا، وشعرت بالارتياح بعد أن سجلتها بالبريد، وأخيرًا أخذت الزوجة والأولاد، ونزلت القاهرة في منزل صهري الشيخ محمود محمد شاهين بحي السيدة عائشة، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا،

وتفرغت في البداية للإشراف على طباعة كتبي الجديدة وبدأت كتابة قصة جديدة عن تجربتي تلك في الوحدة الصحية، وسميتها «الذين يحترقون».

التقيت في القاهرة بصديقي الأديب الناقد الصحفي رجاء النقاش، ورويت له قصتي في الريف، فتحمس لها بشدة، وبادر على الفور بكتابة مقال في جريدة الأخبار القاهرية في الصفحة الأخيرة تحت عنوان: (قصة واقعية مهداة لمحافظة الغربية.. من المسئول عن حماية هؤلاء الأدباء؟).

وأحدث المقال دويًّا واسعًا، وخاصة في المنطقة الطبية، ومحافظة الغربية، ووزارة الصحة، وأرسل المحافظ أمرًا عاجلًا باستدعائي من قرية شرشابة، فأخبروه أنني تركتها وسافرت إلى القاهرة، ثم التفت إلى من حوله وسألهم: أليس فيكم من يستطيع أن يحضر لي نجيب الكيلاني في أقصر وقت ممكن؟» وكان إلى جواره الأستاذ الصديق إبراهيم الغندور، وعلى الرغم من أنه من رجال التربية والتعليم، وموجه اللغة الإنجليزية، إلا أنه كان منتدبًا للمحافظة للقيام بعمل مدير العلاقات العامة، فأخبر المحافظ بأنه يعرفني وأنه سوف ينفذ ما طلبه سيادته على الفور، وانتهز الفرصة، وتحدث مع المحافظ حديثًا وديًّا، وأشار فيه إلى أني رجل مشهود له، وأن مؤلفاتي مقررة على طلبة المدارس، وأن.. وأن.. وقدم إلي في القاهرة الصديق «سعيد سلطان» وهو يعمل مراقب صحة بالوحدة المجمعة، ومعه رسالة من الأستاذ إبراهيم الغندور لكي أعود لمقابلة المحافظ، ووعدني بأني سوف أنال حقي كاملًا، ولن أتعرض لأية إساءات أو منغصات بعد ذلك.. وتركت القاهرة وحدي، وعدت إلى طنطا.

جلست في انتظار الإذن بالدخول للسيد المحافظ، وكان للانتظار سبب، فقد استدعى سيادته مدير المنطقة الطبية، وكذلك المفتش الطبي المختص بي، والذي سبب لي المتاعب، والذي يعتبر السند والصديق لزميلي الطبيب بالوحدة.

ودخلت على السيد المحافظ، وعندما رآني هب واقفًا واستقبلني بحفاوة لم أكن أتوقعها، ووجهه يشرق بالسعادة وعلى ثغره ابتسامة عريضة، وعلى الناحية اليمنى يجلس المدير العام والمفتش الطبي، وفي الناحية الأخرى يجلس رجل عرفت فيما بعد أنه ضابط في المباحث العامة (أمن الدولة)، وصافحني بحرارة، وطلب مني الجلوس وبدأنا..

سأل المحافظ المدير العام: «ما هي مآخذكم على نجيب الكيلاني؟».

- «يوزع الكثير من الأدوية...».

- «لمن يوزعها...».

- «للمرضى».

قال المحافظ: «إذن لا يأخذها لنفسه».

- «لم نقل ذلك...».

وهنا تدخلت قائلًا: «اسمح لي يا سيادة المحافظ.. إن بعض الأطباء يبيعون الأدوية، ويضعون ثمنها في جيوبهم، والسيد المفتش الطبي الدكتور (س.. يعرف ذلك).

بدا الغضب على وجه المفتش الطبي وقال: «لا تقل مثل هذا الاتهام أنا لا أعرف شيئًا».

- «لديك شكاوى بذلك يا دكتور (س..) ولم تحقق فيها..».

اشتد الغضب بالمفتش، وانفجر قائلًا: «نجيب الكيلاني سجين سابق.. وقد حكم عليه من قبل بالسجن عشر سنوات» هممت بالرد، لكن المحافظ أشار إلي بيده أن أصمت، وانبرى سيادته قائلًا: «يا دكتور (س..) إن ما قلته الآن يدل على أنك متحيز ضد الدكتور نجيب الكيلاني.. والذي تتحدث عنه كان قضية «رأي سياسي»، وهي لا تشين نجيب.. إنني لا أسألك عن فكره السياسي، ولكني أسألك عنه كطبيب».

خجل المفتش وتدارك الموقف وقال: «إنه كطبيب ممتاز في عمله».

- «عظيم.. وهل يأخذ من الفلاحين أجرًا على الفحص الخصوصي».

- «لا...».

- «هل يبيع الدواء الحكومي للفلاحين؟».

- «لا..».

- «إذن ماذا تريدون منه».

- «إن هناك وحدة طبية بدون طبيب، ولذلك احتجنا إليه ليعمل بها».

قال المحافظ: «ولماذا لا تنقلوا الطبيب الآخر».

- «إنه الأقدم يا سيادة المحافظ».

- «لكني علمت أنه قُدم للمحاكمة في محكمة أمن الدولة، وصدر ضده حكم بعزله من رئاسة مجلس القرية، وقطع أجر شهرين من مرتبه، ووقف ترقيته..».

- «أمرك يا سيادة المحافظ..».

- «ليبق الدكتور نجيب في بلده، ولا يتعرض له أحد من عندكم.. وإلا فسوف أنقله عندى في المحافظة لكي يكون إلى جواري ليساعدني برأيه وخبرته» وانصرف المدير العام والمتفش وهما يتصببان عرقًا، وانتصر الحق أخيرًا، واستبقاني المحافظ بعد أن ذهبا، وعرض عليّ العمل معه، واعترف لي بأنه يعاني من قلة الرجال المخلصين في محافظته، وأنه لم يعد يثق إلا في ثلاثة. أنا أحدهم. وألح علي في ذلك، قلت له: «أشكرك يا سيادة المحافظ على ثقتك الغالية، لكني عاهدت الله أن أبقى متمسكًا بمهنتي الطبية حتى النهاية، وليست لي طموحات في مناصب سياسية أو إدارية حاليًا، إنني أشعر بالسعادة القصوى مع مرضاي، والطب -كما يقولون- مهنة إنسانية بالفعل، يثيب الله عليها خير الجزاء..». وصمت السيد المحافظ برهة وقال: «لماذا لا ترشح نفسك في الانتخابات النيابية القادمة، وتدخل المجلس، أنا واثق أنك ستنجح بإذن الله».

قلت له: «معذرة يا سيادة المحافظ.. فأنا كما تعلم «معزول سياسي» ولا يحق لي الدخول في الانتخابات العامة، بسبب الحكم الذي صدر ضدي من محكمة الشعب عام 1955».

قال في ثقة وحماسة: «سأكلم لك أبن أختي السيد عباس رضوان وزير الحكم المحلي، إنه يستطيع أن يرفع عنك العزل السياسي».

وصدقت.. وفي الانتخابات التالية قدمت طلبًا للترشيح.. وعلى باب المحافظة نزلت قائمة بأسماء الممنوعين من دخول الانتخابات.. وكان اسمي هو الوحيد في هذه القائمة..

ذهبت إلى القاهرة، وأحضرت أسرتي مرة أخرى، وعدنا إلى قريتنا الحبيبة مرة أخرى.. وتلقانا الأهالي في موكب متواضع من الترحيب والفرح والزغاريد.. لقد تحقق نصر لا بأس به في هذه المواجهة.. والانتصارات الصغيرة تصنع في النهاية النصر الكبير..

وتفرغت لكتابة رواية «الذي يحترقون»، ألجأ إليها فقط في المساء، وأسجل بعض الصفحات.. وقد تضمنت هذه الرواية الكثير مما جرى لي في هذه التجربة، فكأنها جزء من السيرة الذاتية..

****

[9] الحريق الكبير

كانت «الوحدة المجمعة» مكونة من القسم الطبي وبه أطباء وممرضون وممرضات وفنيون وكتبة وحراس وتومرجية وفراشون، وبالوحدة المجمعة أيضًا قسم الخدمة الاجتماعية ومسئولياته معروفة، كما أن فيها قسم للإرشاد الزراعي والحيواني محدود النشاط للغاية، وهناك أيضًا القسم التعليمي حيث الناظر والمدرسون والطلبة والطالبات، وبالإضافة إلى ذلك مجلس القرية المنتخب، والذي يرأسه الطبيب أحيانًا، أو عمدة القرية الحاج إبراهيم الشافعي أحيانًا أخرى، وقد رأسه ذات مرة بالتعيين الأخصائي الاجتماعي، وكان رؤساء هذه الأقسام كلها يسكنون في مساكن داخل الوحدة، الأطباء والناظر والأخصائي الاجتماعي الذي يشرف على النشاط الزراعي والاجتماعي معًا، والمعروف أن مجلس القرية هو الممثل للفلاحين، وممثل الحزب الذي يحكم دون منافس. وكانت أغلب مساكن شرشابة من الطوب اللبن في تلك الفترة، وليس في القرية محطات للكهرباء أو ضخ الماء آنذاك، والشوارع متربة، وأسطح المنازل تتكدس فوقها أحطاب الذرة الجافة وأعواد القطن، ومخازن الحبوب والطعام، ومعروف أن هذه الأحطاب الجافة تستخدم في الأفران لخبز الأرغفة، كما تستخدم في طهي الطعام، وقلة من الناس يستخدمون مواقد الجاز للطهي، لكن الجميع يخبزون في الأفران البلدي.

كان يوم الخامس والعشرين من يناير عام 1963 يومًا عاصفًا باردًا، وكان الناس يرتجفون من شدة البرد، وحدث أن انطلقت شرارات من فرن مشتعل في وسط القرية فأمسكت بالحطب، وسرعان ما ارتفعت ألسنة اللهب، واتسع نطاق الحريق فوق أسطح المنازل المتلاصقة الواطئة، وأصاب الذعر الناس، وأخذت النسوة في الصياح والاستغاثة، وهرولوا لإنقاذ أطفالهم وبهائمهم، وكان انشغالهم بذلك مدعاة لامتداد الحريق بسرعة كبيرة لشدة العواصف، ولوحظ أن بعض الحمائم تطير مشتعلة ثم تحط على أحد الأسطح فتشتعل النيران فيه، ولم يكن في القرية أجهزة لإطفاء الحريق على الرغم من أنها قرية كبيرة، وعندما وصل

رجال الإطفاء، وجدوا أن مياه الترع قليلة بسبب الجفاف أو السدة الشتوية في هذا الوقت من كل عام، ومع أن نقص الماء كان مشكلة كبرى، إلا أنه ظهرت مشكلة من نوع آخر غريب، وهو أن الفلاحين هجموا على خراطيم المياه، وكل واحد منهم يريد أ ن يطفئ بيته أولًا، وهكذا نشبت المعارك بين الفلاحين وبعضهم البعض، وبين الفلاحين ورجال الإطفاء من جانب آخر، وأصيب عدد من الناس من جراء ذلك الصدام، لكن عددًا من الفلاحين تعاونوا في نقل المياه من الطلمبات التي تخرج المياه الجوفية، ومن الترع في الأواني المنزلية والجرادل والصفائح المعدنية، وحققوا في ذلك قدرًا من النجاح، وحاول البعض إطفاء الحريق باستخدام العصى الطويلة والغليظة وعروق الخشب الضخمة وأفرع الأشجار، ونثر التراب هنا وهناك، كانت الجموع تخوض معركة ضارية ضد سطوة النار التي لا ترحم، وبقي الصراع ساعات طويلة مؤلمة، والأطفال يصرخون ويبكون، وكذلك النساء، حتى الكلاب أخذت تنبح، واختلطت أصوات الحيوانات الأخرى، واسودت الأيدي والوجوه من أثر الهباب والدخان، وأصبح جو القرية خانقًا لا يكاد يطاق، وقد نجد امرأة هائمة على وجهها في الشارع تجري وتنادي ابنتها الضائعة، أو ولدها المفقود، تاركة الحريق والناس، فليس في رأسها إلا فلذة كبدها، وليحترق العالم كله، ومات في الحريق أربعة من الرجال والنساء، ونفقت بهائم وحمير وأغنام وماعز، ودمر الكثير من أثاث المنازل، كما احترقت الأسقف، وهي في الغالب من الخشب المغطى بالطين، ودمرت منازل، وأتت النار على جزء كبير من المحاصيل التي يخزنها الفلاحون فوق الأسطح أو في مخازن طينية، والمعروف أن كيزان الذرة تترك مكشوفة فوق البيوت.. وكانت إحدى النائحات تقول «موت وخراب ديار.. الطف يا رب»، وفي أحد الأماكن تجمع عدد كبير من المسنين، وقفوا يضرعون إلى الله بصوت عالٍ، والدموع تتساقط من أعينهم، وبعضهم يردد «إن ما جرى ما هو إلا نتيجة لعصياننا وغضب الله علينا، ولا نجاة إلا باللجوء إلى الله»، وكان العمدة والخفراء يجرون هنا وهناك ويطلقون الصفافير، ويصدرون التوجيهات أعني الأوامر، وليس هناك سامع أو مجيب وسط الضجيج والدخان والغبار، وتقول عجوز تزحف على يديها وركبتيها «إذا كانت هذه هي نار الدنيا، فكيف تكون نار الآخرة؟ اللّهم رحمتك بعبيدك المساكين...».

ومضت الساعات قاسية رهيبة، لم يكن هناك من يستطيع التوقف للتفكير، إذ لا مجال سوى العمل، ومكافحة الحريق بكل شيء حتى بالطوب، وبكل ما تصل إليه اليد، إذ لا

يستطيع أحد أن يقف متفرجًا، كان الصديق الترزي «منصور السروجي» يكاد يجن وهو يرى الحريق يلتهم منزله، وحاول مرارًا أن ينقذ ماكينة الخياطة التي يرتزق منها فلم يستطع أن يقتحم النار، فجرى صوب أحد رجال الإطفاء وأخذ ينتزع منه الخرطوم عنوة، وتشبث الشرطي بخرطومه، فجذبه منصور جذبة عنيفة فأفلت من يد الشرطي، لكنه اصطدم بعين منصور اليسرى، فرمى بالخرطوم وهو يستنجد بأخيه: «عين أخيك طارت يا ولد يا كامل.. الحقني». وقدم كامل حاملًا فأسه، يريد أن يهوي بها على رأس رجل الإطفاء، لكن منصور كان قد أفاق، فاعترض طريق أخيه، وأمسك به وهو يقول: «لم يكن يقصد إيذائي يا كامل.. له الشكر على كل حال، لقد جاء لنجدتنا».

ووقف منصور يتحسس عينه المتورمة الزرقاء، ونسي أو كاد ماكينة الخياطة التي تحاصرها النيران. وهدأت العاصفة، وأخذ الحريق يخمد رويدًا رويدًا، وساد الصمت وجلس الفلاحون والفلاحات على الأطلال يبكون، ويرمقون الدخان المجتمع في السماء بعيون دامعة حزينة، ومن الصدف العجيبة أن الآفات الزراعية كانت قد فتكت بالكثير من المزروعات هذا العام والعام الذي سبقه، والناس يعانون الفقر وضيق الحال، ويعزون تلف المحاصيل إلى المبيدات الحشرية المغشوشة، والتي لا تؤثر في ديدان القطن أو الذرة، لدرجة أن أحد الفلاحين وضع دودة قطن وغيرها في مسحوق المبيد، وكم كانت دهشته عندما شاهد الدودة تتقلب في المبيد دون أن يصيبها أدنى أذى، وهكذا اجتمع خراب المحصول مع دمار الحريق، فيما يشبه المؤامرة للإطاحة بأمن الفلاح، وتضييع رزقه، والقضاء على آماله في الرخاء..

وقضى أهل القرية أسوأ ليلة عرفوها في حياتهم، وتوافد إلى الوحدة المجمعة عدد من الناس، هتفت بزوجتي وكانت في الطابق الثاني: «انزلي وقدمي كل ما لديك من طعام للناس، وخاصة الأطفال».

ومن فضل الله أن الحريق لم يصل إلى الوحدة المجمعة القائمة في المنطقة الغربية، والتي يفصلها عن القرية ترعة، لكن بيتنا، بيت الوالد، في الناحية الشرقية من البلد تعرض لدمار الحريق، ذلك لأن مد الحريق كان يتجة جهة الشرق كالمارد الجبار الذي لا يقدر على مواجهته

أحد، وحاولت زوجتي بأقصى ما تستطيع أن تقدم كل ما لدينا من مخزون لمن قدموا إلى البيت، وآوت الأطفال الصغار في الدور الأرضي كي يستطيعوا النوم ويكفوا عن البكاء..

في اليوم التالي قدم سيادة المحافظ ترافقه وزيرة الشئون الاجتماعية وقتذاك الدكتور حكمت أبو زيد، وبالطبع كنت ضمن مستقبليهم، ومضى ركب الضيوف في الحقيقة يجوب شوارع القرية، وينظر بألم إلى الدمار الذي لحق بها، ولاحظت أن المحافظ يتودّد إليّ بكلمات طيبة، وخاصة بعد أن علم من الناس ما بذلته من جهد، وطلبت إرسال المعونات الغذائية وخيام الإيواء والأغطية على الفور، فأكد لي أن تلك هي مهمته العاجلة والسريعة، وكانت المعونة الغذائية التي أتت في نفس اليوم منصبة على الخبز وحده، فهو أهم شيء، والناس جائعون، والبرد شديد، ونصبت الخيام، ووقفت في ساحة تتوسطها، وأخذت أوزع أرغفة الخبز، كان الفلاحون يتزاحمون بصورة جنونية «فالجوع كافر» كما يقول أهل القرية، وكانوا يتصادمون ويتضاربون وكأنهم نسوا تمامًا الوداعة والألفة التي تربط بينهم من قديم، وكان الأمر يصل في بعض الأوقات للتشابك بالأيدي، لكني أبادر بفض الاشتباك بإعطاء الطرفين عددًا من الأرغفة التي تكفي، فأنا أعرفهم واحدًا واحدًا، كما أعرف حجم كل أسرة، ومعي نخبة من الزملاء يساعدونني في ذلك، كنت ألبس «روبًا سميكًا، فوق المنامة (البيجاما)»، وأضع على رأسي طاقية من الصوف، لكن الغبار الناجم عن الزحام كان كثيفًا جدًّا حتى كدت أختنق، وخف الزحام إلى حد كبير، واستطعنا إرضاء معظم الناس، وقد أتى إلى الوحدة لتسلم الخبز الأغنياء والفقراء على السواء، وقد انتهز بعض العاملين بالوحدة الفرصة ليستولوا على كمية كبيرة من الخبز، فاعترضت ونهرتهم، وطلبت من والدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ ألا يحضر إليّ أحد من عائلتنا الكثيرة العدد. ورجوته أن ينظم المعونة لهم داخليًّا، فأكبر في ذلك ووعدني بالتنفيذ، ومع ذلك فقد أتى عدد من فقراء العائلة، فلم أشأ أن أردهم خائبين، بل أعطيتهم مثلما أعطيت الآخرين، وفي مساء هذا اليوم (ثاني أيام الحريق السادس والعشرين من يناير 1963) قدم نائب الدائرة المنتخب الأستاذ صلاح سعدة أحد أفراد تنظيم الضباط الأحرار الذين قاموا بالثورة، وجلس معنا في المخيم، وليساهم بجهوده في عبور هذه الكارثة، وكان الأستاذ صلاح رجلًا مخلصًا مهذبًا رقيقًا، ويمت لبعض أسر قريتنا بصلة قرابة. وقد أبعده جمال عبد الناصر عن الصفوف الأولى في الثورة لخلافه في الرأي معهم، وعينه رئيسًا لمجلس إدارة إحدى شركات القطاع العام، وهو من الشخصيات المحبوبة في

البلد، ومما ذكره أهل قريتنا أنه أثناء المعركة الانتخابية، طلب منه أهل القرية -كشرط لانتخابه طلبًا واحدًا، وهو إخراجي من السجن، فأكد لهم أنه لن يكف عن بذل المحاولات للإفراج عني، وأقسم لهم على ذلك، وشرح لهم أن هذا يحتاج إلى قرار من مستوى عالٍ، وهو واثق أن الله سوف يحقق أمل الإفراج عني. وشيعت قريتنا شهداء الحريق، وكان منهم شاب اسمه رشدي صالح، واستقبلت وزيرة الشئون الاجتماعية زوجته المتشحة بالسواد وكانت المقابلة مشحونة بالعواطف المؤلمة، وقدمت لها المعونة العاجلة، وفي الأيام التالية أخذنا نطوف بالمنازل لحصر الخسائر، حتى تستطيع الحكومة تحديد التعويضات المستحقة على وجه التقريب، وبعد فترة ليست بالقصيرة، جاءت التعويضات.. لكنها للأسف كانت مخيبة للآمال، وكان على الفلاحين أن يرضوا.. وأن يصبروا مثلما صبروا من آلاف السنين..

****

[10] الحياة الصعبة في القرية

بطبيعة الحال، فإن الحياة في قريتنا كانت صعبة، والمشاكل فيها لا تنتهي، ليس بسبب صعوبة العمل وكثرته، ولكن بسبب الأوضاع المتردية أيضًا، وكانت هناك مخلفات كثيرة من جراء الممارسات الخاطئة لمن سبقوني في العمل، ومع ذلك حاولت جاهدًا أن أرتب الأوضاع، وأزيل الحزازات القديمة على قدر ما أستطيع، فمثلًا كانت هناك معونات أمريكية تسلم لطبيب الوحدة من دقيق وسمن وغير ذلك، ولم أكن أعلم عنها شيئًا أو أهتم بها إلى أن جاءت فرقة للتحقيق مع زميلي، بعد أن قدمت شكوى من الفقراء يتهمونه بأنه يبيع المعونات لحسابه الخاص، ولا يعطيهم شيئًا، وكم كانت دهشة المحقق عندما وجد أن هؤلاء لم يأخذوا المعونة على الرغم من توقيعهم باستلامها، وبإجرائي لبعض التحريات تبين لي صدق هؤلاء المساكين، وكان البعض منهم يمتون لي بصلة قربي، وأصر الفقراء على أقوالهم، وأصر الطبيب ومن معه على الإنكار، ومع أن صحيفة التحقيق لم تُغْلَق تمامًا إلا أن اللجنة قررت تسليمي العهدة، على الرغم من عزوفي الشديد عن ذلك، ووضعت المخزن تحت مسئولية أحد الموظفين، وبدأت التوزيع بنفسي بالعدل، وكم كانت دهشتي عندما جاء والدي إليّ ذات يوم وقال وهو يلوح بيده في غضب: «أنت نائم.. ولا تدري شيئًا عما يجري وراء ظهرك».

- «خيرًا يا أبي..».
- «باع أمس رجالك عددًا من أجولة الدقيق، وأنت لا تدري».
- «هل هذا معقول..».
- «أستطيع أن أصحبك بنفسي للتاجر الذي اشترى منهم».

واستبد بي الضيق، واحترت ماذا أفعل، وأسرعت بجرد المخزن، ولكن اللصوص للأسف لم يتركوا ثغرة، فطلبت منهم المفاتيح، وقمت بنفسي بتوزيع المعونة الأمريكية حتى لم يبق منها شيء، وقررت ألا أترك المعونة في المخزن مستقبلًا إذا جاءت إلا لفترة قصيرة يتم توزيعها فيها، وأسفت أشد الأسف لأني وضعت ثقتي فيمن لا يستحقونها، وتعلمت درسًا

لا أنساه.. وجاءني أحد الفلاحين واسمه عبد الحليم أبو باشا وأخبرني أنه معرض للسجن بسبب زميلي الطبيب، ولما سألته عن السبب قال: إن أحد المرضى واسمه أبو الفتوح شعبان جاء يشكو من الحمى، فأعطاه الطبيب حقنة مات على أثرها، ثم كتب تقريرًا ذكر فيه أن الوفاة نتيجة عن نوبة قلبية مفاجئة، ودفنت الجثة، وبادر عبد الحليم بتقديم شكوى ضد الطبيب متهمًا إياه بالتسبب في وفاة أبو الفتوح، واستطاع الطبيب أن يفلت، ولم يكتف بذلك بل رفع دعوى ضد عبد الحليم أبو باشا بتهمة البلاغ الكاذب وإزعاج السلطات، ومطالبًا برد شرف، وضاق الخناق على عبد الحليم الفقير المسكين، وأخذ يعتذر للطبيب دون جدوى، فما كان منه إلا أن وكّل أحد المحامين للدفاع عنه، واقترض أجر المحامي، وأقسم أنه باع قطعًا من أثاث بيته، وكان قد فعل نفس الشيء قبل ذلك ليدفع للطبيب تكليف عملية البواسير التي يفترض أن تكون بالمجان واستدعيت الممرضة المختصة، بعد أن مضى عبد الحليم، وسألتها عن واقعة وفاة أبو الفتوح شعبان، بعد أفهمتها هذه شهادة تسأل عنها أمام الله، قلت: «أي حقنة أعطيت لأبو الفتوح».

– «بنسلين..».

– «وهل مات على الفور؟».

– «نعم..».

– «ومن الذي أمرك بإعطائه الحقنة؟».

– «الدكتور».

– «ألم يجر الطبيب اختبار حساسية للبنسلين قبل إعطائه؟».

– «كلا.. نحن لا نعمل اختبار حساسية».

– «وهل سجلتم ذلك في دفتر استقبال المرضى؟».

– «لا..».

– «لماذا؟».

– «لأن الدكتور طلب مني ألا أسجل اسمه، ولا الدواء الذي أخذه».

–«شكرًا..».

- «ليس لي ذنب، وأنا لا أستطيع مخالفة زميلك.. كان يمكن أن يضرني..».

عندما جاءني المتهم عبد الحليم أبو باشا بعد يومين، أخبرني أن القضية أوشكت، وأنه خائف أن يحكم عليه وهو مظلوم، فأخرجت ورقة، وكتبت مذكرة أشرت فيها إلى أن البلاغ الذي قدمه عبد الحليم أبو باشا ليس كاذبًا، واستدللت على ذلك بعدم تسجيل اسم المريض أبو الفتوح في دفتر الاستقبال، وكذلك عدم كتابة نوع الحقنة التي أخذها، وقد ثبت أنه مات بالمستشفى بشهادة جميع أهل القرية، لكن جرت محاولة متعمدة لطمس معالم القضية، وما إن قرأ المحامي المذكرة حتى فرح بها جدًا، وعندما نودي على القضية قدم المذكرة للقاضي، وكان أن حكم ببراءة المتهم عبد الحليم أبو باشا الذي صاح بأعلى صوته قائلًا: «يحيا العدل.. أنا وراك يا ظالم والزمن طويل» يقصد الدكتور، وتولت لجان التحقيق من المنطقة الطبية التحقيق في القضايا والشكاوى المتراكمة ضد زميلي، وكان شيئًا مربكًا للغاية بالنسبة له. وجاءني ذات ليلة منهكًا حزينًا، وقال: «أعتذر إليك، أنا تسببت لك في كثير من المشاكل، ولكن الله نصرك.. وأريدك في هذا الأيام أن تقف إلى جواري وتنقذني.. لقد أخطأت ودفعت ثمن خطئي، فمجلس الدولة أدانني، وأصدر ضدي جزاءً، وأوقف ترقيتي.. وأنا عندي طفلة أربيها.. أرجو ألا تتخلى عني». وكان المحقق قد قدم لإجراء تحقيق حول تقاضي الطبيب مبلغًا من المال نظير عملية جراحية بالمستشفى الحكومي بالوحدة، وكان المحقق يعرفني من قبل، وأذكر أن اسمه محمد وهدان، فرجوته أن يصفح عن الدكتور الزميل، فأخبرني أنه لا يستطيع إلا إذا تنازل الشاكي عن بلاغه، وأحضرت الشاكي وقلت له: «يا حاج يوسف..».

- «نعم يا دكتور».

- «هل سلمت الدكتور المبلغ بيدك؟».

- لا، بل عن طريق التومرجي».

- «وإذا أنكر التومرجي».

- «يبقى كذّاب في «أصل وشه»..».

- «ما أريده منك هو أن تقول الحقيقة يا حاج يوسف».

- «البلد كلها تدفع للدكتور قبل أن تحضر أنت».

- «نحن إزاء واقعة محددة يا حاج يوسف.. قل للمحقق أنك لم تسلم له المبلغ شخصيًا».

وهكذا استطاع المحقق أن ينقذ صاحبنا من هذه القضية، والحقيقة أن الزميل الطبيب لم يرتكب مخالفات أخرى بعد ذلك، وطلب مني أن أبلغ المنطقة الطبية بأني موافق أن يبقى معي في الوحدة بدلًا من نقله إلى مكان آخر، حفاظًا على استقراره الأسرى، فوافقت على الفور، وأخطرت المنطقة بذلك، وبعدها ساد الوحدة المجمعة جو من الهدوء والصفاء، ولقد كانت هناك خلافات بين زميلي وغيره من الموظفين وخاصة الأخصائي الاجتماعي وناظر المدرسة وبعض أعيان البلد، وقد استطعت بعون الله أن أعقد الصلح بين جميع الجهات المتناحرة لكي تستقر الأوضاع، ونستطيع أن نقدم الخدمات الكافية لأخوتنا من الفلاحين. وذات يوم تقدمت مريضة كبيرة السن مرقعة الثياب، ونظرت إلى بطاقتها فوجدت مكتوبًا عليها «بالمجان»، ولست أدري لماذا سألتها: «هل دفعت الرسوم».

- «نعم يا بني..».

- «كيف؟ مكتوب على البطاقة أنها بالمجان».

- «والله يا بني دفعت أربعة قروش صاغ..».

وجن جنوني، تلك سرقة أخرى، واستدعيت الكاتب رضوان وقلت له: «هل أخذت الرسوم من هذه المريضة؟».

نظر إليها وارتبك وقال: «نعم..».

- «فلماذا كتبت على البطاقة «بالمجان»؟ طبعًا لتضع المبلغ في جيبك».

ووجدت رضوان ينحني على مكتبي، ويمسك البطاقة، ثم يشطب على كلمة «بالمجان» ويكتب فوقها «رسوم»، وطلبت منه أن يخرج، وأخذت أجمع بطاقات المجان من المرضى المتبقية، واكتشفت أن رضوان زوّر في الرسوم في عشرة بطاقات أخرى، ومعنى ذلك أنه اختلس أربعين قرشًا، أي ما يوازي 20 جنيهًا في الشهر على الأقل، وهي أكثر من مرتبه الشهري، وتقترب من مرتب الطبيب، وأصدرت على الفور قرارًا بنقل رضوان إلى المختبر، واخترت بدلًا منه رجلًا أمينًا من أهل القرية، وكان مسيحيًا اسمه لبيب».

وتسبب رضوان في كارثة من نوع آخر، فقد خاف أن أحقق معه في البطاقات القديمة المكتوب عليها «بالمجان»، فسارع بتمزيقها، ولم يدرك أنه بذلك قد ارتكب حماقة كبرى، لأن

تمزيق البطاقة، يعني عدم حصر الأدوية المسجلة عليها للمريض، وهي أقراص وشراب وحقن، ومعنى ذلك، أن الجرد السنوي سيكون ناقصًا، ويعني أنني اختلست الناقص من الأدوية، وضاقت نفسي، وفكرت أن أسلمه للشرطة، لكني أشفقت عليه وعلى عائلته التي لا ذنب لها، فماذا سيفعلون إذا فصل من عمله ودخل السجن، وبادرت بحصر سجلات الصيدلة، والعودة إلى السجل العام، واستخرجت بطاقات جديدة «بدل فاقد» وشغلت معي في هذا العمل المرهق عددًا من الموظفين بالوحدة.. وعندما انتهيت من هذه الأزمة، أتيت برضوان وقلت له: «ارحل عن هذا البلد...».

- «إلى أين؟».

- «في أية داهية».

«لقد نزلت بلدكم من سنين، وأصبحت هي موطني وأهلها أهلي». عندئذ قدم أبي رَحِمَهُ اللَّهُ وقال: «لتصفح عنه المسامح كريم.. وسأتعهد بأن يكون مخلصًا أمينًا».

تلك كانت نماذج من المتاعب اليومية التي تجابهنا في العمل، وتسبب لنا الاضطرابات التي نحن في غنى عنها، ويمكن تجنبها، لكن الطمع كثيرًا ما يدفع بالإنسان إلى ارتكاب الحماقات.

وفي هذه الأثناء أتى إلينا ناظر المدرسة الأستاذ عبد المنعم عميرة، وقال إنه وردت إلينا إشارة من المسئولين في المحافظة تطلب من كبار العاملين بالوحدة أن ينتشروا في القرية ويدعوا كافة أهل البلد بالانضمام إلى الاتحاد الاشتراكي حزب الحكومة، وكان لابد من تنفيذ الأوامر، وركبنا سيارة، وأمسك الأستاذ عبد المنعم بمكبر الصوت (الميكروفون) وأخذ ينادي والسيارة تمشي ببطء: «يا أهالي شرشابة.. بادروا بالاشتراك في الاتحاد الاشتراكي فورًا من أجل مصلحتكم.. أيها الفلاح إذا أردت لابنك مكانًا بالمدرسة، ووظيفة بعد التخرج، فلتسرع لملء الاستمارة الخاصة بالانضمام للاتحاد الاشتراكي، والذي لا يشترك لا يلومنَّ إلا نفسه».

وأخذ الفلاحون يتدفقون على الوحدة لكي ينفذوا أوامر الحكومة، وكان ازدحامهم أشد مما يحدث أمام الجمعيات التعاونية التي توزع السلع التموينية الرخيصة المدعّمة من الحكومة، وسرى بينهم كثير من الأقاويل والشائعات، مؤداها أن من لا يشترك في حزب الحكومة

الأوحد سيتعرض للنقمة والعقاب، وسيصبح مستقبل أبنائهم مهددًا بالخطر قلت لأبي: «ألن تنضم للحزب؟».

- «وأنت؟».

- «تعلم أنني معزول سياسيًّا».

- «وأنا سأعزل نفسي سياسيًّا»

- «ألا ترى أنه من الأحوط أن...».

قاطعني قائلًا بحزم وبلهجته الشعبية: «بلاش كلام فارغ.. كلهم حرامية ونصابين».

على الرغم من أن القرية استطاعت أن تطفئ الحريق الكبير، مثلما فعلت في حريق مشابه منذ ما يقرب من ستة وعشرين عامًا، ولعله على حد قول البعض انطفأ من نفسه بعد أن أكل كل شيء، أقول على الرغم من ذلك، فقد بقي الحريق مشتعلًا في القلوب، ولماذا لا يكون الأمر كذلك، وقد ابتلوا بخسائر متتالية في المحاصيل بسبب الآفات، وفي مخزون العام والبهائم والبيوت من جراء الحريق، والمبالغ التي يدفعونها لأولادهم في الدروس الخصوصية هي الأخرى تلتهم جزءًا كبيرًا من الدخل، وارتفاع الأسعار يسبب لهم الضيق المتزايد، وصغر المساحات الزراعية المتاحة لهم.. إنها ابتلاءات كثيرة تتنزل عليهم من وقت لآخر، ومع ذلك فهم مضطرون اضطرارًا لأن يطيعوا الأوامر التي تصدر من أعلى، ويستسلموا لقضاء الله، وعليهم أيضًا أن يهتفوا بحياة الزعيم والثورة، كفريضة كتبت عليهم تضاف إلى الفرائض الخمس التي آمن بها الناس منذ أن بعث نبي الحب والرحمة والعدل والحرية محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه.

وعلى الرغم من الضيق العارم الذي يثقل على القلوب، فقد حدثت فتنة بين أعز صديقين يضرب بهما المثل في القرية، هما عبد الحميد جاب الله وكامل أبو العطا، إذ حدث بينهما خلاف حول بعض المسائل المالية، وتطور الخلاف إلى حرب شعواء، وسقط القتلى، وسالت الدماء، وتعقدت الأمور، واضطرب الأمن، ووقف الناس في حيرة أمام هذا البلاء الجديد..

***

[11] من ذكريات القرية

من المؤلفات التي كتبتها بسرعة في هذه الفترة كتاب «الإسلامية والمذاهب الأدبية» ويعتبر هذا الكتاب على الرغم من أنه يجمع عددًا من الأفكار والخواطر حول مذهب جديد في الأدب «الأدب الإسلامي»، من الكتب المهمة التي فتحت الطريق أمامي لكي أبدأ في كتابة قصص وأشعار في إطار التصور الإسلامي الصحيح، إيمانًا مني بأن أي اتجاه أدبي في العالم ينبع أساسًا من عقيدة أو فلسفة معينة، وعلى ضوء عقيدتنا الإسلامية التي تنظم جوانب الحياة المختلفة، يجب أن يتحرك أدبنا، وكان هذا بداية حركة فعلية نشأت لأول مرة في إطار فهم واضح، وقبل ذلك أثرت في الفصل الرابع في كتابي «الطريق إلى اتحاد إسلامي» إلى شيء من هذا القبيل، ودعوت في ذلك الفصل إلى إنشاء رابطة أو ناد أو اتحاد لحملة الأقلام الإسلامية، كما دعوت إلى إنشاء إذاعة عالمية إسلامية، ولاتحاد أو رابطة لعلماء المسلمين في العالم، ومن فضل الله أن هذه الأفكار كلها قد تحققت، وكانت بداياتها في المملكة العربية السعودية التي قدمت للمسلمين في أقطار الأرض كثيرًا من الخدمات الجليلة.

أما رواية «الربيع العاصف» فقد كتبتها قبل ذلك، أي قبل أن أتخرج وأعمل طبيبًا في الريف، على الرغم من أنها تعالج قضية مشابهة للقضية التي طرحتها في رواية «الذين يحترقون»، مع اختلاف في الأهداف والتوجهات.

ومن الأمور التي أحمد الله عليها، أنني استطعت لأول مرة في الوحدة أن أكتشف عددًا من حالات مرضى السل الرئوي باستخدام السماعة وحدها، فلم يكن لدينا جهاز للأشعة، ولا استعدادات لتحليل «بصاق» المشتبه فيهم، ولهذا أحلت إلى المستشفى الصدري المركزي الحالات المشكوك فيها، وقد اتضح أن أغلب الحالات المحولة وُجِد إيجابيًا، وهكذا وجد هؤلاء الفلاحون -نساءً ورجالًا- الفرصة للعلاج، كما أنهم أخذوا يتقاضون معونة شهرية مالية، وتصرف لهم كميات من الغذاء الضروري لهم بالمجان، وكان لهذا الحدث وقع طيب في نفوس أهل القرية بصفة عامة، والمرضى بصفة خاصة، وكنت أحمد الله على هذا التوفيق،

ولقد كان ذلك سببًا آخر من أسباب تزاحم المرضى في عيادتي، وللثقة ثمنها الغالي الذي ندفعه من عرقنا وسهرنا.

ومن الطريف أن البقال الذي أشترى منه احتياجاتي المنزلية من أرز وسكر وصابون وما إلى ذلك جاءني وأخبرني بأني مدين له، بما يقرب من أربعين جنيهًا، وكان يضحك لأنه يرى لأول مرة في حياته طبيبًا مدينًا، وكان يعلم أني أعيش بمرتبي، ولا أقبل الهدية أو أجر الفحص الخاص، وعندما علم والدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بذلك أحضر المبلغ المطلوب ودفعه نيابة عني، لكن يجب أن أذكر أن حالتي المالية كانت في عمومها جيدة، لما يرد إلي من دخل الكتب، ومع ذلك فقد كانت هناك أزمات مالية طارئة لابد أن تحدث من وقت لآخر، ولم يكن ذلك ليسبب لي أي إزعاج..

أخذني أبي ذات يوم إلى أرضنا الزراعية التي تبعد عن القرية حوالي كيلو متر، وكان يحدثني عن أهمية الأرض، وأن فيها جذورنا، وأن علينا أن نحافظ عليها ونخدمها، في أي وقت من الأوقات، لأنها رصيدنا الدائم، وذكرني أبي بقصة لم يمض عليها إلا ثلاث سنوات، أي في عام 1959، حينما قدم إلى في مسكني في شبرا بالقاهرة، وأخبرني أنه جاء لأمر مهم جدًا، ولما سألته في شغف عن ذلك الأمر قال: «أتذكر أنه منذ سنوات طويلة كانت لنا أرض في حوض «الأربعينية».

- «نعم أتذكر..».

- «وأن هذه الأرض قد سلبها العمدة وإخوته، حينما حكم لهم في المحكمة في قضية غبنا عنها، وصدر الحكم غيابيًا.. إننا لم ننس هذه الأرض».

- «هذه قصة قديمة مضى عليها عقود من الزمان».

- «ولو مضى عليها ألف عام.. المهم أنهم يبيعونها الآن، ولابد أن نشتريها حتى تعود لنا أرضنا..».

قلت في هدوء: «يا أبي.. الأرض لله يورثها من يشاء من عباده..».

بدا الغضب على وجهه وقال: «إنني أعرف ذلك، هل جئت إليك لتعلمني؟ هذه الأرض هي التي علمتك وجعلت منك رجلًا..».

اعتذرت لأبي، ورحبت بفكرته، وطلب مني أن أحضر المبلغ المطلوب ثمنًا للأرض، على أن يُكتب عقد الشراء باسمي، فهرولت مسرعًا إلى الناشر، وتسلمت منه المبلغ المطلوب، ولم يبت أبي ليلتها معنا، بل توجه فورًا عائدًا إلى القرية وهو في منتهى السعادة، وتم موضوع الشراء على خير وبالثمن الذي حدوده، ومنذ ذلك اليوم، وأبي يذهب كل صباح إلى تلك القطعة الزراعية، وكأنها الأم العائدة بعد غربة مريرة، ويتناول فطوره، ويشرب الشاي هناك، وبقي على هذه العادة ما يقرب من عامين، ولم أكن أحس نحو الأرض ذلك الإحساس العميق إلا بعد هذه الواقعة، واليوم يأخذني أبي لأسعد برؤية أرضنا وليعيد تلقين الدرس الذي يجب أن أتذكره جيدًا في حب الأرض الطيبة..

وأثناء عملي في القرية جاءتني رسالة مسجلة بعلم الوصول من ضرائب طنطا تطلب مني دفع مبلغًا ثلثمائة وخمسة وسبعين جنيهًا كضرائب عن مؤلفاتي، وعن الجوائز التي حصلت عليها في السنوات الماضية، وكنت في هذا الوقت أعاني من ضائقة مالية، ومدينًا للبقال الذي تبرع أبي بالدفع له، كنت أشعر بالظلم، فالذي فرض الضرائب لم يراع أنني متزوج وعندي أولاد، وعليّ مسئوليات، ذلك لأنهم في الضرائب زعموا بأن هناك خطابًا آخر قد أرسل إليّ، ولما لم أرد عليهم وضعوا تقديرًا جزافيًا، ولم يعد لي الحق في التظلم، بعد أن مضت المدة القانونية، وتم ربط الضريبة، وجلست ساهمًا مغتاظًا أفكر، ماذا أفعل في هذه البلوى التي لم تخطر لي على بال، والمبلغ يعتبر كبيرًا جدًا في مثل تلك الأيام، ودخل أبي عليّ في مكتبي بالوحدة المجمعة. كما سبق وأشرت. وسألني عما يكربني، ولما علم بالأمر ابتسم وقال لي ما معناه، أنني أفرح عندما أنال الجوائز، وعندما تأتي الحكومة لتطالب بحقها أغضب، ولامني على ذلك أشد اللوم واقترح أن أذهب إلى مأمورية الضرائب، وأتفق معهم على التسديد بالتقسيط.

أهل الريف يتصفون بالصبر، وتقبل الصدمات والآلام بروح عجيبة، ولديهم استسلام مذهل لقضاء الله وقدره، ولا يعرف اليأس طريقًا إلى قلوبهم، فهم يحمدون الله على كل حال، ويفكرون فيما يجب عمله مستقبلًا، رأيت ذلك عندما دمرت الآفات الزراعية محاصيلهم، فكانوا يحزنون، لكنهم لا يشقون الجيوب، ولا يلطمون الخدود، بل ينظرون في أمل إلى العام القادم أو الذي يليه، وليسوا أبدًا في عجلة من أمرهم، لإيمانهم العميق بأن الله لن يتخلى عنهم مهما كان الأمر، ورأيت ذلك بعد أن أتى الحريق على كل شيء؛ المآكل

والمسكن وأحيانًا الملبس، فاتجهوا بدعواتهم وقلوبهم إلى الله سبحانه وتعالى، وكأنهم يرددون لا ملجأ من الله إلا إليه، أو كأنهم يقولون، لا رادّ لقضائه، ولا معقب لحكمه. ترى هل لذلك علاقة بقلة عدد الحالات المرضية الوثيقة الصلة بالأمراض والاضطرابات النفسية؟ أعتقد ذلك، لأن حالات ارتفاع ضغط الدم أو القرحة أو الداء السكري، أو القولون العصبي أو الذبحات الصدرية، تعتبر قليلة جدًا إذا ما قورنت بخريطة الأمراض في المدينة.

ومن الطريف أن أذكر أن حالات الانتحار المسجلة في قريتنا طوال أربعين عامًا مضت لم تزد عن حالتين إحداهما رجل شنق نفسه، والأخرى امرأة أشعلت الحريق في جسدها بعد أن سكبت عليه الكيروسين. وكنت في عملي حريصًا على الجانب الوقائي في الخدمات الطبية، وعلى رعاية الأمومة والطفولة، ولهذا كنت أشرف بدقة على الممرضات الأربع، وخاصة فيما يتعلق بالتطعيمات ضد الأمراض المعدية، وإجراء الفحوص الضرورية للأم الحامل، وعلاجها دوريًّا حتى يستمر الحمل، وينمو الجنين نموًّا طبيعيًّا، وهناك فحص كنا نجريه للحامل يتعلق بإصابتها بميكروب «الزهري»، وفي حالة ما إذا كان إيجابيًّا نعطيها بنسلين زيتي طوال مدة الحمل حفاظًا عليها وعلى الجنين على الرغم من أن الحالة ليست في طورها الحاد. وكانت قافلة الممرضات تخرج كل يوم للمرور على بيوت الفلاحين للإشراف على عمليات التوليد الطبيعية التي لا تحتاج إلى تدخل جراحي، وربط الحبل السري، وإنعاش الوليد، وإعطاء الأدوية اللازمة للأم أو لوليدها، وتزويدها بالتوعية الصحية الضرورية بخصوص الإرضاع، والاستحمام والملابس، وما إلى ذلك.

وكانت هؤلاء الممرضات يعانين من الغربة والوحدة، وكانت بينهن واحدة فقط متزوجة، تذهب إلى زوجها كل أسبوع، وثانية مطلقة، أما الأخريان فلم يتزوجا بعد، وهما في سن حرجة، فلم يكن غريبًا أن تصاب إحدى الفتاتين بنوبات تشنج هستيرية في المساء أحيانًا، كما كانت تدب بينهن بعض الخلافات اليومية، وفي مثل هذه الأمور، قد يشاع عن وجود علاقات عاطفية بين هذه أو تلك، وأحد الموظفين، أو شاب من شباب القرية، وخاصة تلامذة المدارس والجامعات، ولم يكن هناك بد من أن يلزمن سكنهن بالمستشفى، تحت الرقابة الدائمة، ولا يسمح بالزائرين لهن، لكن وجود عدد من المدرسات في مساكن الوحدة، والتلاقي معهن، قد خفف الكثير من معانات الطرفين، ولم يكن في القرية إبان تلك الفترة وسائل التسلية أو الترفيه، فلا تليفزيون ولا سينما أو مسرح، وكانت التسلية الوحيدة هي

الراديو، وأحيانًا كنا نسمع البنات. ممرضات ومدرسات. يرقصن ويغنين في مسكنهن تخفيفًا من عزلتهن وغربتهن والفراغ القاتل الذي يئنون تحت وطأته، وخاصة أنهن لم يتعودن على قراءة الكتب أو المجلات أو الصحف، وحتى لو فكروا في ذلك فإنها غير متوفرة لديهن، وقد أشرت على الأخصائي الاجتماعي بتكوين مكتبة متواضعة تضم عددًا من المجلات والصحف والكتب، لكنه اعتذر لعدم وجود ميزانية لديه تكفي لذلك.

****

[12] العودة إلى المدينة

في إحدى المرات دخلت عليّ مريضة في الخمسين من عمرها، ولما سألتها في البداية عن الأعراض المرضية التي تشكو منها، فوجئت بها تقول: «أطلب منك أن تتصدق علي بربع جنيه، رفع الله مراتبك، أنا لا أجد ثمن الرغيف».

وأخرجت لها ما طلبت، وانتظرت أن تتحدث عن مرضها، وعدت أسألها، لكنها وقفت وهي تقول في امتنان: «لا أشكو إلا من الجوع».

وودعتني وانصرفت، وكتمت الممرضة التي تجلس قبالتي لمساعدتي ضحكتها، وهي تقول: «لقد كان عليها أن تذهب للأخصائي الاجتماعي».

كنت أعلم أن الكثيرين يعانون الفقر في قريتنا، والفقر قد يكون أشد وطأة من بعض الأمراض، وليس للفقر علاج من عقاقير وحقن، ولهذا صدقت المرأة في تشخيص مرضها، وكانت مصيبة في تحديد علاجها، وأهل الريف يعتقدون أن الطبيب لابد وأن يكون غنيًّا، ولا يتصورون غير ذلك، كنت حزينًا، ها هم أهل قريتي على طبيعتهم دون زيف، ومع ذلك يواصلون الحياة في صبر واستماتة، وقد يجتمع عليهم الفقر والمرض، وهل يجدي الدواء بدون غذاء؟

ومن الطريف أن امرأة أخرى دخلت عليّ ذات يوم وأخذت تشكو من أعراض مرضية عدة، في الرأس والظهر والقلب والساقين والمعدة، ولم أستطع أن أجمع بين هذه الأعراض في صعيد واحد، حتى أرجح مرضًا بعينه، ووجدتها تقول في غضب وعصبية: «كلما ذهبت إلى طبيب يقول لي أني سليمة، وأن مرضي هو الوهم ولا يعطيني أي علاج».

فحصتها جيدًا صدرها وبطنها وضغطها، وقست لها أيضًا درجة الحرارة، وعزمت على إجراء التحليلات اللازمة لها، وبرقت في ذهني فكرة، من المفروض أن نصدق المريض في شكواه حتى يثبت العكس، من يدري فقد تكون مريضة مثلًا على الرغم من أن الفحص

الإكلينيكي (السريري) لم ثيبت أي دليل على ذلك، ووجدتني أقول لها، وأنا أطوى جهاز الضغط: «أنت فعلًا مريضة».

ودهشت عندما رفعت يديها إلى السماء داعية لي بالستر وطول العمر، ثم قالت: «أنت الوحيد الذي عرف مرضي».

لا شك أن هذه المرأة تعاني من مشكلات نفسية أو اجتماعية أو غيرها، ومن المعروف أن الاضطرابات النفسية تنعكس بأعراض عضوية على أي جهاز من أجهزة الجسم المختلفة، وهذا يسمونه في الطب «الأمراض النفسعضوية» أو السيكوسوماتيك، لكننا كنا في زمن لا يحفل كثيرًا بالأمراض النفسية التي يعتبرونها ترفًا أو «دلعًا» كما يقول البعض، ولم أترك المريضة تخرج بدون دواء، بل صرفت لها كمية من أقراص الفيتامينات والحديد، فأغلب مرضى الريف يعانون من فقر الدم، لكني كتبت لها تحويلًا إلى الأخصائي الاجتماعي، لعل وقته يسمح بدراسة حالتها..

وجاءتني امرأة متزوجة تشكو العقم لأنها متزوجة منذ أكثر من عام، ولم تنجب، وفحص المرأة العقيم لابد وأن يسبقه فحص زوجها أولًا لأنه الأسهل، لكن زوجها كان قد تزوج من قبل وأنجب، فلابد إذن من التركيز على الزوجة، وتكون البداية فحصًا دقيقًا، وأخذ للتاريخ المرضي، وما إلى ذلك، لأن الخطوة التالية تحتاج لعمل أشعات إكس بالصبغة، وتحليل للهرمونات في بعض الأحيان، واكتفيت في المرحلة الأولى لشواهد رأيتها أن أصف لها بعض المضادات الجرثومية الخاصة بحالتها، مع مساحيق تذاب في الماء للغسيل، وطلبت منها العودة بعد شهر، ونسيت الأمر تمامًا لاستغراقي في العمل اليومي، لكنها جاءتني بعد ثلاثة أشهر، وكم كانت دهشتي عندما فحصتها ووجدتها حاملًا ولما أخبرتها بذلك أطلقت زغرودة عالية، وخرجت من غرفة الفحص وهي تواصل زغردتها، وتساءل الناس عما يجري، وظن البعض أن ما حدث يعتبر كرامة من الكرامات التي يأتيها الأولياء حسب زعمهم، وشاع الخبر في القرية، بل وفي القرى المجاورة، ووجدتني في الأسابيع المقبلة محاصرًا بعدد ضخم من العقيمات، ومن ورائهن جاء الرجال الذين يشكون من العقم أيضًا، ووقعت في حيص بيص، ولم أدر ماذا أفعل، واستغثت بالمنطقة الطبية كي ترسل أخصائيات في النساء والولادة، ولو مرة واحدة أسبوعيًا، ولكن المنطقة لم تعر الأمر اهتمامًا، وطلبوا مني أن أحيل

الحالات التي تعاني من العقم إلى المستشفى المركزي، وحاولت بصعوبة أن أقنع الناس بضرورة إجراء التحاليل والفحوص اللازمة لحالات العقم دون جدوى، وأكدت لهم أن الحالة الأولى التي حملت كانت حالة بسيطة منذ البداية، استجابت للعلاج المختصر بمحض الصدفة، ولم ينقذني من هذا المأزق إلا إجازتي السنوية، وبعدها يفرجها الله..

وفي هذا الوقت. أي قبل الإجازة، حاولت مع عدد من أهل الخير بالقرية أن نوفق بين عائلة جاب الله وعائلة أبو العطا دون جدوى، ذلك لأن الدماء كانت قد أريقت، ولأن عبد الحميد جاب الله الطرف الأقوى في الصراع، كان يعيش متخفيًا في المدينة في أغلب الأوقات حفاظًا على حياته من جنون الثأر، وقد نجا من عدد من المحاولات لقتله، وكان الضحايا من الطرف الآخر، فقد كان عبد الحميد لديه المال والرجال اللذان يمكنانه من البطش بعدوه.

أثناء الإجازة السنوية وصلت رسالة من وزارة الصحة تبدي فيها استعدادها لنقلي إلى القاهرة في عمل تابع لوزارة النقل والمواصلات أي في الإدارة الطبية بهيئة السكك الحديدية، وذهبت لأتقصى الأمر، وكم كانت دهشتي عندما وجدت النقل يتم بسرعة لم أتوقعها.

عندما علم أهل قريتي بالأمر حزنوا حزنًا شديدًا، وأخذوا يرددون أقوالًا لا أنساها: يا فرحة ما تمت. أتتخلى عن أهلك في هذا الوقت؟

- هل أغضبناك في شيء.

- يا فرحة العواذل فينا.

أما أبي فقد قال: «لماذا لا ترفض النقل وتبقى معنا.. يقولون إن «عزّك تَلّك» قلت له يا أبي: «إن اهتماماتي الأدبية، ومستقبلي الأدبي يلحان علي كي أذهب إلى العاصمة..».

- تستطيع يا بني أن تكتب وأنت هنا.. والكتابة كما أعلم، تأتي في أي وقت، وفي أي مكان».

لكني كنت قد عزمت وتوكلت، ولم يكن هناك مجال للتراجع، إن أجيالًا جديدة من أهل القرية سيأتون بعدي، وقد يفعلون مثلما أفعل، هكذا قلت لنفسي، ولما أصبح أمر النقل مقررًا، اتفق العاملون بالوحدة مع أهل القرية لإقامة حفل تكريم يليق بي، اختلطت فيه التحيات والتكريمات بدموع صادقة حارة.. ووقف أحد الشباب النابهين وهو الأستاذ عبد الحكم عطية سبالة (والمستشار حاليًا) وارتجل كلمة رائعة، هزت القلوب والمشاعر، وأتت

آية في الصدق والبلاغة، أما زميلي الطبيب فقد أفاض في الحديث، ومن ضمن ما قاله: «إن زميلنا الفاضل الدكتور نجيب الكيلاني كان حمامة السلام بيننا جميعًا..».

كان الرحيل مشحونًا بالعواطف، احتشد الناس في الوحدة، كانت الدموع تترقرق في عيني، وكنت أريد أن تتم مراسم السفر البسيطة المؤثرة بسرعة، شهقت إحدى الممرضات باكية، وكذلك فعلت «زكية» الفراشة، وإبراهيم أفندي حمادة فني المختبر، ولبيب المسيحي، هممت بالدخول إلى السيارة، لكن يدًا أمسكت بي، وسمعت من يقول: «ألا تودع أباك وأخاك أمين؟».

وتلفت حولي، كان أبي يقف على بعد أمتار في ناحية من ساحة الوحدة، وإلى جواره يقف أخي، خطوت بهدوء متوترًا صوب أبي، مد يده، أمسكتها بيدي الاثنتين، وقبلتها بحرارة، وأنا مختنق بالدموع، حاولت أن أتكلم فلم أستطع، احتضنني الرجل الطيب البالغ من العمر آنذاك سبعة وخمسين عامًا، وتمتم: «لا تغيب عنا طويلًا» حاولت أن أرد فلم أستطع أيضًا، وصافحت أخي الذي يصغرني بعام ويعمل بالزراعة والتجارة، ثم هرولت إلى السيارة وقلت للسائق: «انطلق بسرعة، لم أعد أحتمل» وتنفست الصعداء حينما وجدت السيارة تنطلق في الطريق الزراعي مارةً بسوق القرية، ثم المزارع الخضراء على الجانبين.

نسيت أن أذكر أن السيد المحافظ كان قد أصيب بنوبة قلبية مفاجئة منذ أسبوعين، وسافرت أنا وأبي لزيارته في بيته، ونظرًا لأن حالته كانت حرجة، فقد منعت الزيارة، واكتفينا بتسجيل أسمائنا في دفتر الزيارات، ودعونا له بالسلامة، فأنا لن أستطيع أن أنسى فضل هذا الرجل المنصف، الذي وقف إلى جواري عندما اتضحت له الحقيقة، واتخذ إجراءات حاسمة في إصلاح الأوضاع المتردية بالمنطقة الطبية، فاحتفظت له في قلبي بأطيب الذكريات، ترى ماذا كان سيفعل الآن لو أنه علم أني راحل عن القرية، وعن المحافظة بأكملها؟ ربما رفض الموافقة على النقل، لكن الإدارة بالمنطقة الطبية فرحوا جدًا بموافقتي على النقل، إذ كانوا يتمنون التخلص مني منذ زمن طويل، ولهذا سارعوا باتخاذ إجراءات الموافقة على النقل، أملًا في أن يعودوا إلى عبثهم القديم، وخاصة أن مرض السيد المحافظ يشكل خطورة على حياته، وقد مات المحافظ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد إصابته بالجلطة القلبية بشهر واحد، وحزن كثير من الناس على وفاته، وقد قرأت عن وفاته في الصحف وأنا بالقاهرة.

كنت قد تركت زوجتي وأولادي في بيت أبي عند رحيلي، إذ لم يكن لدي مسكن في القاهرة منذ أن غادرتها إلى شرشابة، ولم أكن أعلم حينها أن أزمة المساكن ستتفاقم في العاصمة إلى ذلك الحد المقلق، وأخذت أبحث عن شقة لائقة في أحياء القاهرة دون جدوى، لأن قوانين تخفيض الإيجار ولجان الحكومة لتقدير إيجار الشقة بنسب ضئيلة، جعل الناس يتوقفون عن استثمار مدخراتهم في إقامة المباني التي تدنى عائداتها لأقل من أربعة بالمائة، ولهذا شحت المساكن مع التزايد المستمر في أعداد السكان، وأصبحت ظاهرة «الخلو» مخيفة، فلكي تجد شقة إيجارها سبعة جنيهات مثلًا، لابد وأن تدفع للمالك مبلغًا كبيرًا ألفًا أو ألفين أو أكثر من الجنيهات تحت بند «خلو الرجل»، وهو أمر مخالف للقانون، ويتم سرًّا باحتياطات غريبة، ولم يكن معي هذا المبلغ وبمرور السنين تضاعف هذا المبلغ مرات ومرات حتى وصل في بعض الأحيان إلى عشرة أو عشرين ألفًا من الجنيهات، وكانت قوانين الحكومة «السيئة السمعة» المتعلقة بالمساكن هي السبب الرئيسي لأزمة المساكن الخانقة في مدن مصر كلها..

تسلمت عملي في القسم الطبي بهيئة السكك الحديدية في شارع الجلاء بالقاهرة، كنت أذهب إلى العمل في السابعة صباحًا، وأعود إلى مسكن صهري الشيخ محمود بعد الواحدة ظهرًا، وبعد العصر أذهب إلى المكتبات التي أتعامل معها، وتنشر لي مؤلفاتي، أو أذهب إلى نادي القصة أو مقهى الأدباء، أو بعض الجمعيات الأدبية الأخرى، حيث أجد الفرصة للقاء شيوخ وشباب الأدب البارزين في تلك الفترة، ولم أكن أكف عن البحث لعلي أجد شقة مناسبة، حتى أصابني اليأس.

وذات يوم استدعاني رئيسي في العمل وطلب مني أن أذهب إلى القسم الطبي للسكة الحديد بالمدينة السكنية بأبو زعبل، حيث يوجد هناك عدد كبير من العمال والموظفين في الورش الكبيرة الخاصة بالقطارات، وأخبرني رئيسي أن الانتداب لمدة أسبوع واحد، وأنني أستطيع أن أركب الحافلة كل صباح بخمسة قروش، حيث أصل إلى هناك في أقل من ساعة، وتضايقت في البداية من هذا الانتداب المفاجئ، لكنني أقنعت نفسي بأن الأمر بسيط، وأنه مجرد تجربة جديدة قد تكون مفيدة، وخاصة أنني لم أر هذه المنطقة من قبل، فتوكلت على الله وذهبت إلى هناك، ولم أجد مشقة في الاستدلال على المستشفى الصغير هناك، ووجدت المدينة السكنية مدينة جميلة نظيفة مرصوفة الشوارع، ووجدت مبانيها قسمين: القسم الأول عمارات متفاوتة المساحات للعمال حسب درجاتهم الوظيفية، والقسم الثاني «فيللات» وهي خاصة

بالأطباء والمهندسين وكبار رجال الإدارة والأمن، وعلى الرغم من أن المدينة في منطقة صحراوية إلا أن بشوارعها الأشجار الجميلة، وهناك حديقة ملحقة بكل «فيلا» تزرع فيها الفواكه والخضراوات، وبالمدينة أسواق ومدارس وناد رياضي..

ولاحظت أن هناك مدينة سكنية قديمة بنيت أيام سيطرة الإنجليز على السكك الحديدية، كما إن هناك بعض «الفلل» العتيقة التي بنيت على الطراز الإنجليزي تمامًا..

وتعرفت على جراح المستشفى وهو مديرها أيضًا وتبادلنا الأحاديث الودية، ثم أخبرني بعد أن شربنا الشاي معًا، بأني سأذهب إلى عيادة العمال داخل الورشة، وأعود إلى المستشفى بعد أن أنتهى منها، وحذرني من عدم الاستجابة لإلحاح العمال في طلب إجازات مرضية، وكان سيئ الظن بهم، كما حذرني من الخوض في الحديث عن السياسة، ولقد سعدت عندما فوجئت بعدد قليل من العمال والموظفين كانوا زملائي في المعتقل والسجن فرحبوا بي أشد الترحيب، وأشعروني أنني بين أهلي وعشيرتي.. وعدت مرة أخرى إلى المستشفى في السيارة الخاصة بها منتظرًا انتهاء العمل، ثم العودة إلى القاهرة، وفي فترة الانتظار قدم إليّ ممرض اسمه محمد إسماعيل وقال لي: «ما رأيك يا دكتور في هذه المدينة السكنية».

- «في منتهي الروعة والجمال».

فابتسم وقال: «فلماذا لا تنتقل إلينا إذن وتعيش معنا؟».

- «كيف؟».

- «هنا نقص في عدد الأطباء، ولو طلبت ذلك لوافقت لك الإدارة فورًا».

- «صحيح؟».

- «بالتأكيد يا بك، ثم لا تنس أنك ستسكن في «فيلّا» لها حديقة، ولن تدفع إيجارًا إلا خمسة في المائة من راتبك الأساسي، والكهرباء والماء تقريبًا بالمجان، والسلع التموينية متوفرة، والعرب الساكنون في القرى المجاورة يأتون إليك كل صباح بما تحتاج إليه من خضراوات وفواكه واللبن والجبن والزبد والطيور وكل ما يخطر على بالك»..

نظرت إليه بإمعان، وراقت لي الفكرة من عدة نواح، أولًا ستُحل أزمة السكن، ثانيًا سيتوفر لي الهدوء واللازم للقراءة والكتابة، ثالثًا القاهرة ليست بعيدة عنا، وأستطيع أن أذهب

إليها متى شئت وأعود بعد ثلاث أو أربع ساعات، ثم ألا يجوز أن يكون ذلك هو الاختيار الإلهي الذي لا أعلم عنه شيئًا؟

واختمرت الفكرة في ذهني، وفي المساء أفضيت بها إلى صهري الشيخ محمود الذي يعتبر بمثابة الأب الروحي لي، فتفكر قليلًا، ثم وافق بحماسة واضحة، لكن زوجتي بعد أن علمت بالأمر ترددت في الموافقة، فأقنعها أبوها، بعد أن شرح الميزات التي سنجنيها من وراء ذلك، وخاصة أن القاهرة قد ازدحمت مواصلاتها وشوارعها، وتلوثت أجواؤها، وشحت فيها السلع، وتعقدت الأمور.

عندما عرضت الأمر على رؤسائي بالإدارة الطبية لهيئة السكك الحديدية وافقوا على النقل دون اعتراض، وأخبروني بأني أستطيع أن أنتقل في أي وقت أشاء.

في غضون أسبوع حملت الشاحنة الكبيرة أثاث بيتي، وسرت ومعي أسرتي، وألقينا عصا الترحال في «فيلًا» أنيقة حديثة بمدينة أبو زعبل السكنية.

****

[13] ليالي المدينة السكنية

كانت السنوات التي قضيتها في المدينة السكنية بأبو زعبل من أحلى سنوات العمر، ففي الشهور الأولى توثقت علاقتي بالعمال والموظفين، واستطعت أن أتفهم الأوضاع في هذا الموقع الصناعي المهم، بل وفي البلدان المجاورة، وقد ساعدني على سرعة التأقلم معهم أن عددًا منهم كانوا يتابعون كتاباتي في الصحف والمجلات، وأن جيلًا من أبنائهم كانوا يدرسون روايتي المقررة في المدارس، فضلًا عن أن زملائي القدامى في العمل السياسي ممن كانوا منضمين إلى جماعة الإخوان المسلمين، ثم اعتقلوا وأفرج عنهم، نشروا كل ما يتعلق بحياتي السياسية والأدبية بين جموع العاملين، حتى أصبحت في فترة وجيزة أشهر العاملين هناك، وقد أحبني الشباب خاصة فكانوا يحرصون على لقائي في بيتي، وفي المستشفى في المساء، وفي أماكن تجمعهم المختلفة هنا وهناك، كنت بعيدًا عن العمل السياسي، ومتفرغًا تمامًا لمهمتي الطبية، ولاهتماماتي الأدبية.

وكانت منظمات الشباب والجهاز الطليعي لحزب الحكومة هم عين الثورة التي ترى كل شيء، وأذنها التي تسمع وتسجل، ثم يفرغون ذلك في تقارير دورية ترفع إلى مستوى أعلى، ولم يكن هذا سرًّا، فقد كان أحدهم وهو مصطفى الشربيني شابًا لطيفًا يحبني، وأثق فيه، وكان يهمس في أذني من وقت لآخر ويخبرني بأنهم كتبوا تقارير سرية طيبة في حقي، فكنت أشكره على ذلك، وكان من أغرب الأمور التي مررت بها في حياتي قصة غريبة، أرى أنه لا بأس من سردها لأنها عامرة بالدلالة العميقة على إفساد الشباب والعلاقات الإنسانية والأسرية من خلال التربية السياسية الخاطئة.

لقد لاحظت أن هناك جفوة شديدة بين الشاب مصطفى الشربيني الذي أشرت إليه آنفًا، وبين أبيه الأستاذ علي الشربيني عضو نقابة العمال المهمة، وأحد أعضاء التنظيم السياسي البارزين، وحاولت جاهدًا أن أصلح بين الشاب مصطفى وأبيه علي، لكن جهودي باءت بالفشل الذريع، وفكرت: لِمَ لا أتقصّى أسباب القطيعة والخلاف حتى يمكن السير في

خطوات الصلح على هدى وبصيرة، لكن الابن وكذلك الأب رفضا الإفصاح عن أي سبب، فرجحت في النهاية أن الخلاف ناجم عن زواج الأستاذ علي من امرأة غير أم مصطفى، وأنه منفصل عنهم تمامًا، فلا يذهب إلى زوجته القديمة ولا يزور أولاده منها، إلا في إطار العمل بورش السكك الحديدية، حيث يمكنه الالتقاء بهم كل يوم، وهم موظفون هناك.

جاءني علي الشربيني ذات ليلة ليناقشني في موضوع يخص العمال بالورشة، فقد لاحظت أن مئات العمال يأتون للعيادة في يوم الخميس بالذات، ويلحون في طلب الإجازة المرضية يومي الخميس والجمعة، فكنت أتعجب من هذا الطلب، فيوم الخميس قد أوشك على الانتهاء ولن يستفيدوا إذا أخذوه إجازة، ويوم الجمعة لا عمل فيه بطبيعة الحال فهو يوم الإجازة الأسبوعي، وازدادت دهشتي عندما علمت أن العمال متضايقون جدًا من تصرفي معهم، مع أني كنت أفحصهم بدقة، وأرفض إجازة المتمارضين، ولا أحجبها عن المرضى، وجاءني علي الشربيني لهذا الغرض، وأخذ يشرح لي القضية قائلًا: «عندنا هنا في الورش عدد كبير من «عمال اليومية» (الظهورات)، هؤلاء لم يتم تثبيتهم بعد على درجات وظيفية، فهم مؤقتون، ويتقاضون عن كل يوم عمل أجرًا محددًا، ولهذا ليس لهم أجر على يوم الجمعة، إلا في حالة واحدة، وهي الإجازة المرضية».

وأفهمني علي الشربيني أن الإدارة والنقابة متفقتان على مساعدة هؤلاء العمال وصرف أجر يوم الجمعة عن طريقة احتسابه إجازة مرضية، وهم لا يأتون بالعمال جميعهم، بل يقسمونهم على دفعات أسبوعية، فليس من المعقول أن يكون كل عمال (الظهورات) مرضى في نفس اليوم، وفي يوم الخميس بالذات وأخيرًا قال لي علي الشربيني: «هل فهمت القضية يا دكتور؟».

- «نعم فهمت..».
- «رجائي أن تتعاون معنا في مساعدة هؤلاء المساكين...».

فانتهزت الفرصة على الفور وقلت: «وأنت يا عم علي، لماذا لا تتعاون معي؟».

- «فيم؟».
- «في الصلح مع ابنك مصطفى، إنه جزء منك».

ولم يتمالك على نفسه، فانهار صارخًا في غضب وقال: «بئس الابن، لقد كاد يوصلني إلى حبل المشنقة».

وقفت وقلت في دهشة: «ماذا قلت؟».

- «هذه أسرار ولا يصح البوح بها وإلا رحنا في داهية..».

- «لن أتركك حتى تتكلم..».

جمع أوراقه وهب واقفًا، وقال والدموع في عينيه: «لقد كتب ضدي تقريرًا رفعه لرجال المخابرات، ولو لم أستطع إثبات براءتي لانتهيت...».

وخرج عم علي وبقيت مسمرًا في مكاني ذاهلًا.

هل وصل الأمر بابن يكتب تقريرًا سريًا ضد أبيه ويغري به السلطة التي لا ترحم؟ أي ابن هذا، وأي تربية ترباها، والغريب أن التقرير ثبت أنه غير صادق!! هزني هذا الحادث هزًا عنيفًا، ولم أستطع النوم، إن العلاقات الأسرية والاجتماعية تتدهور بصورة مريعة إلى الهاوية، فكيف يكون مستقبل أمة هذا شأنها، وكيف يستطيع شعب أن يمضي في طريق التقدم والتنمية والتحرير وهو على هذه الصورة من التفسخ والانحطاط، وإهدار القيم الإنسانية والأسرية؟ هل هذا حب للوطن أم تدمير له، إن كل المعاني النبيلة تنقلب رأسًا على عقب، والناس يتحولون إلى ذئاب جائعة خائفة، وكيف تسكن الشجاعة والكرامة والحرية قلوبًا كتلك القلوب السوداء التي تتشرب الحقد والجحود.

ذهبت إلى مكتبي بالورشة في الصباح الباكر، وأرسلت الممرض لإحضار الشاب مصطفى الشربيني على الفور، وجاء مصطفى مبتسمًا كعادته، وصافحني في ود، قلت له: «اجلس يا مصطفى».

قلتها بصرامة، ثم أمرت الممرض أن ينصرف ويغلق الباب. «ماذا فعلت بأبيك يا مصطفى؟».

- «لم أفعل شيئًا...».

- «لا تنكر، فقد باح لي بكل شيء..».

انتبه إلى ما أقول، وانظر إلي في ارتباك، وغمغم: «ماذا قال؟».

- «التقرير..».

شحب وجه مصطفى وقال متلعثمًا: «هذا واجب وطني..».

هتفت في غضب لم أستطع أن أداريه: «هذا عقوق، من قال إن أباك صاحب التاريخ النقابي الطويل يقل عنك وطنية؟! هل تسمون خلاف الرأي خيانة..».

- «نعم خيانة.. كل أعضاء النقابة لصوص بما فيهم أبي».

نظرت إليه في احتقار وقلت: «لولا أن مبادئي تمنعني لصفعتك على وجهك.. قم واذهب إلى عملك ولا تنس أن تكتب ضدي تقريرًا أنا الآخر.. لا ترني وجهك بعد اليوم..».

وجلست بعد أن خرج في مقعدي أغلي وأنتفض.. هل وصل الأمر إلى هذا الحد من السوء؟ إن الحكم البوليسي الدكتاتوري سوف يوردنا مورد التهلكة، ولا أحد يستطيع أن يفعل أي شيء الآن لإعادة الأمور إلى نصابها، والأيام تمضي بالناس من سيئ إلى أسوأ، والأوامر الصارمة من أعلى، والطاعة من أسفل، ولا حسيب ولا رقيب.

استيقظت من نومي بعد العصر فتوضأت وصليت، وكانت زوجتي تصلي جماعة خلفي، ثم جلست لأشرب الشاي، ودق جرس الباب، وحينما فتحت وجدت مصطفى أمامي بكامل لباسه، شابكًا يديه على صدره، خافضًا رأسه، بدأ أمامي ضحية تستحق العطف والرثاء ولم لا يكون مريضًا يحتاج إلى علاج، رق قلبي له فقلت برقة: «تفضل يا مصطفى». دخل دون أن ينطق بكلمة، حتى التحية لم يلقها، وجلس في غرفة الضيوف كئيبًا حزينًا بينما ذهبت لأحضر له الشاي وبعض الفاكهة، ترك الشاي أمامه دون أن يمسه، ولم تمتد يده إلى الفاكهة، وظل صامتًا فترة، لم أشأ أن أخرجه عن صمته.. وبعد دقائق رفع رأسه، ونظر إليّ بعينين حزينتين وقال: «سامحني يا دكتور.. لقد أخطأت في حق أبي.. وفي حقك أيضًا».

لم أشأ أن أعلق، وتركته يمضي في حديثه: «لقد علمونا في المنظمة أشياء غريبة، لا أدري كيف اقتنعنا بها وصدقناها، لقد كتبت التقارير عن كثير من العمال، وكنت أراهم يساقون للتحقيق، وينالون العقاب، ثم يعودون إلى الورشة أذلاء.. كنت أسعد لأني انتقمت منهم، ولفقت التقارير لخصومي كي يتأدبوا.. كنت أشعر بلذة غريبة حينما أهزمهم.. وظننت أنني أصبحت كبيرًا وذا سلطة.. وأخيرًا أردت أن أنتقم من أبي الذي أهملنا وأهمل أمي دون ذنب.. عاشت معه أيام الفقر، ولما أثرى وأصبح لديه إمكانات كافية، تركها وتزوج غيرها..

صغيرة وجميلة.. ونسي المرأة التي عاشت معه الأيام المريرة، حينما كان عاملًا يتقاضى يوميًا بضعة قروش.. إنها أمي يا دكتور..».

قلت: «وهو أبوك».

- «صدقت.. وبرغم ذلك فأنا مخطئ.. وأريدك أن تصلح بيني وبين أبي لنبدأ من جديد».

وحمدت الله، وأخذت مصطفى إلى أبيه معتذرًا تائبًا ينشد العفو، رفض علي بشدة في البداية، لكن ثورته هدأت رويدًا رويدًا، وأخذ يعاتب ابنه، ويذكره بالماضي، كيف حنا عليه وعلمه ورباه، وكيف فتح أمامه باب الرزق. وألحقه بوظيفة مناسبة، وكيف كان يبكي من أجله عندما يمرض.. وبكى مصطفى لعل الدموع تغسل خطيئة قلبه.. وبكى علي.. ثم أمسكت بيد كل منهما وتصافحا.. وقرأ الفاتحة، وتعاهدا على الحب والصفاء..

وشعرت براحة غريبة، وأنا أمضي في الطريق إلى مسكني، ونسمات الليل العليلة. المنعشة تلثم وجهي المحتقن من شدة الانفعال.. كنت أقول في نفسي: لسنا في حاجة إلى ثورة جديدة ولكننا في حاجة إلى الحب.. نعم الحب.

في الثامن والعشرين من شهر مارس عام 1964 فوجئت بأعراض الوضع تظهر على زوجتي الحامل، لم يكن لدينا في مستشفى المدينة السكنية قسم الولادة، فاستدعيت سائق الإسعاف، وانطلقت بها إلى القاهرة ومعي ابني حسام الدين البالغ من العمر ثلاث سنوات، وابنتي عزة البالغة من العمر عامين تقريبًا، أو أقل قليلًا آنذاك ووالدتي، وقصدت عيادة الصديق الدكتور «عبد الفتاح شيبة الحمد» وهو أخصائي نساء وولادة بميدان «لاظوغلي» بالقاهرة وشقيق زوجة الروائي المعروف الأستاذ محمد عبد الحليم عبد الله، وكان الدكتور عبد الفتاح زميلًا لنا في العمل بالقسم الطبي في القاهرة، وأخذت الطفلين إلى جدتهما ومعهما أمي، بعد أن تركت الزوجة في رعاية الله برعاية الزميل الطبيب الذي قرر أن الوضع يحتاج إلى بعض الوقت.

وعدت إلى العيادة ومعي أم زوجتي، وفي نفس الليلة وضعت زوجتي مولودها الثالث الذي سميناه جلال الدين، كان المولود صغيرًا وأقل من الوزن الطبيعي، يميل لونه إلى السمرة، لكنه كان نشطًا صحيحًا بحمد الله.. ولقد كان الأصدقاء يسمونه «ترانزستور» لصغر حجمه، إشارة إلى الراديو الصغير الذي يحمل في اليد..

وبعد الولادة عدت في المساء إلى مسكن صهري، الذي ظل ساهرًا، وكانت والدتي هي الأخرى تنتظر على أحر من الجمر، ودخلت وألقيت السلام في وقت متأخر من الليل، وكانت مرهقًا، كانت أم زوجتي معها في العيادة لتشرف على طلباتها؛ إذ لم يكن هناك ممرضات أو حكيمة..

لاحظت أن أمي قلقة، وقد كان يحلو لي مداعبتها، أحيانًا، ولما لم أتكلم سألتني: «هل ولدت كريمة؟».

- «الحمد لله يا أمي».

- «وهل هي بخير؟».

- «على ما يرام...».

ووجدت أمي تتحرك في مقعدها ومظاهر القلق لا تخطئها العين، كانت تريد أن تعرف هل المولود ذكر أم أنثى، شأنها في ذلك شأن أهل الريف الذين يفضلون إنجاب الذكور، ولم تستطع الصبر أكثر من ذلك، فقال: «ولد أم بنت؟».

قلت وأنا أرغب في مشاكستها: «ولد.. بنت.. كله خير وفضل من الله ونعمة.. الحمد لله عندنا قبل ذلك الولد والبنت».

هزت أمي رأسها في أسى وقالت: «فهمت.. لقد ولدت بنتًا.. هيه.. الحمد لله..».

قلت في هدوء وأنا أخلع سترتي دون اهتمام، وأنا أقصد ذلك: «من قال ذلك.. بل وضعت ولدًا.. افرحي يا ست الحبايب».

وهبت واقفة وأطلقت زغرودة عالية رغم الوقت المتأخر من الليل، قلت لها: «سوف توقظين أهل حي السيدة عائشة..».

- «هذا يوم الفرحة.. ادع الله أن يسعدوا في عز أبيهم وأمهم..».

- «وجدهم وجدتهم سواء في القاهرة أو شرشابة».

وابتسم صهري الشيخ الجليل، الذي لم يكف عن قراءة القرآن والأدعية وذكر الله طوال الوقت.

ثم قال: «لا تنس العقيقة يا بني.. إنها سنة نبوية شريفة.. فلتذبح خروفين».

قالت أمي: «خروف في شرشابة وآخر في القاهرة».

وضحك الشيخ وقال: «ويمكن أن تتبرع بثالث لأهل المدينة السكنية بأبو زعبل».

ومسحت أمي رحمها الله على رأسي وظهري وقالت: «كثر عيالك، فليرزقك الله برزقهم».

ولم تمكث زوجتي في العيادة إلا ليلة واحدة، وعادت إلى بيت أبيها، وجاء الصغيران حسام الدين وعزة ينظران إلى أخيهما الوليد في شغف وفضول، ويلمسانه برقة، ويستأذنان في تقبيله، لكني نهيتهما عن ذلك، على أن أسمح لهما بعد أن يكبرا، وكان جلال الدين الوليد هادئًا جدًا، ينام كثيرًا بعد أن يرضع، وأحيانًا يطول نومه عن المعدل في فراشه دون أن يتحرك، مما كان يبعث الخوف في نفس أمه، فتهزه كي يستيقظ، وذات مرة كانت ترضعه أثناء الليل، ونامت، وعندما استيقظت وجدته راقدًا على أرض الغرفة فوق السجادة دون أدنى حركة، أصابها الذعر، لقد سقط الولد من فوق السرير دون أن تشعر به، وكان عمره حوالي ثلاثة أشهر، وظل راقدًا دون أن يبكي أو يصرخ، وأيقظتني فقمت أفحصه بدقة خوفًا من أن يحدث له ارتجاج في المخ، لكني والحمد لله وجدته سليمًا معافىً. فأكدت على زوجتي ألا ترضعه ثانية إلا وهي جالسة، ولا تنيمه إلا في سريره الصغير الذي يحفظه من السقوط..

وعدنا مرة أخرى إلى المدينة السكنية لنستأنف حياتنا العادية من جديد، وكان معنا الوالد والوالدة وأختي الصغيرة سميرة، وكان لوجود الوالدين معنا فترات طويلة بإصرار مني، ذلك أني استشعر الأمن والألفة والاطمئنان وهما إلى جواري وخاصة أن زوجة أخي أمين الذي يصغرني بعام كانت تثير المشاكل مع أمي وتسبب لها النكد، وأنا حريص على أن تنعم أمي بالاطمئنان والسعادة، وما يكاد أبي وأمي يُسافران إلى القرية حتى ألح عليهما في العودة من جديد، لكوني كنت أريد أن أعوض أيام الفراق الطويلة المريرة حينما كنت سجينًا، وكذلك سنوات التعليم التي قضيتها بعيدًا عنهم في المرحلة الابتدائية والثانوية والجامعية، وأصبح والدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ صديقًا للكثيرين من سكان مدينة أبو زعبل السكنية، فكانوا يحبونه ويدعونه لزيارتهم، وكان مكانه المفضل للجلوس هو محل بقالة الأخ الصديق «إسماعيل الهضيبي»، وكانت أسرة الهضيبي التي ينتمي إليها فضيلة المرشد العام للإخوان المسلمين الأستاذ حسن الهضيبي المستشار السابق في القضاء المصري، وصاحب التاريخ العريق، أقول

كانت هذه الأسرة الكريمة تقيم في قرية «عرب الصوالحة» القريبة منا، وكان شقيق إسماعيل واسمه «الحاج محمد الهضيبي» عمدة القرية «المختار كما يسمى في بعض الدول العربية»، ويبدو أن الأمر لم يرق لرجال الأمن، وذهب أحد المخبرين إلى أبي لينصحه بالابتعاد عن أي إنسان يمت بصلة لعائلة الهضيبي، ولم يقتنع أبي بهذا الكلام الفارغ الذي لا معنى له وقال للمخبر بلهجته الريفية البسيطة: «جرى إيه يا بني.. هو إحنا بنعمل مؤامرة.. دول ناس طيبين وباحبهم وبيننا وبين بعض مصالح.. هو الصداقة حرمت؟».

وذهبت إلى رئيس مكتب المباحث العامة في المدينة السكنية «يحيى بك كامل»، وكان جارًا لي في السكن، كما كان يختارني دون غيري من الأطباء لعلاج أولاده وزوجته التي لا يراها أحد، لأنها متمسكة بالتقاليد (فهم من الصعيد)، وكانت تربطني بالرجل علاقة لا بأس بها رغم أني مدرج عنده في «القائمة السوداء» وأن من واجبه أن يراقبني كسجين سياسي سابق، وناقشت موضوع أبي معه، فأبدى تفهمًا وطلب من المخبرين أن يتركوا أبي وشأنه.

والواقع أن أسرة الهضيبي في عرب الصوالحة كانوا يبالغون في احترامي وإكرامي أنا ووالدي، وكانوا ينظرون إليّ كواحد منهم، وظلت هذه العلاقة الطيبة الخفية في معظم الأحيان إلى أن رحلت عن تلك الديار.

كان مكتب المباحث العامة (أمن الدولة) في المدينة السكنية، من المكاتب المهمة لأنه يقع في منطقة يسكن فيها الهضيبيون، ولأن المنطقة صناعية وبها عدد كبير من العمال، ومن الطريف أن بعض رجال المباحث كانوا يطلقون على هذه المنطقة «منطقة تل أبيب»، وكان رئيس المكتب يحيى كامل أمين شخصية ذكية ونشطة، ولم يتهاون في أي موضوع له علاقة بالأمن، وعلى الرغم من تاريخي وماضي الذي يعرفه هو جيدًا، لأن تحت يده «ملف كامل» عن كل شيء يتعلق بي إلا أنني وجدت نوعًا من الصداقة بيننا دون حساسية تذكر، فكنا نسهر معًا، نحتسي أكواب الشاي (وأنا لا أحب القهوة)، ونتحدث في كثير من الأمور حتى السياسي منها، لكني مهما كان الأمر كنت شديد الحرص جدًا، فلا أنزلق إلى مناطق المحرمات السياسية، لأنه مهما كان الأمر فهو رجل أمن، وإذا سقطت سقطه فمن المحتمل جدًا أن أحاسب عليها حسابًا عسيرًا.

وكان أحيانًا يستدعي بعض من تحوم حولهم الشبهات، ويستجوبهم في مكتبه، وبعدها أسأله عما حدث، وكان أحيانًا يجيب وأحيانًا يتكتم الأمر، ولم أكن ألح عليه في شيء، ولا أذكر أنه أفشى لي سرًّا من أسرار عمله في يوم من الأيام، فمثلًا كان يقبض على بعض الإخوان، فأستفسر منه عما جرى، فيضحك لكنه يراوغني ويمتنع عن الإجابة.

وقد استطاع هذا الرجل أن يكشف عن بعض مظاهر الاستغلال والفساد في المدينة السكنية، ولما تجمعت لديه كافة الخيوط ضرب ضربته وأمسك بتلابيب المتهمين فأخذوا جزاءهم بصورة أو بأخرى.

وكان الجميع في المدينة يعملون له ألف حساب وحساب، إذ كانت تصل إليه كافة التحركات والأحاديث التي تدور بين العمال حتى في مجالسهم الخاصة، ويتخذ ما يراه من إجراءات أغلبها في إطار التهديد والتوبيخ أو العقوبات المحدودة كأن يحجز المخطئ ويأمر بضربه، ثم يتركه يعود إلى عمله، بعد أن ينبه عليه بألا يحدث أحدًا بما جرى له وإلا...

أذكر أنني كنت استقبل في مسكني بالمدينة السكنية عددًا كبيرًا من أصدقائي الأدباء والصحفيين، فكانوا يبدون إعجابهم بهذا المكان الجميل، وتلك المدينة المريحة، ويقولون إن الفرق شاسع بينهما وبين القاهرة، وكنا نتحدث عن الحركة الأدبية وفرسانها، ونناقش كل جديد يصدر عنها، ونناقش المعارك الحامية التي تدور بين أنصار الشعر التقليدي والشعر الحديث، والمعارك التي تدب بين مدارس النقد المختلفة، وكان الاتجاه السائد في تلك الفترة هو الاتجاه الواقعي الاشتراكي (الواقعية الاشتراكية في الأدب) يليها الاتجاه الوجودي الذي يتزعمه الفيلسوف والأديب الوجودي سارتر، والذي زار مصر في النصف الأول من الستينيات، من القرن العشرين على ما أذكر، وقوبل بحفاوة بالغة، ونهج المسرح نفس النهج فقد كانت قسمة بين المذهبين الغالبين.

جاء لزيارتي الأستاذان الصديقان عاشور عليش (سكرتير تحرير جريدة المساء التي كنت أكتب فيها) والأستاذ محمد المندي (صحفي بنفس الجريدة وكاتب قصة أيضًا)، وقضيا في ضيافتي يومًا وليلة، وقد كان الأستاذ عاشور في غاية الانبهار بهذا الجو الذي أطلق عليه «جوًّا صوفيًّا رائعًا» على حد تعبيره، وأجرى معي حديثًا طويلًا عن الأدب نشره على أكثر من نصف صفحة في جريدته، وقدم له بمقدمة جميلة، أما الأخ لأستاذ محمد المندي فله قصة

طريفة قد يكون من المفيد أن تروى، فقد كان مفتونًا بالأدب وهو يعيش في صعيد مصر، ويعمل بهيئة السكك الحديدية، ثم قرر التفرغ للأدب فاستقال من وظيفته، وباع أملاكه من الأراضي الزراعية، والبيت الذي كان يسكن فيه، وأتى بأسرته (زوجته وابنه مهنا وابنته) إلى القاهرة، وسكن في شقة متواضعة، وأخذ يطبع مؤلفاته على نفقته الخاصة لما لم يجد ناشرًا لها، فقد كان اسمه جديدًا في الساحة الأدبية، وهكذا أوشكت أمواله على النفاد، وأخذ يجري هنا وهناك بحثًا عن وظيفة لها صلة بالأدب أو الصحافة، أو يحاول أن ينشر بعض قصصه ومقالاته نظير مكافأة مالية، والتقيت بمحمد المندي منذ أن خرجت من السجن وهو على هذه الحالة من السوء والاضطراب، وكثيرًا ما كان يثور ويسب ويلعن الأوضاع المحزنة للأدب والأدباء، وفكر أن يجمع أسرته وراءه، ويمضي معهم في مظاهرة احتجاج رافعًا لافتة مكتوب عليها «هذا هو حال الأدب في مصر»، فكنا نهدئ من ثورته ونحاول قدر الاستطاعة في التهوين من الأمر، ومساعدته في حل مشاكله، وبعد سنوات من الضيق والعنت أخذه الأخ الأستاذ عاشور ليعمل معه في جريدة المساء، وبالصبر والدأب استطاع أن يحصل على عضوية نقابة الصحفيين، ويثبت على وظيفة في الجريدة بمرتب معقول، وأكرمه الله في ابنه مهنا الذي تخرج من كلية الزراعة جامعة القاهرة، وسافر للعمل في الكويت، وهكذا خلص الأخ المندي من مآسي الفقر والمعاناة.. وكان للمندي صديق شاب اسمه «حسن محسب» لمع اسمه بعد ذلك في مجال القصة وفي الكتابة للسينما، وكان من أشهر أفلامه ذلك الفيلم السياسي المبهر (وراء الشمس) الذي عالج فيه قضية الاستبداد والدكتاتورية وطغيان أجهزة المخابرات، وما يعانيه المخالفون في الرأي من اضطهاد وتعذيب، وقد لقى هذا الفيلم رواجًا ملحوظًا، وتقديرًا كبيرًا (ظهر الفيلم في فترة حكم الرئيس السادات)، ومن الأمور الطريفة أن محمد المندي وحسن محسب كانا يكتبان مقالات نقدية مشتركة، وقد كتاب مقالة عن روايتي «ليل الخطايا» في مجلة الأدب التي كان يصدرها المرحوم الأستاذ الكبير أمين الخولي (زوج الدكتور بنت الشاطئ) رَحِمَهُ اللَّهُ، وكان التوقيع على المقالة باسم «المندي ومحسب».

وكان الأستاذ عاشور عليش من أسرة الشيخ عليش عالم الأزهر الجليل، وقد عمل بالصحافة فترة طويلة، وكان كفاءة ممتازة، ويتميز بروح خفيفة وثابة، وصدق في المعاملة والأداء، وتمكن في الأسلوب الصحفي الأدبي الجميل، وتذوق عالٍ للأثر الأدبي، وظل يعمل بالصحافة في موقعه حتى بلغ سن التقاعد هو والأخ الأستاذ محمد المندي.

أما رواية «ليل الخطايا» التي أشرت إليها منذ قليل فإن قرائي لا يرونها الآن، ذلك لأني منعت إعادة طبعها، ولهذا لم تطبع إلا مرة واحدة في «دار الفكر» بدمشق، والسبب في منع نشرها، هو أن هذه الرواية كانت بها جرعة زائدة من تصوير المشاعر والعواطف بين المرأة والرجل، كما أنها تتعرض لمشكلة الخيانة الزوجية التي أمقتها أشد المقت، ولقد اندفعت لكتابتها تحت فورة غضب وحماس بالغين، لأني عرفت أبطال هذه القصة، وألممت بالخيانة التي آلمتني، فقررت أن أكتبها رواية، وكأني أنتقم أو أحاكم هؤلاء الخونة الذين لا يرعون في الله إلًّا ولا ذمة، ولما هدأت مشاعري، قلت لنفسي كان يمكن أن أكتب القصة على نحو آخر لا يثير المشاعر، وعلى الرغم من إعجاب البعض بهذه القصة التي كتبتها وأنا ما زلت طالبًا بكلية الطب، بل إن أحد رجال الفكر الإسلامي أثنى عليها، بحجة أنها تعالج قضية خطيرة، أقول على الرغم من ذلك فإني رفضت بشدة جميع العروض التي قدمت لي لإعادة طبعها، أما طلاب الماجستير والدكتوراه الذين كتبوا أطروحات عن أدبي، فقد كانوا يصرون على البحث عنها، ووضعها موضع التحليل والمناقشة، ويحصلون عليها بعد مشقة.

وهناك رواية أخرى اسمها «أميرة الجبل» كتبتها عن قبائل «الشحوح» التي تعيش على جبال «إمارة رأس الخيمة» بدولة الإمارات العربية المتحدة، ونشرت مسلسلة في مجلة قطرية في السبعينيات، من القرن العشرين اسمها مجلة «الفجر»، وهذه القصة لم أنشرها في كتاب بسبب اعتراض رقابة دولة الإمارات العربية المتحدة، لأن من شخصيات الرواية شخصية تقليدية لها احترامها وحيثيتها..

وكانت فترة وجودي بالمدينة السكنية من أزهى الفترات التي مرت بي فيما يتعلق بالإبداع الأدبي، فقد وضعت عددًا من المؤلفات المهمة في القصة والرواية، وكنت أرسل الممرض عبد الفتاح وهو شاب طيب مخلص إلى القاهرة كل أسبوع، ومعه إنتاجي من القصص القصيرة ليوزعها على الصحف والمجلات التي كنت أكتب فيها بصفة دورية شبه منتظمة.

وفي بيتي بالمدينة السكنية كان يفد الأصدقاء الذين تربطهم بي صلة وثيقة من مختلف أنحاء العالم العربي من سوريا وليبيا وباقي الدول العربية.

فما أجملها من أيام لا تُنسى!!

****

[14] الأيام تمضي

كان شقيقي الأصغر «محمد» يصغرني باثنى عشر عامًا تقريبًا، وحينما أخذوني إلى السجن كان عمره لم يزل صغيرًا وفي نهاية المرحلة الابتدائية، وكان له مكانة عزيزة في قلبي، لذلك كنت أشرف على تعليمه وتوجيهه الوجهه السليمة، لكن شاء القدر أن أتركه في عام 1955 فحزنت لذلك أشد الحزن، وقد انشغل أبي بمأساتي، وذهب الصغير في هذه الأيام القاسية إلى مدينة زفتى القريبة ليواصل تعليمه هناك دون أن تتوفر له الرعاية الكاملة، وعندما كتب الله لي بالإفراج حولت له إلى مدرسة ثانوية في القاهرة ليعيش معي وتحت إشرافي، وعاش محمد سنوات معي، عرف فيها جميع معارفي وأصدقائي وأعمالي، فكان نعم العون لي، ولقد كان لهذا الجو الذي عاش فيه تأثير كبير في أفكاره وشخصيته وحكمه على الأمور، وخاصة أننا نعيش في جو إسلامي بعيد عن الإكراه والضغط النفسي، ونتحاور في أخوة حول كل ما نتعرض له من أمور.

وشاء الله ألا يؤهله مجموعة في الثانوية العامة إلا لدخول كلية «التربية الرياضية» في الهرم، ولاحظت عليه شيئًا من الضيق، فقد كان يريد أن يلتحق بالطب أو الهندسة أو غيرها من كليات القمة كما كانوا يسمونها، لكنني أقنعته بأن اجتهاده في أي كلية، وتفوقه بها سيفتح أمامه المستقبل الباهر، فالإجادة في أي فرع من فروع المعرفة يؤهل إلى المجد، وكان طلبة الكلية في ذلك الوقت يقيمون داخلها حيث يوفر لهم المسئولون الطعام والشراب والرعاية الكاملة، ومن حسن الحظ أنه كان بالكلية أصدقاء مخلصون لي، عاشوا معي سنوات السجن، منهم الأخ الدكتور الأستاذ سليمان حجر المعروف الآن في الأوساط الرياضية ونقابتهم.

وتحقق الأمل فيما بعد، وتفوق محمد في دراسته، ونال درجة الماجستير ثم الدكتوراه، تدرج في وظيفته حتى أصبح أستاذًا ورئيس قسم ووكيل كلية، وهو على أبواب العمادة الآن، ولقد كان أخي محمد. وما زال. الأخ والصاحب والابن، ولا أعتقد أن هناك من هو أخلص لي منه، وهذه نعمة من نعم الله علينا.. فهو إلى جواري في شيخوختي، يسهم بجهوده

المتواصلة من أجل راحتي وإسعادي، ولا أذكر أنه رفض لي طلبًا قط، لقد تنكر لي بعض الأهل للأسف طمعًا وجشعًا، لكن أخي الدكتور محمد ظل ثابتًا على العهد، مقيمًا على الوفاء، لدرجة أنني أشعر وكأن أبناءه أحمد وأماني وأسامة وطارق أبنائي، وكأن زوجته العالمة الفاضلة الأستاذة زينب الشرقاوي ابنة لي لا تقل قربًا إلى نفسي من ابنتي الدكتورة عزة.. ولقد قال أحد الأساتذة الأصدقاء لنا ذات مرة «إنني أحسدكم على أخوتكم التي لا مثيل لها» فقرأت على الفور «سورة الفلق» وقاية من الحسد.

إن موضوع الصداقة الحقة، وصلة الرحم الحميمة، يشكلان أهمية قصوى في حياتي، وأعتبرهما ضرورة من ضرورات الحياة، كالطعام والشراب، بل والماء والهواء.

في أحد أشهر الصيف انتدبتني الإدارة الطبية للعمل في القسم الطبي بالإسكندرية لمدة شهر نظرًا لأن الزميل القائم بالعمل هناك سافر في إجازة سنوية، ورحبت بالأمر لأني قد أجد فرصة للاستمتاع بشاطئ البحر بالإسكندرية إلى جوار العمل، وفعلًا أخذت زوجتي وأولادى وتركنا المدينة السكنية مؤقتًا، ورحلنا إلى الثغر الجميل، واستأجرنا شقة مفروشة ونزلنا بها، كنت أعالج المرضى من الصباح حتى الواحدة ظهرًا، ثم اذهب إلى الشاطئ في حي «كليوباترا» حيث أعطاني الصديق المهندس عبد الفتاح الحسيني مفتاح كبينته وهو العالم الكبير الآن في أمريكا، والمتخصص في الفيزياء النووية، والذي اكتسب الجنسية الأمريكية، وكان الدكتور عبد الفتاح زميلًا لنا في أيام سجن أسيوط المريرة. وفي «كابينة» عبد الفتاح، كنت أجلس أنا وأسرتي نستمتع بمشهد البحر، وذات يوم لمحت الأستاذ الكبير محمد قطب قادمًا من بعيد فهرولت للقائه، ولم يكن شقيقه الشهيد سيد قطب قد أُفرج عنه بعد، وانتقلنا. أنا وهو إلى مقهى فوقه «الكابينة» ممتد داخل البحر، وجلسنا نتحدث في شتى الموضوعات، ثم أخرج كتابًا بالإنجليزية لأحد المستشرقين الغربيين، وأخذ يقرأ لي فقرات من بعض الصفحات تشن هجومًا لاذعًا على كتابات وأفكار سيد قطب وشقيقه محمد، ولم يكن ذلك غريبًا، فإن نسبة كبيرة من المستشرقين مهمتهم الرئيسية التهجم على الإسلام ورجاله وفكره، مع أن هناك عددًا قليلًا آخر من المستشرقين يتصف بالإنصاف والعدل.

وأخذ الأستاذ محمد يتردد يوميًا على الكابينة لنجلس معًا ونتحدث في أمور شتى، وبينما كنا جالسين ذات يوم رأيت رجلًا أزرق العينين، أصفر الشعر، أبيض البشرة يقف فوق درج

«الكازينو» وينظر إليّ بإمعان ولفترة طويلة، لم أعر الأمر التفاتًا في البداية، ولكن استمرار الرجل في وقوفه، ورصده لي ونحن جلوس أمام «الكابينة» جعلني أقف وأدقق النظر فيه بإمعان، ولما عرفته ابتسمت وهتفت به قائلًا: «أهلًا بك يا زكي بك.. تفضل معنا».

فلوح بيده محييًا ثم هبط الدرج لينزل إلى الشارع، ثم يهبط الدرج الآخر الموصل إلى مكان جلوسنا، وقبل أن يصل إلينا، قلت للأستاذ محمد قطب ولزوجتي التي تجلس في الداخل: «احذروا.. وتحفظوا في الحديث.. هذا رجل من رجال الحكومة..».

فمن يكون «زكي بك» هذا؟

لعلي أشرت إليه عندما تحدثت عن الفترة التي قضيتها في سجن أسيوط، فقد كان أحد ضباط السجن، وهو الذي استولى على ديوان شعري الأول «أغاني الغرباء» وكاد أن يتسبب في تقديمي للمحاكمة لما يحتويه الديوان من أشعار تمس الحكم والنظام..

وجلس زكي بك، حيث قدمت له مشروبًا باردًا، وأخذنا نتحدث عن الذكريات المريرة في سجن أسيوط ونحن نضحك، وشر البلية ما يضحك، وظل الأستاذ محمد قطب صامتًا يكتفي بالاستماع، لكن زكي بك كان يشعر بالخجل الذي يخالطه شيء من الندم، وخاصة عندما أشرت إلى «أنهم» أضاعوا من عمرنا سنوات، وعوقوا مسيرة مستقبلنا، فأشار بما معناه أننا أحسن وأسعد منهم حالًا.

وبينما أن منهمك في العيادة صباح أحد الأيام، جاء الممرض وقال: «لم يعد هناك مرضى..». حمدت الله وعولت على المسير إلى إلى شاطئ البحر حيث تنتظر زوجتي وأولادي، لكن الممرض قال: «هناك رجل يريد لقاءك».

- «مريض؟».

- «لا..».

- «أدخله إذن».

لم أكن أعرفه، وأخذت أقيسه بنظراتي، بينما أخذ هو يضيق عينيه ويوسعهما، ثم تنحنح وجلس، وعلى فمه طيف ابتسامة ساخرة، ونظرًا لأني كنت في عجلة من أمرى فقد قلت: «أحب أن أتعرف على الأخ».

- «لست بأخ.. أنا من المباحث (أمن الدولة)...».

شيء كالصدمة ينتابني كلما لقيت واحدًا من هؤلاء المخبرين المحدودي الثقافة، لكني سرعان ما أمتص الصدمة لكثرة تعودي عليها، ذلك أمر لا مفر منه، ولابد من التعامل معهم بمنتهى الكياسة، وإلا فإن تقريرًا واحدًا يمكن أن يسبب لي العديد من المشاكل التي أنا في غنى عنها، وطرح أسئلة مختلفة، متى أتيت إلى الإسكندرية؟ ومتى ستعود إلى القاهرة، من هم أصدقاؤك هنا؟ وأين تقيم؟ وهل تقابلت مع أحد من الإخوان المسلمين؟ وما أخبارك، وفي النهاية طلب مني أن أحضر في السابعة مساءً لمقابلة سيادة المفتش العام لمباحث إسكندرية في مكتبه، ولما سألته عن السبب أجاب بأنه لا يعرف. وذهب من حيث أتى..

واتجهت أنا إلى الشاطئ..

كنت متضايقًا بعض الشيء على الرغم من أن شيئًا كهذا مُتوقع دائمًا.

في الموعد المحدد ذهبت لكي أقابل المفتش، وانتظرت ما يقرب من ساعتين في غرفة الانتظار المكتظة بالتعساء من أمثالي، وكلما استعجلت السكرتير كان يقول: «البك مشغول.. دقائق قليلة وتدخل..».

شعرت بمزيد من الضيق والملل، وقفت وتسللت خارجًا قابلني «المخبر» عند الباب قال في دهشة: «إلى أين؟».

- «عندي عمل في القسم الطبي ولا يمكنني تأخيره».

- «لكن...».

قاطعته قائلًا: «تستطيع أن تحدد لي موعدًا آخر».

مشيت في الشارع والهواء يصافح وجهي المحتقن، أينما ذهبت في أي مدينة أو بلد أجدهم هناك، المخبرون في كل مكان، سواء عرفناهم أم لم نعرفهم، وعلى الرغم من أن ذلك شيء مزعج للغاية، إلا أننا لا نستطيع أن نفعل شيئًا سوى الصبر، نعم الصبر هو الصديق الحميم الذي يلازمني كظلي، ولا يتخلف عني دائمًا، إنني لا أستغنى عنه، وإلا انفجرت.. ولذلك جعل الله جزاء الصابرين كبيرًا وقال في كتابه العزيز ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝١٠﴾ [الزُّمَر:10].

في صبيحة اليوم التالي دخل الممرض عليّ في مكتبي وأخبرني أن هناك زيارة منزلية لمريض موظف، وأنه يقيم في أحد الأحياء الشعبية، وكانت الزيارات المنزلية مرهقة، وتستغرق وقتًا، وقد يكون في اليوم زيارتان أو أكثر، هذا بالإضافة إلى عمل العيادة اليومي حيث يكون عدد المرضى كبيرًا، نسبة كبيرة منهم من المتمارضين، وأخبرت الممرض أننا سنذهب إلى ذلك المريض في بيته بعد أن أتم الفحص للمرضى..

واتخذنا طريقنا إلى بيت المريض، كان مبنى قديمًا واسعًا، عالي الحيطان، متسع الغرف، ودخلنا الغرفة التي يرقد فيها المريض، فوجدتها تضاهي أربع غرف أو أكثر من البيوت الحديثة، كان المريض غارقًا في عرقه، والحمى تشعل جسده، وقد غطى وجهه بشال رقيق، وحينما وكشف الغطاء عن وجهه ذهلت.. هل ممكن أن يكون هو.. وأمسكت «بالأورنيك» المرضي، أو البطاقة المسجل فيها اسم المريض، وتأكدت، وصحت في فرح: «عبد المنعم الوزان؟ كيف حالك..».

وفتح عبد المنعم عينيه بصعوبة، ونظر إلي بإمعان، وسرعان ما أضاءت الفرحة وجهه، وجلس في سريره فاتحًا ذراعية على آخرهما، وتعانقنا بحرارة، إنه أحد زملائي بالسجن في أسيوط، كان وديعًا طيب القلب، على الرغم من عوده الفارع، وجسمه القوى، وكانت هناك ابتسامة طفولية لا تغادر محياه، وكان دائمًا يتميز بالشهامة والكرامة وإنكار الذات، وربما كان هذا الخلق القويم هو السبب في أخذه من بيننا، و«تغريبه» إلى سجن آخر بعيدًا عنا.

كان لقاؤنا عامرًا بالمشاعر الحية التي لا يمكن أن يخمدها الزمن، وعادت الذكريات وتركزت في لحظة قصيرة من العمر، وكان إخوة عبد المنعم وأبوه يحيطون بسريره، ولم يكن أحد منهم يتوقع هذه المفاجأة، وعلى الفور تحولت من طبيب إلى صديق، ونسينا المرض لدقائق، وقدموا ألوان شتى من الفواكه والمشروبات، وبدا وكأن عبد المنعم قد شفى من مرضه، قلت لعبد المنعم: «لم أكن أعلم أنك خرجت من السجن، ولم أكن أعلم أيضًا أنك تعمل في السكك الحديدية».

ابتسم كعادته وقال: «خرجت منذ شهرين فقط.. وعدت إلى عملي السابق الذي تركته من سنوات طويلة، إن أبي وإخوتي جميعًا موظفون بهيئة السكك الحديدية.. وأنا سعيد أنك معنا.. لم أكن أعلم ذلك..».

وبدأت الفحص، كانت درجة حرارته أقل قليلًا من أربعين درجة، وكان بصدره التهاب شعبي حاد، وطمأنته، وكتبت له العلاج، وأصر على أن أتناول معهم طعام الغداء في الغد. لكني طلبت منه تأجيل ذلك حتى يُشفى، ويأتي إليّ بعد الإجازة المرضية التي سمحت له بها، وكانت لمدة أسبوع.

كانت أمي رحمها الله تقول حكمة شعبية جميلة نصها «مصير الوجوه تتلاقى». ولذلك كنت كلما ذهبت إلى مكان أجد لي فيه إخوة وأحبابًا، أغلبهم على شاكلة الأخ عبد المنعم الوزان، وعندما سافرت في شهر العسل (بعد الزواج) إلى الصعيد قاصدًا الأقصر (البلد السياحي المعروف) وأسوان، كنت كلما نزلت بلدًا وجدت فيها إخوة أعزاء، وكنت أقرأ لافتات الأطباء على عياداتهم الخاصة فأفاجأ بصديق منهم، وكلما رآني واحد منهم أخبر الآخرين، فلا يكاد يمر يوم إلا وأجدني وسط حشد كبير منهم وأراهم يتسابقون لدعوتي كي أنزل عليهم أو أقبل دعوتهم للغداء أو العشاء، ألا يبعث هذا على المتعة والسعادة؟ ألا يعني ذلك أن الأخوة الصادقة المخلصة لا تقدر بالمال؟

والغريب أن في الإسكندرية أبناء خئُولة وعمومة، ولكني كنت قليل الاتصال بهم، والمجاملات بيني وبينهم محدودة في تلك الفترة، وعلى الجانب الآخر كان إخوة العقيدة دائمي الاتصال بي، والزيارة لي، وصدقت الحكمة التي تقول: «رب أخ لك لم تلده أمك».

وأخيرًا عدت بعد فترة الانتداب من الإسكندرية إلى المدينة السكنية بأبو زعبل، واستأنفت مسيرة حياتي السابقة من جديد، واستقبلني الإخوة والأصدقاء بحفاوة بالغة، ولم يكد يمضي أسبوعان حتى كلفت بانتداب آخر إلى أين؟ إلى أسوان أقصى جنوب مصر، حيث كان يجري بناء السد العالي على قدم وساق، ولم يكن يُقبل أي عذر مهما كان لأي موظف يكلف بالعمل في السد العالي.

قلت لزوجتي:

- «ماذا أفعل؟ من انتداب إلى انتداب آخر؟ يا قلبي لا تحزن».

وردت على الفور قائلة: «سآتي معك».

- «والأطفال».

- «سنأخذ معنا حسام الدين، ونترك عزة وجلال الدين مع أمي حتى نعود».

واستطردت قائلة: «لم نذهب إلى أسوان منذ شهر العسل، وأريد أن أستعيد الذكريات الجميلة، ستكون رحلة ممتعة بإذن الله».

- «إن مما يحنقني أن الإدارة الطبية بها عدد كاف من الأطباء، لكن الانتداب لا يقع إلى علي، لأن الوساطة تتدخل وتفسد العدل والنظام، أتراني أدخل في صراع جديد معهم؟».

- «يا رجل.. سنذهب في رحلة مجانية، وسنشاهد السد العالي حتى نستطيع في المستقبل أن نحدث أولادنا وأحفادنا عنه بعد أن نشاهد إنشاءه بأعيننا قبل أن تتدفق فيه مياه النيل.. والسفر في القطار بالمجان، والإقامة بالمجان.. فماذا تريد بعد ذلك؟».

وفي اليوم المحدد للسفر، ذهبنا إلى القاهرة، وقصدنا المحطة الرئيسية لقطارات السكك الحديدية، وركبنا قطار الثامنة مساءً، كان الطريق طويلًا، والقطار ينطلق بسرعة، لكنه كان يتوقف مرات عديدة، لا ندري لماذا، وأحيانًا كان يطول توقفه، وبقيت متيقظًا طوال اليوم، فأنا لا أستطيع النوم في وسائل المواصلات مهما امتد زمن السفر، أما طفلنا حسام الدين فقد نام، واستيقظ بعد ساعات، ثم وقف في صالون الدرجة الأولى الذي نشغله وقال في ملل: «عايز أروح بيتنا...».

وأخذ يبكي مصرًا على أن يعود إلى بيته، ولم يسكت إلا بعد أن أعطيناه قطعة من الشيكولاته، وأسمعناه بعض قصص الأطفال الشيقة التي يحبها، ثم نام مرة أخرى، ونامت إلى جواره أمه، وبقيت يقظان حتى أشرقت الشمس على الدنيا، وبسطت أشعتها على الحقول، وتدفقت عبر نوافذ القطار، ولم نصل إلى أسوان إلى حوالي الساعة الحادية عشرة صباحًا.. أي بعد خمس عشرة ساعة، وهي مدة طويلة جدًا تزيد عن المدة المقررة بعدد من الساعات.

كنت أشعر بإرهاق شديد للغاية، واستقبلني بعض العاملين بالقسم الطبي بأسوان، وأنزلوني في بيت إلى جوار المحطة، الدور الأسفل منه للعيادة، والدور الأعلى للسكن، وكنت مضطرًا للعودة إليهم على الرغم من التعب الشديد الذي أشعر به.

وما إن انتهيت من عملي حتى طلبت من الممرض أن يأخذ نقودًا ويذهب ليشتري لنا بعض الطعام والمتطلبات المنزلية الأخرى وصعدت إلى الطابق الثاني كانت زوجتي نائمة وإلى جوارها طفلها.

كانت القطارات تشحن بأطنان كبيرة من الأسمنت والمواد الأخرى والمعدات إلى موقع السد العالي يوميًا، وبعد يومين أو ثلاثة أخذت زوجتي وطفلي لزيارة هذا العمل الضخم الذي يتحدث عنه العالم، والذي تسبب في إشعال حرب ضارية بيننا وبين إسرائيل وحلفائها من الإنجليز والفرنسيين، والواقع أن الإنسان يعجز عن إعطاء الوصف الشافي والدقيق للأعمال الجبارة، والنشاط المذهل، والجهد المتواصل الذي يبذل في بناء السد العالي، والذي غير وجه الحياة تمامًا في أسوان المدينة وفيما حولها من جبال وأراضٍ، فقد رصف العديد من الطرق، وأنشئت المدن الجديدة، وأقيمت مصانع أساسية أو تكميلية، ومئات الحافلات والسيارات والمركبات الميكانيكية تتحرك صاعدة نازلة، وفي موقع السد نفسه أعداد هائلة من العمال وانفجارات وضجة كبيرة حتى ليصاب الإنسان بالذهول وأمسكت بيد طفلي، وإلى جواري زوجتي، وطلبنا الأذن بالسير داخل أنفاق السد الضخمة الآمنة، ودخلنا أحد هذه الأنفاق وقلت لزوجتي: «إن هذا المكان الذي نسير فيه سوف تغمره المياه بعد ذلك، ولن يمشي فيه أحد حتى مئات، بل ربما آلاف السنين.. هذه فرصة تاريخية لأقول بأمانة وصدق إنني أخذت بروعة هذا العمل العظيم، وكنت سعيدًا بأن أقضي في رحابه ما يقرب من شهر ونصف على دفعتين، وتعرفت خلال هذه الفترة على عدد من كبار المهندسين المصريين والعاملين في شركات المقاولات وموظفي العلاقات العامة، وفي أسوان أيضًا التقيت بعدد من الزملاء القدامى في كلية الطب ومن الإخوان أذكر منهم الدكتور صلاح راشد وهو شخصية مرموقة في بلده ومسقط رأسه أسوان، والدكتور عباس نوير وهو من الكوادر السياسية، والدكتور فايز نخلة وهو زميل مسيحي متفرغ لعمله الطبي وغيرهم.

في أحد الأيام بعد انتهاء العمل جاءني الممرض في مسكني وقال: «مطلوب تحنيط اثنتين وثلاثين جثة..».

صدمت لما قاله وهتفت: «اثنتان وثلاثون».

- «نعم..».

- «كيف ماتوا..».

- «انفجار في السد العالي أثناء العمل، إنهم يضعون المتفجرات ليحطموا الصخور، ولابد أن يكون هناك ضحايا.. وكل جثة لا يسمح بتسفيرها إلى موطنها إلا بعد تحنطيها هذا هو القانون».

- «ولماذا أنا بالذات؟».

- «لأن طبيب السكك الحديد هو المختص بذلك».

- «وإذا رفضت؟».

- «ينتدبون الطبيب مفتش صحة بندر أسوان».

- «حسنًا فليفعلوا ذلك...».

قال الممرض في شيء من الغضب: «هذا رزق، فكيف ترفضه؟».

- «لم أفهم..»..

- «إن لك على كل جثة سبعة جنيهات للتحنيط، وهذا مبلغ كبير جدًا إذا حسبته، وأنت لن تفعل شيئًا في عملية التحنيط، ستكون تحت إشرافك، وسأقوم أنا بالعمل الفعلي مقابل جنيه واحد لكل جثة..».

لا أدري لماذا شعرت بالحزن والغثيان، ووجدت لديّ صدودًا عن إتيان هذا العمل، بل لم أستطع مجرد الاستمرار في التفكير فيه، ولم يعد لدي أدنى رغبة في الحديث عن ذلك، لذلك قلت للممرض: «دعني، ولا تعد لهذا الأمر، ودبر الأمر مع مفتش صحة البندر».

ولم تكد تمر ساعة حتى دق جرس الباب، وعندما فتحت وجدت رجلًا أشيب طويل القامة يقف عند قمة الدرج، ويقول: «مساء الخير يا دكتور، أنا الدكتور «جورج»...» مفتش صحة المركز، جئت أعاتبك، كيف تترك حقك ليبتلعه «ابن ال...» مفتش صحة البندر؟ إنه ليس من حقه..».

- «لكني لا أريد ذلك يا أخي..».

- «أنت لم تزل صغير السن، ولا تعرف مصلحتك.. يجب أن تنزل فورًا لتأخذ رزقك..».

ولم أستجب لطلبه، كانت «رزق» هنا في غير موضعها، بل تثير اشمئزازي، فهبط الدرج غاضبًا متوترًا، وهو يلقي بكلمات احتجاج وتأنيب ولوم لم أتبين ألفاظها جيدًا، وعلمت أن

هناك صراعًا وتنافسًا بين مفتش صحة البندر، ومفتش صحة المركز، وأنهما يستشعران نحو بعضهما كراهية شديدة، وأن كلا منهما يحاول أن يكون له حق التحنيط في حالة غياب طبيب السكة الحديد.

قضينا أيامًا جميلة في أسوان، وزرنا جزيرة النباتات، و«مدفن أغاخان» الشهير، وسهرنا في فنادقها الجميلة الحديثة آنذاك مثل فندق «نيوكتاراكت» الحديث والقديم، وذات يوم جاءني الممرض وقال: «هناك زيارة منزلية لابد من الانتهاء منها الآن».

- «لماذا؟».

- «لأن المريض يدّعي المرض، وهو سائق قطار، وإعطاؤه إجازة يعني عدم إرسال ثلاثة آلاف طن أسمنت إلى السد العالي، وناظر المحطة سيأتي إليك بنفسه لهذا الأمر..».

- «وأين يسكن سائق القطار؟».

- «في جبل الحكروب».

- «ماذا تقول؟».

- «أقول جبل الحكروب..».

- «وكيف الوصول إليه».

- «نركب الحافلة حتى سفح الجبل، ثم نترك الحافلة ونركب حمارًا، أو نمشي في طريق الجبل، حتى نصل إلى المدينة السكنية..».

- «إذن هيا بنا».

نزلنا من الحافلة عند الجبل، وبدأنا نصعد الطريق الضيق الملتوي، وأمامنا رجل يرتدي زيًّا أزرق يسبقنا بحوالي خمسمائة متر، ولم أجد أثرًا لمبانٍ على الجبل، ولما سألت الممرض عن الوقت الذي سنقضيه في الوصول أجاب بأنه حوالي نصف الساعة أو أقل قليلًا، وقال إن الرجل الذي يسير أمامنا متجه هو الآخر إلى المساكن الشعبية هناك، كان الجو حارًا، والعرق يسيل، وأنا أجر ساقي جرًّا، والوقت بعد الظهر، والممرض يحمل الحقيبة التي بها أدوات الفحص، وبعض أدوية الإسعافات الأولية، وأخيرًا ظهرت المساكن على إحدى القمم، وكانت عبارة عن عمارات جديدة بيضاء من أربعة طوابق، وتجولنا بحثًا عن رقم العمارة،

ووصلنا بعد أن نال منا التعب، كان الرجل راقدًا في فراشه، لكنه في حالة جيدة، ولا تبدو على وجهه علامات ألم أو ضيق، بل كان على فمه ابتسامة خفيفة، وحوله عدد من الأطفال والنسوة، وقبل أن أبدأ الفحص: «إن ناظر المحطة رجل ظالم، دائمًا يضطهدني، ويكلفني بأشق الأعمال ويترك زملائي يمرحون..».

قلت بإيجاز وأنا أجفف عرقي: «مم تشكو؟».

- «صداع، وآلام عامة في الجسم».

- «وهل هذا يمنعك من الحضور للعيادة؟».

- «لم أستطع التحرك، ماذا أعمل؟».

- «الزيارة المنزلية كما تعلم للحالات الشديدة والمرضى الملازمين للفراش».

- «وهل تراني ألعب الجمباز؟ إنني ملازم الفراش كما ترى».

وقمت بفحصه بدقة استغرقت وقتًا لا بأس به، وجدت درجة الحرارة طبيعية، وأرقام ضغط الدم لا غبار عليها، والقلب والصدر سليمان، والحلق والزور لا أثر فيهما للاحتقان أو الالتهاب، ولما تأكدت أنه متمارض، أمسكت بالبطاقة وكتبت عليها «لائق، ويعود لعمله فورًا» كنت أتكلم بما أكتب، وكتبت له ورقة بهذا المعنى وسجلت في الملاحظات «خصم مصاريف زيارة الطبيب لحساب هيئة السكك الحديدية»، لكني للأسف رأيت المتمارض بطرف عيني وهو يخرج لسانه استهزاء للممرض، وتظاهرت بأني لم أر شيئًا.

عدت أنا والممرض في نفس الطريق، وروادتني فكرة، قلت: «أليس هذا هو الرجل الذي كان يسير أمامنا على الجبل».

رد الممرض ببرود عجيب: «بلى.. إنه هو نفسه».

- «ولماذا لم تخبرني؟».

- «وما الفائدة، ثم إننا أبناء بلد واحد، ولا يصح أن أعقد الأمور بسببه».

ثم التفت إلي قائلًا: «ألا تعلم أن تقريرك هذا سيتسبب له في قطع أجر خمسة أيام من مرتبه؟».

- «أعلم، لكنه يستحق...».

حينما عدت إلى المسكن، سألتني زوجتي عن سبب تأخيري، فرويت لها ما حدث وأنا أخلع ملابسي، وارتدى منامتي، وضحكت عندما سمعتها تقول: «جبل الحكروب اسم رائع لقصة جديدة.. رومانسي جدًا.. «وداعًا يا جبل الحكروب» أليس هذا عنوانًا جميلًا».

- «الجبل موجود، ولكن أين القصة».
- «إذا لم توجد تستطيع أن تخترعها..».
- «تعرفين أنني لا أنطلق إلا من الواقع.. حتى ولو كان بسيطًا..».
- «الواقع أمامك.. فلتحلق بخيالك..».
- «لا أستطيع أن أبدع وأنا جائع..».

ضحكت وأخذت تعد المائدة لنأكل، فقد اقترب وقت صلاة العصر ذكرتني زوجتي بمنحة التفرغ التي نلتها قبل ذلك، لكي أكتب رواية عن السد العالي، فماذا كانت قصة هذه المنحة؟ وكيف كنت سأكتب قصة دون أن أرى السد الذي هو موضوعها؟ ولقد وضعت وزارة الثقافة في مصر لائحة خاصة «بمنحة التفرغ للفنانين والأدباء»، وشكلت لجنة من كبار الكتاب لفحص الطلبات التي ترد إليها من الأدباء الراغبين في التفرغ لمدة عام واحد يجدد عند الضرورة، وتقوم هذه اللجنة بتقدير راتب شهري مناسب للعضو الذي ستوافق على تفرغه، ولابد لطالب التفرغ أن يقدم إنتاجه الأدبي السابق الذي يرشحه لذلك، وكان من أعضاء لجنة التفرغ الأساتذة الكبار: الأستاذ عباس محمود العقاد، والدكتور طه حسين، والأستاذ يحيى حقي وغيرهم، وعزمت أن أتقدم بطلبي للتفرغ مرفقًا به مؤلفاتي السابقة، وعلمت من سكرتير اللجنة وأظنه الأستاذ الشاعر الدكتور عبده بدوي، أن اللجنة وافقت على منحى التفرغ ثم تراجعت بعد أن قرأت في البيانات المدونة بطلبي أنني «طبيب مكلف بالعمل لمدة سنتين تتجدد تلقائيًا ورأت اللجنة أنه ما دام الأمر كذلك فإنني لن أستطيع ترك عملي الطبي. ولو مؤقتًا. وأتفرغ للأدب، وكان المشروع الذي قدمته هو كتابة رواية عن السد العالي ذلك الحدث الكبير في تاريخ مصر، وقررت اللجنة إرجاء البت في الطلب، وفهمت من الصديق السكرتير أن الذي يستطيع إعادة النظر في الموضوع هو الدكتور طه حسين، أو الأستاذ العقاد، وكانت وجهة نظري أن حق التفرغ له أمر بعيد الأثر في وضعي الأدبي، وأن اللجنة عليها أن توافق على تفرغي ما دامت مقتنعة. وهذا حقي، بصرف النظر عما إذا كنت

سأنفذ التفرغ أم لا، وكانت اللجنة قد وافقت على منحة التفرغ للأستاذ الصديق علي أحمد باكثير لكتابة مسرحية عن عمر بن الخطاب، وقد كتبها في ستة عشر جزءًا، صدرت عن مكتبة مصر بالفجالة، وقد تفرغ لهذا العمل عامين كاملين، وعزمت على مقابلة من أستطيع من أعضاء لجنة التفرغ لأقنعهم بإعادة النظر في الموضوع.. وهكذا التقيت بالأستاذ يحيى حقي فوافق، ثم ذهبت غلى الأستاذ العقاد، كما سبق وشرحت في مكان آخر، وعندما قابلته في منزله بمصر الجديدة في يوم جمعة أثناء ندوته الأسبوعية، قدمت نفسي إليه دون إلقاء قائلًا: «أنا نجيب الكيلاني».

فابتسم وصافحني قائلًا: «أهلًا يا دكتور».

أدركت أن الرجل رحمه الله يذكرني، بدليل أنه أضاف كلمة دكتور إلى اسمى، ودخلت في الموضوع مباشرة، وشرحت له قضية تفرغي، فقال إنه تذكر ذلك الموضوع، ثم صمت برهة وقال بالحرف الواحد: «الذين قرءوا كتبك يثنون عليك، وأعدك بأن أوافق عند إعادة طرح الموضوع».

ولم يبق إلا أن أذهب إلى الدكتور طه حسين فأنا لم أقابله منذ أن تسلمت منه الميدالية الذهبية في عيد العلم (ديسمبر 1959) في حضور رئيس الجمهورية جمال عبد الناصر، بمناسبة فوزي بالجائزة الأولى في مسابقة القصة القصيرة لذلك العام، لكن الأستاذ ثروت أباظة الكاتب المعروف تكفل بذلك نيابة عني، وتمت موافقته هو الآخر وصدر القرار أخيرًا.. القرار الذي لم أنفذه، ذلك لأني وجدت صعوبة لدى الجهات التي أعمل بها، ولكني لم أشعر بالضيق لذلك، فقد كنت دائمًا حريصًا على أن أظل وثيق الصلة بمهنتي الإنسانية، ولا أفترق عنها حتى أبلغ سن التقاعد، وأن يكون الأدب مجرد هواية جادة وليس احترافًا أو تفرغًا، على الرغم من أن أصدقاءنا وإخواننا في المغرب العربي، كتبوا عن ضرورة تفرغي للأدب لأهمية الاتجاه والمبادئ التي أؤمن بها، وأدعو إليها.. استمر انتدابي في أسوان المدينة التي أحببتها لأكثر من شهر، كنت أجد الفرصة المواتية لأتنزه في نهر النيل الجميل، وأذهب إلى المدن الصناعية الجديدة التي تثلج القلب، وأزور مواقع السد العالي التي لا أمل من مشاهدتها، وأسجل بعض القصص والخواطر عن ذلك، وفي أحد الأيام جاءني الممرض يقول: «الدكتور (م...) وصل من الأقصر ليشاركك في الفحص الثلاثي».

كان هناك يوم محدد كل فترة لفحص العمال الذين يعانون أمراضًا مزمنة، ولابد لهذا الفحص أن يتم بواسطة طبيبين، ونزلت ورحبت بالدكتور (م...)، وتراص العمال في صف طويل، وبدأنا فحص النظر، وكم كان ذهولي عندما رأيت الدكتور يكتب قوة الإبصار عند الرجل الذي نفحصه أنها 12/6، مع أني لاحظت أنها 24/6، وتوقفت عن العمل وقلت له: «إنك تخطئ يا دكتور (م....)».

قال وهو يسدد إلي نظرات ذات معنى: «لقد دفع المبلغ المطلوب».

هتفت في دهشة: «ماذا؟».

- «أقول دفع خمسة جنيهات».

- «لماذا؟».

- «لينجح.. أم تريد أن تقطع رزقه».

كان الكلام يدور بيننا همسًا:

وضعت القلم، وخلعت الساعة، وقلت: «آسف.. لن أشاركك في الفحص».

- «لماذا؟ الأمور تمشي على هذا النحو من قديم، ويا بخت من نفع واستنفع.. وأستطيع أن أفحص وحدي، وبعد ذلك أحضر أحد الزملاء في الأقصر ليوقع معي..».

وعدت إلى مكتبي في العيادة، وأنا أنتفض من الغيظ، إن المخالفات ترتكب جهارًا نهارًا، والرشوة تُؤخذ دون خوف، تمامًا مثلما كان يحدث في المنطقة الطبية بطنطا، وما زال المذياع يتحدث عن الثورة.. والنقاء الثوري.. عصر الطهارة والعدالة والحرية والاشتراكية، وانتهى الفحص الثلاثي، وأخذ (م..) الأوراق، ثم جلس معي يشرب الشاي في هدوء غريب، ويضحك معي، ثم لاحظت مجيء فتاتين حاسرتين يسلمان علينا، وعرفني (م..) بأنهما أختاه، وبعد أن اتجه لأخذ القطار الذاهب إلى الأقصر، قهقه الممرض وقال: «هل صدقت أنهما اختان له؟».

- «نعم، وماذا في ذلك؟».

- «يا دكتور أنت رجل طيب، لا تصلح لهذا الزمان».

فهمت ما يرمي إليه، إن الأمر في غاية العجب، فهناك رجال تحت الشمس يصنعون ما يشبه المعجزة بالسد العالي، وعلى الجانب الآخر رجال يرتشون ويسرقون ويستغلون نفوذهم، وعلى امتداد الوادي فقراء لا يجدون القوت، وعلى قمة السلطة رجال أصبحوا ملوكًا أو كالملوك بما حصلوا عليه من مال حرام، وسلطة جائرة لا ترحم، ونفوذ خرافي لا يعترضه أحد، والغريب أن عامة الناس يعرفون الكثير، لكنهم لا يستطيعون الشكوى، أو حتى مجرد الإفصاح عما يقلقهم.

انتهت أيام الانتداب الجميلة، وحملت أمتعتي، ومعي ابني وزوجتي، وركبنا قطار الصعيد المتجة إلى الشمال.

وفي الطريق بدت لنا بعد ساعات محطة قطار مكتوب عليها «بني مر» قلت لزوجتي: «انظري.. واقرئي اللافتة».

- «ماذا هناك؟».

- «ألا ترين تلك القرية البعيدة؟».

- «نعم».

- «إنها بلدة عبد الناصر بن الحاج حسين، والد الرئيس...».

هزت رأسها قائلة: «لقد قطع مشوارًا طويلًا من هنا حتى...».

ولم تكمل، أكانت تريد أن تقول «حتى القاهرة» أم «حتى القمة»، لا أدري وسبحان المعطي الوهاب!

وعدنا إلى المدينة السكنية بأبو زعبل.. ذلك الحصن الدافئ المريح..

عندما جلست في مكتبي كنت أستشعر السعادة تملأ قلبي، أخذت ألامس بنظراتي الحانية قطع الأثاث في المكتب، والأدوات الطبية الموضوعة أمامي، وأنظر عبر الباب والنافذة إلى الناس الطيبين الذين أحبهم. وراودني إحساس داخلي بالخوف وتساءلت: هل يمكن أن يحدث ما يعكر الصفو، وأترك هذا المكان الجميل المريح الذي اختلط بروحي وكياني؟

لست أدري لماذا راودني هذا الخاطر:

يا إلهي!! ماذا قد يحدث في الغد؟

[15] أدب الحياة والحرية

دائمًا كانت تشغلني قضية الحرية، ذلك لأننا شعب ابتلي من قديم السنين بملوك وولاة وحكام قلما يرعون حق الله وحق العباد، ولقد كانت للتجربة المريرة التي خضتها أكبر الأثر في تعميق الإحساس بالحرية، وأهميتها للإنسان حتى يبدع ويجدد، وللوطن حتى ينمو ويتقدم ويزدهر، ولهذا فإن الكم الأكبر من قصصي ورواياتي، بل ومؤلفاتي الأخرى تدور حول هذا المعنى النبيل، وذلك من خلال التصور الإسلامي الصحيح، والواقع أنني نشأت في أسرة من عامة الشعب، كانت تتميز بروح الحرية والتسامح والتفاهم، ولم يكن فيها أي نوع من الإكراه أو القهر أو القسوة، فضلًا عن أنني كنت أهيم في عالم المفكرين والمصلحين وقادة الرأي من خلال قراءاتي المستمرة عن القادة والمثل العليا التي تحلق في أجواء عالية تخلب اللب، وتثري الروح، وتبعث على الأمل والتفاؤل والثقة، ولهذا صدمت في حياتي صدمة رهيبة حينما رأيت ما رأيت من قسوة وإذلال وتعذيب في السجون، وفي السجن الحربي بالذات، ومهما كانت المبررات والأسباب لهذا الظلم الفادح، فإنه أمر شاذ مدمر، لن يثمر إلا المآسي والأحزان، والخيبة والهزيمة النكراء للأمة كلها.

أعجبت بشخصية الداعية الإسلامي والمصلح الكبير «جمال الدين الأفغاني»، وأخذت أتقصى أفعاله وأقواله وحياته المليئة بالجهاد والعجائب، وكنت في تلك الفترة أعزم كتابة رواية عن انعكاسات الحرب العالمية الأولى على مصر (1914-1918)، وعن ثورة الشعب وسعد زغلول باشا المعروفة بثورة 19 (1919)، وتجولت في كتاب التاريخ الذي كتبه المؤرخ عبد الرحمن الرافعي، وفيه تسجيل مفيد وموسع عن هذا الأحداث وغيرها، حتى أتمثل الخلفية التاريخية سياسيًا واجتماعيًا في تلك الفترة لأن ذلك ضروري للقاص أو الروائي الذي يستلهم التاريخ..

وهكذا بدأت في كتابة رواية «النداء الخالد» وأعني به نداء الحرية طبعًا، ولجأت إلى حيلة فنية مقبولة، إذ جعلت «الشيخ عنبة» وهو أحد أبطال النداء الخالد مغرمًا بشخصية جمال

الدين الأفغاني، حافظًا للكثير من نصوص أقواله وكتاباته، وكان من عادة الشيخ عنبة ألا يرد على سؤال إلا بقول مأثور لجمال الدين الأفغاني، ويسبق ذلك بقوله «يقول حبيبي كذا وكذا» ويقصد بالحبيب الأفغاني وهكذا شاعت في أجواء القصة روح الأفغاني وفكره، ودعوته الصادقة من أجل تحرير المسلمين من الظلم والاستعمار، وتحرير الإسلام من الخرافات والخزعبلات، ولقد كانت هذه القصة من ثمرات الحياة الوادعة المطمئنة في مساكن أبو زعبل.

ومن الروايات التي كتبتها في هذه الفترة رواية «الكأس الفارغة»، وهي رواية تجري أحداثها في منطقة قنال السويس، والصراع الدائر هناك بين الفدائيين من الإخوان المسلمين وبين القوات البريطانية المستعمرة، ولقد كان لي في هؤلاء الفدائيين أصدقاء وإخوة أعزاء بعضهم ضحى بحياته في سبيل الله، وسلمت الرواية بعد الانتهاء من كتابتها للناشر حسن إيراني صاحب الشركة العربية للطباعة والنشر والتوزيع بميدان إبراهيم باشا «الأوبرا سابقًا» وسلمها على الفور لمطبعة «النزهة» وأظنها في «حي شبرا» وفعلًا بُدئ في الطبع، وصححت من التجارب (البروفات) أكثر من مائة صفحة، وفجأة توقفت مطبعة النزهة عن الطبع، ولما سألت عن السبب قيل إن الحكومة فرضت الحراسة عليها، واستولت على أموالها، واحترت ما مصير روايتي؟ وذهبت إلى البك الحارس الذي عينته الحكومة، وطلبت منه نصوص الرواية، فأخبرني أنه لا يستطيع التصرف في شيء الآن، وأخذت أجري هنا وهناك بضعة شهور دون جدوى، ويئست من استرداد روايتي «الكأس الفارغة» وعدت بعد جهد جهيد بيد فارغة، وللأسف الشديد لم يكن لدي نسخة من هذه الرواية، ولم أستطع الاستدلال بعد ذلك على الحارس أو على أصحاب المطبعة الأصليين، وضاع الجهد الذي بذلته في كتابة هذه الرواية التي كنت أعتز بها أيما اعتزاز قالت زوجتي: «لماذا لا تكتبها من جديد».

- «يصعب ذلك.. فأنا لا أتذكر إلا إطارها العام، والشيء الذي أكتبه مرة، لا أندفع إليه بنفس الحماسة إذا عدت لكتابته مرة أخرى..».

وحزنت أشد الحزن، مثلما حزنت على كتابي «الرافعي في موكب البعث» الذي أحرقته يد لا تقدر قيمته، ومثلما حزنت على مسرحية «حسناء بابل» التي كتبتها في السجن عن «هاروت وماروت» وصادرتها إدارة سجن أسيوط أثناء قيامها بحملة تفتيشية متعنتة، ولم يكن لدي

صور لهذا الإنتاج الأدبي القيم الذي ضاع، وهناك عدد من قصائد الشعر ومن القصص القصيرة والمقالات لقيت نفس المصير المؤلم، ولقد سبق وأشرت إلى أن رواية «الظل الأسود» هي الأخرى كانت قد فقدت في بيروت ولم نعثر عليها إلا بعد خمسة عشر عامًا، ودفعنا فيها مبلغًا كبيرًا من المال حتى نستردها وقد نجحنا في ذلك والحمد لله، ومما تجدر الإشارة إليه أن الطبعات الأولى أو التالية لبعض كتبي قد نفدت، وكنا نحاول أن نبحث عن نسخة منها لإعادة الطبع فنعجز، من ذلك كتابي عن الشاعر الفيلسوف محمد إقبال، وكتابي عن أمير الشعراء شوقي، وديوان أغاني الغرباء وغيرها من الكتب، وذلك راجع لإهمال بعض الناشرين، ولإهمالي أيضًا في الاحتفاظ بنسخ من مؤلفاتي، أو بصورة منها..

كنت حريصًا أثناء عملي بالمدينة السكنية على أن أبتعد عن العمل السياسي حسب قرار الحكومة بالعزل السياسي، حتى أبعد عن نفسي شبهة العداء والتآمر ضدهم، وما أيسر إلصاق تهم كهذه بأي معارض سياسي لسبب أو لآخر، وحدث أن أضرب عمال «الظهورات» في ورش السكك الحديدية بأبو زعبل، مطالبين بتثبيتهم على درجات وظيفية أسوة بزملائهم، وامتلأت الورش برجال الأمن، وحوصر العمال، وبعثت النيابة العامة برجالها للتحقيق، وكان بعض العمال يغمى عليهم فينقلونهم إلى المستشفى، وكان مدير المستشفى رجلًا صارمًا لا يحب المشاكل، ويعتقد أن حالات الإغماء ما هي إلا افتراء، وادعاء وكذب، وعلاجه لذلك كلمة يقولها ويعرفها الناس في المدينة السكنية: «هات اثنين سنتيمتر يا عبد الفتاح». وعبد الفتاح هو الممرض، والاثنان سنتيمتر هما من الكحول، وعادة يحقنها المدير تحت جلد المريض في فخذه، فيشعر بما يشبه النار ترعى في جسده، فيطلق صرخة مدوية، ويقفز من فوق السرير كمن لدغته عقرب، ويفر هاربًا، وهكذا عرفه المتمارضون والمدللون من أهل المدينة السكنية رجالًا ونساءً، ولهذا عندما يسمعونه يقول 2 سم يا عبد الفتاح يفرون هاربين، وحاولنا إقناع المدير بعدم اللجوء لهذا الأسلوب، وخاصة أن الحقنة تترك قرحة كبيرة في الجسم، ولكن دون جدوى، ولم يفكر أحد من الأطباء العاملين معنا في اللجوء لتلك الطريقة، وعندما حمل بعض المغمى عليهم من العمال المضربين إلى المستشفى قال البك المدير: «اتركوهم لي.. حقنة اثنين سنتي يا عبد الفتاح». وهكذا قفز العمال المسجون في الفراش، وأخذوا يهرولون طلبًا للنجاة.

أجرى وكيل النيابة التحقيق مع كل فرد على حدة، ثم وعدهم بالنظر في مطلبهم العادل. وأقنعهم بأن الحكومة حريصة على مصالح العمال، وهي في طريقها لتدبير الدرجات والميزانية اللازمة لذلك في أقرب وقت ممكن حسب أوامر الرئيس جمال عبد الناصر، وانتهى الموضوع على خير، فقد وافق العمال على العودة إلى أعمالهم مخافة اعتقالهم وطردهم، وأبدوا ترحيبًا بالوعود الجادة التي سمعوها من المسئولين، والحقيقة أن مطالبهم قد أجيبت فيما بعد، لكن طوال هذه المدة حرصت على ألا يكون لي أدنى صلة بتحركات العمال، وإلا اتهمت بإثارتهم وتحريضهم على الإضراب، وعندئذ -لا قدَّر الله- ستتجه أصابع الاتهام نحوي، وينسون الفاعلين الأصليين، سألني يحيى بك كامل أمين رئيس المباحث بالمنطقة عن رأيي في هذا الموضوع، قلت: «لا تجرني لمثل هذه الأمور».

- «أسألك كأخ، وليس كمعزول سياسي».

قلت له معتمدًا على الله المنجي: «يجب أن تعطوهم حقهم، وخاصة أن الثورة تعلن دائمًا أنها في صف العمال والفلاحين، فكيف يعيش هؤلاء الناس ويعولون أسرًا، وهم يتقاضون أجرًا ضئيلًا، ومستقبلهم غير مؤمن؟ إن «الظهورات» يعملون بصفة مؤقتة، وقد يُسرحون في أي وقت، فمن أين يأكلون؟».

- «أنا معك في هذا الرأي، وسوف أسجله في تقريري».

وفي عام 1964 بعد ولادة ابني جلال الدين بفترة طلبت زوجتي أن تكمل دراستها في معهد الخدمة الاجتماعية بالقاهرة، ووافقت على الفور نظرًا لأني كنت قد اتفقت مع والدها الشيخ قبل الزواج أن تتم تعليمها، وكانت هناك عقبات منها أنها سوف تذهب إلى القاهرة يوميًّا بعد الظهر وتعود في المساء لأن الدراسة مسائية، ومنها أيضًا الأبناء الثلاثة وضرورة توفير الرعاية الكاملة لهم، وهناك أيضًا الرعاية التي أحتاجها شخصيًّا، وحاولنا تدبير الأمر بطريقة مقبولة، وقد وفقنا الله في ذلك والحمد له أولًا وأخيرًا.. واستطاعت زوجتي بالتفاهم مع أساتذتها أن يعفوها من الحضور يوميًّا، واكتفوا بأن تحضر ثلاثة أيام في الأسبوع، وبالنسبة للأطفال فقد كان وجود الوالدين وأختي الصغيرة سميرة ذا نفع كبير، أما أنا فقد تكفلت بالأمور الخاصة بي، خلال الأيام الثلاثة..

أخذت أتصفح الكتب والمحاضرات التي تذاكر فيها زوجتي، وبينما كنت أقرأ في محاضرات المجتمع العربي ومقوماته والقومية العربية لاحظت أن مقومات هذا المجتمع هي الجنس والجغرافيا والتاريخ ووحدة الهدف والمصير، وسألت زوجتي: «وأين الإسلام؟ أين الدين كمقوم أساسي، وهل كان للعروبة في الجزيرة العربية دولة قبل الإسلام؟».

- «هذا ما يدرسونه لنا».

- «ناقشي أستاذك في الأمر».

وفي أحد الأيام عادت زوجتي لتخبرني أنها ناقشت الأستاذ الدكتور في مسألة الدين والعروبة، فتهرب منها بحجة أن ذلك هو المنهج الذي قررته الوزارة، وأن مثل هذه المسائل متروكة لخبراء المناهج والتربية، لكنه همس قائلًا: «أنت على حق ولكن لا تتكلمي في أمر كهذا، فنحن في أيام يسهل تأويل الأمور، وفهمها على وجه خاطئ، والعاقل من ابتعد عن مثل تلك الأمور الشائكة».

وفي أحد الأيام استأذنت زوجتي مني في أن تأخذ نسخة كتابي «المجتمع المريض» وهي دراسة شيقة ومؤلمة في نفس الوقت عن المسجونين وقيمهم، وعن الجريمة والعقاب، وأساليب الإصلاح، والعلاقة بين الجريمة والاقتصاد والسياسة، وكذلك عن الفنون في السجون، وما يبدعه هؤلاء التعساء من قصص وأشعار وفنون تشكيلية وغير ذلك. وهي جوانب طريفة لم يتناولها أحد من قبل من كتابنا المعاصرين، وكان هذا الكتاب قد نال جائزة وزارة التربية والتعليم في مسابقة الدراسات الاجتماعية والنفسية عام 1957، وقد تأخر نشره لسنوات.. ووافقت على أن تهدي زوجتي أستاذها نسخة من هذا الكتاب، وبعد يومين جاءها الأستاذ الدكتور وقال: «لم أنم ليلة أن تسلمت هذا الكتاب يا ابنتي، وقرأته في ليلة واحدة، ذلك لأن أسلوبه شدني وأحداثه استولت على مشاعري، إنه أسلوب فريد في طرح القضايا العلمية والاجتماعية، يذكرني بكتابات وطريقة «ديل كارنيجي» الكاتب الأمريكي المعروف..».

ثم صمت برهة ونظر إليها بإمعان وقال: «هذا الكتاب لا يكتبه إلا رجل عاش بين المسجونين، وذاق مرارة السجن، هل سجن زوجك قبل ذلك».

قالت: «نعم، وقضى في السجن بضع سنوات، ووضع مؤلفه هذا وهو سجين، ونال الجائزة عنه قبل أن يفرجوا عنه.. إن ما تقوله هو نفس ما قالته الدكتورة عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ) التي كانت عضو بلجنة المسابقة..».

- «بلغي زوجك تحياتي واحترامي، وبلغيه رغبتي الشديدة في التعرف إليه..».

الحقيقة أن كتاب «المجتمع المريض» يحتل مكانة كبيرة في نفسي، وأنا أشعر أنني أديت جزءًا من الواجب نحو هؤلاء الذين يكابدون مر الحياة وراء الأسوار، وألقيت الضوء على قيمهم وفكرهم وسلوكهم، آملًا أن يكون ذلك بداية للاهتمام بإعادة النظر في أمر الجريمة والعقاب، والأسباب التي تدفع إلى الجريمة، وأساليب العلاج الصحيحة للانحرافات الأخلاقية على أسس من العدالة التي تشرق في صفحات كتاب الله. وفي السنة النبوية المطهرة، ولن أطيل الحديث عن ذلك، فنظرة إلى ذلك الكتاب «المجتمع المريض» سوف تفتح الآفاق أمام الفكرة والنظر والاعتبار.

كان الوضع المالي بالنسبة لي متأرجحًا، فأحيانًا يكون لدي الكفاية من الرزق الذي يضمن الحياة الرخية المريحة، وأحيانًا أخرى ألجأ إلى الاقتراض، على الرغم من أن الراتب الحكومي معقول، وكان دخلي من الكتابة متقلبًا، مرة يأتي ومرة لا يأتي، وخاصة أنه لا جوائز جديدة، والكتب التي تقررها الوازرة تكون لمدة عام أو عامين، فلم يكن غريبًا أن أوافق على بيع طبعة جديدة من كتاب جديد بمائة جنيه أو أقل، وأتقاضى عن القصة القصيرة أو المقالة في الصحف ما بين 5 إلى 10 إلى 15 جنيهًا حسب الأحوال، وذهبت ذات صيف إلى الإسكندرية مع الأسرة لقضاء ثلاثة أسابيع للراحة والترفيه، ولكني قطعت الرحلة بعد أن نفد ما معي من المال، وعدت إلى القاهرة قاصدًا منزل صهري كي نقضي معه ليلة، ثم نرحل إلى المساكن التي أعمل بها، وبعد صلاة المغرب، أخبرت زوجتي بأني سأذهب إلى المكتبات التي أتعامل معها لأعرف أخبارها ثم أعود بعد ساعتين تقريبًا، وسألتها عما معها من المال فقالت إنها لا تملك سوى ربع جنيه فقط.. أخذته منها، وقصدت الترام، وفي مكتبة الشركة العربية جلست مع مديرها الأستاذ صلاح إبراهيم وهو صديق وزميل في أيام الاعتقال، وجلسنا نشرب الشاي، وبعد نصف ساعة تقريبًا دخل علينا حسن إيراني صاحب المكتبة بوجهه الباش، وقال لي على الفور: «أين كتبك الجديدة؟».

- «إنني أكتب رواية، وسأنتهي منها إن شاء الله أوائل الشهر القادم».

وفوجئت به يقول: «عظيم...».

ثم التفت إلى الأخ صلاح مدير المكتبة وقال له: «ادفع يا صلاح للدكتور نجيب خمسين جنيهًا عربونًا للرواية الجديدة..».

وقبل أن أعلق، وجدته يسألني: «وكتبك القديمة؟».

- «ماذا عنها؟».

- «ألا تريد أن تخرج طبعات جديدة لها؟».

- «لا بأس».

- «كم عددها؟».

- «بعضها لم يتم توزيع طبعتها السابقة بالكامل، والبعض يمكن إعادة طبعه».

- «كم رواية جاهزة؟».

- «اثنان..».

التفت إلى صلاح مرة أخرى وقال له: «ادفع للدكتور مائة جنيه أخرى كعربون للروايتين».

ثم انصرف، معتذرًا عن الجلوس معنا، لانشغاله بأعمال ومواعيد مهمة، وعدت إلى زوجتي ومعي مائة وخمسون جنيهًا، وهي تضارع مرتب أربعة شهور من أجر الحكومة أو أقل قليلًا.. لكأن الله أراد أن يبعث بالناشر في هذا الوقت بالذات، حاملًا لي هذا الرزق دون اتفاق مسبق، والعجيب أن حياتي مليئة بمثل هذه الوقائع، مما جعلني أثق فيما عند الله أكثر من ثقتي بما في يدي، وأذكر أنني حينما كنت أعمل في دولة الإمارات العربية المتحدة قبل بلوغي سن التقاعد، أن حدث وشرعت في بناء بيت لي في مدينة طنطا الشهيرة، ونفدت كل مدخراتي، وأمسكت بالقلم والورق أجمع وأطرح وأضرب وأقسم، وانتهيت إلى نتيجة بأنه لابد من التوقف عن العمل في المشروع لمدة عام حتى أجد المال اللازم، وحدثني الصديق الأستاذ محمد مصطفى عميرة الذي يعمل بالقسم الإداري بالمستشفى عارضًا علي أن اقترض من بعض الإخوان، وأعطيهم شيكات في أشهر متتالية للسداد، ولكن الفكرة لم ترق لي، كان

ذلك يوم اثنين... ومساء الأربعاء التالي اتصل بي من الكويت الأخ الأستاذ محسن طنطاوي، وأخبرني أن بالكويت شركة إنتاج تليفزيوني، وإذاعي، وتريد شراء بعض روايات لإنتاجها، وقد فوضوه في التفاهم والتعاقد معي، وتكررت الاتصالات التليفونية في نفس الليلة حول شروطي والمبلغ المطلوب دفعه مقدمًا، وفي النهاية اتفقنا على أن يأتي محسن بطائرة الجمعة للتعاقد ودفع المقدم، وأتى في الموعد المحدد، وجلسنا في بيتنا، وكتبنا العقود، وتسلمت الدولارات المتفق عليها، وقد قامت زوجتي أكرمها الله بكتابة العقود على آلة الطباعة، فقد كانت بارعة في الضرب عليها، وبعد أن تناولنا طعام الغداء بعد صلاة الجمعة، قال محسن: «تعلم أني أعمل بالنشر، ألا تخصني بكتاب من تأليفك؟».

- «ليس عندي كتب جديدة».

قال: «أي شيء بركة منك».

وفكرت قليلًا، ثم قلت له إن لدي عددًا من القصص القصيرة المنشورة في الصحف والمجلات، فهل أقص لك هذه القصص من مصادرها وترتبها أنت، وتعدها للطبع؟».

رحب محسن بالفكرة، وفعلًا أحضرت كومة من المجلات والصحف، وأخذت أبحث حتى استطعت أن أجمع له كتاب «فارس هوازن وقصص أخرى» وتم التعاقد بيني وبينه، وتسلمت مقابل حقوق النشر، وكان محسن سعيدًا بذلك، وسافر محسن..

وفي المساء قلت لزوجتي: «يا سبحان الله.. عوّلت على الأرقام والحسابات، وهكذا قررت وقف مشروع المباني، وأراد الله سبحانه أن يلقنني درسًا عن الرزق، نعم.. أرسل إليّ رزقًا بالطائرة رأسًا من الكويت إلى هنا في دبي.. ماذا تقولين في ذلك؟

- «أقول: الحمد لله».

-«هل تذكرين قصة ذلك الأعرابي الذي سمع قول الله: ﴿وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الذاريات: ٢٢-٢٣]..

ماذا قال الأعرابي؟ قال: «من الذي أغضب الحليم حتى أقسم».

الحقيقة أن الرزق بيد الله وحده، لكننا كبشر نخاف ونرتعد عندما نواجه مصاعب مالية.. فماذا تقولين الآن عن هذا العون الرباني؟»

- قالت والبشر يعلو وجهها: «أقول الحمد لله.. ولا تنس حقوق العباد في مال الله الذي آتاك».

والحقيقة أن قضية «الرزق» وارتباطها بالمشيئة الإلهية أمر حيوي في حياتي، وهل أنسى أنني في أيام السجن السوداء التي لم أكن أجد فيها شيئًا من المدخرات وهبني الله الجوائز العديدة التي أمنت متطلباتي في السجن، بل وفي الفترة التي تلته، وساهمت في حل بعض أزمات الأسرة، وهل أنسى أيام الحرب العالمية العظمى، وحياتنا القاسية في الريف حتى عز القوت والملبس والعلاج؟ إن حياتي مليئة بالعظات والعبر التي تؤكد دائمًا أن الاعتماد على الله وتقواه والعمل الجاد هم المخرج الصحيح من أية أزمة ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ۝٢ وَيَرۡزُقۡهُ مِنۡ حَيۡثُ لَا يَحۡتَسِبُۚ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمۡرِهِۦۚ قَدۡ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَيۡءٖ قَدۡرٗا ۝٣﴾ [الطلاق: ٢-٣]. صدق الله العظيم..

****

دعاني الأستاذ الكبير عبد الرحمن الشرقاوي لحضور حفل الافتتاح لمسرحيته الجميلة والتي تحمل اسم «جميلة» وهي عن الفتاة الجزائرية «جميلة بوحريد» التي شاركت في مقاومة الاستعمار الفرنسي، وحكم عليها بالإعدام، وتحدثت عنها كل صحافة العالم، ونقلت تفاصيل محاكمتها، وإزاء الضغط الذي مارسه الرأي العام العالمي، تم إنقاذ هذه الفتاة من حبل المشنقة، وذهبت أنا وزوجتي لمشاهدة المسرحية الجديدة، حيث احتشد في الافتتاح عدد كبير من رجالات المسرح والأدب والصحافة، واستقبلنا الأستاذ عبد الرحمن الشرقاوي بعوده الفارع، وبنائه المتين، وابتسامته الحلوة، ورحب بنا أيما ترحيب، وقد أدت الممثلة «محسنة توفيق» دور جميلة تمثيلًا مؤثرًا بارعًا».

والواقع أن الأستاذ عبد الرحمن الشرقاوي كان شخصية بارزة مثيرة للجدل، فقد كان يساريًا في شبابه، وأصدر مجلة شهيرة اسمها مجلة «الغد» ممثلة للفكر الاشتراكي قبل الثورة، وكتب فيها قصيدة «من أب مصري إلى الرئيس ترومان»، وقد شاع أمر هذه القصيدة واشتهرت، وقبل ذلك كتب عبد الرحمن رواية «الأرض» من جزءين، وتعتبر لونًا جديدًا في القصة في هذه الأيام، وقد نقدتُ هذه الرواية رغم إعجابي بها في نقطتين أساسيتين: الأولى الإفراط في اللهجة العامية في الحوار، والثانية تصوير ما نسميه رجل الدين في القرية تصويرًا

مقززًا، وغير ذلك من الأمور، وكتب الشرقاوي دراسته المعروفة عن الرسول «محمد رسول الحرية»، وقد هوجم بسببه هجومًا شديدًا، واعترض الأزهر على نشره في كتاب بعد أن تم نشره في إحدى الصحف ولعلها جريدة «المصري» الناطقة بلسان حزب الوفد آنذاك، والتي توقفت عن الصدور أيام الثورة، وكان الهجوم على ذلك الكتاب منصبًا على أنه قدم شخصية الرسول ﷺ كبشر أوتي فكرًا وعقلًا عظيمين، وموهبة فذة، وقدرة على الجهاد، والانتصار للفقراء، وتحقيق العدل، ولم يرجع الشرقاوي في ذلك إلى الوحي والتكليف الإلهي، ثم سمح بنشر الكتاب بعد أن قامت الثورة المصرية بفترة. وفي السنوات الأخيرة كتب الشرقاوي عددًا من المؤلفات الضخمة عن أئمة الفقه الإسلامي منهم الأئمة الأربعة و«علي إمام المتقين» و«ابن تيمية» و«ابن حزم» وغيرهم، وكالعادة أثارت هذه الكتب جدلًا واسعًا، وخاصة كتابه عن الإمام علي رضي الله عنه، بل وصل الأمر إلى أن قامت ضده مظاهرات في بعض الدول العربية مثل «قطر»، ومن الأقوال الشهيرة التي نسبتها الصحافة إلى الشيخ العلامة والكاتب الإسلامي الكبير محمد الغزالي قوله: بأن الشرقاوي يلجأ إلى «مزبلة التاريخ» ليستقي منها الوقائع، إشارة إلى أن الشرقاوي لا يقوم بفرز الروايات التاريخية ويحللها ويستبعد الموضوع أو الملفق أو الضعيف منها، وقد تعرض الشرقاوي لحملة ضاربة من الإسلاميين في مختلف أنحاء العالم العربي والإسلامي، ومع ذلك فقد كان لي رأي يعتمد على استقراء تاريخ الرجل، وخلاصة أعماله الإسلامية، الأخيرة بالذات، وخلاصة هذا الرأي أنه لا يصح الحكم على مفكر من خلال موقف واحد أو موقفين في حياته، وأن الشرقاوي رغم ما وقع فيه من أخطاء تاريخية، كان حسن القصد حينما كتب عن الأئمة، فقد قدم صورة مشرقة حية نابضة لحياة هؤلاء الأعلام وفكرهم وجهادهم العظيم، وذلك يرجع السلبيات التي وردت في هذه الكتب الأخيرة، ولم يكن الشرقاوي في تصوري شيوعيًا، وقد رويت في غير هذا المكان كيف أني التقيت به مصادفة في مسجد الرسول ﷺ بالمدينة المنورة في موسم الحج، وأظن أن ذلك كان في عام 1981، وكانت ترافقه السيدة حرمه، وكان يلبس جلبابًا أبيض، ونظارة سميكة، وكان يتحدث حديث المؤمن الصادق، ولم يكن يشوب تصرفاته وكلماته شائبة من مراءاة أو ادعاء، ولم أكن قد رأيته منذ اثني عشر عامًا بسبب عملي بالإمارات منذ عام 1968، إنني على يقين من أن الرجل كان طيب القلب، وكان نصيرًا للحرية، مدافعًا عن حقوق الفقراء والمظلومين، ويتضح ذلك جليًا في جميع كتاباته شعرًا ومسرحًا وقصة قصيرة وروايات ونقدًا،

وساهم الشرقاوي في إثراء الحياة الفكرية في مصر وخارج مصر، وعاش في خضم معارك الأمة قديمًا وحديثًا، والرجل الذي كتب مسرحية عن جميلة الجزائرية، كتب أيضًا عن الإمام الحسين مسرحيتين هما: «الحسين ثائرًا» و«الحسين شهيدًا»، وقد كتبهما من منظوره الفكري المعروف، وجدير بالذكر أن الرقابة كان لها موقف معارض من ظهور المسرحيتين على المسرح، وودع الشرقاوي الحياة، بعد أن ترك تراثًا كبيرًا لا يمكن تجاهله، وساهم بقدر فيما نسميه «الأدب الإسلامي» الآن، وأعني بذلك بعض مؤلفاته وليس كلها، وقبل أن يسلم الروح كتب البيت التالي:

أنــــا ذا أمـــــوت ولم أقــــل

كـــــل الــــذي كنـــت أريــــد

رحمه الله وغفر لنا وله.

ولقد دعيت أيضًا لمشاهدة العرض الذي تقيمه فرقة الفنون الشعبية التي كونها الأستاذ زكريا الحجاوي منهمكًا في جمع التراث الشعبي من أشعار وقصص وأساطير وألحان، وجمع من مختلف أنحاء البلاد عددًا من المطربين الشعبيين، ورواة السيرة الشعبية والعازفين، ومن الشخصيات التي لمعت في فرقة «أبو دراع» و«أبو طه»، و«خضرة»، وقد تميزت بصوت مليء رنان ذي نبرات عذبة، ومن أهم الملاحم التي أنشدتها ملحمة «أيوب المصري» وهي قصة أسطورية لا تتفق تمامًا مع ما ورد عن سيدنا «أيوب» عليه السلام في القرآن الكريم، ومع ذلك فقد كانت الأشعار التي تغنيها خضرة تسيل الدموع، وتحرك المشاعر، أما «أبو دراع» فقد ذاع صيته في وسائل الأعلام وحفلات الأفراح، واستطاع أن يصل إلى «باريس» في فرنسا، وغنى في إحدى صالاتها المشهورة، كما اشتهر أيضًا «أبو طه»، وظهر في كثير من الأفلام السينمائية، وكتب الأستاذ زكريا الحجاوي من خلال تلك الأقاصيص الشعبية والأساطير عددًا من المسلسلات الإذاعية منها «أيوب» و«سعد اليتيم». وغيرها.

كان زكريا الحجاوي فنانًا وهب حياته للفن، بعد أن كان صحفيًا معروفًا، وكاتب قصة، وظل منهمكًا في عمله الذي ملك عليه فؤاده سنوات طويلة، حتى انتدب للعمل في قطر في مجال الفن الشعبي، وهناك في قطر لفظ أنفاسه الأخيرة، وقد ربطتني به علاقة طويلة لسنوات

عدة، كنت ألحظ فيه الرقة والوداعة والتضحية، ولم يكن يشغله غير فنه الذي عشقه وتفانى فيه بصورة كنت أؤاخذه عليها، وكثيرًا ما كان يقترض منا بعد أن ينفق على فرقته كل ما معه..

وفي تلك الفترة أيضًا فكرت في أن أنتقل من وزارة النقل والمواصلات إلى المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب بالقاهرة، ووافق الأستاذ المرحوم يوسف السباعي، ولكن هيئة السكك الحديدية رفضت، وكان الحل أن أستقيل من عملي، ثم أتقدم للعمل بالمجلس، ولكني أفقت.. وفكرت.. وتذكرت العهد الذي قطعته على نفسي، ألا وهو ألا أترك مهنة الطب أبدًا، وحمدت الله على أن النقل لم يتم.

وفي هذه الفترة أصيب ولدي البكر بحمى طالت مدتها، ولم يجد معها أي علاج، واستعنت بزميلي الدكتور عبد الخالق والي أخصائي الأطفال، ونقلنا الطفل إلى القاهرة، وأجرينا له الفحوص اللازمة في المختبر، وكنا نشك في إصابته بمرض التيفود، ولكن الاختبارات جاءت سلبية، وكانت تجربة مريرة بالنسبة لي، فكنت أضعه على السرير، وهو يشكو آلامًا في بطنه، وأبكي من أجله، وقرر الأطباء أنه مرض بسبب فيروس، وأنه سوف يستمر فترة، ويختفي دون علاج، فليس هناك مضادات حيوية أو أية عقاقير طبية تقضي على الفيروسات، وكان علينا أن نصبر، لكن الطفل المريض كان لا يكف عن الشكوى والآلام، اسمعه يقول «لماذا لا تعلمني الصلاة يا بابا» وأقول: «أنت صغير وعمرك ثلاث سنوات، وعندما تشفى بإذن الله ستصلي معي».

أقول كانت تجربة مرض الطفل تجربة صعبة، وعلمتني شيئًا كان يجب أن أتعلمه؛ إن الأطباء عادة يعاملون المريض «كحالة» وليس «كإنسان» فقد يكون المريض في حالة سيئة، ويعاني آلامًا رهيبة، في الوقت الذي ترى فيه الطبيب يفحصه وهو يبتسم، أو يضحك، دون أدنى مشاركة عاطفية للمريض التعس، وكان وضعي مع المرضى فيه شيء من التعاطف، ولكن لم يكن بالقدر الكافي، وبعد أن مرض طفلي، وعانيت الأمرين من الإشفاق والخوف عليه، وكانت دموعي تنهمر كلما راودني خاطر بأن طفلي -لا قدر الله- قد يموت، بعدها تغيرت مشاعري تمامًا نحو المرضى، لدرجة أنني كنت أبكي من أجلهم أحيانًا، ولا أقصر في تقديم أقصى ما أستطيعه من عون، ومن وحي هذا الموقف كتبت قصة «حكايات طبيب».

وحكايات طبيب تضم مجموعة من القصص الفنية القصيرة عما صادفته من مآسٍ خلال العمل بالمهنة في الأماكن المختلفة، وقد أشار بعض النقاد إلى أهمية ذلك الكتاب لتفرده في موضوعه، وحرصه على «الصورة الفنية» للقصة، فهو ليس مجرد سيرة ذاتية سردية، ولكنه عمل فني متميز، وقد بدأت فكرة هذا الكتاب حينما كنت أشارك في برنامج «عيادة على الهواء» في إذاعة «الشارقة» بدولة الإمارات العربية المتحدة، وكان في بداية البرنامج فقرة بعنوان «مذكرات طبيب» كنت أقرأ فيها قصة ذات دلالة وفائدة بصوتي، وقد قدمت عشرات القصص، ولكني عندما أردت جمعها في كتاب، اكتشفت أن الإذاعة قد أضاعت أغلبها، ولم يبق إلا بضع وعشرون قصة جمعتها في «حكايات طبيب».

وفي هذه الفترة أيضًا أدخلت الطفلين حسام الدين وأخته عزة مدرسة حضانة بالمدينة السكنية في أبو زعبل، وكانت عزة لم تزل صغيرة، وذات يوم عاد حسام الدين وترك أخته التي تمشي ببطء، وكانت زوجتي قد ذهبت مبكرًا ذلك اليوم إلى معهد الخدمة الاجتماعية، وقلقت على الصغيرة، فأسرعت بالذهاب إلى الخارج للبحث عنها، ولكني والحمد لله وجدتها تقترب من البيت، وعندما حملتها اكتشفت أن قرطها الذهبي ليس في أذنيها، قلت: «أين «الحلق» يا عزة؟».

شحب وجهها ونظرت إلي في خوف وقالت بتلعثم: «الحرامي خده».

- «أي حرامي؟».

- «كان يركب عجلة .. أخذه.. وأنا خفت أتكلم..».

ضحكت وقلت: «ماذا سأقول لماما عندما تعود في المساء، ستتهمني بالتقصير في المحافظة عليكم».

قالت الطفلة ببراءة وقد فهمت ما أقصده: «قل لها الحرامي خده..».

كانت مثل هذه الحوادث الصغيرة تسبب لي قدرًا كبيرًا من النكد، فليس من المعقول أن يترصد لص لابنتي الصغيرة ليسرق قرطها الصغير، وأنا الذي أسعى جاهدًا لراحة أهل المدينة ليلًا ونهارًا، ولا أتقاعس عن تلبية أي نداء لمريض مهما كنت أشعر بالتعب أو الرغبة الشديدة في النوم، وأمضي في عز البرد وعز الحر لمراجعة المرضى الذين لا تسمح حالتهم بالانتقال، وأشارك الجميع في أفراحهم وأحزانهم حتى خيل إليّ أنه لا يوجد إنسان يفكر في

إيذائي، وعلقت زوجتي على أفكاري تلك بقولها: «ليس هناك مجتمع مثالي مائة في المائة.. لسنا ملائكة، ويجب أن نتقبل مثل هذه الأمور بهدوء وبساطة».

وكان كلامها مقنعًا جدًا.

من الأمور التي لا أنساها، وأنا في المدينة السكنية، أنني فوجئت برجل لم أكن أتوقعه، إنه المفتش الطبي في مدينة طنطا، رئيسي وأنا أعمل بالوحدة المجمعة في قرية شرشابة، والذي سبب لي العديد من المشاكل، وهاجمني بعنف أمام محافظ الغربية رَحِمَهُ ٱللَّهُ، كان العداء بيني وبينه مستحكمًا، وظل الصراع دائرًا حتى انتقلت إلى القاهرة وتركت القرية.. ها هو يأتي أخيرًا لزيارتي مبتسمًا، واستقبلته بكل ترحاب، وكأن ليس بيني وبينه عداء قديم مرهق، وأبدى اعتذاره بشجاعة عما بدر منه نحوي، بدعوى أنه لم يكن يعرفني حق المعرفة، وظن في يوم من الأيام أني «مشاغب» ويحلو لي إثارة المشاكل، وأخبرني أنه لم يقرأ كتبي إلا مؤخرًا، ولم يتبين حقيقة مواقفي إلا بعد أن رحلت إلى القاهرة، وأثنى على إخلاصي وعلى المبادئ السامية والإنسانية التي أتمثلها في سلوكي، وعزا سبب الجفوة التي نشأت بيني وبينه بسبب وشايات زميلي في العمل، وتقبلت اعتذاره قائلًا ببساطة «عفا الله عما سلف»، وتناولنا طعام الغداء معًا، وكان ثالثنا الأخ فؤاد سلطان الذي يعمل رئيسًا لقسم المالية بالمنطقة الطبية بطنطا، وكان صديقًا قديمًا لي، وهو الذي صحب المفتش في زيارته هذه، وقام بالدور الرئيسي في تصفية ما شاب علاقاتنا القديمة، بعد أن ذهب كل منا إلى حال سبيله، وكنت أسعد جدًا بأن يعرف خصومي حقيقة الخلاف الذي يدب بيني وبينهم، ويدركون أنني لم أكن مخطئًا في حقهم، أو متجنيًا عليهم، وأشعر بطعم السعادة كلما حدث شيء من هذا القبيل، وقبل أن يودعني هذا المفتش عائدًا إلى طنطا، قدمت إليه أحدث كتبي محبة وشكرًا..

وممن دأبوا على زيارتي في هذه الفترة الأخ الشاعر المعروف الأستاذ عبد المنعم عواد يوسف، فقد كان من الشعراء المجيدين المجددين، كما كان يكتب النقد أحيانًا، وكان مقره هو مدينة شبين القناطر التي تبعد عنا مسافة قصيرة، لكنه كان يعمل مدرسًا بالقاهرة ويسافر يوميًا إليها بقطار «كوبري الليمون»، ولقد كنت أعجب بشعر عبد المنعم عواد يوسف الذي حظي بتقدير النقاد، وقد نال عبد المنعم عددًا من جوائز الشعر، وألقى عددًا من قصائده في مهرجانات الشعر ببعض الدول العربية، وأصدر ديوانه الأول «عناق الشمس» في وقت

مبكر، وكتب في كبريات الصحف والمجلات العربية، وعلى الرغم من تجديده في الشعر إلا أنه لم يغرق في الألغاز والغموض والرموز، بل ظل شعره رقراقًا جميلًا مفهومًا معبرًا تمامًا عن المعاني التي يقصدها، كما اختص الأطفال بديوان شعر رقيق بعد سنوات، وشاء الله أن يذهب عبد المنعم وحرمه للعمل كمدرسين بدولة الإمارات بعد ذهابي إلى هناك في عام 1968 بحوالي أربعة أشهر، حيث امتدت صداقتنا وعلاقتنا الأبدية حوالي ربع قرن في تلك البلاد الطيبة، وكان عبد المنعم مستغرقًا في شعره، يفكر فيه، ويحاول أن يبحث دائمًا عن صيغ جديدة، ويرتاد الأندية والجمعيات الأدبية في أنحاء القاهرة، ويلقي قصائده فيها، ويوثق علاقاته بمعظم الشعراء حتى إنهم أصبحوا جميعًا أصدقاءه جيلًا بعد جيل، وكان مهتمًا بذلك أيما اهتمام، ويعرف الكثير عن حياة أصدقائه الشعراء وحوادثهم وطرائفهم ومواقعهم في الساحة الشعرية، والواقع أنه كان ضليعًا في اللغة العربية وآدابها وقواعدها، ملمًّا بالتراث الشعري العربي القديم، ناجحًا تمامًا في تدريس اللغة بأسلوب سهل ميسور، ومن الغريب أنه ظل مدرسًا طول حياته، ولم يرق إلى مفتش أو موجه، وكان تلامذته الذين يدينون له بالفضل، يأتون ليفتشوا عليه في «دبي» فيخجلون من أن يفتشوا على أستاذهم، فيحيونه ويمجدون تاريخه الأدبي العاطر وينصرفون شاكرين..

وكان عبد المنعم حلو الحديث، سريع البديهة، يحب الفكاهة أو النكتة، إذ إن طفلي الصغير أمسك بعملة معدنية من فئة القرش، مرسومًا عليها صورة «الملك فاروق» وسأله طفلي حسام الدين: «من هذا يا عمو؟».

- «هذه صورة الملك فاروق».

وطفلي بالطبع لم يكن يعرف الملك فاروق فقد ولد بعد خلعه بتسع سنوات، ولذا سأله. «ومن هو الملك فاروق يا عمو؟».

فكر عبد المنعم قليلًا، ولم يرد أن يفيض في الشرح لطفل صغير لن يتفهم الأمر بسهولة، ولهذا قال عبد المنعم بأسلوب المدرس المتمكن: «إنه جمال عبد الناصر «بتاع» زمان».

وضحكنا، ولم يخف علينا ما توحي به النكتة من دلالة، ومع ذلك فقد كان عبد المنعم من المعجبين بجمال عبد الناصر، المؤيدين لسياسته، وكتب في الثورة شعرًا كثيرًا، لكن هذا لم يؤثر على العلاقة بيننا، فقد كان لكلٍ آراؤه وأفكاره ومعتقداته السياسية، وبقينا طوال حياتنا

وحتى اليوم أصدقاء أوفياء، وقد خفت حدة إعجابه بجمال عبد الناصر، بعد أن مات، وتكشف الكثير عن أخطائه السياسية، وانتهاكه لحقوق الإنسان، ذلك لأن عبد المنعم عواد ظل دائمًا متمسكًا بدينه، يؤدي صلواته، ويحج بيت الله الحرام، ويتغنى بقيم الإسلام الرفيعة الغالية، ويبثها في الكثير من شعره.

ولقد كنت في تلك الفترة وثيق الصلة بالأخ الأستاذ حسين عاشور وأسرته، وخاصة والده الفاضل الشيخ أحمد عيسى عاشور العضو البارز في الجمعية الشرعية بالقاهرة، وصاحب كتاب «الفقه الميسر»، وصاحب مجلة «الاعتصام» التي تصدرها الجمعية، وكان حسين زميلًا لي في سجن أسيوط، ثم طابعًا وناشرًا للكتب، وكان خفيف الظل، حلو المعشر، حلو الحديث، لا يمل الجلوس معه، كما كان طموحًا، ويحلم بأن تكون له دار نشر كبيرة، وأن يصدر مجلة إسلامية، وقد تحقق له ما أراد بمرور السنين، فأصدر مجلة «المختار الإسلامي»، وكذلك «مطابع المختار الإسلامي»، ومجلة نسائية اسمها «هاجر» ومجلة للأطفال اسمها «زمزم»، ونشر عددًا من الكتب لبعض أعلام الفكر الإسلامي، كما نشر لي رواية «رحلة إلى الله» التي ذاع صيتها، ورواية «رمضان حبيبي» عن حرب 1973، التي قررت – بعد تبسيطها- على طلبة المدارس في مصر، وغيرها من الكتب الأخرى، وكنت أكتب في مجلة «الاعتصام» التي يديرها والده قصصًا إسلامية قصيرة، كانت محل رضا العاملين في الجمعية الشرعية والقراء، وقد جمعتها في كتاب «دموع الأمير»، وقد اشتركت مع الأخ حسين عاشور في نشر روايتي «عمر يظهر في القدس» في طبعتها الأولى، بعد أن أجفل الناشرون من نشرها في البداية، ثم رحبوا بها بعد أن صدرت أول مرة..

الحديث عن حسين عاشور ووالده الشيخ أحمد، وإخوته الأساتذة حسن والدكتور محمد، وطه ومصطفى وعبد اللطيف حديث يطول، ويكفي أن أقول إنها أسرة مباركة خدمت الإسلام في مجال الإعلام بصورة تدعو إلى الاعتزاز والفخر، والفضل لله..

****

[16] كأننا يا بدر لا رحنا ولا جينا



كنت على يقين أن أيام الشقاء قد ذهبت إلى غير رجعة، وكانت لدي الأسباب القوية لهذا اليقين، مما جعلني لا أخشى المستقبل، وأنطلق إلى الأمام بخطى واسعة ثابتة، لا تعثر فيها ولا تردد، والحمد لله فإن عملي الطبي يشهد لي بالكفاءة والإخلاص والالتزام المهني والأخلاقي، والعمل السياسي الرسمي لا وجود له، فالحكومة قد فرضت علينا العزل السياسي، والحظر الشديد قائم لا يسمح بأي نشاط للإخوان المسلمين، وكتاباتي الأدبية تتوالى يومًا بعد يوم، والكتب التي أنشرها تلاقي النجاح، وقيام وزارة التربية والتعليم بتدريس بعض هذه الكتب للطلبة دليل على خلوها من كل ما يهدد النظام بطريق مباشر، وصوتي يعلو في المحافل الأدبية دون أن يؤخذ عليّ أي مأخذ سياسي، وحتى الكتب التي صودرت سواء «الطريق إلى اتحاد إسلامي» (في مصر) أو مسرحية «على أسوار دمشق» التي منع تداولها في سوريا»، وبعض الكتب الأخرى، لم يثبت أنها خرجت عن دستور الدولة وقوانينها، ولم يكن يصدر أي كتاب إلا بعد سماح الرقابة به، ولو كان فيها شبهة لما صدرت أصلًا، حتى المنشور الذي هاجم عبد الناصر تحت عنوان «فرعون الصغير» ثبت بالدليل القاطع أنني ليس لي أدنى صلة به، والتقارير التي يكتبها رجال الأمن الذين يرصدون تحركاتي في أي مكان أذهب إليه، لم تستطع أن تسجل نقطة خروج على النظام ضدي، فلماذا لا أطمئن، وأمضي في طريقي آمنًا، واثقًا تمام الثقة أنني لن أمس بأذى.

ولهذا عندما التقيت بالأخ الصديق الأستاذ «عبد الله العقيل» بالقاهرة، وكان يعمل مديرًا للشئون الإسلامية بوازرة الأوقاف الكويتية، وعرض عليّ التعاقد مع وازرة الصحة بالكويت للعمل بها، اعتذرت له شاكرًا، وأخبرته أن نجاحي الأدبي قد تحقق لحد ما بالقاهرة، وأن تركي لها سوف يفقدني الكثير، وربما نسيني الناس إذا اغتربت عنهم سنوات، فضلًا عن أن وضعي السياسي لا يبعث على الخوف، ولو كان لدي ذرة شك فيها أقول لوافقت فورًا على عرض أخي عبد الله العقيل، وفررت بجلدي، ولا أدخل تجربة السجن المريرة مرة أخرى،

واتضح فيما بعد أنني نسيت أمرًا مهمًا، ولعلني لم أستطع أن أتوقعه في يوم من الأيام، فهناك أمور كثيرة في الحياة لا يستطيع الإنسان توقعها إلا بعد التجربة والخبرة ومنازلة الأحداث، أقول إنني نسيت أمرًا مهمًا كان يجب أن أذكره ألا وهو أن النظام الدكتاتوري أو الشمولي يفتقد المنطق السليم، ويدوس العدالة وحقوق الإنسان إذا شعر بأن وضعه مهدد، وفي هذه الحالة يتخبط، ويضرب ضربات عشوائية، ولا يحترم ضميرًا، أو يرعى حرمة شيء، وفي ذلك الوضع لا يفرق بين حق وباطل، وشر وخير، وأمانة وخيانة، ويصبح كل شيء عنده مباحًا، ولا يفكر في حلال أو حرام.

وبعض من اختصهم الله بالرؤية الواضحة يمكنهم أن يستشعروا ذلك عن بعد، لكن حسن النية من الناس قد تغيب عنهم هذه الرؤية، وفي لحظة من اللحظات يجدون أنفسهم وقد سقطوا فريسة الطغيان، وأحيط بهم من كل جانب، ويحاولون الإفلات دون جدوى، فتلهبهم سياط الندم والحسرة، حتى يسقطوا إعياءً ويعتصمون بالصبر، صبر العاجزين المقهورين الذين ليس لهم أحد ينجدهم إلا الله..

اكفهر الجو فجأة، وتلبدت السماء بالغيوم، وتناقل الناس همسًا بعض الأخبار المزعجة التي تعني أن كارثة ما قد تحل في أي وقت من الأوقات، وذهلت عندما علمت أن بعض الأصدقاء قد اعتقلوا وعلى رأسهم الأستاذ سيد قطب الذي لم يفرج عنه إلا منذ شهور، ومع ذلك فقد كنت واثقًا -حتى تلك اللحظة- أنني في أمان، ولم أقترف «وزرًا سياسيًا» يبعث في نفسي القلق، هذا من الناحية العقلية والمنطقية، لكني كنت أشعر بقلق داخلي، وأن قلبي غير مطمئن لما يجري، وأن الهواجس تطاردني في يقظتي ومنامي، حتى بعد أن ذهبت إلى «يحيى بك» في مكتبه بمقر الأمن، وناقشته في الأمر، فأكد لي أن ما يجري يتعلق ببعض الأفراد الذين أخطأوا في حق الحكومة، وأنني وأمثالي لا شأن لنا بهذه الأمور، وأنني يجب أن أكون مطمئنًا تمامًا، ولم يكشف لي عن شيء مما يجري.

حسنًا نحن الآن في شهر أغسطس عام 1965 والحرارة شديدة الوطأة، وموعد إجازتي السنوية قد أزف، وعرض علي الأخ «أسعد سيد أحمد» الذي كان يعمل في مكتبة دار العروبة «دار التراث حاليًا» أن أذهب معه إلى مصيف «بلطيم» الذي يتميز بالحشمة والهدوء والجو النقي، ووافقت على الفور، وكأني أفر من همومي الغامضة، وذهبنا بأسرتينا، واستأجرنا

عشتين قرب الشاطئ، أخذنا نجلس والأطفال يلعبون في الماء، والنسوة يقمن بإعداد الطعام، ويجلسن في مكان قريب خاص بهن، وكان طبيعيًا أن نتناول الأمور الجارية، ونحاول دراستها وتحليلها، ونقرأ الصحف بدقة، لكن الذي أزعجنا فعلًا، وبث الخوف في قلوبنا تسرب أخبار عن اعتقال بعض المصطافين في بلطيم، لكننا عزونا ذلك إلى أنهم قد يكونون متورطين في تنظيم من التنظيمات السرية والله أعلم، وإلا لماذا يقومون باعتقالهم تحت جنح الظلام؟

وفي الأيام العشرة الأخيرة من شهر أغسطس نشرت الصحف نعي الزعيم الكبير مصطفى النحاس باشا خليفة سعد زغلول في رئاسة حزب الوفد الذي حلته الحكومة منذ سنوات، وكان الرجل يعيش في بيته بحيّ «جاردن سيتي» بالقاهرة طوال هذه الفترة معزولًا عن الناس، وإقامته محددة، ولا يذكر اسمه في الصحف وكل وسائل الإعلام، على الرغم من جهوده الوطنية الرائعة، وتاريخه العاطر، وانتخابه زعيمًا للأمة بأغلبية ساحقة قبل قيام الثورة، وفوجئ الناس بأن الحكومة قد أصدرت بيانًا تنعيه فيه، وتشيد بأعماله الوطنية المجيدة، لكن حدث ما لم يكن في الحسبان، إذ تحولت جنازة الزعيم إلى مظاهرة صاخبة تهتف:

- الوداع يا نحاس.

- جعنا بعدك يا نحاس.

- لا حرية بعدك يا نحاس.. إلخ هذه الهتافات.

وعلى الفور تم اعتقال عدد كبير من أعضاء حزب الوفد القدامى، وسيقوا إلى السجن، وأخذ الناس يتحدثون عن تلك الجنازة التاريخية وما حدث فيها، دون أن تشير الصحف إلى شيء من التفاصيل.

وسافر جمال عبد الناصر إلى موسكو لمقابلة زعماء الكرملين، وأخذنا نتابع الأخبار في الصحف والإذاعة، ونحن على شاطئ «بلطيم»، وفي أحد الأيام قرأنا خطابًا للرئيس ألقاه في النادي الثقافي العربي للمبعوثين في العاصمة السوفيتية، وهاجم فيه التيار الإسلامي في مصر هجومًا عنيفًا جدًا، وأخذ يرمي الرجعية بكل نقيصة وخيانة، وأنهم أعداء الشعب، ولا حرية لأعداء الشعب، وأنهم يتآمرون.. وأنهم.. وأنهم، وشعرنا بالإحباط الشديد، ونحن نقرأ ذلك الخطاب في الصحف المصرية.

وكان أخي أسعد سيد أحمد من الكوادر النشطة في صفوف الإخوان منذ سنوات طويلة، ومعروف لدى الجميع، مقرب من القيادة، وكان يتولى مسئوليات ضخمة، ومع ذلك فقد خرج من المعتقل بعد عامين من اعتقاله في عام 1954، بعد أن صمد في التحقيقات وكان ذكيًا وذا حجة، فأفلت منهم، وعاد لعمله في صناعة الكتب، لكنهم كانوا يعودون لاعتقاله فترات قصيرة؛ شهرين أو ثلاثة مثلًا، إذا حامت حوله شبهة، ثم يطلقون سراحه مرة أخرى، ومن أبرع عمليات أسعد سيد أحمد، أنه انتسب لحزب مصر الفتاة الذي يتزعمه آنذاك «أحمد حسين»، بعد المؤامرة التي دبرها شباب ذلك الحزب لاغتيال الشهيد حسن البنا وفشلت، ورأى الإخوان أن يكون لهم «عين» بهذا الحزب، ووقع الاختيار على أسعد، الذي أخذ يتدرج في كوادر حزب مصر الفتاة، حتى أصبح السكرتير الخاص للزعيم أحمد حسين، ولم يُكتشف أمره إلا بعد أن سقطت قائمة بأسماء عدد من الإخوان فيما عرف بقضية «الأوكار» و«سيارة الجيب» والاعتداء على «حامد جودة» رئيس مجلس النواب في حكومة السعديين والأحرار الدستوريين التي كان يرأسها «محمود فهمي النقراشي باشا» ومن بعده «إبراهيم عبد الهادي باشا»، ودهش أحمد حسين زعيم مصر الفتاة عندما أبلغوه أن سكرتيره الخاص عضو نشط بجماعة الإخوان، ومن جهازهم الخاص، وأخذ يضرب كفًا بكف، ومع ذلك فقد ظل أحمد حسين محافظًا على صداقة أسعد، محبًا له حتى وافاه الأجل المحتوم، وكان أسعد مخلصًا له طوال العمر، يشرف بنفسه على طباعة مؤلفاته، ويلبي له جميع احتياجاته.

قلت لأسعد ونحن في بلطيم بعد قراءة خطاب جمال عبد الناصر في موسكو: «ما رأيك في هذا الكلام؟».

قال ببساطة يُحسد عليها وهو يضحك: «أشم فيه رائحة الغدر».

- «ما معنى ذلك؟».

- «ضربة جديدة عنيفة يوجهها للإخوان».

- «أي إخوان؟ لقد اعتقل من شك فيهم..».

قهقه وقال: «لا.. الإخوان جميعًا.. قديمًا وحديثًا».

- «حتى نحن دون أن نفعل شيئًا».

- «يكفي أنك «كنت» من الإخوان.. هذه «تهمة» لا تُمحى أبد الدهر».

قلت في غضب: «أنت متشائم جدًا..».

- «ذلك لأني أعرفهم..».

سألته: «بأي حق يعتقلون مثلًا واحدًا مثلي؟».

عاد يضحك ويقول: «عن أي حق تتحدث؟».

أصابني غم شديد، ولم أعد أشعر بجمال المصيف، ولا نسيم البحر، ولا فرحة الأطفال، ولم يعد لدي شهية للطعام ولكن بصيصًا من الأمل كان يراودني، ذلك لأنه لا يوجد أدنى سبب لاعتقالي هذه المرة. «إيه يا أسعد.. هل الحكاية فوضى؟».

- «فماذا تظنها إذن؟».

ذهب كل منا إلى «عشته» التي يسكنها، وعولت أن آوى إلى فراشي في وقت مبكر من الليل، وخاصة أن الأطفال الثلاثة حسام الدين وعزة وجلال الدين قد أكلوا وناموا من شدة التعب في اللعب طوال النهار، ولاحظت زوجتي أنني متكدر، ولما سألتني عن سبب ذلك أبحت لها بمكنون صدري، فانقبضت وبدا عليها الضيق والخوف، وقالت: «وأين أذهب بهؤلاء الأطفال الثلاثة إذا حدث لا قدر الله و....».

قاطعتها قائلًا: «فلنسلم أمرنا لله، وأنا لا أتصور أن يعتقلوني هذه المرة دون سبب».

- «ربنا كبير...».

وعلى الرغم مما أعانيه من قلق، فقد وضعت رأسي على الوسادة، ورحت في سبات عميق، وبعد الفجر بقليل أيقظتني زوجتي بهدوء وهي ترجف، وكان طبيعيًا أن نصلي الصبح قبل شروق الشمس، ووجدتها تقف صامتة مكفهرة، والدموع في عينيها، هتفت وأنا أفرك عينيّ: «ماذا حدث؟».

- «لا تنزعج.. لقد جاء رجال الأمن، واعتقلوا الأستاذ أسعد، وأخذوه من «عشته» إلى القاهرة منذ ساعة».

- «ألم يسألوا عني؟».

- «لا.. لقد كانت زوجة أسعد هنا منذ دقائق، وطلبت مني أن أخبرك بالأمر على الفور، لكي تتصرف مخافة أن يأتوا إليك أنت الآخر...».

- «وهي، ماذا فعلتْ؟».

- «سترحل فورًا إلى القاهرة هي وابنة أختها...».

قلت وأنا ذاهب للوضوء: «يجب أن نعد العدة نحن أيضًا للرحيل إلى القاهرة غدًا إن شاء الله مخافة أن يأتوا ويعتقلوني هنا، فتعانين من المتاعب مع الأطفال أثناء السفر، وخير لنا أن يعتقلوني في بيتي بالمدينة السكنية..».

ومضى ذلك اليوم كئيبًا حزينًا مر المذاق، وجلست على الشاطئ شاردًا أتوقع كل لحظة أن يهبط رجال الأمن فيقيدون يديّ، ويقتادوني إلى المصير المجهول كما فعلوا منذ عشر سنوات في عام 1955، وتدور الطاحونة من جديد، ونقاسي ألوان القهر والعذاب، وكأننا -كما يقول أبي دائمًا- يا بدر لا رحنا ولا جينا.. أي أنه لم يتغير شيء في الحياة، فالبؤس على حاله، والمرارة التي في حلوقنا وأرواحنا لم تتغير..

كنا على عجلة من أمرنا، ذهبنا في الساعة السابعة صباحًا إلى موقف السيارات المتجهة إلى القاهرة، والأطفال مازالوا يغالبون النعاس، وزوجتي في حالة ارتباك وخوف شديدين، وأنا أمضي كالمسحور، أتوقع في كل خطوة مفاجأة غير سارة، وانطلقت الحافلة، ولم أكن أشعر بمعنى للحياة، ما أبعد الفارق بين يوم المجيء ويوم العودة، وبعد أن وصلنا إلى القاهرة، استأجرت سيارة لتنقلنا إلى «حي السيدة عائشة» حيث يقيم صهري، وبعد أن دققت الجرس، فتحت لي والدة زوجتي، وما إن رأتنا داخلين حتى أجهشت بالبكاء المر، وذهلت إذ رأيتها على هذه الحالة المحزنة، ولما سألتها عن سر بكائها قالت: «إنهم يقبضون على الناس كل ساعة، خفت أن تكون ممن يأخذونهم إلى المعتقل» وارتسمت على ثغري ابتسامة مصطنعة مرتعشة، وقلت وأنا أحاول أن أتماسك:

- «هذا لن يحدث لأنني لم أرتكب مخالفة».

جففت دموعها وهي تردد مرارًا: «الحمد لله..».

إلا أنني في الواقع تشاءمت، وازدادت همومي، وركبني قلق متزايد لا يعلم إلا الله مداه، ثم رأيت صهري خارجًا من الحمام، وقد ساد الشحوب وجهه ويقول: «جئت في وقتك.. الحمد لله.. استرها يا رب.. البلد على فوهة بركان، ولا ملجأ من الله إلا إليه».

آلمني أن أرى تلك الصورة القاتمة، التي تشابه تمامًا الصورة القابعة في داخلي، ووجدتني أصافح صهري، ثم أخذت أشرح كيف أن الذين قُبض عليهم متهمون في قضية خطيرة كما تقول الأنباء، وأن وضعي ووضع غيري من قدامى الإخوان المسلمين يختلف عن ذلك تمامًا، فلسنا موضع اتهام أو شك، وبالتالي فلم يعد هناك مبرر للخوف من الاعتقال، وإلا أصبح الأمر مهزلة، تمتم في أسى: «مهزلة!! نحن نعيش في مهزلة كبرى».

في المساء اتجهنا إلى بيتنا في المدينة السكنية، لاحظت أن صهري يودعني بحرارة ويعانقني ويحتضني بقوة، هذا الرجل يشعر بشيء لا أعرفه، إنه شفاف القلب، مستنير البصيرة، إذا رأى في منامه رؤيا تحققت حسب تأويله لها، وكثيرًا ما كان يفسر الرؤيا من القرآن الكريم، وتساءلت بيني وبين نفسي هل يتوقع هذا الرجل شيئًا لم يرد الإفصاح عنه؟

بعد أن استقر بنا المقام في بيتنا بالمدينة السكنية، فكرت لماذا لا أذهب إلى يحيى بك كامل أمين رئيس مباحث المنطقة، وأستفسر منه عن الوضع حتى يطمئن بالي، وفعلًا ارتديت ملابسي وذهبت إليه في مكتبه، قابلني مبتسمًا، وعلى وجهه تبدو علامات الانشغال الشديد، وطلب لي فنجانًا من الشاي، كان يجلس خلف المكتب، واضعًا قبضة يمناه تحت ذقنه، مسددًا نظراته نحوي، وقال ضاحكًا:

- «جئت تسأل».

- «وعندك الإجابة».

- «حتى الآن لا خوف من شيء».

- «لكن الاعتقالات على قدم وساق».

- «هذا بالنسبة لفئة بعينها دأبت على العناد والتآمر».

قلت له: «إنني أعيش كجار لك في المسكن والعمل، وتعلم عني كل شيء».

- «هذا صحيح!!».

- «هل التقارير عني مطمئنة؟».

- «أنا لا أكتب إلا الحقيقة، ولا أظلم أحدًا، وأعلم أن الله سيحاسبني على كل شيء، وأنا رغم كوني من رجال الأمن. أخاف الله رب العالمين».

شعرت بشيء من الارتياح، وشربت الشاي. وأثناء جلوسي معه حاولت أن أفهم شيئًا محددًا واضحًا عن أبعاد المؤامرة التي يتحدث عنها الناس في كل مكان، ولكن الرجل كعادته لم يبح لي بشيء ذي قيمة، ولم يشر إلى المعتقلات التي يساق إليها الناس سوقًا، ولا ألوان التعذيب الرهيب الذي يتناقل الناس أخباره همسًا، وخاصة أن البعض إذا مر بجوار «سجن القلعة» الذي تجرى فيه بعض التحقيقات، سمع أصوات استغاثة وصراخ مرير، وهذا السجن تحت إشراف المباحث العامة، أما السجن الحربي فقد أصبح تحت إشراف جهة أخرى وهي المخابرات العامة، وتحت إدارة «شمس بدران» الذي يعرفه جميع الناس في مصر، والذي أصبح وزيرًا للحربية في هزيمة 1967، ثم لجأ إلى الخارج ليعيش في لندن بعد موت جمال عبد الناصر، وانتحار المشير عبد الحكيم عامر قبل ذلك.

قلت ليحيى بك وأنا في مكتبه: «إذا مر يوم الرابع من سبتمبر (عام 1965) بسلام، فإني أستطيع أن أطمأن».

- «ولماذا هذا التاريخ بالذات؟».

- «مجرد إحساس...».

نظر إلي في دهاء وقال: «بل نتيجة حسابات دقيقة.. أنا أعرف كيف تفكر».

ودق جرس التليفون، فانشغل عني ثم نسي الموضوع بعدها.

الإنسان في مثل هذه الأمور كالغريق الذي يتعلق بقشة، ولهذا وجدت في كلمات الضابط قدرًا من بعث الأمل في النفس، دون أن تزايلني رواسب الشك المزمن الذي يجثم على القلوب في هذه الأيام السوداء، وعدت أحمل البشرى لزوجتي المسكينة التي هزتها الأنباء المزعجة، وخاصة من الإذاعات الأجنبية.

في اليوم التالي ذهبت إلى الإدارة لتسلم راتبي الشهري، ثم عدت إلى البيت لأن إجازتي السنوية لم تكن قد انتهت، وعندما جلست على المقعد قلت لزوجتي بالحرف الواحد: «خذي أربعة وأربعين جنيهًا.. حافظي عليها محافظة شديدة.. من يدري قد يمر عليك ثلاثة أو أربعة أشهر دون أن تحصلي على الراتب».

قالت في خوف: «ما معنى ذلك؟».

- «يعني.. لا قدر الله، إذا اعتقلوني فسوف يوقف الراتب.. ولن يبدءوا مرة أخرى في صرفه بتوكيل مني إلا بعد بضعة أشهر..».

صاحت في أسى: «أنت تلعب بي، لم أعد أحتمل، مرة تقول إنهم لن يعتقلوك، ومرة أخرى تزعم أنهم قد يعتقلونك، ألا ترحمني من هذا العذاب..».

- «إنها إرادة الله..».

اتصل بي سكرتير نادي القصة في القاهرة وأخبرني أنه وقع عليّ الاختيار لكي أكون عضو «لجنة التحكيم» في مسابقة الرواية التي يجريها النادي كل عام، وطلب مني الحضور فورًا لاستلام مواد المسابقة، وكان علي أن أنتهي بسرعة من قراءة الروايات الخمس التي أنيط بي قراءتها وتقيميها مخافة أن تسبقني الأحداث، كما أنني كنت أعد مقدمة جديدة للطبعة الثانية من كتاب «إقبال الشاعر الثائر» فأتممتها على الفور تحسبًا أيضًا لما قد تأتي به الأيام، كما أني أعددت أربع نسخ من كتاب «النداء الخالد» وقدمتها لوزارة التربية تمهيدًا لتقريرها على إحدى سنوات المرحلة الثانوية، وكلفت زوجتي. في حالة اعتقالي لا قدر الله. أن ترسل كتاب إقبال ومعه المقدمة الجديدة للناشر، وأن تحمل روايات مسابقة نادي القصة إلى السكرتير بعد أن كتبت التقارير اللازمة لها، وماذا أفعل غير ذلك «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا»، وهل يجدي الخوف والحسرات والآهات والدموع؟ التحقت بعملي في الأول من سبتمبر 1965، ومارست العمل بالعيادة والمستشفى كالمعتاد، وألفت الوضع الراهن، وتأقلمت عليه، وعلمت أنهم اعتقلوا صديقي الأستاذ محمود صقر، وهو مدرس من خريجي كلية اللغة العربية، ومن قرية «منية البندرة» بجوار «القرشية» مركز السنطة، ومحمود هذا هو الذي قام بنسخ كتابي «الطريق إلى اتحاد إسلامي» بخطه الجميل، وكان مهتمًا جدًا بالكتاب، ويتمعنه وهو يكتب بإعجاب بالغ، ولم أكن أعلم أن محمود صقر منضم إلى التنظيم الجديد للإخوان المسلمين، وكذلك كان شقيقه الأستاذ لطفي صقر من أعز الأصدقاء، وسمعت إشاعة تقول بأن السلطات قد أخطرت أهل محمود بأنه مات في السجن، وقد تحققت هذه الإشاعة، وتركت في نفسي أثرًا عميقًا، وأسالت دموعي.. ولم أنس محمود طوال السنوات القادمة، وحينما كتبت روايتي «رحلة إلى الله» في عام 1974 بعد ذلك، كانت مأساة محمود هي الحدث البارز في هذه الرواية التي هزت

مشاعر القراء في كل مكان، وإن كنت قد حورت في تاريخ الواقعة فجعلتها في عام 1954 بدلًا من عام 1965.

ذهبت إلى صلاة الجمعة في مسجد «الكخيا» الشهير، وبينما أنا أتجه إلى المسجد وجدت زوجة أخي أسعد سيد أحمد تمر بالقرب مني، سألتها: «ما مصير أسعد؟».

قالت متعجلة: «لا نعرف عنه أي شيء».

- «والأخبار؟».

- «مؤسفة، إنهم يعتقلون الناس جميعًا».

وانصرفت مسرعة، وكأنها تخاف من أن يكون هناك من يراقبها أو يتبعها، ودخلت المسجد وقلبي يضرع بالدموع، ما أكثر الهموم والأثقال التي رانت على هذا القلب المُعاني طوال السنين، في الطفولة والشباب على حد سواء، وشعرت وأنا أجول في شوارع القاهرة كأني عابر سبيل يطوف بنظراته على المعالم، ويتعمق صورها، وكأنه يراها لآخر مرة، آه.. الرحلة لم تنته بعد، وآه من قلة الزاد، وبعد السفر، ووحشة الطريق، والناس يسيرون لا يعبأون بأحد، كل منطوٍ على ذاته، يعيش في عالمه الخاص، وكأنه يقول مالي والآخرين؟! أنا وبعدي الطوفان.. وتردد في رأسي آيات من القرآن الكريم من هنا وهناك ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾﴾ [الملك: 1-2]، روحي تتشرب الكلمات القدسية، وقلبي الواجف تهدأ ضرباته.. ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾.. نعم ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾..

كنت جالسًا أنا وزوجتي وأطفالي نتناول طعام الفطور في صبيحة اليوم السادس من شهر سبتمبر (1965)، وكنت أتحدث مع زوجتي كعادتنا في هذه الأيام عن الاعتقالات والثورة وجمال عبد الناصر، والتقطت ابنتي عزة اسم «جمال» الذي كانت تسمع عنه الأغاني في التليفزيون صباح مساء، ووجدنا الطفلة تقف وتهز رأسها وجسدها الصغير وتغني أغنية شائعة في ذلك الوقت تقول:

وجمـــــــال وإخوانـــــــــه

ألـــــــــف ســـــــلام

يـــــــــــسلم لأوطانـــــــــــــه

ألـــــــــــف ســــــــــــلام

وضحكنا، وأجلسناها لتكمل طعامها حتى تذهب إلى الحضانة وقلت: «الطفلة البريئة لا تعرف شيئًا عن حقائق الأمور».

ودق جرس الباب، وهرولت إلى الشرفة.

وجدت العربة السوداء واقفة، وإلى جوارها يحيى بك كامل أمين وأحد مخبريه أطللت عليه قائلًا: «خيرًا يا بك».

- «انزل.. نريدك خمس دقائق».

قلت دون تردد: «اعتقال؟».

فلم يرد.

قلت: «سأنزل فورًا».

وأسرعت بارتداء ملابسي الصيفية، وطلبت عددًا قليلًا من ملابسي الداخلية، وزوجتي حتى الآن لا تدرك أبعاد ما يجري، لم يكن لها تجربة سابقة في هذا المجال.

قالت في اضطراب: «ماذا يحدث؟».

قلت وأنا ابتسم في مرارة: «تشجعي يا حبيبتي.. لقد جاءوا أخيرًا لاعتقالي».

صرخت بأعلى صوتها، ولم تستطع أن تتمالك مشاعرها، وأخذت تردد: «حرام.. حرام.. والله العظيم حرام...».

طلبت منها بحزم أن تجفف دموعها، وتكف عن الصراخ، وأفهمتها أننا يجب أن نكون شجعانًا في مواجهة الأحداث، وأن ما تفعله لا يليق بامرأة مؤمنة مثلها.

وهبطت الدرج مسرعًا، والأطفال يتدحرجون ورائي، وصافحت يحيى بك، وفتح لي المخبر الباب، وما إن دلفت إلى السيارة السوداء، وأدار السائق المحرك حتى وجدت طفلي الأكبر حسام الدين البالغ من العمر أربع سنوات وبضعة أشهر يجري ويقف أمام السيارة معترضًا ويقول بأسلوبه البريء: «أنت رايح فين يا بابا»؟

قلت له وأنا أغالب دموعي: «ادخل البيت يا ولدي».

ونظرات الصغير تائهة حائرة تُنْبِئ عن عدم فهم أي شيء، ومشت السيارة، ثم استدار بها السائق أمام البيت، وما إن ابتعدت قليلًا حتى سمعت صياح زوجتي وأطفالي، أغمضت عيني، وكان قلبي يهتف داعيًا «اللَّهم أنت المنتقم الجبار».

وران علينا الصمت، وبعد فترة قصيرة قال يحيى بك: «كان المفروض أن يتم اعتقالك في الفجر حسب الأوامر، لكني رأيت أن أتركك حتى الصباح، ولكي تتناول إفطارك».

قلت باقتضاب: «أشكرك».

- أنا لم أقصر نحوك، وكان تقريري عنك طيبًا، لكن ماذا نفعل، لقد صدر القرار الجمهوري: (باعتقال كل من سبق اعتقاله والمشتبه في أمره).

وأنت سبق اعتقالك في أغسطس عام1955.

لم يكن هناك جدوى من الكلام، لقد وقع ما كنا نخشاه، ولم يعد هناك أمل في النجاة من قبضة الحاكم، ومن العبث الحديث عن العدالة والدستور والحريات، فهذه كلها ترهات وأساطير لا معنى لها ولا قيمة، ولست راغبًا في أن أتحدث مع يحيى بك، فقد تحدثنا كثيرًا وطويلًا قبل ذلك، وذهب كل شيء أدراج الرياح، شيء واحد أصبحت مقتنعًا به تمام الاقتناع، ذلك أن العيش في بلادنا مستحيل، وأن الهجرة واجبة، وإذا لم تتيسر الهجرة بالطريق الرسمي فلا بأس من الهروب، والتسلل عبر الحدود مهما كان الثمن.. ووجدتني أردد ما قاله أبي مرة أخرى: «كأننا يا بدر.. لا رحنا ولا جينا»..

****



الجزء الخامس

[1] الوداع يا دنيا

حينما ساقوني إلى مركز شرطة «الخانكة» التابع لمحافظة «القليوبية»، صعدت الدرج بصحبة أحد العسكر، وما إن بلغت الصالة في الطابق الثاني حتى فتح باب إحدى الحجرات قال لي العسكري: «تفضل..».

دلفت إلى الغرفة، ثم أغلق الباب، ووجدت عددًا من الرجال جالسين صامتين، وعلى وجوههم الأسى والألم، وفي عيونهم الحيرة المتوجسة، ألقيت عليهم السلام، فردوا بفتور، ولمحت ابتسامات خفيفة رغم الحزن، لكأنهم حمدوا الله أن أتيت إليهم، فأغلبهم يعرفني؛ إما لأنهم كانوا رفاقي في السجن للمرة الأولى، أو لأنهم ربما زاروني أكثر من مرة في المستشفى لأفحصهم وأعالجهم، والمصائب تخف حدتها عندما يكثر ويتجمع الذين يعانونها.

خلف باب الغرفة المغلق جلس عسكري على مقعد خشبي يحمل في يديه مدفعًا رشاشًا موجهًا إلينا نحن الجالسين في صمت وترقب، وعينا العسكري مفتوحتان جيدًا، وليس في الغرفة إلا نافذة مغلقة ذات قضبان حديدية، وطاقة للنور والهواء.

حاولت أن أتكلم مع رفيقنا القديم الأخ محمود سرحان وهو من أبو زعبل البلد، لكني لاحظت أنه عازف عن الكلام ويجيب هامسًا ببطء، ثم يدير وجهه بعيدًا عني، وأدرك الشيخ إبراهيم البلّاط حيرتي، فقال: «يا دكتور.. الكلام هنا ممنوع».

فعجبت، ونظرت إلى العسكري، وكأني استفسر منه، فهز رأسه قائلًا: «هذه هي الأوامر، ومع ذلك تستطيعون الكلام بصوت خفيض حتى لا يسمعكم المأمور».

كانوا مجموعة من المعتقلين أتى بهم رجال الأمن إلى هنا وقت الفجر. وهم من البلدان المجاورة، تمهيدًا لترحيلهم إلى أحد المعتقلات التي لا يعرف أحد عنها شيئًا، وليس فيهم من

يعرف ما الجرم الذي ارتكبه، ولهذا أخذوا يتساءلون ويوجهون معظم أسئلتهم إليّ، وأنا مثلهم لا أعرف السبب، ومع ذلك فإن الجميع كانوا على يقين من أنه ليس من الضروري أن يكون هناك سبب مباشر، فالسلطة تحبس المشبوهين والذين سبق اعتقالهم قبل ذلك، وقاية من الفتن، وحفاظًا على هيبة الدولة واستقرارها كما يقال دائمًا، وليس علينا إلا التسليم والسمع والطاعة، وهل هناك من يمكنه الاعتراض أو تقديم تظلم؟ ثم لمن نقدم الشكوى؟ قال الشيخ إبراهيم البلّاط وهو عالم ديني أزهري الثقافة:

- «أما لهذا العذاب من نهاية؟».

قال محمود سرحان: «عذاب مستمر طول العمر ما بقيت، وبقى جمال عبد الناصر».

لم يكن لدي أدنى رغبة في الطعام، والوقت يمر، ومن آن لآخر يدخلون علينا معتقلًا جديدًا أو أكثر، حتى امتلأت الغرفة بالقادمين، وشعرت بالإرهاق: فملت برأسي إلى جوار الحائط، ورحت في نوم عميق لا أدري كيف جاءني، واستيقظت في الفجر، لأرى باب الغرفة مفتوحًا والغرفة نفسها مزدحمة بالجالسين، وكذلك الصالة الواسعة التي أمامها، وقلت مستغربًا: «ما هذا؟».

قال محمود سرحان: «لقد اعتقلوا أشخاصًا جددًا لم نعرفهم في الإخوان من قبل، ولم يسبق اعتقالهم.. تصور إن فيهم أخي «الحسين» وهو فلاح.. وهناك جزار.. وطبال.. وصاحب عربة كارو مصاب بالجذام.. إنهم لا يكادون يعرفون شيئًا عن السياسة أو الدين اللّهم إلا القليل..».

وعلق الشيخ البلّاط في غضب: «الحكومة أصابتها لوثة من الجنون.. إنها بداية النهاية، لا يتصور عاقل أن يفعلوا ذلك..». واقترب منا أحد المعتقلين وقال: «هل سمعتم الخبر؟».

- «ماذا؟».

- «ابن «حجازي بك» مدير المركز اعتقلوه هو الآخر، وقد وردت إشارة من الداخلية بإيقاف حجازي بك عن العمل.. أخبرني بذلك أحد العسكر الآن».

لم يعد هناك شيء مستغرب في هذه الأيام، لكني لاحظت أن المعتقلين هذه المرة يسيطر عليهم خوف شديد، وذلك بسبب الحملة المعادية في الصحف، ومن جراء المظاهرات

المضادة للشيوعيين التي يقوم بها الشيوعيون المؤيدون للحكومة، وكذلك اللافتات المحرضة، والهتافات الحاقدة التي تقول:

«اقتـــــل... اقتـــــل يـــــا جمـــــال

لا محاكمـــــــــــة ولا اعتقـــــــــــال»

إن النية متجهة إذن إلى إبادة وقتل الإخوان المسلمين، أو من يتهمون بأنهم منهم، لذلك فإن المعتقلين هذه المرة يتوقعون أيامًا سوداء، وأحداثًا رهيبة، ويستطيع أي مراقب أن يقرأ سطور المأساة على وجوههم جميعًا، وعندما أقول المعتقلين فإنني أقصد بذلك الأفراد الذين لم تُوجه إليهم أية تهمة على الإطلاق، فالمعروف أن المتهمين أخذوا إلى أماكن أخرى يجري فيها التحقيق على قدم وساق مثل سجن القلعة والسجن الحربي، وسجن أبو زعبل الجديد، ومن لا تثبت إدانته يحال إلى الأماكن التي يوضع فيها المعتقلون الأبرياء أو «المتحفظ عليهم» كما أطلقوا عليهم فيما بعد..

في اليوم الثاني من وجودي بمركز شرطة «الخانكة» جاءت زوجتي وأخي الأصغر محمد، وقفوا في الشارع قبالة النافذة ونادوني، فوسع لي الإخوة الطريق كي أطل عليهم، ولم يكن هناك مجال للحديث سوى أنني بخير، ولا أطلب شيئًا، وأني أوصيهم بالأطفال الثلاثة حسام وعزة وجلال خيرًا، ثم نصحتهم بالانصراف، وعدت متألمًا إلى ركني القصي: أجفف دمعات سقطت على الرغم مني، في سجني الأول كنت شابًا خاليًا من الأطفال والزوجة، ومسئولياتي محدودة، وهمومي قليلة، أما اليوم فالأمر مختلف تمامًا، إن قلبي يكاد يشق صدري وينطلق إلى الخارج ويحط حيث يكون أطفالي ليحتضنهم ويحنوا عليهم، والوجوه الثلاثة الصغيرة البريئة تلازم مخيلتي ليل نهار، وإلى جوارهم أمهم المذهولة المكتئبة، إنني أتذكر أبي الآن، وكذلك أمي، ماذا سيكون وقع الخبر عليهم؟ أيبدءون رحلة الأحزان من جديد؟ لقد اقترب أبي من سن الستين، وتقدمت السن بأمي أيضًا، ولقد عانيا كثيرًا في المرة الأولى، فكيف يكون وضعهم هذه المرة، وتذكرت أن أبي كان يقول لي كيف يخفف عني وأنا سجين: «لا تفكر في شيء.. فكر في نفسك.. نحن بخير ونستطيع أن نتدبر أمورنا.. كل ما يهمنا هو أنت.. ونحن راضون بقضاء الله ما دمت موجودًا.. وما دام فينا أمل بأن يفرجها الله عنك..».

قبيل الفجر جاءت سيارات، وحراس مدججون بالسلاح، وعربات نجدة ولاسلكي، ثم حشرنا فيها، وانطلقت بنا إلى المجهول، حتى الذين يقودون السيارات لا يعرفون أين سيتجهون، إنهم يتلقون الأوامر باللاسلكي «انحرفوا يمينًا.. ادخلوا الطريق الثالث.. توقفوا ثم ارجعوا من الطريق الموازي.. إلخ».

وفي الصباح الباكر وقبل أن تشرق الشمس وقفت بنا السيارات أمام سجن عتيق لم أره قط، سألنا حارسًا عن اسم هذه السجن فقال: «هذا سجن «أوردى أبو زعبل»، وهذا غير سجن أبو زعبل القديم المعروف، وهو أيضًا غير سجن أبو زعبل الجديد الذي يوجد فيه الآن بعض المعتقلين رهن التحقيق...».

ثم عبرنا البوابة الضيقة واحدًا واحدًا تحت الحراسة المشددة، ثم أغلق علينا باب السجن، ثم جلسنا القرفصاء صفوفًا في باحة السجن الواسعة، وأمامنا قائد السجن الضابط «يوسف» وهو رجل طيب، ونائبه الضابط «كمال دوس» وهو صديق قديم مسيحي الديانة، وله معي قصة مؤلمة قبل ذلك، وهناك حضرة «الصول بولص»، وبينما نحن جلوس اقترب منا «الصول بولص» وفي يده دفتر كبير ثم أخذ يتفحص وجوهنا جيدًا.. ثم التفت نحوي وقال: «أهلًا.. أهلًا.. شرفت يا نجيب يا كيلاني».

ثم مال نحو الشيخ إبراهيم وقال: «كيف حالك يا شيخ إبراهيم يا بلّاط؟».

واتجه ناحية أخرى وهو يقول:

«جئت مرة ثانية يا صديق يا عبد الحميد.. أنت جن مصور..».

وأخذ يعدد أسماء بعضنا، وهو يسخر ويمط الكلمات، وينوع العبارات، فابتسم قائد السجن وقال: «هل تعرفهم جميعًا يا صول بولص؟!».

قهقه وقال: «كلهم «سوابق» يا بك».

وكلمة «سوابق» تعني في السجون «معتادي الإجرام» وسمع «كمال دوس» اسمي فهرول نحوي وقال: «أنت؟ لا أصدق عيني، ما الذي أتى بك إلى هنا؟».

فابتسمت قائلا: «نصيبي يا كمال بك».

وبان الكدر على وجهه، فأردت أن أخفف عنه الحرج وقلت: «لا تحمل همًّا، ليست هذه أول مرة».

فمصمص بشفتيه، وأعطاني ظهره وانصرف..

خلعنا ملابسنا المدنية، وتسلمنا ملابس السجن، وبدأنا في ارتدائها، ثم أخذوا أحذيتنا وجواربنا وملابسنا الداخلية أيضًا، ووضعوها في المخازن واسم كل واحد منا على ملابسه، كانت ملابس السجن مهترئة ممزقة، وخاصة في الأماكن الحساسة من أجسادنا، وكان هذا شيئًا مؤلمًا للنفس، وكان البعض يحاول أ ن يستر عورته بيديه، قلت لمن يجلس إلى جواري: «لقد عرفوا الإنسان بأنه هو الحيوان الناطق.. ثم زعموا بأنه هو الحيوان الضاحك.. وأنا عندي تعريف جديد للإنسان».

قال: «ما هو؟».

- «الإنسان هو الحيوان الذي يرتدي «كلسونًا» داخليًّا يستر عورته..».

كان سجن «أوردى أبو زعبل» بناءً عتيقًا يبدو أنه بني في أيام حكم الأتراك قديمًا، وهو مكون أساسًا من ستة عنابر، يستطيع كل عنبر أن يسع ثمانين فردًا، لكنهم ملئوا كل عنبر بعدد يفوق المائة.

وتسلم كل واحد منا «برشًا» من سعف النخيل للنوم عليه، وبطانية قديمة للغطاء، ووعاء من الزنك لنضع فيه الطعام يسمونه «قروانة»، كما تسلمنا عددًا من الجرادل (حوالي خمسة عشر دلوًا للشرب) وعندما دخلنا العنبر وجدناه مستطيلًا، وفي نهايته مرحاضان، وقاعدة خشبية موضوع فوقها زير لمياه الشرب..

انهمكنا في إعداد العنبر وتنظيفه وتنظيمه، وفرش كل منا برشه، وكذلك البطانية، وكانت الأبراش متصلة بحيث تغطي أرضية العنبر المبلط، وفي وسط العنبر ممشى يفصل بين جانبيه، ويمتد هذا الممشي من الباب حتى المراحيض، وتراص معظم المعتقلين على الجانبين فوق الأبراش، وهدأت الحركة، وكان الجميع في انتظار الماء والطعام.

هنا سوف يستقر بنا المقام لا ندري إلى متى، فلم يعد لدينا قدرة على التنبؤ بشيء، ومع ذلك يسود شعور عام بمستقبلٍ مفزع غامض لا يعرف أحد أية تفاصيل عنه، وقد يعتقد البعض أن الذي لا يزج باسمه في قضية أو تحقيق بريء، ولا يصح أن يقلق على مصيره، هذا

الاعتقاد هراء، فالكل متهم، والكل معرض للنقمة والانتقام، وسوط الجلاد لا يفرق بين سجين وسجين، إن كل من يدخل إلى السجن، ويصبح وراء الأسوار يصبح مهدر الدم، لا وزن له ولا قيمة، وهو إلى الحيوان الأعجم أقرب، لكنه للأسف لا يستمتع بحقوق الحيوان، وليس له جمعية رفق كتلك التي تهتم بالحيوان...

يجب أن نرضى بما هو مقسوم، ونحاول أن ننسى الدنيا خارج هذه الأسوار، ولتكن هذه العنابر بمثابة كهوف نتعزل فيها إجباريًا عن الخلق..

وداعًا يا دنيا.. هذا هو عالمنا الجديد..

****

[2] مشاكل وهموم

نزلنا في عنبر رقم 6 وكنا التسعين عدًّا، وكان من الضروري أن ننام على جنوبنا لضيق المساحة، وغير مسموح لأحد أن يستلقي على ظهره وهو نائم، إذ معنى ذلك أن يحرم آخر من مكان ينام فيه، ولم يكن لنا حق الاعتراض أو الشكوى، فالمفروض أن نقبل الأوضاع كما هي وإلا تعرضنا للعقاب، ثم إن عدد المعتقلين أكثر من طاقة الاستيعاب في المعتقلات المخصصة لنا، وقد نتحمل الزحام، ولكن واجهتنا عدة مشاكل منها أن بيننا أحد المصابين بمرض الجذام، وهو عربجي مسكين كان يقيم منذ فترة طويلة في مستعمرة الجذام، ويبدو أنهم وجدوا له اسمًا في إحدى شعب الإخوان المسلمين القديمة، فاعتقلوه -هو وأخاه- وأتيا بهما إلى المعتقل، وكان الإخوان يخافون من انتقال العدوى إليهم بهذا المرض الخطير، كما وجدنا مريضين آخرين بالعنبر يعالجان من مرض السل (الدرن الرئوي)، وهذان يجب أن يستأنفا علاجهما حتى لا يتفشى المرض فيهما ويستعصي، ومن الطبيعي أن يخاف المعتقلون من انتشار العدوى، هذا بالإضافة إلى عدد آخر من الإخوة يعاني من ارتفاع ضغط الدم والذبحة الصدرية والزحار (الدسنتريا) وأمراض الكلى وتليف الكبد، ولم يكن من المتوقع والأمور متأزمة على هذا النحو أن نطالب بعلاج أحد، فحاولنا أن نقوم ببعض الإجراءات الوقائية الطفيفة حتى يفرجها الله، فهو بيده الأمر، وهو الحافظ.

واقترح بعض الإخوة عليّ -بصفتي طبيبًا- أن أتكلم مع الضابط كمال دوس الذي تربطني به معرفة سابقة، لعله يساعد في نقل المرضى المصابين بالأمراض المعدية على الأقل إلى أماكن للعزل حتى ولو كانت في داخل المعتقل نفسه حفاظًا على بقية الإخوة من الإصابة بالعدوى، ربما ترددت في بداية الأمر، لأني أعرف أن الأصدقاء -بل والأقارب- قد يتنصلون منها، وينكرون معرفتهم بنا في مثل هذه الظروف حتى لا ينالهم أذى، ومع ذلك فقد جلست إلى جوار باب العنبر انتظارًا لمجيء الضابط للتفتيش، ولكن مرت أيام دون أن يأتي، وأخيرًا طلبت من السجان الذي يحضر لنا الطعام وأرغفة الخبز أن يخبر كمال بك بأني أريد أن أكلمه،

فلم يرد عليّ، إذ كان المفروض أن يلقي السجان الأوامر علينا ثم ينصرف دون أن يسمح لأحد أن يكلمه، وإذا تكلم معتقل فلن يرد عليه أحد. ولقد حاولنا الحديث مرة مع (الجاويش حجازي) الذي يسكن معنا في مدينة أبو زعبل السكنية القريبة من السجن، فقال بالحرف الواحد «أنا لا أسمع.. لا أبصر.. لا أتكلم» وأعطانا ظهره وانصرف.

ويئست من لقاء الضابط «كمال دوس». لكنني بعد ثلاثة أيام وجدته يأتي ويفتح الباب، كنت جالسًا على مقربة منه، لكنه تظاهر بأنه لا يراني ولا يعرفني، فاعتصمت بالصبر، وبعد وقت قصير قال: «أنا هنا للمحافظة على النظام، وإحضار الأكل لكم، ولا شيء غير ذلك.. مفهوم».

وقفت وقلت مستأذنًا: «لو سمحت يا أفندم».

- «ألم تسمع كلامي؟».
- «سمعت، لكن..».
- «لكن إيه...».
- «عندنا مريض جذام، ومريضان بالسل..».
- «ربنا يشفي...».
- «نعم، لكن العدوى...».

أغلق علينا الباب في عنف وغلظة مصطنعة وهو يقول: «سوف نرى».

شعرت بالآلام، ذلك لأن القضية إنسانية بحتة، فلماذا هذه المعاملة الجافة؟ ومن حق أي إنسان أن يحمي نفسه من خطر الأمراض، إن تعريضنا للمرض إجراء قاس لا يصح أن يحدث في بلد متحضر يؤمن بالله.. وأصابنا قدر من الغم لفشل المسعى، وسلمنا أمرنا لله، فهذا ما كنا نتوقعه، بل إننا نتوقع أكثر من ذلك، فإن ما حدث منذ عشر سنوات ونحن في المعتقل يتكرر بنفس الأسلوب.

وكم كانت دهشتنا عندما وجدنا «كمال دوس» يأتي بعد يومين وبصحبته حكيمباشي «مستشفى الشرطة»، وهو رجل متقدم في السن، وكان له ابن معنا في كلية طب القصر العيني منذ سنوات. قال كمال بك: «البك جاء ليتعرف على أوضاعكم الصحية...».

تنفسنا الصعداء، وحمدنا الله..

وقال كمال: «أظن أن معكم طبيب معتقل.. فليأت إلى هنا..».

كنت أجلس في آخر العنبر، فقمت وهرولت صوب الباب، قال كمال بك وكأنه لا يعرفني: «هل أنت طبيب؟».

قلت وأنا أبتسم: «نعم...».

قال: «فيه إيه عندكم».

- «مريض بالجذام ومريضان بالسل..».

قل الحكيمباشي: «أين هم؟».

ودعوت المرضى الثلاثة، فقام الحكيمباشي بفحصهم بسرعة، واستخدم السماعة عندما فحص مريضي السل، ثم هز رأسه بعد أن سجل الأسماء وانصرف، وأغلق علينا الباب من جديد، وفي خلال أسبوع واحد، استدعي المرضى الثلاثة، ثم نقلوا إلى مكان آخر لا نعلمه، وبعدها استدعاني كمال وحدي، كان يقف على مقربة من العنبر في الباحة الواسعة، ثم صرف العسكري، وبقيت معه وحدي، تلفت يمنة ويسرة، ثم قال بصوت خفيض: «أنا لا أنسى فضلك عليّ، ولا صداقتنا، لكنني في وضع شائك، ولا أستطيع أن أفعل لك شيئًا.. إن عيون رجال الأمن حولنا، تصور إنهم يجندون العساكر للتجسس علينا، ولهذا لا أحاول الاتصال بك إلا خفية، كما أحاول أن أتجنبك، وأظهر إنني لا أعرفك.. مع إنني مسيحي، ولا يصح أن يشك أحد في أمري لكن تأكد أن قلبي معك، وأدعو لك من كل قلبي، فالناس جميعًا في المنطقة حزنوا من أجلك، وكلهم مجمعون أنك إنسان طيب».

ثم تذكر شيئًا، فاستدرك قائلًا: «هل اعتقلوا زوجتك؟».

أصابني الخوف والاضطراب، وهتفت: «ولماذا يعتقلونها؟ هل حدث شيء كهذا؟».

- «لا.. لا.. مجرد سؤال..».

ثم قال: «انصرف الآن، فقد قدم العسكري، وسأحاول أن أكلمك كلما حانت الفرصة...».

قلت مسرعًا: «أرجوك.. أرجو أن تطمئنني على زوجتي وأولادي» وعدت إلى العنبر مكتئبًا حزينًا، لقد داهمتني الوساوس من أجل زوجتي، فلو فرضنا أنهم اعتقلوها، فلماذا؟ ثم من هناك يعتني بأمر الأطفال، وبقيت معتصمًا بالصمت بعد أن عدت إلى العنبر، وإخواني يسألونني عن السبب، فبحت لهم بشكوكي حول مصير زوجتي، فأكدوا أن الحكومة هذه المرة قد اعتقلت عددًا كبيرًا من النساء زوجات المتهمين وقريباتهم أو من حامت حولهن شبهات أي نشاط ديني سياسي، وذكروا من بينهن السيدة زينب الغزالي وشقيقة الأستاذ سيد قطب، وأم وأخوات المعتقل صلاح الأنور وغيرهن كثيرات، وكان هذا التصرف بمثابة حدث جديد لا مثيل له في تاريخ مصر الحديثة، وأصبح معتقل سجن القناطر الخيرية أول معتقل نسائي في بلادنا.. ومع ذلك فقد حدث أن تم اعتقال بعض النساء اليساريات أيام حكم الرئيس السادات بعد ذلك أي بعد مضي حوالي خمسة عشر عامًا، لكن يظل ما حدث أيام عبد الناصر بالنسبة لإنشاء معتقل خاص بالنساء له الأسبقية التاريخية، بل إن بعد النسوة أخذن أيضًا إلى السجن الحربي في هذه الأيام (1965) للتحقيق معهن فيما عرف بقضية سيد قطب رحمه الله، وصدرت ضدهن أحكام بالسجن. الحقيقة أن كلمات كمال دوس عن زوجتي قد زرعت في نفسي قلقًا بالغًا، ذلك لأني مؤمن بأن كل شيء ممكن الحدوث في هذه الأيام..

وبالنسبة لمشاكل مرضى ارتفاع ضغط الدم والسكر والذبحة الصدرية والكبد وغيرها لم نستطع أن نفعل شيئًا، فقد اعتبروها من الأمراض غير المستعجلة.

ومن المشاكل التي واجهتنا في عنبر 6 بسجن «أوردى أبو زعبل» مشكلة أحد المدمنين على «الأفيون»، ولقد صُدم الإخوة بظهور حالة كهذه بينهم، إذ ليس من المعقول أن يقع أحد الإخوان فريسة للمخدرات، وهو يعلم أنها محرمة شرعًا، ودار الجدل حول هذا الموضوع الخطير، فرأى البعض أن يتركه وشأنه، ورأى آخرون ألا نقف مكتوفي الأيدي أمام هذه الكارثة التي تودي بالمدمن فيموت بسبب الأعراض الانسحابية من إسهال وأمغاص وقيء وأرق وآلام عامة، وسيولة الأنف والعينين وما إلى ذلك، وعرفنا من أهل بلد المدمن واسمه (م. غ) أن المسكين كان يعاني مغصًا كُلَويًّا مزمن وهو في بلده، وكان يأخذ حقن «المورفين» لتخفيف المغص، وبتكرار هذه الحقن أدمن عليها، فكان يأخذ المورفين عند ازمة المغص، وإذا لم يتيسر له ذلك يتعاطى الأفيون بديلًا عنه..

كان (م.غ) يرقد فوق البرش كالضحية، وفي عينيه الذابلتين استغاثة وضراعة، وكان معنا أحد الصيادلة المعتقلين، واثنان من الأطباء غيري، فرأوا أن علاجه يبدأ بإعطائه جرعات متناقصة يوميًّا من الأفيون، ويضاف إلى ذلك علاج الأمراض الانسحابية كالمغص والإسهال والضعف وغيرها، لكن كيف نوفر له ذلك؟

ولم يكن لنا حيلة في الأمر سوى أن نستسلم لقضاء الله وقدره، إن شاء نجاه من الموت وإن شاء أماته.. ولم نكن نعلم أن هناك ما يدبر في الخفاء، فقد حاول زملاؤه في المصنع الاتصال بأحد السجانة (ح) ليساوموه في إحضار كمية من المخدر لإنقاذ حياته، وتم لهم ما أرادوا، وبدأ المدمن يأخذ كمية قليلة تتناقص يوميًّا، وما إن تماسك وعادت إليه عافيته، حتى قال: «إنني الآن قادر على الاستغناء عن الأفيون نهائيًّا وقد أقسمت ألا أقربه مرة أخرى في حياتي..».

ومن الطريف أيضًا أنه كان معنا في المعتقل أحد الرجال الأثرياء، وهو رجل صالح له أيادٍ بيضاء على الجماعة إذ كثيرًا ما تبرع لها بمبالغ كبيرة بلغت عشرات الآلاف، وكان المسكين واسمه (م.د). لا يستطيع أن يذهب إلى المرحاض دون أن تكون في فمه سيجارة يدخنها، وظل يعاني من الإمساك ثمانية أيام متصلة حتى ساءت حالته، واستطاع بعض الإخوة أن يهرب له عددًا من السجائر عن طريق أحد العسكر، ويوم أن حصل -للأسف- على السيجارة، ذهب للمرحاض وجلسنا ننتظر النتيجة، وحينما خرج منه راضيًا كنا نضحك ونقول له: «مبروك يا حاج..».

كانت الأيام تمر بطيئة ثقيلة ودخل علينا شهر أكتوبر 1965 ونحن نعاني مرارة الانتظار والقلق، وأتى إلينا فوج من المعتقلين الجدد، كان أحدهم قادمًا من معتقل أبو زعبل الجديد والقريب منا، وأخبرنا بأشياءٍ كثيرة لم نكن نعلم عنها شيئًا. منها أن هناك جماعة إسلامية جديدة اسمها «جماعة التبليغ»، وهي جماعة مهمتها الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وترسيخ عقيدة التوحيد الصحيح في نفوس الناس، وذلك عن طريق عقد لقاءات في المساجد، وكان لديهم شيء اسمه «الخروج في سبيل الله» ومعناه أن يأخذ كل فرد متاعة البسيط، ومعه مجموعة من إخوانه، ويذهبون إلى القرى والكفور والمدن البعيدة، ويتحدثون إلى الناس دون الإشارة إلى الأمور السياسية أو الحزبية، إن مهمتهم الأساسية هي التمكين

لدعوة التوحيد، وشرح «لا إله إلا الله، محمد رسول الله». وامتد نشاطهم حتى غطى أنحاء القطر المصري، وقطاع غزة في فلسطين، كما كانت لهم أنشطة في الدول العربية والإسلامية، بل وفي دول أوروبا نفسها، وقد نشأت هذه الجماعة أصلًا في الهند، وتكون لها فرع في مصر، وقد علمت أن أحد رجال التربية والتعليم وهو الأستاذ عبد العزيز العراقي يرأسه، وهو خريج -كما علمت- من كلية العلوم، وأخبرنا الأخ القادم من معتقل أبو زعبل الجديد، أن من بين أعضاء هذه الجماعة عدد كبير من الشباب صغار السن، وأن معهم أيضًا مذيع تليفزيوني شهير ناجح هو المرحوم الأستاذ إبراهيم عزت، الذي استضافني ذات يوم في برنامجه التليفزيوني الأدبي «كاتب.. وكتاب» أو «كاتب.. وقصة» على ما أذكر. وقدمني في البرنامج بكل حب وترحيب، وأخذ قصة قصيرة من قصصي وأخرجها تمثيلية في حوالي ربع أو ثلث ساعة، وبعدها بدأ معي الحوار عن قصصي.. وأتذكر أنه يوم تسجيل البرنامج أخذني إلى إحدى غرف مبنى التليفزيون وصلينا العصر معًا، ثم أخبرني أنه «خارج في سبيل الله» إلى مدينة المحلة، ولم أفهم عند ذاك معنى عبارة «الخروج في سبيل الله» لكني فهمتها اليوم من أخينا القادم من معتقل أبو زعبل الجديد، وعندما حدثنا عن هذه الجماعة -جماعة التبليغ- وذكر اسم إبراهيم عزت، وعلمنا أنه تعرض لتعذيب شديد، لكنه لم يكن وراءه أية أسرار سياسية أو تنظيمية، فأمر جماعته واضح، ولا علاقة لها بالسياسة..

ولعله من باب استكمال قصة إبراهيم عزت، أن نقول إنه ظل وفيًا لدعوته، بعيدًا عن السياسة، عابدًا زاهدًا بعد أن ترك التليفزيون، وكان يذهب إلى الحج والعمرة ويطيل الإقامة في مكة المكرمة، وفي أحد الأعوام كان يؤم المصلين في صلاة التراويح (القيام) في البيت الحرام في شهر رمضان، ثم لقي الله ساجدًا. وهكذا مات ذلك الرجل الصالح الذي أحبه كل من عرفه، ودعا له بالرحمة..

وعلمنا ونحن أيضًا في عنبر 6 أن هناك عددًا كبيرًا من الإخوان الذين سجنوا عشر سنوات وخرجوا في شهر مارس أو يوليو أو أغسطس عام 1965، أقول إن هؤلاء أعيد اعتقالهم، ولم يمض عليهم شهور أو أيام، وقدموا مرة أخرى للمحاكمات بتهمة غريبة، وهي إعادة تنظيم جماعة الإخوان المسلمين داخل السجن، وعرفت قضيتهم بقضية «إخوان العشرات» أي الذين قضوا أحكامًا بالسجن عشر سنوات كاملة، وكان من بين هؤلاء أخي وصديقي الدكتور رشاد بيومي الذي أكمل دراسته في كلية العلوم بعد خروجه من السجن،

ونال درجة الدكتوراه وسافر إلى أمريكا، وأخبرني رشاد بعد أن أعيد اعتقاله في عام 1965 وهو لم يزل طالبًا بالكلية، بأنهم ساقوه إلى التحقيق وسألوه: «ماذا رأيت في مصر بعد خروجك من السجن؟ وهل لاحظت التقدم الكبير الذي طرأ على البلاد؟».

فأخبرهم رشاد أنه لم ير شيئًا، لأنه لم يقض إلا أيامًا قليلة تقل عن الشهر، ثم أعيد إلى السجن مرة أخرى.

سألوه: «ما رأيك في ثورة عبد الناصر».

- «أضاعت مستقبلي، وآذتني شر الإيذاء، وهل كان في إمكاني أن أرى شيئًا وأنا سجين؟».

وكان نتيجة لهذا الكلام أن قاموا بتعذيب رشاد، وخلعوا أظافر يديه ورجليه دون سبب يذكر، ونظرت إلى أظافره وقلت له: «إن أظافرك الآن نظيفة وجميلة، ولم يكد يمر على خلعها إلا شهران أو أكثر قليلًا..».

هز رأسه في أسى وقال: «الحمد لله...».

ولعله من المفيد أن أشير في هذا المقام إلى قصة حب مثيرة كان بطلها رشاد بيومي عندما كان سجينًا في المرة الأولى [في الستينيات الأولى أي النصف الأول]، فقد كان رشاد يشكو من ألم في المثانة يحتاج إلى جراحة عاجلة، فنقل إلى مستشفى بإحدى محافظات الصعيد (ورشاد رجل صعيدي من سوهاج، وأبوه كان موظفًا بالبنك هناك، ولقد كان رشاد معي أيام سجن أسيوط في الخمسينيات) ودخل رشاد المستشفى للجراحة، وبقي فيها فترة طويلة.. وكانت هناك طبيبة حديثة التخرج تشارك في الإشراف على علاجه، ومن الطبيعي أن يلفت نظرها ذلك السجين المثقف الذي يدرس بالجامعة، ويتسم بالوقار والثقة بالنفس والاستقامة والثبات على المبدأ، ودار بينهما حوار.. بل حوارات، تناولت شتى القضايا فشغلها أمره، كما آنس فيها روحًا نقية طاهرة، ولم يقف الحراس الذين يلازمون السجين المريض رشاد ليل نهار حجر عثرة في تطور العلاقات الإنسانية النظيفة بينهما، ولم يغادر رشاد المستشفى -بعد الشفاء- إلى سجنه إلا وكانا قد تعاهدا على الزواج بعد الإفراج عنه، وظن البعض أن ما حدث مجرد مشاعر ودية عابرة، سرعان ما تخفت حدتها مع الزمن، لكن تلك العلاقة ظلت راسخة حتى تم الزواج بعد سنوات، وأثمر البنين والبنات، واستقرت تلك الأسرة الصغيرة

سنوات في أمريكا، وسنوات أخرى في دولة الإمارات العربية المتحدة حيث عمل رشاد أستاذًا في كلية العلوم بجامعتها لبضع سنوات.

ونعود إلى هموم ومشاكل العنبر رقم 6، فقد كانت مشكلة المياه من المشاكل العويصة، وأذكر أننا قضينا ذات مرة ستًا وثلاثين ساعة دون ماء حتى جفت حلوقنا، وكاد يقتلنا الظمأ، ناهيك بالأمور الأخرى الحيوية التي تحتاج إلى استعمال الماء، أما الوضوء وإزالة الجنابة فقد كنا نستعيض عن الماء بالتيمم، وفي يوم الظمأ ذاك كان أخونا «سيد غياض» الذي يعمل بورش السكك الحديدية يستلقي على ظهره ويحلم بمجيء الماء وهو يقظان ويقول: «إنني أرى الماء يجري في المواسير (الأنابيب).. نعم يجري. سوف يأتي الماء حالًا ويتدفق كما تدفق من الصخرة التي ضربها نبي الله موسى عليه السلام بعصاه...» ويطول انتظار سيد غياض، ولا يأتي الماء، وأخيرًا بعد طول انتظار سمعنا صوت الماء يتدفق من الصنبور.. فهرع الجميع صوب المرحاض، وتزاحموا بصورة مؤلمة، كل إنسان يريد أن يرتشف قطرات، ويبلل وجهه ورأسه، وكان هناك الزير الوحيد الذي يجب أن نملأه حتى يضمن لنا مددًا دائمًا من الماء بقية اليوم، لكن الزحام الشديد، واندفاع الإخوة نحو الماء قد حرمنا من ملء الزير، وانقطع الماء بعد ساعة، وليس لدينا رصيد يذكر منه، وهنا تدارس الإخوة الأمر، وقرروا اختيار واحد منا يكون مسئولًا عن تنسيق وتنظيم وتوزيع المياه، وأطلقوا عليه «مسئول الزير» ووقع الاختيار عليّ كي أقوم بهذه المهمة الشاقة الحيوية في عنبر 6 وفكرت في الأمر قليلًا، وتوصلت إلى وضع سياسة ثابتة لهذا الأمر، ثم وقفت وسط العنبر وطلبت من الإخوة أن يستمعوا إلى ما أقول، على أن يكون لهم الحق في مناقشة أفكاري بهذا الصدد.

كانت خطتي تعتمد على الآتي:

أولًا – عندما يأتي الماء، فستكون الأولوية لملء الزير تمامًا بالماء، ويمنع منعًا باتًا ذهاب المعتقلين إلى دورة المياه في ذلك الوقت.

ثانيًا– بعد امتلاء الزير يسمح لممثل عن كل مجموعة بملء دلو الشرب الخاص بهم، واحدًا بعد آخر.

ثالثًا – بعد امتلاء الدلاء (الجرادل) جميعها، يُبدأ في ملء قروانات الطعام الزنك الخالية، وتوضع كل قروانة مملوءة عند صاحبها.

رابعًا: بعد ذلك يسمح للمعتقلين تباعًا بغسل أيديهم ووجوههم والوضوء كذلك.

خامسًا: وفي نفس الوقت يسمح بالذهاب إلى المرحاض لقضاء الحاجة والاغتسال إن أمكن.

وهكذا استطعنا أن نحسم أمر المياه، مع الالتزام بالاقتصاد في استهلاكها سواء أكانت متوفرة أم كميتها قليلة..

وكان الإخوة يحيونني مازحين «أهلًا.. مدير عام إدارة الزير».

وكانت أمور حياتنا تمضي رتيبة في عنبر 6 ولا نكاد نعرف أية أخبار عن العنابر الخمسة الأخرى، ففي الفجر نستيقظ لصلاة الفجر، ثم نقرأ ورد المأثورات شفاهًا حيث لا يسمح لنا باقتناء الكتب، والمأثورات (الصغيرة - أو الكبيرة) عبارة عن مجموعة من التسبيحات وذكر الله والدعوات والآيات القرآنية، جمعها الشهيد الإمام حسن البنا، وكانت شائعة في أوساط الإخوان، ثم نتناول طعام الإفطار، ونجلس بعد ذلك لقراءة القرآن، ومن لا يحفظ يستطيع أن يستمع لمن يحفظ، ثم نصلي الظهر ونتناول طعام الغداء، ومن أراد أن ينام يأخذ قسطًا من النوم، ثم تأتي صلاة العصر ثم المغرب ثم العشاء، وعقبها نتناول طعام العشاء، ونجلس للسمر والترويح عن النفس ومدارسة أحوالنا العامة والخاصة، وقد نناقش أمور السياسة أو الاقتصاد أو المسائل الاجتماعية المختلفة، كمشاكلنا الأسرية، والآثار الأليمة الناجمة عن اعتقالنا، ومصير زوجاتنا وأبنائنا ومعاناتهم المتوقعة.

كنا نجلس ذات مرة، ونحن مجموعة من الأطباء والمهندسين والمدرسين ومختلف الموظفين، نناقش مشكلة الإخوان مع الحكومة، واقترب منا المعتقل «إبراهيم هلال» وهو خريج المدرسة الزراعية المتوسطة، ويعمل في المنصورة، وانبهر بما يدور بيننا من حوار، وكأنه وجد ضالته المنشودة فهناك سؤال يحيره، ويريد أن يستمع إلى إجابة شافية عنه، ورفع إبراهيم هلال يديه وهو يقول: «سؤال».

قلت: «تكلم يا إبراهيم».

[إنني أعرف أنه رجل بسيط محدود الثقافة والخبرة، يعيش في عمله عيشة الفلاحين دون تعقيد أو هموم تذكر، وهو طويل جدًا (فوق المترين) متين البنيان، أشقر الشعر والوجه، ملون العينين...].

قال إبراهيم: «أريد أن أعرف هل ستفرج عنا الحكومة أم لا؟ ومتى يكون الإفراج إذا كان لنا نصيب فيه؟».

رد أحد الإخوة شارحًا الأوضاع السياسية العامة في مصر، وعلاقاتنا بالدول العربية والأجنبية، وما يترتب على ذلك من نتائج، ولم يرتحْ إبراهيم للإجابة لأنها لم تتعرض لسؤاله المحدد، وانتظر إبراهيم، وأخذ ينظر إلى المتحدث الثاني، وكان موظفًا كبيرًا في وزارة المالية، فأخذ يفيض في شرح الوضع الاقتصادي المتدهور، ونفاد الميزانية الخاصة بالإنفاق على السجون والمعتقلات، وبعد أن أنهى حديثه لم يجد إبراهيم أيضًا الإجابة الصريحة المحددة عن سؤاله، والتفت إلى المتحدث الثالث، وكان ضابطًا سابقًا في الشرطة قبل طرده منها واعتقاله، كان الضابط السابق يتحدث عن إسرائيل ونواياها العدوانية، ومن الغريب أن هذا الضابط واسمه «عباس أبو كرم» قد أكد أن إسرائيل لابد، وأن تضرب ضربتها العسكرية التالية في أقل من عامين، بل وأقسم على ذلك، وعباس أبو كرم من مشاهير شباب الإخوان، وكان وثيق الصلة بقيادتهم منذ سنوات طويلة.

ولم يجد إبراهيم هلال هنا أيضًا إجابة محددة على سؤاله «هل سيفرج عنا؟ ومتى؟».

وهكذا دارت أحاديث النخبة المثقفة درسًا وتحليلًا، وإبراهيم هلال المسكين، ينقل بصره من واحد إلى آخر، ويحاول جاهدًا أن يستوعب الحديث، وينتظر كل مرة الإجابة التي يحلم بها دون جدوى.

وفي النهاية رفع إبراهيم هلال يده الطويلة، وكفه العريض إلى أعلى وقال: «استمعوا إليّ».

نظروا إليه جميعًا، وصاح إبراهيم: «الفرج آت قريبًا إن شاء الله».

وأخذوا يسألونه عن كيفية حدوث ذلك، ولماذا يعتقد هذا الاعتقاد، كانوا يظنون أنّه سوف يحلل الأوضاع ويصل في النهاية إلى النتيجة التي يؤمن بها، ولهذا سأله أحدهم: «ولماذا سيفرج عنا يا إبراهيم؟».

هب واقفًا بهامته المديدة وقال بلهجته الشعبية المضحكة: «أصل الحكاية بَظْوَتَتْ».

وضج الجميع بالضحك.

فكلمة (بَظْوتت) تعني أن كل شيء أصبح فوضى، فلا منطق ولا عقل ولا نظام، وأن هذا الاضطراب والضياع وعدم فهم أي أمر من الأمور، يعني ألا يوجد أي إنسان يستطيع الجزم

بشيء، وفي هذه الحالة فإن الله وحده هو القادر على الإتيان بالفرج ولا أحد سواه.. هذا ما تصوره إبراهيم هلال وعبر عنه بلهجته الشعبية البسيطة، وأخذ إبراهيم هو الآخر يضحك، ويقول لقد صدعتم رأسي بالكلام والفلسفة دون أن أفهم شيئًا، والظاهر أنه لا يوجد أحد يفهم كيف يجيب على سؤالي..

ولقد تنوعت جلساتنا في عنبر 6، أحيانًا نجلس لسماع النكت والطرائف، وأحيانًا أخرى نتدارس الفقه أو تفسير القرآن، وبعض الإخوة كان يجلس بيننا ليروي لنا قصة قرأها في كتاب، أو فيلم سينمائي شاهده قبل ذلك، أو دراسة صدرت لواحد من مشاهير الفكر، وأذكر أنني رويت لهم في إحدى الليالي ملخصًا لرواية «اليوم الموعود» التي نلت عنها جائزة المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب، وتسلمت الجائزة -كما سبق وأشرت في الجزء الرابع- من جمال عبد الناصر نفسه، والرواية عن الحروب الصليبية وحملة لويس التاسع ملك فرنسا على المنصورة، وقيام الملكة شجرة الدر بالوقوف في وجهه..

وأذكر أن زميلنا الدكتور (م.سليم) وهو من أطباء رشيد، كان يعاني من حالة نفسية متردية فلم يكن يطيق سماع النكات والقفشات، ويثور ويرمينا بالسفه وعدم دراك أبعاد المأساة التي نعيشها، فكنا نشفق عليه ونكف مؤقتًا عن السمر، حتى تهدأ ثورته، وينطفئ غضبه.

وكان بيننا من ساعدتهم الظروف بالقيام برحلات إلى خارج مصر، فيجلسون ويحدثوننا عن مشاهداتهم في البلاد الأجنبية وما يدور فيها من أفكار وأحداث وقيم..

قبل ليلة السابع والعشرين من شهر أكتوبر 1965 وكان قد مضى علينا في المعتقل حوالي خمسين يومًا، كنا نجلس في المساء حوالي الساعة العاشرة، وإذ بالباب يفتح فجأة، فنهب واقفين، ووجدنا أمام العنبر عددًا من العسكر، وهتف أحدهم في جفاء وسرعة قائلًا: «ستة منكم..».

ظننا أنهم يريدون معتقلين لكي يحضروا الخبز المخصص للعنبر كما يحدث عادة، حيث يكون الخبز موضوعًا فوق عدد من البطاطين، فيمسك المعتقلون بأطراف البطانية، ويحملون الخبز لكي يوزع علينا..

وخرج ستة رجال، وأغلق الباب، لكننا بعد دقائق قليلة سمعنا صراخًا عاليًا واستغاثة، وجمدنا في أماكننا لا ندري ما يجري في الخارج. لكن الصراخ يزداد ونسمع ضجة كبرى تحت جنح الليل لا نعرف تفاصيلها. وخيل إلينا أن رجال الأمن ينوون قتلنا، وسوف يأخذوننا ستة ستة للتخلص منا، وساد القلق الجميع، واعتصمنا بالصمت المرعب، لقد حانت لحظة النهاية، وليس لنا سوى أن نشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وأن الموت حق، والبعث حق، والحساب حق، والجنة حق، والنار حق..

ولم يكن هناك مجال للدموع أو للتفكير في الماضي أو المستقبل، وكيف تنسكب الدموع وقد شلت الأفكار والإرادة، إنها حالة من الاستسلام المطلق، وتلاشى الإحساس بالزمان والمكان..

لم يطل بنا الوقت، لكنها كانت لحظات قاتلة رهيبة، وفجأة صمتت أصوات الاستغاثة، وساد الهدوء المعتقل، وفتح باب العنبر وارتمى الرجال الستة على الأرض وأغلق الباب، وجاء صوت أجش من الخارج:

«ممنوع الكلام».

أخذنا ننظر إلى الرجال الستة، إنهم أحياء ويتحركون، بل إن أحدهم يبتسم، وبقينا نحو ربع ساعة، ونحن على هذا الوضع، وسمعنا قهقهة في الخارج، وجاءنا صوت الجاويش حجازي يقول:

«لقد ذهبوا.. تكلموا كيف شئتم.. إن هذا الذي يحدث «يقطع الخلف» والله العظيم.. من أين جئتم لنا؟ أيامكم كلها كرب في كرب».

وتجمعنا حول الرجال الستة نستفسر عما جرى، كل ما عرفناه أنهم ضربوا ضربًا مبرحًا، آثاره على أجسادهم ووجوههم، وأن هناك مجموعة أخذت من كل عنبر من العنابر الخمسة الأخرى ووقع عليهم نفس العقاب المجهول السبب، فليس في المعتقل أحد متهم في قضية سيد قطب، أو أية قضية أخرى من القضايا، والجميع -كما قالوا- معتقلون تحت التحفظ، لكني بقيت أفكر في الأمر، فتذكرت أن هذه الليلة هي ذكرى الاعتداء على جمال عبد الناصر في حادث المنشية منذ عشر سنوات، ويبدو أن رجال الأمن قد أرادوا الاحتفال بهذه الذكرى الخالدة على طريقتهم الخاصة، وقد علمنا فيما بعد أن إخواننا في معتقل أبو زعبل الجديد، قد

أمروا بالنزول فوق الدرج على أيديهم وركبهم كالأغنام وهو معصوبي العيون، وضربوا جميعًا في ساحة السجن أمام مدير المباحث ومساعديه، واتضح فعلًا أن ذلك كان بمناسبة الذكرى..

وفي اليوم التالي استمر الضرب والتكدير للجميع في عنبر 6؛ إذ وقفنا صفًا في مواجهة الحائط، وجاء العسكر من خلفنا بالعصى والكرابيج وأخذوا يضربوننا بقسوة، ومن يلتفت ليرى ما خلفه أو ليتوقى الضرب يزيدون له في العقوبة، وكان معهم «كمال دوس» الذي حاول كما يبدو أن يحميني من الضرب، لأني لم أتلق أية ضربات، وكان يقف إلى جواري في الصف المعتقل إبراهيم هلال، الذي نال قسطًا وافر من الضرب لطوله الفارع، بل إنهم أمعنوا في إيذائه وإيذاء الآخرين حينما حلقوا له ولهم الشوارب، وكان هذا شيئًا معيبًا، وحسبت أنني نجوت، ولكن العسكري جاء ومعه ماكينة الحلاقة وحلق شاربي أنا الآخر، وكان «كمال دوس» بعيدًا عنا، ولعله تعمد ذلك..

وفي خلال يومين ساد الهدوء المعتقل مرة أخرى، لكن في خلال إحدى الليالي أخذ أخونا المعتقل محمود سرحان يصرخ من شدة الألم في بطنه، وفشلت كل الجهود في إسكات الألم، فلم تجدِ بعض الأقراص المخصصة لذلك، وكان معنا قليل منها، في القضاء على شكواه، فقمت وفحصت محمود فحصًا جيدًا، فتبين لي أنه مصاب بالتهاب حاد في الزائدة الدودية، وهذا يحتاج إلى جراحة عاجلة وإلا انفجرت الزائدة، ومرت الليلة شديدة الوطأة على أخينا محمود وعلينا، وكان يصرخ ويقول: «ى.. يانا.. يا غُلْبى.. أغيثوني يا ناس.. هموت..».

وفي الصباح قررت أن ندق الباب المغلق، طلبًا للضابط المناوب، فليس من المعقول أن نترك محمود وهو يقترب من حافة الموت في هذه الأوضاع التعسة التي لا تمت بصلة لأي رعاية صحية.. وأخذنا ندق الباب.. جاء العسكري وقال: «ماذا تريدون؟».

- «نريد حضرة الضابط المناوب».

- «ليه».

- «واحد بيموت..».

- «يموت ولّا يخفى.. في ستين داهية..».

- «حرام...».

- «طيب اسكت أنت وهو.. سأبلغ الضابط».

وبعد ربع ساعة، فتح الباب، ووجدنا الضابط كمال دوس يقف في مواجهة العنبر، وظل صامتًا بعض الوقت فهرولت إليه قادمًا من آخر العنبر، ثم قلت وأنا أقف بالداخل قرب الباب: «عندنا يا سعادة البك معتقل مصاب بالتهاب حاد بالزائدة الدودية».

- «المصران الأعور؟».

- «نعم..».

- «متأكد يا دكتور؟».

- «مائة في المائة».

- «سأبلغ الداخلية في القاهرة، وإذا لم يكن التشخيص صحيحًا فستكون نكبة عليك وعلينا..».

- «المعتقل محمود سرحان في حالة خطرة..».

- «سأتصرف.. أغلق الباب يا عسكري».

وجلسنا ننتظر ما يقرب من أربع وعشرين ساعة، ومحمود يئن ويتوجع ويتقيأ، وشمل العنبر هم ثقيل، وصمت حزين، وبعد طول انتظار جاء حكيمباشي مستشفى الشرطة، ثم أخذ المريض وفحصه، وأمر بنقله إلى مستشفى سجن طرة، وعلمنا فيما بعد أن محمود سرحان أجريت له جراحة عاجلة بمجرد وصوله إلى طرة، ووجدوا أن الزائدة كانت على وشك الانفجار، مما جعل الجراح هناك يقول له بعد تماثله للشفاء: «كنت على وشك الموت، إنهم هكذا دائمًا لا يرسلون الحالات العاجلة إلا في اللحظات الحرجة».

وفي أحد الأيام أخذونا مجموعات مجموعات إلى قاعة كبيرة بها مقاعد خشبية، وسلمونا عددًا من الاستمارات لكي نملأها، كانت مكونة من عشر ورقات على ما أذكر وفيها بيانات كثيرة عن المعتقل واسمه الرباعي ومؤهلاته وأسماء أقاربه حتى الدرجة الرابعة ووظائفهم، وتاريخ حياته السياسي وغير ذلك من البيانات، وكانت الأوراق الأولى خاصة بالمخابرات العامة، ثم سلمونا مجموعة أخرى من الأوراق على النمط الأول لكي نملأها لمباحث أمن الدولة.

وفي أحد العنابر المجاورة لنا كان هناك معتقل متقدم في السن. وفي إحدى الليالي اضطجع على «البرش» وهو يبتسم ويقول:

«سوف يفرجون عني غدًا إن شاء الله».

وذهل المعتقلون، لأنه لا يتصل بأحد، وليس لديه أية مصادر للمعلومات، فظنوا أنه قد رأى في منامه رؤيا تشير إلى ذلك، ولم يأخذوا الأمر مأخذ الجد، لكن الذي حدث في اليوم التالي، أن هذا المعتقل سقط مغشيًا عليه، ولفظ أنفاسه الأخيرة قبل أن يستطيع أحد إسعافه، وهكذا أفرج عنه كما توقع ونقل إلى بلده جثة هامدة، وساد الحزن أنحاء المعتقل..

وبعد حوالي ثلاثة أشهر من الاعتقال، قدم إلينا الضابط كمال دوس، ووجهه ينطلق فرحًا، وقال بعد أن فتح باب العنبر: «أين الدكتور نجيب؟» .

فأسرعت إليه، وسمعت يقول: «أتيت إليكم ببشرى عظيمة».

هتفنا بصوت مختلط: «خير يا سعادة البك..».

وتخيلنا أنه يزف إلينا بشرى الإفراج عنا، لأننا لسنا معتقلين على ذمة قضية من القضايا، ولم نستطع التمادي في الأحلام إذ سمعناه يقول: «لقد قررت الحكومة صرف رواتب الموظفين الذين لم يوجه إليهم الاتهام، ومعي الآن توكيلات أرجو أن تكتبوها وتوقعوا عليها، حتى يستطع من توكلونه من أقاربكم صرف الرواتب عن الفترة السابقة وعن الشهر الحالي..».

وضج عنبر 6 بالتصفيق والتكبير والشكر، ثم سلمني كمال دوس توكيلات المعتقلين لكي أشرف على استكمالها ثم أسلمها له بعد ذلك، وكان لهذه الواقعة أثر طيب في نفوس معظم المعتقلين، ذلك لأن أسرهم سوف يجدون ما ينفقون على أنفسهم، فيحميهم من ذلك الحاجة ويسترهم، وهذا أمر بالغ الأهمية، لكن فرحتنا لم تكتمل، لماذا؟ لأن بيننا عددًا كبيرًا من أصحاب الأعمال الخاصة، كالتجار وأصحاب الحرف والمزارعين والمحامين وأطباء العيادات الخاصة والصيادلة وغيرهم، هؤلاء قد جيل بينهم وبين نشاطهم، ولا شك أن أسرهم سوف يعانون معاناة شديدة، بعد انقطاع دخلهم، وتلك مأساة لن تساهم الحكومة في حلها، فماذا ستفعل هذه الأسر التعسة؟ لو فكر أحد في معاونتهم لوجهت إليه تهمة جمع الأموال لتمويل الجماعة الإرهابية، وهذه جريمة في نظر المسئولين عقوبتها السجن، إنه

حصار جائر حول تلك الأسر المسكينة التي لا حول لها ولا قوة، فلا عجب أن تتصرف نساء الأسر الكريمة بطريقة مؤلمة فتلجأ إلى أحط الأعمال، أو إلى الخدمة في البيوت حتى يوفروا لأنفسهم لقمة العيش، ونفقات تعليم للأطفال، ونفقات العلاج وما إلى ذلك.

ولعله من المحزن أن نشير أنه أثناء حرب 1967 اعتقل عدد من اليهود والفلسطينيين، ووضعوا في معتقل أبو زعبل الجديد، وكان مسموحًا لليهود المصريين المعتقلين بأخذ أموال من ذويهم للإنفاق على أنفسهم داخل السجن، لشراء الطعام والدواء وغير ذلك، كما سمح أيضًا للمعتقلين المصريين. ولم يكن للفلسطينيين من يرسل إليهم أموالًا، وفيهم من يدخنون السجائر، وقد سمح لهم بها، وفيهم من يحتاجون إلى دواء أو إلى طعام إضافي، ولم يكن أمام الفلسطينيين وسيلة سوى أن يقدموا بعض الخدمات الصغيرة للمعتقلين اليهود مقابل أجر مالي أو عيني يدفع لهم، كغسل الملابس مثلًا، وقد آذى هذا الأمر شعور المعتقلين من الإخوان المسلمين، وتحدثوا في الأمر مع ضباط الأمن في المعتقل، والتمسوا منهم الموافقة على إحدى الخطتين التاليتين:

1- إما إن يسمح للإخوان المعتقلين بجمع تبرعات لهم من بينهم، أو تكون المعونة على صورة أشياء عينية.

2- وإما أن تقوم الحكومة بنفسها بمنح المعتقلين تبرعات أخوية تسد بعض احتياجاتهم. ولم يوافق رجال الأمن على الخطة الأولى لأنها تعني قدرًا من التعاطف والترابط بين الإخوان والفلسطينيين وهذا ما لا تريده الحكومة على الإطلاق، ووعدت المجموعة الأمنية بصرف معونات عاجلة وشهرية للفلسطينيين، لكن المبلغ كان زهيدًا جدًا لا يفي بأقل القليل من الاحتياجات، وكانت هذه المعونات الصغيرة جزء من حصيلة أرباح مقصف السجن، مما جعل الفلسطينيين يعودون للعمل في خدمة اليهود والمعتقلين مرة أخرى، وحاول الإخوان أن يقدموا لهم خفية بعض المعونات العينية من خلف ظهر رجال الأمن بالمعتقل.

والواقع أنني شعرت براحة نفسية بالغة عندما تقرر صرف راتبي لأسرتي، فأنا لم يكن لدي دخل خارجي يذكر يضاف إلى راتبي الذي أعتمد عليه اعتمادًا أساسيًا وخاصة أنني توقفت عن الكتابة في الصحف والمجلات وعن تأليف الكتب، وكانت هذه تشكل دخلًا ثانويًا يساعد في تحمل أعباء المعيشة.

وبعد أن خرجت من المعتقل سألت زوجتي ذات مرة، كيف قضيت الشهور الثلاثة الأولى بعد اعتقالي دون راتب، فأخبرتني بأمور عجيبة، فقد دق جرس الباب في بيتي بالمدينة السكنية بأبو زعبل، فأسرعت لترى من الباب، فوجدت رجلًا يحمل على حماره جوالًا من الأرز، وكمية من الشاي والسكر والصابون وغير ذلك من المستلزمات الضرورية للمنزل، وقال هذا الزائر الغريب الذي لم يسبق لها معرفته. «هذه البضاعة دفع الدكتور ثمنها قبل اعتقاله».

ولم يكد يكمل عبارته حتى سارع بالرحيل قبل أن يذكر اسمه، وكأنه يولي هاربًا قبل أن تراه عين من عيون المباحث وقد تكرر ذلك مرات.

وأخبرتني زوجتي أيضًا أنها ذهبت إلى مؤسسة الإنتاج السينمائي العربي، وقابلت مديرها الأستاذ سعد الدين وهبة –نقيب الفنانين الآن، والكاتب المسرحي المعروف- وطلبت منه باقي مكافأة الفيلم السينمائي الذى كانت المؤسسة تستعد لإنتاجه، وقد وافق على ذلك.

كما أرسلت إذاعة الكويت مكافأة لبضعة أحاديث إذاعية كنت قد أرسلتها إليهم عن طريق صديقي الأستاذ الدكتور محمد حسن عبد الله، وكانت هذه المكافأة حوالي خمسين جنيهًا.

وفي فترة اعتقالي لم تبق زوجتي وأولادها وحدها، فقد ذهبت إلى والدها بحي السيدة عائشة بالقاهرة أيامًا. وخاصة في الفترة الأولى من الاعتقال وكفلها أبوها رحمه الله كفالة تامة، وبعد ذلك جاء أبي وأمي وأختي الصغيرة سميرة ليستقروا مع زوجتي في مسكننا بالمدينة السكنية، وعاشوا معًا فترة طويلة، ولم يسافروا إلا قبيل خروجي من المعتقل بقليل..

أعود مرة أخرى لأقول إن صرف راتبي لزوجتي أثناء وجودي بالمعتقل قد أزاح عني همًا ثقيلًا والحمد لله..

نسيت أن أذكر واقعة حدثت وأنا في عنبر 6 من المفيد التعرض لها ، فبعد أن كتبنا الاستمارات الخاصة بالمخابرات وأمن الدولة، جاء الضابط كمال دوس وفتح الباب، وناداني، فخرجت إليه، وسار فمشيت إلى جواره، وهمست «خيرًا».

قال: «هنا رجل من المسئولين يريد مقابلتك».

دق قلبي خوفًا، ماذا يريدون مني، وأنا لا صلة لي بأية قضية، صحيح أنني أعرف الأستاذ سيد قطب وشقيقه الأستاذ محمد، وبعض أفراد أسرته، لكنها علاقة أخوية عادية ليس لها أية أبعاد سياسية أو تنظيمية، لكننا في هذه الأيام لا يعرف أي إنسان هل هو متهم أم بريء أم مدان، لقد اختلطت الأمور، وتشوهت الحقائق، والإنسان يتأرجح كالريشة في مهب الريح.

وأخذني كمال دوس إلى حجرة صغيرة تقع خلف عنبر 6، كنت أسير حافيًا، أرتدى لباس السجن المعهود بلونه الكالح، رأسي حليق، وكذلك شاربي، والبرودة تسري في أطرافي.

وأخيرًا وجدت نفسي أمام شاب طويل قليلًا، قمحي اللون، يلبس نظارة شمس سوداء، ألقيت عليه التحية، وبقيت واقفًا، كان يجلس خلف مكتب خشبي متواضع، وأخذ يوجه إلي بعض الأسئلة العادية عن اسمي وعملي وأنشطتي وهو يقلب في أوراق أمامه أدركت أنها هي الاستمارات التي ملأناها منذ ساعة، ثم قال: «ألا تريد أن تقول شيئًا».

- «شكرًا يا بك..».

هز رأسه وقال: «هل أنت متضايق من اعتقالك؟».

كنت أستطيع أن أجيب بأسلوب دبلوماسي، وأزعم -كما يفعل البعض- بأني غير متضايق، ما دام ذلك لأمن الدولة ومصلحتها، وأن الإنسان المخلص المضحي من أجل وطنه يجب أن يتحمل بعض المعاناة في سبيله، لكني لم أستطع أن أنافق، واجتاحتني موجة مباغتة من الشجاعة وقلت وأنا أتصنع الهدوء، مع أن ضربات قلبي تتسارع، وجسدي يرتجف، وأنا أحاول أن أخفي ذلك كله قلت: «كيف لا أتضايق يا بك، وأنا لا أعرف مبررًا أو سببًا لاعتقالي هذه المرة.. لم أكن أتوقع شيئًا كهذا بالمرة.. هل يرضيك يا بك.. أن أمشي هكذا حافيًا، وأنام على البرش، وأضع رأسي على حجر، وأحرم من زوجتي وعيالي دون ذنب جنيته؟».

اضطجع إلى الخلف وقال: «هذا إجراء مؤقت.. البلد كانت على وشك أن يلتهمها حريق كبير.. فماذا نفعل؟ لابد أن نلم بأطراف المؤامرة ونطمئن..».

- «إذن اقبضوا على المتهمين».

- «لا نعرفهم كلهم، ولهذا لابد من اعتقالكم جميعًا أولًا..».

- «من حقي كمواطن أن أكون آمنًا على نفسي، ورجال الأمن والتحريات يعرفون من المشتبه في أمرهم.. يجب أن يكون هناك فرز قبل الاعتقال...».

- «لا.. لا.. الاعتقال أولًا.. ثم الفرز بهدوء، ألا يجوز أن يكون بينكم واحد يحاول الاعتداء على الرئيس..».

- «هذا احتمال قائم دائمًا..».

وبعد فترة قال: «عمومًا سوف نبدأ بالإفراج عمن لم يتورطوا في المؤامرة بعد أيام قليلة.. بل أفرجنا فعلًا عن أعداد قليلة..».

ثم سمح لي بالانصراف.. وأخبرني أن اسمه «هـ.د» كان كمال دوس ينتظر في الخارج وعندما خرجت قال كمال في لهفة: «لقد قضيت وقتًا طويلًا معه نسبيًا.. ماذا كان يقول لك؟».

- «كان يناقشني في أمر اعتقالنا..».

قال كمال: «حذار أن تكون قد وقعت في الفخ.. كلامهم معسول ويا ويل من تخرج منه كلمة لها معنى..».

- «اطمئن..».

دخلت عنبر 6 واحتشد حولي الإخوان وكلهم يسألون عن أين ذهبت، ومع من كنت، وماذا قال وماذا قلت، جلست لألتقط أنفاسي اللاهثة، وأردت أن أخفف التوتر السائد، وأقلل من أهمية الأمر، وقلت: «كيف حال الزير؟».

- «زير إيه.. وهباب إيه.. الماء لم يأتِ بعد».

- «الحمد لله.. خفت أن يأتي الماء في غيابي فتهدرونه» أخذ هذا يلكزني، وذاك يهزني، يحرقهم الفضول لمعرفة أي شيء، وهكذا المسجونون دائمًا، يتنسمون الأخبار، وإذا لم يجدوها اخترعوها، وكل شائعة أو خبر تعني في النهاية.. الإفراج.. ولا شيء غير الإفراج..

ولم يطل الانتظار، فقمت بشرح تفاصيل المقابلة، وبدا على وجوههم الارتياح لسماع ما قلت، وكان أهم شيء فيه، هو أن رجل المخابرات «هـ.د» وعد ببدء الإفراج عنا في أقرب وقت ممكن، وعلى الرغم من أننا لا نثق عادة في مثل هذه الوعود. إلا أننا نميل دائمًا

لتصديقها، ونعيش في جنة الأماني والآمال التي تنبض بها قلوبنا، وخاصة أننا على يقين تام ببراءتنا.

وفي اليوم التالي أخبرني الضابط كمال أنه رأى زوجتي وأطفالي بالحافلة (الأوتوبيس)، وأنهم بخير، لكنه لم يستطع أن يخبرها بأنني أقيم معه في سجن «أوردى أبو زعبل».

بدأت معرفتي بكمال دوس منذ عام، ففي صبيحة أحد الأيام كنت أجلس في مكتبي بالمستشفى، ودق جرس التليفون وأخبرني المتحدث بأن هناك حالة «صعق كهربائي» لشاب في سن المراهقة، وأن سيارة الإسعاف في الطريق إلى المستشفى، ويجب الاستعداد لاستقبال الحالة الخطرة..

أسرعت بإعداد الإسعافات الأولية اللازمة لمثل هذه الحالات على قدر الاستطاعة، ووقفت ومعي الممرضات على الباب انتظارًا لقدومه، وكم كان أسفنا عندما وصل المصاب ميتًا، كان يرافقه ضابط سجون علمنا بأن اسمه كمال دوس، وأن الشاب المصعوق بالكهرباء هو ابن أخته، وقد جاء الشاب مجدي من الصعيد لزيارة خاله الضابط، وفي صبيحة ذلك اليوم وضع إصبعيه (السبابة والوسطى) في «فيشة» الكهرباء الخاصة بالغسالة، فسرى التيار الكهربائي في يده اليمنى ثم إلى باقي جسده، فصرخ صرخة مدوية ثم ارتمى على الأرض، كان مجدى هذا وحيد أبويه، وعائلته من الأسر الميسورة الحال، لم أيأس رغم أن الحالة ميئوس منها، وبذلت جهدًا خارقًا في عمل التنفس الصناعي وتدليلك القلب، وإعطاء بعض الحقن اللازمة، فنحن يجب أن نبذل جهدًا مضاعفًا مع حالتين هما الغريق والمصاب بصعقة كهربائية، ولكن لم تفلح الجهود التي بذلت في إنقاذه، وكان يقف إلى جوارنا الضابط كمال، ولما تأكد من النتيجة المؤلمة المحزنة، مزق سترته الرسمية حتى خلعت أزرارها وأخذ يضرب رأسه ووجهه ويصيح حتى انهار تمامًا، وكنت أواسيه وهو يقول باكيًا: «عندي من الأولاد خمسة، وهذا وحيد أبوية، يا ليت الرب أخذ واحدًا من أولادي، وترك مجدي المسكين».

فأخذت أفهمه أنها إرادة الله، وأنه لا رادَّ لقضائه، ولا معقب لحكمه، ويجب أن نرضى بما قسمه الله ونصبر، فليس لنا في الأمر حيلة، وأعطيته دواءً مهدئًا للأعصاب، ثم أحضرت له فنجانًا من القهوة، وأشعل الممرض له سيجارة كان يجذب أنفاسها بيد مرتعشة، ثم طلب

مني أن أكتب برقية باسم والد مجدي وأكتب فيها «احضروا بسرعة، مجدي ابنكم في حالة خطرة».

الواقع أنني تأثرت جدًا بالحادث، وبعدها ذهبت إلى كمال في بيته مواسيًا، وصحبني في العزاء عدد من الأصدقاء، وظلت العلاقة الودود قائمة بيني وبينه، وكثيرًا ما تبادلنا الزيارات، إلى أن حدث اعتقالي هذا الأخير، والتقيت به في أوردى أبو زعبل، وجاء الوقت الذي حاول فيه أن يجاملني في حدود الإمكان، لكن الظروف كانت قاسية وأكبر منه وأكبر مني، قال لي ذات مرة: «لكم يؤسفني أن أرى طبيبًا وأديبًا محترمًا مثلك يرتدي هذا الزي المحزن..».

قلت بابتسامة راضية: «أنا لا أخجل أو أشمئز من هذا الملبس ، فلن يغير من حقيقتي شيئًا، ولن يخفض من قدري أمام نفسي، لم أرتكب عملًا أندم عليه، أو خطيئة أستحي منها، وهذا أمر الله...».

****

[3] الليالي الطويلة

قد يظن البعض أن معاناتنا تأتي كلها من تصرفات السلطة الجائرة، وقسوتها البالغة، ولا يتصور الكثيرون أن من بين المعتقلين أنفسهم من يثيرون القلاقل، ويكونون مصدر متاعب ومشاكل وآلام نفسية شديدة.

كان معنا المعتقل (س) وهو شخص محدود الموهبة، قليل الذكاء، انتهازي لا يفكر إلا في نفسه، ولهذا كان سيئ السمعة، مكروهًا من الجميع، وخاصة بعد أن عرف عنه أنه يكتب تقارير سرية لرجال الأمن عمن يشك في إخلاصهم للحكومة، ولم يكن (س) يخجل من الإعلان عن ذلك حماقة منه وجهلًا، ومن المعروف أنه قد حكم عليه في الاعتقالات الأولى عام 1954 بالأشغال الشاقة، وأودع فترة في سجن الواحات، ثم انشق عن جماعته، وتعاون مع السلطة، وقبض ثمنًا لذلك، وهو العفو عنه، ولم يكن يتوقع على الإطلاق أن تأتي الحكومة مرة أخرى لتعتقله، وتضعه مع غيره من المعتقلين، ذلك لأنه أثبت إخلاصه التام لها، واستجاب لكل مطالبها، ولم تعد له أدنى صلة بالعمل السياسي في صفوف الجماعة المنحلة، لكنه بعد تفكير فهم أن هذا الاعتقال الأخير لن يطول، وإنما هو مجرد إجراء تحفظي لا أكثر، وسوف يفرج عنه في وقت قريب، وكان يصرح بذلك دائمًا، وإذا سمع أحدًا يهاجم الحكومة أو سياسة البطش السائدة، تصدى له بجرأة، وحمل عليه حملة شعواء، مما حدا بأحد المعتقلين (ص) أن يقول له بحدة: «مهما فعلت فلن تصدقك الحكومة، وستبقى معتقلًا معنا رغم أنفك، ولن يفرج عنك إلا معنا..».

وما إن سمع ذلك حتى استشاط غضبًا، وسبَّ ولعن، وأقسم أنه سوف يفرج عنه عاجلًا، وهدد كل من يتحدث عن الثورة بسوء بإبلاغ المسئولين عنه حتى يلقى جزاءه الرادع، ومضت الأيام ثقيلة كئيبة في عنبر 6 وذات مساء بعد صلاة العشاء، جاء الضابط ومعه عسكري وسأل عن المعتقل (س) وأخبره بأنه يجب أن يأخذ أشياءه الخاصة ويخرج معه،

وظن الجميع أن نبوءة (س) قد تحققت وأنه قد صدر أمر بالإفراج عنه مكافأة له على إخلاصه.

كان «س» يبدو في قمة الانتعاش والسعادة، وأخذ يبعثر كلمات الشماتة هنا وهناك، ويحذر كل من تسول له نفسه بالإساءة إلى الرئيس، أو التحدث عنه بما لا يليق، وقبل أن يغادر العنبر وهو يضع البقجة تحت إبطه، اتجه صوب المعتقل (ص) وقال له في تعالٍ: «هل رأيت؟ هأنا ذا أخرج إفراجًا.. قلت لك إن الحكومة لا تنسى رجالها.. أما أنت فأبشر بالبقاء هنا إلى الأبد...».

وخرج (س) وجلس سكان العنبر 6 صامتين، وكل فرد فيه يفكر ويستعيد أحاديثه مع (س)، هل قال شيئًا أمامه يمكن أن يكون موضعًا للحساب والسؤال أمام رجال الأمن؟ والبعض الآخر أخذ يلوم نفسه لأنه صرح بخبيئة نفسه ومشاعره ضد الثورة التي أذاقته ألوان العذاب، فلماذا لم يخف مشاعره ويعتصم بالصمت داخل المعتقل، حتى تمر الأزمة، ويخرج لأهله؟

بعد مرور أسبوعين قدم إلينا معتقل جديد، لكننا علمنا أنه اعتقل منذ شهرين، ثم سيق إلى السجن الحربي للتحقيق معه، وبعد أن ثبت عدم وجود علاقة بينه وبين القضية الجديدة، نقلوه من السجن الحربي إلى معتقل أوردى أبو زعبل لينضم للمعتقلين المتحفظ عليهم -كما يسمونهم- وهم الذين ليست لهم صلة بأية قضايا أمنية مطروحة على الساحة في تلك الفترة العصيبة، وأخذ هذا القادم الجديد يحدثنا عما يجري في السجن الحربي من تحقيقات وتعذيب واعترافات، ومن هم المتهمون في القضية الكبرى، وغير ذلك من أمور، وتحدث عن الرجل الأول المشرف على التعذيب والتحقيقات فذكر اسم «شمس بدران» المعروف جدًا لكل الناس في تلك الفترة، ورديف المشير عبد الحكيم عامر وزير الحربية، وذات مرة سمعنا هذا المعتقل القادم من السجن الحربي نتحدث عن (س)، فقال: «أوه.. لقد رأيت (س) في السجن الحربي».

لم نصدق ما نسمع، فقد كنا موقنين أنه تم الإفراج عنه، وذهب إلى بيته. «يا رجل قل كلامًا غير ذلك، لقد أفرجوا عنه..».

ضحك أخونا المعتقل وقال: «عن أي إفراج تتحدثون.. لقد أكل ضربًا بالكرابيج لم يأكله حمار في مطلع».

وضحكنا، ولعل البعض كان شامتًا، لكن الأمر مثير للغاية، فكيف تأخذ المباحث رجلها لتعذبه؟ وأخذ أخونا يروي القصة قائلًا:

- كانت هناك قضية إخفاء الأسلحة التي حوكم فيها البعض عام 1954، وصدرت ضدهم أحكام.. هذه الأسلحة كان جمال عبد الناصر قد هربها للإخوان قبل قيام الثورة، وحفظت في مخزن بعزبة «العشماوي باشا» وكان حسن العشماوي ابن وزير المعارف الأسبق عضوًا بارزًا في مكتب الإرشاد بجماعة الإخوان المسلمين، وكان ينسق العمل بين الإخوان والضباط قبل الثورة، كما كان يلتقي مع جمال عبد الناصر كرئيس لتنظيم الضباط.. واحتفظ الإخوان بتلك الأسلحة إلى أن قامت الثورة، ثم حدث الشقاق الكبير بين الإخوان والثورة.. وحوكم من احتفظوا بهذه الأسلحة.. وانتهى الأمر.. لكن رجال الأمن بعد تلك السنوات الطويلة أدركوا أن كمية الأسلحة المهربة لم تسلم بكاملها للحكومة.. وأن هناك قطعًا من السلاح مازالت مفقودة، فقرروا إعادة التحقيق في القضية عام 1965 أي بعد أكثر من عشر سنوات.. ومن الطريف أن المعتقل (س) كان متهمًا في تلك القضية القديمة الجديدة.. وهكذا نقلوه من أوردى أبو زعبل إلى السجن الحربي للتحقيق معه مرة أخرى، ومن الطبيعي أن يضرب ويهدد قبل أن يخضعوه للتحقيق الجديد...».

وأخذ نزلاء عنبر 6 يضربون كفًا بكف، وهم مندهشون غاية الاندهاش لما جرى وأخذوا يتساءلون: ترى ماذا كانت مشاعر (س) الذي خرج وهو موقن بالإفراج فإذا به يساق إلى «المحمصة» وهي مكان التعذيب كما يطلق عليه المعتقلون؟؟

اللّهم لا شماتة..

إن أمثال (س) في السجون والمعتقلات السياسية كثيرون، وقد يكون من حق أي إنسان أن يغير رأيه، بعد أن يظن أنه كان على خطأ في توجهه السياسي أو تصرفاته، فالناس يتغيرون ويتحولون لأسباب كثيرة، بعضها حقيقي نابع من التفكير والاقتناع، وبعضها ناجم عن الضعف البشري، والبحث عن حياة آمنة مطمئنة، بعد أن أنهكته التجارب المريرة، والضغوط القاسية، وهكذا يتضاءل تمسكه بالمبادئ، فيتخفف منها، ويلقي عن كاهله أعباءها، وما

(س) إلا مثل من هذه الأمثلة الأخيرة، فقد كان فلاحًا مسكينًا رقيق الحال، ينوء بأعباء الحياة الشاقة، فباع كل شيء لينجو بنفسه...

الأيام تمضي..

والذكريات القاسية تراوح القلوب الصابرة..

وهناك من يستيقظ في الليل الطويل، ثم ينفجر باكيًا، ماذا جرى؟ لقد رأى في منامه أن أحد أطفاله مريض.. وأنه يستغيث به..

وآخر يرى أن زوجه أتت إليه في الرؤيا تشكو سوء الحال.. إنهم بشر يفكرون في مصائرهم ومصائر ذويهم الذين يتلقون العلم، أو الذين كانوا على وشك الزواج، أو الحوامل اللائي سيضعن حملهن في غيبة الآباء.. أذكر أن أحد إخواننا الصعايدة، (من سوهاج) قال لي: «أعتقد أن زوجتي قد ولدت الآن».

قلت: «وأنت لن تعرف اسم المولود».

قال بحماسة: «لا، لقد أوصيتهم أن يسموه محمود».

- «وإن جاءت بنتًا يا مصطفى؟».

سكت برهة، ويبدو أنه لم يعمل حسابًا لذلك، لكنه بعد تفكير قال: «لابد أنهم سوف يسمونها «سيدة» على اسم المرحومة أمي..».

ضحكت مداعبًا وقلت: «وإذا ولدت توأمين ولدين؟».

حار مصطفى ولم يدر بماذا يجب، فقلت على الفور: «إما أنهم سوف يسمون الأول محمود والثاني محمود أيضًا، وإما إن يسموا الأول محمود والثاني «سيدة»».

وشاركنا الحاضرون الضحك، ذلك لأن النساء في الصعيد يلتزمن بتوصيات الرجال دون أنْ يحدن عن ذلك..

وتمضي الليالي الطويلة الشاقة.. وتمضي.. ونحن ننتظر فرج الله، الذي أن يأتي في يوم من الأيام..

[4] أبو زعبل الجديد

في أحد أيام شهر نوفمبر 1965فوجئنا بحركة غير عادية في ساحة السجن، ثم فتحت الأبواب، ووجدنا أحد الضباط ينظر في قوائم الأسماء، وينادي علينا اسمًا اسمًا، ثم نرص في صفوف، وتساءلنا ماذا يجري هنا، ولم يكن أحد من الإداريين بالسجن قادرًا على أن يجيب على تساؤلاتنا، فلا يجب أن يخبرنا أحد بأية معلومات، فمن المفروض أن نظل في عماية تامة عن كل ما سيجري لنا، ورأى أحد إخواننا أن هذه القوائم ما هي إلا قوائم الإفراج عنا بعد أن مضى علينا في السجن بضعة أسابيع، ومما يرجح ذلك أنه ليس بيننا من اتهم بالاشتراك فيما يسمونه المؤامرة الجديدة، كما إن رجل المخابرات الذي التقيت به منذ أيام (هـ. د) قد صرح بأن الحكومة بصدد الإفراج عمن لم تلحق بهم شبهة في وقت قريب. والحقيقة أن هذا الظن قد أوجد شعورًا عامًا بالتفاؤل، ومع ذلك فقد تراجعت عن تفاؤلي، وخاصة أن أسماء جميع المعتقلين في أوردى أبو زعبل قد وردت في القوائم، وليس من المعقول -كما تعودنا- أن يفرج عنا دفعة واحدة، ولهذا قلت لمن حولي من الإخوان: «لا تُفجعوا إذا وجدتم أنفسكم قد نقلتم إلى معتقل آخر..».

قال أحدهم: «ألا تظن أن هذا إفراج»؟

- «كلا..».

وحشرونا من جديد في سيارات كبيرة، تحت حراسة مشددة، وانطلقت القافلة الحزينة في طريق المجهول مرة أخرى، لكن لم يطل بنا المسير، فبعد دقائق من تحركنا وقفت السيارات بنا أمام مبنى جديد أنيق، ولم يكن من الصعب علينا أن نعرف أن هذا هو معتقل أبو زعبل الجديد، وتبخرت أحلام الإفراج أمام الحقيقة المرة الواقعة، وداهمنا غمّ شديد حتى لكأننا نُعتقل مرة أخرى، ونزلنا من السيارات وجلسنا القرفصاء، وخرج علينا رجل ضخم الجثة، مكفهر الوجه، يميل إلى السمرة، ويرتدي زي الشرطة وقال: «هل سمعتم عن «الصول» الجوهري»؟

كنا نسمع عنه الكثير، وخاصة ما يتعلق بقسوته وجفوته، وإمعانه في تعذيب الإخوان الذين يجري معهم التحقيق، ولم ننطق.. كانت نظراتنا تعبر عن مشاعرنا الحزينة، ووقف الجوهري أمامنا وقال: «الشعب لو رآكم لضربكم بالأحذية على رءوسكم.. أنتم خونة وأعداء للشعب..».

لم ننطق.

واستطرد قائلًا: «على كل وحد منكم أن يخرج من جيبه منديلًا، ثم يعصب به عينيه جيدًا، بحيث لا يرى أي شيء..».

قال المعتقل الحاج حامد، وهو فراش بإحدى مدارس وزارة التربية: «أنا ليس معي منديل يا أفندم» صاح الصول الجوهري بصوت أجش: «اخلع سروالك واعصب به عينيك..».

ثم أخذونا إلى الساحة الداخلية لمعتقل أبو زعبل الجديد، وأمر الصول كل واحد منا أن يخلع ملابسه تمامًا ويكومها إلى جواره حتى تتم عملية التفتيش على وجهها الصحيح، وعندما تلكأ البعض في فعل ذلك انهالت عليهم السياط، وهكذا تم بسرعة خلع الملابس، ووضعها إلى جوار صاحبها، وأصبحنا جميعًا عراة، لكن من حسن الحظ أننا معصوبوا الأعين، ولا يرى أحدنا الآخر، وبعد أن تمت عملية التفتيش على الوجه المطلوب سمح لنا بالذهاب إلى أماكننا، ولكن كيف نذهب إليها ونحن معصوبو العيون؟ ولكن لم تطل بنا الحيرة، فقد أمسك كل منا بقفا زميله حتى شكلنا سلاسل طويلة من الرجال العرايا الذين يحملون بقجهم في يدهم الأخرى، وفي بداية كل سلسلة عسكري يمسك بيد أول واحد في الطابور.. وجرى العسكر، وكنا نجري معصوبي الأعين وراءه، ولم نكن نعرف صفات الطريق الذي نجري فيه، وبعد لحظات أدركنا أننا نصعد درجات سلم طويل ونحن نلهث، وفجأة أفلتت يدي من الأخ الذي يقودني، ولكني لم أتوقف، بل اندفعت جريًا، وخلفي عدد من الإخوان، وكم كانت دهشتي عندما وجدت رأسي تصطدم بحائط، فتوقفت، ولم أدر ماذا أفعل، فتوقفت، وتوقف من خلفي، ولم يطل انتظاري، فقد أتى عسكري، وأمسك بيدي، وقادني على الدرج، وبدا السلم طويلًا جدًا، ولا أدري أين أصعد، وفي النهاية وصلنا إلى طريق ضيق على يساري حائط، وعلى يميني سور من القضبان الحديدية يرتفع حوالي مترًا ونصف المتر تقريبًا، ثم فتح باب، ودفعت إليه، ثم أغلق الباب، عرفت ذلك من خلال صوت المفتاح

الحديدي الضخم، وتحسست المكان بيدي ولكني شعرت بأن يدًا حانية تشدني برفق إلى حيث وضعت بقجتي، وجلست عليها، وبعد دقائق سمعت صوتًا رقيقًا يقول: «ارفع العصابة من فوق عينيك».

- «إنهم لم يسمحوا بذلك بعد..».

- «اطمئن يا أخي، لقد ذهبوا».

تباطأت قليلًا، فما كان من هذا الأخ إلا أن مد يده وأزال العصابة عن عينيّ، وفتحت عيني لأجدني في عنبر كبير، به عشرات من الرجال الذين يجلسون صامتين، ويوجهون نظراتهم نحوي، لم أكن أجهل أن هؤلاء معتقلون مثلي، بل إني أعرف البعض منهم، ولم أكن وحدي الذي قدم إلى هذه العنبر، فقد أتي معي ستة، وبقية المعتقلين الذين كانوا معنا في أوردي أبو زعبل توزعوا على بقية العنابر في معتقل أبو زعبل الجديد، في الطابق الرابع الذي نزلت به، كان بهذا العنبر ما يقرب من خمسة وثمانين معتقلًا، وأنه يضم رجالًا من محافظة سوهاج والقليوبية وبورسعيد والسويس وغيرها.

ولقد كنت معروفًا لدى عدد ضخم من إخواني منذ سجني لأول ربما بسبب الجوائز الأدبية التي نلتها وأنا سجين، وبعض المسلسلات الإذاعية التي أعدت عن قصصي، وكتابتي في الصحف والمجلات، وما إن علم الإخوة بالعنبر باسمي حتى هرعوا إليّ يرحبون بي ويصافحونني ويعانقونني.

وكان العنبر نظيفًا، وبه دورة مياه جيدة فيها مرحاضان لهما أبواب، بعكس مرحاض أوردى أبو زعبل المكشوف، كما كان يوجد دش للاستحمام، لكن الازدحام كان شديدًا يكاد يضيق بعدد المعتقلين، وكان باب العنبر من القضبان بحيث يرانا ونرى كل من يمر في الممشى الطويل الممتد أمام العنابر.

واستقر بنا المقام مرة أخرى في هذا المكان، لكن الذي آلمني أشد الألم هو تلك التحقيقات الرهيبة التي تجرى في ساحة الدور الأرضي طوال الليل، وكان التعذيب مستمرًا، وكذلك الصراخ والعويل والاستغاثة، مما جعلني أعاني من الأرق لبضع ليالٍ، ولم أكن أستطيع النوم إلا ساعتين وقت الظهر، لكني تعودت على المأساة بمرور الوقت، وأمسيت أستطيع النوم مع صدور تلك الأصوات البائسة، وقد لاحظت أن الذين يجري معهم

التحقيق يرقدون في ساحة الدور الأرضي طوال النهار والليل ولا ينامون في الزنازين الصغيرة الملحقة بذلك الدور، وقد يظل المتهم مسجى في تلك الساحة ليالي وأيامًا قد تمتد من أسبوع إلى شهر؛ ويأكل ويشرب حيث هو، ولا يسمح له بالتحرك إلا عند ذهابه إلى دورة المياه أو إلى المكتب الذي يجري معه فيه التحقيق، وكان من بين هؤلاء الدكتور أحمد الملط وهو ذو شهرة واسعة وتاريخ عريق في جماعة الإخوان، والأستاذ المذيع التليفزيوني إبراهيم عزت، وإخوان «العشرات» الذين سبقت الإشارة إليهم، ومن تثبت إدانته كان يرحل إلى السجن الحربي لاستكمال التحقيق معه، وقد تثبت براءة البعض هناك فيعودون إلى معتقل أبو زعبل الجديد مرة أخرى.

ما أقسى ما تمر الأيام.

لقد تشوقت لرؤية أولادي.

ألم يكن من العدل أن يسمح لنا بالزيارة أو حتى المراسلات؟

وفي هذه الأيام ألقى الرئيس جمال عبد الناصر خطابًا سياسيًا مهمًا، وصدرت الأوامر لقائد المعتقل بأن يذيع الخطاب من خلال ميكروفون المعتقل حتى نسمعه، كان الرئيس في هذا الخطاب يحمل بشدة على حلف الرئيس الأمريكي أيزنهاور الذي أطلقوا عليه حلف بغداد.. وأخيرًا أطلقوا عليه الحلف الإسلامي، وهو مكون من مجموعة من الدول الإسلامية تتكاتف لتجابه الشيوعية والاتحاد السوفيتي، وصور عبد الناصر الحلف على أنه «خواجة ألبسوه عمامة»، وكانت الجماهير وهي تستمع إلى الخطاب تهتف وتصفق وتضحك عند سماعها لسخريات الرئيس اللاذعة..

وفي اليوم التالي لسماع الخطاب، سألنا رجال الأمن عن رأينا في هذا الحلف وفي كلام الرئيس، وطلبوا منا أن نكتب عريضة للرئيس نسجل فيها رفضنا للحلف، وتأييدنا للرئيس، ولم نكن ندري ماذا نفعل، فإذا تخلينا عن ذلك تعرضنا لمزيد من العذاب والقهر والإذلال، ولم يكن أمامنا سوى أن نرفض ذلك الحلف المشبوه، وخاصة أننا دائمًا ضد تلك الأحلاف الاستعمارية من قديم الزمن، وأخذنا رأى الدكتور «خميس حميدة» وهو وكيل جماعة الإخوان المسلمين السابق، وكان معتقلًا معنا فقال: «إنها مسألة محيرة، فقد نؤيد الرئيس في رفض الحلف الآن، فيقابل تصرفنا بالرضى، لكن ماذا نفعل إذا حدث في المستقبل ووافقت الحكومة

على ذلك الحلف؟ سنكون عرضة للمؤاخذة الشديدة.. إن رأيي هو أن نعلن أننا مع الدولة في موقفها من الحزب، ولها أن تتخذ القرار المناسب».

ولقد كان من الصعب أن نتبع نصيحة الدكتور خميس حميدة، لأن المطلوب حاليًا هو رفض الحلف وإدانته.

وتم لهم ما أرادوا ووقعنا على إدانة الحلف ورفضه، لكن الذي آلمنا هو أن الرئيس شن حملة ضارية على جماعة الإخوان المسلمين ككل، وأكد أن كل من تطاله شبهة نشاط سوف يبقى في المعتقل طول حياته، ونحن نعلم أن الشبهة من السهل أن تأتي من مخبر جاهل أو عدو حاقد، أو عضو في حزب الرئيس ، وكلها أمور مقلقة تدعو إلى الحزن والأسف..

في إحدى الليالي سمعت اسمى في الميكرفون فأصابني ارتباك شديد، وخاصة أن اسمى جاء بين عدد من أسماء شباب الإخوان القدامى أعضاء الجهاز السري، وبعض المتهمين في قضية السلاح، وكان معروفًا أن من يسمع اسمه في الميكروفون عليه أن يجمع حاجاته، ويستعد للترحيل إلى السجن الحربي، فقمت وأنا في غاية الاضطراب لأرتدى حذائي، وأربط بقجتي، ومد أحد الإخوان يده لي بمنديل نظيف، وقال لي: «اعصب عينيك جيدًا».

وكان هذا هو المألوف لكل من ينادى على اسمه، وجلست كالتائه لا أستطيع أن أجمع شتات نفسي ما يقرب من نصف ساعة، أنتظر الضابط الذي سيفتح الباب وينزل بي إلى الإدارة، ثم سمعت وقع أقدام الضابط وهو يدق الأرض بحذائه الغليظ، وقلبي يدق أسرع من خطواته. وأخيرًا وقف أمام الباب، وكنت أنا واقفًا أنا الآخر في وضع استعداد واستسلام تام، لكنه لم يفتح الباب.

قال: «أين نجيب الكيلاني».

هرولت إليه، ومعي بقجتي..

قال: «هل زوجتك اسمها كريمة محمود شاهين؟».

- «نعم..».

- «هذا شيك وصل باسمك من إذاعة الكويت بمبلغ كذا.. ونريد أن توقع على هذا التوكيل لزوجتك كي تصرف الشيك».

تنفست الصعداء.

هل أنا في حلم؟ وهل نجوت فعلًا من الترحيل إلى السجن الحربي؟ لم أكن أصدق، لكن الضابط يسلمني قلمًا، ويمد لي الأوراق لكي أوقع عليها.. لم أقرأ شيئًا.. كانت يدي ترتجف بشدة..

قال لي الضابط: «اهدأ حتى يأتي التوقيع سليمًا..».

وما إن انصرف الضابط، حتى ضج الإخوة بالضحك، وأخذوا يهنئوني بالنجاة، حتى لكأني حصلت على قرار إفراج.

شربت جرعة ماء أحضرها لي إخواني، واستلقيت على ظهري حتى أجمع شتات نفسي المبعثرة، كنت خجلًا أمام نفسي من هذا الاضطراب الزائد الذي يلم بي عند كل حدث مجهول، لكن ما حيلتي؟ هكذا خلقني الله سريع التأثر، شديد الانفعال، ولا أتوقع خيرًا أبدًا من هؤلاء الطغاة، الذين ينظرون إلى الناس دون تفرقة على أنهم متطرفون.. منحرفون.. خونة.. إرهابيون.. أحيانًا كان يبدو لي أن الموت أفضل ألف مرة من هذه الحياة القاسية الرهيبة، لكني كنت سرعان ما أهدأ، واعتصم بالصبر وأذكر نفسي بكلمات الله:

﴿ وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ﴾ [البقرة:45].

﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ ۖ وَيُخَوِّفُونَكَ بِٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٦﴾ ﴾ [الزمر:36].

﴿ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ ﴾ [طه: ١١١-١١٢].

لهذا كان عزائي في آيات القرآن الكريم.

وفي الصلاة.. وفي ذكر الله..

أراد إخواني من أهل الصعيد بسوهاج أن يُسروا عني، وأن يمدوني بأحداث حقيقية قد تصلح كمادة للكتابة، فقال لي الأستاذ عويس وهو مدرس بمدرسة «الخيام» الابتدائية (والخيام قرية في محافظة سوهاج) فقال: «هل سمعت عن قضية الحلبة؟».

فقلت في دهشة: «حلبة؟! إنها نبات أخضر يشبه البرسيم، لكن أية قضية تقصد؟».

وأشار عويس بيده، فحضر عدد من الشباب الصعايدة، بينهم رجل فلاح قح، يصعب عليّ أن أفهم كلمة واحدة من لهجته المغرقة في المحلية والتي لم أسمع مثلها من قبل، وطلب عويس منهم أن يروا قصة قضيتهم التي حدثت في عام 1956 بعد أن أصدر جمال عبد الناصر دستورًا جديدًا للبلاد، أغلق بموجبه المعتقلات -كما زعموا- وحل محكمة الشعب التي حاكمت الإخوان في عام 54-1955 وغيرها من المحاكم الاستثنائية.

واستمعت إلى القصة باهتمام، وكان عويس يتولى شرح ما غمض عليّ من أقوال إخوانه الصعايدة، وقضية الحلبة تتلخص في الآتي:

قام بعض الفلاحين بزارعة مساحة كبيرة من الحلبة، وعند الحصاد كانوا يسجلون أسماء العمال في كراسة صغيرة، ويكتبون أمام كل اسم ما أخذه من الأجر المتفق عليه بالقروش، وكان يتولى أمر الكتابة في الكراسة طالب بالسنة الأولى من مدرسة الزراعة المتوسطة، وفي أثناء سير هذا الطالب بالليل عائدًا من الحقول إلى بيته صادفه كمين من رجال الشرطة يترصدون لصوصًا سرقوا بعض المواشي، فأمسكت الشرطة بذلك الطالب ووجدت معه الكراسة وأسماء الفلاحين، كما قرءوا أيضًا عبارة على غلاف الكراسة تقول «يسقط جمال عبد الناصر، ويعيش الهضيبي» فما كان من الضابط المسئول إلا أن أمسك بالطالب الصغير وأرسله مخفورًا إلى أمن الدولة بسوهاج، وصدر الأمر بالقبض على الطالب وعلى كل من وردت أسماؤهم في الكراسة بتهمة تكوين تنظيم سري ضد الحكومة لقلب نظام الحكم. وأمام دهشة الناس سيق الفلاحون الذين لا يعرفون القراءة والكتابة إلى القاهرة. ولكن محكمة الشعب كانت قد ألغيت، والمعتقلات أغلقت، وهكذا قدموا لنيابة أمن الدولة لمحاكمتهم، ووضعوا في سجن القاهرة رهن التحقيق، واستمر التحقيق ثلاثة أسابيع تبين خلالها أن الفلاحين الفقراء الأميين لا يعرفون شيئًا عن السياسة ولا يعرفون من يكون الهضيبي ولا من الإخوان المسلمين، الطالب الصغير وحده البالغ من العمر ستة عشر عامًا هو الذي لديه فكرة مبسطة عن الإخوان والهضيبي، وتبين للمحققين أن الأسماء التي وردت في الكراسة لأجراء يعملون في الزراعة وأخذ المحققون يضحكون ثم أصدروا أمرًا بحفظ القضية والإفراج عن الجميع».

من العجيب أنه بعد مرور ما يقرب من تسع سنوات على هذه الواقعة، جاء رجال وزارة الداخلية، واعتقلوا أصحاب قضية الحلبة مرة أخرى، وهم الفلاحون الأميون ومعهم طالب الزراعة الذي أصبح مدرسًا الآن بعد أن تخرج منذ سنوات وحصل على دبلوم الزراعة المتوسطة، وكانوا مجرد معتقلين ينطبق عليهم قرار «اعتقال كل من سبق اعتقاله والمشتبه في أمره».

ومن سوهاج أيضًا تم اعتقال رجل يدعى «عبد الرحيم المهندس» سألته: «ما هي قصتك يا عبد الرحيم».

عدّل من وضع منظاره الأبيض فوق عينيه وقال: «نحن أصلًا من عائلة «أبو برسيم».

لم أستطع أن أمسك نفسي من الضحك، لكنه استطرد في جدية وقال: «أبو برسيم حورت بعد ذلك إلى عائلة «البيرشمي» وهي أسرة معروفة في المنوفية.. ونحن أصلًا ننتمي إلى عائلة البيرشمي هذه، لكن جدي الكبير إبراهيم كان مهندسًا ذائع الصيت؛ وأرسلته الحكومة إلى الصعيد لكي يحمي شطآن نهر النيل من التآكل، وأقام هناك (في المنيا) وأطلق عليه الناس اسم (إبراهيم المهندس) هل تعرف يا سيدي الدكتور النبوي المهندس وزير الصحة؟».

- «نعم أعرفه يا عبد الرحيم، وهو من أساتذتي في كلية الطب» فابتسم عبد الرحمن ابتسامة عريضة وقال: «هذا الوزير هو ولد عمي.. وهو من أحفاد جدنا الكبير إبراهيم المهندس طيب الله ثراه.. لكن كما تعلم أصبح في أسرتنا الأغنياء والفقراء.. وأنا يا أخي من الفرع الفقير.. لكننا شرفاء محترمون.. ونحن لسنا في حاجة إلى ابن عمنا الوزير ولا غيره.. لن أطيل عليك.. أنا لم أتعلم تعليمًا نظاميًا كافيًا، حفظت القرآن، وأجدت القراءة والكتابة، وأخذت أبحث عن وظيفة.. أرسلت عشرات الرسائل إلى جمال عبد الناصر دون جدوى، ثم جاء اليوم الحاسم.. انتبهت إلى عبد الرحيم وقلت: «متى كان ذلك»؟ «عندما أرسلت رسالة إلى جمال عبد الناصر وقلت له فيها: إذا لم تأمر لي بوظيفة، فسوف أهتف بحياة الملك أحمد فؤاد الثاني وليّ عهد الملك المخلوع فاروق الأول... وعندها قامت الدنيا ولم تقعد، وجاء العسكر بالسلاح والعربات المصفحة وقبضوا عليّ في عام 1956 بتهمة التآمر على الثورة وزعميها.. ووضعوني في سجن مصر، وبدأت نيابة أمن الدولة تحقق معي.. لم يستمر التحقيق

أكثر من ستة عشر يومًا.. وعرفوا أن المسألة تهديد أجوف، وهزار في هزار. وهكذا أفرجوا عني.. وعدت إلى بلدتي بعد أن تلقيت درسًا موجعًا في الأدب.. وقد تعجب كثيرًا جدًا..».

- «لماذا أعجب يا عبد الرحيم»؟ «لقد صدر أمر بتعييني في وظيفة حكومية على الفور وأصبحت أقرأ عدادات المياه في المنازل.. والحمد لله لقد جعلوني موظفًا محترمًا.. ولو لم أهدد بالهتاف بحياة الملك أحمد فؤاد الثاني لما نلت بغيتي..».

قلت: «لماذا اعتقلوك هذه المرة يا عبد الرحيم؟».

- «أنا شخصيًا لا أعرف.. لقد أخذت ألح وأسأل الضابط عن السبب دون جدوى، وأكدت لهم أنني لم أكن من الإخوان المسلمين في يوم من الأيام.. وكان الضابط مقتنعًا بكلامي.. وبعد أن تعب من كثرة أسئلتي ومناقشتي.. قال لي في سخرية: لقد اعتقلناك يا عبد الرحيم «كمالة عدد»، وهي كما ترى كلمة تعني الاستهزاء بي، ولما لاحظ الضابط أسفي وعضبي أخبرني بأن القرار الجمهوري الصادر يقرر اعتقال كل من سبق اعتقاله أو المشتبة في أمره..».

ولم تكن حادثة «الحلبة» أو حادثة «عبد الرحيم المهندس» هي المثل الوحيد لعشوائية الاعتقالات، فقد كان هناك مئات الحالات الشبيهة بذلك، مثال ذلك الرجل الذي طلب ترشيح نفسه ضد الرئيس في انتخابات رئاسة الجمهورية، وكنا نطلق عليه في المعتقل «سيادة الرئيس»، والمعتقل محمد جبالي الذي اعتقل لمدة يوم واحد في الخمسينيات، من القرن العشرين، لمجرد تشابه اسمه مع معتقل هارب، ثم أفرج عنه بعد معرفة حقيقته، لكنهم جاءوا واعتقلوه في عام 1965 لأنه سبق اعتقاله خطأً يومًا واحدًا قبل ذلك، والأخوان شاهين وهما محاميان، بل والأغرب من ذلك اعتقال رجل من أصدقاء «الخُطّ» مجرم الصعيد واسمه محمد عبد اللطيف، ومن المضحك أن هذا الرجل كان في المعتقل الجنائي (معتقل الأشقياء) في قنا، وفي الحقيقة أن هذا الرجل كان يبدو طيبًا سمحًا، ولا يكف عن القراءة في المصحف، ويعلل اعتقاله مع الإخوان هذه المرة، بأنه كان في شبابه يتردد على شعبة الإخوان في بلده ليسمع الدروس الدينية التي كانت تعجبه، وكان يضحك ويقول: «يومان في معتقل المجرمين بقنا، ويومان في معتقل الإخوان المسلمين في أبو زعبل.. حتى لكأن كتب علينا أن نقضي معظم أيامنا في المعتقلات».

وكان في المعتقل أيضًا رجل «حشاش» ضليع وهو الذي كان يجلس «مسطولًا» في إحدى المقاهي، وسمع في الإذاعة تسجيل حادث الاعتداء على الرئيس جمال عبد الناصر في المنشية، فعلق قائلًا وهو تحت تأثير المخدر: «ست رصاصات وما تجيش واحدة منهم في قلبه؟» وسمعه أحد المخبرين فقبض عليه، ثم قدم للمحاكمة بتهمة غريبة وهي «تمني اغتيال سيادة الرئيس» وحكم عليه من محكمة الشعب في قضايا 1954 بالسجن عشر سنوات مع إيقاف التنفيذ.. ويخرج.. وتمر الأيام ثم يعاد اعتقاله مع الإخوان، مع أنه لم يكن عضوًا بالجماعة في يوم من الأيام.

وقد يشتد العجب عندما نعلم أن الداخلية اعتقلت عددًا من «العمد» في قرى سوهاج، أغلبهم قد تخطى السبعين من عمره، وقصة هؤلاء العمد أنه بعد قيام الثورة بأيام، جاءهم مأمور المركز وجمعهم في صعيد واحد، وقال لهم: «إن الثورة التي قامت هي ثورة الإخوان المسلمين، وعلى كل عمدة فيكم أن ينشئ شعبة للإخوان في بلده، ويكون رئيسًا لها، وهذه هي أوامر الحكومة».

وتم للمأمور ما أراد، وتمر سنوات، ثم يأتي عام 1965 أي بعد الثورة بثلاثة عشر عامًا، ويصدر أمر باعتقال هؤلاء العمد المساكين، هذه وقد رأينا بعض كبار السن القادمين من أقصى الجنوب، والذين اعتقلوا لأول مرة في عام 1965، وكان أحدهم -وقد اقترب من الثمانين من عمره- يقول: «لماذا لا يتفاهم حسن البنا مع الحكومة حتى يفرجوا عنا؟» ولم يكن هذا الرجل يعلم أن حسن البنا مات منذ سنوات طويلة..

الواقع أن عملية الاعتقال التي اجتاحت مصر في تلك الأيام كانت عملية طائشة عشوائية على نطاق واسع، ولم يكن لها ما يبررها، ولقد كتب صلاح نصر مدير المخابرات في عهد عبد الناصر في مذاكراته أنه رفض أن يتولى قضية سيد قطب، معللًا ذلك بأنها ليست قضية، مما ضايق منه عبد الناصر وقال له: «إحنا كل ما نقول لك امسك حاجة تقول لأ.. خلاص شمس بدران هيمسك القضية» وقال صلاح نصر في مذكراته أيضًا أنه بعد صدور الحكم باعدام سيد قطب، طلب صلاح من الرئيس عدم التصديق على الحكم لأن إعدامه (ومجموعته) حرام.. فتبرم عبد الناصر من كلامه وقال له: كفاية.. مراتي بتقول حرام.. وأنت بتقول حرام.. خلاص.. أنا صدقت على الحكم، هذا بعض ما جاء في مذكرات مدير مخابرات

عبد الناصر، وقد حاولت أعبر عنه من الذاكرة، ومن يرد الرجوع إلى هذه المذكرات فإنه يسهل عليه ذلك، لأنها صدرت في كتاب، بالإضافة إلى أنها نشرت في مجلة أسبوعية كبيرة في مصر قبل ذلك، وهي حسبما اعتقد مجلة المصور، والواقع أن الاعتقالات شملت عددًا من الإخوان الذين استقالوا من الجماعة منذ سنوات، وبعضهم كان على خلاف شديد مع قيادتها، ولم تفرق الحكومة بين من بقوا في الجماعة ومن تركوها نهائيًا.

وخلال هذه الفترة اعتقلت الحكومة مجموعة من أعضاء حزب الوفد، كما اعتقل الصحفي الشهير مصطفى أمين وقدم للمحاكمة وحكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة، وكذلك حوكم حسين توفيق الذي اتهم في قضية مقتل «أمين عثمان باشا» وزير المالية في حكومة الوفد، وكانت الثورة قد أفرجت عنه بعد قيامها، وأسقطت بقية سنوات العقوبة عنه، وفي هذا الوقت أيضًا اعتقل أصدقاء السيد كمال الدين حسين عضو مجلس قيادة الثورة، بعد اختلافه في الرأى مع جمال عبد الناصر، الذي حدد إقامته في مكان معين، وعقب الرسالة التاريخية التي بعث بها كمال الدين حسين والتي يقول فيها لعبد الناصر: «اتق الله..».

ومن الطريف أنه كلما جاء معتقل جديد فكنا تقول إنه:

إخواني -أو وفدى- أو شيوعي-.. إلخ وإذا لم تكن تعرف هوية المعتقل فكنا نقول عنه: «فئات أخرى».

تمثلًا بما كان يطبق في قانون الانتخابات المصري الذي يقسم ممثلى الشعب إلى عمال وفلاحين ومثقفين وفئات أخرى.

إنني كثيرًا ما أتذكر كلمات الأخ المعتقل إبراهيم هلال عندما استبدت به الحيرة، وعجز عن تفسير ما يجري من أحداث فقال قولته المشهورة بلهجته الشعبية المحببة: «أصل الحكاية بَظْوتت...».

لقد اختلط الحابل بالنابل، وتلوثت قيم عظيمة كانت راسخة في كيان الأمة، وضاع الأمن والأمان وأصبحت مصر سجنًا كبيرًا. يعيش ساكنوها في خوف ورعب واضطراب، سواء من كانوا داخل الأسوار أو خارج الأسوار، وأصبحت أمنية الشرفاء في تلك الفترة أن يخرجوا من مصر، ويبحثوا لأنفسهم عن أرض آمنة، ينعمون فيها بالحب والسلام والحرية والكرامة..

كان أخونا «عويس عبد الوهاب» معتقلًا مميزًا في سلوكه وتصرفاته، كنت تنظر إلى وجهه فترى فيه وجه المصري المسلم الأصيل، وكانت كلماته تدل على إيمان ونبل وصدق، وباختصار فهو عمومًا الإنسان الذي تحب أن تجلس إليه، فتشعر بالارتياح والثقة والطمأنينة، ومع ذلك فلم أكن أعرف عن تاريخه شيئًا سوى أنه مدرس ابتدائي بمدرسة في قرية «الخيام» بالصعيد.. وذات مرة شاهدت الأخ الأستاذ حسن دوح يمشي أمام العنبر، وحسن -كما سبق وأشرت- زعيم الجامعة على أيامنا، ومجاهد كبير في حرب فلسطين، وحرب القنال قبل الثورة، وقدم حسن إلى باب عنبرنا وقال: «أين عويس عبد الوهاب».

وهبّ عويس واقفًا، وجرى عند الباب، ومد يديه من خلال القضبان واحتضن حسن دوح في شوق وحب. «أهلًا أخويا عويس».

- «أهلًا أخويا حسن».

وتساءلت بيني وبين نفسي ما الذي جمع بين عويس القادم من قرية الخيام، وحسن دوح الذي كان اسمه على كل لسان في المجتمعات السياسية والثقافية والإسلامية.. ألا يبدو الأمر غريبًا؟

وكنت معجبًا بحسن دوح وتاريخه وخطبه الملتهبة في المؤتمرات الجامعية الشهيرة، وكان الناس يرددون بعض مقاطع من خطبه، كما كانت الصحف تحتفي بأخباره وبياناته السياسية المؤثرة. وأدركت أنه لابد وأن يكون لعويس عبد الوهاب -هذا الرجل البسيط المتواضع- شأن أي شأن، وكان يصعب عليّ أن أجر عويس إلى الحديث عن نفسه، ولهذا قررت أن أبحث عن حقيقة عويس بين أهل محافظته وأصدقائه من خارج محافظته..

هذا الفلاح البسيط الذي يعمل بالتدريس كانت له قصة بطولة رائعة في حرب فلسطين، لم يكن يرهب الموت، فاستطاع أن يقوم بعمليات فدائية مذهلة، وكان آخرها معركة مصيرية خاضها هو وإخوانه. ولو لم تحسم نهاية المعركة لصالح الفدائيين لحدثت «فالوجة» أخرى، حوصر فيها جزء آخر من الجيش المصري، وقد استطاعت مجموعة عويس أن تدمر الموقع، وتضحي بعدد من الشهداء، ونال عويس مجموعة طلقات من مدفع رشاش في بطنه لكنها لم تخترق الجدار الخارجي للبطن، ولقد رأيت بطن عويس خلسة وهو يغير ملابسه، فوجدتها تشبه الغربال من أثر الإصابة، ومن الغريب أن هذه المجموعة من الفدائيين كانت موضوعة

في معسكر الاعتقال طبقًا لأوامر رئيس الحكومة آنذاك محمود فهمي النقراشي باشا، لكن قائد الجيش المصري في فلسطين اتفق معهم على أن يخرجوا من المعتقل بضمانه شخصيًا، ثم يؤدوا مهمتهم المقدسة، ويعودوا إلى المعتقل مرة أخرى، وهكذا بقي عويس جريحًا يعالج حتى شفي، وانضم إلى رهط المظلومين من المعتقلين، ولم يكن ذلك الاعتقال إلا تحسبًا لما قد يقدمون به من تهديد للحكم الملكي، وهو تهديد محتمل حسبما رأى المستشارون في السرايا وفي الوزارة.. وفي عام 1956 أيام العدوان الثلاثي قام عويس بواجبه، وأخذ يدرب الشباب على السلاح وحرب العصابات حتى يشتركوا مع رجال المقاومة لطرد القوات الغازية، من منطقة القنال..

وعلى مستوى القرية لعب عويس دورًا بارزًا بين العائلات التي يلتهم الثأر شبابها، وكاد يفقد حياته وهو يحاول إيقاف المعارك الضارية بينهم، كما كان سباقًا إلى بذل الجهود في مجال حل المشاكل الاجتماعية التي تعصف بقريته، بل والقرى المجاورة..

وذات مساء ونحن في ذلك العنبر بمعتقل أبو زعبل الجديد، قدم إلينا وافد جديد. «ما اسم الأخ؟».

- «زهير قداح من مدينة غزة.. أعمل هناك مدرس لغة إنجليزية.. وتخرجت من كلية الآداب جامعة القاهرة».

- «ولماذا اعتقلوك؟».

- «اعتقلوني أنا؟؟ كيف ذلك؟ لقد أخبروني بأني سأقضي الليلة هنا وسأرحل في الصباح».

- «إلى أين سترحل».

- «لا أدري».

- «وماذا قالوا لك عندما أحضروك من غزة؟».

- «قالوا إني مطلوب في الداخلية بالقاهرة لأمر بسيط ثم تعود لغزة.. إن هذا الاستدعاء كثيرًا ما يحدث».

واضح أن زهير قداح لا يعرف شيئًا صحيحًا عما يجري، ولابد أنه أتى فعلًا يؤاخذ عليه من الناحية السياسية، وكان علي أن أتحاور معه لعلي أستنبط الحقيقة، وعلى ضوء ذلك يمكن توجيه بعض الإرشادات والنصائح له حتى لا يخطئ في التحقيق الذي سيُجرى معه. قلت له: «هل لك صلة قديمة بالإخوان؟».

- «لا..».

- «هل تعرف سيد قطب أو أحدًا من تلامذته؟».

- «لا...».

- «هل تحدثت بسوء عن الرئيس أو الثورة؟».

- «لم يحدث شيء من ذلك قط..».

- «حسنًا.. هل تعرف أحدًا من جماعة التبليغ؟».

- «التبليغ؟ ما تلك الجماعة»؟.

- «هم فئة من الناس، يخرجون في سبيل الله، وينزلون في المساجد يتحدثون مع الناس عن عقيدة التوحيد وترسيخ الإيمان الصحيح في القلوب، ولا يتكلمون في السياسة أو الحكومة».

صمت زهير برهة ثم قال: «أذكر أن عددًا من الرجال الطيبين الأنقياء قدموا إلينا في غزة، وكانوا يتحدثون عن الدعوة إلى الله والإيمان به في رقة ووداعة، وليس لهم أدنى اتصال بالسياسة، ولقد دعوتهم لشرب الشاي في بيتي..».

قلت باهتمام: «هل شربوا الشاي عندك؟».

- «نعم..».

قلت بثقة: «تلك هي قضيتك».

لم يكن زهير مقتنعًا بما أقول، وكان يصر على أنه ليس معتقلًا، وأنهم سيأخذونه في الصباح إلى وزارة الداخلية، ثم يعود على الفور إلى غزة ليواصل عمله في التدريس هناك، لأنه هو الذي سافر من غزة إلى القاهرة بتذكرة في القطار اشتراها من ماله، ذهابًا وإيابًا، وأخذ يذكر لي أنه يلبس بدلته كاملة تحت تلك الملابس المؤقتة التي سلمها له العسكري عند مجيئه إلى هذا

المكان، قلت له: «إن هذه الأعداد الكبيرة في هذا المبنى هم معتقلون من الإخوان، وأنت واحد منهم، ويجب أن تتأكد من ذلك، ولا تصدم عندما يفوتك قطار غزة غدًا، لأنك بالتأكيد ستقضي معنا هنا فترة من الزمن، قد تطول أسابيع أو شهورًا..».

وبدا لي أنه غير مصدق لما أقول، ونام زهير معنا في العنبر، وعند الفجر جاءوا وأخذوه، وأخذنا ننتظر عودته طول النهار، لكنه لم يأتِ إلا وقت العشاء، ودخل العنبر مهرولًا يجمع حاجاته في سرعة وارتباك، كي ينتقل إلى عنبر آخر، وانتهزت الفرصة واقتربت منه، ثم قلت: «ماذا فعلوا بك؟».

- «ضربوني علقة ساخنة».

- «لماذا؟».

- «جماعة التبليغ كما قلت لي، وقد أكدت لهم أنه لا صلة لي بهذا الجماعة، وإني عزمتهم على شرب الشاي في بيتي من باب إكرام الضيف.. ولا شيء غير ذلك، لقد التزمت في الإجابة على أسئلتهم بما نصحتني به..».

- «هل تؤمن الآن بأنك معتقل؟».

وخرج زهير قداح إلى عنبر قريب منا في نفس الدور (الدور الرابع)، وكنت أراه يرتدي معطفًا سميكًا عندما يخرج من العنبر وعلى وجهه ابتسامة استسلام ورضا بقضاء الله وقدره، وهو يحمد الله لأنه لم يحبس على ذمة قضية من القضايا المعروضة على الساحة، وإنما أصبح مجرد معتقل تحت التحفظ.

ومن بين المعتقلين الصعايدة فلاح طيب يهوي الميكانيكا، وفكر ذات مرة في أن يصنع بيديه بندقية (غدارة) وهي عبارة عن قطعة سلاح مبسطة، وبدأ مشروعه بحماسة، وما إن انتهى من صنعها حتى فكر في تجربتها، فوضع فيها بعض الطلقات، لكن التجربة فشلت فشلًا ذريعًا، فأمسكوا بها وبه، وقادوه إلى المحاكمة. وعندما حاول أن يدافع عن نفسه قال لهم بثقة: «هذه ليست بندقية..».

- «بل هي بندقية».

- «إذا كان الأمر كذلك، فضعوا فيها رصاصة، ثم أطلقوها عليّ، فإذا أصابتني في مقتل، فسيكون ذلك جزائي، وأموت وانتهى الأمر، وإذا لم تخرج منها الطلقة فأنا برئ».

وأجريت التجربة، ونجا أخونا من الاتهام، لكنهم أحالوه إلى المعتقل.. أيضًا تحت التحفظ..

وفي المعتقل التقيت بعدد من الشخصيات منهم العلامة الكبير الأستاذ محمود شاكر الحاصل على جائزة الملك فيصل العالمية، ومحقق كتاب تفسير الطبري، كما التقيت بالأستاذ الناشر إسماعيل عبيد صاحب «دار التراث» وقد نشر لي قبل ذلك بعض الكتب، والأستاذ الناشر وهبة حسن وهبة، صاحب مكتبة «وهبة»، وقد نشر عددًا كبيرًا من الكتب للأستاذ سيد قطب ومن أشهرها كتاب «معالم في الطريق» الذي أثار ضجة كبرى، كما نشر للاستاذ محمد قطب وخالد محمد خالد وفتحي عثمان، ولي أيضًا، وكان قد سبق سجن الحاج وهبة في عام 1955 بسجن بني سويف لمدة خمس سنوات. والتقيت بالأستاذ عطية الشيخ رئيس المكتب الإداري للإخوان بمدينة طنطا وكان يعاني مرض الكبد والبول السكري، وقد تقدمت به السن، رحمه الله، وهو الذي أخبرني عن موت الأخ العزيز الصديق محمود أحمد صقر من قرية «منية البندرة» من جراء التعذيب في شهر أغسطس عام 1965، وكان الشهيد شقيق صديقي الأستاذ لطفي صقر، ورأيت في المعتقل الشيخ كشك صاحب الخطب المؤثرة والدروس الدينية التي طار ذكرها بعد ذلك في كل مكان، وسجلت على أشرطة، وكانت تسوق في أنحاء العالم العربي والإسلامي، وخاصة في عهد الرئيس السادات وما بعده.

وجاء شهر رمضان المبارك وأنا في معتقل «أبو زعبل الجديد» وفي أثناء هذا الشهر الفضيل توقفت التحقيقات والتعذيب مؤقتًا، وبدأت الإدارة تمدنا بطعام أجود نوعًا ما، كما قدمت لنا كمية من الخضراوات كالفجل والجرجير، ومن الفواكه كالبرتقال واليوسفي، وعندما رأينا الفواكه لأول مرة بعد شهور من الحرمان كنا نأكلها بقشرها حتى نستفيد أقصى استفادة من الفيتامينات التي بها، ومن بين الإكراميات أيضًا في هذا الشهر أن سمحت الإدارة لأحد المعتقلين أن يرتل كل ليلة ربعًا من القرآن الكريم بصوت جميلٍ مؤثر، بدون مكبر صوت، وكنا نستمع إليه في سعادة، وفي إحدى الليالي، بينما كان المقرئ يقرأ، ونحن نستمع في خشوع، صاح أحد الضباط قائلًا: «كفى يا أستاذ.. اختم القراءة.. صدق الله العظيم».

كان التصرف مفاجئًا ويثير التساؤل، لكن حيرتنا لم تطل، فقد تناهي إلى سمعنا أصوات استغاثة وضرب مبرح استمر لما يقرب من نصف ساعة، ترى ماذا جرى، ثم ساد الصمت والهدوء مرة أخرى وصاح الضابط نفسه قائلًا: «اقرأ يا حاج.. استأنف.. الله يفتح عليك».

وهكذا بدأنا نستمع من جديد إلى الترتيل.

وفي صبيحة اليوم التالي علمنا أن هناك «إيرادًا جديدًا» والإيراد بمصطلح السجون يعني دفعة جديدة من المعتقلين أو المسجونين، ولما استفسرنا عن هويتهم علمنا -كما سبق وأشرت- أنهم أصدقاء عضو الثورة البارز الأستاذ كمال الدين حسين، وكانوا يسهرون معه ويزورونه كأصدقاء بعد أن حدد جمال عبد الناصر إقامته، ورأت الحكومة أن تعرف أفكاره الحالية، وآراءه حول الحكومة وزعيمها، وكان من المعتاد أن يُقام لمثل هؤلاء المعتقلين حفل استقبال يليق بمقامهم، وهذا الحفل ليس فيه طقوس سوى الضرب والإهانة وألفاظ السباب البذيئة..

وكانت صلاة التراويح تقام في كل العنابر، ويسمح فيها للإمام برفع صوته، بعض المجموعات كانت تصلي بجزء كامل من القرآن (ثمانية أرباع) في كل ركعة ربع، والبعض الآخر وخاصة المرضى والعجزة وكبار السن يصلون في وقت أقصر، وبعدد من الآيات القرآنية أقل، وهناك من كانوا يصلون التراويح عشرين ركعة، وهناك من يصليها أقل من ذلك، فلم يكن الإخوان ينضوون تحت لواء مذهب فقهي معين، وإنما فيهم الشافعي، والحنبلي، والحنفي، والمالكي، ولم يحدث أي خلاف قط أثناء تأدية الشعائر، فالجميع يصلون معًا على أي مذهب..

وفي هذه الفترة سُمح لنا بالخروج والجلوس ساعة في شمس الشتاء الجميلة في الممشى الممتد أمام العنبر، وكان هذا التصرف من قيادة المعتقل يستحق التقدير والشكر، وأثناء جلوسنا في الشمس ذات يوم رأيت مجموعة من المعتقلين يخلعون ملابس السجن، ويرتدون زيهم الخاص الذي جاءوا به من بيوتهم، بعضهم يلبس العمامة أو الطاقية أو القبعة، والبعض الآخر عاري الرأس سألت: «من هؤلاء؟ وإلى أين هم ذاهبون؟».

أجابني أحد المارة: «هؤلاء دفعة إفراج» وشعرنا بالفرح، كان من بينهم صديقي القديم العالم الأزهري الشيخ «محمد العوضي سلام» وهو من قرية «كفر حسين» القريبة من قريتنا

«شرشابة»، وقيل أيضًا أن معظم هذه المجموعة المفرج عنها ينتمون إلى بلدة «سنفا» التي عثر فيها على قنبلة أحضرها أحد المجندين إلى القرية، وكانت هذه القنبلة سببًا في القبض على خلق كثير من أهل القرية، ولم يثبت في التحقيق الذي أجري أن هذه القنبلة كانت ستستخدم ضد الحكومة أو أحد أفرادها.

عندما رأيت الرجال يجرون في الممشي المواجه لنا في الناحية الأخرى في زيهم المدني قلت من باب المرح: «إذا وصلتم سالمين.. فسلموا لنا على الحبايبب».

ورأيت رجلًا من أهل القليوبية كان يجلس إلى جواري يشهق باكيًا، تأثرًا بما قلته عن «الحبايب». وجاءني الصديق القديم الشيخ محمد العوضي سلام وقال: «إنني متألم لأنني أخرج بدونك.. لكن لكل إنسان حظ مقسوم.. وستخرج بعدنا قريبًا، فاعتصم بالصبر وسوف أذهب إن شاء الله للوالد والوالدة والزوجة والأولاد كي أطمئنهم عليك.. ألا تريد شيئًا؟» عانقته.. ترقرقت الدموع في عيني.. لم أستطع أن أنطق بكلمة.. طافت برأسي الذكريات القديمة، والشيخ محمد هذا يعتلي المنبر، ويخطب في الناس، ويشعل الحماس في قلوبهم، ونحن معه ووراءه نهتف «الله أكبر والله الحمد.. الله غايتنا.. والرسول زعيمنا.. والقرآن دستورنا.. والموت في سبيل الله أسمى أمانينا» يا لها من أيام ويا لها من ذكريات.. ماتت كالحلم الجميل، ولم تخلف وراءها غير الأسى والدموع..

وقبيل يوم العيد انتقلت إلى عنبر آخر في الجهة المقابلة (الطابق الرابع)، وكنت سعيدًا بذلك، إذ التقيت فيه برجل أحبه وأجله، ذلكم هو الضابط الشجاع فؤاد جاسر رفيق عبد الناصر وأعضاء مجلس الثورة وأحد الضباط الأحرار الشجعان.. كان رجلًا لا يفرط في كرامته، وقد خرج من السجن عام 1958 قرب نهايته، لكنهم عادوا واعتقلوه هذه المرة أيضًا، مع أنهم لم يعتقلوا بقية زملائه من الضباط الذين كانوا معه في الاعتقال الأول.

وكان لفؤاد ابنان في الكليات العسكرية أحدهما في الكلية الحربية، والآخر في كلية الشرطة، وكان يتوجس خيفة من أن رجال وزارة الداخلية قد يطردونهما من الكليات العسكرية بسبب اعتقال أبيهما كما حدث للكثيرين.

وفي يوم العيد جاءه عسكري على قدر كبير من الوفاء له، فقد كان ذلك العسكري مجندًا في منطقة الضبعة، وكان فؤاد جاسر ضابطًا هناك قبل الثورة، ويعامل ذلك المجند برقته

المعهودة وبالاحترام الكامل لإنسانيته، واقترب فؤاد من باب العنبر، فصافحه العسكري وقبل رأسه، في غيبة قيادة المعتقل، وأخبره أنه ذهب إلى بيته، وأن ولديه لم يُفصلا من الكليات العسكرية، وأن أهله جميعًا على ما يرام، ثم أهدى ذلك العسكري لفؤاد «علبة سجائر» وهي هدية ثمينة بكل المقاييس، لكن فؤاد لم يكن يدخن، ولهذا تبرع بها لعدد من المدخنين المحرومين في هذا اليوم العظيم يوم عيد الفطر المبارك..

وجلس فؤاد بيننا يشرق وجهه بالفرحة الكبرى.. سألت الأخ الأستاذ فؤاد جاسر: «ماذا فعلت بعد أن خرجت من السجن عام 1958؛ أي بعد أن قضيت فيه أربع سنوات أغلبها كان في سجن الواحات الخارجة؟».

قال بابتسامته الحلوة الطاهرة: «اشتغلت مقاول مبان، لم يكن يكفيني معاشي كبكباشى».

- «لكن زملاءك من الضباط المسجونين الذين أفرج عنهم، عينوا في مجالس إدارات بعض شركات القطاع العام برواتب كبيرة».

- «لم ألق من الرئيس القبول والرضى، ولهذا تجاهلوني، لقد عانيت كثيرًا من أجل الحصول على لقمة العيش الشريفة، لكني كنت سعيدًا.. ومع ذلك، والحق يقال فقد حدث تطور مفاجئ...».

وأخذ فؤاد يشرح قصة جديدة جرت أحداثها بينه وبين بعض رفاقه القدامى في تنظيم الضباط الأحرار، فقد أتى إليه عدد منهم وأخبروه أن صلاح سالم (عضو مجلس قيادة الثورة) مريض ويسأل عنه بإلحاح، واقترحوا أن يقوم فؤاد بزيارته، لكن فؤاد اعتذر بحجة أن هذه الزيارة قد تُؤول تأويلًا لا يريحه، فقط يظن ظان أنه بهذه الزيارة يريد أن يتقرب منهم لكسب يتمناه، أو فائدة يجنيها، وأنه في قرارة نفسه يدعو لصلاح سالم بالشفاء، رغم أن فؤاد لم ينسَ أن صلاح سالم هو الذي وشى بهم لدى جمال عبد الناصر، وأخبره أن فؤاد جاسر وحسين حمودة وغيرهم من ضباط الإخوان لا يزالون مصرين على تمسكهم بعقيدتهم الإخوانية، مما دفع جمال إلى التخلص منهم، وطردهم من الجيش، وتقديمهم للمحاكمة وإصدار أحكام بالسجن ضدهم أمام الدائرة العسكرية لمحكمة الشعب، رغم علم جمال بأنهم أبلوا بلاءً حسنًا في إنجاح الثورة، وقد حاول الوسطاء إقناع فؤاد بأن صلاح سالم آسف عن كل ما جرى، وأنه يعتذر عنه بشدة، ويريد أن يكفر عن ذلك الفعل في حق الأصدقاء، وفي إحدى

الليالي جاء الوسطاء من أصدقاء الطرفين (وهؤلاء الوسطاء من الضباط الأحرار السابقين) وأوهموا فؤاد بأنهم ذاهبون لزيارة أحد الأصدقاء في مكان ما، وذهب معهم فؤاد، وما إن وصلوا إلى المكان المنشود، ودخلوا فيه حتى وجد فؤاد جاسر نفسه وجهًا لوجه مع رفيق الأمس صلاح سالم، فارتج عليه ولم يدر ماذا يفعل، وتصافح الصديقان وتعانقا، ودعا فؤاد لصلاح بالشفاء، وكانت الدموع تترقرق في عيني صلاح: «أهكذا يا فؤاد لا تأتي لزيارتي إلا بحيلة؟».

- «أنت تعرف ظروفي، والله يعلم كم أدعو لك».

وبعد فترة قال صلاح: «ماذا تفعل الآن..».

- «ابتسم فؤاد وقال: «مقاول».

- «مقاول؟ وهل هذا يوفر لك الدخل الكافي؟».

عاد فؤاد للابتسام وقال باقتضاب: «الحمد لله».

وتبادل الجلوس شتى ألوان الأحاديث، وفجأة قام صلاح من مكانه، ثم غادر الغرفة، وعاد بعد قليل ليقول: «مبروك يا فؤاد، لقد وافق جمال عبد الناصر على أن يرفع معاشك الشهري من بكباشي إلى لواء، لقد حادثته في التليفون الآن».

طأطأ فؤاد رأسه في خجل وقال: «متشكر جدًّا».

وعمت الفرحة الحضور، وأخذوا يهنئون فؤاد على ذلك، وبعد فترة تبلغ حوالي النصف ساعة قال صلاح سالم: «هل تقبل العمل معي في مؤسسة التحرير للطباعة والنشر؟».

وكانت دار التحرير تصدر صحيفة الجمهورية، وصحيفة المساء، وعددًا من الصحف باللغات الأجنبية مثل البورصة والبرجوريه والإجبشيان جازيت.

قال فؤاد: «أنا لا خبرة لي بالصحافة».

وغادر صلاح الغرفة مرة أخرى، وبعد دقائق عاد ليقول: «لقد وافق جمال عبد الناصر على أن تكون مديرًا لمكتبنا بالإسكندرية، وهذا المكتب مختص بالصحف التي تصدر باللغات الأجنبية فقط، وسيكون معك نخبة من المعاونين الفنيين الأكفاء، إذا أنت وافقت فاعتبر نفسك قد تسلمت العمل منذ الآن..».

وهكذا شاء الله أن تستقر أوضاع فؤاد، وأن يعيش في الإسكندرية مع أسرته يمارس عمله الجديد بقدر كبير من الرضى، وقضى سنوات في الثغر يذهب إلى مكتبه صباحًا ومساءً، منهمكًا في عمله، وقد استطاع أن يكتسب ثقة الجميع، ويطور الأداء، ويحقق النجاح الذي تمناه، وظل الأمر على هذا النحو حتى فوجئ فؤاد جاسر -دون غيره من الضباط- بالاعتقال مرة أخرى في أوائل سبتمبر عام 1965، أي بعد خروجه من السجن الأول بحوالي سبع سنوات، وهو شيء لم يكن يخطر له على بال، بعد أن كان قد ترك السياسة وودع الجيش إلى غير رجعة.

لم يكن فؤاد جاسر متبرمًا بهذا الاعتقال، فقد كان رجل حرب ونزال وصبر، يعرف كيف يصمد في الملمات ولا يضعف أو يتهاوى أمام النكبات، كل الذي يقلقه هو مصير ولديه في الكلية الحربية وكلية الشرطة، وشاء الله أن يفلت الولدان من عسف السلطة، وكان هذا مصدر سعادة كبرى لفؤاد جاسر في المعتقل، وفي يوم عيد الفطر، ولهذا خلع فؤاد ملابس السجن، وارتدى بدلة كاملة ورباط عنق أنيق وجلس بيننا وسط العنبر كالعمدة يبادلنا الأحاديث الأخوية المرحة، والفكاهات الطريفة، ويذكر بعض ذكرياته عن تنظيمات الثورة في الجيش، وعن قيامها والوقائع التي جرت فيها، ولم يخرج فؤاد من المعتقل هذه المرة إلا بعد أن قضى فيه ما يقرب من خمسة عشر شهرًا، وعاد بعدها إلى عمله في الإسكندرية، وبعد ذلك بفترة طويلة عدت في إجازة صيفية من مدينة دبي بالإمارات العربية المتحدة، وحينما كنت أقضي بضعة أسابيع في الإسكندرية التقيت في بيت خالي الأستاذ عبد الرافع الشافعي بمحرر في جريدة الإجبشيان جازيت وسألته عن فؤاد جاسر، فقال إنه رئيسهم، وأستطيع أن أقابله في الصباح إذا شئت، وفي اليوم التالي ذهبت إلى فؤاد جاسر، وكان لقاءً عامرًا بالمحبة والوفاء، الابتسامة النقية تضيء وجهه الأسمر، والكلمات الحلوة تنساب من بين شفتيه، كل شيء فيه يوحي بالثقة والأمل والإيمان، سألته عن ولديه فقال: «الأول ضابط بالجيش الآن، والثاني ضابط شرطة، وهما يسيران -بحمد الله- على النهج القويم...».

قلت: «كنت قلقًا على ولدك الضابط في الجيش أيام حرب 67».

ضحك في سعادة وقال: «بعد الهزيمة فوجئت به قادمًا متورم القدمين منهكًا..».

- «لاشك أنك تألمت من أجله».

قال في غضب واستنكار: «كيف هذا؟ لقد أوقفته على الباب، ولم أسمح له بالدخول، وصرخت فيه أن يعود إلى وحدته العسكرية على الفور ليلتحق بها، ويواصل عمله المقدس في حرب الأعداء.. كانت أمه تبكي، وإخوته يستعطفونني، لكنني لم أقبل شفاعة في هذا الأمر.. وضعت في يده مبلغًا من المال وأمرته أن يعود لوحدته.. قال لي دعني أسترح قليلًا فأنا لم أنم، وأريد أن آكل لقمة وأشرب ماءً.. قلت له معك النقود اشتر ما شئت.. هيا.. وأغلقت الباب في وجهه..».

بعد مرور العيد بدأت التحقيقات من جديد، وبدأ التعذيب والصراخ والأرق، لكن بدرجة أقل من السابق.

وفي إحدى الليالي سمعت صوتًا يستغيث من العذاب: «والله ما بَعْرف.. والله ما بعرف..».

خيل إليّ أنني أعرف صاحب هذا الصوت، كما تأكد لي أنه ليس مصريًّا، وساورتني الشكوك، ترى من يكون؟ خيل إلى أنه ربما يكون هو الأخ الليبي «محمد نشنوش» الذي نشر لي عددًا من الكتب، حيث كان يملك مكتبة «النور» بمدينة طرابلس بليبيا، ومن كتبي التي نشرها:

1- الطريق إلى اتحاد إسلامي.

2- الإسلامية والمذاهب الأدبية.

3- العالم الضيق وقصص أخرى.

وتوجست خيفة، ذلك لأن الكتاب الأول (الطريق إلى اتحاد إسلامي) كان قد صودر في القاهرة، وجمعت نسخه من المكتبات التي أخذت منه، والكتاب فيه استشهادات من بعض كتب المودودي، وكنت قد ألفته في عام 1959-1960. في الوقت الذي كان الحديث فيه عن القومية العربية والوحدة العربية يحجب كل ما عداها، وهناك أمر آخر أشد خطورة أقلقني جدًّا، وهو أن محمد نشنوش كان قد طلب مني أن آخذه إلى الأستاذ سيد قطب للتعرف عليه، وحققت له ما أراد على مضض، فلو أن محمد نشنوش ذكر هذه الواقعة [1]

(1) تحدثت عن تفاصيل هذه الواقعة في الجزء الرابع من هذا الكتاب.

فسوف يأخذونني حتمًا إلى السجن الحربي حيث يوجد الأستاذ سيد قطب، وسوف يحققون معي بالتأكيد عن مدى علاقتي به، ومعنى ذلك أن أتعرض لأهوال لا يعلم إلا الله مداها. وبقيت -كما يقولون- جالسًا على نار، حتى مر علينا الأخ م. عمارة، وسألته عن ذلك الرجل الذي يعذب في الدور الأرضي فقال: «يبدو أنه من طرابلس».

- «طرابلس الشام أم طرابلس ليبيا؟».

- «لا أدري..».

- «إن كان من ليبيا فستكون كارثة».

وأدرك عمارة قلقي فأراد أن يطمئنني فقال: «بل من طرابلس الشام».

- «هل تعرف اسمه؟».

- «لا أعرف..».

- «ربما يكون اسمه محمد نشنوش».

قال كأنه يتدبر ما يقول: «بالضبط.. اسمه نشنوش».

- «إذن هو من طرابلس ليبيا..».

وأصابني هم ثقيل.

وقلت: «يا عمارة.. بالله عليك.. اذهب إليه وقل له لا يذكر اسمي على الإطلاق، ولا يخبر بشيء عن زيارتنا للأستاذ سيد قطب..».

- «سأحاول إن شاء الله».

ومرت ثلاثة أيام لا يعلم إلا الله كيف قضيتها، وفجأة وجدت محمد نشنوش أمامي خلف الباب من الخارج، وأخذ يصافحني ويعانقني. ووجدتني أقول له: «احذر أن تذكر اسمي في أي تحقيق يا محمد..».

قال بلهجته الليبية: «اتهنّا..».

ومعناها «كن مطمئنًا»، واستراح بالي بعد أن سألته عن التحقيق الذي أجري معه، والحقيقة أن نشنوش لم يخبرني بكل شيء، فقد ذكر أثناء التحقيق أنه يتعامل مع بعض الناشرين في القاهرة وخص اثنين بالذكر هما.

1- إسماعيل عبيد.

2- الحاج وهبة حسن وهبة.

وتذكرت أنني سمعت اسميهما في مكبر الصوت أثناء التحقيق مع نشنوش، ولم أكن أعلم أن لهما علاقة به، إلى أن رأيت إسماعيل عبيد في الطابور، وحدثني عن نشنوش، وأخبرني إسماعيل أنه سئل عن تعاملاته في الكتب مع نشنوش، ولما سألت إسماعيل: هل ذكر نشنوش اسمي في التحقيق قال: «نعم.. لقد ذكر أنه طبع بعض مؤلفاتك، لكن الضابط قال له: تقصد الدكتور نجيب الكيلاني الذي يعمل طبيبًا بمستشفى السكة الحديد؟ فأجابه بالإيجاب.. ثم استطرد قائلًا لعلها بعض القصص فقال نشنوش نعم، ولم يشر إلى كتاب «الطريق إلى اتحاد إسلامي» أو «الإسلامية والمذاهب الأدبية».

وهكذا مرت الأزمة بسلام ، ولم تخف حدة قلقي إلى بعد أن أخذوا محمد نشنوش بعد عشرة أيام إلى المطار مباشرة كي يسافر إلى بلده ليبيا.. والحمد لله.

كانت مشكلة تفشي «القمل» بيننا تؤرقنا بشدة، ذلك لأننا كنا نلبس ملابس المسجونين العاديين، وانتشار القمل يعتبر مرضًا معديًا يسمونه باللاتينية «بدكيولوزس» وأذكر أن أحد المعتقلين من بورسعيد استطاع أن يجمع خمسين قملة من ملابسه (وهو رقم قياسي) ووضعها في قنينة صغيرة، ثم قدمناها إلى أحد الضباط حتى يخبر قائد المعتقل لعله يبحث لنا عن حل لهذه المأساة الصحية، وفي أحد الأيام أحضروا لنا فريقًا صحيًا للرش بالمبيدات الحشرية من الخانكة، وأمروهم بأن يؤدوا عملهم دون أن يكلموا أحدًا منا على الإطلاق، وفي عنبرنا كان عامل الصحة يستخدم الرشاشات المعبأة بمادة د.د.ت، فيرش البطاطين والملابس والفراش ودورات المياه، كان العامل يطلق دفعات المسحوق من الرشاشة ثم يتوقف لحظة وينظر إلى ساحة الدور الأرضي ليرى المتهمين النائمين على البلاط تغطيهم البطاطين من قمة الرأس إلى أخمص القدم، ودهش عامل الصحة وقال: «ما هذا؟ يا ستار يارب».

ويرش، ثم يعود ليطل من الدور الرابع ليرى البؤساء الراقدين، ويستبشع المنظر.

قلنا له: «إنهم أحياء».

- «لكنهم لا يتحركون».

- «لأنهم نائمون».

- «ولماذا لا ينامون في الغرف؟».

- «لأنهم تحت التحقيق..».

- «لا أفهم..».

ويعود للرش، ويقول: «ربنا ينجيكم من شرهم».

وكان بين المعتقلين رجل من السويس يتطوع دائمًا بخدمات المحتاجين من الضعفاء والمرضى في العنبر، فكان محل ثناء وشكر وتقدير من الجميع.. ولهذا الرجل خمسة من الأطفال وعندما اعتقلوه سقطت امرأته مغشيًا عليها، لكنهم ساقوه إلى المعتقل وأوصوا بنقلها إلى المستشفى لإسعافها، ولم يدر هذا المعتقل المسكين أن زوجته قد فاضت روحها. ولم يستطع المعتقلون من السويس الذين اعتقلوا بعده أن يخبروه بالحقيقة حتى لا يزيدوه همًّا على همه، ثم ماذا سيفعل لها ولأولادها إذا علم، لقد ماتت وانتهى الأمر.

في المعتقل رجال ينهشهم الألم، ويستبد بهم الندم حتى يخرجهم عن التفكير السليم، والتصرف العاقل، وكثيرًا ما يكون لهم العذر فيما يأتون من أعمال لا تليق بهم كحملة لرسالة عظمى، لكنهم بشر، يتناوبهم الضعف والخوف، ولم يكن الناس في أي يوم من الأيام متساوين في طاقة الصبر والتحمل، من هؤلاء معتقل كان يعمل ميكانيكيًا في الكويت لحسابه الخاص، وقد قضى هناك ما يقرب من أربعة أعوام، وذات ليلة قال لزوجته: «أريد أن أسافر لأرى أمي واطمئن عليها..».

قالت له: «أمك بخير، ويكفي أنك ترسل إليها الراتب الشهري والهدايا والملابس وكل ما تطلبه نوفره لها».

- «لكنها أمي، والمال ليس كل شيء، وأريد أن أزورها».

- «وتتركني وتترك أولادك الأربعة؟».

- «لن أبقى في مصر أكثر من أسبوع».

وأعد حقائبه، واتجه بها إلى المطار، عندما نزل بمطار القاهرة الدولي، وجد رجال المباحث يأتون إليه ويعتقلونه، ثم يسوقونه إلى معتقل أبو زعبل الجديد، لقد اعتقلوه في عام 1954 وأفرجوا عنه بعد أكثر من عام، ثم نسي الأمر تمامًا وسافر بعد فترة إلى الكويت، وعاش فيها

هادئًا هانئًا مطمئنًا، يأتيه رزقه رغدًا.. لم يكن يتوقع على الإطلاق أن يعتقل مرة أخرى، إذ لم يجد أي مبرر لذلك.. عندئذ تذكر نصيحة زوجته التي تنتظره في الكويت، وتذكر أولاده الأربعة، من سيرعاهم وينفق عليهم هناك، وإذا عادوا إلى مصر فمن أين يجدون الرزق الحلال، كان الندم يعضه بأنيابه الحادة التي لا ترحم، وهكذا اعتزل الجميع في ركن من أركان العنبر لا يكلم أحدًا ولا يرد على أحد، وخاصة بعد أن أدرك أن فترة الاعتقال لا يعرف أحد نهايتها، عندئذ تناول حذاءه! نعم حذاءه! وأخذ يضرب نفسه به في شبه جنون

- «ماذا تفعل يا رجل؟».
- «لا شأن لأحد بي».
- «ثق بالله يا رجل واصبر واحتسب».
- «كنت أعلم أن هذا البلد لم يعد وطنًا لي، فلما عدت إليه بمحض إرادتي؟!».
- «إنها مشيئة الله، وهو سبحانه لن ينسى عبيده».
- «دعوني أؤدب نفسي».
- «وماذا يفيدك ذلك؟».
- «لابد أن أتعظ وأتعلم».

وبقي على هذا الوضع أيامًا حتى هدأت أعصابه، وسكنت نفسه، ثم انخرط مع الجموع يصلي، ويقرأ القرآن، ويذكر الله ويستغفره، وقال: «إن خالقهم هو المسئول عنهم، وهو الذي سيرعاهم..

ماذا كانوا سيفعلون لو أنا مت هناك في الكويت.. لله الأمر من قبل ومن بعد.. استغفر الله.. سامحني يا رب».

ومن بين الذين اعتقلوا معنا الأخ «صلاح الأنور» وهو ممن حكم عليهم بالسجن عشر سنوات أشغال شاقة في عام 1955، ثم أفرج عنه في أوائل الستينيات، من القرن العشرين، قبل أن يكمل المدة لحسن السير والسلوك، وبعد أن خرج استأنف حياته الجديدة، وأكمل دراسته، والتحق بعمل مناسب، وحاول أن ينسى أيام السجن البغيضة والعمل الشاق في قطع الصخور، وكان كما أعتقد يعيش في حي مصر القديمة (أو العتيقة)، وفوجئ ذات يوم

من شهر سبتمبر برجال الأمن يأتون لاعتقاله مرة أخرى، فتذكر أيام التحقيق السوداء في السجن الحربي منذ عشر سنوات، وتذكر القسوة البالغة التي لم تكن تفرق بين مدان وبريء، فلم يستطع أن يتصور العودة مرة أخرى إلى ذلك الجحيم، ولذلك قفز من النافذة الخلفية، وهرب.. فماذا يفعل رجال الأمن؟

لقد اعتقلوا أمه وأخواته البنات، وهددوا بالفتك بهن إذا لم يأت صلاح الأنوار ويسلم نفسه..

واعتقد رجال الأمن أن صلاح ربما يكون سبب هروبه هو ضلوعه في المؤامرة الكبرى التي تريد -كما يظنون- الإطاحة بجمال عبد الناصر ونظامه..

وبقي صلاح هاربًا لأكثر من أسبوع، لكنه خاف أن ينفذوا وعيدهم بالاعتداء على أخواته البنات، فكان أن عزم على تسليم نفسه للسلطات حتى يفرجوا عن الرهائن من النساء..

وسلم صلاح نفسه.

ثم أخذوه إلى معتقل أبو زعبل الجديد، وبدأ معه التحقيق الرهيب الذي لم ير له مثيلًا من قبل، سألوه عن المؤامرة التي اشترك فيها عشرات المرات، فنفى علمه بشيء من ذلك، ظلوا يضربونه حتى تهاوى وكاد يلفظ أنفاسه، قال لهم: «أريد أن أنام».

- «لن نسمح لك قبل أن تعترف».

وفكر صلاح، وأخذ ينسج من خياله مؤامرة وهمية لا أساس لها، استلهمها مما كان يقرؤه في الصحف أثناء هربه، وزعم أنه اتفق مع سيد قطب على اغتيال الرئيس وهو في موكبه إلى مقر الرئاسة.. وأنه... وأنه.. وأنه.. قال كلامًا كثيرًا.. وبعد استكمال التحقيق حول المؤامرة، بعثوا بالاعترافات المهمة إلى «المخابرات» ونام صلاح بعدها نومًا عميقًا.. وأكل وشرب.. بل إنهم قدموا له كوبًا من الشاي المضبوط... وحينما أفاق صلاح وجد أن ما قاله (وهو كذب في كذب) قد يوصله إلى حبل المشنقة، فضلًا عن أنه سوف يورط آخرين ممن ذكر أسماءهم ادعاء وظلمًا، ولهذا قرر صلاح التخلص من حياته، فقد كان في حالة نفسية سيئة جدًا، وقفز إلى أعلى، وكسر زجاج النافذة الصغيرة، وأمسك بالزجاج المكسور ليقطع شريان

يده، لكن العسكر في الخارج سمعوا الضجة فهرولوا إليه وأمسكوا به دون أن يلحق بنفسه أذى. سألوه: «لماذا تحاول الانتحار؟».

- «لأتخلص من حياتي».
- «والسبب؟».
- «المؤامرة».
- «ماذا فيها؟».
- «لا أساس لها من الصحة..».
- «لقد اعترفت ووقعت..».
- «كنت أريد أن أنام..».

وتم ترحيل صلاح الأنوار إلى السجن الحربي متهمًا بالاشتراك في المؤامرة الكبرى، وهنا أنكر الجميع صلتهم به، وأنكروا كل ما جاء في اعترافاته، وشرح صلاح للمخابرات كيف أنه ألف تلك المؤامرة حتى ينجو من التعذيب البشع الذي ظل يعاني منه طوال ثلاثة أيام حتى كاد يموت..

وضحك رجل المخابرات، وأمر ببطلان اعترافاته، وإعادته إلى معتقل أبو زعبل الجديد، ليعيش مع المعتقلين المحجوزين تحت التحفظ..

****

[5] السجون السبعة ونهاية المطاف

عندما أعود إلى الماضي خاصة عام 1955 أذكر أن أول سجن دخلته كان السجن الحربي، أما السجن الثاني فقد كان سجن مصر «قرة ميدان»، وبعده في أواخر عام 1955 تم ترحيلي إلى سجن أسيوط وهو السجن الثالث، وبقيت في هذا السجن حتى أغسطس 1957 على ما أذكر، وبعده انتقلت إلى سجن القناطر الخيرية وهو السجن الرابع، وعدت مرة أخرى إلى سجن القاهرة حيث تم الإفراج الأول عني منه. وفي عام 1965 جئت مرغمًا إلى أوردى أبو زعبل وهو السجن الخامس، ثم إلى معتقل أبو زعبل الجديد الذي أكتب عنه الآن، أما ذهابي إلى السجن السابع والأخير فقد كان في عام 1966 وهو سجن «مزرعة طرة».

هذه هي السجون السبعة التي تقلبت فيها على أحر من الجمر، وكان لكل سجن مذاقه الخاص وسجناؤه وإدارته، لكن المعاملة بالطبع بالنسبة للسجين أو السجن السياسي أسوأ معاملة، على الرغم من التصريحات الرسمية الكاذبة التي تدعى المعاملة الإنسانية للسجناء ورفضها للتقارير الصادقة التي تصدر من منظمة حقوق الإنسان العالمية، على الرغم من أن تلك التصريحات تصدر على أعلى المستويات، وبالنسبة لي شخصيًا فأنا لا أنكر أنني عوملت معاملة طيبة، بعد أن نلت الجوائز الأدبية، وتحدد وضعي بشكل عام، لكن هذا لا ينفي ما تعرضت له في جحيم المعتقل الحربي، وفي أيام التكدير بالسجون المدنية التي لم تكن تستثني أحدًا أبدًا، هذه الحقائق واضحة من خلال السطور التي كتبتها في الأجزاء التي صدرت من هذا الكتاب، وسترى فيما بعد كيف أن وسائل الإرهاب البدني والنفسي لم تكف أبدًا..

أعود مرة أخرى إلى معتقل أبو زعبل الجديد، فقد تدهورت حالتي الصحية، وأصبت ببواسير نازفة، أفقدتني الكثير من الدم، حتى بدا وكأني مصاب بالأنيميا (فقر الدم)؛ إذ لم يكن العلاج متوفرًا، بالإضافة إلى التهاب مفاصل الركبتين، واضطراب وظائف الكبد مما يقتضي إجراءات علاجية ووقائية لابد من اتخاذها، ولقد ازداد خوفي من وضعي الصحي بعد أن شاهدت المعتقل «مدبولي» وهو مدرس لغة إنجليزية في بنها، وكان وحيد أبويه، أصيب

بنوع من الحمى طال أمدها، وكلما عرض على الطبيب أعطاه بضعة أقراص أسبرين حتى تدهورت حالته تمامًا، وفي اللحظات الأخيرة نقلوه إلى مستشفى سجن طرة، ويقول الطبيب الذي استقبله هناك: «رأيت جثة تتحرك وتحمل حقيبة».

وفعلًا مات مدبولي، وقد أثبت تشريح الجثة أنه كان مصابًا بالتيفوئيد، الذي سبب له ثقبًا نازفًا في الأمعاء، تلك حالة من الحالات التي عايشناها، وكانت قلوبنا تتمزق أسى أمام هذه المشاهد المحزنة.

من هنا كان لابد أن أبذل أقصى الجهود لكي أنتقل من هذا المكان الكئيب إلى معتقل آخر قد تتوفر فيه الرعاية الصحية الأفضل حفاظًا على حياتي، وانتظرت اليوم الذي يأتي فيه الطبيب إلى معتقل أبو زعبل الجديد، وطلبت النزول للعرض عليه، وشاء الله سبحانه أن يوافق الضابط ويكتب اسمى في القائمة، ولما قابلت الطبيب (وهو حكيمباشي مستشفى الشرطة الذي سبقت الإشارة إليه) قام بفحصى بدقة، ورقق الله قلبه، ووعدني بكتابة تقرير طبي للداخلية يطلب فيها نقلى إلى منطقة طرة كي يتيسر إجراء جراحة البواسير لي، على أساس أنها عملية مستعجلة بسبب النزيف الذي يهدد حياتي، وكان عليّ أن أنتظر الرد على التقرير ما يقرب من أسبوعين، لدرجة أنني يئست من الموافقة على نقلي إلى طرة، وفوجئت في إحدى الليالي بالضابط المناوب ينادي اسمي في الميكروفون، فأصابني الاضطراب المعتاد، القلق النفسي الذي أصبح رفيقًا لي أبد الدهر، وليس في السجن وحده، لكني هدأت حينما أخبرني بأن أجمع حاجاتي واستعد للرحيل إلى معتقل «مزرعة طرة»، وأخذ إخواني يهنئونني ويودعونني بحرارة، بل إن الدموع تقاطرت من أعين البعض ومن عيني أيضًا، لكني كنت سعيدًا بهذا الترحيل فقد قيل إن المعاملة هناك أفضل، على الرغم من سوء المباني، ورداءة دورات المياه..

كانت الساعة قد بلغت الثانية بعد منتصف الليل، ونزلت من العنبر في الدور الرابع، ووضعت الأغلال في أيدينا، وكنا ثلاثة على ما أذكر، وكان من بيننا شاب في هيئة التدريس بكلية العلوم يعاني من شلل نصفي مفاجئ في هذه السن المبكرة، وأعتقد أن اسمه الدكتور محمود عاصي، ولست أعرف شيئًا عن مصيره بعد ذلك.

وركبنا سيارة السجن، وانطلقت بنا تحت الحراسة المشددة في الطريق المظلم، كانت يمناي مقيدة مع يسرى أحد العسكر حتى لا نفر أو نقاوم.. هكذا تصوروا الأمر.. وأخيرًا وصلنا إلى ميدان محطة باب الحديد بالقاهرة حوالي الساعة الثالثة صباحًا.. كان الميدان في هذا الوقت يكاد يكون خاليًا إلا من نفرين أو ثلاثة.. لكأني اشتقت للقاهرة.. للدنيا.. للناس.. إنني أنظر إلى الأماكن في حنان وشغف، وأتذكر الأيام الخوالي حينما كنت أقطع هذا الميدان سيرًا على الأقدام، كي أذهب إلى محطة قطار «كوبري الليمون» التي ينطلق منها القطار إلى محطة أبو زعبل والمدينة السكنية وشبين القناطر، أو أذهب إلى محطة مصر لأذهب إلى طنطا أو الإسكندرية.. وأنظر فأرى الدنيا كما هي.. الشوارع.. المباني.. قضبان السكك الحديدية، هناك في طرف الميدان المقهى الذي كنت أستريح فيه أحيانًا وأشرب كوبًا من الشاي.. وعلى اليسار شارع الفجالة.. نعم في بدايته «مكتبة مصر» التي طبعت فيها أولى رواياتي الفائزة.. وهي رواية «الطريق الطويل»، لكن مديرها الأستاذ غريب، وصاحبها سعيد السحار لا يوجدان الآن، فالأبواب مغلقة.. لكن كتابي مازال كالعهد به معروضًا في «الفترينة» في طبعتين: طبعة خاصة بالمدارس.. طبعة عامة..

وسمعت الحارس الذي قيدت يدي بيده يقول: «ألا تريد شيئًا؟».

- «أشكرك».

- «ألا تحب أن تبلغ أهل بيتك بأي شيء؟».

وراقت لي الفكرة، إنهم لا يعرفون شيئًا عن مكاني أو حالتي، وأعتقد أنه من المفيد أن يعرفوا أنني في معتقل مزرعة طرة، حتى يكفوا عن البحث عني في مختلف المعتقلات المنتشرة هنا وهناك، كما طلبت منه أن يخبرهم بأن يرسلوا إليّ بملابس داخلية عن طريق وزارة الداخلية، وليس عن طريق المعتقل مباشرة، إذ المفروض ألا يعرفوا مكاني. ولا بأس من إرسال بعض الأدوية المقوية والكولونيا، وهي أشياء مسموح بها.. وأخرج العسكري ورقة وكتب العنوان..

وطال الطريق، وكنت أتمنى أن يطول، حتى نرى مزيدًا من الدنيا، وننهل من معين الحياة الطبيعية، وأخيرًا وصلنا إلى معتقل مزرعة طرة وقت الفجر، وما إن دلفنا عبر البوابة حتى استقبلنا ضابط طيب سمح الوجه اسمه «فتحي طلبة» من مدينة بنها، كان يبش لنا، ويبتسم

في وجوهنا وهو شيء لم نألفه منذ شهور، كانت معاملته تنم عن أصالة وكرم، وسأل عني فتقدمت إليه، فأخبرني أن هناك مجموعة من الإخوان طلبوا أن أنزل معهم في عنبر الملاحظة الطبية، وذكر لي بعض الأسماء وكنت أعرفهم جميعًا، ففرحت واستبشرت خيرًا، وبعد أن سجل أسماءنا وساعة وصولنا أخذنا إلى العنابر التي سننزل بها، وفي العنبر إياه، استقبلني أخي الأستاذ الدكتور إبراهيم الصياد، والحاج منصور موسى تاجر الذهب، والحاج عبد العزيز عبد الجواد (الشهيد الحي) زميلنا السابق في سجن أسيوط، والبنهاوي بك أحد كبار الشخصيات العامة، وشوقي كحلة أستاذ اللغة العربية، وسجين الواحات السابق، وكنت قد التقيت به قبل ذلك، وهو مريض بتليف الكبد الآن، ويعاني من الاستسقاء البطني والضعف الشديد، والدكتور عبد العزيز إسماعيل، والساعاتي الخفيف الظل عبد المنعم قنديل (وله محل إصلاح ساعات في الدقي) ويتميز بجمال الصوت وحب المرح والضحك، وأخونا الذي يعاني من مرض الصرع «سالم»، وغيرهم كثيرون.. وصلينا الفجر جماعة، وأحضروا لنا طعامًا شهيًا، ثم نمنا على أسرة حشاياها من القش، لكنها كانت مريحة جدًا إذا ما قورنت بالبرش الذي كنا ننام عليه في المعتقلات والسجون السابقة، ولم أستيقظ إلا في الثامنة صباحًا، وحوالي العاشرة صباحًا نادوا على اسمي فذهبت إلى طبيب المعتقل وهو الدكتور خليل أيوب خليل، الذي استقبلني بترحاب، وفهمت أن لديه فكرة كاملة عني، وكم كانت فرحتي عندما التقيت بعدد آخر من الأصدقاء القدامى، منهم الدكتور ماهر حتحوت (رئيس اتحاد المسلمين الآن في كاليفورنيا بأمريكا، ويحمل الجنسية الأمريكية، ويعمل أستاذًا للقلب بإحدى الجامعات هناك) كما قابلت الأخ اللواء كمال عبد الرازق زوج السيدة الأستاذة كريمان حمزة مذيعة البرامج الإسلامية الشهيرة، والأستاذ محمد الفوال أحد زعماء الطلبة بجامعة القاهرة قديمًا، والدكتور حسين عبد الدايم أستاذ الأشعة بالقصر العيني، والأستاذ الداعية والكاتب المعروف د. عبد الودود شلبي، وكثيرون غيرهم.

كان وزني قد نقص كثيرًا ربما حوالي عشرين كيلو جرامًا، وبدأ الطبيب العلاج الدوائي. ولم يدخر وسعًا في توفير الراحة لي، وذات يوم قال الدكتور خليل:

«إن لك شعبية كبيرة في بيتنا».

لم أفهم ماذا يقصد بهذه الكلمات، ولهذا شكرته بكلمات مقتضبة، لكني عدت أسأله: «بأي مناسبة».

قال: «لقد نشرت مجلة «الكواكب» صورة لك، وصورة للممثلة «فاتن حمامة» واستعرضت المجلة رواية لك اسمها «الربيع العاصف»، وقد رشح كاتب المقال الأستاذ الشاعر الصحفي «كمال النجمي» الرواية للإنتاج السينمائي، واقترح أن تكون فاتن حمامة بطلة القصة..».

ودهشت لذلك، على الرغم من أنني فرحت جدًا، فمثل هذه الأمور تدخل البهجة على نفس المسجون، وتمد له من حبال الأمل والرجاء، ولعله من باب استكمال الواقعة أن أشير إلى أن أحد الصحفيين أخبر الأستاذ كمال النجمي أنني معتقل (ولم يكن يعرف ذلك)، فأصابه شيء من الاضطراب والكدر، وكف عن إثارة الموضوع مرة أخرى حتى لا تشوبه شبهة مجاملتي، وقد علمت ذلك من أخي وصديقي الصحفي الكبير الأستاذ مصطفى نبيل عبد الخالق رئيس تحرير مجلة «الهلال» الشهيرة والعريقة الآن، وذلك بعد أن خرجت من المعتقل.

وصرفت النظر مؤقتًا عن إجراء الجراحة العاجلة بعد أن نجحت العلاجات المبدئية في وقف النزيف المتكرر.

في هذه الفترة التقيت بالعلامة الكبير والمفكر المعروف الأستاذ محمود شاكر -مد الله في عمره-[1] وبقيت إلى جواره طول فترة اعتقالي في مزرعة طرة، وربطتنا علاقة وطيدة مفيدة. فكان إذا فتح باب العنبر أرى وجهه يطل علينا كأول وجه بعد وجه السجان، ويهتف بصوته المميز القوى: «نجيب.. نجيب».

فأقفز من فوق السرير، وأذهب إليه لنبدأ رحلة اليوم في الأحاديث الجميلة، والمعلومات الوثيقة، كان بمثابة مدرسة تتحرك، لديه قناعاته الراسخة التي لا تتزعزع، وهو محقق تفسير الطبري المهم الذين أصدرته دار المعارف، وله كتاب متميز عن المتنبي نال عليه جائزة الملك

---

(1) توفي -رحمه الله- مساء يوم الخميس 3 ربيع الآخر 1418 هـ - 7 أغسطس 1997م. (الناشر)

فيصل الكبرى، ومن أشهر كتبه «أباطيل وأسمار» الذي رد به على ترهات وأكاذيب الدكتور لويس عوض، كما حقق كتاب «جمهرة نسب قريش» وديوان «ابن الدمينة» وغيره من الكتب الثمينة، ولقد كان بيته في شارع الأسود بمصر الجديدة أشبه ما يكون بجامعة كبرى، تتلمذ على يديه فيه أعداد كبيرة من طلبة الدكتوراه والماجستير في العالم العربي كله، وكان صديقًا بل أستاذًا للكثيرين من قمم الأدب والفكر في مصر وخارجها، وعلى الرغم من أنه اعتقل ضمن الإخوان المسلمين، إلا أنه لم يكن عضوًا في الجماعة، ولقد اعتقل مرتين الأولى -كما علمت- بسبب صداقته للشيخ الباقوري وزير الأوقاف، وكانا يسهران معًا، وكان الأستاذ شاكر يروي بعض «النكات» والتعليقات التي تمس الثورة وشخصية جمال عبد الناصر، وقد بلغت هذه الأحاديث مسامع الكبار، فاعتقل الأستاذ محمود شاكر وعدد من الرجال معه منهم الكاتب الإسلامي المعروف الأستاذ عبد الكريم الخطيب، والأستاذ محمد عطا، أما الأستاذ الباقوري فقد أعفي من منصب الوزارة، وحددت إقامته في بيته، وخرج الأستاذ شاكر من المعتقل، وتصدي لكتابات «لويس عوض»، مما ساهم في إعادة اعتقاله مرة أخرى في عام 1965.

أقول إن محمود شاكر كان موسوعة علمية متحركة، ولقد روى لي الكثير عن قصة حياته مما لا يتسع المقام له هنا.

وفي أوقات الفراغ كنت أجلس معه لنلعب الطاولة (النرد)، وهي مصنوعة من لباب الخبز، وكان يحتشد حولنا مجموعة من المشجعين له ولي، وكان من أكبر المتحمسين له الأخ المعتقل «مصطفى كمال» شقيق الإخواني الشهير الشاب «على صديق»، وكان مصطفى حليق الرأس مثل (بول برانير) الممثل العالمي، ومن شدة غيظي منه كنت أسميه «المأجور الأقرع» وكان الأستاذ شاكر يضحك من أعماقه عند احتدام معركة الطاولة بيني وبينه، ويلعب دون اكتراث ويقول «دوسى» فيأتي الزهر بالدوسى، فأتضايق وأهتف في عصبية: «أنت يا أستاذ شاكر «تقرص» الزهر.. أنت غشاش».

فيكاد يستلقي على ظهره من الضحك..

وذات مرة كشف الأستاذ شاكر عن صدره وظهره فوجدته مصابًا بمرض جلدي اسمه «التينيا»، وكان لابد من إحضار علاج لندهن به جسده، وكان لدورة المياه «حوش» أو فناء

مشمس، فأخذت الأستاذ شاكر إلى هناك، ولبس «مايوه» وخلع ملابسه، ووقف عملاقًا تحت الشمس ببشرته السوداء، كتمثال من النحاس، وأحضرت قنينة الدواء، وكان بغطائها فرشاة صغيرة لا تتناسب مع حجمه وطوله الفارع، فكنت أغمس الفرشاة في الدواء، ثم أدهن بها جسده قطعة قطعة، والمارون بنا من المعتقلين يتبسمون، ويكتمون ضحكاتهم.

كان الأستاذ شاكرًا مشهورًا بنقده الشديد اللاذع للإخوان المسلمين، وكثيرًا ما يستعمل بعض الألفاظ النابية الجارحة (وهذا هو عيبه الأساسي)، وعلى الرغم من مكانته كأستاذ كبير، ووضعي كواحد من أبنائه، فهو في مثل سن أبي تقريبًا، إلا أني كنت أكيل له الصاع صاعين، ولم يكن يغضب مني أو يخاصمني بل كان يضحك، ويتهمني بالغفلة وحسن النية..

قال له أحد الإخوان: «أنت يا أستاذ شاكر تسب الإخوان وتشتمهم، ولهذا كان عقاب الله لك أن تسجن معهم..».

فيرد شاكر: «أمثالك هم سبب المصائب، ولن أغير رأيي».

ومع ذلك فقد كنت أجل الرجل وأحبه وأحترمه، ونقضي معظم الوقت -ومعنا مجموعة من الإخوة الأفاضل- في الحديث وتبادل الآراء والأفكار، بروح ودية طيبة.

اقترب عيد ميلادي الخامس والثلاثين (أول يونيو)، وهو أمر عادي جدًا لا أتوقف عنده طويلًا، لكنني فوجئت باسمي يتردد من خلال مكبر الصوت «المعتقل نجيب الكيلاني» وأنا أخاف مكبر الصوت، ولا أريد أن يتردد اسمي فيه.

وجاء العسكري، وصحبني إلى «المكاتب» في الإدارة خارج العنبر، وأنا أضرب أخماسًا في أسداس، وأتساءل بيني وبين نفسي: لماذا يريدونني في هذا الوقت بالذات؟ هل جد جديد؟ هل انكشف مستور يستدعي التحقيق معي؟ أنا واثق أنني لم أرتكب أمرًا يعاقب عليه القانون.. حتى القوانين الاستثنائية أو العسكرية لا يمكن أن تدينني بشيء، ومع ذلك فإني أشعر بالخوف.. ذلك الخوف المزمن الذي استشرى في كياني وحياتي ومجتمعي منذ سنوات، والذي يبدو وكأنه مقيم معنا حتى نلقى الله..

وجدت قائد المعتقل، والضابط الطبيب أيضًا فتحي طلبة، وعدد آخر من الضباط وضباط الصف. قال أحد الضباط ساخرًا: «مبروك عيد ميلادك».

لم أكن أتذكره، ولا فكرت فيه، وبدت الحيرة على وجهي، قال فتحي طلبة بابتسامته المعهودة: «زوجتك أرسلت عن طريق الداخلية علبة من حلويات «التوفي»، وصندوقًا صغيرًا من الملبن، هدية لك بمناسبة عيد ميلادك، ومعهما بطاقة تهنئة.. لكنك تعلم أن مثل هذه الأشياء ممنوعة..».

وعرضوا علي الأشياء المرسلة إليّ، ثم قال الضابط فتحي: «سوف نحتفظ بها في المخزن، وسنعطيها لك عند خروجك، أو في الوقت الذي تأذن فيه «المباحث العامة»..

وشكرتهم وعدت إلى العنبر مسرعًا، وأنا في قرارة نفسي أشعر بشيء من الغضب والضجر، ذلك لأن زوجتي ما كان لها أن تفعل ذلك، في هذه الأوقات العصيبة التي تجري فيها المحاكمات على قدم وساق، والأمور تبدو في غاية السوء، وتذكرت قول المتنبي:

عيـد بأيـة حـال عـدت يـا عيـدُ ... بـما مـضى أم بـأمر فيـك تجديـدُ

أمـا الأحبـة فالبيـداء دونهـم ... فليـت دونـك بيـدًا دونهـا بيـدُ

عندما عدت إلى الإخوة في العنابر، أخذوا يضحكون، وكذلك فعل الأستاذ شاكر الذي أخذ يضرب كفًا بكف، ويعلق بعبارات يقصد من ورائها التخفيف عني، ولم أكن أعلم أن هدية عيد الميلاد هذه سوف تجر عليّ متاعب تستمر أكثر من شهر، وبالتأكيد لو أن زوجتي كانت علي دراية تامة بما يجري خلف الأسوار لما فعلت ذلك، فهي طيبة القلب، حسنة النية، لا تستطيع أن تتصور وجود إنسان مهذب محترم يعتدي على حقوق زوجها الذي تعرفه جيدًا. وتعرف أنه لا يستحق إلا التكريم والمعاملة الطيبة، هذا هو تصورها..

بعد أسبوع من هذه الواقعة تردد اسمي مرة أخرى في مكبر الصوت.. يا إلهي!! ماذا هناك. أصبحت لا أطيق سماع هذا الصوت..

أثناء سيري مع العسكري إلى المكاتب قال: «سيحققون معك».

- «يا خبر أسود!! لماذا؟».

- «لا أعلم.. لكني سمعتهم يقولون ذلك».

أصابني ما يشبه الدوار، لكني تحاملت ومضيت في طريقي كأني أسير في حلم.. أعني في كابوس من كوابيس الطفولة المرعبة التي ظلت تلازمني حتى اليوم.. ما هذا العناء يا ربي؟

أليس له من نهاية؟ لقد ضاق صدري ولم أعد احتمل أكثر من ذلك، لكني تذكرت إخوة لنا يعانون الأهوال، ولا يجدون فرصة للنوم الكافي، ولا الطعام الكافي، وينتظرون حكم القضاء فيهم، عندئذ استعذت بالله من الشيطان الرجيم، واستغفرت الله، ودعوته من كل قلبي أن يكون إلى جواري ولا يتخلى عني أبدًا، رحمة بي ورأفة.. ووصلت إلى المكاتب.

قابلني ضابط نحيف نسيت اسمه، كان يجلس خلف مكتبه ومعه قلم وأوراق..

سألني: «اسمك.. سنك.. وظيفتك..».

- «.....».

- «كيف عرفت زوجتك أنك في معتقل مزرعة طرة؟».

- «لا أعرف».

- «ألم ترسل إليها خطابًا»؟ «كلا، وكيف يكون ذلك؟».

- «أليس لك أقرباء في إدارة المعتقل؟».

- «كلا..».

- «ولا في كتبة الحراسة؟».

- «أبدًا..».

- فكيف إذن عرفت أنك في معتقل مزرعة طرة، بدليل أنها كتبت على طرد هدية عيد الميلاد عنوان المعتقل؟ إن رجال المباحث في الداخلية طلبوا التحقيق في هذا الموضوع...

إذا لم تجب على سؤالي، فسوف يستدعون زوجتك ويحققون معها في الداخلية.. وأنت تعرف أن ذلك أمر غير مريح لك ولها..».

ووقفت حائرًا لا أدري بماذا أجيب، وبرقت في ذهني فكرة.. سوف يكون فيها النجاة لي، إذا اقتنع بها المحقق واقتنع ضباط المباحث في مقر وزارة الداخلية.

قلت للضابط: «ربما تكون زوجتي قد قابلت أحد المفرج عنهم، وأخبرها عن المعتقل الذي أنزل فيه».

- «حسنًا، فمن يكون ذلك الشخص؟».

- «لا أدري».

- «أذكر لي من تعرف من المفرج عنهم».

- «هم كثيرون، ولا أعرف أحدًا منهم».

- «فكيف إذن لا تعرفهم ثم يخبرون زوجتك بمكان وجودك؟».

- «الأمر بسيط.. أنا رجل مؤلف.. أكتب في الصحف والمجلات، ونشرت عددًا من الكتب، وأغلب الإخوان يعرفونني، وأنا لا أعرف إلا قلة منهم».

وانصرفت إلى عنبري، والضيق يستبد بي، أما لهذا القرف من نهاية؟ هل هي جريمة أن يعرف أهلي أين أسجن؟ أليس من حقي أن أراسل أهلي، أليس من حقهم أن يزوروني وأستقبلهم؟ ولا يمكن لأي إنسان عاقل أن يجد مبررًا لهذا التعنت من قبل السلطة.

وبعد أسبوع آخر، سمعت مكبر الصوت يقول: «المعتقل نجيب الكيلاني» هتفت دون وعي، وبصوت عالٍ يسمعه إخواني:

- «يادي الداهية السودا».

وجاء العسكري، وصحبني إلى المكاتب الكريهة، الضابط وبيده قلمه والأوراق وسين وجيم كالعادة، شد انتباهي قول الضابط: «بسؤال زوجتك قالت إن رجلًا أتى إلى المنزل وأخبرهم أنك في معتقل مزرعة طرة، فمن يكون ذلك الرجل؟».

يا إلهي، لقد وقع المحظور وتعرضت زوجتي -كان الله معها- للتحقيق وهذا ما كنت أخشاه، لقد تألمت لذلك بشدة، لأنها ليست ذات خبرة بألاعيب المحققين وحيلهم، فقد تفلت منها كلمة دون قصد وتسبب لي ولها مشاكل لا يعلم إلا الله مداها، قلت للمحقق: «لا أعرف شيئًا عن ذلك».

رد المحقق بجفاف:

- «إذا لم تعترف، فسيتم ترحيلك إلى سجن القلعة، وأنت طبعًا تعرف ماذا في سجن القلعة».

- «نعم أعرف، وأقسم لك أنني لا أعرف أحدًا ذهب إليها في عنوانها.. وما زلت أرجح أن أحدًا من الذين أفرج عنهم ربما تطوع بذلك».

- «هل كان لك أقارب ضمن المعتقلين».

- «نعم».

- «من؟».

- «الشيخ محمد كامل، خال زوجتي، وهو مدرس بالمعهد الثانوي الديني بطنطا، ويعاني الشلل النصفي منذ عامين، وقد تخطى الستين من عمره، وهناك أيضًا أحد أخوالي واسمه الحاج محمد محمد الشافعي في سن الستين أيضًا، ولم ألتق بهم في المعتقل، وقد أفرج عنهما بعد شهرين من اعتقالهما، وكان يعلمان أني معتقل مثلهما..».

وطلب مني التوقيع على المحضر، ثم انصرفت، وأنا أدعو الله من أعماق قلبي أن يصرف عني هذه المضايقات السخيفة التي تؤرقني، والتي لا معنى لها سوى تعنت المسئولين.

وفي كل مرة ينطلق اسمي من مكبر الصوت، تصيح مجموعة من إخواني في العنبر وتقول معي «يا دي الداهية السودا» وينفجرون ضاحكين، بينما أكاد أنفجر غضبًا، لقد أصبح الأمر مادة للضحك والسخرية من إخواني، ومع ذلك فقد بقيت مهمومًا طوال شهر كامل، وكلما استدعوني أعادوا نفس الأسئلة، وأنا أكرر نفس الأجوبة، حتى نفد صبري، إلى أن جاء يوم وسمعت اسمي في مكبر الصوت، وذهبت مع العسكري إلى المكاتب، لكنني هذه المرة لم أجد محققًا أو تحقيقًا، بل وجدت الضابط الطيب فتحي طلبة يستقبلني بابتسامته قائلًا: «لقد وافقت المباحث أخيرًا على أن نسلمك هدية عيد الميلاد بعد تفتيشها بدقة».

وفعلًا أحضروا علبة «التوفي» وفتحوها واحدة واحدة، ولمّا تأكدوا خلوها من أي رسائل مخبأة فيها، سلموها لي، كما سلموني علبة «الملبن»، وعدت بهديتي إلى العنبر، واستقبلني إخواني بالتهنئة، وزفوني من باب المبنى إلى العنبر الذي أقيم فيه، وكان من الواجب أن أوزع التوفي بواقع اثنتين لكل معتقل، أما الملبن -نظرًا لقلة كميته- فقد تم توزيعه على عدد قليل من الإخوة القريبين مني، ولذلك فإن الإخوة بعد ذلك كانوا يمزحون قائلين: «إيوه يا عمّ.. ناس لها ملبن، وناس لها «توفى»..».

من الأمور المؤلمة، أن زوجتي بعد أن علمت بوجودي في معتقل مزرعة طرة انتهزت فرصة مجيء عيد الأضحى المبارك، فقررت أن تقوم بزرياتي، فأعدت لي وجبة غذائية دسمة من النوع الذي أحبه، مكونة من الحمام المحشو بالفريك، ومحشي ورق العنب ولحم البوفتيك، وهي تعلم أنني حرمت من هذه الأطعمة منذ اعتقلت، ولقد أخبرتني أنها أخذت أولادي

الثلاثة وقصدت المنطقة التي يكون بها المعتقل، وفوجئت بعدد كبير من الجنود المسلحين يحرسون المكان، واقترب منها ضابط كبير وقال: «إلى أين؟».

- «جئت لأزور زوجي المعتقل».
- «ارجعي فورًا، لأنك لو تقدمت أكثر من ذلك فسيطلق عليك الرصاص».
- «لماذا؟».
- «تلك هي الأوامر، وأنت -على ما يظهر- سيدة مثقفة، والمسألة خطيرة».
- «خطيرة؟».
- «نعم، ويجب أن تنصرفي في الحال، ويجب أن تنسي أيضًا أن لك زوجًا..».
- «يا مصيبتي!!».
- «تلك هي الحقيقة المرة.. انصرفي بسرعة».

وعادت زوجتي بأطفالها وطعامها إلى بيت أبيها في حي «السيدة عائشة» ثم ألقت ما معها من أوانٍ، وشهقت باكية، إن كل ما آلمها، هو كلمة الضابط لها: «يجب أن تنسي أن لك زوجًا» ما معنى ذلك؟

كنت أعلم مدى المخاطرة التي أنا مقدم عليها، لقد كنت قلقًا على زوجتي وأولادي، وسمعت أن هناك سجانًا يستطيع أن يأخذ مني خطابًا، ويسلمه لزوجتي ثم يأتي بالرد، وذلك مقابل خمسة جنيهات، وقررت أن أبعث بالرسالة لأطمئن عليها وعلى الأولاد، وعلى وضعهم المالي والأمني، وحاولت أن أكف عن هذه المحاولة، لكن دافعًا قويًا كان يهتف بي أن أستمر في طريقي، وليكن ما يكون، وتمت المغامرة، أو قل المقامرة، وتسلمت الرد، وكنت به سعيدًا لأن الأخبار التي وردت في الخطاب كانت مطمئنة للغاية، الشيء الوحيد الذي أخفته عني زوجتي هو وفاة أبيها، رحمه الله، في مستشفى العجوزة، بعد أن تدهورت حالته الصحية عقب اعتقالي.. جاءني طرد ملابس داخلية، وبضع قطع الصابون، وعدد من المناديل، وأثناء التفتيش عثر العسكري على خطاب من زوجتي ملفوفًا حول قطعة صابون، ومن حظي الطيب أن المشرف على التفتيش كان فتحي بك طلبة، الذي انتظر حتى خرج

العسكري، ثم سلم لي الخطاب لكي أقرأه بسرعة، كي يأخذه بعد ذلك، ثم يمزقه في حضور العسكري مخافة أن يشي به العسكري.

وفي يوم مشئوم طلبت الإدارة من جميع المعتقلين الخروج إلى فناء المعتقل الواسع كي نستمتع بالشمس، ونجري ونلعب حتى ننشط، ويزول الصدأ الذي ران على مفاصلنا، وكان الأمر ملفتًا للنظر، ولم يطل بنا التفكير، فقد علمنا أنه تم تنفيذ حكم الإعدام في الأستاذ سيد قطب وزميليه محمد يوسف هواش، وعبد الفتاح إسماعيل، والتزمنا الصمت وأخذنا نجري ونتحرك كالدمى، كان الأمر محزنًا، وكان بيننا ابن أخت الأستاذ سيد رحمه الله، وظل صامتًا مثلنا لا يعلق بشيء، وعلى فمه ارتسمت ابتسامة غريبة يصعب تصويرها أو تفسيرها.

في اليوم التالي دخل المعتقل وافد جديد اسمه سيد كيلاني وهو لا يمت لي بصلة قربى، ولم يكن من الإخوان المسلمين ولا من الشيوعيين، ولا من الوفديين (وكان بالمعتقل عدد من الوفديين الذين اعتقلوا أثناء جنازة النحاس باشا)، كان الرجل يبدو مذهولًا مأخوذًا بما يراه، سألناه لماذا اعتقلوك؟

قال: «لقد ألفت كتابًا أدافع فيه عن الوفد، وعن معاهدة 1936، وقلت فيه لولا هذه المعاهدة لما دخل جمال عبد الناصر الكلية الحربية، ولكان الآن موظفًا بالدرجة السادسة.. طبعت من الكتاب ألفين فقط.. على نفقتي الخاصة.. استولوا على الكتاب، ومنعوني من توزيعه، واستدعوني للتحقيق. ثم قالوا لي سوف نأخذك معنا خمس دقائق فقط.. ثم أتوا بي إلى هذا المكان، وتركوني وذهبوا.. خلعت بدلتي، ثم ألبسوني هذه «الهلاهيل» الكالحة.. حتى لكأني مجرم..».

ثم ضحك في شيء من السذاجة وقال: «جعلوني مجرمًا.. أظن أن هذا اسم فيلم سينمائي..».

ثم التفت وقال: «ومن أنتم؟».

- «معتقلون على ذمة قضية الإخوان المسلمين».

- «الله أكبر.. إذن اعتبروني أنا أيضًا «مرابطًا في سبيل الله».. كانت حياتي فارغة.. لا زوجة ولا أولاد ولا وظيفة.. أعيش في كفالة أخي تاجر الأقمشة.. نلت ليسانس الآداب، وعينت في دار الكتب، لكن توفيق الحكيم الكاتب الكبير كان مديرًا للدار بعد الثورة وقد

عاملني معاملة سيئة.. ثم فصلوني.. تلك قصة حياتي باختصار.. أنا لست حزينًا لوجودي في هذا المكان.. أنا مرابط في سبيل الله».

وأخذ يضحك، وينثر الطرائف، ونحن نشاركه الضحك، كان في الحقيقة شخصية بسيطة مرحة، يأخذ الأمور أخذًا هينًا، ولا يندم من أجل فقدان شيء، ولا يكترث لما يأتي به المستقبل، ومن آن لآخر يقول: «إن معاهدة 1936 هي التي فتحت الطريق أمام جمال عبد الناصر ليدخل الكلية الحربية، ولولا ذلك لكان الآن موظفًا بالدرجة السادسة، ألا تصدقونني؟ هذه حقيقة، لم يكن باستطاعته أن يقوم بانقلاب عسكري وهو موظف مدني، ثم لماذا يغضبون مني حينما أقول ذلك؟».

وسرعان ما تأقلم سيد كيلاني معنا، لقد بدأ يتعود على الصلاة، ويتقبل الطعام الذي نأكل منه، ويشارك في أحاديثنا المختلفة حتى أصبح واحدًا منا، وكان الأستاذ محمود شاكر يسعد لوجوده، ويحب أن يستمع إلى أحاديثه وأفكاره البريئة الجريئة..

وفي إحدى الليالي دخل شاب إلى أحد العنابر، كانت تبدو عليه آثار النعمة والنظافة الزائدة، شعره أسود لامع منسق، عيناه سوداوان واسعتان، لكنهما قلقتان، وعلى وجهه الحليق مسحة من وسامة، أخذ ينظر إلى العنبر المزدحم بشيء من الدهشة والاستغراب، كان سكان العنبر يجلسون صامتين تحت ضوء المصباح الكهربائي الخافت، وخطا بضع خطوات حتى أفسحوا له مكانًا يجلس فيه، وجلس وهو يلتقط أنفاسه، وبعد أن هدأ قليلًا سأل: «من أنتم؟».

رد جاره قائلًا: «معتقلون من الإخوان المسلمين..».

هز رأسه وقال: «لقد ظننت في البداية أني نزلت مستشفى للأمراض العقلية..».

ضحك الرجال القريبون منه، فاستطرد: «والله العظيم حسبتكم مجانين في البداية، لأني رأيتكم تجلسون وكأن على رءوسكم الطير، وترتدون زيًا موحدًا كالحًا، وتنظرون إليّ نظرات غريبة...».

سأله أحدهم قائلًا: «من أنت؟».

- «دكتور ح. م. ع».

- «ومن أين أتيت؟».

- «من ألمانيا رأسًا، كنت في بعثة علمية هناك، أنا خريج كلية الزراعة، ونلت درجة الدكتوراه من ألمانيا، وبعدها حزمت حقائبي، واشتريت سيارة «مرسيدس» من مدخراتي، وأخذت زوجتي وركبنا سيارتنا حتى إيطاليا، ثم ركبنا البحر من إيطاليا إلى الإسكندرية، وما إن أنهينا إجراءاتنا في الميناء حتى قدم رجال الأمن وقبضوا علي».

سأل أحد المعتقلين: «وهل أنت من الإخوان».

- «لا، ولا أعرف عنهم شيئًا يذكر».

- «فلماذا اعتقلوك إذن؟».

- «إنا لا أهتم إلا بالعلم، وفي إحدى إجازاتي السنوية عزمت على الزواج، وكان لابد أن يتم ذلك خلال شهر، حتى يمكنني العودة وأنا متزوج.. وفعلًا أخذنا نبحث عن عروس مناسبة، وأخيرًا وجدتها، وتزوجنا ثم سافرنا سعداء.. لم أكن أعلم أن عروسي هي إحدى حفيدات الأستاذ حسن الهضيبي المرشد العام للإخوان المسلمين، وحتى لو عرفت ذلك، فماذا يهم؟..».

والآن هل عرفتم سبب اعتقالي؟

هزوا رءوسهم، ولم يعلق أحد.

وعاد الدكتور «ح» يقول: «شرحت لرجال الأمن موقفي، أكدت لهم أني لا أعرف شيئًا عن الإخوان، ولا عن مرشدهم، وكوني تزوجت من إحدى حفيداته لا يعني أني متهم.. أتدرون ما قال لي الضابط؟ لقد أخذ يقهقه ويقول لي: تصوّر أنك تسير في الطريق، ثم يسقط فوق رأسك حجر من أحد البيوت دون قصد، فماذا ستقول ويقول الناس؟ سيقولون: هذا قضاء وقدر، وعليك أن تصبر.. فكيف أصبر وأنا غير مقتنع بما يجري ويحدث، إن شيئًا كهذا لا يمكن أن يحدث في ألمانيا.. هناك يحترمون حقوق الإنسان وحريته، لقد حاولوا إغرائي بأن أبقى معهم وأحصل على الجنسية، لكن حبي لوطني منعنى من أن أتنكر له، وهذه هي النتيجة..».

كان موضوع الدكتور «ح» محزنًا مخزيًا. وبقي المسكين بين المعتقلين حزينًا كابيًا، لا يستطيع أن يتكيف مع الجو القاتم الذي ألقي به فيه، وكثيرًا ما يعزف عن الطعام والكلام، حتى ساءت حالته الصحية، وضعفت بنيته، ونقص وزنه، وحاولنا قدر الإمكان أن نقنع

طبيب السجن الدكتور «خليل» أن يضعه في الملاحظة الطبية، حتى يقدم له الطعام الأفضل، والعلاج المناسب، ومن المحزن أيضًا أن مرور الأيام الكئيبة على «ح» في المعتقل قد أثر كثيرًا على نفسيته، مما انعكس على تصرفاته وسلوكه.

ولم يقتنع قط بمعقولية الإجراءات التي اتخذت ضده، وربما لو كان له أدنى علاقة بالإخوان، أو أقدم على بعض التصرفات التي تجلب الشبهة، لوجد الأسباب أو المبررات لما يحدث له، ولشعر بقدر من العزاء، لكن حياته العلمية وانهماكه فيها، لم يفتح له بابًا تدخل إليه منه المعرفة الحقَّة بأعاجيب السياسة وبلائها وعجائبها، وفي ألمانيا لم ير سوى الوجه المشرق للحياة وحقوق الإنسان التي يحترمها الجميع، ولم ير إلا معاهد العلم الجادة، ومختبراتها المتطورة، وأساتذتها الأجلاء، رآهم هناك يقدسون العلم وحرية البحث، ولا يقدسون السلطة، ولكن يحترمونها ما دامت تحترم حقوقهم، وتعمل على خدمتهم... أية صدمة أصابت (ح) في هذه الأيام الحرجة من حياته، وفكر هل يطلق زوجته؟ إن كل شيء يوحي باليأس وخيبة الأمل، أليس الموت أهون من ذلك العذاب كله؟

ولم يخف ذلك عن إخوانه، ولم يدخروا وسعًا في التخفيف عنه، وتقديم المسكنات الإرشادية له، لكن خيبة أمله كانت أقوى من أية نصائح تقدم له؛ وكثيرًا ما كنت أجلس إليه، وأحكي له عشرات القصص والحكيات عن المظلومين، والمثل الشعبي يقول «يا ما في السجن مظاليم»، وكان يرتاح لحديثي، ومما يخفف عنه أن يرى ويسمع وقائع وأحداثًا تشابه إلى حد كبير ما وقع له، وأخذ ينطبق عليه قول الشاعرة الخنساء:

يذكرني طلوعُ الشمس صخرًا ... وأذكره لكل غروب شمس

ولولا كثرة الباكين حولي ... على إخوانهم لقتلت نفسي

ولا يكون مثل أخي ولكن ... أعزّي النفس عنه بالتأسي

لقد كان «ح» أنموذجًا من النماذج العديدة التي لا تخفي دلالاتها على أي مراقب للأحداث في تلك الأيام السوداء التي امتلأت بالغرائب والأعاجيب.

كنت أذهب إلى الأستاذ محمود شاكر أحيانًا في غرفته حيث كان ينام على حشية من القش، موضوعة على الأرض، ولم يكن له سرير مثلنا، وكلما ذهبت إليه أجد قبالته رجلًا يجلس صامتًا في وضع الجلوس للصلاة، كان هذا الرجل جامد النظرات، يتطلع إلى أفق بعيد،

والبؤس على وجهه، لا يرد على أحد، ولا يكلم أحدًا، ولاحظت أن جيرانه في الغرفة الكبيرة يقدمون له الطعام فيأكل، وكذلك الشراب فيشرب، لكنه أحيانًا يرفض الطعام والشراب.

قلت لعالمنا الكبير الأستاذ محمود شاكر: «من هذا الرجل».

قال في اقتضاب: «مجنون».

- «غير معقول».

نظر إلي في سخرية وقال: «ألا تصدقني؟ لقد أتوا به من مستشفى الأمراض العقلية بالخانكة».

- «حتى المجانين يعتقلونهم؟».

قهقه قائلًا دون أن تفارقه رنة السخرية: «كلهم مجانين».

وعجبت أشد العجب لهذا التصرف من رجال الأمن، بالأمس القريب استغربت وجود مرضى الجذام بيننا، لكنهم بعد ذلك أعادوهم إلى مستعمرة الجذام مرة أخرى تحت الحراسة، فلماذا لم يفعلوا نفس الشيء مع هذا المريض؟ وأخذت أتقصّى سيرة هذا المسكين، فعلمت أنه كان يشغل وظيفة «صول» في الجيش، ثم لحقت به شبهة الانتماء للإخوان المسلمين فاعتقل في عام 1954، وقضى في المعتقل حوالي عامين، ثم أفرج عنه في عام 1956 وطرد من الجيش، وفجأة وجد نفسه في الشارع لا يستطيع أن يكفل الحياة الشريفة لزوجته وأولاده، وسقط فريسة الهموم النفسية الرهيبة التي عجز عن تحملها، لقد عاف النوم والطعام، وأصبحت حياته مريرة المذاق، وتدهورت حالته حتى أخذ يهذي ويتخبط ويرتكب بعض التصرفات العدوانية الخطرة، لقد أصبح مجنونًا بالفعل، وهكذا أدخلوه مستشفى الأمراض العقلية، حيث قضى عددًا قليلًا من السنوات، وجاء عام 1965، والاعتقالات الواسعة، فبحثوا عنه ووجدوه في مستشفى الأمراض العقلية، فذهبوا إليه واعتقلوه، وأجلسوه قبالة الأستاذ محمود شاكر مباشرة، وكان الأستاذ متبرمًا بهذا الوضع غاية التبرم، ولذلك فإنه يغادر غرفته منذ الصباح، ولا يعود إليها إلا في وقت «التمام» أي عند إغلاق الغرف على المعتقلين، وبينما كنت جالسًا ذات يوم مع الأستاذ شاكر نتحدث عن الشعر الجاهلي، اخترقت آذاننا صرخات عالية، واتجهنا بأبصارنا إلى مصدر الصوت، كان ذلك المريض المجنون يصرخ ويضرب الأرض بكفيه في ثورة عارمة مجنونة، والدموع تتدفق من عينيه، وسرعان ما عاد إلى صمته،

ووضع كفيه على ركبتيه كما كان في البداية، واستعاد وضعه السابق ونظراته الجامدة، وكأن لم يحدث شيء، لكن الدموع ما زالت في عينيه وعلى خده، وسألنا عن السبب قال جاره: «إنه يفعل ذلك أحيانًا دون سبب معروف، لعل هناك ما يضايقه ونحن نجهله».

وهم الأستاذ محمود شاكر بالوقوف، وقال: «هيا بنا نخرج.. إني أكاد أختنق».

وفي أحد الأيام في النصف الأخير من عام 1966 جاء إلى المعتقل شاب قصير القامة، حليق الرأس، مرتعش اليدين، قلق النظرات، مهتز الرأس، ينظر إلى الجميع في خوف وتوجس، ومن آن لآخر يقول في توسل «والنبي ما عملت حاجة.. والله العظيم ما عملت حاجة..».

قصة أخرى من قصص اللا معقول التي نرى أشباهًا لها كل يوم، وكان بالمعتقل بعض الإخوة الذين يعيشون في الحي الذي يعيش فيه هذا الشاب بالقاهرة، فتعرفوا عليه وأخذوا يحاولون بث الطمأنينة في نفسه، حتى ارتاح لهم، وأنس إليهم ووثق فيهم، وأخذ يستعيد هدوءه تدريجيًا حتى بدا أنه قد تخلت عنه وساوسه ومخاوفه، ثم قص حكايته، فروى لنا كيف أنه دخل خطأ في الشارع الذي يقيم فيه الرئيس، وكان يقود سيارته، واتهموه بأنه ضالع في مؤامرة للاعتداء على الرئيس، فنفى ذلك نفيًا قاطعًا، وأكد لهم أن دخوله الشارع بسيارته خطأ غير مقصود يمكن أن يقع فيه أي إنسان حسن النية، فلم يصدقوه، ثم أخذوا يوقعون عليه شتى ألوان التعذيب.. وطال تعذيبهم له أيامًا حتى فقد القدرة على التحمل، فتداخلت أمام عينه الصور، واختلطت في رأسه الأفكار، ولم يعد قادرًا على التمييز أو الإجابة على أية أسئلة توجه إليه، وقرر طبيب الشرطة ضرورة إحالته إلى مستشفى الأمراض العقلية، وخاصة أن التحريات قد أثبتت أن أباه من تجار الأقمشة المرموقين، وأن أسرته تعيش في بحبوحة من العيش، وأن ذلك الشاب متزوج، وليس لهم جميعًا أية انتماءات سياسية، كما لا يمتون بصلة قرابة أو صداقة مع أحد العاملين في الحركة الإسلامية أو غيرها، وقضى المسكين فترة من الزمن في مستشفى الأمراض العقلية، وما إن تحسنت حالته، وثبتت براءته حتى أحضروه إلى معتقل مزرعة طرة، لينضم إلى نزلائه في انتظار المجهول.

القاعدة عند السلطة أن البرئ متهم حتى تثبت براءته، وحتى بعد أن يتأكد ذلك، يظل سيف الشك مصلتًا على رءوس الجميع.

وليس سرًّا أن أقول أنه بطول المدة ابتدأت تظهر حالات مرضية نفسية كالهستيريا والهوس والصرع، وبعض الأمراض المزمنة الأخرى كأمراض الكبد والقلب وارتفاع ضغط الدم وقرحة المعدة وغيرها، ولقد كان معنا معتقل أصيب بالشلل الهستيري، كان حاد الذكاء طموحًا، يستبد به الضيق لوجوده في السجن، وكثيرًا ما يقول «إنني كالعصفور الحبيس في القفص»، هذا الرجل الآن (1994) قد أصبح من كبار رجال الأعمال، ويمتلك الملايين رغم أنه بدأ من الصفر، ولم يكن يحمل أية مؤهلات علمية تذكر، ومثله كثيرون..

إن الناس يختلفون في القدرة على التحمل، وإذا ما طالت مدة الابتلاء فقد يأتون بعض التصرفات الغريبة المحزنة مثال ذلك أن أحد المعتقلين وقف ذات مساء في وسط الغرفة وقال لهم بصراحة: «إن مشكلتنا مع الحكومة لا حل لها حسبما أرى، وما حدث في أعوام 1953 و1954 و1955 و1965 يؤكد أن الظلم قائم ولن نستطيع الخلاص منه، وقد قضيت ليالي أفكر في حل لهذه المأساة المرعبة، ووصلت في النهاية إلى نتيجة حتمية لا فكاك منها».

رد عليه أحدهم: «ما هذه النتيجة؟».

قال: «لن يرفعوا يدهم عني ما دمت مسلمًا».

قال قائل: «ماذا تعني؟».

- «كلامي واضح، سوف أذهب غدًا إلى قائد المعتقل، وأطلب منه أن يتخذ الإجراءات الكفيلة بتغيير ديني».

هاج المعتقلون في العنبر وماجوا، بعضهم اتهمه بالجنون، والبعض الآخر بالخيانة، وثالث جرده من رجولته، والبعض الآخر هم بالفتك به، وتدخل رجل صالح من المعتقلين يتسم بالهيبة والصلاح وكبر السن، وقال: «أتركوه وشأنه، إنها نوبة من نوبات اليأس».

وأخذ ينصح أخاه الجانح، وذكره بأن الدنيا دار فناء، والآخرة دار بقاء، وذكره بقوله الله: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾﴾ [الزمر:10]، وأن العمر مهما طال قصير، وأن الإيمان الراسخ بالله من أعظم نعم الله علينا، وأن الأزمة ستمر، وسننال عليها أعظم الثواب..

وصاح رجل في آخر الغرفة: «إن المرتد عقوبته القتل..».

وساد الضجيج حتى جاء خفر الليل، ودقوا على الباب وتوعدوا الجميع بالعقوبة الصارمة إذا لم يخلدوا إلى النوم، ويكفوا عن إثارة الفوضى.

في الصباح أمسك المعتقل المتمرد بيد العسكري، وطلب منه أن يأخذه إلى قائد المعتقل، وحينما عرض أخونا مطلبه على أحد الضباط (وكان مسيحيًّا) رد عليه ببرود: «ونحن لن نقبلك في ديننا».

وغمره عرق الخجل، وقال الضابط: «وحتى لو تركت دينك، فستظل في المعتقل.. إن الحكومة تتعامل معك من الناحية السياسية، وليس الناحية الدينية، الملايين في الخارج متمسكون بدينهم، ولا يعترضهم أحد، لكن الذين يتحركون سياسيًّا ضد الحكومة هم الذين تتخذ ضدهم الإجراءات القمعية.. في سجون مصر ومعتقلاتها يهود.. ومسيحيون.. وشيوعيون وكفرة.. وفيها مسلمون، ولا يجمعهم سوى شيء واحد هو العداء السياسي للحكومة.. هل فهمت يا أخ؟ اذهب إلى غرفتك يا أخ.. فنحن لن تنطلي علينا هذه الألاعيب، وسأكتب تقريرًا عنك وأرفعه إلى المسئولين.. من يدري؟ قد يلقنونك درسًا قاسيًا في الأدب..».

وعاد المتمرد إلى غرفته، كانوا يجلسون في صمت وهم ينظرون إليه في حسرة، عندما أذن الظهر، وجدوه يذهب إلى دورة المياة ليتوضأ.. أشرقت الفرحة على وجوههم وقلوبهم، وعندما أمّ أحد الشيوخ الصلاة كان صاحبنا يقف في الصف الأول، وما إن انتهت الصلاة حتى وقف صائحًا يقول:

- «استغفر الله.. تبت إلى الله، وندمت على ما فعلت، وعزمت على ألا أعود إلى المعاصي أبدًا، وبرئت من كل دين يخالف دين الإسلام، وأشهد ألا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله».

ثم انفجر باكيًا.

قال الشيخ الإمام: «رددها ثلاثًا.. بل سبعًا».

وما إن انتهى من ترديدها، حتى تجمهروا حوله، وأخذوا يعانقونه ويقبلونه، والدموع في أعينهم، كان يقول: «لقد غلبني الشيطان، لكنني أعود الآن إلى رحمه الله، إن قوة شريرة سكنتني بعض الوقت.. أنتم لا تعرفون ظروفي الخاصة.. لكن الله قادر على أن يحفظنا من كل مكروه..».

وهذا الشاب الأسمر الممتلئ.. في بداية الثلاثينيات من عمره ما زلت أذكره.. إن صورته وملامحه الدقيقة مرتسمة حتى الآن في خيالي.. وفي إحدى المرات، ونحن نجلس في فناء المعتقل مال علي أحد الإخوة هامسًا، وقال: «ألا ترى ذلك الشاب الذي يسير وحده واضعًا منديلًا أبيض فوق رأسه؟».

- «من يكون؟».

قال أخي: «سبحانه الله.. كان أبوه من العلماء الذين تستعين بهم الحكومة في توعية الإخوان في السجن الحربي في عام 1956، وكان والده يُبصِّرُنا بما يجب أن نلتزم به في الإسلام، على الوجه الصحيح، ويأخذ علينا التصرفات الجامحة -من وجهة نظره- ويعتبرها عصيانًا وخروجًا على ديننا الحنيف». ثم شرح لي الأخ كيف أن الأيام قد مرت، ودارت الدائرة، وأصبح ابنه بالذات واحدًا منا، وتعرض لما يتعرض له المعتقلون من معاناة ومتاعب، هل كان يتصور ذلك العالم الطيب أن ولده سينضم إلى الذين كان بالأمس يعظهم ويرشدهم إلى الطريق الصحيح، مع أن هذا الابن لم تسجل ضده أية أعمال تمس أمن الحكم والحكومة.

إن ما يجهله الناس هو أن الأمر ليس أمر جماعة شاذة تحترف المعارضة، وتعمل على إثارة الفتنة، وتريد أن تستولى على السلطة بالقوة الجبرية، وتقود الناس جبرًا إلى مهاوي الخطر والفساد، إن الأمر في حقيقته هو المنع التام لأي نشاط تشم منه رائحة الإسلام.. الإسلام بصورته الشاملة الصحيحة، الإسلام الذي يتخلل نسيج المجتمع كله، ويدخل في صميم حياته، ويلهمه القول السليم، والفعل الصحيح، والحركة المتزنة المحسوبة، حتى يتحرر ذلك المجتمع من نوازع الجشع والأنانية، ويتخلص من مظاهر الاستبداد والظلم والقمع والاستغلال، وإهدار كرامة الإنسان..

وذهبت ذات يوم إلى المبنى الآخر لزيارة بعض الأصدقاء القدامى هناك، وعندما اقتربت من العنبر وقعت عيني على صديقي الأستاذ محمد العوضي سلام.. يا إلهي.. ماذا جرى؟ لقد تركنا ونحن في معتقل أبو زعبل الجديد على أساس أنه قد أفرج عنه، وحملناه التحيات والسلامات للأهل والأحباب في الخارج.. كان وداعنا يومذاك وداعًا مشحونًا بالعواطف والدموع.. ولكني آراه الآن، هل أفرجوا عنه ثم اعتقلوه مرة أخرى؟ ولم تطل حيرتي، فقد

رآني وقدم نحوي في اشتياق، وتعانقنا وتصافحنا، ولعله أدرك ما يعتمل في نفسي من تساؤلات فقال على الفور: «ضحكوا علينا، أوهمونا بالإفراج، وإذا بنا نجد أنفسنا، وقد انتقلنا من معتقل إلى آخر، لقد سعدنا ساعة أو بعض ساعة، وسرعان ما ذهبت الفرحة، وحل مكانها العذاب المقيم..».

ولاحظت أن الشيخ محمد العوضي سلام قد شحب وجهه، ونحل جسده، وبدا أنه يعاني من مرض ما، وهو الذي عهدناه صلبًا كالصخرة قبل ذلك، رغم قصر قامته، وكنا نعهد إليه بالأعمال التي تحتاج إلى قوة، كما كنا نطلب منه أن يخطب في الناس بعباراته الملتهبة، ومنطقه القوي، وتأثيره الجماهيري الفعال.. ماذا جرى له؟؟ إنه يكاد يتهاوى من شدة الضعف والوهن، وحاولت أن أوجه إليه بعض الأسئلة الصحية، ثم فحصته فحصًا عابرًا، وتبين لي أنه مصاب بمرض في كبده، وحاولت جاهدًا لدى أصدقائي الأطباء المعتقلين أن يقنعوا الدكتور خليل -طبيب السجن- بوضعه في الملاحظة الطبية.

وبقي محمد في المعتقل، وقد ازدادت حالته سوءًا، ولما أفرج عنه بعد شهور، وعاد إلى بيته لم يمهله القدر طويلًا، فلبى نداء ربه.

لقد كان محمد العوضي معارًا للعمل في الجزائر، وكان يغشى المحافل الفكرية والدينية هناك، فهو طاقة من نشاط لا تكل ولا تمل، وقد أصدر هناك كتيبًا يتحدث فيه عن شرع الله وضرورة أن يسود في المجتمعات الإسلامية حتى تتخلص من مظالمها وهزائمها وتأخرها، ويبدو أن أحد المصريين العاملين هناك قد كتب تقريرًا سريًا عنه، وبعث به إلى الجهات المسئولة، وكان ذلك يحدث في معظم البلاد التي يعمل بها المصريون، بل وفي داخل مصر نفسها، وكان من جراء هذا السلوك أن طرد بعض العاملين المصريين في دول عربية أو إسلامية بسبب ثبوت تهمة التجسس عليهم، بل إن بعض الدول قد طردت جميع العاملين بها بسبب الخلافات السياسية الكثيرة التي كثيرًا ما كانت تحدث في عهد عبد الناصر، وهي أحداث مشهورة يعرفها الجميع..

المهم أن الشيخ محمد العوضي الذي كان سلاحه الخطابة والقلم، وهما من الأمور العلنية، قد فوجئ ذات يوم بأمر ترحيله من الجزائر، وتسليمه للسلطات المصرية، وما إن وطئت قدمه أرض مصر، حتى دفعوا به إلى المعتقل ضمن الآلاف الذين يعيشون وراء الشمس،

وبالتحقيق معه، لم يعثر المحققون -رغم قسوتهم عليه- على أي دليل يدينه، وعاش بين المتحفظ عليهم، وكانت التحقيقات التي تعرّض لها، والتعذيب الذي لقيه، مليئًا بالطرائف المضحكة المبكية على حد سواء، والتي لا يستطيع الإنسان أن يسجلها لأن بعضها يخدش الحياء، ولا يصح أن يكتب على الورق.

وكان له من الأولاد ستة، والمعاش الشهري قليل لا يكفي الأولاد وأمهم.. ولهذا لجأت الزوجة إلى فتح محل صغير للبقالة.. وكلما سألها أحد عن حالها قالت: «أهي ماشية والحمد لله»... رحمه الله...

استيقظنا ذات صباح، وأخبرنا أحد الزملاء بأن الحكومة قد اعتقلت عددًا من الشيوعيين، والغريب أن عددًا منهم كان يعمل في منظمة الشباب الحكومية، والتي يرأسها الدكتور حسين بهاء الدين، وقد لوحظ أن بينهم عددًا من الكتاب والأدباء، وقد أحضروهم من سجن القلعة مساء أمس، ووضعوهم في مكان مستقل بهم في عنبر من العنابر، وعلمت أن من بين هؤلاء المعتقلين المتهمين بالشيوعية بعض الأصدقاء القدامى الذين يكتبون في الصحف، ويغشون المنتديات الأدبية، ومن بين هؤلاء المعتقلين الجدد:

- الشاعر عبد الرحمن الأبنودي.
- الكاتب الناقد غالي شكرى.
- الناقد الدكتور صبري حافظ.
- أمين مساعد منظمة الشباب جمال حمزة [وأظن أن هذا اسمه] وقد قيل إن خاله هو شعراوي جمعه -أحد وزراء عبد الناصر. والشاعر الشعبي «سيد حجاب».
- والأديب الصحفي الأردني غالب هلسا.. وغيرهم، وأخذنا نتساءل كيف تعتقل الحكومة الشيوعيين بعد أن أفرجت عنهم عندما زار خروشوف مصر عام 1964 لافتتاح السد العالي، وكان شرطه أن يفرج عن جميع المعتقلين، لأنه -أي خروشوف- لا يزور بلدًا فيها سجين شيوعي.

ولم يطل بنا التخمين، فقد سمعت وأنا في حجرتي من يناديني فعلمت أن أحد المعتقلين الشيوعيين قد أتى من عنبرهم ويريد مقابلتي، فهرولت إلى الخارج فإذا بي وجهًا لوجه مع الناقد الأديب «صبري حافظ»، واستقبلته بالترحاب الواجب، والكرم المعهود، وقبل أن

أستفسر منه عن شيء أخبرني بأنهم جوعى منذ الأمس، ولم يصرف لهم أي طعام، ولهذا يطلب مني كمية من الأكل تكفيهم، ثم قال هامسًا: «ولا مؤاخذة.. لي طلب سخيف.. أعني بضع سجائر لأن الجماعة «خرمانين» وبعضهم يكاد يجن».

لم أضيع الوقت فأحضرت كيسًا من القماش، ومشيت بين الغرف أقول في مرح: «يا إخوان.. زملاؤنا الشيوعيون يكادون يموتون من الجوع.. فجودوا عليهم بما تبقى عندكم من أرغفة أو جبن أو خلافه.. وأستسمح إخواننا المدخنين الذين يستطيعون تهريب السجائر أن يتنازلوا عن عدد قليل منها رحمة بأمزجتهم.. ومن قدم شيئًا بيديه التقاه.. هنيئًا لك يا فاعل الخير...».

جمعت كمية من الطعام وثلاث سجائر، وقدمتها للأخ صبري حافظ، الذي سعد بها أيما سعادة، وسارع بأخذها والذهاب إليهم، وللشيوعيين مقولة شائعة يرددونها وهي «أعطني خبزًا وحدثني عن الله».. قال لنا زميلنا الأستاذ شوقي كحلة: «هل حدثتهم عن الله؟».

- «لا.. أعطيتهم الخبز دون مقابل».

- «لوجه الله؟».

- «نعم».

- «وهم لا يؤمنون بالله...».

وأشار شوقي إلى أن التصدق بالسجائر لا يجوز شرعًا، وأنهم يمجدون الصداقة إذا كان فيها نفع مادي لهم، ولكنهم يدوسونها إذا لم يكن لها جدوى، وذكرني شوقي بتلك الواقعة القديمة حينما كرموني في سجن مصر بعد فوزي بالجائزة، وصدور رواية «الطريق الطويل» في طبعتها الأولى، ثم قاموا بعد ذلك بتقديم شكوى ضدي، كي يحرموني من الخروج للعلاج في القصر العينين أيام سجني الأول، لكن وجهة نظري في هذا الأمر تختلف عن وجهة نظر أخي شوقي، فقد كنت أميل إلى مقابلة الإساءة بالإحسان، وأرى أنه من الواجب أن أقدم ما أستطيع من خدمات لخصومنا السياسيين إذا ما جمعتنا الظروف التعسة في صعيد واحد، ولقد كنت متأثرًا بالصداقة القديمة، ثم إني رأيت بعض الكدمات على وجوه البعض وعلى الأجزاء المكشوفة من أجسادهم، ومن الغريب أن بعض الشيوعيين كانوا أعوانًا مخلصين للحكومة، ويشغلون مناصب مهمة للغاية، خاصة في وسائل الإعلام، وشركات القطاع العام، وقد

حققوا من وراء ذلك ثراءً فاحشًا يتنافى مع الاشتراكية التي يدعون إليها ليل نهار، وفي الوقت نفسه يُقبض على عدد منهم ويوضعون في المعتقلات، ويستطيع أي مراقب أن يستنتج أن الحركة الشيوعية في مصر منقسمة على نفسها، لكن غالبية الشيوعيين يؤازرون الحكومة مؤازرة كاملة، وذلك كي يحققوا أهدافهم في الوصول إلى سلطة القرار، ولينتقموا من أعدائهم التاريخيين وخاصة الإخوان المسلمين، والواقع أن تجربتي مع الشيوعيين مريرة، فقد كنت أحاورهم في أدب، وأستقبلهم مرحبًا، وأقدم لهم ما أستطيع من خدمات داخل السجن وخارجه، ومن خلال عملي كطبيب، وفي المجالات الأخرى التي أستطيع أن أقدم العون فيها للآخرين، ومع ذلك فقد كانوا لا يجدون فرصة لتعويق مسيرتي، وتعطيل آمالي، والنيل مني، إلا انتهزوها، وكأنهم يقدمون إيذائي قربانًا لصنمهم الكبير المقام على قواعد من الكراهية والحقد والحسد والجحود، لكن هل كان ذلك قادرًا على أن يوقف قدر الله، أو يمنع مشيئته من التحقق؟ لا.. وألف لا، إن سخافات البشر وأحقادهم الصغيرة ما هي إلا فقاعات صغيرة سرعان ما تنفجر، ويكتسحها الهواء..

إنني أعتقد أن الفساد الأكبر الذي حاق بمصر في العهد الناصري نجم أساسًا عن وصول أبالسة الشيوعيين إلى صانعي القرار، والمشاركة في صنع السياسة الاقتصادية والتعليمية والحزبية. وسيطرتهم شبه الكاملة على وسائل الإعلام المختلفة من صحف ومجلات ومسارح وإذاعة وتليفزيون، واستيلائهم على مناصب حيوية في مجلس الوزراء والمجلس التشريعي، وتكوين حزب «الاتحاد الاشتراكي»، والسلك الدبلوماسي، ومناحي الأنشطة الفنية المختلفة، وقد طال بقاء هذه العناصر المدمرة في مواقعها الحساسة، فأفسدت كل شيء في مصر «المحروسة» ولعل من أخطر الأمور التي نجمت عن تدخلهم في كل صغيرة وكبيرة، سيادة نمط من القيم والأخلاق الفاسدة، والتهجم على قيم الإسلام وعقيدته ومثله الرفيعة. وحاولوا –من خلال أجهزة الأمن والمخابرات– أن يتصدوا للعناصر النظيفة، ويبعدوها عن الالتحاق بهيئات التدريس بالجامعات، ورفض موضوعات معينة لإعداد رسالات الماجستير والدكتوراه، وفرض موضوعات أخرى مضادة على الدارسين، وقد أشرت في الجزء السابق من هذه اللمحات إلى ما حدث بالنسبة لروايتي «اليوم الموعود» الحائزة على جائزة «المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب» والتي تم التعاقد عليها مع مؤسسة الإنتاج السينمائي العربي، فقام أحد الشيوعيين (ب.ش) بكتابة مذكرة للإطاحة بها، وتعطيل تنفيذها

وكانت إحدى الحجج هي أن البطولة في الرواية بطولة «فردية» وليست بطولة «جماعية»، هكذا قيل.. وقيل أيضًا إنها -كرواية تاريخية- تحتاج إلى ميزانية ضخمة.. ولست أدري كيف تكون البطولة فردية في رواية عن الحروب الصليبية، يحتشد فيها أبناء الأمة للدفاع عن إسلامهم وعروبتهم ووطنهم، لكنها السفسطة الشيوعية التي تلعب بالألفاظ، وتقلب الحقائق، وتزيف التاريخ، وترفع الشعارات الرنانة، والعبارات الجوفاء، حتى انحدرت الثقافة، وفسد الفن، وضاعت حرية التعبير والإبداع، ولم يكن يهم السلطة القائمة وحمايتها من أعدائها، وليذهب كل شيء بعد ذلك إلى الجحيم، إن المخلوقات المشوهة نفسيًا وعقليًا وأخلاقيًا، لايمكن أن تعيش إلا في الأجواء الموبوءة العفنة..

كان بالمعتقل جناح معين كنا نطلق عليه جناح «المعتقلون العرب» والسبب في هذه التسمية هو أن هؤلاء المعتقلين كانوا يعملون كموظفين في شركة «المقاولون العرب» التي يديرها رجل الأعمال الناجح الكبير عثمان أحمد عثمان، ولقد كان عثمان صديقًا مرضيًا عنه من جمال عبد الناصر، لأن الشركة كانت تحقق لمصر دخلًا لا بأس به من العملة الصعبة؛ إذ كانت لها أعمال كثيرة في الخارج، ولقد كان بهذه الشركة عدد كبير من الإخوان المسلمين كانوا وراء النجاح الكبير الذي تحققه يومًا بعد يوم، ولهذا أراد عثمان الاحتفاظ بهؤلاء الإخوان في أعمالهم واستأذن عبد الناصر في ذلك، وتعهد بأن يسلم للحكومة أي فرد من الإخوان العاملين معه عند طلبهم للتحقيق أو الاعتقال، ووافق عبد الناصر على مضض بعد أن أدرك أهمية هؤلاء العاملين في الشركة التي تحظى برعايته، وعندما حدثت أزمة 1956 بين عبد الناصر والإخوان طلبت الحكومة عددًا منهم للاعتقال باعتبار أنه سبق اعتقالهم أو طالتهم الشبهة، ووفى عثمان أحمد بوعده لعبد الناصر، فأحضر المطلوبين من كل مكان سواء داخل مصر أو خارجها، ومنهم من كان في ليبيا أو السعودية أو غيرهما، ثم وضعوا في أحد أجنحة معتقل طرة، ولهذا أطلقنا عليهم «المعتقلون العرب» وكان الأمر مثارًا للضحك والتعليقات المرحة، وكان الذي يفرج عنه منهم يعود إلى موقعه في «شركة المقاولين العرب» مرة أخرى دون حرج أو حساسية، كما استمر صرف رواتبهم أثناء الاعتقال شأنهم في ذلك شأن موظفي الحكومة المعتقلين، وبعض هؤلاء المعتقلين استطاع بعد ذلك الصعود إلى مناصب مرموقة في الشركة حتى يومنا هذا، والبعض الآخر استقال من الشركة، وأسس شركة مقاولات

مستقلة، ونجح نجاحًا كبيرًا، وأصبح من كبار رجال المال والأعمال، أي أصبحوا مليونيرات باجتهادهم وإخلاصهم وعرقهم.

ولقد كان هناك رجال أعمال آخرون غير العاملين أو المنتسبين لشركة المقاولين العرب، بدءوا حياتهم عصاميين معتمدين على كفاءتهم وموهبتهم أذكر منهم الأخ الأستاذ محمود شعراوي وشريكه الأخ الأستاذ جودة المحلاوي، وكان الأخ جودة يروي تفاصيل وأسرار العمل مع شركات القطاع العام والحكومة، وكيف يحصلون على حصصهم من الأسمنت والحديد والزجاج والخشب ومختلف متطلبات البناء، وتبين لنا للأسف أن الأمور لا تسير إلا بطرق ملتوية، وأن رجال الحكومة في هذه القطاعات يرتشون وينهبون ويختلسون، في الوقت الذي يكثرون فيه من الحديث عن نزاهة رجال الثورة وإخلاصهم، ونقائهم الثوري، وما إلى ذلك من العبارات الجوفاء، والشعارات الطنانة، حتى أصبحوا -كما قيل- حيتانًا في عالم المال والأعمال، وفتحوا حسابات بالعملة الصعبة في البنوك الأجنبية الخارجية، ولم يكن عجبًا أن يتحدث الناس، ويعقدون المقارنات بين باشاوات ما قبل الثورة، وسوبر باشاوات ما بعد الثورة، ومن هنا كان حرصهم الشديد على بقاء الأوضاع على ما هي عليه، والتمسك بمناصبهم ومكاسبهم ومشاركتهم الضرب بيد من حديد على كل من تسول له نفسه أن ينتقد أو يعارض أو يكشف المستور. ذلك أن أنصار الثورة الكبار من رجال الجيش أو المدنيين الذين لم يحملوا حقائب وزارية، كانوا يلحقون بقطاعات الصناعة والتجارة الخاضعة لإشراف الحكومة كأعضاء أو رؤساء في مجالس إدارة الشركات، أو يتولون العمل كمديرين تنفيذيين ويكون تحت أيديهم الأموال الطائلة، ولهم سلطة اتخاذ القرار دون أن يعترض طريقهم أحد، وفي حالة ما إذا ظهر معترض له سلطة أو نفوذ، فمن السهل إسكاته بقدر مناسب من الغنيمة الحرام، أو بالتآمر عليه لإبعاده قهرًا عن الطريق، حتى تمضي الأمور في نطاقها المرسوم.

ولقد راجت شائعات تقول إن هناك دفعة إفراج في عيد الأضحى المبارك أو في عيد الثورة (لا أذكر)، وتفاءل الجميع خيرًا وخاصة بعد أن انتهت المحاكمات، وصدرت الأحكام ضد البعض ولم يعد هناك مبرر للاعتقال التحفظي، لأن إغلاق ملف المحاكمات يعني أنه لم يعد هناك أحد ممن حامت حولهم الشبهات مطلوبًا للتحقيق أو المحاكمة، وجلسنا ننتظر، ولكن تبخرت الآمال، بعد مرور تلك المناسبة، ولم يفرج عن أحد، وقيل في حينها أن السيارات

التي كانت ستنقل المفرج عنهم كانت جاهزة، لكن الرئيس جمال عبد الناصر لم يعتمد قوائم الإفراج المعدة لذلك حسبما أخبرنا الدكتور خليل طبيب المعتقل، وكان من المعروف أنه يستحيل الإفراج عن أي فرد إلا بموافقة رئاسة الجمهورية في تلك الفترة.. وشعر الجميع بخيبة الأمل، ولكن ما الحيلة..

في هذه الفترة سمعنا أن الأستاذ الدكتور عبد العزيز كامل سوف يأتي إلى المعتقل ليلقي محاضرة عنوانها «أعمال الثورة من أجل الإسلام»، والدكتور عبد العزيز كامل هو أستاذ الجغرافيا في كلية الآداب جامعة القاهرة، والخبير المختص بالتسلل الإسرائيلي في أفريقيا، كما أنه كان عضوًا في مكتب الإرشاد للإخوان المسلمين (أعلى سلطة في الجماعة)، وكان قد التزم الحياد في الصراع بين الثورة والإخوان، كما كان يحسن الظن بنوايا الثورة، وعندما جاء إلى المعتقل خرجنا إلى فناء السجن الواسع، وجلسنا القرفصاء، أما هو فقد جلس على مقعده خلف مكتب خشبي متواضع وأخذ يتحدث عما قدمته الثورة من أعمال مجيدة تهدف إلى رفع راية الإسلام ونشر مبادئه، والعمل على الالتزام به، وذلك بهدف تخفيف حدة العداء وسوء الظن بين الطرفين؛ الإخوان والثورة، وكان الدكتور طوال محاضرته لا يرفع عينيه عن الأوراق التي أمامه، ويتكلم بصوت خفيض دون حماسة تذكر، وقد كان يجلس أمامه عدد من شباب الإخوان كانوا قد تتلمذوا على يديه في الماضي، كانوا لا يرفعون أعينهم عنه، وهم في الصف الأول، وما إن أنهى المحاضرة حتى هبوا واقفين وصافحوه، فكان يصافحهم في حرارة، دون أن تفارق شفتيه ابتسامة لها معنى لا يخفى على أحد، وكأنه يقول إنني لم أفعل ذلك إلا من أجلكم، أملًا في إيجاد حل للمشكلة المزمنة التي طال عليها الأمد.

ولقد علمت بعد أن خرجت أنه قدم إلى المعتقل عدد من المحاضرين الآخرين للتوعية منهم كمال رفعت أحد كبار رجال الثورة (والوزير أيضًا)، وقد كان ممن شارك مع الإخوان في حرب القناة ضد الإنجليز قبل الثورة، وقد أثنى على جهاد الإخوان القديم ثناء طيبًا، وجاملهم بأكبر ما يستطيع، كما جاء للمحاضرة بعد ذلك عدد من علماء الأزهر منهم الشيخ فتح الله بدران وغيره.

ولقد رأى رجال الأمن في تلك الفترة، أن يقوم الإخوان المعتقلون أنفسهم -إثباتًا لحسن النية- بدور ما في التوعية وسط صفوف الإخوان المعتقلين، على أن يذكر فيها منجزات

الثورة، وأن يتناول الحديث أيضًا -كشرط أساسي- الأخطاء التي وقعت فيها الجماعة، وخاصة محاولة اغتيال عبد الناصر، وتكفير الناس، وما اقترفه الجهاز السري (النظام الخاص) من أخطاء فادحة تتنافى مع الإسلام، ومع القوانين السارية في الدولة، والواقع أن هذا الأمر كان قضية شائكة للغاية، إذ أسفر عنها انشقاقات في صفوف الجماعة، ذلك لأن من شارك فيها كان عددًا من القيادات التي تولت مواقع حساسة في الجماعة قبل ذلك، ومهما قيل في هذا الأمر، فإنه تم بغير قليل من الضغط والإكراه، كما وأن البعض شارك فيها كتكتيك سياسي مرحلي لا يعني سوى الخلاص من المأزق بأقل الخسائر الممكنة، ومن جانب آخر فقد كان لذلك رد فعل سيئ في البعض، فقد رفضوا الإذعان لذلك، واتهموا إخوانهم بالخيانة، كما اتهموا الحكومة بالإجرام والكفر، وهكذا نشأت «جماعة التكفير والهجرة» فيما بعد والتي أنشأها شكري مصطفى وغيره، ورأى الأستاذ الهضيبي المرشد العام للإخوان المسلمين -وكان سجينًا في تلك الفترة التالية- أن يشكل لجنة لدراسة الوضع، وفي النهاية صدر كتاب فضيلة المرشد وهو كتاب «دعاة لا قضاة» أنحى باللائمة على من يكفّرون المجتمع، ودعا جماهير الجماعة إلى الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ونبذ العنف وغير ذلك من الأمور التي أسندها الكتاب إلى الأدلة الشرعية الناصعة التي ليس فيها شك..

لكن آثار هذه الفتنة -إن صح التعبير- قد خفت حدتها، وتكاد تكون قد تلاشت مع الزمن، والدليل على ذلك، أن الجماعة في عهدها الجديد، أيام المرحوم الأستاذ عمر التلمساني المرشد الثالث، والأستاذ محمد حامد أبو النصر المرشد الرابع قد اتخذت خط الاعتدال، ونبذ العنف، وشاركت في العمل السياسي الشرعي تحت مظلة «حزب الوفد» في المرحلة الأولى، ثم بالاشتراك مع حزب العمل في المرحلة الأخيرة، هذا وقد حققت الجماعة في عهدها الجديد قدرًا لا بأس به من النجاح حينما دخلت الانتخابات النيابية تحت شعار «الإسلام هو الحل»، ولولا ما شاب عملية التصويت في الانتخابات من تزييف وتزوير وتهديد وألاعيب لكانت نسبة النجاح أكبر وأكبر، كما استطاع أنصار الجماعة الفوز بالأغلبية المطلقة في عدد من النقابات المهنية والاتحادات وعلى رأسها نقابة الأطباء، ونقابة المهندسين، ونقابة المحامين، واتحادات الطلبة.

إن الحياة تجارب، والعمل السياسي محفوف بكثير من المشاكل والمعوقات وقلما توجه جماعة من الجماعات، أو حزب من الأحزاب إلا وتواجهه العديد من المحاذير والمنغصات،

واحتمالات الخطأ واردة كاحتمالات النجاح، المهم أن تتمخض مثل هذه الأحداث عن رؤية جديدة أكثر إصابة ووضوحًا وصدقًا، ولا يصح أن تتحول تلك الأحداث إلى ضربة قاصمة تبعثر الجهود، وتمزق الصفوف، وتزرع اليأس في النفوس، وتقضي على الآمال الكبيرة التي تخفق في قلوب الملايين.

****

[6] زوجتي تقابل عبد الناصر

بلغتني أنباء هزتني هزًّا عنيفًا..

لقد أرسلت إلى زوجتي -وأنا في مزرعة طرة- رسالة مخبوءة في طرد جديد به صابون وملابس وأدوية وكولونيا، وأخبرتني فيها أنها قررت أن تذهب إلى الرئيس جمال عبد الناصر شخصيًّا وتقدم إليه التماسًا للإفراج عني، مستندة إلى أني لم يرد اسمي في القضايا الجديدة، والتي نشرتها الصحف، وأنها قد اتفقت مع شقيقتها الأصغر سنًّا منها الأستاذة نفيسة التي تعمل كمذيعة بإذاعة القاهرة، واتفقتا على أن تقوم زوجتي بهذه «المغامرة» دون أن يخبروا أحدًا بها، وفعلًا بدأ التخطيط لذلك، ثم ذهبت في اليوم المتفق عليه إلى بيت عبد الناصر في «منشية البكري» في سيارة «تاكسي»، لكن قائد الحرس أخبرها أن الرئيس ليس موجودًا، ويمكن أن تذهب إليه في «قصر القبة» يوم (...)، وتكرر ذهابها إلى قصر القبة، فمرة يكون مشغولًا باستقبال بعض الضيوف الأجانب، ومرة أخرى لم يحضر، وأخيرًا حدد لها مدير المكتب موعدًا (ولعله الأستاذ سامي شرف وهو معروف جدًّا).

وفي اليوم المتفق عليه كتبت التماسًا، وذكرت فيه بعض الأمور منها -كما قلت- أن زوجي لم يرد ذكره في المحاكمات الجارية، ومنها أيضًا أن زوجي له كتب تدرس لطلبة المدارس، وهذه شهادة له لا عليه، ومنها أيضًا أن سيادة الرئيس قد سلم زوجي جائزة القصة 1959 وجائزة المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب بالمنصورة، وأن رجلًا هذا شأنه لم تلحقه شبهة إدانة، من العدل أن يفرج عنه ليرعى أبناءه ويستكمل رسالته في الحياة، وأخبرتني زوجتي أن الرئيس استقبلها وناقشها في النقط التي ذكرت في الالتماس نقطة نقطة، وقالت أيضًا أنها سوف تشرح لي تفصيل المقابلة فيما بعد، وكانت مهتمة جدًّا بقول الرئيس لها بأنه سوف يفرج عني مستقبلًا»..

لقد اعتبرت أن ما أقدمت عليه زوجتي عملًا مقلقًا للغاية، فهي ليست على دراية بدهاليز السياسة وأمور الأمن المعقدة، فقد تصدر منها كلمة، أو تقوم بعمل ما يفتح أمامها بابًا جديدًا

للمتاعب، فضلًا عن أن هذه المقابلة سوف يتبعها مراقبة دقيقة لها في البيت أو الشارع، أو معهد الخدمة الاجتماعية الذي تواصل الدراسة فيه، وقد يجند لها بعض زميلاتها أو صديقاتها، ولا يسلم الأمر من كلمة غضب تقولها، أو نقد يصدر منها للحكومة، عندئذ تقع الواقعة، وتحدث الكارثة، فمن الممكن أن تؤخذ من بين أطفالها، وتوضع في معتقل النساء.. الحقيقة أن الأمر أزعجني غاية الإزعاج، ولم أشعر بالارتياح إلا بعد أ ن بعثت إليها برسالة (سرية) أطلب فيها بإصرار عدم مقابلة أي مسئول، والاعتكاف مع أطفالها في المنزل، وأخذ الحيطة والحذر من أية زميلة أو صديقة أو قريبة، وأخذ رأي والدها شخصيًّا من أي إجراء تتخذه، كما أكدت لها أن الله وحده قد حدد التاريخ الذي سوف يفرج عني فيه، ولا داعي لأن تقلق أو تتعجل الأمور على هذا النحو، لأن العجلة كما يقولون فيها الندامة، ونحن نعيش فترة حرجة من الزمن، ولابد أن نحتاط ونتصرف بحكمة ولباقة تجنبًا لأية مضاعفات نحن في غنى عنها..

وعلمت أيضًا من رسالتها المشار إليها سابقًا، أن أبي رحمه الله يسافر من بلد إلى بلد، كما كان يفعل في اعتقالي الأول، ويتصل ببعض الشخصيات ذات النفوذ أملًا في أن يستطيع أحدهم المساعدة في الإفراج عني، كما أخبرتني أن أمي رحمها الله عادت مرة أخرى إلى الحزن والبكاء، وأنها تستغرق في البكاء كلما سمعت الأغنية التي يرددها فريد الأطرش والتي تعلم أنني كنت أحب سماعها والتي يقول فيها:

بتبكــي يــا عــين عــلى الغــايبين	ودمعــك عــلى الخــدود ســطرين
بــــسطر تقـــولي راحـــوا فـــين	وســـطر تقـــولي ليـــه ناســـيين
كفايـــــة يـــــا عـــــين	كفايـــــة يـــــا عـــــين..

لا إله إلا الله، محمد رسول الله، لماذا يا أمي توجعين قلبي وقلبك، لماذا تزيدين من آلامي وهمومي، بالله عليك أيتها الأم الطيبة المعذبة أن تصبري وتحتسبي، حتى تمر المحنة، وتزول الغمة، عندئذ تبتسم لنا الحياة من جديد، ونجلس معًا في الأمسيات، ونتبادل الأحاديث والذكريات والطرائف، وعند ذاك تضحكين في سعادة، ويشرف وجهك بالفرح، وتحمدين الله على ما أسبغه علينا من النعم الكثيرة..

هذا ما كنت أحدث به نفسي، لكم أتمنى أن يطول عمر أمي وأبي ويطول عمري أنا الآخر، حتى أستطيع أن أرد لهما جزءًا من ألف من الديون التي في عنقي لهما، لقد كنت سببًا من الأسباب الرئيسية بخصوص ما تعرضا له من معاناة ومقاساة في هذه السن المتقدمة من العمر، لكن ما حيلتي، إنها إرادة الله الحي الباقي، الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء، ومن لنا في هذا العالم نلجأ إليه سواه؟

كنت أفكر كثيرًا فيما تجيء به الأيام، وماذا سأفعل عندما يأتي فرج الله، ونغادر المعتقل، لقد فكرت طويلًا وخرجت بنتيجة ارتحت لها، وهي أنني لابد أن أهاجر، وأترك وطني الحبيب وأهلي وأحبابي، وقريتنا الصغيرة التي فتنت بها، لقد اتضح بما لا يدع مجالًا للشك أنه ما دام جمال عبد الناصر موجودًا، فلن يكون هناك ضمان لعدم تكرار المأساة، إن التجربة أثبتت ذلك، ومنهج الرئيس لن يتغير، وأذكر أنني كنت أقرأ في جريدة «الجمهورية» فقرأت تصريحًا نقلته وكالات الأنباء عن معلق إنجليزي جاء فيه أن عبد الناصر قد حقق إنجازات كبيرة، وأنه إذا افترضنا أن أمامه حوالي ربع قرن في الحكم، فإن ذلك سوف يتيح له الفرصة لكي يحقق إنجازات أكثر وأكثر، عند ذاك صحت بأعلى صوتي في العنبر قائلًا: «ربنا يطول عمره» ودهش الإخوان وسألوني: «من تقصد؟».

- «قلت: «جمال عبد الناصر» فتعجبوا، وقال أحدهم: «ولم هذا الكلام بالذات، وفي هذا الوقت بالذات؟» قدمت لهم الجريدة ليقرءوا الخبر، فوجموا ولم يعلقوا.

وكنت أدرس إلى أي البلاد أهاجر، لم أكن أريد العيش في بلد أجنبي، فأنا لا أميل إلى الذهاب إلى أوروبا أو أمريكا، واستقر رأيي أن أسافر -إذا قدر الله- إلى إحدى الدول العربية، كالسعودية أو الكويت أو قطر أو ليبيا مثلًا، وبهذا أستطيع أن أعيش في جو عربي إسلامي أنا وأولادي، فضلًا عن أن اسمي أصبح معروفًا لحد ما في الأوساط الأدبية، مما يعوضني عن تركي لمصر وأصدقائي فيها.

وفي إحدى الليالي رأيت فيما يرى النائم أنني سافرت فعلًا إلى إحدى الدول العربية، ووجدت نفسي في مكان صحراوي عند الحدود، به أحجار بيضاء مزروعة في خطوط متصلة وأثناء الرؤيا أدخل في روعي أن هذه الأرض ليس أرض السعودية، ولا هي أرض الكويت، فماذا تكون، ولم أعرف الإجابة على هذا السؤال إلا بعد عامين تقريبًا حينما سافرت إلى

الكويت للعمل بها في آخر مارس 1968، ومن الطريف أنه بعد أن تقدمت بأوراقي قيل لي أن العمل سيكون في مدينة دبي بالإمارات العربية المتصالحة (أي الإمارات العربية الآن)، ضمن أفراد البعثة الطبية الكويتية التي كانت تعمل بصفة دائمة هناك..

وهكذا بقيت أحلم بالهجرة إلى الخارج طوال أيام الاعتقال، على أساس أنها ربما تكون الحل للخلاص من مشاكل السياسة والاعتقالات التي لا يعرف أحد متى تبدأ ومتى تنتهي، ولقد كنت واثقًا أن الاستقرار ضرورة حتى أستطيع أن أرعى أولادي بأسلوب صحيح، وأن أضمن الحياة الطيبة لهم ولأمهم، وسيكون أسلوبي الجديد للعمل في خدمة الدعوة الإسلامية هو الكتابة، وتطوير هذا الجانب في حياتي وحياة الآخرين من حملة الأقلام، بعد أن قطعت شوطًا في دراسة موضوع الأدب الإسلامي وكيف يكون، وأهميته بالنسبة لأمتنا، وقد يتساءل البعض هل كان ذلك تراجعًا أو وهنًا؟ لا أعتقد ذلك، فإني أعتقد أن لكل ظروف متطلباتها، وأن ما قررته هو الطريق المناسب بالنسبة لي، وبالنسبة للأوضاع الراهنة في الداخل والخارج، فقد كانت الدول العربية جميعًا لها توجهاتها السياسية، وتفضل ألا تدخل في مشاكل مع جيرانها أو شقيقاتها، ومن ثم فإن الأمر يحتاج إلى شيء من الحكمة والحيطة والحذر.

في أحد أيام الثلث الأخير من شهر نوفمبر عام 1966 كان الحاج منصور تاجر الذهب المعروف يجلس أمام قدر كبير من العدس المطبوخ، ومعه مغرفة يوزع بها حق كل معتقل بالدور، ومن عادة الحاج منصور، أن يثور ويرفع صوته، ويحتج على أولئك الذين يطلبون الزيادة على اعتبار أن هذه الزيادة قد تحرم البعض من حقوقهم، وفجأة انطلق النداء من مكبر الصوت قائلًا: «معتقلين... كله يسمع...».

وساد الصمت، وجاء النداء من مكبر الصوت: «منصور موسى.. منصور موسى..».

وأخذ الشيخ منصور يهز رأسه يمنة ويسرة في حركة عصبية ويقول: «الله.. ماذا جرى؟.. ما هذا؟..».

ولم يطل به التساؤل، فد توالت الأسماء واحدًا بعد الآخر، وزادت الأسماء على المائة عدًّا، ونحن في حيرة من أمرنا، هل معنى ذلك نقل بعض المعتقلين من هذا المعتقل إلى معتقل آخر مثلما يحدث عادة؟ ولقد سمعت اسمي بعد أكثر من ثلاثين اسمًا، وكان الأخ الدكتور إبراهيم الصياد في المستشفى لتنظيم عملية توزيع الدواء على المرضى من زملائه المعتقلين بالاتفاق مع

طبيب المعتقل، وقال إبراهيم الصياد: «أبشروا يا إخوان.. هذه هي القائمة الأولى من المفرج عنهم وأنا معهم.. الحمد لله.. سوف أخرج وأذهب إلى بعثتي المقررة في روسيا..».

وساد الهرج والمرج، وحضر الضابط والعسكر فرحين، يلقون بالتهاني هنا وهناك، ولم يستطع بعض المعتقلين السيطرة على أعصابهم وأخذوا يعانقون الضباط والعسكر، وتلاشت في هذه اللحظات صورة العداء التقليدية بين المحبوس والسجان، لحظات لا يمكن وصفها بدقة، أصدق ما يقال عنها أنها نوبة من نوبات الفرح الهستيري، وتنهدت في ارتياح، أخيرًا سأعود لأولادي وزوجتي وأهلي، سأذهب إلى قريتي وأبي وأمي، وسألتحق بعملي الذي أحبه، وألتقي بأصدقائي العمال، وأبدأ حياة جديدة. سبحان مغير الأحوال..

ولم يكن معنى ذلك أن نخرج على الفور، فأمامنا يومان أو ثلاثة حتى تستوفى الإجراءات الضرورية، ولم يكن أحد من أهلينا يعرف شيئًا عن هذه الأخبار السارة الجديدة، كما لم يكن في الاستطاعة الاتصال بهم في هذه الفترة القصيرة..

وفي غمرة السعادة التي شملتنا نسينا أنّ لنا إخوة لم ترد أسماؤهم بعد في قوائم الإفراج، ذلك أن الإفراج يأتي كما تعودنا على دفعات متتالية، ولهذا أخذنا نواسيهم ونؤكد لهم أنهم سوف يلحقون بنا في وقت قريب إن شاء الله..

في اليوم التالي جاء إلى المعتقل كبار رجال المباحث العامة (أمن الدولة حاليًا)، وتكلم كبيرهم فينا ونحن جلوس أمامه، وألقى التعليمات الضرورية، وحذر من ممارسة أي نشاط حزبي وأخبرنا بأنه يجب أن نحمد الله على أن الرئيس قد عفا عنا، وصدّق على قوائم الإفراج، وما إلى ذلك من الأمور المهمة التي يجب أن نلتزم بها.

في المساء جاء أحد الإخوة وهمس في أذني: «هناك أمر يجب أن تعرفه».

- «خيرًا..».

- «الأمر يخص الحاج منصور تاجر الذهب».

- «ماذا عنه؟».

- «أحد أطفاله سقط من الشرفة منذ شهور ومات، وأخفينا عنه الخبر، والآن نريد أن نطلعه على الأمر حتى لا يفاجأ به عند وصوله إلى أهله، وأعتقد أن الوقت مناسب الآن، لأنه سوف يخرج غدًا..».

كان الأمر مؤلمًا، والحاج منصور رجل عصبي حساس إذا ما انفعل أصيب بأزمة ربوية حادة تكاد تقضي عليه، ولهذا أعددنا العدة لذلك، وجهزنا حقنة «الأمينوفلين»، ثم ألقينا إليه بالخبر آسفين بعد مقدمات عن الصبر والرضى بقضاء الله وقدره، والأجر عند الله سبحانه، وما إن سمع الحاج منصور الخبر، حتى احمر وجهه الأشقر، وانهمرت الدموع من عينيه، واختنقت أنفاسه، فبادر أخونا الدكتور إبراهيم بحقنه بالدواء حتى هدأت أنفاسه واستكان... ترى كم واحدًا منا سيفاجأ بأحداث عندما يعود إلى بيته بعد الليالي الطويلة التي قضاها في المعتقل لا يتصل بأحد ولا يتصل به أحد؟.

وأخيرًا خلعنا ملابس السجن الكالحة، وارتدينا ملابسنا التي خلعناها عند الدخول، وركبنا السيارات المكشوفة، فانطلقت بنا في الطريق إلى جوار النيل، والأغلال الحديدية في أيدينا، وبينما نحن سائرون رأينا سيارات النجدة والشرطة تمرق إلى جوارنا، تحرس «شخصية كبيرة» سألنا ما هذا؟

قال أحد العسكر: «هذا موكب «الفريق الدجوي» رئيس المحكمة العسكرية».

فانكمشنا في أماكننا، فقد كان مجرد الاسم يوحي بالألم والقشعريرة.

كل ما أتذكره بعد ذلك أنني أخذت –ومجموعة من المعتقلين المفرج عنهم معي –إلى مكتب مباحث «شبرا الخيمة» وهو المكتب الرئيسي لمنطقتنا، وجلسنا في الانتظار، وأحيانًا نوقع على بعض الأوراق، ولم نكن نفكر في قراءة ما فيها، إننا نريد أن نتحرر..

جاء أحد الضباط وقال: «أين نجيب الكيلاني؟».

– «أفندم..».

– «يحيى بك كامل أمين رئيس مكتب مساكن أبو زعبل يطمئن عليك، ويسألك إن كنت تريد شيئًا».

– «أبلغه شكري، وأرجو أن يتصل ببيتي ويخبرهم أني قادم إن شاء الله بعد قليل، ولا بأس من أن يرسل لي سيارة المستشفى بدلًا من السفر في القطار..».

وفي أقل من ساعة وصلت السيارة البيضاء، وهي سيارة الإسعاف، عانقني السائق «أنور» في ود وحرارة ووجهه ينطلق بشرًا، وما هي إلا لحظات حتى خطوت نحو السيارة، وإذا بأحد ضباط المباحث يقترب مني ويقول: «يجب أن تنسى ما مضى..».

ابتسمت له في رقة وقلت: «وكيف أنسى يا بك؟».

وجرت بنا السيارة إلى جوار ترعة الإسماعيلية وما إن اقتربنا من الطريق الذي يتفرع جهة اليسار حتى رأيت الممرض رمضان الذي عمل معنا في المستشفى يلوح بيده، حاملًا طفلتي الصغيرة «عزة» على كتفيه، وتوقفت السيارة، والتقطت ابنتي الحبيبة، وأخذت أقبلها في حرارة وهي صامتة تمامًا لا تنطق، مأخوذة بروعة المشهد، وتتشبث بيدي، وكأنها تخاف أن ينتزعها مني أحد.. ترقرقت الدموع في عيني. «ماما بخير يا عزة.. إخوتك بخير يا حبيبتي؟».

- «آه..».

وبعد أن هدأت أنفاسي اللاهثة قلت للممرض رمضان: «كيف حال الأهل والأصدقاء جميعًا يا رمضان..».

رد قائلًا: «كلهم بخير والحمد لله.. لكن الحاج الكبير.. تعيش أنت».

هتفت في رعب: «من؟».

- «صهرك فضيلة الشيخ محمود شاهين والد زوجتك..».

- «متى؟».

- «أواخر العام الماضي».

- «ولماذا لم يخبرني أحد؟».

- «وماذا كنت ستفعل؟ أكنا نزيدك همًّا على همّ.. لقد كان من الصالحين، ليتنا مثله..».

شهقت باكيًا..

تذكرت الرجل الطيب العارف بالله، أيام أزمة الاعتقالات وهو يستقبلني بوجه شاحب، وجسد مضطرب، ولا يكف لسانه عن الدعوات والابتهالات..، تذكرت سيرته العطرة، وجهاده الطويل من أجل أداء رسالته، ورعاية أسرته، وعطفه على الآخرين، وتذكرت أيضًا أبناءه الثمانية الذين ما زالوا في حاجة إلى المزيد من الرعاية.. وسمعت الممرض رمضان يقول: «لقد أخطأت حينما أخبرتك، ما كان يجب أن أفسد عليك الفرحة.. سامحني..».

جففت دموعي، ومن عجب أنني رأيت ابنتي الصغيرة عزة تبكي هي الأخرى، فجففت لها دموعها بمنديلي وقلت: «لا تبكي يا حبيبتي لأن جدك الآن في الجنة».

- «عارفة يا بابا.. ماما قالت لي..».

وصلت إلى (الفيلا) التي أسكنها والتي لم يغيرها الزمان رأيت ولدي حسام الدين جالسًا في الشرفة يقول: «لا أستطيع الوقوف.. عندي دمل في رجلي..».

وحملته على صدري، ومشاعري لا توصف..

ووجدت نفسي وسط حشد هائل من العمال والموظفين، لقد تركوا أعمالهم في ورش السكة الحديد ليكونوا في استقبالي، بل وجدتهم وقد أقاموا الزينات الكهربائية والأعلام، والنسوة في البيوت المجاورة يزغردن، والمسجل يشدو بإحدى أغنيات الأفراح، لكأنما كنت في يوم عيد، القلوب العامرة بالحب تحيط بي من كل جانب.. فهل هناك أروع من ذلك؟ الحمد لله..

لم أجد زوجتي.. سألت عنها قيل إنها علمت في الصباح بنبأ الإفراج عنك، فذهبت إلى القاهرة ظنًّا منها أنك ستكون في وزارة الداخلية، لكننا أرسلنا مندوبًا منذ ساعة ونصف إلى القاهرة كي تعود بسرعة. الصغير جلال الدين تائه في الزحام، يسأل أخاه الأكبر قائلًا: «فين بابا الجديد؟».

ضحك إخوته، كان عمره عامين ونصفًا..

دخل يبحث عني وسط الرجال، يبدو أنه نسى شكلي، ورأيته يمضي حائرًا يتصفح الوجوه ولا يدري أيها وجه أبيه، فقمت إليه وحملته وأنا أقول: «أنا بابا يا حبيبي».

فابتسم وارتاح على صدري.

كانت أختي الصغيرة «سميرة» بالداخل، ولم يتركها أهل المدينة وحدها فقد قدموا ومعهم «الشربات» والمشروبات الغازية، والفواكه والأطعمة.. كيف يستطيع الإنسان أن يرد جميل هؤلاء الناس الطيبين.

والعاملون معي في المستشفى تركوا مواقعهم رجالًا ونساءً، الأطباء والممرضون والممرضات وفني الأشعة وفني المعمل، والطباخ والفراشون، بل وبعض المرضى، وأطبقوا عليّ عناقًا وتقبيلًا وتهاني..

بعد أقل من ساعة قدمت زوجتي وشقيقتها الأستاذة نفيسة المذيعة بإذاعة القاهرة، ونهضت لاستقبالهما، نظرت إليهما وهما تدخلان.. ومن عجب أنني لم أستطع أن أفرق بينهما، ووقعت في حيرة.. كانت زوجتي أكثر امتلاءً وبياضًا من شقيقتها، لكنني الآن أكاد لا أجد فرقًا بينهما.. ورجحت أن التي اندفعت نحوي والدموع في عينيها واحتضنتني دون تحفظ هي زوجتي، والثانية هي شقيقتها..

ولم أعد أستطيع أن ألم شتات نفسي، البيت ممتلئ بالرجال، وهم يتكلمون في وقت واحد، وأنا أرد على هذا، وابتسم لذاك، وأشارك هؤلاء في الحديث، حتى شعرت بإرهاق شديد.. ولم تكن لدي أدنى رغبة في الطعام والشراب..

كان في نيتي أن أسافر فورًا إلى قريتي «شرشابة» حيث الوالدان والأهل، لكني وجدت أنه من غير اللائق أن أترك هؤلاء الناس الطيبين في المدينة السكنية، وأنسل من تلك الاحتفالات التي أقاموها لي، ومن ثم بادرت بإرسال برقية إلى والدي أقول له فيها: «تم بحمد الله الإفراج عني اليوم، وسوف أحضر طرفكم بعد غد -الأربعاء- إن شاء الله.. تحياتي لكم جميعًا».

وفي صبيحة اليوم التالي ذهبت إلى المستشفى، واستلمت العمل رسميًا، ووقعت على دفتر الحضور والانصراف وتصادف أن جاء الصراف ليوزع الرواتب الشهرية على الموظفين، فتسلمت مرتبي، وقد كنا في حاجة إليه.

في يوم الأربعاء استأجرنا سيارة، انطلقت بنا إلى قريتنا.. ما أسرع ما تمر الأيام!

كان بيتنا القديم يقع في وسط القرية في شارع طويل لا تستطيع السيارة أن تسير فيه، وعلى باب الشارع كان يوجد خلق كثير من الرجال والنساء والأطفال، وزغاريد النساء تنطلق في سماء القرية، ثم، ها هو «الريس فريد» بمزماره الشهير، وحوله فرقته، إنه يسدد فوهة المزمار إلى أعلى، ويتمايل برأسه عجبًا، وطبوله تدق بقوة، وبقية المزامير تسانده، وتكاثر عليّ الرجال يصافحون ويقبلون ويعانقون، وتلفتُّ فلم تقع عيني على زوجتي وأولادي، ولا أعرف أين

ذهبوا، لاشك أنهم غرقوا في الزحام، وربما تسللوا إلى بيتنا، وتركوني أنعم بوقت من أسعد أوقات حياتي..

وأخيرًا، بعد جهد جهيد، وصلت إلى بيتنا.. رأيت صيوانًا كبيرًا مقامًا في الساحة أمام منزلنا، وأبي يقف رافعًا هامته، على رأسه عمامته البيضاء، كان يبتسم والدموع في عينيه، والفرحة تكسو وجهه السمح، وأمسكت يده بيديّ وأخذت أقبلها مرارًا، ثم احتضنني ولم يقل سوى «ولدي.. حمدًا لله على السلامة يا.. ولدي».

أما أمي فلم أستطع الوصول إليها، لأن بيتنا كان مليئًا بالنساء، وفيهن عدد كبير من نساء الأسر المحافظة...

وجلست في الصيوان مثل المرة السابقة، أي منذ ثماني سنوات تقريبًا.. وأخذت أستقبل أهل القرية واقفًا، مصافحًا ومعانقًا.. يمر بي طابور طويل يبدو بلا نهاية..

ولم تهدأ الحركة إلا قبيل منتصف الليل، ومن ثم دخلنا البيت، وقصدت الغرفة التي سأنام فيها.. قلت لأمي: «هل ألفت أشعارًا جديدة».

- «طول الليل أشعار ودموع وصلاة ودعاء».

أيتها الصابرة الطيبة، لطالما عانيت وثابرت، ولم تيأسي أو تكلّي.. كانت ضراعاتك تطرق أبواب الليل حتى الفجر، ولم تكفي يومًا واحدًا عن الابتهال والضراعة والاستغاثة، يا أمي الساجدة الراكعة المتذللة.. لقد استجاب الله لدعائك، وأنقذني من براثن الوحوش.. ليس مرة واحدة.. ولكن مرتين.. لقد كاد بصرك يكف من انهمار الدموع، وطول السهر، وقلة الطعام والأحزان.. لكن الله أبقاك حية صامدة، لم تقتلعك ريح الطغيان، أو يعصف بك طاغي الأحزان، كنت تنتظرين لا تملين الانتظار، وتدقين باب الرحمة بيدك الواهنة المعروقة، وأنت واثقة أنه سوف ينفتح لك في يوم من الأيام، وسيأتي إليك «طفلك» الكبير.. المتزوج.. أبو أحفادك.. ليمسح لك الدموع، ويعيد إلى قلبك الفرحة، وإلى ثغرك البسمة.. أيتها الأم العظيمة..

واجتمعت الأسرة بكاملها معي في هذه الأيام؛ أخي المرحوم أمين وزوجته وأولاده، وأختي فوزية وزوجها وأولادها، وكذلك أختي عايدة، وأخي محمد الذي تخرج وأصبح معيدًا بالكلية، وكذلك عمي عبد الفتاح وعمي أحمد وأسرتيهما، واستعدنا ذكريات الماضي

وآمال المستقبل، كان أبي يجمع أفراد الأسرة تحت معنى عظيم «صلة الرحم»، وجميع الأفراد ملتزمون بقيم الوحدة والتعاطف والتعاون، ولعل هذه المبادئ لم تزل قائمة حتى الآن، على الرغم من أن الآباء قد اختارهم الله إلى جواره منذ زمن، فأرضنا الزراعية لم تقسم، وبيوتنا شبه مشتركة، والتكافل الاجتماعي ينشر أجنحته على الجميع والحمد لله...

سألني أخي أمين قائلًا: «كم سجنًا دخلت؟».

قلت له: «سبعة.. آخرها سجن مزرعة طرة.. وأدعو الله أن يكون خاتمة المطاف..».

قال أخي: «أدعو الله ألا يعيد هذه الأيام السوداء مرة أخرى».

- «آمين يا أخي أمين..».

وضحكنا..

وكان أبي يسمعنا، دون أن يتكلم، وعلى وجهه علامات الارتياح والاطمئنان، بينما قالت أمي: «لا تنتقل قدم من مكان إلى مكان إلا بأمر الله».

وتلونت نظرات أمي بقدر غير قليل من الأسى وقالت: «أخبرتني زوجتك بأنك تفكر في السفر إلى الخارج».

قاطعها أبي قائلًا: «إنه مسافر دائمًا» وماذا في ذلك؟ إذا كان في السفر مصلحة له فلا بأس...

****

[7] القافلة تسير والدائرة تدور

استأنفت عملي في المستشفى والقسم الطبي بالمدينة السكنية بأبو زعبل كطبيب مقيم، ومعنى ذلك أنني أكون على رأس عملي بالقسم (العيادة) منذ الصباح داخل الورش، ثم أظل طوال باقي اليوم تحت الاستدعاء، وذلك لعلاج أو إسعاف الحالات الطارئة، ولم أكن متبرمًا بذلك فأنا أحب عملي والحمد لله، وبعد أن أستريح قليلًا في الظهيرة، أذهب إلى المستشفى، وأجلس في مكتبي انتظارًا لما يأتي من حالات مرضية، وهي حالات ليست كثيرة على أية حال، وكنت أنتهز هذه الفرصة فأقرأ بعض الكتب، أو أكتب قصة قصيرة أو فصلًا في رواية، وفي بعض الأحيان كنت أبقى في مسكني لأفعل نفس الشيء، أستطيع أن أقول إنني كنت أنظم عملي ووقتي بالطريقة التي تروق لي، ولم أعد أذهب كثيرًا إلى المحافل الأدبية كعهدي السابق، كما لم أعد أشارك بالكتابة في الصحف مثلما كنت أفعل قبل ذلك، ووجدت نفسي عازفًا عن القيام بذلك ربما كرد فعل لأيام المعتقل، وما شابها من مرارة وأسى..

كان شغلي الشاغل هو السفر للعمل في الخارج، وخاصة بعد أن علمت أن بعض إخواني استطاعوا أن ينجحوا في ذلك، ولهذا بقيت أحلم باليوم الذي أستطيع أن أرحل فيه عن بلدي الذي أحبه، ولقد قامت نقابة الأطباء أثناء الاعتقال بصرف مساعدات مالية للأطباء المعتقلين، إلا أنا، ذلك لأني لم أكن قد اشتركت في النقابة طوال السنوات الست السابقة، ولذلك ندمت أشد الندم، وبادرت فور خروجي من المعتقل باتخاذ الإجراءات الكفيلة بقيد اسمي في النقابة العامة للأطباء، ودفع الاشتراكات المطلوبة، واستخراج الترخيص الخاص بمزاولة المهنة، والحقيقة أنني كنت أمارس العمل قبل ذلك بصفتي طبيبًا مكلفًا، ولم يكن يطلب من الطبيب المكلف مسوغات تعيين أو ترخيص. وبطبيعة الحال فإن السفر إلى الخارج -إذا تيسر- يحتاج إلى أن يكون الطبيب مرخصًا، وكان أصدقائي يعجبون كيف أسجل عضويتي في اتحاد الأدباء، وأنسى أن أسجلها في نقابة الأطباء، وللأسف لم يكن اتحاد الأدباء أو نادي القصة يصرف أية معونات للأعضاء، ولم يزل هذا الاتحاد حتى الآن تعسًا لم

يقم بعمل أية مشاريع تخدم حملة القلم، وهو لا شك يحتاج إلى روح جديدة نشطة تبعث فيه الروح مثلما يحدث في نقابة الصحفيين أو المحاماة أو المهن الأخرى عامة.

ومع ذلك فقد كتبت في هذه الفترة رواية مواكب الأحرار، وحمامة سلام، وعددًا من القصص القصيرة، كما أعدت طبعات جديدة من بعض الروايات القديمة. وبعثت في تلك الفترة ابني حسام الدين وابنتي عزة إلى مدرسة الروضة، وكانت زوجتي قد تخرجت في منتصف عام 1966 أي قبل خروجي من المعتقل من معهد الخدمة الاجتماعية، كما تخرج أخي محمد بتفوق من كلية التربية البدنية والرياضية، وعُين معيدًا بها، وقد نال بعد ذلك الماجستير والدكتوراه في المناهج وتدرج في الوظائف الجامعية، حتى أصبح عميدًا لكلية التربية بطنطا والحمد لله، وحقق مكانة متميزة في كليته، وفي جامعة طنطا، وفي نفس الوقت اختار الله إلى جواره زوج أختي السيدة عايدة، وهي في عامها التاسع والعشرين، وترك لها من الأطفال ثلاثة: بنتين وولدًا، ومعاشًا شهريًّا ضئيلًا، وقطعة صغيرة من الأرض الزراعية.

كنت قد أشرت إلى ضعف صحة زوجتي، ولقد أدركت السبب وراء ذلك، إذ إنها أصيبت بنزيف مستمر طوال الفترة السابقة، وشخص أطباء النساء والولادة، بأن النزيف راجع إلى أسباب نفسية، وفشلت جميع الجهود العلاجية لوقفه، ولم أدخر وسعًا بعد خروجي من المعتقل في علاج حالتها لدى أفضل الأطباء المتخصصين في هذا المجال، وتكللت جهودهم والحمد لله بالنجاح، وبعد بضع شهور قليلة حملت لكن الله أراد أن يحدث لها إجهاض، ورأى الطبيب المعالج أن يجري لها جراحة صغيرة ذلك لأن تشخيصه كان «إجهاض غير كامل» مما يستدعى عملية يسمونها «كحت وتفريغ»، حدث ذلك وأنا أعد العدة للسفر، وأدخلناها مستشفى كلية الطب بجامعة عين شمس تحت رعاية أحد الأطباء الأصدقاء، وخرجت من غرفة العمليات بسلام، وأخذت تصحو من آثار التخدير (البنج) رويدًا رويدًا، وهناك في إحدى مراحل الإفاقة يحدث لدى بعض المرضى أن يبيحوا بأفكار وأسرار مكبوتة، وذهلت إذ سمعت زوجتي تصرخ بأعلى صوتها في حضور الطبيب والحكيمات وتسب جمال عبد الناصر سبًّا صريحًا متتاليًا، وحرت في أمري ماذا أفعل، ووجدتني أقترب منها وأحاول جاهدًا أن أضع يدي على فمها إذ لو تسرب هذا الأمر إلى رجال الأمن لتعطلت عن السفر، ولربما أعادوني إلى المعتقل، وسجنوها هي الأخرى، وضحكت إحدى الحكيمات وقالت: «نحن نشاركك نفس الشعور».

وابتسم الطبيب وقال: «دعها، وستفرغ ما في داخلها ثم تهدأ..».

ويبدو أنها بعد ذلك تذكرت موت أبيها، فعادت للصياح مرة أخرى وهي ما زالت تحت تأثير التخدير باكية منتحبة على أبيها، وكأنه قد مات الساعة ولم يمت منذ أكثر من عام، وأخيرًا زالت آثار التخدير، وهدأت زوجتي، وفتحت عينيها، فحمدت الله على أن مر الأمر بسلام.

وعدنا إلى مسكننا، ثم أخذت أشرح لها ما جرى منها، فلم تكن تصدق ما أقوله، وكانت تستغرب كيف يحدث ذلك منها دون أن تدري، وتأسفت إذ سببت لي حرجًا كنا في غنى عنه.

وأخبرتني أن أباها في أيامه الأخيرة طلب بإلحاح أن يراني قبل أن يلقى الله، وكنت أنا في المعتقل، فانتهزوا فرصة ما كان ينتابه من شرود ونعاس وأحضروا شقيقي محمد وأوهموه أنه أنا، فأمسك بيده مغمض العين، وتحسسها، ثم تركها في هدوء، ويبدو أنه أدرك أن في الأمر خديعة، ودمعت عيناه..

وقبيل وفاته قال لابنته (زوجتي): «لقد حصنتكم بقراءة القرآن، وباسم الله الأعظم، وبالدعوات الصادقة الواردة عن رسول الله.. ولدي يقين بأن الله سيستجيب لدعائي.. فسيروا في طريقكم مؤمنين واثقين، والله يرعاكم..».

وكانت زوجتي قد مرت ببعض الأزمات المالية مما اضطرها إلى بيع حليها الذهبية، وأمسك أبوها بيدها العاطلة من أية حلية أو مجوهرات متألمًا وقال ووجهه إلى السماء: «اللّهم ألبسها الذهب والفضة، وجد عليها برزقك الذي ما له من نفاد».

كان رجلًا صالحًا، يثق فيما بيد الله أكثر مما يثق بما في يده، ولم ييأس قط من رحمة الله وعطفه وفرجه، قالت له ابنته ذات يوم: «رأيت يا أبي فيما يرى النائم، أنني أشرب عصير المانجو الذي أحبه كثيرًا..».

قال لها مبتسمًا: «مانجو؟ الله الله.. خير إن شاء الله سوف ينجو زوجك بفضل الله من الأسر..».

لم يكن له في الدنيا مآرب سوى أن يربي أولاده الثمانية ويعلمهم، ولم يطمع قط في الحصول على مال كثير، وكان بذلك سعيدًا راضيًا، يقضي يومه بين مذاكرة العلم وإمامة الناس في المسجد، وإلقاء الدروس الدينية عليهم، ويحاول جاهدًا إحياء السنن التي انصرف عنها كثير من الناس.

وحاولت في النصف الأول عام 1967 السفر إلى الخارج، لكني لم أجد استجابة من رجال الأمن، ونصحني يحيى بك كامل أمين، رئيس مكتب المباحث في منطقتنا بالتريث بعض الوقت لأن الأمر يحتاج إلى شيء من البحث والدراسة، ولابد من وجود من يضمنني، وخاصة أن بعض من سمح لهم بالسفر، أخذوا يهاجمون الرئيس والحكومة في الصحف المعادية في الدول العربية والإسلامية، بل وفي الصحف الأوروبية والأمريكية، وهناك منهم من يشاركون في تدبير المؤامرات، ثم إن الموقف مع إسرائيل وحلفائها متأزم، ولا أحد يدري متى يحدث الانفجار الكبير في الشرق الأوسط..

كان يعمل معي بالمستشفى الجراح الدكتور رياض الشنواني وهو المدير، وهو رجل طيب ليس لديه أية اهتمامات سوى عمله، وكان معنا أيضًا الدكتور عبد الخالق والي أخصائي أطفال، وهو شقيق الدكتور جميل والي أستاذ الأطفال بالقصر العيني (مستشفى أبو الريش)، وكنا نحن الثلاثة نعمل في وئام تام، وعلاقات طيبة حميمة، وفي أحد الأيام نقل المدير إلى القاهرة، وحل محله الزميل الدكتور عصام الدين مختار للعمل كجراح في المستشفى، وكان يقيم في القاهرة، ويأتي للعمل يوميًّا، ثم يعود إلى القاهرة بعد ذلك، وعرض عليّ بعض الأصدقاء أن أنتقل إلى مسكن الدكتور الشنواني الذي خلا، وكان المسكن في فيلًا عتيقة مبنية من دورين على الطراز الإنجليزي، ويحيط بها حديقة واسعة أستطيع أن أستفيد منها في زراعة الفواكة والخضراوات، فضلًا عن أن إيجارها نصف إيجار الفيلا التي أقيم فيها، ولاقت الفكرة قبولًا لديّ ولدى زوجتي، وتم الأمر بأسرع ما يمكن، وبعدها حضر الوالدان وأختي الصغيرة سميرة ليقضوا معنا فترة من الزمن، وكنت أرتاح لوجودهم وكذلك زوجتي، والحقيقة أن وجود أبي كان يريحني تمامًا، ويجعلني أتفرغ تفرغًا تامًا لأعمالي، لأنه حكيم وذو خبرة طويلة في تنظيم أمور حياتنا، ذلك أنه كان على علاقة طيبة مع الجزار والبقال وبائع الخضراوات والفواكه والمخبز وأصحاب الحرف المختلفة، وكانوا يحبونه جدًا، ويعتبرونه

واحدًا من المقيمين في المدينة، ثم إن وجوده يوفر عليّ كثرة الأسفار إلى القرية للاطمئنان على الأسرة.

ومن الطريف أن أحد عمال الورش كان يتقن عملية الزراعة، وعرض عليّ أن يتولى شأن الزراعة في الحديقة الكبيرة، مقابل خمسين قرشًا فقط شهريًا، وبلمساته السحرية أحال الأرض حولنا إلى خضرة وزهور وخيرات توحي بالجمال والسعادة، ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل اقتنى عنزة ولدت ثلاثة، كما اهتم بتربية عدد من الدجاج والبط، حتى أصبحنا وكأننا نعيش لحد ما في القرية، وكنت أجد في ذلك متعة وسعادة..

وذات يوم دق جرس الباب، ونظرت من الشرفة فإذا بي أرى الضابط «ع.س» قلت في نفسي: «يا إلهي!! ما الذي أتى به؟ هل عاد مرة ثانية؟».

نزلت إليه، وقدته إلى غرفة الضيوف، كان معه طفل في الثالثة من عمره يشبهه تمامًا، وكان «ع.س» أزرق العينين أشقر الشعر والوجه، يبدو وسيمًا ممتلئًا، وكنت أعرفه جيدًا، وله مع الإخوان تاريخ طويل، كان ضابطًا في سجن طرة، ومشرفًا على عنبر الإخوان هناك حيث كانوا يقومون بالأشغال الشاقة (تكسير صخور الجبل) وفي وجوده وقعت أحداث سجن طرة المؤلمة في عام 1957 حيث قتل بالرصاص واحد وعشرون وجرح مثلهم، ثم نقل الأحياء بعد تعذيبهم إلى سجن القناطر، وكانوا تحت إشراف (ع. س) الذي أخذ يخطط ويدبر للإيقاع بينهم، ونجح في زرع الشقاق والخلاف بينهم، حتى انقسموا على أنفسهم، ووعد المنشقين بالعمل على الإفراج عنهم، واستطاع من خلال الضعفاء والموتورين أن يتسلل إلى أسرارهم، وحقق في ذلك نجاحًا كبيرًا، وبعد أن أدى مهمته نقل إلى عمل آخر في الشرطة بمنطقة القناة، وبعد فترة من الزمن تربو على العام أي في عام 1966 تذكروه، فنقلوه إلى معتقل أبو زعبل الجديد، ليبدأ في تنفيذ مخططاته القديمة مرة أخرى، وقدموا له مسكنًا في المدينة السكنية لعمال وموظفي السكة الحديد بأبو زعبل، وكانت الشقة التي يسكن فيها على مقربة من الفيلا التي تخصني.

لم أسأله عن سر مجيئه إليّ، فقد أخذ يبلغني تحيات إخواني وأصدقائي الذين ما زالوا قيد الاعتقال بمعتقل أبو زعبل الجديد، وفي مقدمتهم أخي الكريم محمود الجندي أخصائي الجراحة رحمه الله، وكان من الطبيعي أن يلمح إلى أن الحكومة أرادت أن تستفيد من خبراته

القيمة، ولهذا نقلته ليتولى أمر الإخوان في المعتقل، وكان بذلك فخورًا جدًّا، كنت أكره أسلوبه وتوجهاته وبروده وقسوته، لكني لم أستطع أن أفصح له عما يدور في نفسي، بل كنت ابتسم مجاملًا وأنا أقدم له الشاي، وأتذكر تلك الكلمات الصادقة «إننا نبش في وجوه قوم وقلوبنا تلعنهم»، وكان منظره رغم وسامته الواضحة يرتبط في ذهني بمنظر الثعبان..

قال: «أختي الأصغر مني مريضة، فهل لديك وقت لزيارتنا وفحصها؟».

- «بكل تأكيد..».

مررت بالمستشفى وأخذت معي الحكيمة وأدوات الفحص الضرورية، وقصدنا بيتهم، كان البيت -أعني الشقة- يتسم بالكآبة، والصمت يهيمن عليه، ليس فيه صوت مذياع أو تلفاز، ولا غمغمات أطفال، خيل إليّ أن السجن فيه حياة وحيوية أكثر منه، أديت مهمتي على وجه السرعة، خاصة أن الفتاة ليس بها سوى التهاب حاد بالحلق واللوزتين وارتفاع في درجة الحرارة، وسعال جاف، وكان الصدر سليمًا إكلينيكيًا، وكذلك القلب.

كان واضحًا أن مملكة «ع.س» الحقيقية هي السجن وليس البيت، وكانت كل أحاديثه تنصب على أعماله وذكرياته، بين السجناء والمعتقلين، في السجن يجد ذاته، إنه سعادة البك، إنه يأمر فيطاع، العساكر يؤدون له التحية، والمعتقلون والسجناء يحنون رءوسهم أمامه، يستطيع أن يقول أي شيء ولو كان بذيئًا أو ظالمًا أو كاذبًا، والجميع له مصدقون أو هكذا يتظاهرون بالتصديق، حياة الزيف تسكره وترضي غروره، واستخدام العنف والقسوة تشعره بالقدرة والقوة والانتصار.

وتمر السنوات، وينهي «ع. س» مهمته في معتقل السياسيين ويخرجون إلى عالم الحرية، ويعود هو إلى عالم الشرطة في عمله الأصلي، ويتجرد من سلطات الطوارئ التي كانت تطربه وتغريه وتسعد قلبه، ثم بدأ يشعر ببعض الأعراض المرضية المحيرة، وبتوالي الفحص الطبي والتحليلات وصور الأشعة اتضح أنه مصاب بداء خطير عضال لا يرجى شفاؤه، وصارحه الأطباء بالأمر في سفره إلى الخارج للعلاج، وأخذت الوردة النضرة الجميلة تذوي وتذيل، وحطم العجز إرادته وآماله وطموحه، وهد قواه، حتى جاءه الموت.. ترى هل كان يفكر في الموت وهو يتفجر حيوية ونشاطًا، أم أن أوهام الخلود كانت لا تدع له فرصة لذلك؟ اللّهم لا شماتة!!

عندما قرأت نعيه في الصحف، تذكرت ما فعله بأحد العلماء الأجلاء الشيخ «ح.أ» كان «ع. س» يضربه دون سبب محدد، ويسخر من شيبته ولحيته، ويقول له: «قل أنا عائشة. يقصد امرأة».

فيرد الشيخ الجليل رافضًا ذلك، ومذكرًا إياه بأنه رجل علم ودين، ولا يصح أن يصل الاحتقار لشأنه إلى هذا الحد، فيصر «ع.س» على طلبه ويواصل الضرب، ولم يجد الشيخ بدًا من أن يستغفر الله ويحوقل ويقول: «أنا عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا».

ثم يتمتم الشيخ بينه وبين نفسه قائلًا: «... إلا من أُكره وقلبه مطمئن بالإيمان» وها قد مضى على وفاة ذلك الضابط سنوات طويلة، لكن الشيخ الجليل خرج ذات يوم من السجن، وساح في أنحاء العالم الإسلامي والعربي يدعو إلى الله وإلى منهج الحق، وطبقت شهرته الآفاق، وهو حتى كتابة هذه السطور (1994) يحيا في صحة جيدة رغم أنه في العقد التاسع من عمره، وقد عانى الشيخ من مرض في ركبتيه كان يقعده عن الحركة والعمل لكنه سافر إلى ألمانيا للعلاج، وعاد بركبتين صناعيتين، وعاد يمارس حياته الطبيعية دون مشقة، ويبتسم وهو يحمد الله ويقول: «عاد الشباب إلى ركبتي».

وعندما يتذكر ما كان يفعله «ع.س» يقول: «عفر الله لنا وله.. البقاء لله وحده..».

****

في أحد الأيام كنت أجلس في العيادة الطبية داخل الورش، ودق جرس التليفون، ورفعت السماعة: «نجيب؟».

- «نعم..».

قال بصوته القوى الواثق: «ألا تعرفني يا....؟».

قلت على الفور: «لا يجرؤ على مثل هذه الألفاظ إلا واحد فقط».

- «من هو؟».

- «الأستاذ محمود شاكر».

وانطلقت ضحكاته الرنانة عبر التليفون، وكانت نبراته توحي بالسعادة القصوى، قلت: «كيف خرجت؟».

- «عندما تأتي لزيارتي ستعرف، سأنتظر في بيتي غدًا.. ولابد أن تكون معك زوجتك..».
- «والعنوان؟».
- «ألا تعرفه؟ هل هناك من يجهل شارع الأُسود بمصر الجديدة؟».

عندما ذهبنا إليه في الموعد، وجدت نخبة من أصدقائه وتلامذته، منهم الأستاذ جمعة حسين الكويتي وهو من رجال التربية والتعليم، كما وجدت صديقه الشاعر الكبير «محمود حسن إسماعيل» وهو في طليعة شعراء مصر، بل والعالم العربي في تلك الفترة، كما رأيت لأول مرة الطفل «فهر محمود شاكر» وهو في الثالثة من عمره، كما التقيت بالأستاذ الدكتور عبد السلام هارون وهو أحد أقرباء الأستاذ محمود شاكر، والحقيقة أن بيته كان أشبه بجامعة تضم عددًا من خيرة الأصدقاء والتلامذة، وكان الأستاذ محمود معجبًا بشعر الأستاذ محمود حسن إسماعيل، ويقول إنه أدخل «بحرًا» جديدًا في الشعر العربي! ويقول أيضًا إنه كان يكتب الشعر، لكنه عندما قرأ شعر محمود حسن إسماعيل توقف عن ذلك، فترك الساحة لهذا الشاعر الفحل، لأنه أجدر وأحق بها.

وحينما حانت ساعة تناول الغداء، جلس جميع الحضور دون استثناء على المائدة يأكلون، وكنت أسأل نفسي من أين يأتي هذا العالم الكبير المتفرغ بالمال الذي يكفي لهذا كله؟ ويبدو أنه كان لديه دخل لا بأس به من مصنفاته، ومن المكتبة التي يشارك فيها آنذاك وهي مكتبة دار العروبة، كما علمت أيضًا أن هناك هبات ترد إليه من بعض تلامذته وأصدقائه القادرين، المهم في الأمر أنه يعيش في سعة من الرزق، ولا يحمل للغد همًّا.

كما علمت أيضًا أن المحجوب رئيس وزراء السوداني في تلك الفترة -وهو أحد تلامذته- قد توسط له لدى رئيس الجمهورية جمال عبد الناصر، فأفرج عنه، وكان عبد الناصر يطلق عليه «الرجل أبو دقن»، ولم يكن يحبه.

وتحدثت بعد الغداء مع الأخ الكويتي الأستاذ جمعة حسين عن طبيعة عمل الأطباء في الكويت، وعن موسم التعيينات وما إلى ذلك، وأخبرته بأن أخي وصديقي الأستاذ محيى الدين عطية قد أرسل إليّ برقية يقول فيها «إحضر للتعاقد مع وزارة الصحة بالكويت» وشرحت له صعوبة الخروج من مصر في تلك الفترة بسبب الإجراءات المتعنتة، ووجود اسمي في قائمة الممنوعين من السفر (القائمة السوداء كما كانوا يسمونها)..

وهكذا قضينا يومًا ممتعًا في ضيافة هذا العالم الكبير، وكانت زوجته السيدة المتواضعة الكريمة تبذل أقصى جهودها لتحقق لزوجها ولزواره أقصى درجات الراحة..

وكان شهر مايو عام 1967 شهرًا عاصفًا مليئًا بالأحداث الخطيرة، وكان جمال عبد الناصر في عنفوانه وشعبيته على المستوى المحلي والإقليمي، لقد حشد الكثير من السلاح والرجال وأخذ يهدد ويتوعد إسرائيل بالويل والثبور وعظائم الأمور، وطرد القوات الدولية عند الممرات في سيناء، وحشد قواته هناك، فاهتز المجتمع الدولي بأسره لما طرأ من أحداث في الشرق الأوسط، كما أصبحت المنطقة كلها على شفا الهاوية، وتوترت الأوضاع أيضًا على الحدود بين سوريا وإسرائيل، وكذلك حدود الأردن مع العدو.

كان الشعور السائد بأننا قادرون على سحق إسرائيل وتحرير فلسطين، وهو شعور الغالبية العظمى الذي يتجلى في خطابات جمال عبد الناصر الملتهبة، وفي حماسة الجماهير التي تشتعل تشوقًا إلى المعركة، وفي عناوين الصحف الكبرى في مصر وعلى رأسها جريدة «الأهرام»، وكان الأستاذ محمد حسنين هيكل رئيس تحريرها يدبج المقالات، ويطلق الشعارات، ويبرز صور قواتنا المسلحة في صدر صحيفته، فمثلًا يضع لقطة لطائرات الميج، ويكتب بالمانشيت العريض فوقها:

«طائراتنا تحمي سماء الشرق الأوسط».

ولقد علمت أن الحماسة انتقلت أيضًا إلى بقية الإخوان المعتقلين الذين لم يفرج عنهم بعد، وأبدوا رسميًّا استعدادهم للتطوع إلى جانب القوات المسلحة لمحاربة إسرائيل باعتبار ذلك جهادًا في سبيل الله، وكان ذلك شعور الكثيرين منهم، وإن كانوا على يقين بأن الحكومة لن تستجيب لرغبتهم..

لم نكن نعلم أننا نعيش في وهم كبير، صنعته الأقلام والألسنة المخدوعة المغرورة، وعقد عبد الناصر مؤتمرًا صحفيًّا عالميًّا كبيرًا أظهر فيه إيمانه المطلق بالنصر، وثقته الكاملة في قواته المسلحة، وهاجم أمريكا وبريطانيا وغيرهما من الدول التي تدعم إسرائيل، كما أشار إلى أنه لم يزل صغير السن لحد ما، وأنه باق لليهود وأذنابهم المستعمرين لفترة طويلة قادمة، وأنه لهم بالمرصاد، وقال عبارته التي حيرت المترجمين «أنا مش «خرع» زي مستر إيدن» الذي فشل في اشتراكه بالعدوان الثلاثي على مصر عام.. 1956.

الحقيقة أن الشعب المصري والشعب العربي أيضًا كان على ثقة تامة بالنصر، ولم يدر بخلدهم أن تحدث هزيمة لقواتنا التي أنفقنا عليها «دم قلوبنا» كما يقول المثل الشعبي.

ولا يفوتني في هذا المقام أن أشير مرة أخرى إلى أن جمال عبد الناصر قد أصبح -كما يقولون- معبود الجماهير - لدرجة مذهلة، حتى لينطبق عليه قول الشاعر القديم الفاسد الفاسق والعياذ بالله:

مـا شـئت لا مـا شـاءت الأقـدارُ فـاحكم فأنـت الواحـد القهـارُ

وأستغفر الله لذنبي ولذنوب المؤمنين أجمعين، لكنها الحقيقة المرة التي يجب أن تسجل، والتي يجب أن يعرفها الجميع، ولم لا يصيبه الزهو والغرور وهو الذي يستطيع أن يفعل أي شيء دون أن يعترضه أحد، أو يفكر في مجرد مناقشته، لكن الناس ينسون دائمًا.

لو فكر أحد في العودة إلى صحف القاهرة في تلك الفترة وأخذ يتجول بين صفحاتها ويتمعن فيها كتب بأقلام الكتاب والشعراء والفنانين. ولو استمع أحد لما حفظه أرشيف الإذاعة والتليفزيون من أغاني وتمثيليات وشعارات، لو فعل أحد ذلك الآن لهاله ما رأى وما سمع، وسيجد الباحث عن الحقيقة في تلك السجلات القديمة العجب العجاب.. نعم سيجد أقلامًا تسبح بمجد عبد الناصر وعدالته وبطولته وقيادته الملهمة.. فإذا توالت السنون.. سيجد نفس الكتاب يكيلون الذم والنقد والتجريح للزعيم الملهم، ناصر الملايين، وحبيب الفقراء والمساكين والمستضعفين، وقاهر الرجعيين، ومؤدب الخونة والمتاجرين بالدين.. ومن بين هؤلاء الكتاب الناكصين وزراء وحكماء وفلاسفة وأعضاء سابقون في مجلس قيادة الثورة، وشعراء وصحافيون، وعلماء مؤمنون، وفلاسفة اشتراكيون، كان يمكن أن نسمى تلك الأيام «عصر الفتنة»، لكن كيف والفتنة قائمة منذ أن أيقظها الجاهليون، وأخذت تطل على الحقب المتتالية من زمن بعيد..

ولا أريد أن أخوض في تفاصيل هزيمتنا المنكرة في شهر يونيو (حزيران) عام 1967، فقد صدرت عنها آلاف الكتب والمنشورات والدراسات.

في يوم بدء المعركة قال ضابط صغير بالأمن «ف» بصوت أجش ممتلىء بالثقة والغرور: «أعتقد أننا سندخل «تل أبيب» في أربع وعشرين ساعة».

وكان يحيى بك يجلس في مكتبه وأنا معهما، قلت هامسًا في تردد. «يا «ف» بك.. نحن لا نحارب ماعزًا ولا خرافًا، ولكننا نحارب جيشًا قويًا ذا عقيدة، ومن الطبيعي أن المعركة لابد وأن تكون قاسية...».

وصمت برهة لكنني استدركت قائلًا: «سننتصر بإذن الله..».

كان لابد أن أستدرك بهذه العبارة، فربما ظنوا كلامي عن قوة العدو مثبطًا للهمم، ومفرقًا للصفوف، ولابد أن يحذر الإنسان في هذه الأيام حتى ولو كان بين أسرته وأصدقائه، فما بالك بي وأنا أجلس مع رجال الأمن الرسميين الذي اعتقلوني منذ زمن ليس بالبعيد..

عدت إلى منزلي قبل بدء المعركة، وأشرت على زوجتي أن تأخذ الأطفال وتسافر معهم لتقيم في قريتنا «شرشابة» نظرًا لأن المنطقة التي أعمل بها من المناطق الخطرة المعرضة لغارات الطائرات الإسرائيلية حيث يوجد بها عدد من المصانع والصناعات المهمة كمؤسسة الطاقة الذرية وبعض الأسلحة، ومحطة إرسال الإذاعة، ولكن زوجتي فضلت أن نعيش معًا، ويجري علينا ما يجري على بقية خلق الله.

في الخامس من يونيو 1967 كنت أمارس عملي بالمستشفى وسمعت أصواتًا هائلة لطائرات حربية تطير على مستوى منخفض وتحدث ضجة لم أسمع مثلها من قبل، وتوقفنا عن العمل لأنه أمر غير عادي.. وأصابنا الذهول ها هي الحرب قد بدأت، وأخذ الناس يتابعون المذياع والبيانات العسكرية المتتالية، وخاصة عدد طائرات العدو التي أسقطتها قواتنا، وظننا أننا بدأنا خطوات النصر الأولى، ساعات قلقة رهيبة.. إنه مصير شعب بأسره.. مصير أكبر دولة عربية.. ثم استمعنا إلى الإذاعات الأجنبية.. الأخبار متناقضة.. بدأ الشك يغزو النفوس..

عدت فورًا إلى البيت، وجدت أطفالي يجلسون تحت منضدة الطعام لعلها تحميهم، قلت لطفلي الأول حسام الدين: «اخرج يا بطل.. ألم تقل بالأمس: كيف تقوم الحرب وأنا صغير؟ يجب أن أكبر وأصبح ضابطًا حتى أحارب اليهود».. وضحكت وأنا أقول: «هأنت تهرب تحت المنضدة».

فخرج ، ثم وقف إلى جواري، وهو يرسل الأسئلة المتتالية عن الحرب، ومن المنتصر، وإلى متى ستستمر هذه الحرب، لم يكن لدي الوقت لأجيب ، ولكني أمرت زوجتي بالاستعداد

للسفر إلى القرية على الفور، فقد أعددت لهم حافلة تنقلهم إلى القاهرة، ثم ينتقلون إلى القطار المسافر إلى طنطا، ومن طنطا يكون من السهل السفر إلى البيت أي في شرشابة وتم الأمر على النحو الذي أردته في وقت قصير، وبقيت أنا في المستشفي عازمًا على أن أقضي فيها أيام الطوارئ حتى يقضي الله أمرًا كان مفعولًا.. أيام ثلاثة مضت، تأكد لنا بعدها أن الكارثة قد وقعت، وأن الهزيمة الماحقة قد حلت بنا، إن معظم طائراتنا قد ضربت وهي جاثمة على الأرض، وأن قوات جيشنا البائسة تتراجع في فوضى، وعشرات الألوف منهم قتلوا أو جرحوا أو أسروا، واستولى العدو على كميات ضخمة من أسلحتنا الحديثة، وأصبحت فضيحتنا على كل لسان في أنحاء العالم، ولحق بنا عار أبدي ليس له مثيل في تاريخنا القديم والحديث، سمعنا أن مدافعنا المضادة للطائرات قد أسقطت طائرة إسرائيلية ففرحنا وجرينا إلى هناك، والتقطت قطعة من الطائرة المحترقة، وعدت بها فخورًا آملًا أن أحفظها للذكرى، لكن يحيى بك أمين ابتسم في مرارة وقال: «إنها ليست طائرة إسرائيلية بل طائراتنا نحن».

أصابنا الهم والكمد، حزن لم نر مثله طول حياتنا، وتذكرت التصريحات الرسمية منذ أيام عن قواتنا التي لا تُقهر، وطائراتنا التي تحمي سماء الشرق الأوسط، وأسلحتنا الروسية الحديثة التي ستحقق النصر الأكبر، ثم جاء اليوم الذي أعلن فيه جمال عبد الناصر تنحيه عن السلطة، وهاجت الدنيا وماجت، وشعر الناس باليأس والضياع، ومن يستطع في هذا الوقت العصيب أن يتحمل تلك المسئولية الكبرى لشعب تحطمت آماله، وذاق مرارة الخيبة التي أوقعه فيها قادته، شعب لم يشارك في اتخاذ قرار، أو يعرف شيئًا عن حقائق الأمور، وليست لديه الصورة الصحيحة عما كان يجري، شعب وثق في قائده البطل عندما قال بملء صوته في خطاب رسمي «سيبونا نشتغل»، شعب جاع ليشتري السلاح، ويحارب في اليمن معركة خاسرة لا ناقة له فيها ولا جمل، شعب محاصر لا يستطيع أن يعترض أو يناقش أو يعبر عن رأيه بصدق وحرية، وهكذا حدث ما لم يكن يتوقعه أغلب الناس في مصر والعالم العربي، وأخيرًا خرجت منظمات الشباب وعلى رأسها زعيمها حسين كامل بهاء الدين تهتف وتطالب بعودة الرئيس إلى موقعه، وخرج خلق كثير يطلبون نفس الشيء، ورفض زكريا محيي الدين أن يبقى في مكان عبد الناصر القيادي، وسادت الفوضى الشارع المصري، وتناثرت الاتهامات، وقبض على قيادات الجيش، وعزل المشير عبد الحكيم عامر قائد الجيش، وصديق

عبد الناصر الحميم، بعد أن أعلن عبد الناصر موافقته على الاستمرار في عمله كرئيس للجمهورية وقائد للثورة.

ووصلت قوات إسرائيل إلى الضفة الشرقية لقناة السويس بعد أن احتلت سيناء بالكامل، أفراح في إسرائيل واحة الديموقراطية في الشرق الأوسط، وأحزان في مصر ضحية الدكتاتورية والحكم المطلق، وضحية المخابرات ورجال أمن الدولة القساة غلاظ الأكباد، وها نحن ندفع الثمن الغالي من كرامتنا ودماء أبنائنا وإخوتنا وسمعتنا، وأخذ الشعراء والكتاب يغوصون في متاهات الضياع والحرمان واليأس الأسود، ويكتب نزار قباني عن «السلطان» وكلاب السلطان التي مزقت حذاءه، وأخذت تعد حركاته وسكناته، كما أخذ خطباء المنابر يحثون الناس على العودة إلى الله، والإكثار من الاستغفار والتوبة، واللجوء إلى ساحة الإيمان حتى يخلصنا الله مما نحن فيه من كرب، ويأخذ بيدنا لننهض من جديد، وندفع عن بلادنا وبلاد المسلمين الأذى والعدوان..

كنت أعيش بصفة دائمة في تلك الفترة داخل المستشفى أنا ورفاق العمل من أطباء وممرضين وممرضات وفنيين وعمال، وكان معنا رجل يعمل كفني أشعة، يقال إنه حشاش، وهو سعيد جدًا لأن المستشفى يجهز لنا وجبات الغذاء الشهي، فكان «ع.م» هذا يذهب إلى غسل يديه بعد الأكل ويقول: «يا رب احفظ لنا هذه النعمة، وأدم علينا أيام الطوارئ».

ونضحك بمرارة، فنراه يستطرد قائلًا: «ألم يقل ربنا في كتابه ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۝٤٧﴾ [الروم:47]»؟

- «بلى يا عم «ع.م»».

- «خلاص.. انتهى.. وقد نصر الله المؤمنين». كان كلامه ذا معنى لا يخفى على السامعين، لكنه كان مؤلمًا. وكنت أقول له: «المعركة لم تنته بعد».

- «يا ترى من يعيش..»».

وفي المستشفى كان يفد إلينا أعداد من الجنود بأقدام متورمة، ووجوه شاحبة كالحة، وملابس متسخة، لأنهم ساروا على أقدامهم مسافات طويلة دون طعام وهم يتراجعون فرارًا بجلودهم، وأخذوا يتحدثون عن المآسي التي رأوها، وعن الجنود الذين دفع بهم إلى ميدان

القتال دون أن يتدربوا على استعمال سلاحهم، فقد استدعوا -كاحتياط- على عجل، وسط فوضى ضارية، وحشود مبعثرة، لا تعرف لها خطة، ولا تدري ماذا تفعل.

وقامت مظاهرات في أوروبا وأمريكا تؤيد إسرائيل، وقاد الفيلسوف والأديب الوجودي جان بول سارتر مظاهرة في باريس لتأييد إسرائيل وقال: «إنني معجب بتلك الدولة العظيمة (إسرائيل) التي استطاعت أن تفلت من الفناء ببراعة، وتحقق نصرًا أسطوريًّا».

وملأ «موشيه ديان» وزير الحرب الإسرائيلي الصحف العالمية بتصريحاته عن عبقرية إسرائيل، وعظمة جيشها الذي لا يقهر، وانهيار مصر والعرب تحت وقع ضرباته العاصفة، كما كتبت ابنته مذكرات عن الحرب..

وكان لابد أن يكون هناك «كبش فداء» يقدم لتبرير الهزيمة المحزنة، والتي أطلقوا عليها اسم «النكسة»، وهكذا بدأ الإعداد لمحاكمة قادة الأسلحة في الجيش، ومدير المخابرات صلاح نصر، وحمزة البسيوني قائد السجن الحربي، وغيرهم من الأسماء اللامعة الكبيرة، وتوالت الأحداث، وأعلنت الحكومة عن مؤامرة لقلب نظام الحكم في صفوف القيادات الحاكمة أنفسهم، ثم أعلن عن انتحار المشير عبد الحكيم عامر الرجل الثاني بعد عبد الناصر، وقيل إنه قتل، واختفت وجوه، وبقيت وجوه، وطفت على السطح وجوه جديدة، وأعلن عبد عبد الناصر عن كثير من الأخطاء التي وقعت فيها السلطة، ووعد بإصلاح الأمور، والقضاء على المظالم والسلبيات والمهازل، استعدادًا لمعركة جديدة لابد منها في المستقبل..

ويبدو أن جمال عبد الناصر قد تذكر التعساء القابعين خلف الأسوار كمعتقلين منذ ما يقرب من عامين، فأمر بالإفراج عن بعضهم، أما البعض الآخر فقد بقي ما يقرب من خمس سنوات، ولم يطلق سراحهم إلا في عهد الرئيس الراحل أنوار السادات.

****

لم أشعر بأدنى قدر من الشماتة في حكامنا الذين أذاقونا الأمرين، بل كان بداخلي إحساس عميق بالحزن والألم، إن جيلنا -جيل النكسة أو الهزيمة النكراء- تعس الحظ، قد رأى وسمع ما لم يحدث لأحد قبله، لكنه جيل معذور لم تتح له فرصة المشاركة بالرأي الحر، والتفكير في صنع القرارات المصرية للبلاد، كما أصيب الشباب المؤمنون بعبد الناصر في العالم العربي بصدمة نفسية وفكرية شديدة، أخبرني صديقي الدكتوز علي محمد موسى وهو من سلطنة

عمان ويعمل حاليًا وزيرًا للصحة في السلطنة، قال: «لقد فجعت بعد الهزيمة في 1967، وقررت ألا أقرأ أية صحيفة أو مجلة عربية، وأنا الآن لا أقرأ سوى الصحف الأجنبية، ذلك لأني فقدت الثقة في أخبار وتعليقات وتحقيقات كل الصحف والمجلات..».

بل قال صديقنا الدكتور علي أيضًا (وكان ذلك في السبعينيات، من القرن العشرين، أي قبل توليه وزارة الصحة): «لقد تركت العمل السياسي العربي، بعد أن كنت متحمسًا له لدرجة كبيرة، منذ أن كنت أدرس في القاهرة، لكن الهزيمة قد بعثت اليأس في قلوبنا».

ومن عجب أن الناس رغم كل ما حدث بدءوا يعزفون على أوتار الأمل، ويحلمون بمعركة جديدة، ونصر أكيد، واثقين أن الله لن يتخلى عنهم، وإن تخلى عنهم الحكام وأعوانهم من الطغاة والمستغلين، ومن الطريف أنه أثناء محاكمة النخبة الحاكمة السابقة، قال حمزة البسيوني قائد السجن الحربي، ورائد التعذيب في عصرنا: «أخبرني (س) أن ما أصابنا من هزيمة كان بسبب تعذيب الإخوان المسلمين وظلمهم، وأنت يا حمزة فعلت الكثير والكثير في إيذائهم..».

وأصبح «حمزة البسيوني» خارج السلطة بلا عمل ولا زوجة ولا أبناء، وكانت نهايته في حادث سيارة بشع في الطريق العام بالقرب من مدينة «قويسنا» على طريق مصر إسكندرية، وقتل معه عدد من أقربائه، وعندما شاع الخبر، خرج الناس في قويسنا والبلاد المجاورة ليروا «مصرع الجلاد» بأعينهم، ويأخذوا منه العبرة، ولم يبق من حمزة البسيوني سوى صفحة سوداء ملعونة في سجل الثورة المصرية، وكنت قد نذرت لله نذرًا أن أثأر من هذا الطاغية حيًا وميتًا بطريقتي الخاصة التي تناسبني، فكان أن كتبت رواية «رحلة إلى الله» عن ذلك الإنسان الشاذ، وإن كنت قد غيرت اسمه وجعلته «عطوة الملواني» تجنبًا لمشاكل التقاضي وطلب التعويضات. هذا وقد كان لصديقنا وأخينا العالم والأديب الدكتور «يوسف القرضاوي» ملحمة من الشعر الجميل، تناول فيها حمزة البسيوني، وليالي التعذيب المهولة الطويلة في السجن الحربي يقول فيها:

في ليلـــة لـــيلاء مـــن نـــوفمبر ... فزّعــت مــن نــومي بــصوت رنــين

وإذا كــلاب الــصيد تهجــم فجــأةً ... وتحــوطني عــن شــمالٍ ويمــينِ

إلى أن يقول:

متبلـــدون عقـــولهم بـــأكفهم وأكفهـــم للـــشر ذات حنـــين

وهي قصيدة فريدة في نوعها، شاع ذكرها في كل مكان بالعالم العربي والإسلامي، وطبعت أكثر من مرة، وكان السجناء والمعتقلون ينشدونها طوال الأربعين سنة الماضية، بالإضافة إلى كثير من القصائد التي صاغها إخوة آخرون، لكنها لم تشتهر كما اشتهرت قصيدة القرضاوي، والواقع أن هذا التراث الشعري الذي يتحدث عن المحنة الكبرى جدير بأن يُجمع، ويُتناول بالدراسة..

عادت زوجتي وأبنائي من القرية بعد أن انتهت المعركة، واستأنفنا حياتنا من جديد، لكني لاحظت أن قبضة السلطة على السياسيين أخذت في التراخي قليلًا، ومن ثم فكرت في استئناف الجهود لكي يُسمح لي بالسفر إلى الخارج، وخاصة أني أعتقد أن السنوات القادمة ستكون مليئة بالاحتمالات الأسوأ، ولا يضمن أحد تقلبات المناخ السياسي فهو عرضة دائمًا لمختلف التأثيرات الخارجية والداخلية، فما إن وصلتني برقية أخي الأستاذ محيي الدين عطية الذي أمكنه السفر إلى الكويت، حتى بادرت بتقديم طلب رسمي لوزارة الداخلية، مرفقًا به صورة من التلغراف (البرقية) طالبًا فيه السماح لي بالسفر للعمل في الكويت، كما تقدمت بطلب آخر إلى رئاستي في الإدارة الطبية بهيئة السكك الحديدية بالقاهرة، أطلب فيه الموافقة على إعارتي إلى حكومة الكويت، أو إعطائي إجازة بدون راتب، واستمر السعي المتواصل بضعة شهور، وفي كل فترة أجد وعودًا بالموافقة القريبة، لكن الوعود لم تتحول إلى حقائق، ولم يكن أمامي سوى أن أتجمل بالصبر، وأستمر في المحاولات، وخاصة بعد أن علمت أن عددًا من إخواني قد نجحوا في مساعيهم، وسافروا بالفعل، منهم أخي محيي الدين عطية، وفكرت في أمر مهم، وهو كيف أدبر ثمن تذاكر السفر لي ولزوجتي وأطفالي؟ وأخيرًا اهتديت إلى حل وهو أن أبيع أثاث بيتي، لأني لابد، أن أخلي المسكن الحكومي الذي أعيش فيه تلك الفترة، وليس هناك مكان آخر أنقل إليه ذلك الأثاث، فضلًا عن أنني لن آخذه معي إذا سافرت، وكان الأثاث به بعض الأدوات الكهربائية كالثلاجة والغسالة والتليفزيون وغيره، وسوف أستطيع أن أجني مبلغًا لا بأس به من المال إذا أنا بعتها، وهكذا استطعت العثور على حل لا بأس به كي أحصل على تذاكر السفر بالطائرة.

وقامت بعض المظاهرات في الجامعات احتجاجًا على الأحكام الهزيلة التي صدرت ضد قيادات الجيش، والتصرفات الخاطئة لحزب الحكومة، ومظاهر الاستغلال والفساد هنا وهناك، واستطاعت الحكومة أن تمتص غضب الجماهير باتخاذ بعض الإجراءات العلنية، وكان منها إعادة محاكمة قيادات الجيش مرة أخرى، وصدور أحكام أخرى قاسية عليهم، لكنها كانت دون الإعدام، ولا شك أن الحديث كان يدور همسًا حول مأساة المشير عبد الحكيم عامر الذي انتحر منذ فترة، وكانت هناك شائعات قوية تؤكد أنه قتل ولم ينتحر، وأن تقرير الطب الشرعى عن موته إنما هو ملفق، وفي الوقت نفسه سقطت هيبة كثير من رجال السلطة الذين لم يكن أحد بمستطيع أن يتناولهم قبل ذلك بالنقد، وكتب الأستاذ د. عبد العزيز كامل، وهو من قيادات الإخوان البارزة، دراسة حول «دروس من غزوة أحد»، ونشر الكتاب في دار المعارض ضمن سلسلة «اقرأ» وأعجب به الرئيس جمال عبد الناصر، وبعد فترة عين الدكتور عبد العزيز كامل وزيرًا للأوقاف، وكان الأمر مثار جدل أيضًا في صفوف جماعة الإخوان المسلمين المنحلة، وفي الوقت نفسه صعد نجم الأستاذ الدكتور أحمد كمال أبو المجد وهو من الإخوان أيضًا، وظل نجمه يصعد حتى عين فيما بعد وزيرًا للشباب، ثم تولى بعد ذلك وزارة الإعلام وبعدها اختلف مع الرئيس السادات بعد موت عبد الناصر، فقدم استقالته.

ويلاحظ أن هناك ما يقرب من خمسين مسجونًا من الإخوان بقوا رهن السجن منذ عام 1954 وعام 1955، لأنهم أصروا على موقفهم المعادي للحكومة، وبالإضافة إلى بعض المعتقلين الذين اتخذوا نفس الموقف، وظل هؤلاء وأولائك سجناء حتى جاء عهد الرئيس أنور السادات الذي أفرج عنهم جميعًا، وكان من بين المسجونين الذين طال سجنهم الأستاذ عمر التلمساني ثالث مرشد للإخوان بعد ذلك، والأستاذ محمد حامد أبو النصر المرشد الرابع للإخوان، والأستاذ مصطفى مشهور وكيل الإخوان حاليًا، وكذلك صديقي ورئيس مجموعتي السابق الأستاذ عبد المنعم سليم وغيرهم.

وبدأت مرة أخرى محاولات مستميتة كي أستطيع السفر إلى الكويت، وتلقيت وعدًا شفويًا بالموافقة من وزارة الداخلية، وذهبت إلى مبنى المجمع بميدان التحرير بالقاهرة لكي أعرف هل وصلت تأشيرة الخروج أم لا، لكنني علمت أنها لم تصل، فعدت مرة أخرى إلى الداخلية التي قالت إنها بعثت بها، لكني في الأيام التالية ترددت على مبنى المجمع، فلم

أجدها واستمر هذا الوضع شهرين حتى كدت أيأس.. وكان هناك مكان للانتظار في إدارة الجوازات، طالت جلساتي فيه، وفي يوم من الأيام سألت بعض الجالسين، فاكتشفت أنهم جميعًا مثلي من السياسيين، وينتظرون على أحر من الجمر تأشيرة الخروج، وأخيرًا وبعد شهرين من بداية عام 1968 نجح مسعاي بعون الله، وحصلت على تأشيرة الخروج، وأخذت أعد العدة للسفر، فبعت بعض الأثاث في البيت، واشتريت تذكرة طائرة ذهابًا وإيابًا حسب القانون على شركة مصر للطيران، وقبل أن أسافر ذهبت إلى قريتي شرشابة لكي أودع أهلي، إذ من المحتمل ألا أعود إلى مصر مرة أخرى في عهد الرئيس جمال عبد الناصر.

كنا قد بعنا بيتنا القديم في وسط القرية، واشترى أبي فدانًا من الأراضي الزراعية في أطراف القرية تصلح أرضًا للبناء، وبدأنا فعلًا في إقامة بيت جديد من الطوب الأحمر، كما بدأنا إدخال الماء وبعده الكهرباء، ونظرًا لأن البيت لم يكن قد اكتمل بناؤه والمشتري يريد أن يتسلم بيتنا الذي بعناه، فقد انتقلنا بصفة مؤقتة إلى بيت أحد أبناء العمومة، فأكرم ضيافتنا وهو الأخ إبراهيم بن محمد بن أحمد عبد اللطيف، ويعمل بالشرطة.

حانت لحظة الوداع، وكانت أمي تبكي بحرارة وتتشبث بي. وأبي يهدئ من انفعالها ويقول لها إن هذه ليست المرة الأولى التي أغترب فيها، وأن حياتي كلها غربة، ومع ذلك فقد كانت عيناه هو الآخر مبللتين بالدموع، وأمي تقول له إن هذه هي المرة الثانية التي يذهب فيها إلى بلاد أخرى خارج القطر المصري، وكانت الأولى رحلة لمدة شهر، أما هذه فقد تطول الغيبة إلى سنين، ولا تكف عن القول: «منه لله اللى كان منه السبب».

وهي تقصد بذلك الحكومة التي تطاردنا وتضيق علينا الخناق، وتجرنا إلى السجون والمعتقلات من آن لآخر، لكني أهدئ من روعها، وأؤكد لها أننا ذاهبون إلى بلاد جميلة مليئة بالخيرات والأمان والرزق الواسع، وليس فيها سجون لنا أو معتقلات، فكانت تقول إن الوطن غال وعزيز وتردد الحكمة الشعبية التي تقول: «عزّك تَلّك..».

فأضحك وأقول لها: «سيكون لنا تل جديد هناك نعز فيه».

احتضنتني بقوة وهي تقول: «الله معك..».

ثم أردفت بدعائها المأثور الذي كانت تقوله جدتي دائمًا: «يجعل في وشك جوهرة، وفي حكنك سكرة، ويحبب فيك خلقه.. ويردك لنا سالمًا».

وأبي يقف صامتًا محتقن العينين.

وقبلت يد أمي.

ثم قبلت يد أبي.

وانتزعت نفسي انتزاعًا، وهرولت خارجًا، وبعد أن ركبت السيارة تنفست الصعداء.

كان الوداع مهمة شاقة..

ولم أكن أعرف متى سأعود.

ويتردد في أرجاء نفسي تلك الأشعار التي كتبتها ذات يوم:

قد طال ترحالي فهل لمسافر يومًا مآبْ؟

أترى أعود لقريتي وتعود أحلام الشبابْ؟

وأرى أبي والحاملين فؤوسهم عبر الشعابْ؟

العائدين من الحقول يلفهم ليل السرابْ؟

الكادحين

هم يا حبيبة أهلنا، في ظلهم ذقنا الحياة

حيث الأوز جوارنا يخطو وتصطرع الشياه

كل يخط على الثرى حقلًا بأوسطه قناه

يمضي على سنن الجدود مقلدًا فيها أباه

يا للحنين

هم يا حبيبة صانعو التاريخ آمال الغدِ

قنعوا بما دون القليل قناعة لم توجد

أعطوا، وما أخذوا سوى ذاك القديد الأسود

الله يعلم أنهم سر الكفاح السرمدي

الصابرون

وكنت أتطلع عبر نافذة السيارة إلى البيوت في القرية، وإلى وجوه الفلاحين السمراء، والصبايا يحملن الجرار على رءوسهن، وأشجار السرو والتوت والجميز، وكأني ألقي تحية الوداع لكل ما تقع عليه عيني.

في الواحد والثلاثين من شهر مارس عام 1968، أي في اليوم التالي لبيان 30 من مارس الشهر الذي أعلنه عبد الناصر، كخطة جديدة للعمل السياسي وتحرير الأرض، أقول في اليوم الأخير من هذا الشهر، توجهت أنا وأخي الأستاذ محمد علي حسن إلى مطار القاهرة الدولي متجهين إلى مدينة الكويت التي بدت في خيالي وكأنها حلم جميل..

صادفتنا بعض المشاكل في إجراءات السفر بالمطار، ويبدو أن رجال الأمن قد أرادوا أن يشعرونا بأننا مسافرون وهم على علم بسفرنا، وأنهم هم الذين يسروا لنا هذا السفر، عندما حلقت بنا الطائرة في الجو قال صديقي وأخي محمد علي حسن ووجهه يشرق بالسعادة القصوى: «لقد نجونا».

قلت له: «إن القاهرة لم تغادر الحدود المصرية بعد».

قال: «لكأنني في حلم، لا أكاد أصدق، هل استطعنا فعلًا الخروج من مصر، بعد أن منعنا من ذلك سنوات طويلة؟؟».

تنهدت، وأغمضت عيني لأجول بخيالي في دنيا الماضي المزدحم بالذكريات، الغاص بالآلام، وأتذكر محطات حياتي الحافلة والحاسمة، ثم تذكرت زوجتي.. آه أيتها المسكينة كم تعانين معي شقاء السنين العاصفة.. قالت لي وأنا أودعها هي والأطفال: «عندما تصل سالمًا بإذن الله فلا تنسنى أو تنس أولادك، نحن لا نستطيع العيش هنا بدونك.. أرجو ألا يطول انتظاري، وبعد أن تحصل على عمل أسرع بإرسال فيزة الدخول لنا حتى نلحق بك.. هذا أول شيء تفكر فيه.. سأعيش معك هناك على الحلوة والمرة، ولن أضيق بالحياة هناك أبدًا مهما كانت صعبة.. أنا على استعداد لأن أعيش في كوخ على شاطئ الخليج العربي وآكل خبزًا وملحًا.. المهم أن نكون معًا..أنا واثقة أن الحياة ستحلو لنا.. وسنكون أكثر سعادة وآمنًا، وسنجد الاستقرار الذي طالما حلمنا به..».

ودمعت عيناها وهي تقول: «لا أقول وداعًا.. ولكن إلى اللقاء.. لا إله إلا الله».

قلت لها: «محمد رسول الله».

قبلت الأطفال الثلاثة، وقلبي ينوح بصوت مكتوم..

إن صورة الأحباب تتجلى في مخيلتي أبي.. أمي.. زوجتي.. أطفالي.. إخوتي وأخواتي.. أعمامي وأقاربي.. زملاء العمل.. حتى الأماكن التي ألفتها.. ورأسي يثقل وأكاد أنام وأنا أتملى تلك المشاهد والصور.. وأنظر عبر نافذة الطائرة، فأرى السماء الزرقاء الصافية توحي بالسلام والأمان..

وتقدمت إلينا المضيفة الجميلة، تقول وهي باسمة: «ماذا تطلب من الشراب..».

قلت وأنا أتذكر الرؤيا التي رأتها زوجتي في منامها ذات مساء: «عصير مانجو».

وغدًا يوم جديد، وفجر جديد.

والأيام تمضي... والقافلة تسير

1414هـ

1944م

الدكتور نجيب الكيلاني

❊❊❊



الفهرس

الجزء الثالث

الجزء الرابع

الجزء الخامس

***